تفسير السمرقندي

المسمّى

(بحر العلوم)

تأليف

نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي

من علماء القرن الرابع الهجري

تحقيق

الدكتور محمود مطرجي

الجزء الثاني

نسخة جديدة منقحة ومصححة ومشكولة الأحاديث والآيات

ومحققة على أصل مخطوط

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

تفسير السمرقندي

المسمى

بحر العلوم

تأليف

نصر الدين محمد بن أحمد أبو الليث

السمرقندي

من علماء القرن الرابع الهجري

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور محمود مطرجي

الجزء الثاني

نسخة محققة على مخطوطتان ومشكولة الآيات والأحاديث

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

Marfat.com

جميع حقوق إعادة الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

دار الفكر

حارة حريك - شارع عبد النور - برقيا: فكسي - ص.ب ١١/٧٠٦١

تلفون: ٨٣٨٣٠٥/٨٣٨٢٠٢/٨٣٨١٣٦ فاكس ٠٠٩٦١١٨٣٧٨٩٨

دولي: ٠٠٩٦١١٨٦٠٩٦٢

بيروت لبنان

Marfat.com

سورة الأنفال

مدنية وهي سبعون وخمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسألُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾، يعني: الغنائم، واحدها نفل غنيمة، وكذلك قال لبيد:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ ... وَبِإذْنِ الله رَيْثِي وعَجَلْ

مَنْ هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى ... ناعمَ البالِ ومَنْ شاءَ أَضَلْ(١)

قال ابن عباس: ﴿عن﴾ صلة في الكلام، وإنّما هو: يسألونك الأنفال يعني: الغنائم، ويقال: فيه تقديم ومعناه: يسألون عنك الأنفال، ويقال: معناه، يسألونك لمن الأنفال؟ يقال: إنما هم سألوا عنها لأنها كانت محرمة من قبل، فسألوا عنها رسول الله ﷺ فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ يعني الغنائم.

قال الفقيه: حدثنا: أبو الفضل بن أبي حفص قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا إبراهيم بن أبي داود قال: حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن عبد الرحمن بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن الحارث، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة، عن عُبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدرٍ فلقي العدو، فلما هزمهم الله تعالى، أتبعهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، واستولت طائفة بالعسكر والنهب، فقال الذين طلبوهم: نحن طلبنا إحاطة العدو، وبنا نفاهم الله تعالى وهزمهم، فلنا النفل. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لئلا ينال العدو منه غرة، فهو لنا. وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: والله ما أنتم بأحق منا، بل هو لنا، نحن حويناه

(١) البيت الثاني ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

واستولينا عليه[١]، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسم النبي ﷺ بينهم عن فُوَاق أي: عن سواء - وروى أسباط، عن السدي قال: كانت الأنفال لله ورسوله، فنسخ بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وعن عكرمة ومجاهد مثله[٢] -.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، يعني: اخشوا الله وأطيعوه في أمر الغنيمة وأصلحوا ما بينكم من الاختلاف في الغنيمة. ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، يعني: في أمر الصلح والغنيمة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، يعني: إن كنتم مصدِّقين. ويقال: معناه، اتركوا المِراءَ في أمر الغنيمة إنْ كنتم مصدِّقين.

ثم نعت المؤمنين المصدِّقين، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ويقال: إنما المصدقون الذين إذا أُمروا بأمر في أمر الغنيمة وغيرها من قبل الله تعالى، خافت قلوبهم. ويقال: إنما المصدقون ﴿الذين إذا ذكر الله﴾ أي ذكر عندهم أمر الله. ويقال: الذين إذا أُمروا بأمر من الله، ﴿وجلت قلوبهم﴾ يعني: قبلت قلوبهم، فسمى قبول القلوب وجلاً، لأن بالوجل يثبت القبول، لأنهم وجلوا عقوبة الله تعالى فقبلوه.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾، يعني: إذا قرئت عليهم آياته بالأمر والنهي في أمر الصلح وغيره، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾، يعني: تصديقاً ويقيناً. وقال الضحاك: يعني زادتهم تصديقاً بحكم الناسخ، مع تصديقهم بالمنسوخ. وقال الزجاج: تأويل الإيمان التصديق، فكل ما تلي عليهم من عند الله تصديقاً صدَّقوا به فزادهم تصديقاً، فذلك زيادة إيمانهم. وروي عن ابن عباس أنه قال: «زادتهم تصديقاً بالفرائض مع تصديقهم بالله». ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، يعني: يفوضون أمرهم إلى الله، ويثقون به، ولا يثقون بما في أيديهم من الغنائم، ويعلمون أن الله رازقهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾، يعني: يتمونها في مواقيتها بركوعها وسجودها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، يعني: يتصدَّقون مما أعطيناهم من الأموال، وينفقونها في طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾، يعني: أهل هذه الصفة هم المؤمنون الموحدون ﴿حقاً﴾ صدقاً، وهم المصدِّقون. ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: فضائل عند ربهم في الآخرة. ويقال: لهم منازل في الرفعة على قدر أعمالهم؛ ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

---

(١) عزاه السيوطي ٤/٥ إلى سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وأبي حبان وابن أبي حاتم وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب»

Marfat.com

يعني: مغفرة لذنوبهم، وثواب حسن في الجنة. ويقال: الفتوح والغنيمة. قال ابن عباس: في قوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ قال: المؤمن مؤمن حقاً، والكافر كافر حقاً.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾، قال القتبي: معناه، كراهتهم فيما فعلته في الغنائم، ككراهتهم الخروج معك. ويقال: معناه، أولئك هم المؤمنون حقاً ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإنْ كان فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ فكذلك ننفل الغنيمة لمن نشاء، وإنْ كرهوا ذلك. ويقال: هذا ابتداء القصة، ومعناه: امضِ على وجهك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون.

قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ وكان هذا بعد خروجه إلى بدر، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من مقدم النبي ﷺ المدينة. وفي تلك السنة، حولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وكانت غزوة بدر في شهر رمضان، وكانت قصته: أن النبي ﷺ بلغه أن عير قريش خرجت من الشام، فيهم أبو سفيان بن حرب ومخرمة بن نوفل في أربعين رجلاً من تجار قريش، ويقال أكثر من ذلك، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**هٰذِهِ عِيرُ أَبِي سُفْيَان قَدْ أَقْبَلَتْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا، فَلَعَلَّ الله أنْ يُنَفِّلَكُمُوهَا على جهادكم، وَتَتَقَوُّوا بِهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ**». فبعث رسول الله ﷺ رجلين من جهينة، حليفين في الأنصار بأن ينظرا ويأتيا بخبر العير، فخرجا وأتيا وادي الصفراء، وهي منزل من أحد على طريق الشام، فقالا لأهل الصفراء: هل أحسستم من أحد؟ فقالوا: لا. فخرجا فمرا بجاريتين تتلازمان(١)، فقالت إحداهما للأخرى: اقضيني درهماً لي عليك. فقالت: لا والله ما عندي اليوم، ولكنْ عيرُ قريش نزلت بموضع كذا، يقدمون غداً فأعمل لهم، فأقضيك درهمك. فسمع الرجلان ما قالت الجاريتان، فرجعا وأخبرا رسول الله ﷺ بذلك.

فجاء أبو سفيان بن حرب حين أمسى الصفراء، فقال لأهل الصفراء: هل أحسستم من أحد؟ قالوا: لا إلاَّ رجلين نزلا عند هذا الكثيب، ثم ركبا. فرجع أبو سفيان إلى ذلك الموضع، فرأى هناك بعر الإبل، فأخذ بعْرةً ففتّها، فوجد فيه النوى فقال: علائفُ أهل يثرب واللات والعزى. فأرسل من الطريق ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يخبرهم أن محمداً ﷺ قد اعترض لعيركم فأدركوها.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل أن يقدم ضمضم بن عمرو بثلاثة أيام في

(١) في نسخة «ب» متلازمتين

Marfat.com

منامها: كأنّ راكباً أقبل على بعير أورق ومعه رايةٌ سوداء، فدخل المسجد الحرام ثم نادى بأعلى صوته: يا آل فلانٍ يا آل فلان، انفروا إلى مصارعكم إليّ ثلاث، ثم ارتقى على أبي قبيس ونادى ثلاث مرات، ثم قلع صخرة من أبي قبيس فرماها على أعلى مكة فتكسرت، فلم يبق أحد من قريش إلا أصابته فلقة منها. فلما أصبحت، قصت رؤياها على أخيها العباس وقالت: إني خاف أن يصيب قومك سوء. فاغتم العباس بما سمع منها، وذكر العباس ذلك للوليد بن عتبة، وكان صديقاً له، فذكر الوليد ذلك لأبيه عتبة بن ربيعة، فذكر ذلك عتبة لأبي جهل بن هشام. وفشا ذلك الحديث في قريش، فخرج العباس إلى المسجد وقد اجتمع فيه صناديد قريش يتحدثون عن رؤيا عاتكة، فقال أبو جهل: يا أبا الفضل، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ أما رضيتم أن قلتم: منا نبي، حتى قلتم: منا نبية؟ فوالله لننتظرن بكم ثلاثاً، فإن جاء تأويل هذه الرؤيا، وإلا كتبنا عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب. فقال له العباس: يا كذاب، يا مُصَفِّرَ الاستِ، تاالله أنت أولى بالكذب واللؤم منا.

فلما كان اليوم الثالث، جاء ضمضم وقد شق قميصَهُ، وجدَع أذن ناقته، وجعل التراب على رأسه وهو ينادي: يا معشر قريش، الغوثَ الغوثَ، أدركوا عيركم فقد عرض لها محمد ﷺ. فاجتمعوا وخرجوا وهم كارهون مشفقون لرؤيا عاتكة، ومعهم القينات والدفوف بطراً ورياءً كما قال الله تعالى: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]. وكل يوم يطعمهم واحد من أغنيائهم.

وخرج النبي ﷺ من المدينة وأمر أصحابه بالخروج، فخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، فخرجوا على نواضحهم ليس لهم ظهر غيرها، ومعهم ثلاثة أفراس ويقال: فَرَسان. فخرجوا بغير قوت ولا سلاح، لا يرون أنه يكون ثمة قتالاً. فلما نزلوا بالروحاء، نزل جبريل على محمد ﷺ، فأخبره بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم، وقال: يا محمد، إن الله تعالى وعدكم إحدى الطائفتين: إمّا العير، وإما العسكر. فأخبر النبي ﷺ أصحابه بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم، فشقّ ذلك على بعضهم وقالوا: يا رسول الله، هلا كنت أخبرتنا أنه يكون ثمّ قتالاً فنخرج معنا سلاحنا وقسينا وفرسنا، إنما خرجنا نريد العير، والعير كانت أهون شوكة وأعظم غنيمة. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أَشِيرُوا عَلَيّ». فكان أبو بكر وعمر يشيران عليه بالمسير، وكان النبي ﷺ يقول: «أَشِيرُوا عَلَيّ»، وكان يحب أن يكلّمه الأنصار، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله امضِ حيثُ شئت، وأقم حيث شئت فوالله لئن أمرتنا أن نخوض في البحر لنخوضنّه، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن معكما متّبعون، فنزل: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: إمضِ من الروحاء ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾، يعني: القتال ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي

Marfat.com

﴿الْحَقِّ﴾، يخاصمونك في الحرب، ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾، يعني: بعد ما تبيَّن لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، يعني: ينظرون إلى القتل[١].

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنَ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، يعني: الغنيمة إما العير وإما العسكر. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾، يعني تمنون غير ذات السلاح. وقال القتبي: ومنه قيل: فلان شاكٍ في السلاح، ويقال: ﴿غير ذات الشوكة﴾ يعني: شدة القتال. ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ الغنيمة، ﴿وَيُرِيدُ الله أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، يعني: أن يظهر الإسلام بتحقيقه بما أنزل عليك من القرآن. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾، يعني: يهلك الشرك ويستأصله. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾، يعني: ليظهر الإسلام. ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾، يعني: الشرك. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، أي: المشركون.

فقال لهم النبي ﷺ: «سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ الله، فَإِنِي رَأَيْتُ مَصَارِعَ القَوم». وجاءت قريش وأدركوا العير وأفلتوهم، فقال بعضهم لبعض: إنما خرجتم لأجل العير، فلما وجدتم العيرَ فارجعوا سالمين. فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نقتل محمداً ومن معه. فسار النبي ﷺ حتى نزل بدراً بجانب الوادي الأدنى، ونزل المشركون على جانبه الأقصى على الماء، والوادي فيما بينهما. فصلى رسول الله ﷺ تلك الليلة، حتى أوتر وكانت ليلة النصف من شهر شعبان، وقال في قنوته: «اللَّهُمَّ لاَ تُفْلِتَنَّ أَبَا جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَفُلاَناً وفلاناً» فباتوا تلك الليلة وقد أجنبوا وليس معهم ماء، فأتاهم الشيطان عند ذلك فوسوس إليهم، فقال: تزعمون أنكم على دين الله، وأنكم تصلُّون محدثين مجنبين، والمشركون على الماء. وكان الوادي ذا رمل تغيب فيه الأقدام، فمطرت السماء حتى سال الوادي، فاشتد ذلك الرمل واغتسل المسلمون من جنابتهم وشربوا وسقوا دوابهم؛ فذلك قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]إلى قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وكان عليّ والزبير يحرسان رسول الله ﷺ، فجاء سقاة قريش يستقون الماء، فأخذهم عليّ والزبير، فسألاهم عن أبي سفيان، فقالوا: ما لنا بأبي سفيان من علم. فقالا: فمع من أنتم؟ فقالوا: مع قريش من أهل مكة. فقالا: فكم هم؟ قالوا: لا ندري، هم كثير، فضرباهم فقالوا: هم قليل فتركاهم. فقال رسول الله ﷺ: «تَضْرِبُونَهُمْ إنْ صَدَقُوكُمْ، وَتَتْرُكُونَهُمْ إنْ كَذَبُوكُمْ».

(١) عزاه السيوطي ٤/١٦ إلى البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وموسى بن عقبة وإلى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أيوب

Marfat.com

فدعاهم رسول الله ﷺ وقال: «كَم القَوْمُ»؟ فقالوا: كم هم، وهم كثير فلا ندري كم هم، فقال: «كَمْ يُنْحَرُ لَهُمْ في كُلِّ يَوْم»؟ فقالوا: في يوم ينحر لهم عشرة جذور، وفي يوم تسعة. فقال النبي ﷺ: «القَوْمُ ما بَيْنَ تِسْعِمائَةٍ إلى أَلْفٍ»؛ وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين، وكانوا قد خرجوا من مكة ألفاً ومائتين وخمسين، فرجع الأخنس بن شريق مع ثلاثمائة من بني زهرة مع العير، وبقي تسعمائة وخمسون رجلاً.

فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف(١) الغداة ورفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ لا تُهْلِكْ هٰذِهِ العِصَابَةَ فَإِنَّكَ إنْ أَهْلَكْتَهُمْ، لا تُعْبَد عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَبَداً» فقال أبو بكر: عليك يا رسولَ الله، قد دنا القوم. فقال النبي ﷺ: «أَبْشِرْ يا أبا بَكْرٍ، فإنِّي رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُعْتَمِراً بِعِمَامَةٍ، يقودُ فَرَساً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ». فأمدّه الله بجبريل في ألف من الملائكة، وميكائيل في ألف من الملائكة، وإسرافيل في ألف من الملائكة؛ فذلك قوله ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

فقال أبو جهل: اللهم انصر أحبَّ الدينين إليك، ديننا العتيق ودين محمد الحديث. فقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، إنّ محمداً رجل منكم، فإن يكن نبياً فأنتم أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً تعيشوا في ملك أخيكم، وإن يكُ كاذباً يقتله سواكم، لا يكون هذا منكم، وإني مع ذلك لأرى قوماً زرق العيون لا يموتون حتى يقتلوا عدداً منكم. فقال أبو جهل: يا أبا الوليد، جبنت وانتفخ سحرك. فقال له عتبة: يا كذاب ستعلم اليوم أينا الجبان، فلبس لأمته، وخرج معه أخوه شيبة بن ربيعة، وخرج معه ابنه الوليد بن عتبة، وتقدموا إلى القوم وقالوا: يا محمد، ابعث إلينا أكفاءنا. فخرج إليهم قوم من الأنصار، فقالوا لهم: من أنتم؟ فقالوا: نحن أنصار الله ورسوله، فقالوا: لا نريدكم، ولكن نريد إخواننا من قريش، فانصرفوا.

فقال النبي ﷺ: «يا بَنِي هَاشِم تَقَدَّمُوا إِلَيْهِمْ» فقام إليهم عليّ بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وعليهم البيض، فقال لهم عتبة: تكلموا حتى نعرفكم. فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسوله. فقال عتبة: كفوء كريم. قال: فمن هذان معك؟ فقال: عليّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث. فذهب الشيخ إلى الشيخ والشاب إلى الشاب والكهل إلى الكهل. فذهب عبيدة إلى شيبة بن ربيعة وكلاهما شيخان، وذهب عليّ إلى الوليد بن عتبة وكلاهما شابان، وذهب حمزة إلى عتبة بن ربيعة وكلاهما كهلان. فقتل حمزة بن عبد المطب عتبة بن ربيعة، وقتل عليّ بن أبي طالب الوليد بن عتبة، واختلف عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة ضربتين، ضرب عبيدة بالسيف على رأس شيبة بن ربيعة، وضرب شيبة ضربة في رجل عبيدة. فمال حمزة وعليٌ على شيبة بن ربيعة، فقتلا شيبة وحملا

(١) في النسخة «أ» صلاة الخوف. وفي النسخة «ب» صلاة الغداة.

Marfat.com

عبيدة إلى العسكر، فمات عبيدة في حال انصرافهم قبل أن يصل إلى المدينة، فدفن بمضيق الصفراء.

ففي هذا الخبر دليل من الفقه: أن المشركين إذا طلبوا البراز، فلا بأس للمؤمنين بأن يخرجوا بغير إذن الإمام ما لم ينههم عن ذلك، لأن الأنصار قد خرجوا قبل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ، وفيه دليل: أنه لا بأس بأن ينصر أحد المبارزين صاحبه، لأن حمزة وعلياً قد أعانا عبيدة على قتل شيبة. وفيه دليل: أنه لا بأس بالافتخار عند الحرب، لأن حمزة قال: أنا أسد الله، وأسد رسوله. ولا بأس بأن يتبختر في مشيته في حال القتال.

ثم خرج مهجع مولى عمر بن الخطاب، فأصابته رمية بين الصفين، وكان أول قتيل يوم بدر. وحرَّض رسول الله ﷺ الناس على القتال، فقال عُمير بن الحُمام السلمي، وهو قائم وفي يده تمرات يأكلها فقال: يا رسول الله، إن قتلت في سبيل الله فلي الجنة؟ قال: «نعم». فألقى التمرات، وأخذ سيفه وشدّ على القوم، فقاتل حتى قتل. فخرج أبو جهل بن هشام على جمل له فخرج إليه شاب من الأنصار، يقال له: معاذ بن عمرو بن الجموح، فضربه ضربة على فخذه، فخر أبو جهل عن بعيره. فخرج إليه عبد الله بن مسعود، فلما رآه أبو جهل قال: يا ابن أم عبد لمن الدولةُ اليوم؟ وعلى من الدائرة؟ فقال له ابن مسعود: لله ولرسوله يا عدو الله لأنت أعتى من فرعون، لأن فرعون جزع عند الغرق وأنت لم يزدك هذا المصرع إلاَّ تمادياً في الضلالة؟ ثم وضع رجله على عاتق أبي جهل، فقال له أبو جهل: لأنت رويعنا بالأمس، لقد ارتقيت مرتقىً عظيماً. فقتله عبد الله بن مسعود وحزَّ رأسه وجاء برأسه إلى رسول الله ﷺ؛ فخر رسول الله ﷺ ساجداً، ثم قال لأبي بكر، ويقال قال لعليّ: **«نَاوِلْنِي كَفّاً مِنَ التُّرَابِ»**. فأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، وَرَمَى بهَا في وجوه القوم وقال: **«شَاهَتِ الوُجُوهُ»** فدخلت في أعين القوم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرون منهم، وحملوا على المشركين والملائكة معهم، وقُذِف في قلوب المشركين الرعب، وقتلوا في تلك المعركة منهم سبعين، وأسروا سبعين، واستشهد يومئذ من المهاجرين والأنصار ثلاثة عشر رجلاً. ورجع رسول الله ﷺ بالأسارى والغنائم إلى المدينة، واستشار النبي ﷺ في أمر الأسارى، فأقبل على أبي بكر فقال: **«مَا تَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ»**؟ فقال: قومك وبنو عمك، فإن قتلتهم صاروا إلى النار، وإن تُفْدِهُمْ فلعل الله يهديهم إلى الإسلام، ويكون ما نأخذه منهم قوة للمسلمين، وقوة على جهادهم بأعدائهم. ثم أقبل على عمر فقال: **«مَا تَقُولُ يَا أَبَا حَفْصٍ»**؟ فقال عمر: إن في يديك رؤوس المشركين وصناديدهم، فاضرب أعناقهم وسيغني الله المؤمنين من فضله. فقال النبي ﷺ: **«مَثَلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ مَثَلُ مِيكَائِيلَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْزِلُ إلاَّ بِالرَّحْمَةِ، وَمَثَلُكَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَثَلُ إِبْرَاهِيمَ، حَيْثُ قَالَ ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وَمَثَلُ عِيسَى، حَيْثُ قَالَ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]**

Marfat.com

وَمثلُكَ يا عُمَرُ من الملائكة مَثَلُ جِبْرِيلَ فإنَّهُ يَنزِلُ بالعَذَابِ وَالشِّدَةِ، وَمَثَلُكَ مِنَ الأنبِيَاءِ مَثَلُ نُوحٍ، حَيثُ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]وَمَثَلُ مُوسَى، حَيثُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وروى سماك بن حرب، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس[1] قال: قيل للنبي ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء. فناداه العباس وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح. فقال النبي ﷺ: «لِمَ»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، وذلك أن النبي ﷺ لما رأى كثرة المشركين، علم أنه لا قوة لهم إلا بالله، فدعا ربه فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ». ﴿فاستجاب﴾له ربه ونزل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾يقول: واذكروا إذ تسألون ربكم وتدعونه يوم بدر بالنصرة على عدوكم. ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، يعني: فأجابكم ربكم: ﴿إِنِّي مُمِدُّكُمْ﴾، يعني: أزيدكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، يعني: متتابعين بعضهم على أثر بعض. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿مُرْدَفِينَ﴾بالنصب، وقرأ الباقون بالكسر، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد، وهو التتابع.

وقال عكرمة: أمدهم يوم بدر بألف من الملائكة، ووعد لهم ثلاثة آلاف من الملائكة لغزوة بعدها بدعائه، وزاده ألفين، فذلك خمسة آلاف من الملائكة، ويقال: هذا كله كان في يوم بدر.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بُشْرَى﴾يقول: وما أنزل الله الملائكة إلا للبشارة. وقال بعضهم: الملائكة لم يقاتلوا، وإنما كانوا مبشرين. وروي عن ابن عباس أنه قال: «قاتلت الملائكة يوم بدر، ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ولا يوم حنين» ﴿وَمَا جَعَلَهُ الله﴾ يعني: مدد الملائكة ﴿إلا بشرى﴾و ﴿لتطمئن قلوبكم﴾يعني: لتسكن إليه قلوبكم. ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يعني: ليس النصر بقلة العدد ولا بكثرة العدد، ولكن النصر من عند الله. ﴿إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عزيز﴾بالنقمة، ﴿حكيم﴾حكم بالنصرة للنبي ﷺ وللمؤمنين، والهزيمة للمشركين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ يقول: ألقى عليكم النوم ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ يعني: أمناً من عند الله. وروى عاصم، عن ابن رزين، عن عبد الله بن مسعود قال: «النعاس عند القتال

---

(١) في النسخة «ب» عن عبد الله بن مسعود.

Marfat.com

أمنة من الله، وهو في الصلاة من الشيطان». قرأ نافع ﴿يُغْشِيكُمْ﴾ بضم الياء وجزم الغين ونصب النعاس، ومعناه: يُغْشِيكُمْ الله النُّعَاسَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يَغْشَاكُمْ﴾ بالألف ونصب الياء وضم النعاسُ، يعني: أخذكم، النعاسُ وقرأ الباقون: بضم الياء وتشديد الشين ونصب النعاس ومعناه: يغشّيكم الله النعاسَ أمنةً منه، والتشديد للمبالغة.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾، يعني: بالماء من الأحداث والجنابة، ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، يعني: وسوسة الشيطان وكيده. وقال القتبي: أصل الرجز العذاب، كقوله تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] ثم سمي كيد الشيطان رجزاً، لأنه سبب للعذاب.

ثم قال: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾، يعني: يشدد قلوبكم بالنصرة منه عند القتال، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾، يعني: لتستقر الأرجلُ على الرمل، حتى أمكنهم الوقوف عليه. ويقال: ﴿ويثبت به الأقدام﴾ في الحرب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ﴾، يعني: ألهم ربك الملائكة، ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، أي: معينكم وناصركم، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: بشِّروا المؤمنين بالنصرة، فكان الملك يمشي أمام الصف فيقول: أبشروا فإنكم كثير وعدوكم قليل، والله تعالى ناصركم. ﴿سَأُلْقِي﴾، يعني: سأقذف ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، يعني: الخوف من رسول الله ﷺ والمؤمنين.

ثم علّم المؤمنين كيف يضربون ويقتلون، فقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾، يعني: على الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، يعني: أطراف الأصابع وغيرها، ويقال: كل مفصل. قال الفقيه: سمعت من حكى عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: أراد الله إلاَّ يلطخ سيوفهم بفرث المشركين، فأمرهم أن يضربوا على الأعناق ولا يضربوا على الوسط ويقال: معناه اضربوا كل شيء استقبلكم من أعضائهم ولا ترحموهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، بعني: ذلك الضرب والقتل بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ﴾، يعني: عادوا الله ورسوله، وخالفوا الله ورسوله. ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الله ورسوله﴾، يعني: من يخالف الله ورسوله ﴿فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾، القتل يوم بدر، ﴿فَذُوقُوه﴾ في الدنيا، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ

Marfat.com

النَّارِ﴾ يوم القيامة مع القتل في الدنيا، يعني: أن القتل والضرب لم يصر كفارة لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: إذا لقيتم الذين كفروا بتوحيد الله تعالى يوم بدر ﴿زَحفاً﴾، يعني: مزاحفة، ويقال: زحف القوم، إذا دنوا للقتال، ومعناه: إذا واقعتموهم للقتال، ﴿فلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ﴾ يعني: منهزمين. ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، يعني: تولى ظهره منهزماً ﴿يومئذ﴾ يعني: يوم حربهم. وقال الكلبي: يعني يوم بدر خاصة ﴿إلاَّ مُتحرِّفاً لِقِتَالٍ﴾، يعني مستطرداً للكرة يريد الكرة للقتال ﴿أوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَةٍ﴾، يعني ينحاز من فئة إلى فئة من أصحابه يمنعونه من العدو. قال أهل اللغة: تحوّزت وتحيّزت، أي انضممت إليه، ومعناه: إذا كان منفرداً فينحاز ليكون مع المقاتلة، ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وفي الآية تقديم، يعني: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ أي: استوجب الغضب من الله. ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة.

وروي عن الحسن أنه قال: «كان كلّ هذا يوم بدر وغيره. ـ وعن الضحاك قال: هذا يوم بدر خاصة[1] ـ خاصة، لأنه لم يكن لهم فئة ينحازون إليها». وعن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة قال: «نزلت يوم بدر، لأنهم لم ينحازوا إلا إلى المشركين، لم يكن في الأرض مسلمون غيرهم». وقد قال بعضهم: بأن الآية غير منسوخة، لأنه لا يجوز للواحد أن يهرب من الاثنين، ويجوز أن يهرب من الجماعة. وإذا لم يكن معه سلاح جاز له أن يهرب ممن معه السلاح، وإذا لم يكن رامياً جاز له أن يهرب من الرامي. فإذا كان عدد المسلمين نصف عدد الكفار ومعهم سلاح، لا يجوز لهم أن يهربوا من الكفار، وإذا كان المسلمون اثني عشر ألفاً ومعهم سلاح، لا يجوز لهم أن يهربوا من الكفار وإن كانوا مائة ألف، لأنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعمِائَةٍ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ؛ وَلَنْ يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ أَلفاً مِنْ قِلَّةٍ إذَا كَانَتْ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةً»**[2]، فَيَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا كَلِمَتَهُمْ وَاحِدَةً وَيُقَاتِلُوهُمْ، حَتَّى يَنْصُرَهُمُ الله تَعَالَى». والآية نزلت في الذي لا يجوز له الهرب. وروى سليمان بن هلال، عن ثور بن زيد، عن أبي المغيث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: **«اجْتَنِبُوا المُوبِقَاتِ»**.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

(٢) حديث ابن عباس: أخرجه الترمذي (١٥٥٥) وأبو داود (٢٦١١) والبيهقي: ٩/١٥٦ وأحمد ١/٢٩٣ وصححه الحاكم: ١/٤٤٣ وابن خزيمة (٢٥٣٨).

Marfat.com

قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الشِّرْكُ بِالله، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ»[1].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾. وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: قتلنا فلاناً وقتلنا فلاناً، فأراد الله تعالى أن لا يعجبوا بأنفسهم، فقال: ﴿فلم تقتلوهم﴾ يقول: فما قتلتموهم؛ ﴿وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ﴾، يعني: الله تعالى نصركم وأمدكم بالملائكة. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إذ رميت ولكن الله رمى﴾ يعني: الله تعالى تولى ذلك، وذلك حين رمى النبي ﷺ قبضة من التراب، فملأ الله تعالى أعينهم بها فانهزموا، قال الله تعالى: ﴿وما رميت﴾ أي: لم تصب رميتك ولم تبلغ ذلك المبلغ، ولكنّ الله تعالى تولى ذلك. ويقال: رمى النبي ﷺ يوم أحد بالحربة فأصابت أبي بن خلف الجمحي فقتله.

قرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَكِنِ اللهُ رَمى﴾ بكسر النون والتخفيف و﴿اللهُ﴾ بالضم، وكذلك في قوله ﴿وَلكِنِ اللهُ قَتَلَهُمْ﴾ وقرأ الباقون: بنصب النون مع التشديد ونصب ما بعده.

ثمّ قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾، يعني: لينصرهم نصراً جميلاً ويختبرهم بالتي هي أحسن، ويقال: ولينعم المؤمنين نعمة بيِّنة. ﴿إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يعني: سميع لدعاء النبي ﷺ وعليم بإجابته.

﴿ذَلِكُمْ﴾، يعني: الهلاك والهزيمة للكفار، ويقال: معناه، الأمر من ربكم. ﴿ذلكم﴾ ثمّ ابتداء فقال: ﴿وَأَنَّ الله مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، يعني: مضعف كيد الكافرين، يعني: صنيع الكافرين ببدر. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿مُوَهِّنٌ كَيْدَ الكَافِرِينَ﴾ بنصب الواو والتشديد منونة ﴿كَيْدَ﴾ بنصب الدال، وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿مُوهِنُ﴾ بضم النون بغير تنوين ﴿كَيْدِ﴾ بكسر الدال على معنى الإضافة، وقرأ الباقون: ﴿مُوهِن﴾ بالتنوين والتخفيف ﴿كَيْدَ﴾ بنصب الدّال والمُوهِنُ والمُوهَنُ واحد، ويقال: وهنت الشيء وأوهنته، إذا جعلته واهناً ضعيفاً.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُم الْفَتْحُ﴾، يقول: إن تستنصروا فقد نصركم الله،

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٢٧٦٦) و(٥٧٦٤) و(٦٨٥٧) ومسلم (٨٩) وأو داود (٢٨٧٤) والنسائي: ٦/٢٥٧ والبغوي (٤٥) والبيهقي ٨/٢٤٩.

Marfat.com

وذلك حين قال أبو جهل بن هشام اللهم: انصر أعزَّ الجندين إليكَ، وأحب الفئتين إليك، فاستجيب دعاؤه على نفسه وعلى أصحابه.

ثم قال: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن قتاله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من قتاله، ويقال: إن أهل مكة حين أرادوا الخروج إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم أي الفئتين أحب إليك فانصرهم، فنزل ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن قتال محمد ﷺ وعن الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإقامة عليه، ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ لقتال محمد ﷺ، ﴿نَعُدْ﴾ عليكم الهزيمة. ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾، يعني: جماعتكم ﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ في العدد. ﴿وَأَنَّ الله مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: معين لهم وناصرهم. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين: ﴿وأَنَّ الله﴾ بالنصب، والباقون بالكسر على معنى الاستئناف، ويشهد لها قراءة عبد الله بن مسعود: والله مع المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ﴾ في أمر الغنيمة والصلح. ﴿وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، يعني: لا تعرضوا عن أمره، ويقال: عن طاعته، ويقال: عن رسول الله ﷺ؛ ﴿وَأَنتُم تَسْمَعُونَ﴾ المواعظ في القرآن وفي أمر الصلح.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾، يعني: لم يسمعوا ولم يفهموا ولم يتفكروا فيما سمعوا. ويقال إنّ قوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي: قالوا أطعنا ﴿وهم لا يسمعون﴾، يعني لا يطيعون. قال الكلبي: وهم بنو عبد الدار، لم يسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عمير وسويد بن خويلد. وقال الضحاك ومقاتل: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ الإيمان ﴿وهم لا يسمعون﴾ أي لا يؤمنون، هم المنافقون.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ الله﴾، يعني: إنَّ شر الناس عند الله ﴿الصُّمُّ﴾ عن الهدى، ﴿الْبُكْمُ﴾، يعني: الخرس الذين لا يتكلمون بخير، ﴿الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ الإيمان، يعني: بني عبد الدار وغيرهم من الكفار الذين لم يسلموا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾، يعني: يقول: لو علم الله تعالى فيهم صدقاً لأعطاهم الإيمان وأكرمهم به. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، يعني: لو أكرمهم بالإسلام، ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾؛ يعني: أعرضوا عن الإيمان بما سبق في علم الله فيهم. وقال الزجاج: معناه،

Marfat.com

﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ الجواب عن كل ما يسألون عنه. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، يعني: ولو بيّن لهم كل ما يختلج في نفوسهم، لأعرضوا عنه لمعاندتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله﴾، يعني: أجيبوا الله بالطاعة في أمر القتال، ﴿وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إلى القتال أو غيره. وإنّما قال: ﴿إذا دعاكم﴾ ولم يقل: إذا دعواكم، لأن الدعوة واحدة، ومن يجب الرسول فقد أجاب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يعني: القرآن الذي به حياة القلوب، ويقال ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ـ أي أمر الحرب الذي يعزكم ويصلحكم ويقوّيكم بعد الضعف[١] ـ ويقال: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: يهديكم. ويقال: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، يعني: لما يكون سبباً للحياة الدائمة في نعيم الآخرة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. قال الفقيه: **حدثنا** محمد بن الفضل قال: **حدثنا** فارس بن مردويه، عن محمد بن الفضل، عن أبي مطيع، عن حماد بن سلمة، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: «يحول بين المؤمن ومعاصيه التي تسوقه وتجره إلى النار، ويحول بين الكافر وطاعته التي تجره إلى الجنة»[٢] ويقال: يحول بين المرء وإرادته، لأن الأمر لا يكون بإرادة العبد، وإنما يكون بإرادة الله تعالى، كما قال أبو الدرداء:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مُنَاهُ وَيَأْبَى الله إلاَّ مَا أَرَادَا

ويقال: يحال ﴿بين المرء وقلبه﴾ يعني: وأمله، لأن الأجل حال دون الأمل. وقال سعيد بن جبير: «يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر». وقال مجاهد: ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ يعني: يدركه ولا يفعله. ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، يعني: في الآخرة، فتثابون بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خاصَّةً﴾؛ قال مقاتل: نزلت الآية في شأن عليّ وطلحة والزبير. قال الفقيه: **حدثنا** عمر بن محمد قال: **حدثنا** أبو بكر الواسطي قال: **حدثنا** إبراهيم بن يوسف قال: **حدثنا** قُبيصة، عن سفيان، عن جويبر، عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خاصَّةً﴾ قال: نزلت في شأن أصحاب

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

(٢) عزاه السيوطي ٤/٤٤ إلى ابن شيبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

Marfat.com

محمد ﷺ. قال: حدثنا عمر بن محمد قال: حدثنا أبو بكر الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو معاوية، عن السدي، عن المعلى، عن أبي ذرّ: أن عمر أخذ بيده يوماً فغمزها، فقال: خل عني يا قُفل الفتنة. فقال عمر: ما قولك قفل الفتنة؟ قال: إنك جئت ذات يوم فجلست آخر القوم، فقال النبي ﷺ: «لا تُصِيبَنَّكُمْ فِتنةٌ مَا دَامَ هٰذَا فِيكُمْ». وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «جعلت أنا وعثمان[1] فتنة لهذه الأمة». وقال بعضهم: قوله ﴿لاَ تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم﴾ خاصة، يعني: لا تعرّضوا الذين ظلموا منكم خاصة لما ينزل بهم، وقال بعضهم: هذا جواب الأمر بلفظ النهي مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: لمن وقع في الفتنة. ثم ذكرهم النعم فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾، يعني واحفظوا نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلاً في العدد وهم المهاجرون والأنصار، ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾؛ يعني: مقهورون في أرض مكة. ﴿تخافون أن يَتخطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾، يعني: يختلسكم الناس ويذهب بكم الكفار - وهم أهل فارس والروم[2] -. ﴿فآوَاكُمْ﴾ بالمدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾ يعني: وقوّاكم وأعانكم ﴿بنصره﴾ يوم بدر. وقال قتادة: كانوا بين أسدين: قيصر وكسرى، ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ وهم أهل فارس والروم والعرب ممن حول مكة.

ثم قال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: الحلال، وهو الغنيمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يعني لكي تشكروا الله وتطيعوه وتعرفوا ذلك منه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ﴾؛ روى أسباط عن السدي قال: كانوا يسمعون من النبي عليه السلام الحديث، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنهاهم الله عن ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ﴾. ويقال: كل رجل مؤتمن على ما فرض الله عليه، إن شاء أداها، وإن شاء خانها. وقال القتبي: الخيانة أن يؤتمن على شيء فلا يؤدي إليه، ثم سمّى العاصي من المسلمين خائناً، لأنه قد ائتمن على دينه فخان. كما قال في آية أخرى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ويقال: نزلت الآية في أبي

---

(١) في النسخة «أ» «وعمر» بدل «وعثمان».

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

لبابة بن عبد المنذر، حين أشار إلى بني قريظة أن لا ينزلوا على حكم سعد، وأشار إلى حلقه إنه الذبح(١). وذلك أن النبي ﷺ لما حاصر بني قريظة من بعد انصرافهم من الخندق، ووقف بباب الحصن وفيه ستمائة رجل من اليهود، وقد كانوا ظاهروا قريشاً على حرب رسول الله ﷺ فناداهم: «**يَا إِخْوَةَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ الله وَرَسُولِهِ**». فقالت اليهود: يا محمد، ما كنت فحّاشاً قبل هذا. فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر، فدخل على اليهود فركنوا إليه وقالوا: يا أبا لبابة، أتأمرنا بالنزول إلى محمد ﷺ؟ فأشار بيده إلى حلقه، يعني: إنه الذبح إن نزلتم إليه(٢). فقال أبو لبابة: والذي نفسي بيده، ما زالت قدماي من مكاني، حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، وأوثق نفسه إلى سارية المسجد، حتى أنزل الله تعالى توبته ونزل: ﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ﴾. ﴿**وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**﴾، يعني: لا تخونوا أماناتكم. ﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ أنها خيانة. قال محمد بن إسحاق: ﴿لاَ تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ﴾ يعني: لا تظهروا له من الحق ما يرضى عنكم ثم تخالفوه في السر، فإن ذلك هلاكاً لأنفسكم وخيانة لأماناتكم.

ثم قال عز وجل: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾، يعني: بلاء عليكم، لأن أبا لبابة إنما ناصحهم من أجل ماله وولده الذي كان عند بني قريظة. ﴿**وَأَنَّ الله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، يعني: الجنة لمن صبر ولم يخن.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله**﴾، يعني: إن تطيعوا الله ولا تعصوه، ﴿**يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً**﴾؛ يعني: يجعل لكم مخرجاً ونجاةً ونصراً في الدنيا ـ ويقال: المخرج من الشبهات. وقال مجاهد: مخرجاً في الدنيا والآخرة(٣) ـ. ﴿**وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾، يقول: يمحو عنكم ذنوبكم، ﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾؛ يعني: يستر ذنوبكم وعيوبكم. ﴿**وَالله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾، يعني: ذو الكرم والتجاوز عن عباده.

﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٣٠**﴾

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾؛ وذلك أن نفراً من قريش اجتمعوا في دار الندوة. وكانت قريش إذا اجتمعوا للمشورة والتدبير كانوا يجتمعون في تلك الدار، فاجتمعوا فيها وأغلقوا الباب لكيلا يدخل رجل من بني هاشم، ليمكروا بالنبي ﷺ ويحتالوا في أمره.

---

(١) عزاه السيوطي ٤/٤٨ إلى ابن جرير وإلى عبد حميد عن الكلبي.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن جرير، وإلى ابن مردويه عن عكرمة.

(٣) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

فدخل إبليس لعنه الله في صورة شيخ وعليه ثياب أطمار، وجلس معهم فقالوا: من أدخلك أيها الشيخ في خلوتنا بغير إذننا؟ فقال: أنا رجل من أهل نجد، ورأيت حُسْنَ وجوهكم وطيب ريحكم، فأردت أن أسمع حديثكم، وأقتبس منكم خيراً، وقد عرفت مرادكم، فإن كرهتم مجلسي خرجت عنكم. فقالوا: هذا رجل من أهل نجد، وليس من أرض تهامة، لا بأس عليكم منه. فتكلموا فيما بينهم، فقال عمرو بن هشام: أرى أن تأخذوه وتجعلوه في بيت وتسدوا بابه، وتجعلوا له كوة لطعامه وشرابه حتى يموت. فقال إبليس: بئس الرأي الذي رأيت، تعمدون إلى رجل له فيكم أهل بيت، وقد سمع به من حولكم فتحبسونه وتطعمونه، يوشك أهل بيته الذين له فيكم أن يقاتلوكم ويفسدوا جماعتكم. فقالوا: صدق والله الشيخ. ثم تكلم أبو البختري بن هشام قال: أرى أن تحملوه على بعير ثم تخرجوه من أرضكم، حتى يموت أو يذهب به حيث شاء، فقال إبليس: بئس الرأي الذي رأيت، تعمدون إلى رجل أفسد جماعتكم ومعه منكم طائفة، فتخرجوه إلى غيركم، فيأتيهم سوء فيفسد منهم أيضاً جماعة، ويقبل إليكم ويكون فيه هلاككم. فقالوا: صدق والله الشيخ.

فقال أبو جهل: أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل، ثم تعطونهم السيوف فيضربونه جميعاً، فلا يدري قومه من يأخذون، وتؤدي قريش ديته. فقال إبليس: صدق والله هذا الشاب. فتفرقوا على ذلك، فأمرهُ الله تعالى بالهجرة وأخبره بمكر المشركين فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾، يعني: ليحبسوك في البيت ﴿أو يقتلوك﴾ بالسيف، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة.

فأمر النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب بأن يبيت في مكانه، ثم خرج ومعه أبو بكر ونام عليّ مكانه، وأهل مكة يحرسونه ويظنون أنه في البيت، ثم دخلوا البيت، فإذا هو عليّ رضي الله عنه فقالوا: يا عليّ أين محمد؟ فقال: لا أدري. فطلبوه فلم يجدوه. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾، يعني: ويمكرون بالنبي ﷺ ويريدون به الشر ﴿وَيَمْكُرُ اللهُ﴾، يعني: ويريد بهم الهلاك حين أخرجهم إلى بدر فقتلوا. ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، يعني: أصدق الماكرين فعلاً، وأفضل الصانعين صنعاً، وأعدل العادلين عدلاً.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا﴾، يعني: القرآن. ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾، يعني قد سمعنا قولك. ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، القرآن. ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، نزلت في شأن نضر بن الحارث، كان يحدث عن الأمم الخالية من حديث رستم وإسفنديار، فقال: إن

Marfat.com

الذي يخبركم محمد مثل ما أحدِّثكم من أحاديث الأولين وكذبهم، فقال له عثمان بن مظعون: اتَّقِ الله يا نضرُ، فإنَّه ما يقول إلا حقاً، فقال النضر بن الحارث: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾، يعني: إن كان ما يقول محمد من القرآن حقاً، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. قال أبو عبيدة: كل شيء في القرآن أمطر فهو من العذاب، وما كان من الرحمة فهو مطر. وروى أسباط عن السدي قال: قال النضر بن الحارث: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً، فأمطر علينا حجارة من السماء، ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزل ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] فاستجيب دعاؤه، وقتل في بدر.

قال سعيد بن جبير: قتل النبي ﷺ ثلاثة يوم بدر صبراً: النضر بن الحارث، وطعمة بن عدي، وعتبة بن أبي معيط. وكان النضر أسره المقداد، فقال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الله وَرَسُولِهِ مَا يَقُولُ»، فقال: يا رسول الله ﷺ أسيري. فقال: «اللَّهُمَّ أَغْنِ المِقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ». فقال المقداد: هذا الذي أردتُ فنزل ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾؛ وكان ذلك القول من النضر حين كان النبي ﷺ في مكة، فأخبر الله تعالى أنه لا يعذبهم وأنت بين ظهرانيهم، حتى يخرجك عنهم كما أخرج الأنبياء قبلك عن قومهم ثم عذبهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يعني: يصلّون لله الصلوات الخمس وهم أهل الإيمان؛ وقال مجاهد: ﴿وهم يستغفرون﴾ يعني: وهم مسلمون؛ ويقال: فيهم من يؤول أمرهُ إلى الإسلام. ويقال: ﴿وهم يستغفرون﴾ يعني: وفي أصلابهم من يسلم. وروي عن أبي موسى الأشعري قال: «كان أمانان في الأرض، رفع أحدهما وبقي الآخر ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ﴿وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقال عطية: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، يعني المشركين حتى يخرجك منهم. ﴿وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يعني المؤمنين.

ثم عاد إلى ذكر المشركين فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمْ الله﴾، يعني: بعد ما أخرج النبي ﷺ وأصحابه من بينهم. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾، يعني: يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ يعني: المشركين. قال الكلبي: يعني، ما كانوا

Marfat.com

أولياء المسجد الحرام؛ ويقال: وما كانوا أولياء الله. ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾، يعني: ما كان أولياء الله إلا المتقون من الشرك، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ﴾، معناه: وما لهم ألا يعذبهم الله ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، يعني: لم تكن صلاتهم حول البيت ﴿إلاَّ مكاءً﴾ يعني: إلا الصفير ﴿وتصدية﴾ يعني: التصفيق باليدين، إذا صلى النبي ﷺ في المسجد الحرام. قرأ الأعمش ﴿مَا كَانَ صَلاتَهُمْ﴾ بالنصب ﴿إِلاَّ مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ﴾ كلاهما بالضم؛ وهكذا قرأ عاصم في إحدى الروايتين، فجعل الصلاة خبر كان، وجعل المكاء والتصدية اسم كان. وقرأ الباقون: ﴿صَلاتُهُمْ﴾ بالضم فجعلوه اسم كان ﴿وَمُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ بالنصب على معنى خبر كان.

ثم قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بتوحيد الله تعالى، فأهلكهم الله في الدنيا ولهم عذاب الخلود في الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ على عداوة رسول الله ﷺ ﴿ليصدوا عن سبيل الله﴾ يعني: ليصرفوا الناس عن دين الله وطاعته. قال ابن عباس: «نزلت الآية في المطعمين يوم بدر، وهم الذين كانوا يطعمون أهل بدر حين خرجوا في طريقهم».

قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَها﴾. وكانوا ثلاثة عشر رجلاً أطعموا الناس الطعام، فكان على كل رجل منهم يوماً، منهم. أبو جهل، وأخوه الحارث، ابنا هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومنبه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وأبي بن خلف وغيرهم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، يعني: تكون نفقاتهم عليهم حسرة وندامة، لأنها تكون لهم زيادة العذاب، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. وقال مجاهد: هو نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد. وقال الحكم: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقيه ذهباً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، يعني: يهزمون ولا تنفعهم نفقتهم شيئاً.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، يعني: القتل والهزيمة لم تكن كفارة لذنوبهم، فيحشرون في الآخرة إلى جهنم.

ثم قال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، يعني: ﴿الخبيث﴾ من العمل

Marfat.com

و﴿الطيب﴾ من العمل، ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً﴾ يعني يجمعه وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل: ليميز الله الكافرين من المؤمنين، ويجعل في الآخرة الخبيثة أنفسهم ونفقاتهم وأنفسهم، فيركم بعضه على بعض جميعاً، ﴿فيجعله في جهنم﴾ ويقال: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ بين نفقة المؤمنين ونفقة المشركين، فيقبل نفقة المؤمنين ويثيبهم على ذلك، ويجعل نفقة الكفار وبالاً عليهم، ويجعل ذلك سبباً لعقوبتهم، فتكوى بها جباههم. وقال القتبي: ﴿فيركمه﴾ أي: يجعله ركاماً بعضه على بعض.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾، يعني: المغبونين في العقوبة. قرأ حمزة والكسائي ﴿لِيُمَيِّزَ الله﴾ بضم الياء مع التشديد، والباقون ﴿لِيَمِيزَ﴾ بالنصب مع التخفيف، ومعناهما واحد: مَازَ يَمِيزُ وَمَيَّزَ يُمَيِّزُ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إنْ ينتهوا﴾، يعني أبا سفيان وأصحابه، وما كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي: عن الشرك وعن قتال محمد، وعن المؤمنين، ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: يتجاوز عنهم ما سلف من ذنوبهم وشركهم. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتال محمد ﷺ وأصحابه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ بنصرة أوليائه وقهر أعدائه. ويقال: يعني، القتل يحذرهم بالعقوبة لكيلا يعودوا فيصيبهم مثل ما أصابهم؛ وقال الكلبي: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أن ينصر الله أنبيائه ومن آمن معهم، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

ثم حثّ المؤمنين على قتال الكفار فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يعني: لا يكون الشرك بمكة، ويقال: حتى لا يتخذوا شركاء ويوحدوا ربهم، ﴿وَيَكُونَ الدِّينَ كُلُّهُ لله﴾؛ يعني: يظهر دين الإسلام ولا يكون دين غير دين الإسلام. ﴿فَإِنْ انْتَهُوا﴾ عن الشرك وعن عبادة الأوثان وقتال المسلمين، ﴿فإنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ فيثيبكم بأعمالكم. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، يعني: أبوا وأعرضوا عن الإيمان، يا معشر المؤمنين، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَوْلاكُمْ﴾ يعني: حافظكم وناصركم.

ثم قال: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، ﴿نعم المولى﴾ يعني: الحفيظ و﴿نعم النصير﴾ يعني: المانع.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ﴾ علَّمهم قسْم الغنيمة، وجعل أربعة أخماسها للذين أصابوها، وأمر بأن يقسم الخمس على خمسة أسهم. وقال بعضهم: على ستة أسهم، وقال أبو العالية الرياحي: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة أسهم: أربعة لمن شهدها، ويأخذ الخمس فيجعله على ستة أسهم: سهم لله تعالى فيجعل للكعبة، وسهم للرسول، وسهم لذوي القربى يعني: قرابة النبي ﷺ، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وقال بعضهم: سهم الله ورسوله واحد.

وروى سفيان، عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية عن قوله: ﴿فَأَنَّ لله خُمُسَهُ﴾ قال: «هذا مفتاح الكلام لله الدنيا والآخرة، ثم قال: وقد اختلف بعد وفاة الرسول ﷺ في سهم الرسول وسهم ذوي القربى، فقال بعضهم: للخليفة، وقال بعضهم: لقرابة الخليفة، فاجتمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والعدة في سبيل الله تعالى، فكانا كذلك في خلافة أبي بكر وعمر»(١). وروى أبو يوسف، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: «كان الخمس على عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم: سهم الله ورسوله واحد، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل؛ وقسم بعد عهد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ على ثلاثة أسهم: لليتامى، والمساكين، وابن السبيل»(٢). وبهذا أخذ أبو حنيفة وأصحابه: أن الخمس يقسم على ثلاثة أسهم، ولا يكون لأغنياء ذوي القربى شيء، ويكون لفقرائهم فيه نصيب، كما يكون لسائر الفقراء، وكذلك يَتاماهم وابن السبيل منهم.

ثم قال: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِالله﴾. يجوز أن تكون متعلقة بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَوْلاكُمْ﴾، إن كنتم آمنتم بالله عز وجل، ويجوز أن يكون معناه: فاقبلوا ما أُمرتم به من القسمة في الخمس ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾، يعني: إنْ كنتم صدقتم بتوحيد الله، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ يعني: وصدقتم بما أنزلنا على محمد ﷺ من القرآن يوم الفرقان، يعني: يوم بدر. قال الكلبي: يعني: يوم النصر، يوم بدر، فَرَّقَ بين الحق والباطل. وقال مقاتل: معناه وما أنزلنا من الفرقان يوم بدر فأقرُّوا بحكم الله تعالى في أمر الغنيمة. ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾؛ يعني: يوم جمع المسلمين وجمع المشركين. ﴿وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يعني: على نصرة المؤمنين وهزيمة الكفار.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ٦٥ إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم.

(٢) عزاه السيوطي: إلى ابن جرير والطبراني وابن مردويه، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

Marfat.com

ثم قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: اذكروا هذه النعمة إذ كنتم بالعدوة الدنيا. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿بالعِدْوَةِ﴾ بالكسر، وقرأ الباقون بالضم؛ ومعناهما واحد وهو: شفير الوادي. ويقال عِدْوَةِ الوادي وعُدْوَتِهِ، يعني: كنتم على شاطىء الوادي مما يلي المدينة. ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾، يعني: من الجانب الآخر مما يلي مكة، ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ يعني: العير أسفل منكم بثلاثة أميال على شاطىء البحر حين أقبلوا من الشام. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾، أنتم والمشركون بالإجماع للقتال، ﴿لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أنتم والمشركون، ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع الله بينكم على غير ميعاد، ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾؛ يعني: كائناً. وكان من قضائه هزيمة الكفار، ونصرة محمد ﷺ وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. يقول: ليكفر من أراد أن يكفر بعد البيان له من الله تعالى، ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، يقول: ويؤمن من أراد أن يؤمن بعد البيان له من الله تعالى. وقال الكلبي: ﴿ليهلك من هلك﴾ على الكفر بعد البيان، ﴿ويحيى من حي﴾ بالإيمان ﴿عن بينة﴾ ويقال: هذا وعيد من الله لأهل مكة يقول: ليقم على كفره من أراد أن يقيم بعد ما بينت له الحق ببدر، حين فرقت الحق من الباطل، ﴿ويحيى﴾ يعني: يقم على الإيمان من أراد أن يقيم بعد ما أرسلت إليه الرسول، وأقمت عليه الحجة. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر، وابن كثير في رواية شبل البزي ﴿مَنْ حَيِيَ﴾ بإظهار الياءين، والباقون بياء واحدة، وأصله بياءين، إلا أن أحد الحرفين أدغم في الآخر، لأنهما من جنس واحد. ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾؛ وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدو قليل قبل أن يلتقوا، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بما رأى في المنام: أن العدو قليل، فقالوا: رؤيا النبي ﷺ حق، والقوم القليل. فلما التقوا ببدر، قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين لتصديق رؤيا النبي ﷺ.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾، يعني: لجبنتم وتركتم الصف، ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾؛ يعني: اختلفتم في أمر النبي ﷺ. ﴿وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ﴾، يعني: ولكن الله أتمّ للمسلمين أمرهم على عدوهم، ويقال: ﴿سلّم﴾ يعني: قضى بالهزيمة على الكفار والنصرة للمؤمنين، ويقال: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ يعني: في عينك، لأن العين موضع النوم، في موضع منامك. وروي عن الحسن قال: معناه في عينيك التي تنام بها. ثم قال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾، يعني: التقيتموهم يوم بدر ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ في العدد. وروى أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: «لقد قلّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً».

ثم قال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ يامعشر المؤمنين في أعين المشركين، وذلك حين لقوا العدو وقلّل الله المشركين في أعين المؤمنين لكيلا يجبنوا، وقلل المؤمنين في أعين المشركين، ليزدادوا جرأة على القتال حتى قتلوا، ولكي يظهر عندهم فضل المؤمنين. ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾، يعني: إذا قضى الله تعالى أمراً فهو كائن، وهو النصرة للمؤمنين، والذل لأهل الشرك بالقتل والهزيمة. ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، يعني: عواقب الأمور في الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

ثم ثبت[1] المؤمنين على القتال فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾، يعني: جماعة من الكفار ﴿فاثبتوا﴾ لهم وقاتلوهم مع نبيكم، ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً﴾؛ يعني: في الحرب، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ يعني: تفوزون به وتؤمنون به.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمركم من القتال. ﴿وَلا تَنَازَعُوا﴾، يعني: لا تختلفوا فيما بينكم من القتال، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾؛ يعني: فتجبنوا من عدوكم، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. وقال مجاهد: يعني نصرتكم، وذهبت ريحكم يوم أُحد حين نازعتموه؛ وقال الأخفش: يعني دولتكم. وقال قتادة: الريح الحرب، وأصله في اللغة: تستعمل في الدولة، ويقال: الريح له اليوم، يراد به الدولة.

ثم قال: ﴿وَاصْبِرُوا﴾، يعني: لقتال عدوكم. ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، يعني: معين لهم وناصرهم. ﴿وَلا تَكُونُوا﴾، يعني: ﴿ولا تكونوا﴾ يا أصحاب النبي ﷺ ﴿كالذين خرجوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ - معناه: قاتلوا لوجه الله تعالى، ولا تقاتلوا رياءً وسمعة[2] - ﴿بَطَراً﴾ يعني أشراً ورياءً. وأصله: الطغيان في النعمة. ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، يعني: لكي يذكروا بمسيرهم، يقولون: تسامع الناس بمسيرنا. وقال محمد بن إسحاق: خرجت قريش وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً، ومعهم مائتا فرس يقودونها، وخرجوا ومعهم القينات يضربون بالدفوف، ويتغنّين بهجاء المسلمين.

---

(١) في النسخة «أ»: «حرّض».

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن دين الإسلام. ﴿وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، يعني: عالم بهم وبأعمالهم.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: مسيرهم. ومعناه: أن خروجهم لمّا كان للشيطان، ﴿زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ وذلك أن أهل مكة لما وجدوا العير، أرادوا الرجوع إلى مكة، فأتاهم إبليس على صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني، فقال لهم: لا ترجعوا حتى تستأصلوهم، فإنكم كثير وعدوكم قليل.

ثم قال: ﴿وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾، يعني: لا يطيقكم أحد لكثرتكم وقوتكم. ﴿وإني جار لكم﴾ يعني: معين لكم، وهؤلاء بنو كنانة تأتيكم وهم على أثري.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾، يعني: اجتمع الجمعان، جمع المؤمنين وجمع المشركين، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾؛ يعني: راجعاً[1] وراءه فقال له الحارث بن هشام: أين ما ضمنت لنا؟ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ﴾. فقال له الحارث: وهل ترى إلا جعاشيش أهل يثرب؟ والجعاشيش: جمع جعشوش، وهو الرجل الحقير الدميم القصير. فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ الله وَالله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. قال ابن عباس: «خاف إبليس أن يأخذه جبريل أسيراً، فيعرفه الناس، فيراه الكفار فيعرفونه بعد ذلك، فلا يطيعونه، ولم يخف على نفسه الموت والقتل، لأنه كان يعلم أن له بقاء إلى يوم ينفخ في الصور». قال إبليس: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ أي: أرى جبريل معتجراً بردائه يقود الفرس، فلما تولى قالوا: هزم الناس سراقة، فسار سراقة بعد رجوعهم إلى مكة، وقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم. فقالوا له: ألم تأتنا يوم كذا وكذا؟ فحلف أنه لم يحضر، فلما أسلموا، علموا أنه كان إبليس.

وقال مقاتل: لم يجتمع جمع قط منذ كانت الدنيا أكثر من يوم بدر، وذلك أن إبليس جاء

---

(١) في النسخة «أ»: ورأى جبريل وراءه.

Marfat.com

بنفسه، وحضرت الشياطين، وحضر كفار الجن كلهم، وتسعمائة وخمسين من المشركين، وثلاثمائة وثلاثة عشر من المؤمنين، وتسعون من مؤمني الجن، وألفاً من الملائكة. وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه السورة، كان يقول: «طوبى لجيش كان قائدهم رسول الله ﷺ، ومبارزهم أسد الله، وجهادهم طاعة الله، ومددهم ملائكة الله، وجاسوسهم أمين الله، وثوابهم رضوان الله».

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، يعني شكاً ونفاقاً. قال الحسن: هم قوم من المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أبيّ وأصحابه؛ ويقال: معناه ﴿إذ يقول المنافقون﴾ وهم الذين في قلوبهم مرض. قال ابن عباس: «نزلت الآية في الذين أسلموا بمكة وتخلفوا عن الهجرة، فأخرجهم أهل مكة إلى بدر كرهاً، فلما رأوا قلة المؤمنين ارتابوا ونافقوا، وقالوا لأهل مكة: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾. وقاتلوا مع المشركين فقتل عامتهم».

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، يعني يثق بالله ولا يثق بغيره، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بالنقمة، ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم الهزيمة على المشركين. فلما قتلوا ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، فنزل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: ولو ترى يا محمد إذ يتوفى الذين كفروا حين يقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ عند قبض أرواحهم ويضربون، ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يعني: ويضربون ويقول لهم الملائكة يوم القيامة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ولم يذكر الجواب، لأن في الكلام دليلاً عليه، ومعناه: لو رأيت ذلك لرأيت أمراً عظيماً. قرأ ابن عامر ﴿إذ تَتَوَفَّى﴾ الذين بلفظ التأنيث، وقرأ الباقون ﴿يَتَوَفَّى﴾ بلفظ التذكير. وروي عن ابن مسعود أنه كان يُذكِّر الملائكة في جميع القرآن، خلافاً للمشركين لقولهم: الملائكة بنات الله.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، يعني ذلك العذاب ﴿بما قدمت أيديكم﴾ من الكفر والتكذيب وبترككم الإيمان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يقول: لم يعذبهم بغير ذنب:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، يعني: صنيعهم كصنيع آل فرعون، ويقال: كأشباه آل فرعون في التكذيب والجحود، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الخالية. ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، يعني: جحدوا بعذاب الله في الدنيا أنه غير نازل بهم، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: عاقبهم

Marfat.com

وأهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وشركهم. ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، يعني: ﴿قوي﴾ في أخذه، ﴿شديد العقاب﴾ لمن عصاه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بهم، ﴿بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ في الدين والنعم. فإذا غيّروا، غيّر الله عليهم ما بهم من النعمة وهذا قول الكلبي. وروى أسباط، عن السدي في قوله ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ قال: أنعم الله تعالى بمحمد ﷺ على أهل مكة وكفروا به، فنقله إلى الأنصار. ويقال: أطعمهم من جوع، وأمنهم من خوف، فلم يشكروا، فجعل لهم مكان الأمن الخوف، ومكان الرخاء الجوع. وهذا كقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] وقال الضحاك: ما عذب الله قوماً قط ولا سلبهم النعمة، ولا فرق بينهم وبين العافية، حتى كذبوا رسلهم، فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز، فذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سميع﴾ لمقالتهم، ﴿عليم﴾ بأفعالهم.

ثم قال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في الهلاك. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يعني: بكفرهم، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾؛ يعني: فرعون لادعائه الربوبية، ولأنهم عبدوا غيري. ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾، يعني: مشركين. ومعناه: كصنيع آل فرعون وقد أعطاه الله تعالى الملك والعز في الدنيا، ولم يغير عليه تلك النعمة، حتى كذب بآيات الله، فغيّر الله عليه النعمة وأهلكه مع قومه

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، قال ابن عباس: «نزلت في بني قريظة، كعب بن الأشرف وأصحابه، لأنهم عاهدوا رسول الله ﷺ، ثم نقضوا العهد وأعانوا أهل مكة بالسلاح على قتال النبي ﷺ، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى، فنقضوا العهد»، فذلك قوله تعالى: ﴿الذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ يعني: في كل حين وفي كلّ وقتٍ ﴿وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ نقض العهد.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ يقول: إن تظفر بهم في الحرب، يعني: في

Marfat.com

القتال، ويقال: إن أدركتهم في القتال[1]، ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾؛ يقول نكّل بهم في العقوبة ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾، يعني: ليتّعظ بهم من بعدهم الذي بينك وبينهم عهد، ويقال: افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يفرق به من وراءهم من أعدائك. وقال أبو عبيدة: ﴿فشرِّد بهم﴾ إنها لغة قريش، أي: سمع بهم من خلفهم. والتشريد في كلامهم: للتشديد والتفريق. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، يعني النكال فلا ينقضون العهد.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾، يعني: وإن علمت من قوم نقض العهد. والخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة، وسمي ناقض العهد خائناً، لأنه اؤتمن بالعهد فغدر ونكث. ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، يعني: فأعلمهم بأنك قد نقضت العهد، وأعلمهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء. وقال القتبي: إذا أردت أن تعرف فضل العربية على غيرها، فانظر في الآية، وقد ترجموا سائر الكتب، ومن أراد أن يترجم القرآن إلى لغة أُخرى فلا يمكنه ذلك، لأنك لو أردت أن تنقل قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ لم تستطع بهذا اللفظ، ما لم تبسط مجموعها وتظهر مستورها فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد، فخفت منهم خيانة ونقضاً، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء. ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، يعني: الناقضين للعهد.

قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: لا يظنَّنَّ الذين كفروا من العرب وغيرهم من الذين جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿سَبَقُوا﴾، يعني: فاتوا بأعمالهم الخبيثة ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾، يقول: لن يفوتوا الله حتى يعاقبهم، ويقال: لا يجدون الله تعالى عاجزاً عن عقوبتهم. قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء على وجه المغايبة ونصب السين، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة ونصب السين، وقرأ الباقون على وجه المخاطبة وكسر السين، وقرأ ابن عامر ﴿أَنَّهُمْ﴾ بالنصب على معنى البناء، وقرأ الباقون بالكسر على معنى الابتداء. فمن قرأ بالنصب، معناه: لأنهم لا يعجزون، يعني: لا يفوتون. وقرأ بعضهم بكسر النون ﴿لا يُعْجِزُونِ﴾ يعني: لا يعجزونني؛ وهي قراءة شاذة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا

---

(١) في النسخة «أ»: «في القيام».

Marfat.com

أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، يعني: السلاح. وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: «أَلاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» ثلاثاً. وفي خبر آخر زيادة: «لَهُوَ المُؤْمِنِ فِي الخَلاءِ وَقُوَّتُهُ عِنْدَ القِتَالِ». وروي عن عكرمة قال أي ثلاثاً: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: الحصون. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾، قال: الإناث من الخيل.

ثم قال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾، يعني: تخوفون بالسلاح ﴿عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ﴾، يعني: كفار العرب، ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾، يعني: بني قريظة. ﴿لا تَعْلَمُونَهُمْ﴾، يعني: لا تعرفونهم. ﴿الله يَعْلَمُهُمْ﴾، يعني: يعرفهم ويعرفكم، فأعدوا لهم أيضاً. وقال مقاتل: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: من دون كفار العرب، يعني: اليهود. وقال السدي: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أهل فارس.

ثم قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله﴾، يعني: السلاح والخيل. ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه. ﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾، أي: لا تنقصون من ثواب أعمالكم. ويقال: إن الجن لا يدخل في بيت فيه قوس وسهام.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾، يقول: إن أرادوا الصلح ومالوا إليه، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ يعني: مل إليها وأردْهُ يعني: صالحهم. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسِّلْمِ﴾ بالكسر، وقرأ الباقون بالنصب. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾، يعني: ثق بالله وإن نقضوا العهد والصلح، فإني أنصرك ولا أخذلك. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، يعني ﴿السميع﴾ بمقالتهم، ﴿العليم﴾ بنقض العهد.

قال الفقيه: إنما يجوز الصلح إذا لم يكن للمسلمين قوة القتال، فأما إذا كان للمسلمين قوة فلا ينبغي أن يصالحوهم، وينبغي أن يقاتلوهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية إن لم يكونوا من العرب. وإنّما لم توضع الجزية على العرب وتوضع على غير العرب، حتى لا تبقى بقية الكفر في أنساب النبي ﷺ، لأن العرب كلهم من نسبه، ولا توضع حتى يسلموا أو يقتلوا. وإنما أمر الله تعالى نبيه بالصلح، حين كانت الغلبة للمشركين، وكانت بالمسلمين قلة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح، يعني: يهود بني قريظة أرادوا أن يصالحوك لتكف عنهم، حتى إذا جاء مشركو العرب أعانوهم عليك.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ الله﴾ يعني: إن أرادوا إن يخدعوك، حسبك الله بالنصرة لك. ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ وأعانك وقواك ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الأنصار وهم قبيلتان: الأوس والخزرج.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بينَ قُلوبِهِمْ﴾، يعني: ليّن قلوبهم من العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية. ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، يعني: ما قدرت أن تؤلف بينهم، ﴿وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالإسلام. ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ حكم بالألفة بين الأنصار بعد العداوة، وحكم بالنصر على أعدائه.

وروى أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: «نزلت هذه الآية في المتحابين في الله» ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ وقال عبد الله: «المؤمن متألف يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ الله﴾ بالنصر والعون لك، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾. قال بعضهم: ﴿مَنْ﴾ في موضع الرفع، ومعناه: حسبك من اتبعك من المؤمنين خاصة وهم الأنصار. ويقال: يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويقال: هذه الآية خاصة من هذه السورة، نزلت بمكة، حين أسلم عمر وكان المسلمون تسعة وثلاثين، فلما أسلم عمر رضي الله عنه تمّ أربعون، وظهر الإسلام بمكة بإسلام عمر[1]. وقال بعضهم: ﴿من﴾ في موضع النصب، يعني: حسبك ومن اتبعك من المؤمنين. وقال الضحاك: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله، وهو ناصرهم في الدنيا والآخرة.

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾، يعني: حثّهم على قتال الكفار. ﴿إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾، يعني: محتسبين في الجهاد، ﴿يغلبوا مائتين﴾ يعني: يقاتلون مائتين، ويثبتوا على القتال لينصرهم الله. ﴿وإن يكن منكم مئة﴾ صابرة يعني: محتسبة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ أمر الله تعالى. وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد: فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً يوم بدر، جعل على كل رجل منهم قتال عشرة، فرفعوا أصواتهم بالدعاء فضجوا، فجعل على كل رجل قتال رجلين تخفيفاً من الله، وهو قوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ الله عَنكُمْ﴾ يعني: هوّن الله عليكم القتال الذي افترض الله عليكم

(١) عزاه السيوطي ٤/١٠١ إلى الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

Marfat.com

يوم بدر. ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾؛ يعني: عجزاً عن القتال. ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾، يعني: محتسبة صادقة، ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من المشركين. ﴿وَإِن يَكُن مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ من المشركين ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾، يعني: بأمر الله تعالى وبنصرته. ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصرة لهم على عدوهم.

وقال مقاتل: لم تكن فريضة، ولكن كان تحريضاً، فلم يطق المؤمنون، فخفف الله عنهم بعد قتال بدر فنزل: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ وروى عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: «فرض على المسلمين أن لا يفر رجل من عشرة، ولا عشرة من مائة، فجهد الناس وشقّ عليهم، فنزلت هذه الآية[1]: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ ففرض عليهم أن لا يفر رجل من رجلين، ولا قوم من مثلهم، فنقص من النصرة بقدر ما نقص من العدد. وروى عطاء، عن ابن عباس قال: «من فرّ من رجلين فقد فرّ، ومن فرّ من ثلاثة لم يفر». قال الفقيه: إذا لم يكن معه سلاح ومع الآخر سلاح، جاز له أن يفر، لأنه ليس بمقاتل.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾؛ يقول: ما ينبغي وما يجوز للنبيّ أن يبيع الأسارى، يقول: لا يقبل الفدية عن الأسارى، ولكن السيف ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾، يعني: حتى يغلب في الأرض على عدوه. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿فَإِنْ تَكُنْ﴾ كلاهما بالتاء بلفظ التأنيث، لأن لفظ جماعة العدد مؤنث، وقرأ أبو عمرو الأولى خاصة بالياء، والأُخرى بالتاء. وقرأ الباقون كلاهما بالتاء بلفظ التذكير، لأن الفعل مقدم. وقرأ حمزة وعاصم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ بنصب الضاد وجزم العين، وقرأ الباقون بضم الضاد، ومعناهما واحد: ضَعف وضعف، وهما لغتان. وقرأ بعضهم ﴿ضُعَفَاً﴾ بضم الضاد ونصب العين، وهي قراءة أبي جعفر المدني يعني: عجزةً.

قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، يعني: الفداء وروي عن ابن عباس قال: «لما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: **«ما تَرَوْنَ في هَؤُلاءِ الأُسَارَى»؟** قال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى لهم أن تأخذ منهم الفدية فتكون لنا عدة على الكفار، ولعل الله يهديهم الإسلام. وقال عمر: أرى أن تمكننا منهم، فنضرب أعناقهم. فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ما قال أبو بكر، قال عمر: فلما كان من الغد

(١) عزاه السيوطي: ١٠٢/٤ إلى البخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي.

Marfat.com

جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت: يا رسول الله، من أي شيء تبكي؟ فقال: «أَبكي لِلَّذِي عُرِضَ عَلَيَّ لأَصْحَابِكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الفِدَاءَ». فنزل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَوْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَذَابٌ ما نَجَا مِنْهُ أَحَدٌ غَيْر عُمَرَ». قرأ أبو عمرو ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ بلفظ التأنيث، والباقون بالياء بلفظ التذكير، لأن الفعل مقدم.

ثم قال: ﴿وَالله يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾، يعني: عزة الدين. ﴿وَالله عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حكيم﴾ في أمره.

قوله تعالى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ﴾، يقول: لولا أن الله أحلّ الغنائم لأمة محمد ﷺ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾؛ يعني: لأصابكم فيما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثم طيّبها ـ وأحلّها لهم فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً﴾. وروى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: «لم تحل الغنيمة لقوم سود الرؤوس قبلكم، كان تنزل نار من السماء فتأكلها، حتى كان بدر، فوقعوا في الغنائم فأحلت لهم» فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ﴾ وقال النبي ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي، بُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَجُعِلَتْ لِي شَفَاعَةٌ لأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وللآية وجه آخر. روى الضحاك في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ وذلك: أنه لما كان يوم بدر ووقعت الهزيمة على المشركين، أسرع أصحاب رسول الله ﷺ في أخذ أسلاب المشركين ممن قتل يوم بدر، وأخذ الغنائم وفداء الأسرى وشغلوا أنفسهم بذلك عن القتال، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا ترى إلى ما يصنع أصحابك؟ تركوا قتال العدو، وأقبلوا على أسلابهم، وإني أخاف أن تعطف عليهم خيل من خيل المشركين فنزل: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، يعني: أتطلبون الغنائم وتتركون القتال ﴿وَالله يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾، يعني: قهر المشركين وإظهار الإسلام، ﴿وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ﴾؛ يعني: لولا ما سبق في الكتاب أن الغنائم تحلّ لهذه الأمة، لأصابكم ﴿عذاب عظيم﴾ وقال النبي ﷺ: «لَوْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَذَابٌ، مَا نَجَا أَحَدٌ غير عُمَرَ، لأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ القِتَالَ»(٢).

---

(١) حديث أبي ذر: أخرجه أحمد: ٥/١٤٨ وصححه الحاكم ٢/٤١٣ ووافقه الذهبي. والبزار (٣٤٦١) وفي الباب حديث جابر عند البخاري (٣٣٥) و(٤٣٨) و(٣١٢٢) ومسلم (٥٢١) وأحمد ٣/٣٠٤ والنسائي: ١/٢١٠ والبغوي (٣٦١٦).

(٢) أخرجه السيوطي: ٣/٢٠٣ والقرطبي: ٨/٤٧ والطبراني: ١٠/٣٤.

Marfat.com

وروى مجاهد، عن ابن عباس قال: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ قال: سبقت من الله الرحمة لهذه الأمة قبل أن يعملوا بالمعصية» وقال الحسن: سبقت المغفرة لأهل بدر. وعن الحسن أنه قال: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ قال: في الكتاب السابق من الله تعالى أن لا يعذب قوماً إلا بعد قيام الحجة عليهم. وقال سعيد بن جبير: لَوْلاَ ما سبق لأهل بدر من السعادة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ويقال: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ أن لا يعذب قوماً، حتى يبين لهم ما يتقون.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ يعني: اتقوا الله فيما أمركم به ولا تعصوه. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾، متجاوز يعني: ذو تجاوز فيما أخذتم من الغنيمة قبل حلها ﴿رحيم﴾ إذ أحلها لكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى﴾، قرأ أبو عمرو ﴿مِنَ الأُسَارَى﴾ بالضم وزيادة الألف، وقرأ الباقون ﴿الأَسْرَى﴾ بالنصب وبغير الألف. فمن قرأ بالأسرى فهو جماعة الأسير، يقال: أسير وأسرى، مثل جريح وجرحى، ومريض ومرضى، وقتيل وقتلى. من قرأ بالأسارى فهو جمع الجمع؛ ويقال: هما لغتان بمعنى واحد.

وذلك أن النبي ﷺ لما وضع الفداء على كل إنسان من الأسارى أربعين أوقية من ذهب، فكان مع العباس عشرون أوقية من ذهب، فأخذ منه ولم يحسبها من فدائه، وكان قد خرج بها معه ليطعم بها أهل بدر من المشركين لأنه كان أحد الثلاثة عشر الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، وقد جاءت نوبته فأراد أن يطعمهم، فاقتتلوا يومئذ فلم يطعمهم، حتى أُخِذَ وأُخذ ما معه؛ فكلَّم العباس رسول الله ﷺ أن يجعل العشرين أوقية من فدائه، فأبى عليه وقال: «هٰذَا شَيْءٌ خَرَجْتَ لِتَسْتَعِينَ بِهِ عَلَيْنَا فَلا أَتْرُكُهُ لَكَ»، فوضع عليه فداءه وفداء ابن أخيه عقيل، فقال العباس: «أتترك عمك يسأل الناس بكفه؟» فقال له رسول الله ﷺ: «أَيْنَ الذَّهَبُ الَّذِي أَعْطَيْتَ لأُمِّ الفَضْلِ، وَقُلْتَ لَهَا كَيْتَ وَكَيْتَ»؟ فقال له: من أعلمك بهذا يا ابن أخي؟ قال: «الله أَخْبَرَنِي». فأسلم العباس وأمر ابن أخيه أن يسلم(١) فنزل: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى﴾ يعني العباس وابن أخيه. ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾، يعني: معرفة وصدقاً وإيماناً، كقوله: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١] يعني: إيماناً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾، يعني يعطيكم في الدنيا من الفداء، ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم. ﴿والله غفور﴾ لما كان في الشرك، ﴿رحيم﴾ به في الإسلام.

روى سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/١١١ إلى الحاكم وصححه والبيهقي في سننه.

Marfat.com

الله ﷺ من البحرين بثمانين ألفاً، ما أتاه من مال أكثر منه لا قبل ولا بعد، قال: فنُثِرَتْ على حصيرٍ ونودي بالصلاة، فجاء رسول الله ﷺ، فمثل على المال قائماً وجاء أهل المسجد، فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا قبضاً. قال: فجاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطيتُ فدائي وفداءَ عقيلٍ يوم بدر، ولم يكن لعقيل مالٌ، فأعطني من هذا المال. فقال: خذ من هذا المال، قال: فحثى في خميصته فأراد أن يقوم فلم يستطع، فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع عَلَيَّ. فتبسم رسول الله ﷺ فقال: «أَعِدْ مِنَ المَالِ طَائِفَةً وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ». قال: ففعل، فجعل العباس يقول وهو منطلق: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزها، فلا ندري ما يصنع في الأُخرى وهو قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وعن أبي صالح أنه قال: رأيت للعباس بن عبد المطلب عشرين عبداً، كل واحد منهم يتجر بعشرة آلاف، قال العباس: أنجزني الله أحد الوعدين، فأرجو أن ينجز الوعد الثاني[1].

ويقال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ويغفر لكم﴾ يعني الجنة.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾، يعني خلافك ويميلوا إلى الكفر بعد إسلامهم، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ﴾؛ يعني: عصوا الله وكفروا من قبل. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، يعني: فأمكنك منهم وأظهرك عليهم يوم بدر، حتى قهرتهم وأسرتهم. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث أمكنك عليهم، يعني: إن خانوك أمكنك منهم، لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: صدقوا بتوحيد الله وبمحمد ﷺ والقرآن، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة، ﴿وَجَاهَدُوا﴾ العدو ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: في طاعته وفيما فيه رضاه الله.

ثم ذكر الأنصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا﴾، يعني: آووا رسول الله ﷺ ونصروه والمهاجرين، يعني: أنزلوهم وأسكنوهم ديارهم، ونصروا رسول الله ﷺ بالسيف. ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يعني: في الميراث وفي الولاية، ليرغبهم في الهجرة فريضة في ذلك الوقت.

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ١١٢ إلى ابن سعد والحاكم وصححه.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى المدينة. ﴿مَا لَكُم مِن وِلايَتِهِمْ مِن شَيْءٍ﴾ في الميراث. قرأ حمزة ﴿وِلايَتِهِمْ﴾ بكسر الواو، وقرأ الباقون ﴿وَلايَتِهِمْ﴾ بالنصب، يعني: النصرة، ومن قرأ بالكسر فهو من الإمارة والسلطان. ثم قال ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، يعني: إلى المدينة قالوا: يا رسول الله، هل نعينهم إذا استعانوا بنا على المشركين؟ يعني: الذين آمنوا ولم يهاجروا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾، يعني استغاثوا بكم على المشركين فانصروهم، ﴿فَعَلَيْكُم النَّصْرُ﴾ على من قاتلهم، ﴿إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾؛ يعني: إلا أن يقاتلوا قوماً بينكم وبينهم ميثاق عهد، فلا تنصروهم عليهم وأصلحوا بينهم. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في العون والنصرة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يعني: في الميراث، يرث بعضهم من بعض. ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾، يعني: إن لم تفعلوا، يعني: ولاية المؤمن للمؤمن، والكافر للكافر، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ﴾؛ يعني: بلية ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، يعني: سفك الدماء، فافعلوا ما أمرتم واعرفوا أن الولاية في الدين. وقال الضحاك: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة وكفار ثقيف ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾، يعني: إن لم تطيعوا الله في قتل الفريقين، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وقال مقاتل: وفي الآية تقديم ومعناه: وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر، ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ يعني: إن لم تنصروهم على غير أهل عهدكم من المشركين، ﴿تكن فتنة في الأرض﴾ يعني: كفر وفساد كبير في الأرض.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا﴾، يعني: أنزلوا وأوطنوا ديارهم المهاجرين، ﴿وَنَصَرُوا﴾ النبي ﷺ. وإنما سُمّي المهاجرون مهاجرين، لأنهم هجروا قومهم وديارهم. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾، يعني: صدقاً. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، يعني: ثواب حسن في الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وهاجروا﴾، يعني: من بعد المهاجرين ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾؛ يعني: على دينكم. ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾، يعني: في الميراث من المهاجرين والأنصار.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة

Marfat.com

وبالمؤاخاة التي آخى بينهم النبي ﷺ، وكانوا يتوارثون بالإسلام وبالهجرة؛ وكان الرجل يسلم ولا يهاجر فلا يرثه أخاه، فنسخ ذلك قوله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ وروى محمد بن سالم عن الشعبي قال: كان عبد الله بن مسعود لا يعطي مولى نعمة مع ذي رحمٍ شيئاً، ويتأوّل هذه الآية ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ﴾ وروى الحسن بن صالح، عن ابن عباس أنه قال: «هيهاتِ هيهاتِ، أين ذهب عبد الله بن مسعود؟ إنما كان المهاجرون يتوارثون دون الأعراب فنزل ﴿أُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ ثم قال: ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾، يعني: في حكم الله، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] يعني: حكم الله تعالى. ويقال: ﴿فِي كِتَابِ الله﴾ مبين في القرآن، ويقال: ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من قسمة المواريث، ﴿عليم﴾ بما فرض الله من المواريث والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد.

Marfat.com

سورة التوبة

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال ابن عباس: كلها مدنية وقال مقاتل: كلها مدنية إلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الماسرخسي قال: حدثنا إسحاق قال: أخبرني أسامة قال: حدثنا عوف بن أبي جميلة قال: حدثني يزيد الفارسي وهو كاتب ابن عباس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان: «ما حملكم على أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المائين، فقرأتموهما معاً ولم تكتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ووضعتموهما في السبع الطوال»؟ فقال عثمان: «كان النبي ﷺ تنزل عليه السورة ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب له ويقول: «ضَعُوا هٰذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها كَذَا وَكَذَا». وكانت الأنفال من أول ما أنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة في آخر القرآن، وكانت قصتهما يشبه بعضها بعضاً فظننت أنها منها، وقبض النبي ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنتُ بينهما، ولم أكتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم».

وذكر عن الكلبي أنه قال: براءة من الأنفال، فلذلك لم يكتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وهي تسمى الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين. وروي عن عليّ بن أبي طالب أنه سئل عن ذلك، فقال: «لأنها نزلت في السيف، وليس في السيف أمان»، «وبسم الله الرحمٰن الرحيم» من الأمان. وروي عن عائشة أنها قالت: نسي الكاتب أن يكتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في أول هذه السورة، فتركت على حالها.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: تبرؤ من الله ورسوله ـ لمن كان له عهد من المشركين من ذلك العهد ويقال: ﴿براءة﴾ أي قطع من الله ورسوله إلى من كان له عهد في المشركين من ذلك العهد[(١)] ـ ويقال: هذه السورة ﴿براءة من الله ورسوله﴾ ـ ويقال: هذه الآية ﴿براءة من لله ورسوله﴾[(٢)] ـ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقال ابن عباس: «البراءة

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

نقض العهد ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ يقول: من كان بينه وبين رسول الله عهد، فقد نقضه[١]، وذلك أن المشركين نقضوا عهودهم قبل الأجل، وأمر الله تعالى نبيه فيمن كان له عهد أربعة أشهر، أن يقره إلى أن يمضي أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك أن يحطه إلى أربعة أشهر.

وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها، فأراد الحج، ثم قال: «إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً، فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يجتمعون بها، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، وهي الأشهر الحرم، ثم لا عهد لهم[٢]؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، يعني: فسيروا في الأرض أربعة أشهر آمنين غير خائفين، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾؛ يعني: غير سابقي الله بأعمالكم، وغير فائتين بعد الأربعة الأشهر. ومعناه: إنكم وإن أجلتم هذه الأربعة الأشهر إنكم لن تفوتوا الله. ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ يعني: واعلموا أن الله ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾، يعني: مذل الكافرين. ويقال: معذب الكافرين في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، يعني: إعلام من الله ورسوله. وروي عن أبي هريرة أنه قال: «كنت مع عليّ بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ببراءة، فقيل: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله وأمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج بعد العام مشرك».

ويقال: «بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ومعه عشر آيات، وأمره أن يقرأها على أهل مكة، ثم بعث علياً وأمره أن يقرأ هذه الآيات» ويقال: إنما أمر علياً بالقرآن، لأن أبا بكر كان خفيض الصوت وكان عليّ جهوريّ الصوت، فأراد أن يقرأ عليٌّ حتى يسمعوا جميعاً فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾. ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾. وروى الأعمش، عن عبد الله بن

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) عزاه السيوطي ٤/١٢٢ إلى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

Marfat.com

أبي سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم النحر، وقال: «هذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر» وقال الحسن: إنما سمي الحج الأكبر، لأنه حج أبو بكر فاجتمع فيها المسلمون والمشركون، ووافق أيضاً عيد اليهود والنصارى، فلذلك سمي الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين في ذلك اليوم.

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «الحج الأكبر يوم النحر». وروي عن قيس بن مخرمة أن النبيﷺ قال: «**الحَجُّ الأَكْبَرُ يَوْمُ عَرَفَةَ**» وإنما سمي يوم عرفة يوم الحج الأكبر[١]، لأنه يوقف بعرفة». ويقال: الحج الأكبر هو الحج، والحج الأصغر هو العمرة. كما قال ابن عباس: «العمرة هي الحجة الصغرى» وقال ابن أبي أوفى: «يوم الحج الأكبر يوم إهراق الدماء وحلق الشعر، وهو يوم النحر».

﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، يعني: ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ بعضهم **﴿ورسُولَهُ﴾** بنصب اللام ومعناه: أن رسوله بريء من المشركين، وهي قراءة شاذة.

ثمّ قال: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾، يعني: رجعتم من الكفر، **﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾** من الإقامة عليه. **﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾**، يعني: أبيتم الإسلام وأقمتم على الكفر وعبادة الأوثان، **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾**؛ يعني: لن تفوتوا من عذابه.

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ وهو القتل في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

ثم استثنى الذين لم ينقضوا العهد فقال: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**، وهم بنو كنانة وبنو ضمرة **﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾** من عهودكم، **﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾**؛ يقول: ولم يعاونوا **﴿عليكم أحداً﴾** **﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾**، يعني: إلى تمام أجلهم. **﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾** الذين يتقون نقض العهد.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ يقول: إذا مضى الأشهر التي جعلتها أجلهم، **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾** في الحل والحرم، يعني: المشركين الذين لا عهد لهم بعد ذلك الأجل. ويقال: إن هذه الآية **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾** نسخت سبعين آية في القرآن من الصلح والعهد والكف، مثل قوله **﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾** [الأنعام: ٦٦] وقوله: **﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾** [الغاشية: ٢٢]، وقوله: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾** [النساء: ٦٣]، وقوله: **﴿لَكُمْ**

---

(١) عزاه السيوطي: ١٢٧/٤ إلى الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

Marfat.com

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]؛ وما سوى ذلك من الآيات التي نحو هذا صارت كلها منسوخة بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾، يعني: ائسروهم وشدوهم بالوثاق، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾؛ يعني: إن لم تظفروا بهم، فاحصروهم في الحصن والحصار. قال الكلبي: يعني: واحبسوهم عن البيت الحرام أن يدخلوه. وقال مقاتل: ﴿واحصروهم﴾ يعني: التمسوهم، ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ يعني: ارصدوا لهم بكل طريق. وقال الأخفش: يعني: اقعدوا لهم على كل مرصد. وكلمة «على» محذوفة من الكلام، ومعناه: واقعدوا لهم على كل طريق يأخذون فيه. ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، يعني: وأقرّوا بالصلاة. ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾، يعني: وأقروا بالزكاة المفروضة. ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، يعني: اتركوهم ولا تقتلوهم. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يعني: ﴿غفور﴾ لما كان من الذنوب في الشرك، ﴿رحيم﴾ بهم بعد الإسلام.

فقال رجل من المشركين: يا عليّ، إن أراد رجل منا بعد انقضاء الأجل أن يأتي محمداً ويسمع كلامه، أو يأتيه لحاجة، أيقتل؟ فقال عليّ: «لا».

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ⁽٦⁾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ⁽٧⁾﴾

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾، يعني: استأمنك. ويقال: فيه تقديم، ومعناه: وإن استجارك أحد من المشركين، يقول: وإن طلب أحد من المشركين منك الأمان، ﴿فأجزه﴾، يقول: فآمنه، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾؛ يعني: اعرض عليه القرآن حتى يسمع قراءتك بكلام الله، فإن أبى أن يسلم ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾؛ يقول: فرده إلى مأمنه من حيث أتاك. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾، يعني: أمرتك بذلك، لأنهم قوم لا يعلمون حكم الله تعالى. وفي الآية دليل: أن حربياً لو دخل دار الإسلام على وجه الأمان، يكون آمناً ما لم يرجع إلى مأمنه.

ثم قال على وجه التعجب: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ ويقال: على وجه التوبيخ، يعني: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، يعني: بني كنانة وبني ضمرة، وهم لم ينقضوا العهد، فأمر الله تعالى بإتمام عهدهم. ويقال: هم بنو خزاعة، وبنو مدلج، وبنو خزيمة. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ على وفاء العهد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بالوفاء على التمام. ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون ربهم ويمتنعون عن نقض العهد.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ⁽٨⁾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا

Marfat.com

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾؛ يقول: كيف تقاتلوهم[1]. ويقال: كيف يكون لهم عهد، وقد سبق في الكلام ما يدل على هذا الإضمار ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقول: يغلبوا عليكم ويظفروا بكم. ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً﴾، يعني: لا يحفظوا فيكم قرابة ولا عهداً. وقال سعيد بن جبير: الإل هو الله تعالى. وقال ابن عباس: «الإل القرابة والذمة والعهد». ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يعني: بألسنتهم مثل قول المنافقين. ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: وتنكر قلوبهم، يقولون قولاً بغير حقيقة. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾، يعني: عاصون بنقض العهد.

قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً﴾؛ قال مقاتل: باعوا الإيمان بعرض من الدنيا وذلك أن أبا سفيان كان يعطي الناقة والطعام والشيء، ليصد بذلك الناس عن متابعة النبي ﷺ. وقال الكلبي: ﴿اشْتَرَوا بِآيَاتِ الله ثَمَناً قليلاً﴾؛ يقول: كتموا صفة رسول الله ﷺ في كتابهم بشيء من الماكلة، يأخذونه من السفلة. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يعني: بئسما كانوا يعملون بصدهم الناس عن دين الله.

قوله تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً﴾، يعني: لا يحفظون في المؤمنين قرابة ولا عهداً. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ بنقض العهد وترك أمر الله تعالى.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾؛ يعني: أقروا بهما، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، يعني: هم مؤمنون مثلكم. ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، يعني: نبيّن العلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾؛ يعني: نقضوا عهودهم ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾؛ يعني: بعد أجله، ﴿وَطَعَنُوا في دينكم﴾؛ يقول: وعابوا فِي دِينِكُمْ الإسلام، ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَةَ الْكُفْرِ﴾؛ يعني: قادة أهل الكفر ورؤساءهم. ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾. قرأ ابن عامر لا ﴿إِيمَانَ﴾ بالكسر، وهي قراءة الحسن البصري يعني: لا إسلام لهم، والباقون ﴿لا أيمان﴾ بالنصب يعني: لا عهد لهم. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿أئمة﴾ بهمزة، واحدة والباقون بهمزتين. ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾، يعني: لعلهم ينتهون عن نقض العهد.

(١) في النسخة «ب» كيف لا تقتلونهم.

Marfat.com

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم حث المؤمنين على قتال كفار قريش، وذلك قبل فتح مكة، فقال عز وجل: ﴿أَلا تُقاتِلُون قَوماً نَكثُوا أيمانَهُم﴾؛ يقول: نقضوا عهودهم من قبل أجلها. ﴿وَهَمُّوا بإخراج الرسول﴾ يقول: هموا لقتال الرسول، ﴿وَهُمْ بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بنقض العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة. ﴿أَتخشَونَهُمْ﴾ أي: أفلا تقاتلونهم؟ ﴿فالله أَحَقُّ أَنْ تَخشَوهُ﴾ في ترك أمره، ﴿إِنْ كُنتُم مُؤمِنينَ﴾ يعني: إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى.

ثم وعد لهم النصرة، فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ الله بِأَيدِيكُمْ﴾، يعني: بالقتل والهزيمة ﴿ويُخزهِمْ﴾ يعني: ويذلهم بالهزيمة، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ﴾؛ يعني: على قريش، ﴿وَيَشْفِ صُدُور قَوْم مُؤمِنينَ﴾؛ يعني: ويفرح قلوب بني خزاعة. وفي الآية دلالة نبوة محمد ﷺ، لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبي ﷺ أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم، فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم.

قال الفقيه: حدثنا أبي قال: حدثنا أحمد بن يحيى السمرقندي قال: حدثنا محمد بن الحسن الجوى باري قال: حدثنا حماد بن زيد، عن عكرمة قال: لما واعد رسول الله ﷺ أهل مكة، وقد كانت بنو خزاعة حُلفاء رسول الله ﷺ في الجاهلية، وكان بنو بكر حلفاء قريش، فدخلت بنو خزاعة في صلح رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في صلح قريش، ثم كان بين بني خزاعة وبين بني بكر قتال: فأمدت قريش بني بكر بسلاح وطعام وظلّوا عليهم، ثم إن قريشاً خافوا أن يكونوا قد نقضوا العهد وغدروا، فقالوا لأبي سفيان: اذهب إلى محمد وجدد الحلف ثانياً، فليس في قوم أطعموا قوماً ما يكون فيه نقض عهدٍ. يعني: إن الذي أطعم الطعام فلا يكون عليه نقض عهدٍ[1]. فانطلق أبو سفيان في ذلك، فلما قصد أبو سفيان المدينة قال رسول الله ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَسَيَرْجِعُ رَاضِياً بِغَيْرِ قَضَاءِ حَاجَتِهِ». فلما قدم أبو سفيان المدينة، أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، جدّد الحلف وأصلح بين الناس، فقال له أبو بكر: الأمر إلى الله والى رسوله. ثم أتى عمر فقال له نحو ما قال لأبي بكر، فقال له عمر: أنْ نقضتم، أنْ

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

نقضتم؟[1] فما كان منه جديداً فأبلاه الله، وما كان منه متيناً أو شديداً فقطعه الله تعالى، فقال له أبو سفيان: ما رأيت كاليوم شاهد عشيرة يعني: شاهداً على هلاك قومه مثلك. ثم أتى فاطمة فقال لها: يا فاطمة، هل لك في أمر تسودين فيه نساء قريش؟ ثم قال لها نحو ما قال لأبي بكر وعمر، فقالت: الأمر إلى الله وإلى رسوله. ثم أتى علياً فذكر له نحواً من ذلك، فقال له عليّ: ما رأيت كاليوم رجلاً أضل منك، أنت سيد الناس، فجدِّد الحلف وأصلح بين الناس. فضرب أبو سفيان يمينه على يساره فقال: أجرتُ الناس بعضهم من بعض ثم رجع إلى قومه فأخبرهم بما صنع، فقالوا: ما رأينا كاليوم وافد قوم والله ما جئتنا بصلح فنأمن، ولا بحرب فنحذر وقدم وافد بني خزاعة على النبي ﷺ، فأخبره بما صنع القوم ودعاه إلى النصرة، فقال في ذلك شعراً:

اللَّهُمَّ إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا
إنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ المَوْعِدَا ... وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤَكَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا ... وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدا
هُمْ بَيَّتُونا بِالوَتِينِ هجدَا[2] ... وَقَتَلُونا رُكَّعاً وَسُجَّدَا
إسلامُنا قد صحَّ لَمْ نَنْزعْ يدا ... فَانْصُرْ رَسُولَ اللهِ نَصْراً أَعْتَدَا
وَابْعَثْ جُنُودَ اللهِ تَأْتِي مَدَدَا ... فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا[3]

فأمر النبي ﷺ بالرحيل. وروي في خبر آخر أن النبي ﷺ قال: «**والله، لأَغْزُوَنَّ قُرَيْشاً وَاللهِ لأَغْزُوَنَّ قُرَيْشاً**»[4]. وقال: «**والله لا نُصِرْتُ، إنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ**». فخرج إلى مكة ومعه عشرة آلاف رجل، ثم رجعنا إلى حديث عكرمة قال: فتجهزوا. وأقبل رسول الله ﷺ بالناس، حتى نزلوا برمال الظهران، فخرج أبو سفيان من مكة، فرأى العسكر والنيران فقال: ما هذه؟ فقيل: هؤلاء بنو تميم. فقال: والله هؤلاء أكثر من أهل منًى. فلما علم أنه رسول الله ﷺ، تنكّر وأقبل يقول: دلوني على العباس، فأتاه فانطلق به إلى رسول الله ﷺ، حتى أدخله عليه، فقال له: رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**». فقال أبو سفيان: كيف أصنع باللّات والعزى؟

قال حماد بن زيد: حدثني أبو الخليل، عن سعيد بن جبير، أن عمر قال وهو خارج من القبة، وفي عنقه السيف: «أخر عليهما، أما والله لو كنت خارجاً عن القبة ما سألت عنهما أبداً،

---

(١) في النسخة «ب» نقضتم.

(٢) في النسخة: «ب» بالحطيم.

(٣) قال السيوطي في الدر المنثور: ٤/١٣٨ ـ ١٣٩: أخرجه ابن إسحق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور ابن مخرمة. وفيه أن عمرو بن سالم قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده إياها.

(٤) حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود (٣٢٨٥) والبيهقي: ١٠/٤٧ ـ ٤٨ والطحاوي: ٢/٣٧٩ وأبو يعلى (٢٦٧٤).

Marfat.com

قال: من هذا؟ فقالوا: عمر بن الخطاب، فأسلم أبو سفيان، فانطلق به العباس إلى منزله، فلما أصبح رأى الناس قد تحركوا للوضوء والصلاة، فقال أبو سفيان للعباس: يا أبا الفضل، أو أمروا فيَّ بشيء؟ قال: لا، ولكنهم قاموا إلى الصلاة، فتوضأ ثم انطلق به إلى رسول الله ﷺ، فلما قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة قاموا، فلما كبر كبروا، فلما ركع ركعوا، فلما سجد سجدوا. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل، ما رأيت كاليوم طاعة قوم، لا فارس الأكارم، والروم ذات القرون.

قال حماد بن زيد: فزعم يزيد بن حازم، عن عكرمة أنه قال: يا أبا الفضل، أصبح ابن أخيك عظيم الملك، فقال له العباس: إنه ليس بملك ولكن نبوة. قال: هو ذاك. فقال حماد: قال أيوب ثم قال: «واصباح قريش» فقال العباس: يا رسول الله، لو أذنت لي فأتيتهم ودعوتهم، وأمنتهم وجعلت لأبي سفيان شيئاً يذكر به. قال ﷺ: «فَافْعَلْ»فركب العباس بغلة رسول الله ﷺ، ودخل مكة فنادى: يا أهل مكة أسلموا تسلموا فقد استبطأتم بأشهب باذل، قد جاءكم الزبير من أعلى مكة، وجاء خالد من أسفل مكة، وخالد وما خالد، والزبير وما الزبير، ثم قال: من أسلم فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل وأغلق بابه فهو آمن ومن تعلّق بأستار الكعبة فهو آمن. ثم إن رسول الله ﷺ ظهر عليهم، فآمن الناسُ جميعاً إلا بني بكر من أجل خزاعة، فقاتلتهم خزاعة إلى نصف النهار، فأنزل الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهم خزاعة. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: حقد قلوب خزاعة. وروى مصعب بن سعد، عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة، آمن الناس إلا ستة نفرٍ: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن ضبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وامرأتين فقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة».

وروى عبد الله بن رباح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين سار إلى مكة، ذكر إلى أن قال: «دخل صناديد قريش من المشركين إلى الكعبة، وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، فطاف رسول الله ﷺ بالبيت فصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة، فأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟» قالوا: نقول أخ كريم، وابن عم حليم رحيم. قال: أقول كما قال يوسف: «﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾» فخرجوا كأنما نشروا من القبور ودخلوا في الإسلام، وخرج رسول الله ﷺ من الباب الذي يلي الصفا فخطب والأنصار أسفل منه، فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما إن الرجل أخذته الرأفة بقومه وأدركته الرغبة في قرابته، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَقُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ وَاللهِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ حَقّاً، إِنَّ مَحياه لَمَحْيَاكُمْ، وَإِنَّ مَمَاتَه لَمَمَاتُكُمْ». فقالوا: يا رسول الله، قلنا مخافة أن تفارقنا ضناً بك. قال: «أَنْتُمُ الصَّادِقُونَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ».

قال الله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾، يعني: من أهل مكة يهديهم الله لدينه. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يؤمن من خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾، وذلك أنه لما أمرهم الله تعالى بالقتال، شق ذلك على بعض المؤمنين، فنزل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾، يعني: أظننتم أن تتركوا على الإيمان أيها المؤمنون، ولا تبتلوا بالقتال ولا تؤمروا به. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، يعني: لم يميز الله الذين جاهدوا منكم من الذين لم يجاهدوا. وقد كان يعلم الله ذلك منهم قبل أن يجاهدوا وقبل أن يخلقهم، ولكن كان علمه علم الغيب، ولا يستوجبون الجنة والثواب بذلك العلم، وإنما يستوجبون الثواب والعقاب بما يظهر منهم من الجهاد. ويقال: معناه أظننتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد وبغير تعب النفس؟ وهكذا قال في آية أخرى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤]. وكما قال في آية أخرى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ [العنكبوت: ٢] الآية.

ثم قال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ﴾، يعني: لم يتخذوا أولياء من دون الله تعالى ولا رسوله، يعني: ولا من دون رسوله، ﴿وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: يميزهم من غيرهم، ﴿وَلِيجَةً﴾؛ يعني: بطانة من غير أهل دينه، ليفشي إليه سره. وقال الزجاج: الوليجة البطانة، وهي مأخوذة من ولج الشيء في الشيء إذا دخل، يعني: ولم يتخذوا بينهم وبين أهل الكفر خُلَّةً ومودة. ويقال: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة يخبرهم بأن النبي ﷺ يريد الخروج إليهم، وأراد بذلك مودة أهل مكة، وفيه نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يعني: من الخير والشر والجهاد والتخلف ومودة أهل الكفر.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ﴾، قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿مَسَاجِدَ﴾ بلفظ الجماعة، وكذلك الثاني يعني: جميع المساجد. وقرأ الباقون الأول ﴿مَسْجِد﴾ بغير ألف، والثاني بألف. وروي عن ابن كثير كلاهما بغير ألف، يعني: المسجد الحرام. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأول ﴿مسجد﴾ بغير ألف، والثاني بألف، يعني: المسجد الحرام. ومن قرأ ﴿مساجد﴾ أيضاً، يجوز أن يحمل على المسجد الحرام، لأنه يذكر المساجد ويريد به مسجداً واحداً، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]، يعني به: النبي ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾، يعني: ما كانت لهم عمارة المسجد في حال إقرارهم بالكفر، يعني: لا ثواب لهم بغير إيمان. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، يعني: بطل

Marfat.com

ثواب أعمالهم، ويقال: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: كلامهم يشهد عليهم بالكفر. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، يعني: يكونون في النار هم دائمون، ويقال: شاهدين على أنفسهم يوم القيامة، فلا ينفعهم عمارة المسجد بغير إيمان. وروى أسباط، عن السدي في قوله: ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالكُفْرِ﴾ أنه قال: يسأل النصراني ما أنت؟ فيقول: نصراني، ويسأل اليهودي ما أنت؟ فيقول: يهودي، ويسأل المشرك ما أنت؟ فيقول: مشرك، فذلك قوله تعالى ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالكُفْرِ﴾.

ويقال: الآية نزلت في شأن العباس حين أُسِر يوم بدر، فأقبل عليه نفر من المهاجرين وعيّروه بقتال النبي ﷺ وبقطيعة الرحم، فقال العباس: «ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟» فقال له عليٌّ رضي الله عنه: «فهل لكم من المحاسن شيء؟» فقال: «نعم، إنا نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفادي الأسير، ونؤمن الخائف، ونقري الضيف» فنزل ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ حبطت أعمالُهُم وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله﴾، يعني: صدق بوحدانية الله تعالى. ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، يعني: آمن بالبعث بعد الموت، لأن عمارة المسجد بإقامة الجماعات، وهم كانوا لا يقيمون الصلاة، فلم يكن ذلك عمارة المسجد، فذلك قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾، يعني: يداوم على الصلوات الخمس، ويقيمها بركوعها وسجودها في مواقيتها، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ الله﴾؛ يعني: ولم يعبد إلا الله ولم يوحِّد غيره ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، يعني: أُولئك هم المهتدون لدينه، ولهم ثواب أعمالهم.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام كَمَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله﴾، يعني: كإيمان من آمن بالله ﴿وجاهد﴾ في طاعة الله. وقال القتبي: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾، يعني: صاحب سقاية الحاج كمن آمن بالله؟ ويقال: أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله؟ كما قال في آية أخرى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج: ٤٠] والصلوات لا تهدم، وإنما أراد به بيوت الصلوات، كما قال ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: ١٣]، يعني: أهل قريتك. كذلك ههنا سقاية الحاج، أراد به صاحب السقاية. قرأ بعضهم ﴿سُقَاةَ الحَاجِ وَعُمَرَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ يعني: جمع الساقي والعامر، وهي قراءة شاذة.

Marfat.com

ثم قال: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾، يعني: لا يستوون في الثواب والعمل عند الله. ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: لا يرشد المشركين إلى الحجة، ويقال: لا يكرمهم بالمعرفة ما لم يتركوا كفرهم. كما قال في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾، يعني: صدقوا بوحدانية الله، ﴿وهاجروا﴾ إلى المدينة. ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ﴾، يعني: هؤلاء أفضل عند الله، وأفضل درجة في الجنة من الذين لم يهاجروا ولم يؤمنوا ولم يعمروا المسجد الحرام، ولم يسقوا الحاج. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، يعني: الناجين من النار.

قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ ربّهم﴾، يعني: يفرحهم ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، يعني: بجنةٍ ﴿منه ورضوان﴾ رضي الله تعالى عنهم؛ كما قال في آية أخرى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] بالثواب الذي أعطاهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾، يعني: دائماً لا ينقطع عنهم. ﴿خَالِدِينَ فِيها﴾، يعني: مقيمين دائمين في الجنات ﴿أَبَداً﴾، هو تأكيد للخلود. ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهي الجنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، يعني: الذين بمكة أولياء. قال مقاتل: نزلت الآية في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهاهم الله تعالى عن ولايتهم. وقال في رواية الكلبي: لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فجعل الرجل يقول لامرأته ولأخيه: إنا قد أمرنا بالهجرة. فيخرج معه، ومنهم من تعلّق به زوجته وعياله فيرقّ لهم، فيقولون له: لمن سوف تدعنا حتّى نضيع؟ فيرق لهم ويجلس معهم، فنزل ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ في الدين والعون ﴿إِن اسْتَحَبّوا الْكُفْرَ﴾، يعني: إن اختاروا الكفر ﴿عَلَى الإِيمَانِ﴾، ويقال: اختاروا الكفر على الإيمان، ويقال: اختاروا الجلوس مع الكفار على الجلوس مع المؤمنين. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ بعد نزول هذه الآية، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الضارون بأنفسهم.

Marfat.com

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، يعني: قومكم. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وعَشِيرَاتُكُمْ﴾ بالألف بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون ﴿وعشيرتكم﴾ بغير ألف. ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، يعني: اكتسبتموها بمكة، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يعني: تخشون أن تبقي عليكم فلا تنفق، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾؛ يعني: منازلكم بمكة تعجبكم الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ يعني: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة، ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾؛ يعني: في طاعة الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، يعني: فانتظروا، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾، يعني: فتح مكة، ويقال: الموت والقيامة. وقال الضحاك: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ يعني: حتى يأمر الله بقتال آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم.

ثُمَّ قال: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. وهذا وعيد من الله تعالى للذين لم يهاجروا، ويقال: من أول سورة براءة إلى قوله: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١] نزلت بعد فتح مكة. ثم من قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم﴾ [التوبة: ١٢] إلى هٰهنا، كان نزل قبل فتح مكة فوضع هٰهنا.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم بعد هذا، نزلت بعد فتح مكة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾؛ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]، فأمرهم الله تعالى بأن يقاتلوا ويتوكلوا على الله، ويطلبوا النصرة منه، ولا يعتمدوا على الكثرة والقلة، لأن النصرة من الله تعالى فذلك قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، يعني: من مشاهد كثيرة وهو يوم بدر، ويوم بني قريظة، ويوم خيبر، ويوم فتح مكة، وخاصة يَوْمَ حُنَيْنٍ يعني: نصركم الله في مواطن كثيرة. ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، يعني: جماعتكم، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾؛ يعني: عن قضاء الله تعالى لم تغن كثرتكم شيئاً. وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى حنين في اثني عشر ألفاً، وعشرة آلاف خرجوا معه من المدينة إلى فتح مكة، وخرج معه ألفان من أهل مكة، فقال رجل من المسلمين يقال له سلمة بن سلامة: لن نغلب اليوم من قلة. وقد كان فتح مكة في شهر رمضان، وبقيت عليه أيام

Marfat.com

من رمضان، فمكث حتى دخل شوال. فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سُليم عيناً له يقال له عبد اللهبن أبي حدرد، فأتى حنيناً فكان بينهم يسمع أخبارهم، فسمع من مالك بن عوف أمير القوم يقول لأصحابه: أنتم اليوم أربعة آلاف رجل، فإذا لقيتم العدو فاحملوا عليهم حملة رجلٍ واحدٍ، واكسروا جفون سيوفكم، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلا أفرج لكم. وكان مالك بن عوف على هوازن، فأقبل ابن أبي حدرد حتى أتى النبي ﷺ، فأخبره بمقالتهم، فقال رجل من المسلمين: فوالله يا نبيَّ الله ﷺ لا نغلب اليوم من كثرة، فساء رسول الله ﷺ كلمته، وابتلى الله المؤمنين بكلمته تلك.

قال الفقيه: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا الفقيه علي بن أحمد الفارسي قال: حدثنا نُصير بن يحيى قال: حدثنا أبو سليمان قال: حدثنا الفقيه محمد بن الحسن، عن مجمع بن يعقوب، عن إسحاق بن عبد الله، عن أبي طلحة قال: سمعت أنس بن مالك يقول: «لما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي حنين، وهو وادي من أودية تهامة له مضايق وشعاب، فاستقبلنا من هوازن جيش لا والله ما رأيت مثله في ذلك قط من السواد والكثرة، وقد ساقوا أموالهم ونساءهم وأبناءهم وراءهم. ثم صفوا، فحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم جاؤوا بالإبل والغنم وراء ذلك لكيلا يفروا بزعمهم. فلما رأينا ذلك السواد، حسبناهم رجالاً كلهم. فلما انحدرنا بالوادي، وهو وادي حدور، فبيَّنا نحن فيه إذ شعرنا، أي ما شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضايق الوادي وشعبه، فحملوا علينا حملة رجل واحد. وقد كانت قريش بمكة طلبوا إلى النبي ﷺ أن يخرجوا معه إلى حنين، فلم يقل لهم لا ولا نعم، فخرجوا وكانوا هم أول من انهزم من الناس. قال أنس: فولوا دُبرهم، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء. فسمعت رسول الله ﷺ يومئذ يقول، والتفتَ عن يمينه وعن يساره: «**يَا أَنْصَارَ الله وَأَنْصَارَ رَسُولِهِ، أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ صَابِرٌ اليَوْمَ**»، ثم تقدم بحربته أمام الناس، فوالذي بعثه بالحق ما ضربنا بسيف ولا طعنا برمح، حتى هزمهم الله تعالى. ثم رجع النبي ﷺ إلى المعسكر، وأمر بطلبهم وأن يقتل كل من قدر عليه منهم(١).

وجعلت هوازن تولي، وثاب من انهزم من المسلمين. قال الراوي: فقالت أم سليم وكانت يومئذ تقاتل شادة على بطنها بثوب تقول: أرأيت يا رسول الله الذين أسلموا وفرُّوا عنك وخذلوك، لا تعفُ عنهم إن أمكنك الله منهم، فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين. فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أُمَّ سُلَيم، عَفْوُ الله أَوْسَعُ**».

وروي في خبرٍ آخر: أن دريد بن الصمة كان شيخاً كبيراً في عسكر مالك بن عوف، وكان صاحب تدبير، وكان لا يبصر شيئاً ما لم يرفع حاجباه. فقال: ما لي أسمع رغاء الإبل

(١) عزاه السيوطي: ١٥٩/٤ إلى ابن شيبة وأحمد والحاكم وصححه وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.

Marfat.com

وثغاء الغنم وصوت الصبيان؟ فقالوا له: إن مالك بن عوف أمرنا بإخراج الأموال لكي يقاتل كل واحد منهم عن ماله. فقال لهم: هلا أخبرتموني بذلك قبل الخروج فقال: هل يرى المنهزم شيئاً؟ فالرجل إذا جاءته الهزيمة متى يبالي بماله وولده؟ ولكن إذا فعلتم ذلك فاكسروا جفون سيوفكم، واحملوا حملة رجل واحد. ففعلوا ذلك، فانهزم المسلمون، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا العباس، وأبو سفيان بن حرب بن عبد المطلب، وعدة من الأنصار. فنزل رسول الله ﷺ عن بغلته، وأخذ السيف نحو العدو، وجعل ينادي: «**يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَةِ إِليَّ إِليَّ**» فأمدّه الله بخمسة آلاف من الملائكة، ورجع إليه المسلمون، وانهزم المشركون، وأخذ المسلمون أموالهم، وهو الذي يسمى يوم أوطاس، فنزلت هذه الآية ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ فأخبر الله تعالى أن الغلبة ليست بكثرتكم، ولكن بنصر الله تعالى، وكان ذلك من آيات الله.

ثم قال: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ يعني: برحبها وسعتها من خوف العدو، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدبرِينَ﴾؛ يعني: منهزمين لا تلوون على أحد.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾، يعني: رحمته ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنوداً﴾، يعني: خمسة آلاف من الملائكة ﴿لم تروها﴾ وفي الآية دليل: أن المؤمن لا يخرج من الإيمان وإنْ عمل الكبيرة، لأنهم ارتكبوا الكبيرة حيث هربوا وكان عددهم أكثر من عدد المشركين، فسماهم الله تعالى مؤمنين. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: بالقتل والهزيمة. ﴿وَذلِكَ﴾ يعني: ذلك العذاب ﴿جَزاءُ﴾، عقاب ﴿الكافرين﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من أصحاب مالك بن عوف، من كان أهلاً للإسلام. ـ وروي عن محمد بن كعب القرظي[1] ـ قال: لما انهزم مالك بن عوف، سار مع ثلاثة آلاف، فقال لأصحابه: هل لكم أن تصيبوا من محمد مالاً؟ قالوا: نعم. فأرسل إلى النبي ﷺ: إني أريد أن أسلم، فما تعطيني؟ فأرسل إليه النبي ﷺ: «**إِنِّي أُعْطِيكَ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ وَرُعَاتَهَا**». فجاء فأسلم، فأقام يومين أو ثلاثة، فلما رأى المسلمين ورقتهم وزهدهم واجتهادهم، رق لذلك فقال له رسول الله ﷺ: «**يَا ابْنَ عَوْفٍ أَلاَ نَفِي لَكَ بِمَا أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الشَّرْطِ؟**» فقال: يا رسول الله، أمثلي يأخذ على الإسلام شيئاً؟ قال: فكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتح عامة

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

الشام، ثم قال: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لما كان في الشرك، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم في الإسلام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، يعني: قذر ورجس، ولم يقل أنجاس، لأن النَّجس مصدر، والمصدر لا يثنّى ولا يجمع، ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾؛ فهذه الآية من الآيات التي قرأها عليهم عليّ بن أبي طالب بمكة، يعني: لا يدخلوا أرض مكة، وقال مقاتل: يعني: الحرم كله، وقال مالك بن أنس: لا يجوز للكفار أن يدخلوا المساجد، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ كما أن الجنب لا يجوز له أن يدخل المسجد.

وقال الزهري: له أن يدخل جميع المساجد إلا المسجد الحرام، وهو قول الشافعي رحمه الله، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه: يجوز للذمي أن يدخل جميع المساجد، لأن الكفار كانوا يدخلون مسجد المدينة إذا قدموا وافدين من قومهم. وهذه الآية نزلت في شأن أهل الحرب: إنهم لا يدخلون المسجد الحرام بغير أمان، ولا يكون لهم ولاية البيت. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: «لا يدخلون المسجد الحرام إلا بإذنٍ أو عهد».

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، يعني: حاجة وفقراً. وقال الزجاج: العيلة الفقر، كما قال الشاعر:

وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَلاَ يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

ثم قال: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من رزقه وذلك أنه لما منع المشركون من مكة، قال أناس من التجار لأهل مكة: من أين تأكلون؟ فنزل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، يعني: من رزقه، ففرحوا بذلك، فأسلم أهل جدة وصنف من أهل اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة من البر والبحر، وأغناهم الله بذلك، يعني: أغناهم عن تجار الكفار بالمؤمنين. ثم قال: ﴿إِنْ شَاءَ﴾، يعني: يدوم لكم بمشيئة الله. ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره.

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ (٢٩)﴾

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾، يعني: لا يصدقون بتوحيد الله، ﴿وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾، في التوراة والإنجيل والقرآن، ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، يقول: لا يخضعون لدين الحق، ولا يقرون بشهادة لا إله

Marfat.com

إلا الله. ومعناه: لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين، لأن أهل الكتاب كانوا يقرون بالله، ولكنهم قالوا: لله ولد، وأقروا بالبعث، ولكنهم لا يقرون لأهل الجنة بالنعمة، ولأنهم لا يقرون بالأكل والشرب والجماع ولا يقرّون كما أعلم الله تعالى فليسوا يدينون بدين الحق، يعني: دين الإسلام؛ ويقال: دين الله تعالى، لأن الله تعالى هو الحق، فأمر الله تعالى بقتلهم إلا أن يعطوا الجزية. وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ قال بعضهم: عن قهر وذلّ، كما تقول: اليد في هذا لفلان، يعني: الأمر النافذ لفلان. ويقال: ﴿عن يد﴾، يعني: عن إنعام عليهم بذلك، لأن قبول الجزية وترك أنفسهم يد ونعمة عليهم. ويقال: عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم. ويقال: ﴿عن يدٍ﴾ يعني: عن قيام، يمشون بها صاغرين، تؤخذ من أيديهم. وقال الأخفش: يعني: كرهاً. ﴿وهم صاغرون﴾، يعني: ذليلين.

قال الفقيه: قتال الكفار على ثلاثة أنواع: في وجه: يقاتلون حتى يسلموا ولا يقبل منهم إلا الإسلام، وهم مشركو العرب والمرتدون من الأعراب أو من غيرهم. وفي وجه: يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وهم اليهود والنصارى والمجوس. فأما اليهود والنصارى فبهذه الآية، وأما المجوس فبالخبر، وهو قوله ﷺ: «سُنّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَابِ»[1] وفي الوجه الثالث: اختلفوا فيه، وهم المشركون من غير العرب وغير أهل الكتاب، مثل الترك والهند ونحو ذلك، في قول الشافعي: لا يجوز أخذ الجزية منهم، وفي قول أبي حنيفة وأصحابه: يجوز أخذ الجزية منهم، كما يجوز من المجوس، لأنهم من غير العرب.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ﴾. قرأ عاصم والكسائي ﴿عزيرٌ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين فمن قرأ بالتنوين، فلأنَّ الابن خبر، وليس بنسبة، ومن قرأ بغير تنوين فلالتقاء الساكنين، كما قرأ بعضهم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدُ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١] بغير تنوين. فلا اختلاف بين النحويين: أن إثبات التنوين أجود من طريق أهل اللغة. وإنما قالت اليهود ذلك، لأنه لما خرّب بُخْتَ نَصَّر بيت المقدس وأحرق التوراة، حزنوا على ذهاب التوراة، فأملاها عليهم عزير صلوات الله عليه عن ظهر قلبه، فتعلموها وفي أنفسهم منها شيء مخافة أن يكون قد

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/١٦٩ إلى مالك والشافعي وأبي عبيد في الأموال وابن أبي شيبة عن عمر، عن عبد الرحمن بن عوف.

Marfat.com

زاد فيها أو نقص منها شيئاً. فبينما هم كذلك، إذ وقعوا على خوابي مدفونة في قرية فيها التوراة، فعارضوا بها ما كتبوا من عزير، فلم يزد شيئاً ولم ينقص حرفاً، فقالوا عند ذلك: ما علم عزير هذا، إلا وهو ابن الله.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾؛ وإنما قالوا ذلك، لأن المسيح كان يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، فقالوا: لم يكن يفعل هذا إلا وهو ابن الله. ويقال: إنّ الإفراط في كل شيء مذموم، لأن النصارى أفرطوا في حب عيسى عليه السلام وقالوا فيه ما قالوا حتى كفروا بسبب ذلك. واليهود أفرطوا بحب عزير، وقالوا فيه ما قالوا حتى كفروا، كما أفرطت الروافض في حب عليّ حتى أبغضوا غيره. وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أحبِبْ حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً».

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يعني: ﴿ذلك﴾ كذبهم بألسنتهم، ويقال: معناه يقولون بأفواههم قولاً بلا فائدة، ولا برهان، ولا معنى صحيح تحته.

ثم قال: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني: يوافقون قول الذين كفروا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، حين قالوا: الملائكة بنات الله. وقال قتادة: يشبهون قول الذين كفروا، يعني: قول اليهود موافق قول النصارى، وقول النصارى يوافق قول اليهود. ويقال: يتشابهون في قولهم هذا من تقدم من كفر منهم، يعني: إنما قالوا اتباعاً لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾. قرأ عاصم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بكسر الهاء مع الهمزة، وهي لغة لبعض العرب؛ وقرأ الباقون بالسكون بغير همزة، وهي اللغة المعروفة. وقال القتبي: ﴿يضاهون﴾ يعني: يشبهون، قول من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى، قول أوّليهم الذين كانوا قبلهم.

ثم قال تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾، يعني: لعنهم الله. ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، يعني: من أين يكذبون بتوحيد الله تعالى. ثم قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورهبانهم﴾، يعني: أهل الصوامع والمتعبدين منهم. ﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾، يعني: اتخذوهم كالأرباب يطيعونهم في معاصي الله.

قال الفقيه الزاهد: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا إسحق بن عبد الرحمن القاري قال: حدثنا محمد بن عيسى قال: حدثنا الحسن بن يزيد الكوفي، عن عبد السلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، عن مصعب بن سعيد، عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ من سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾، قال: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوا، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوا»[1].

(١) عزاه السيوطي ٤/ ١٧٤ إلى ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في سننه.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، يعني: اتخذوا المسيح رباً من دون الله. ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾، يقول وما أمرهم عيسى عليه السلام ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَه إِلاَّ هُوَ﴾، يعني: إلا قوله: الله ربي وربكم ويقال: ﴿وما أمروا﴾ في جميع الكتب إلا ليعبدوا إلهاً يعني: ليوحدوا الله تعالى إلهاً واحداً. ثم نزّه نفسه فقال تعالى: ﴿لا إِلَه إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يعني: يعبدون من دونه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ﴾، يعني: اليهود النصارى ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يعني: يريدون أن يردوا القرآن تكذيباً بألسنتهم؛ ويقال: يريدون أن يغيروا دين الإسلام بألسنتهم، ويقال: يريدون أن يبطلوا كلمة التوحيد بكلمة الشرك. ﴿وَيَأْبَى الله﴾، يعني: لا يرضى الله ولا يترك ﴿إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾، يعني: يظهر دينه الإسلام. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فيظهره.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾، يعني: بالقرآن والتوحيد، ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ يعني: دين الإسلام؛ ويقال: دين الله، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينَ كُلِّهِ﴾؛ حتى: يظهره بالحجة على الدين كله؛ ويقال: بالقهر والغلبة والرعب في قلوب الكفار وقال ابن عباس: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يعني: بعد نزول عيسى عليه السلام لا يبقى أحد إلا ودخل في دين الإسلام، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾، قال السدي: الأحبار اليهود، والرهبان النصارى. وقال ابن عباس: «الأحبار العلماء، والرهبان أصحاب الصوامع». ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، يعني: بالظلم بغير حق، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله﴾؛ يعني: يصرفون الناس عن دين الله. ثم بيّن الله تعالى حالهم للمؤمنين لكي يحذروا منهم ولا يطيعونهم.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، يعني: يجمعون ويمنعون زكاتها. قال بعضهم: هذا نعت للأحبار والرهبان، وقال بعضهم: هذا ابتداء في حق كل من جمع المال ومنع منه حق الله، وقال ابن عباس: «الكنز الذي لا يؤدى عنه زكاته»(١).

وروى نافع، عن ابن عمر أنه قال: «أي مال كان على وجه الأرض لا تؤدى زكاته، فهو كنز يعذب صاحبه يوم القيامة؛ وما كان في الأرض تؤدى زكاته، فليس بكنز». وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كان أكثر منها فهو كنز».

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، يعني: أهل هذه الصفة الذين يكنزون الذهب والفضة، ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾، يعني: لا يؤدون حقها في طاعة الله تعالى. وقال: ﴿ولا ينفقونها﴾ ولم يقل: ينفقونه، لأنه انصرف إلى المعنى، يعني: لا ينفقون الكنوز، ويقال: لا ينفقون الأموال، ويقال: يعني الفضة.

وقال بعضهم: نزل هذا في شأن الكفار، وقال بعضهم: كان هذا في أول الإسلام ووجب عليهم أن يؤدوا الفضل، ثم نسخ بآية الزكاة. وقال بعضهم: كل مؤمن لا يؤدي الزكاة فهو من أهل هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، يعني: يوقد على الكنوز، ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، ويقال لهم: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ يعني: ما جمعتم ﴿لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو معاوية، ، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم أنه قال: «والذي لا إله غيره، لا يعذَّبُ رجل بكنز فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسَّعُ جلده حتى يوضعَ كلُّ درهم على جسده وكل دينار على خدِه»(٢). وروى أبو أمامة الباهلي قال: «مات رجل من أهل الصُّفة فوجد في مؤتزره دينار، فقال ﷺ: «كيّة». ومات رجل آخر فوجد في مؤتزره ديناران فقال النبي ﷺ: «كيّتان»(٣)، والمعنى في ذلك: أنه قد أصاب ذلك من الغلول، ولو لم يكن أصابه من الغلول لكان لا يستحق العقوبة، لأن الزكاة لا تجب في أقل من عشرين ديناراً. وقال بعضهم: كان هذا في الوقت الذي وجب عليه أن ينفق الفضل.

---

(١) عزاه السيوطي: ١٧٧/٤ إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر.
(٢) عزاه السيوطي: ١٧٩/٤ إلى ابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ.
(٣) حديث ابن مسعود: أخرجه أحمد: ٤٥٧/١ وأبو يعلى: (٥٠٣٧).

Marfat.com

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهراً فِي كِتَابِ الله﴾، فأعلم الله تعالى أن عدة الشهور للمسلمين التي يعدُّون: اثنا عشر شهراً على منازل القمر، فجعل حجهم وأعيادهم وصيامهم على هذا العدد. فالحج والصوم يكون مرة في الشتاء، ومرة في الصيف. وكانت أعياد أهل الكتاب في متعبداتهم، وسنتهم على حساب دوران الشمس على كل سنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، فجعل شهور المسلمين بالأهلة، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ويقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾، يعني: عدد الشهور التي وجبت عليكم الزكاة فيها اثنا عشر شهراً ﴿فِي كِتَابِ الله﴾، يعني: في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، كتبها عليكم. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، يعني: رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، يعني: ذلك الحساب المستقيم، لا يزاد ولا ينقص. وقال مقاتل بن حبان: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ يعني: ذلك القضاء البيِّن، وهكذا قال الضحاك.

ثم قال: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، قال بعضهم: في الأربعة أشهر، وقال قتادة: الظلم في الشهر الحرام أعظم وزراً مما سوى ذلك، وإنْ كان الظلم على كل حال غير جائز، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. ويقال: ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، يعني: في هذه الاثني عشر شهراً، ويقال: هو على وجه التقديم: إنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، فلا تظلموا فيهن أنفسكم، منها أربعة حرم، يعني: وخاصة في الأربعة أشهر.

ثم قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، يعني: جميعاً في الشهر الحرام وغيره. وكان القتال في الشهر الحرام محرماً، فنسخ بهذه الآية وصار مباحاً في جميع الشهور. وقال بعضهم: هو غير مباح، ومعنى هذه الآية: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ إن قاتلوكم في الشهر الحرام، وإن لم يقاتلوكم فلا يجوز. والقول الأول أصح، لأن النبي ﷺ قد حاصر الطائف في الشهر الحرام، ثم فتحها بعد ما مضى الشهر الحرام، فلو كان القتال حراماً لم يحاصرهم في الشهر الحرام. ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، يعني: معينهم وناصرهم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، يعني: تأخير المحرم إلى صفر زيادة الإثم في كفرهم. وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد أنه قال: «كانوا يحجون في ذي الحجة عامين،

Marfat.com

ثم يحجون في المحرم عامين، ثم يحجون في صفر عامين، وكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين، حتى وافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه الآخر من العامين في ذي القعدة قبل حجة النبي ﷺ، ثم حج النبي ﷺ من قابل في ذي الحجة وقال في خطبته: «**ألاَ إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمٰواتِ والأَرْضِ**»[١].

وروى أسباط، عن السدي أنه قال: «كان رجل من بني مالك بن كنانة، يقال له: جُنادة بن عوف، يكنى أبا أمامة، ينسيء عدد الشهور. وقال في رواية الكلبي: كان اسمه نُعيم بن ثعلبة من بني كنانة. وقال في رواية مقاتل: كان اسمه ثمامة الكناني، وكانت العرب يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض، فإذا أرادوا أن يغيروا، قام الكناني يوم منى وخطب الناس وقال: إني قد أحللت لكم المحرم، وحرمت صفر لكم مكانه، فقاتل الناس في المحرم. فإذا كان صفر، غمدوا السيوف ووضعوا الأسنة، ثم يقوم من قابل ويقول: إني قد أحللت صفر وحرمت المحرم[٢]. ﴿**يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كفرُوا**﴾ بتأخير المحرم إلى صفر، فذلك قوله: ﴿**يُحلُّونَهُ عاماً ويحرِّمونه**﴾ قرأ ابن كثير[٣]: ﴿إِنَّمَا النَّسِيُّ﴾ بتشديد الياء بغير همز، وقرأ الباقون بالتخفيف والهمزة؛ ومعناها واحد. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿يُضَلُّ به الذين كفروا﴾ بضم الياء ونصب الضاد على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، ويكون معناه: تأخيرهم عمل يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويقاتلون فيه، ويحرمونه عاماً ولا يقاتلون فيه، ﴿**لِيُوَاطِئُوا**﴾؛ يعني: ليوافقوا ﴿عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله **فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ الله زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ**﴾، يعني: حسن لهم قبح أعمالهم. ﴿**وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾، يعني: لا يرشدهم إلى دينه مجازاة لكفرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَا لِكُمْ إذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ الله**﴾، يعني: في الجهاد ﴿**اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**﴾، يعني: تثاقلتم، فأدغم التاء في الثاء، وحذفت الألف لتسكين ما بعدها يعني: قعدتم ولم تخرجوا. وذلك أن النبي ﷺ أمر الناس بالخروج إلى غزوة تبوك،

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ١٨٩ إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.
(٢) عزاه السيوطي ٤/ ١٨٩ إلى ابن أبي حاتم.
(٣) وفي النسخة «ب» قرأ ورش عن نافع.

Marfat.com

وكان في أيام الصيف، حين اشتد الحر وطابت الثمار والظلال، فكانوا يتثاقلون عن الخروج، فعاتبهم الله تعالى فقال: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾، يقول: آثرتم واخترتم عمل الدنيا على عمل الآخرة. ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: منفعة الدنيا ﴿فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾، يعني: بجنب منفعة الآخرة إلا ساعة، ويقال: معناها ما يتمتع به في الدنيا قليل عندما يُتمتع به أولياء الله في الجنة.

ثم خوفهم فقال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله، وأصله: إن لا تنفروا، فأدغم النون في اللام، ومعناه: إن لم تنفروا، يعني: إن لم تخرجوا إلى الغزو مع نبيكم يُعَذِّبكم. ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾، يعني: يسلط عليكم عدوكم أو يهلككم، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم وأطوع لله تعالى. ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾، يقول: ولا تنقصوا عن ملكه شيئاً بجلوسكم عن الجهاد. ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أن يستبدل بكم قوماً غيركم.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾، يعني: إن لم تنصروه ولم تخرجوا معه إلى غزوة تبوك، فالله ينصره كما نصره، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: كفار مكة من مكة. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، يعني: كان واحداً من اثنين، يعني: رسول الله ﷺ وأبا بكر ولم يكن معهما غيرهما، فنصرهما الله تعالى. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وذلك حين أراد أهل مكة قتله، فهاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة؛ فجاء النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر فلم يجده، فجلس إلى أن جاء أبو بكر، فقبَّل رأس النبي ﷺ فقال: ما لك، بأبي أنت وأمي. قال: «مَا أَرَى قُرَيْشاً إِلاَّ قَاتِلِيَّ». فقال أبو بكر: دمي دون دمك، ونفسي دون نفسك، لا يصنع بك شيء، حتى يبدأ بي. فقال: «اخْلُ بي». قال أبو بكر: ليس بك عين، إنَّما هما ابنتاي أسماء وعائشة. قال: «قَدْ أُذِنَ لِي بِالْخُرُوجِ» من مكة. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عندي بعيرين حبستهما للخروج، فخذ إحداهما واركبه. قال: «لاَ آخُذُهُ إِلاَّ بِالثَّمَنِ» فأخذه بالثمن، وهي ناقته القصواء. فأمر النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب بأن يبيت مكانه، وخرج النبي ﷺ ومعه أبو بكر، حتى أتيا ثوراً، جبلاً بأسفل مكة[1].

قال الفقيه: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي قال:

(١) من حديث عائشة: «أخرجه البخاري (٢٢٩٧) و(٣٩٠٥) وأحمد: ٦/ ١٩٨.

Marfat.com

حدثنا يحيى بن أبي طالب، عن عبد الرحمن بن إبراهيم الرازي قال: حدثنا الفرات، عن ميمون بن مهران، عن ضبَّة بن محصن، عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: «والله لليلة من أبي بكر خير من عمر وآله». قيل: وأيه ليلة هي؟ قال: «لما خرج رسول الله هارباً من أهل مكة ليلاً، فتبعه أبو بكر، فجعل أبو بكر يمشي مرّة أمامه ومرة خلفه، ومرةً عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا هٰذَا يَا أَبَا بَكْرٍ؟» قال: يا رسول الله، أذكر الرَّصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك وعن يسارك، لا آمن عليك». قال: «فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه، حتى حفيت، فلما رآها أبو بكر أنها قد حفيت، حمله على عاتقه وجعل يشتد به، حتى أتى فم الغار فأنزله ثمّ قال: والذي بعثك بالحق نبياً، لا تدخله حتى أدخله أنا، فإن كان من شيء نزل بي قبلك. فدخل فلم ير شيئاً، فحمله وأدخله»(١).

وقال في رواية محمد بن إسحاق: «كان الغار معروفاً بالهوام، فجعل أبو بكر يسد الجحْر، حتى بقي جحران، فوضع عقبيه عليهما حتى أصبح. وقال في رواية عمر: «وكان في الغار خزق فيه حيات، فخشي أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي رسول الله ﷺ، فألقمه قدمه فجعلن يضربنه ويلسعنه، وجعلت الدموع تنحدر على خده من شدة الألم الذي يجده؛ ورسول الله ﷺ يقول: ﴿لا تَحزَنْ إنّ الله معنا﴾ ﴿فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ﴾ يعني: الطمأنينة لأبي بكر»، وهذه ليلته.

قال الفقيه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر القاضي قال: حدثنا أحمد بن جرير قال: حدثنا عمرو بن عليّ قال: حدثنا عون بن عمرو القيسي، عن مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك، يذكرون النبي ﷺ ليلة الغار، أمر الله تعالى شجرة فخرجت في وجه النبي ﷺ، فسترت وجه النبي ﷺ، وإن الله تعالى بعث العنكبوت، فنسجت ما بينهما، فسترت وجه رسول الله ﷺ، وأمر الله تعالى حمامتين وحشيتين، فأقبلتا تزقان، حتى وقفتا بين العنكبوت وبين الشجرة، فأقبلت فتيان قريش من كل بطن، معهم عصيهم وقسيهم وهراواتهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر مائتي ذراع قال الدليل سُراقة بن مالك: انظروا في هذا الحجر، ثم قال: أين وضع رجله؟ قال الفتيان: أنت لم تخطىء منذ الليلة أثرهُ، حتى إذا أصبحنا قال للفتيان: انظروا إلى فم الغارِ - فاستقدم القوم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر خمسين ذراعاً نظروا فإذا حمامتان وحشيتان بفم الغار(٢) -، فرجعوا فقالوا: رأينا حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفنا أنه ليس فيه أحد. فسمعهم النبي ﷺ، فعرف أن الله درأ

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ١٩٧ إلى البيهقي في الدلائل.

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

بهما عنه، فشمَّت لهما، يعني: بارك عليهما، وأحرزهما الله تعالى في الحرم، فأفرختا كما هما إلى الآن(١).

وفي خبر آخر زيادة: وقد كان أمر أبو بكر عامرَ بن فُهيرة أن يريح إليه غنمه بثور، وكان يريح إليهما غنمه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار أهل مكة، فكانا فيه ثلاث ليال، وكانا يريحان الغنم ويحلبانِ كل ليلة ما أرادا. فلما نفدوا من الالتماس وجاءهم عبد الله بن أبي بكر فأخبرهم بذلك، فخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر وعامر بن فهيرة، واستأجر رجلاً من بني الديل يهديهم الطريق، يقال له عبد الله بن أريقط، أخذ بهم أسفل مكة حتى خرجوا قريباً من جدة. ثم عارضوا الطريق قريباً من عسفان، ففطن سراقة بن مالك بن جعشم آثارهم، فلبس لأمته، وركب فرسه حتى أدرك رسول الله ﷺ. فدعا عليه رسول الله ﷺ فرسخت قوائم فرسه فقال: يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي، فإني أرى الحي قد التمسوني، فأَنْ أكونَ وراءك خير لك فأردُ عنك من ورائي من الناس. فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ صَادِقاً فَأَطْلِقْ فَرَسَهُ**» فانطلق فرسه. فقال: يا محمد خذ سهماً من كنانتي، فمرَّ به على إبلي، فإن أردت حمولةً فخذ، وإن أردتَ لبوناً فخذ.

فرجع سراقة فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ، قال لهم: ارجعوا فقد استبرأت لكم ما هٰهنا، وقد عرفتم من بصيرتي وقُفوْي بالآثار. قال: فرجعوا عنه، فقدم النبيّ ﷺ مع أبي بكر المدينة، فذلك قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾؛ وإنما كان أبو بكر يخاف على نفس رسول الله ﷺ، وعلى ذهاب التوحيد والإسلام، لا على نفسه ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ في الدفع عنا. ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ﴾، يعني: طمأنينته ﴿عليه﴾. يعني: طمأنينته على أبي بكر. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في رواية الكلبيّ ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ يعني: «على رسول الله ﷺ، حتى سكن واطمأن».

قال: **حدثنا** الفقيه أبو جعفر قال: **حدثنا** أحمد بن محمد الحاكم القاضي قال: **حدثنا** أحمد بن جرير قال: **حدثنا** الحسن بن عرفة قال: **حدثنا** أبو سوار، عن أبي المعطوف، عن الزهري قال قال: رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت الأنصاري: «**هَلْ قُلْتَ فِي أَبِي بَكْرٍ شَيْئاً؟**» قال: نعم. قال: «**فَقُلْ حَتَّى أَسْمَعَ**»، فقال:

وَثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ يَصْعَدُ الْجَبَلا
وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللهِ قَدْ عَلِمُوا مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

---

(١) عزاه السيوطي ٤/ ٢٠٠ إلى ابن مردويه و٤/ ٢٠١ إلى ابن سعد وابن مردويه.

Marfat.com

قال: فضحك رسول الله ﷺ، حتى بدت نواجذه وقال: «صَدَقْتَ يَا حَسَّانُ، هو كَمَا قُلْتَ»(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، يعني: يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾، يعني: الشرك بالله. ﴿وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا﴾، يعني: شهادة أن لا إله إلا الله. قرأ الأعمش ويعقوب الحضرمي ﴿وَكَلِمَةَ الله﴾ بالنصب، يعني: وجعل كلمة الله. وقراءة العامة بالضم على معنى الاستئناف ﴿وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ حكم بإظهار التوحيد وإطفاء دعوة المشركين.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقالاً﴾؛ قال الكلبي: ﴿خفافاً﴾ يعني: أهل العسرة من المال، وقلة العيال، و﴿ثقالاً﴾ يعني: أهل الميسرة في المال والصبية والعيال. وقال الكلبي: ويقال فيها وجه آخر: ﴿انفِرُوا خِفافاً﴾، يقول: نشاطاً في الجهادِ ﴿وثقالاً﴾ غير نشاط في الجهاد، وكذا قال مقاتل. ويقال: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ يعني: شباناً وشيوخاً. وروى حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن أبا طلحة الأنصاري قرأ هذه الآية ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾، فقال: ما أرى الله تعالى إلا يستنفرنا شباباً وشيوخاً، جهزوني فقلنا: قد غزوت مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وأنت اليوم شيخ. قال: جهزوني، فجهزناه، فركب البحر فمات في غزاته. وروى سفيان، عن منصور، عن الحكم قال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ قال: مشاغيل وغير مشاغيل. وروى مسروق، عن أبي الضحى قال: أول ما نزلت من سورة براءة هذا ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ ثم نزل أولها وآخرها. وروي عن ابن عباس أنه قال: «نسختها هذه الآية»: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] وقال بعضهم: ليست بمنسوخة، ولكنها في الحالة التي وقع فيها النفير عاماً، وجب على جميع الناس الخروج إلى الجهاد، وإذا لم يكن النفير عاماً، لا يكون فرضاً عاماً. فإذا خرج بعض الناس، سقط عن الباقين، وبه نأخذ.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ﴾ يعني: الجهاد خير لكم من الجلوس، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: تصدقون بثواب الله. ويقال: معناه إن كنتم تعلمون أن الخروج إلى الجهاد خير لكم من القعود، فَانفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً.

ثم نزل في شأن المنافقين الذين تخلفوا قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾ يعني: غنيمة

(١) عزاه السيوطي ٤/١٩٩ إلى ابن عدي وابن عساكر.

Marfat.com

قريبة، ويقال: سهلاً قريباً. ﴿وَسَفراً قَاصِداً﴾، يعني: هيّناً، ﴿لاتَّبَعُوكَ﴾؛ يعني: لو علموا أنهم يصيبون مغنماً، ﴿لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة: السفر، يعني: ثقل عليهم السفر. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِالله﴾ الذين تخلفوا. ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾، يعني: لو قدرنا، ولو كانت لنا سعة في المال والزاد، ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى الغزو.

وقال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، يعني: بحلفهم كذباً. ﴿وَالله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بحلفهم، وأن لهم سعة للخروج، ولكنهم لم يريدوا الخروج.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾؛ وذلك أن بعض المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ بالتخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك، ولم يكن لهم عذر، وأذن لهم رسول الله ﷺ فقال الله تعالى للنبي عليه السلام ﴿عَفَا الله عَنْكَ﴾ يا محمد ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب. ويقال: إن النبي عليه السلام فعل فعلين قبل أن يؤذن له، فعاتبه الله تعالى على ذلك وعفا عنه، أحدهما: في فداء أسارى بدر، والثاني: في إذنه للمنافقين بالتخلف. فقال له: ﴿عَفَا الله عَنْكَ﴾ ولم يعاقبك لم أذنت لهم في التخلف والقعود.

قال الفقيه: سمعت من يذكر، عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: معناه ﴿عفا الله عنك﴾ يا سليم القلب لم أذنت لهم، فيقال: إن الله تعالى إذا قال لعبده: لم فعلت كذا وكذا؟ يكون ذلك أشد عليه من الموت كذا وكذا مرةً، لهيبة قوله: لم فعلت كذا؟ ولو أنه بدأ للنبي ﷺ بقوله: لم أذنت لهم، لكان يخاف على النبي ﷺ أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام. إلا أن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو، حتى سكن قلبه، ثم قال ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ بالقعود عن الجهاد. ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، يعني: معرفة الذين صدقوا بعذرهم وإيمانهم. ﴿وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾ في عذرهم وإيمانهم ويقال: معناه، حتى يتبين لك المؤمن المخلص من المنافق.

ثم بيّن له علامة المؤمنين والمنافقين، فقال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ﴾، يعني: بغير عذر ﴿الَّذِين يُؤْمِنُونَ بِالله﴾ يعني: صدّقوا بالله ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ في السر والعلانية ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَموالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله ﴿وَالله عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، يعني: بالمؤمنين المخلصين.

ثم ذكر علامة المنافقين فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾، يعني: في القعود عن الجهاد. ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، يعني: لا يصدقون في السر، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ يعني: شكت

Marfat.com

قلوبهم ونافقت قلوبهم. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، يعني: في شكهم ونفاقهم يتحيرون ولا يتوبون ولا يرجعون عن ذلك.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك إلى الغزو، ﴿لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾؛ يعني: اتخذوا لأنفسهم قوة من السلاح. معناه: إنَّ تركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف. ثم قال ﴿وَلَكِن كَرِهَ الله انبِعَاثَهُمْ﴾، يعني: لم يرد الله خروجهم معك لجبنهم وسوء نياتهم، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ يعني: حبسهم وأقعدهم عن الخروج، ويقال: ثقلهم عن الخروج، ويقال: جعل حلاوة الجلوس في قلوبهم حتى أقعدهم عن الخروج. ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، يعني: أُلهموا أو خُيّل إليهم القعود مع المتخلفين.

ثم أخبر الله تعالى أن لا منفعة للمسلمين في خروجهم معهم، بل عليهم مضرة منهم، ثمّ قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾؛ يعني: المنافقين لو خرجوا معكم ﴿مَا زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً﴾، يعني: فساداً، ويقال: شراً وجبناً ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾، ويقال ساروا بينكم ويقال: والإيضاع في اللغة هو إسراع الإبل، كما قال ﷺ حين أفاض من عرفات: «**أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ فِي إِيضَاعِ الإِبِلِ وَلا فِي إِيجَافِ الخَيْلِ**». يعني: إن المنافقين لو خرجوا معكم، يسرعون الإبل فيما بينكم ويؤذونكم.

ثم قال: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، يعني: يطلبون منكم الشرك، ويطلبون هزيمتكم وعيوبكم، ويفشون سركم. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، يعني: وفي عسكركم عيون وجواسيس للمنافقين، ويقال: وفيكم من يسمع ما يقوله المنافقون ويقبلون منهم. ﴿وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، يعني: بالمنافقين. وهذا وعيد لهم، يعني: ﴿عليم﴾ بعقوبتهم.

ثم قال عز وجل: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾، يعني: من قبل غزوة تبوك، لأنهم قصدوا قتل النبي ﷺ قبل كثرة المؤمنين. ويقال: طلبوا إظهار الشرك قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾، يعني: احتالوا في قتلك وفي هلاكك من كل وجه. ويقال: ﴿قَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ ظهراً لبطن، فانظر كيف يصنعون. ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾، يعني: كثر المسلمون؛ ويقال: حتى جاء

Marfat.com

الحق يعني: الإسلام ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾؛ يعني: ظهر دين الله الإسلام. ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، يعني: كارهون للإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَن لِي﴾، يعني: جد بن قيس كان من المنافقين، حرّضه النبي ﷺ على الخروج إلى الغزو، فقال: يا رسول الله، إن قومي يعلمون حرصي على النساء، فأخشى أني لو خرجت وقعت في الإثم، ولا تفتني ببنات الأصفر. وكان الأصفر رجلاً من الحبش ملك ناحية من الروم، فتزوج رومية، فولدت له بنات اجتمع فيهن سواد الحبش وبياض الروم وكنَّ فتنة، فقال جد بن قيس: لا تفتني ببنات الأصفر، فإني أخاف أن لا أصبر وأضع يدي على الحرام، فأذن له النبي ﷺ بالقعود، فنزل. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ يعني: من المنافقين ﴿ائذن لي﴾ في التخلف ﴿وَلا تَفْتِنِّي﴾، يعني: ولا توقعني في الفتنة والإثم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ألا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، يعني: ألا في الكفر والنفاق وقعوا. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، يعني: جعلت جهنم للكافرين، وهو جد بن قيس ومن تابعه.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾، يعني: إن أصابك الغنيمة والنصر ساءهم ذلك. ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾، يعني: الشدة والنكبة الهزيمة. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾، يعني: حذرنا بالقعود والتخلف عن الخروج من قبل المصيبة. ﴿وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما أصابك وبتخلفهم.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا﴾، يعني: إلاَّ ما قضى الله لنا وقدّر علينا من شدة أو رخاء، ويقال: ﴿إلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا﴾، يعني: في اللوح المحفوظ، ويقال: ﴿إلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا﴾ في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم قال: ﴿هُوَ مَوْلانَا﴾، اي ولينا وناصرنا وحافظنا. ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، يعني: وعلى المؤمنين أن يتوكلوا على الله، ويقال: وعلى الله فليثق الواثقون.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ

Marfat.com

كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلاَّ إِحْدَى الحُسْنَيينِ﴾ إمّا الشهادة وإمّا الغنيمة. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾، يعني: ننتظر بكم ﴿أَن يُصِيبَكُمْ الله بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهو الموت، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، يعني: فيأمرنا أن نقتلكم؛ ويقال: معناه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إلاَّ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ﴾، يعني: إلا إحدى الخبرين. ونحن نتربص بكم احد الشرين، فبين ما ننتظر وتنتظرونه فرق عظيم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، يعني: انتظروا بنا الهلاك. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾، من المتربصين يعني: المنتظرين لإهلاككم.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾، يعني: قل للمنافقين، أنفقوا ﴿طوعاً﴾ من قبل أنفسكم، ﴿أو كرهاً﴾ مخافة القتل. ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ﴾ اللهُ ﴿مِنكُمْ﴾ النفقة. ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: منافقين. فقوله: ﴿أَنْفِقُوا﴾ اللفظِ لفظ الأمر، ومعناه معنى الخبر، يعني: إن أنفقتم، كما إنه يذكر لفظ الخبر والمراد به الأمر، كقولك: غفر الله لك، وقولك: رحم الله فلاناً، يعني: اللهم اغفر، وههنا اللفظ لفظ الأمر ومعناه الخبر والشرط يعني: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً، لن يتقبل الله منكم. قرأ حمزة والكسائي ﴿كُرهاً﴾ بضم الكاف، وقرأ الباقون ﴿كَرهاً﴾ بالنصب.

ثم بيّن المعنى الذي لم تقبل نفقاتهم من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَبِرَسُولِهِ﴾، يعني: في السر. قرأ حمزة والكسائي ﴿لن يُقْبَل منهم﴾ بالياء على معنى التذكير، وقرأ الباقون بلفظ التأنيث، لأن الفعل مقدم، فيجوز أن يذكر ويؤنث. ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إلاَّ وَهُمْ كُسَالَى﴾، يعني: متثاقلين ولا يرونها واجبة عليهم، ﴿وَلا يُنفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ على النفقة غير محتسبين.

ثم قال عز وجل: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ولا أولادهم﴾، يعني: كثرة أموالهم وأولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾. في الآية تقديم وتأخير، قال ابن عباس: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة». ثم قال: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾، يعني: تذهب أنفسهم وتقبض أرواحهم، وأصله الذهاب، كقوله تعالى ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، يعني: تقبض أرواحهم على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾، يعني: إنهم مؤمنون على دينكم في السر، وهم كاذبون بذلك القول. ﴿وَمَا هُمْ مِنكُمْ﴾، يعني: ليسوا على دينكم في السر، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يعني: يخبثون فأظهروا الإيمان وأسرُّوا النفاق.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾، يعني: حرزاً يلجؤون إليه ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ أو مدَّخلاً﴾، يعني: الغيران في الجبل. وقال القتبي: كل شيء غرت فيه فغبت فهو مغارة. ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾، يعني: سرباً في الأرض، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾؛ يعني: ذهبوا إليه وتركوك. ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، يعني: يسرعون في المشي. ومنه قيل: فرس جموح، إذا ذهب في عدوه فلم يثنه شيء؛ ويقال: الجمح مشي بين مشيتين، وهو من لغات اليمن.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾؛ روي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿يَلْمُزُكَ﴾ بضم الميم والباقون بالكسر، وهما لغتان ومعناهما واحد. يقول: من المنافقين من يطعنك ويعيبك، ويقال: لمزته إذا عبته. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد الخدري، قال: بينما نحنُ ورسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال: اعدلْ يا رسول الله. فقال: «وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أعْدِلْ»؟ فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، أتأذن لي فأضربَ عنقه؟ فقال: «دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَاباً يَحْقِرُ أحَدُكُمْ صَلاتَهُ عِندَ صَلاتِهِ وَصِيَامَهُ عند صِيَامِهِ يَمْرقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ؛ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أسْوَدُ إحْدَى ثَدْيَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأةِ أو مثل البضعةِ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فترةٍ مِنَ النَّاسِ»[1] ويروى: «عَلَى حِينِ الفِتَنِ مِنَ النَّاسِ»؛ فنزلت فيهم ﴿وَمِنهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية. قال أبو سعيد: «أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه، أتى برجلٍ بالنعت الذي نعته رسول الله ﷺ» وروي عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من الصدقات، فقال أبو الخواص والنبي ﷺ يعطي، وروى بعضهم أبو الحواظ: ـ ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «لا أبا لَكَ، أمَا كانَ مُوسَى رَاعِياً؟ أمَا كَانَ داودُ رَاعِياً»؟ فذهب أبو الخواص، وقال النبي ﷺ: «احْذَرُوا هٰذا وأصْحَابَهُ»، فنزل ﴿وَمِنهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾؛ يعني: الصدقة،

(١) حديث أبي سعيد: أخرجه البخاري (٦٧٣٨) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨) والبيهقي في الدلائل: ٦/ ٤٢٨.

Marfat.com

﴿رضوا﴾ بالقسمة. ﴿وإن لم يعطوا منها﴾ يعني: من الصدقة ﴿إذا هم يسخطون﴾ يعني: لا يرضون بالقسمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُم الله وَرَسُولُهُ﴾، يعني: إنهم لو رضوا بما رزقهم الله تعالى، وبما يعطيهم رسول الله من العطية، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا الله﴾: يعني: يكفينا الله. ﴿سَيُؤْتِينَا الله مِنْ فَضْلِهِ﴾، يعني: سيعطينا الله من رزقه ﴿وَرَسُولُهُ﴾، يعني: سيعطينا رسول الله ﷺ من الغنيمة إذا كان عنده سعة وفضل. ﴿إِنَّا إِلى الله رَاغِبُونَ﴾، يعني: طامعون وراجون. ولم يذكر جوابه، لأن في الكلام دليلاً عليه، ومعناه: ولو أنهم فعلوا ذلك، لكان خيراً لهم.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

ثم بيّن لهم موضع الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾، يعني: ليست الصدقات للذين يلمزونك في الصدّقات، وإنّما الصدقات ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين﴾. قال بعضهم: الفقراء: الضعفاء الأحوال الذين لهم بلغة من العيش بدليل قول الشاعر:

أَمَّا الفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفْقَ العِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ

والمسكين: الذي لا شيء له، بدليل قول الله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] يعني: الذي لم يكن بينه وبين التراب شيء يقيه منه. وقال بعضهم: الفقير الذي لا شيء له، والمسكين الذي له أدنى شيء، كما قال الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩] سماهم مساكين، وإن كانت لهم سفينة، وقال بعضهم: الفقير الذي لا يسأل الناس إلحافاً، كما قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله﴾ إلى قوله ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] والمسكين الذي يسأل الناس. وقال بعضهم: الفقير الذي يسأل الناس، والمسكين الذي لا يسأل الناس، كما قال النبي ﷺ: **«لَيسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلى أَبْوَابِكُمْ فَتَرُدُّونَهُ بِاللُّقْمَةِ وَاللُّقْمَتَيْنِ؛ وَإِنَّمَا المِسكِينُ المُتَعَفِّفُ الَّذِي لا يَسْأَلُ النَّاسَ وَلا يُفطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيهِ»**(١). وقال قتادة: «الفقير الذي به زمانة، والمسكين الصحيح المحتاج» وقال بعضهم: الفقير الذي يكون عليه زي الفقر ولا تعرف حاجته، والمسكين الذي يكون عليه زي الفقر وتكون حاجته ظاهرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم السعاة الذين يجبون الصدقات، فيعطون على قدر حاجتهم، ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: وهم قوم كان يعطيهم رسول الله ﷺ ويتألفهم بالصدقة على

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه مالك ٢/ ٩٢٣ والبخاري (١٧٤٩) ومسلم (١٠٣٩) والنسائي ٥/ ٨٥ وأبو داود (١٦٣٢) والبيهقي: ٤/ ١٩٥.

Marfat.com

الإسلام، وكانوا رؤساء في كل قبيلة، منهم: أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن الفزاري، وعباس بن مرداس السلمي، وصفوان بن أمية وغيرهم، فلما توفي رسول الله ﷺ، جاؤوا إلى أبي بكر وطلبوا منه، وكتب لهم كتاباً، فجاؤوا بالكتاب إلى عمر بن الخطاب ليشهدوه، فقال عمر: أي شيء هذا؟ فقالوا: سهمنا. فأخذ عمر الكتاب ومزقه وقال: «إنما كان يعطيكم النبي ﷺ ليؤلفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام، فإن تبتم على الإسلام، وإلا فبيننا وبينكم السيف»، فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا: أنت الخليفة أم هو؟ أي عمر قال: هو إن شاء، فبطل سهمهم(١).

ثم قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، يعني: في فك الرقاب، وهم المكاتبون.

ثم قال: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾، يعني: أصحاب الديون الذين استدانوا في غير فساد ولا تبذير، وقال مجاهد: «ثلاثة من الغارمين: رجل ذهب السيل بماله، ورجل أصابه حريق فهلك ماله، ورجل ليس له مال وله عيال فهو يستدين وينفق على عياله». ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ﴾، وهم الذين يخرجون إلى الجهاد، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، يعني: المسافر المنقطع من ماله. قال بعضهم: وجب أن يقسم الصدقات على ثمانية أصناف، وهو قول الشافعي رحمه الله كما بيَّن في هذه الآية. وقال أصحابنا: إذا صرف الصدقات إلى صنف من هذه الأصناف جاز. وروي عن حذيفة بن اليماني أنه قال: «إذا أعطى الرجل الصدقة صنفاً واحداً من الأصناف الثمانية جاز». وعن عبد الله بن عباس أنه قال: «إذا وضعتها في صنف واحد فحسبك، إنّما قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ لأن لا تجعلها في غير هذه الأصناف». وعن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «أنه أتي بصدقة فبعث بها إلى أهل بيت واحد».

ثم قال تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ يعني: وضع الصدقات في هذه المواضع فريضة من الله، وهو مما أمر الله تعالى. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأهلها، ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم قسمتها وبيّنها لأهلها.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾؛ قال ابن عباس: نزلت الآية في جماعة من المنافقين منهم: جُلاس بن سويد، ومحشر بن خويلد، وأبو ياسر بن قيس، وذلك أنهم كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر. فقال الجلاس: نقول ما نشاء، فإنما ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ سامعة ثم نأتيه فيصدقنا، والأذن الذي يقبل كل ما

---

(١) عزاه السيوطي: إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

قيل له وقال القتبي: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾، يعني: إن كان الأمر كما يذكرون فهو خير لكم، ولكنه ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: يصدق الله ويصدق المؤمنين لا أنتم. والباء واللام زائدتان، يعني: يصدق الله ويصدق محمد المؤمنين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ يعني: من المنافقين من يؤذي النبي ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾؛ يعني: سامع لمن حدثه.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾. قراءة العامة ﴿قل أذنُ﴾ بغير تنوين ﴿خَيْرٍ لَكُمْ﴾ بكسر الراء؛ وقرأ بعضهم: ﴿أذنٌ﴾ بالتنوين ﴿خَيْرٌ﴾ بالتنوين والضم. فمن قرأ أُذُنٌ بالتنوين، فمعناه إن كان محمد كما قلتم أذنٌ فهو خيرٌ لكم أي: صلاح لكم. ومن قرأ بالكسر فهو على الإضافة، أي أذن خير لكم وأذن رحمة ـ وقرأ نافع ﴿أذْن﴾ بجزم الذال والباقون بالضم، وهما لغتان[1] ـ.

﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾، يعني: يصدق بالله تعالى في مقالته، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: يصدق قول المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ يعني: نعمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، في السر والعلانية وقرأ حمزة ﴿ورحمةٍ للذين﴾ على معنى الإضافة، يعني: أذن رحمة، وقرأ الباقون ﴿ورحمةٌ﴾ بالضم على معنى الاستئناف. وقرأ نافع ﴿أذْن﴾ بجزم الذال بضمةٍ واحدة وقرأ الباقون بضمتين.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعني وجيع. ثم جاؤوا إلى الرسول وحلفوا، فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون في حلفهم، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾. قال الزجاج: لم يقل أحق أن يرضوهما، لأن في الكلام ما يدلّ عليه، لأن في رضى الله تعالى رضى الرسول فحذف تخفيفاً، ومعناه: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، كما قال الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا   عِنْدَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

أي: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ. ويقال: يكره أن يجمع بين ذكر الله تعالى وذكر رسوله في كتابة واحدة، ويستحب أن يكون ذكر الله تعالى مقدماً ثم ذكر النبي عليه السلام مؤخراً. وذكر في بعض الأخبار: أن خطيباً قام عند النبي ﷺ فقال في خطبته: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى فقال النبي ﷺ: «بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ»[2]، لأنه كان يجب أن يقول: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى. ثم قال: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، يعني: مصدقين بقلوبهم في السر.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

(٢) حديث عدي بن حاتم: أخرجه مسلم (٨٧٠) وأبو داود (١٠٩٩) و(٤٩٨) وأحمد ٤/ ٣٧٩ والنسائي: ٦/ ٩٠.

Marfat.com

إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أنه مَنْ يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ﴾، يعني: يخالف الله ورسوله؛ ويقال: يخاف أمر الله وأمر رسوله، يعني: أمر الله تعالى في الفرائض، وأمر رسوله في السنن وفيما بيَّن. وقال الأخفش: ﴿يحادد الله﴾ يعني: يعادي الله ورسوله، **﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾**. قرأ بعضهم ﴿فإنَّ لَهُ﴾ بالكسر على معنى الاستئناف، وقرأ العامة بالنصب على معنى البناء. **﴿خَالِداً فِيها ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾**، يعني: العذاب الشديد.

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾؛ قال الزجاج، قوله: **﴿يَحْذَرُ﴾** لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، أي: ليحذر المنافقون، ويقال: على وجه الخبر يحذر يعني: يخشى المنافقون. وذلك أن بعضهم قال: لو أني جلدت مائة جلدة، أحب إليّ من أن ينزل فينا شيء يفضحنا، فنزل: **﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ﴾** يعني: سورة براءة تنبئهم **﴿بِما فِي قُلُوبِهِمْ﴾** من النفاق. وكانت سورة البراءة: تسمى الفاضحة. **﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾**، يعني: مظهر ﴿ما يحذرون﴾ يعني: تخافون من إظهار النفاق.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنَمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ حين رجع من تبوك، وبين يديه هؤلاء الأربعة يسيرون ويقولون: إن محمداً يقول إنه نزل في إخواننا الذين تخلفوا بالمدينة كذا وكذا، وهم يضحكون ويستهزئون، فأتاه جبريل فأخبره بذلك، فبعث إليهم النبي ﷺ عمار بن ياسر فقال له: **«اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ وَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَتَحَدَّثُونَ وَيَضْحَكُونَ»**؟ وأخبره أنهم يستهزئون بالقرآن، وأنه إذا أتاهم وسألهم يقولون: إنّما كنا نخوض ونلعب. فلما جاء إليهم عمار بن ياسر قال لهم: ما تقولون؟ قالوا: إنَّا كنا نخوض ونلعب فيما يخوض فيه الركب إذا ساروا ونضحك بيننا. فقال عمار: صدق الله، وبلَّغ رسوله هكذا أخبرني رسول الله ﷺ أنكم تقولون ذلك، غضب الله عليكم هلكتم هلكتم، فجاؤوا واعتذروا. فنزل: **﴿قُلْ أَبالله﴾**، يعني: قل لهم يا محمد: **﴿أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾**. وقال قتادة: إذا رايا العبد، يقول الله انظروا إلى عبدي يستهزىء **﴿قُلْ أَبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾** فجاؤوا إلى النبي ﷺ واعتذروا، فنزل قوله تعالى: **﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾**، يعني: كفرتم في السر بعد إيمانكم في العلانية. ويقال: قد أقمتم على كفركم الأول في السر بعد إيمانكم مع إقراركم بالعلانية بالإيمان. **﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾**، وكان فيهم مخلص واحد، ولم يقل معهم شيئاً، ولكن ضحك معهم فقال: **﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾** وكان فيهم واحد مخلص ولم يقل معهم بشيء، ولكن ضحك معهم وقال: **﴿إن نعفُ عن طائفة منك﴾**

Marfat.com

وهو المؤمن المخلص، ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ يعني: المنافقين، وقال القتبي: قد يذكر الجماعة ويراد به الواحد كقوله ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ﴾ وإنما كان رجلاً واحداً وكقوله: ﴿يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات﴾ وأراد به النبي ﷺ. ويقال: ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ وهم المخلصون ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ وهم المنافقون ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مذنبين كافرين في السر. قرأ عاصم ﴿إِن نَّعْفُ﴾ بالنون ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالنون وكسر الذال ﴿طَائِفَةً﴾ بالنصب، وقرأ الباقون ﴿إِن يُعْفَ﴾ بالياء والضم ﴿تُعَذَّب﴾ التاء ونصب الذال ﴿طائفةٌ﴾ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۢ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾، يعني: المنافقين من الرجال والمنافقات من النساء. ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، يعني: بعضهم على دين بعض في السر. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾، يعني: بالتكذيب بمحمد ﷺ وبالشرك، وبما لا يرضي الله تعالى، ويقال: المنكر ما يخالف الكتاب والسنة. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، يعني: عن التوحيد واتباع محمد ﷺ. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، يعني: يمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله ويقال: كفوا عن الحق. ﴿نَسُوا اللهَ﴾، يقول: تركوا طاعة الله. ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، يعني: تركهم في النار، ويقال: تركهم في الحرمان والخذلان، كقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، يعني: الخارجين عن طاعة الله تعالى، وكل منافق فاسق، وقد يكون فاسقاً ولا يكون منافقاً، ولا يكون منافقاً إلا وهو فاسق.

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ﴾، الوعد يكون بالخير، ويكون بالشر إذا قيد به، والوعيد لا يكون إلا بالشر، فقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾، يعني: المنافقين الذين كانوا بالمدينة ومن كان على مذهبهم ويكون إلى يوم القيامة ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ وهم أهل مكة ومن كان بمثل حالهم. ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، يعني: تكفيهم النار جزاءً لكفرهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللهُ﴾؛ يعني: طردهم الله من رحمته. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، يعني: دائم.

قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، يعني: صنيعكم مع نبيكم، كما صنع الأمم الخالية مع

Marfat.com

أنبيائهم عليهم السلام وقال الضحاك: يعني: لعن المنافقين، كما لعن الذين من قبلهم من الأمم الخالية. ويقال: ولهم عذاب دائم ﴿كالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً﴾، يعني: لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، فلا ينفعكم أموالكم ولا أولادكم أيضاً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾، يعني: فانتفعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا. ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بخلاقكم﴾، يقول: انتفعتم أنتم بنصيبكم من الآخرة في الدنيا، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم الخالية، ﴿بِخَلاقِهِمْ﴾؛ أي بنصيبهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل، ﴿كالذي خاضُوا﴾ ويقال: كذبتم الرسول كما كذبوا رسلهم. ﴿أُوْلَئِكَ﴾، يعني: أهل هذه الصفة ﴿حبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ﴾ يعني: بطل ثواب أعمالهم فلا ثواب لهم لأنها كانت في غير إيمان. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، يعني: في الآخرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني: ألم يأتهم خبر الذين من قبلهم في القرآن عند التكذيب كيف فعلنا بهم؟ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف أغرقناهم، ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ كيف أهلكناهم بالريح العقيم؟ ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾، وهم قوم صالح كيف أهلكناهم بالصيحة؟ ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهو نمروذ بن كنعان كيف أهلكناهم بأضعف الخلق وهو البعوض؟ ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب كيف أهلكناهم بعذاب يوم الظلة؟ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾، يعني: مدائن قوم لوط. ﴿والمؤتفكات﴾ جمع المؤتفكة، لأنها ائتفكت بهم، يعني: انقلبت بهم، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣] يعني: أمطرت عليهم الحجارة. وقال مقاتل: المؤتفكات يعني: المكذبات ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، يعني: بالأمر والنهي فتركوا طاعتي فأهلكتهم. ﴿فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ﴾، يعني: لم يهلكهم بغير ذنب. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يظلمون﴾ بتركهم طاعتي وتكذيبهم الرسل.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يعني: بعضهم على دين

Marfat.com

بعض، وبعضهم معين لبعض في الطاعة. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، يعني: بالإيمان واتباع محمدﷺ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يعني: عن الشرك، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾؛ يعني: يقرون بها ويتمُّونها، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ يعني: ويقرون بها ويؤدونها. ﴿وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، يعني: يطيعون الله في فرائضه، ويطيعون الرسول في السنن وفيما بَيَّنَ ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾، يعني: ينجيهم الله من العذاب الأليم. ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ ذو النقمة ﴿حكيم﴾ في أمره حكم للمؤمنين بالجنة وللكافرين بالنار. قال الفقيه: ذكر عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: سيرحمهم الله في خمسة مواضع: عند الموت وسكراته، وفي القبر وظلماته، وعند الكتاب وحسراته، وعند الميزان وندامته، وعند الوقوف بين يدي الله وسؤالاته.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، يعني: المصدقين من الرجال والمصدقات من النساء. ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، يعني: منازل طاهرة تطيب فيها النفس. ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ في قصور من الدُّر والياقوت.

وقال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل، وعبد الله بن محمد قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل العابد قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن مجاهد قال: قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، فقال: «هل تدرون ما جنات عدن؟ ثمّ قال: قصر في الجنة من ذهب، له خمسمائة ألف باب، وعلى كل باب خمسة وعشرون ألفاً من الحور العين، لا يدخلها إلا نبي، وهنيئاً لصاحب هذا القبر، وأشار إلى قبر النبي ﷺ؛ أو صدِّيق وهنيئاً لأبي بكر، أو شهيد وأنَّى لعمر بالشهادة!» ثم قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾، يعني: رضى الرب عنهم أعظم مما هم فيه من الثواب والنعيم في الجنة. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، يعني: النجاة الوافرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، ﴿الكفار﴾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالقول الشديد. قال ابن مسعود: قوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: «جاهد بيدك، فإن لم تستطع فبلسانك، فإن لم تستطع فبقلبك، فالقهمْ بوجه عبوس» وعن الحسن قال: ﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف و﴿المنافقين﴾ بالحدود، يعني: أقم عليهم حدود الله. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: أشدد عليهم، يعني: على الفريقين جميعاً في المنطق.

Marfat.com

ثم بيّن مرجعهم جميعاً في الآخرة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾، يعني: مصيرهم ومآبهم إلى جهنم، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صاروا إليه.

ثم بيّن خبثهم وسوء معاملتهم وفعالهم، فقال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾؛ وذلك أن النبي ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، فذكر المنافقين وسماهم رجساً، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان محمد صادقاً فيما يقول، لنحن شر من الحمير، فسمع عامر بن قيس، فقال: والله إن محمداً لصادق، ولأنتم شرّ من الحمير. فلما رجعوا إلى رسول الله ﷺ، أتاه عامر بن قيس فأخبره. فقال الجلاس: بل كذب عليّ، وأمرهما أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس وحلف، ثم قام عامر بن قيس وحلف أنه قد قاله، وما كذبت عليه، ثم رفع يديه فقال: «اللهم انزل على نبيك ﷺ وبيّن الصادق منا» فقال رسول الله ﷺ والمسلمون «آمين» فنزل جبريل قبل أن يتفرقوا بهذه الآية ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾، يقول: كفروا في السر قبل إقرارهم في العلانية ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، يعني: أرادوا قتل عامر بن قيس. ويقال: قتل النبي ﷺ، وذلك أنهم اجتمعوا ذات ليلة في مضيق جبل ليقتلوه إذا مرّ بهم، فدفعهم الله عنه؛ ويقال: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهو قول عبد الله بن أبي بن سلول لأصحابه: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال: سَمِّن كلبك يأكلك، يعني: سلطناهم على أنفسنا فنزل: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وقال مقاتل: كان المنافقون أصحاب العقبة هموا ليلاً بقتل النبي ﷺ بالعقبة في غزوة تبوك، فنزل: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهكذا قال الضحاك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾، يقول: وما عابوا وما طعنوا على محمد ﷺ. ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ وذلك أن النبي ﷺ قدم المدينة وكان أهل المدينة في شدة من عيشهم، لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فلما قدم النبي ﷺ المدينة استغنوا، فذلك قوله: ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾، يعني: إن تابوا من الشرك والنفاق يكون خيراً لهم من الإقامة عليه. ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ يقول: أبوا عن التوبة، ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾؛ يعني: في الدنيا بإظهار حالهم، وفي الآخرة في نار جهنم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾، يعني: مانع يمنعهم من العذاب. وذكر أنه لما نزلت هذه الآية، تاب الجلاس بن سويد وحسنت توبته.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ﴾، قال في رواية الكلبي: نزلت الآية في شأن حاطب بن أبي بلتعة، كان له مال في الشام فجهد بذلك جهداً شديداً، فحلف بالله ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾، يعني: المال الذي بالشام، ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منه ولأؤدين حق الله منه، فلم يفعل لمّا أعطاه الله تعالى المال. قال مقاتل: نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري كان محتاجاً، فقال: ﴿لَئِنْ آتَانَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكونَنَّ من الصالحين﴾ فابتلاه الله تعالى فرزقه ذلك، وذلك أن مولى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأ، فدفع النبي ﷺ ديته إلى عصبته وهو ثعلبة، فبخل ومنع حق الله تعالى.

قال الفقيه: حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا الربيع بن سليمان المرادي قال: حدثنا أسد بن موسى قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثنا معاذ بن رفاعة، عن عليّ بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال ﷺ: «وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ». قال: ثم رجع إليه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: «وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلِي؟ وَاللهِ لَوْ سَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُسِيلَ عَلَيَّ الْجِبَالَ ذَهَباً وَفِضَّةً. لَسَالَتْ». ثم رجع إليه ثالثاً فقال: يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني مالاً، فوالله لئن آتاني الله مالاً لأؤدين لكل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً». فاتّخذ غنماً فنمت حتى ضاقت بها أزقة المدينة، فتنحى بها وكان يشهد الصلوات مع رسول الله ﷺ ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذرت عليها مراعي المدينة، فتنحى بها، وكان يشهد الجمعة مع رسول الله ﷺ، ثم يخرج إليها، ثم نمت، فترك الجمعة والجماعات وجعل يتلقى الركبان ويقول: ماذا عندكم من الخبر؟ وما كان من أمر الناس؟ فأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] فاستعمل النبي ﷺ رجلين على الصدقات: رجلاً من الأنصار، ورجلاً من بني سليم، وكتب لهما كتاب الصدقة، وأمرهما أن يصدقا الناس، وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله. فأتيا ثعلبة وطلبا منه صدقة ماله فقال ثعلبة: صدّقا الناس، فإذا فرغتما فمرا بي. ففعلا، فلما رجعا إليه وطلبا منه فأبى وقال: ما هذه إلا أخية الجزية. فانطلقا حتى أتيا إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله على رسوله[1]: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾.

فركب رجل من الأنصار هو ابن عم لثعلبة راحلته حتى أتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة

(١) عزاه السيوطي: ٢٤٦/٤ إلى الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال، والطبراني وابن مندة، والباوردي، وأبي نعيم في معرفة الصحابة.

Marfat.com

هلكت، قد أنزل الله فيك من القرآن كذا وكذا، فأقبل ثعلبة بن حاطب وجعل على رأسه التراب وهو يبكي ويقول: يا رسول الله، اقبض مني صدقة مالي. فلم يقبض منه صدقته حتى قبض الله تعالى رسوله، ثم أتى إلى أبي بكر فلم يقبل صدقته، ثم أتى إلى عمر فلم يقبل صدقته، ثم أتى إلى عثمان فلم يقبل صدقته، ومات في خلافة عثمان، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتاهُم﴾ يعني: أعطاهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ يعني: من المال ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ بمنع حق الله ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن الصدقة ﴿وَهُم مُعْرِضُونَ﴾ لم يفوا بما قالوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول جعل عاقبتهم إلى النفاق ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ يعني: يلقون الله، وهو يوم القيامة، ﴿بِمَا أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ لقوله: ﴿لئن آتانا الله من فضله لنصدقن﴾ وقال عبد الله بن مسعود: «اعتبروا المنافق بثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر». ثم قرأ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ الله﴾ إلى قوله ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فقد ذكر الثلاثة في هذه الآية.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في أصحاب العقبة حين هموا بما لم ينالوا، ويقال: هذا عطف نسق عطف على قوله: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ﴿وَأَنَّ الله عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾، أي علم غيب كل شيء مما هموا به.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾، يعني: يطعنون ويعيبون ﴿الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، وذلك أن النبي ﷺ حين أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك، حثَّ الناس على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وزن كل درهم مثقالاً، فقال: «أَكْثَرْتَ، هَلْ تَرَكْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً»؟ فقال: يا رسول الله، كان مالي ثمانية آلاف درهم، فأما أربعة آلاف درهم التي جئتُ بها فأقرضتها ربي، وأما أربعة آلاف التي بقيت فأمسكتها لنفسي وعيالي، فقال له رسول الله ﷺ: «بَارَكَ الله لك فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَفِيمَا أَمْسَكْتَ». فبارك الله فيه، حتى بلغ ماله حين مات وقد كان طلق إحدى نسائه الثلاث في مرضه، فصالحوها من ثلث الثمن على ثمانين ألف

Marfat.com

درهم ونيف. وفي رواية أخرى: ثمانين ألف دينار ونيف[١].

وجاء عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر، وكل واحد منهم جاء بمقدار طاقته، حتى جاء أبو عقيل بن قيس بصاع من تمر وقال: آجرت نفسي الليلة بصاعين، فصاع أقرضته لربي، وصاع تركته، فأمرهُ بأن ينثره في الصدقة. وروي أن امرأة، جاءت إلى النبي ﷺ بتمرةٍ واحدة، فلم ينظر النبي ﷺ إليها فنزل: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخره. وكان نفر من المنافقين جلوساً يستهزئون فقالوا: لقد تصدق عبد الرحمن وعاصم بن عدي رياءً، ولقد كان الله غنياً عن صاع أبي عقيل، فنزل[٢]: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: يطعنون المتصدقين الذين يتصدقون بأموالهم وهم عبد الرحمن وعاصم وغيرهما.

﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ﴾، قال أهل اللغة: الجُهْدُ بالضم الطاقة، والجَهْدُ بالنصب المشقة. وقال الشعبي: الجُهْدُ هو القيتة يعني: القلة، والجَهْدُ بالنصب هو الجَهْدُ في العمل. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾. يقول: يستهزئون بهم. ﴿سَخِرَ الله مِنْهُمْ﴾، يعني: يجازيهم جزاء سخريتهم. وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعني: وجيع دائم. فلما نزلت هذه الآية، جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، استغفر لنا فنزل: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: قوله: ﴿استغفرْ لهم﴾ اللفظ لفظ الأمر، ومعناه معنى الخبر، فمعناه: إن شئت استغفر لهم، وإن شئت فلا تستغفر لهم، يعني: للمنافقين. ﴿إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يعني: فإنك إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ﴾.

ثم بَيَّنَ المعنى الذي لم يغفر لهم بسببه، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾، يعني: في السر. وقال قتادة ومجاهد: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «لأزِيدَنَّ عَلَى سَبْعِينَ مرة، فاستغفر لهم، أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم»[٣] فأنزل الله تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] ثم قال: ﴿وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، يعني: المنافقين الذين كفروا بالله ورسوله في السر، والله تعالى لا يهديهم ما داموا ثابتين على النفاق.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/٢٤٩ إلى البزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن أبي هريرة.
(٢) عزاه السيوطي: ٤/٢٤٩ إلى ابن مردوية عن أبي سعيد و٤/٢٥١ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) عزاه السيوطي: ٤/٢٥٣ إلى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يقول: عجب ورضي المتخلفون عن الغزو وهم المنافقون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ الله﴾، يعني: بتخلفهم عن رسول الله ﷺ ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، يعني: قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الغزو، فإن الحر شديد. قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يعني: لو كانوا يفهمون. قراءة ابن مسعود ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وليبكوا كثيراً﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به: التوبيخ. قال الحسن: يعني: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ في الآخرة في النار. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، يعني: عقوبة لهم بما كانوا يكفرون. وعن أبي رزين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ قال: يقول الله تعالى: الدنيا قليل فليضحكوا قليلاً فيها ما شاؤوا، فإذا صاروا إلى النار بكوا بكاءً لا ينقطع، فذلك الكثير.

وروى الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن أبي عامر، عن عمرو بن شرحبيل قال: مرّ النبي ﷺ على ملأ من قريش، وفيهم أبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة فقال أبو جهل: هذا نبيكم يا بني عبد مناف. فقال عتبة: وما ننكر أن يكون منا نبي أو ملك، فسمعه النبي ﷺ، فأقبل عليهم فقال: «أَمَّا أَنْتَ يا عُتْبَةُ، فَلَمْ تَغْضَبْ لله وَلا لِرَسُولِهِ، وَإِنَّمَا غَضِبْتَ لِلأَصْلِ. وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلٍ، فَوَالله لا يَأْتِي عَلَيْكَ إلاَّ غَيْرُ كَثِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَبْكِيَ كَثِيراً وَتَضْحَكَ قَلِيلاً. وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا مَلأَ قُرَيْشٍ، فَوَالله لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ إلاَّ غَيْر كَثِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ، حَتَّى تَدْخُلُوا فِي هٰذَا الأَمْرِ الَّذِي تُنْكِرُونَ طَائِعِينَ أَوْ كَارِهِينَ». قال: فسكتوا كأنما ذرّ على رؤوسهم التراب، فلم يردوا عليه شيئاً.

وروى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «يُرْسِلُ الله تَعَالَى الْبُكَاءَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ»(1).

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ الله إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾، يعني: إن رجعك الله من تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى. ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبداً﴾ إلى الغزو، ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً﴾. ويقال: معناه، لن تخرجوا إلاَّ مطيعين من غير أن تكون لهم شركة في الغنيمة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بالتخلف عن غزوة تبوك، ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، يعني: مع المتخلفين الذين تخلفوا بغير عذر. ويقال: الخالف

(1) عزاه السيوطي: 4/256 إلى ابن مردويه وابن ماجة وأبي يعلى.

Marfat.com

الذي يخلف الرجل في أهله وماله، ويقال: الخالف الذي خالف قومه، ويقال: الخالف الفاسد، ويقال: الخالف المرأة، والخوالف: النساء.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾، يعني: لا تصل أبداً على من مات من المنافقين. **﴿وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾**، يعني: لا تدفنه. **﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾** في السر، **﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾**؛ يعني: ماتوا على الكفر. قال مقاتل: ذلك أن النبي ﷺ جاء إليه عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وهو رأس المنافقين، حين مات أبوه، فقال: أنشدك الله أن لا تشمت بي الأعداء، فطلب منه أن يصلي على أبيه، فأراد النبي أن يفعل، فنزلت هذه الآية، فانصرف النبي ﷺ ولم يصل عليه. وقال في رواية الكلبي: لما اشتكى عبد الله بن أُبي ابن سلول، عاده رسول الله ﷺ، فطلب منه عبد الله أن يصلي عليه إذا مات، وأن يقوم على قبره، وأن يكفنه في القميص الذي يلي جسده، فقبل ذلك رسول الله ﷺ؛ قال عمر: فجئت إلى رسول الله ﷺ حين أراد أن يصلي عليه فقلت: يا رسول الله، أتصلي عليه وهو صاحب كذا وصاحب كذا؟ فقال: **«دَعْنِي يا عُمَرُ»**. ثم عدت ثانياً، ثم عدت ثالثاً، فنزلت هذه الآية[1]: ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً﴾ الآية.

وروى عكرمة، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قد صلى عليه، وقام على قبره، وكفنه في قميصه»، فنزل ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية فنهي أن يصلي على أحد من المنافقين بعده. قال ابن عباس: «والله لا أعلم أي صلاة كانت؟ وما خادع رسول الله ﷺ إنساناً قط». وفي خبر آخر، أنّ عمر قال: «يا رسول الله أتصلي عليه وتعطيه قميصك وهو كافر منافق»؟ فقال النبي ﷺ: **«وَمَا عَلِمْتَ يا عُمَرُ، عَسَى أَنْ يُسْلِمَ بِسَبَبِ هٰذا القَمِيصِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَلا يُغْنِيهِ قَمِيصٌ مِنْ عَذابِ الله شَيْئاً»**. فأسلم من بني الخزرج من أهاليه خلق كثير، وقالوا: لولا أن عبد الله عرفه حقاً، ما تبرك بقميصه، وما طلب منه أن يصلي عليه[2].

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيا﴾،

---

(١) حديث ابن عمر: أخرجه البخاري (١٢٦٩) و(٤٦٧٠) و(٤٦٧٢) ومسلم (٢٧٧٤) (٤) والترمذي (٣٠٩٨) والنسائي ٤/ ٣٦.
وأحمد: ١/ ١٨. وفي الباب حديث ابن عباس عن عمر أخرجه البخاري (١٣٦٦) و(٤٦٧١) وأحمد: ١/ ١٦ والترمذي (٣٠٩٧) والنسائي: ٤/ ٦٨.

(٢) عزاه السيوطي: ٤/ ٢٥٩ إلى أبي الشيخ عن قتادة.

Marfat.com

يعني: بالأموال في الآخرة على وجه التقديم، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾، يعني: سورة براءة. ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللهِ﴾، يعني: يأمرهم فيها أن صدقوا بقلوبكم كما أقررتم بلسانكم، ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، يعني: استأذنك في القعود أهل السعة والغنى من المنافقين. ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، يعني: دعنا وائذن لنا نتخلف ونقعد مع القاعدين الذين تخلفوا في المدينة عن الجهاد. و﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، يعني: بأن يجالسوا النساء بالمدينة. يقال: الخوالف هم خساس الناس ودناتهم، يقال: خالف أهله، إذا كان دونهم. ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ التوحيد، ويقال: لا يعلمون ثواب الخروج إلى الجهاد.

ثم قال عز وجل: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ﴾، يعني: إن لم يجاهد المنافقون، فالله تعالى غني عنهم ويجاهد الرسول. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، إن لم تخرجوا أنتم. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾، يعني: الحسنات، ويقال: زوجات حسان في الجنة. والخيرة: الزوجة، والخيرة: الثواب. وقال القتبي والأخفش: الخيرات واحدها خيرة: وهن الفواضل.

وروى مسروق، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ قال: «لكل مسلم خيرةٌ، ولكل خيرةٍ خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها في كل يوم من الله تعالى تحفة وكرامة وهدية، لم يكن قبل ذلك لا طمحات ولا مرحات ولا بخرات ولا دفرات ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] الآية. قال أهل اللغة: طمحات يعني: ناكسات رؤوسهن، مرحات: خفيفات الرؤوس، بخرات: منتن ريح الفم، ودفرات: منتن ريح الإبط. ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، يعني: الناجون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، يعني: النجاة الوافرة والثواب الجزيل.

﴿وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

Marfat.com

﴿مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾، قرأ ابن عباس ﴿المُعْذِرُونَ﴾ بالتخفيف وهكذا قرأ الحضرمي، وقراءة العامة ﴿المُعَذِّرُونَ﴾ بالتشديد. فمن قرأ بالتخفيف يعني: الذين أعذروا وجاؤوا بالعذر، ومن قرأ بالتشديد يعني: المعتذرين الذين إلا أن التاء أدغمت في الذال لقرب المخرجين: ويعني: المعذرين الذين يعتذرون، كان لهم عذر أو لم يكن لهم، وهذا قول الزجاج.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ﴿وجاء المُعْذِرُونَ﴾ بالتخفيف وهم المخلصون، أصحاب العذر وقال: لعن الله المُعَذِّرِين بالتشديد، لأن المعذِّرين هم الذين يعتلُّون بلا علة، ويعتذرون بلا عذر. ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف، ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا الله وَرَسُولَهُ﴾. فمن قرأ بالتشديد يكون هذا نعتاً لهم، ومن قرأ بالتخفيف يكون صنفين، ويكون معناه: وجاء الذين لهم العذر، وسألوا العذر، وقعد الذين لا عذر لهم وهم الذين كذبوا الله ورسوله في السر. ثم بيّن أمر الفريقين فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهم الذين تخلفوا بغير عذر.

وبيّن حال الذين قعدوا بالعذر، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾، يعني: على الزَّمن والشيخ الكبير، ﴿وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾، يعني: لا إثم عليهم. ﴿إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ﴾، يعني: إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية. ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، يعني: ليس على الموحدين المطيعين من حرج، إذا تخلفوا بالعذر. ﴿وَالله غَفُورٌ﴾ لهم بتخلفهم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

قوله تعالى: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ﴾، يعني: ولا حرج على الذين. ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الجهاد. روى أسباط، عن السدي أنه قال: أقبل رجلان من الأنصار أحدهما عبد الله بن الأزرق، والآخر أبو ليلى، فسألاه أن يحملهما، ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾. فبكيا حزناً ألا يجدوا ما ينفقون وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: أتاه سبعة نفر من أصحابه، سالم بن عمير، وحزن بن عمرو، وعبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، وسليمان بن صخر، وعتبة بن زيد، وعمرو بن عتبة، وعبد الله بن عمرو المزني يستحملونه، فقال رسول الله ﷺ: «﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾». ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ من الدمع﴾، يعني: تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ﴾ في الخروج إلى الجهاد.

Marfat.com

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ يعني: إثم الخروج ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلف، ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ يعني: لهم سعة للخروج. ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، يعني: ختم، ﴿فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ التوحيد.

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو. ﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾، يعني: لا نصدقكم أن لكم عذراً. ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، يعني: أخبرنا الله تعالى عنكم بأنه ليس لكم عذر، ويقال: أخبرنا الله عن نفاقكم، ويقال: أخبرنا الله عن أعمالكم وسرائركم. ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، فيما تستأنفون وسيراه المؤمنون. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾، يعني: ترجعون بعد الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني: إلى الذي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوا ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، يعني: إذا رجعتم إليهم من الغزو، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ يعني: تتجاوزوا وتصفحوا عنهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ يعني: اصفحوا عنهم وتجاوزوا عنهم في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، يعني: قذر نجس، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ يعني: مصيرهم في الآخرة إلى جهنم. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾، يقول: إن أنت رضيت عنهم يا محمد والمؤمنون. ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، يعني: المنافقين.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾، يعني: أسد وغطفان وأعراب حاضري المدينة هم أشد في كفرهم ونفاقهم من غيرهم. ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا﴾، يعني: أحرى وأولى وأحق ألاَّ يَعْلَمُوا، ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾، لأنهم كانوا أجهل وأقل علماً من غيرهم. وقال

Marfat.com

الكلبي: يعني: لا يعلمون من الفرائض التي أنزل الله تعالى. وقال مقاتل: هم أقلّ علماً بالسنن من غيرهم.

وروى الأعمش، عن إبراهيم قال: كان زيد بن صوحان جالساً يحدث وقد أصيبت يده يوم نهاوند، فجاء أعرابي وقال: إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني. فقال له زيد: أو ليس الشمال؟ قال الأعرابي: والله لا أدري الشمال تُقطع أو اليمين؟ فقال زيد: صدق الله ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ﴾، ويقال: أن لا يعلموا أحكام الله في كتابه. ﴿وَالله عَلِيمٌ﴾ بهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمرهم.

ونزل فيهم: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾، يعني: ما ينفق في الجهاد، يحسبه غُرْماً ولا يحتسبه فيه الأجر، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾، يعني: ينتظر بكم الموت، يعني: محمداً ﷺ خاصة. وقال القتبي: الدوائر، دوائر الزمان ودوائر الزمان، صروفه التي تأتيه مرة بالخير ومرة بالشر. يقول الله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾، يعني: عاقبة السوء والهلاك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين، يعني: عاقبة المضرة والشر، وقرأ الباقون بالنصب. يقال: رجل سَوء، إذا كان خبيثاً. وعن الفراء أنه قال: الفتح مصدر، والضم اسم. ﴿وَالله سَمِيعٌ عليم﴾ يعني: سميعاً لمقالتهم، عليماً بهلاكهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

ثمّ ذكر من أسلم من الأعراب من جهينة وغفار وأسلم. فقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ في الجهاد ﴿قُرُبَاتٍ عِنْدَ الله﴾، يعني: قربة إلى الله تعالى، ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾، يعني: طلب دعاء الرسول عليه السلام واستغفاره. يقول الله تعالى: ﴿ألا إنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، يعني: نفقاتهم قربة لهم إلى الله تعالى وفضيلة ونجاة لهم. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ﴾، يعني: في جنته ﴿إنَّ الله غَفُورٌ﴾ لذنوبهم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم قرأ نافع في رواية ورش ﴿قُرُبَةٌ﴾ بضم الراء، وقرأ الباقون بجزم الراء، ومعناهما واحد.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾، وهم الذين صلوا إلى القبيلتين، ﴿مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾، وشهدوا بدراً. وروي عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: من المهاجرون الأولون؟ قال: من صلّى إلى القبلتين مع النبي ﷺ، فهو من المهاجرين الأولين. وقال السدي: كانت الهجرة قبل أن تفتح مكة، فلما فتحت مكة كان من أسلم بعده ولحق بالنبي ﷺ فهو تابع.

Marfat.com

وروي عن مجاشع بن مسعود البهزي أنه جاء بابن أخيه ليبايعه على الهجرة، فقال النبي ﷺ: «لاَ بَلْ بَايِعْ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَإِنَّهُ لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ». قرأ العامة ﴿والأَنْصَارِ﴾ بالكسر، وقرأ الحضرمي ﴿والأَنْصَارُ﴾ بالضم. فمن قرأ بالضم فهو عطف على التابعين ومعناه: والسابقون والأنصار، ومن قرأ بالكسر فهو عطف على المهاجرين ومعناه: ومن المهاجرين ومن الأنصار.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ بغير واو، وقراءة العامة بالواو، فمن قرأ بغير واو يكون نعتاً للأنصار، ومن قرأ بالواو يكون نعتاً لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة.

وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فقال له عمر: «من أقرأك هذه الآية؟» فقال: أقرأنيها أبيّ بن كعب. فقال: «لا تفارقني حتى أذهب بك إليه». قال: فلما جاءه قال: «يا أُبَيّ، أنت أقرأته هذه الآية هكذا؟» قال: «نعم». قال: «أنت سمعتها من رسول الله ﷺ؟» قال: «نعم». قال: «كنت أظن أنا قد ارتفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا». قال أبيّ: «تصديق هذه الآية أول سورة الجمعة، وأوسط سورة الحشر، وآخر سورة الأنفال». أما أول سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] وأوسط سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وآخر سورة الأنفال ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقال الشعبي: ﴿السابقون الأولون﴾ من أدرك بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة. ﴿اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، يعني: اتبعوهم على دينهم بإحسانهم، ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، يعني: عن الله تعالى بثوابه إياهم في الجنة. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾. قرأ ابن كثير ﴿جنات تجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بزيادة من، وقرأ الباقون ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ بغير ﴿مِن﴾ صار ﴿تَحْتَهَا﴾ نصباً لنزع الخافض. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، يعني: الثواب الوافر.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾، يعني: الأعراب الذين حوالي المدينة. ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، وهو عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، يعني: مرنوا وثبتوا على النفاق، فلا يرجعون عنه ولا يتوبون. ﴿لا تَعْلَمُهُمْ﴾، يقول: لا تعرفهم أنت بسبب إيمانهم بالعلانية. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، لأني عالم السر والعلانية، ونعلم نفاقهم، ونعرّفك حالهم.

Marfat.com

﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال مقاتل: أحد العذابين عند الموت: ضرب الملائكة الوجوه والأدبار، الثاني: عذاب القبر، وهو ضرب منكر ونكير. وقال الكلبي: أوَل العذابين أنه أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني: عذاب القبر.

وروى أسباط بن النضر الهمداني، عن إسماعيل بن عبد الملك السدي: عن أبي مالك، عن ابن عباس أنه قال: قام ﷺ خطيباً يوم الجمعة، فقال: **«يَا فُلانُ اخرُجْ فَإنَّكَ مُنَافِقٌ»**. ثم قال: **«يَا فُلانُ اخرُجْ إنَّكَ مُنَافِقٌ»**. فأخرجهم بأسمائهم، وكان عمر لم يشهد الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا هم قد اختبؤوا من عمر، وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد فضح الله المنافقين، وهذا هو العذاب الأول، والعذاب الثاني: عذاب القبر(١). وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، قال: الجوع والقتل، ويقال: القتل والسبي، وقال الحسن: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: عذاب جهنم أعظم مما كان في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، يعني: بتخلفهم عن الغزو وهم: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن خزام. ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً﴾، وهو التوبة، ﴿وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ بتخلفهم عن غزوة تبوك. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري قال: تخلف أبو لبابة عن غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية المسجد، ثم قال: والله لا أحلّ نفسي منها، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ. فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً، حتى كاد يخر مغشياً عليه، حتى تاب الله عليه فقيل له: قد تيب عليك، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله عليه السلام هو الذي يحلّني. فجاء النبي ﷺ فحلّه بيده. ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن انخلع من مالي كله صدقة لله تعالى ولرسوله. فقال: **«يُجْزِيكَ الثُّلُثُ يا أبا لُبَابَة»**(٢).

وروي عن الزهري، عن كعب بن مالك قال: أول أمر عتب على أبي لبابة أنه كان بينه وبين يتيم عذق، فاختصما إلى رسول الله ﷺ: فقضى به لأبي لبابة فبكى اليتيم، فقال له النبي ﷺ: **«دَعْهُ»**، فأبى. ثم قال: **«فَأَعْطِهِ إيّاهُ وَلَكَ مِثْلُهُ فِي الْجَنَّةِ»**. قال: لا. فانطلق أبو الدحداح، فقال لأبي لبابة: بعني هذا العذق بحديقتي قال: نعم. ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن أعطيت هذا اليتيم هذا العذق، ألي مثله في الجنة؟ قال: **«نَعَمْ»**.

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ٢٧٣ إلى ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه.

(٢) عزاه السيوطي: ٤/ ٢٧٥ إلى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل و٤/ ٢٧٦ إلى البيهقي عن سعيد بن المسيب.

Marfat.com

فأعطاه إيّاه، قال وأشار أبو لبابة إلى بني قريظة حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ. وأشار إلى حلقه يعني: الذبح، وتخلف عن غزوة تبوك ثم تيب عليه، فذلك قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وعسى من الله واجب أن يتجاوز عنهم. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾، يعني: من الذين قبلت توبتهم، جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هذه أموالنا فخذها، وتصدق بها عنا، فكره أن يأخذها، فنزل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ بها من ذنوبهم، ويقال: هذا ابتداء، يعني: خذ من أموال المسلمين صدقة، يعني: الصدقة المفروضة. ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، يعني: تطهر أموالهم، ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، يعني: تصلح بها أعمالهم. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: استغفر لهم وادعُ لهم ﴿إِنَّ صَلاتَكَ﴾ يعني دعاءك واستغفارك ﴿سكن لهم﴾ يعني: طمأنينة لأن الله تعالى قد قبل منهم الصدقة، ويقال: إن الله قبل منهم التوبة. ﴿وَالله سَمِيعٌ﴾ لقولهم ولصدقاتهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابهم. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ﴾ بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون ﴿صَلاتَكَ﴾ وقال أبو عبيدة: وهذا أحبّ إليّ، لأن الصلاة أكثر من الصلوات. ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] وإنّما هي صلاة الأبد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، يعني: ويقبل الصدقات. ومعناه: وما منعهم عن التوبة والصدقة، فكيف لم يتوبوا ولم يتصدقوا؟ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده والصدقة؟ وروى أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ إِذَا كَانَتْ مِنْ طَيِّبٍ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُم فَصِيلَهُ أَوْ مُهْرَهُ، حَتَّى تَكُونَ اللُّقْمَةُ مِثْلَ أُحُدٍ»[1] ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ يعني: المتجاوز لمن تاب، ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ أي: إعملوا خيراً ﴿فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، يعني: ويراه رسوله، ويراه المؤمنون. وقال ابن مسعود رضي الله عنه «إن الناس قد أحسنوا

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤) والترمذي (٦٦١) والنسائي: ٥/٥٧ وأحمد ٢/٣٨٢، ٤١٩، ٥٣٨ وابن ماجة (١٨٤٢).

Marfat.com

القول كلهم، فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبّخ نفسه». ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَونَ لأَمْرِ اللهِ﴾، يعني: موقوفون لأمر الله. وقال القتبي: مؤخرون على أمر الله، ويقال: متروكون لأمر الله تعالى لهم؛ ويقال مؤخر أمرهم، ولم يبيّن شيء، فنزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ثم بيّن توبتهم في الآية التي بعد هذه ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾. قرأ حمزة والكسائي ونافع ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بغير همز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهمز، واختلف عن عاصم وابن عامر، وأصله من التأخير ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بتخلفهم، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: يتجاوز عنهم. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم في أمرهم ما يشاء.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً﴾، يعني: بنوا مسجداً مضرة للمسلمين. وقال القتبي: يعني مضارة، ليضاروا به مخالفيهم، أي: ليدخلوا عليهم المضرة، ﴿وَكُفْراً﴾؛ يعني: وإظهاراً للكفر، ﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قرأ نافع وابن عامر ﴿الَّذِينَ اتخذوا﴾ بغير واو، وقرأ الباقون بالواو؛ ومعناهما واحد، إلا أن الواو للعطف.

نزلت الآية في سبعة عشر من المنافقين من بني عمرو بن عوف، قالوا: تعالوا نبني مسجداً يكون فيه متحدثنا ومجمع رأينا. فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يأذن لهم في بناء المسجد، وقالوا: قد بعُد علينا المسير إلى الصلاة معك، فتفوتنا الصلاة، فاذن لنا أن نبني مسجداً لذوي العلّة والليلة المطيرة. فأذن لهم، وكانوا ينتظرون رجوع أبي عامر الراهب من الشام، وكان النبي ﷺ سماه فاسقاً، وقال: «لا تَقُولُوا رَاهِبٌ وَلٰكِنْ قُولُوا فَاسِقٌ»، وقد كان آمن بالنبي ﷺ مرتين ثم رجع عن الإسلام، فدعا عليه رسول الله ﷺ فمات كافراً. فلما ظهر أمرهم ونفاقهم، جاؤوا يحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ أي: أردنا ببنيانه خيراً فنزل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً﴾ يعني: بنوا المسجد للضرار والكفر وللتفريق بين المؤمنين، لكي يصلي بعضهم في مسجد قباء، وبعضهم في مسجدهم، وليجتمع الناس إلى مسجدهم ويتفرق أصحاب رسول الله ﷺ. ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني: انتظاراً لمن هو كافر بالله ورسوله

Marfat.com

من قبل بناء المسجد، أن يقدم عليهم لهم من قبل الشام، وهو أبو عامر الراهب. ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾، يعني: ما أردنا ببناء المسجد إلاّ صواباً، لكيلا تفوتنا الصلاة بالجماعة، ولكي يرجع أبو عامر الراهب ليسلم. ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما حلفوا، وإنَّما اجتمعوا فيه لإظهار النفاق والكفر.

ثم قال تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾، يعني: لا تصلِّ فيه أبداً، لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتي ويصلي فيه، لكي يتبركوا بصلاته فيه، فنهاه الله تعالى عن ذلك، ونزل ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ حتى للصلاة فيه ثم قال: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، يعني: المسجد الذي بني على التوحيد من أول يوم. قال الأخفش: بني لوجه الله تعالى يعني: منذ أول يوم، ويقال: بني للذكر والتكبير والتهليل ولإظهار الإسلام وقهر الشرك من أول يوم بني. ثم قال: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، يعني: أولى وأجدر أن تصلي فيه.

ثم قال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، يعني: الاستنجاء بالماء، ويقال: ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ يعني: يطهروا أنفسهم من الذنوب. وذلك أن ناساً من أهل قباء كانوا إذا أتوا الخلاء، استنجوا بالماء وهم أول من فعل ذلك واقتدى بهم من بعدهم. وروي في الخبر أن النبي ﷺ وقف بباب المسجد بعد نزول الآية وقال لمن فيه: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمُ الثَّنَاءَ فِي طَهُورِكُمْ فَبِمَ تَطَهَّرُونَ»؟ قالوا: نستنجي بالماء، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ الآية[1]، فذلك قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ يعني: المتطهرين.

وقال سعيد بن المسيب: «المسجد الذي أسس على التقوى، مسجد المدينة الأعظم»[2].

وعن سهل بن سعد الساعدي قال: «اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «هُوَ مَسْجِدِي هٰذا». وروي، عن ابن عباس أنه قال: «هُوَ مَسْجِدُ قباء»[3].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾، يعني: أصّل بنيانه يعني: مسجد قباء وقيل: مسجد

(١) عزاه السيوطي: ٤/٢٨٩ إلى ابن شيبة، وأحمد والبخاري وابن جرير والبغوي في معجمه والطبراني، وابن مردويه وابن نعيم.

(٢) عزاه السيوطي: ٤/٢٨٨ إلى ابن أبي شيبة وأبي الشيخ.

(٣) عزاه السيوطي: ٤/٢٨٨ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

Marfat.com

رسول الله ﷺ ﴿عَلَى تَقْوَى﴾، يعني: على توحيد الله تعالى، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ من الله. قرأ نافع وابن عامر ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ﴾ بضم الألف وكسر السين ﴿بُنْيَانُهُ﴾ بضم النون على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون ﴿أَسَّسَ﴾ بنصب الألف وَ﴿بُنْيَانَهُ﴾ بنصب النون ومعنى الآية: إن البناء الذي يراد به الخير ورضاء الرب تبارك وتعالى ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾، يعني: مسجد الضرار الذي ﴿أسس بنيانه﴾ يعني: أصل بنيانه ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ﴾، يعني: على طرف هوة ليس له أصل. قرأ حمزة وابن عامر وأبي بكر، عن عاصم ﴿على شفا جُرْفٍ﴾ بجزم الراء، والباقون بالضم ومعناهما واحد. وقال القتبي: يعني: على حرف جرف هائر. والجرف: ما ينجرف بالسيول من الأودية. والهائر: الساقط. يقال: تهور البناء وانهار وهار، إذا سقط. وهذا على سبيل المثل، يعني: إن الذي بنى المسجد، إنّما بنى على جرف جهنم، فانهار بأهله في نار جهنم. وقال الكلبي: بعث رسول الله ﷺ رجلين بعد رجوعه من غزوة تبوك، فأحرقاه وهدماه.

ثم قال: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: لا يرشدهم إلى دينه، وهم: الذين كفروا في السر.

قوله تعالى: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يعني: حسرة وندامة بما أنفقوا فيه، وبما ظهر من أمرهم ونفاقهم. ﴿إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: لا يزال حسرة في قلوبهم إلى أن يموتوا، لأنهم إذا ماتوا انقطعت قلوبهم. ويقال: ﴿إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: في القبر. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿إلاّ أنْ تَقَطَّعَ﴾ بالنصب فيكون الفعل للقلوب، يعني: إلاّ أنْ تتقطعَ قلوبهم وتتفرق، والباقون بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بهدم مسجدهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، معناه: إنه طلب من المؤمنين أن يفدوا أنفسهم وأموالهم، ويخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، ليثيبهم الجنة. وذكر الشراء على وجه المثل، لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى، وهي عند أهلها عارية، ولكنه أراد به التحريض والترغيب في الجهاد. وهذا كقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] ثم قال: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، يعني: في طاعة الله تعالى مع العدو.

Marfat.com

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ ، يعني: يقتلون العدو ويقتلهم العدو. قرأ حمزة والكسائي ﴿فَيُقْتَلُونَ﴾ بالرفع ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ بالنصب، على معنى التقديم والتأخير، وقرأ الباقون ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بالنصب ﴿ويُقْتَلُونَ﴾ بالرفع. ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾ ، يعني: واجباً لهم ذلك، بأن يفي لهم ما وعد، وبين لهم ذلك ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ ، يعني: ليس أحد أوفى من الله تعالى في عهده وشرطه، لأنه عهد أن مَنْ قتل في سبيل الله، فله الجنة، فيفي عهده ذلك وينجز وعده.

ثم قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ وهذا إعلام لهم أنهم يربحون في مبايعتهم. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ، يعني: الثواب الوافر والنجاة الوافرة.

قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخره يعني: لهم الجنة، ويقال: هم التائبون، ويقال: صار رفعاً بالابتداء وجوابه مضمر، قرأ عاصم ﴿التَّائِبِينَ العَابِدِينَ﴾ يعني: اشترى من المؤمنين التائبين العابدين إلى آخره، ويقال: اشترى من عشرة نفر أولهم الغزاة، ومن التائبين الذين يتوبون عن الذنوب، والذين هم الْعَابِدُونَ، يعني: الموحدون، ويقال: المطيعون لله تعالى في الطاعة والجهاد. ﴿الْحَامِدُونَ﴾ ، الذين يحمدون الله على كل حال، ﴿السَّائِحُونَ﴾ ، قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن: يعني الصائمين، وأصله: السائح في الأرض، لأن السائح في الأرض يكون ممنوعاً عن الشهوات، فشبّه الصائم به. وذكر عن بعضهم أنه قال: هم الذين يصومون شهر الصبر وهو شهر رمضان، وأيام البيض ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ ، يعني: الذين يحافظون على الصلوات ﴿السَّاجِدُونَ﴾ ، الذين يسجدون لله تعالى في الصلوات. ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ، يعني: يأمرون الناس بالتوحيد وأعمال الخير. ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، الذين ينهون الناس عن الشرك والأعمال الخبيثة ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ ، يعني: العاملين بما فرض الله عليهم. وذكر عن خلف بن أيوب: أنه أمر امرأته في بعض الليل أن تمسك الرضاع عن الولد، فقالت: لم؟ فقال: لأنه قد تمت سنتان. فقيل له: لو تركتها حتى ترضع تلك الليلة، وأيش يكون؟ فقال: أين قول الله تعالى ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ ، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، يعني: المصدقين بهذا الشرط والعاملين به.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، يعني: ما ينبغي وما جاز للنبي والذين آمنوا ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ . وروي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال: «سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟» فقال: ألم يستغفر إبراهيم

Marfat.com

لأبويه وهما مشركان؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾، يعني: ذا قرابة في الرحم. ﴿مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، يعني: أهل النار وماتوا على الكفر وهم في النار.

ويقال أراد النبي ﷺ أن يستغفر لأبويه وهما مشركان، واستأذن منه المسلمون أن يستغفروا لآبائهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «خرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه، حتى انتهينا إلى قبر فجلس إليه فناجاه طويلاً، ثم رفع رأسه باكياً، فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ. ثم إن النبي ﷺ أقبل إلينا، فتلقاه عمر رضي الله عنه فقال: «ما الذي أبكاك يا رسول الله؟» فأخذ بيد عمر وأقبل إلينا، فأتيناه فقال: «أَفْزَعَكُمْ بُكَائِي»؟ فقلنا: نعم يا رسول الله. فقال: «إِنَّ الْقَبْرَ الَّذِي رَأَيْتُمُونِي أُنَاجِيهِ قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي بِالاسْتِغْفَارِ لَهَا، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا للمشركين﴾ فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الْوَلَدَ لِلْوَالِدَيْنِ مِنَ الرِّقَّةِ، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي»[(١)].

وروى أبو هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِوَالِدَيَّ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهُمَا، فَأَذِنَ لِي»[(٢)] فنزلت هذه الآية ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾؛ وذلك أن أباه وعد إبراهيم أن يسلم، فكان يستغفر له رجاء أن يسلم. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، ﴿فَلَمَّا﴾ مات، ﴿تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ يعني: ترك الدعاء ولم يستغفر له بعدَ لأنه مات على الكفر»[(٣)]. وللآية هذه وجه آخر: روي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حرب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية، فقال النبي ﷺ لأبي طالب: «يَا عَمِّ، قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةَ النَّجَاةِ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله تَعَالَى». فقال أبو جهل: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل النبي ﷺ يعرضها عليه ويعانده أبو جهل بتلك المقالة، حتى قال أبو

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/٣٠٢ إلى ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، وابن ماجه (١٥٧١) والحاكم ٢/٣٣٦ وأصله في مسلم (٩٧٦) (١٠٨) وأبي داود (٣٢٣٤) وابن ماجه (١٥٧٢) والبيهقي: ٤/٧٦.

(٢) حديث أبي هريرة: أخرجه مسلم (٩٧٦) وأبو داود (٣٢٣٤) والنسائي: ٤/٩٠ وابن ماجة (١٥٧٢) والبيهقي ٤/٧٦ وأحمد ٢/٤٤٢ والبغوي (١٥٥٤).

(٣) عزاه السيوطي: ٤/٣٠٠ إلى الطيالسي وأحمد وابن أبي شيبة وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم والترمذي والنسائي وابن مردويه.

Marfat.com

طالب آخر مما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنه»(1)، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ونزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. وروى سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: «كل القرآن أعلمه إلا أربعة: «غسلين، وحناناً، والأواه، والرقيم». وروي عن عبد الله بن عباس، في رواية أخرى أنه قال: الأواه الذي يذكر الله في أرض الوحشة». وروي عن ابن مسعود أنه قال: «الأواه الرحيم». وقال مجاهد: الأواه الموقن. وقال الضحاك: الأواه الداعي الذي يلح في الدعاء إلى الله تعالى، المقبل إليه بطاعته. ويقال: الأواه المؤمن بلغة الحبشة. ويقال: الأواه معلم الخير. وقال كعب: الأواه الذي إذا ذكر الله، قال: أواه من النار. وقال القتبي: المتأوه حزناً وخوفاً ﴿حَلِيمٌ﴾ يعني: حليماً عن الجهل.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾، وذلك أن النبي ﷺ لمّا أنزل الله تعالى عليه الفرائض، فعمل بها رسول الله ﷺ والمؤمنون. ثم إن الله تعالى أنزل ما ينسخ به الأمر الأول، وقد غاب الناس عن النبي ﷺ فلم يبلغهم ذلك، فعملوا بالمنسوخ، وكانوا يصلون إلى القبلة الأولى ولا يعلمون، ويشربون الخمر ولا يعلمون تحريمها، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ وإن عملوا بالمنسوخ، ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، يعني: ما نسخ من القرآن، يعني: إنه قبل منهم ما عملوا بعد النسخ ولا يؤاخذهم بذلك. ويقال: وما كان الله ليهلك قوماً في الدنيا، حتى يقيم عليهم الحجة ويقال: ما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ في الآخرة، حتى يبين لهم ما يتقون. ويقال: لا يتركهم بلا بيان بعد أن أكرمهم بالإيمان، حتى يبيّن لهم ما يحتاجون أن يتقوه، ويقال: لا ينزع الإيمان عنهم بعد أن هداهم إلى الإيمان، حتى يبين لهم الحدود والفرائض، فإذا تركوا ذلك ولم يروه حقاً، عذبهم الله تعالى ونزع عنهم المعرفة. ويقال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً﴾ على الابتداء ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ فيصيروا فيه ضلالاً. وهذا طريق المعتزلة، والطريق الأول أصح وبه نأخذ.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، يعني: عليم بكل ما يصلح للخلق.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، يعني: يحكم فيهما بما يشاء بالأمر

(1) أخرجه البخاري (١٣٦٠) و(٣٨٨٤) و(٤٦٧٥) و(٦٦٨١) ومسلم (٢٤) وأحمد ٥/ ٤٣٣ والنسائي: ٤/ ٩٠.

Marfat.com

بعد الأمر، يأمر بأمر ثم يأمر بغيره ويقرُّ ما يشاء فلا ينسخه. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، يعني: يحيي الموتى ويميت الأحياء. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، يعني: من عذاب الله تعالى ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾، يعني: من قريب ينفعكم ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾، يعني: مانعاً يمنعكم. وقال الكلبي: ﴿يُحْيِي﴾ يعني: في السفر ﴿ويميت﴾ في الحضر، يعني: إن هذا ترغيب في الجهاد لكي لا يمتنعوا مخافة الموت القتل والموت.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ﴾، يعني: تجاوز الله عن النبي إذنه للمنافقين بالتخلف، كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] ويقال: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ﴾ يعني: غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كما ذكر في أول سورة الفتح. ثم قال: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾، يعني: تجاوز عنهم ذنوبهم، لما أصابهم من الشدة في ذلك الطريق.

ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، يعني: وقت الشدة في غزوة تبوك كانت لهم العسرة في أربعة أشياء: عسرة النفقة، والركوب، والحر، والخوف ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، يعني: تميل قلوب طائفة منهم عن الخروج إلى الغزو، ويقال: من بعد ما كادوا أن يرجعوا من غزوتهم من الشدة. ويقال: هم قوم تخلفوا عنه، ثم خرجوا فأدركوه في الطريق. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: تجاوز عنهم. ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، حين تاب عليهم. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾ بالياء بلفظ التذكير، والباقون بالتاء بلفظ التأنيث. ولفظ التأنيث إذا لم يكن حقيقياً، جاز والتأنيث والتذكير، لأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، يعني: وتاب الله على الثلاثة وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. قال الفقيه: سمعت أبي رحمه الله يذكر بإسناده، عن معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة له غزاها، حتى كانت غزوة تبوك إلا بدراً، فلم يعاتب النبي ﷺ أحداً تخلف عن بدر، إنما خرج يريد العير، فخرجت قريش معينين لعيرهم، فالتقوا على غير موعدهم. ثم لم أتخلف عن النبي ﷺ وعن غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها فأذن للناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوتهم، وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار، وكان

Marfat.com

قلَّ ما أراد غزوة إلا ورّى بغيرها، وكان يقول: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ»، فأراد في غزوة أن يتأهب الناس أهبتهم، وأنا أيسر ما كنت قد جمعت راحلتين، وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحال، وأنا في ذلك أصبو إلى الظلال وطيب الثمار.

فلم أزل كذلك، حتى قام النبي ﷺ غازياً بالغداة، وذلك يوم الخميس. وكان يحب أن يخرج يوم الخميس، فأصبح غادياً، فقلت: انطلق غادياً إلى السوق غداً فأشتري ثم ألحق بهم، فانطلقت إلى السوق من الغد فعسر عليّ بعض شأني، فرجعت فقلت: أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم، فعسر عليّ بعض شأني فلم أزل كذلك، حتى التبس بي الريب وتخلفت عن رسول الله ﷺ، فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف في المدينة، فيحزنني أن لا أرى أحداً تخلف إلا رجلاً مغموساً عليه في النفاق. وكان جميع من تخلف عن رسول الله ﷺ بضعاً وثمانين رجلاً، ولم يذكرني النبي ﷺ حتى بلغ تبوك فلما بلغ تبوك قال: «فَمَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ»؟ فقال رجل من قومي: خلفه يا رسول الله حسنُ برديه والنظرُ إلى عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله، يا نبي الله ما نعلم منه إلاَّ خيراً.

فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك، وقفل ودنا من المدينة، جعلت أتذكر بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، حتى إذا أقبل النبيﷺ زاح عني الباطل وعرفت ألا أنجو إلاَّ بالصدق. ودخل النبي ﷺ ضحى، فصلى في المسجد ركعتين. وكان إذا جاء من السفر فعل ذلك، فدخل المسجد وصلى ركعتين، ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه، ويستغفر لهم ويقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

فدخلت المسجد فإذا هو جالس، فلما رآني تبسَّم تبسُّم المُغضب، فجئت فجلست بين يديه. فقال: «أَلَمْ تَكُنِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ»؟ فقلت بلى يا رسول الله. فقال: «ما خَلَّفَكَ»؟ فقلت: والله لو أني بين يدي أحد من الناس غيرك لخرجتُ من سخطه عليّ بعذر، ولقد أوتيت جَدَلاً، ولكني قد علمتُ يا رسول الله أني لو أخبرتك اليوم بقول تجد عليّ فيه وهو حق، فإني أرجو فيه عفو الله، وإن حدثتك حديثاً ترضى عني فيه وهو كذب، يوشك الله أن يطلعك عليّ، والله يا نبيّ الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حالاً حين تخلفت عنك. قال: «أَمَّا هٰذا فَقَدْ صَدَقَكُمُ الحَدِيثَ قُمْ حَتَّى يَقْضِيَ الله فِيكَ». فقمت فنازعني ناس من قومي يؤنبونني وقالوا: والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قط قبل هذا، فهلا اعتذرت إلى النبي ﷺ بما يرضى عنك فيه، فكان استغفاره سيأتي من وراء ذلك، ولم توقف نفسك موقفاً ما تدري ما يقضى لك فيه.

فلم يزالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع فأكذِّب نفسي، فقلت: هل قال هذا القول أحد غيري؟ قالوا: نعم، فقلت: من هو؟ فقالوا: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، فقلت: والله لا أرجع إليه في هذا أبداً، ولا أكذب

Marfat.com

نفسي. قال: فنهى النبي ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة. قال: فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد، وتنكر لنا الناس، حتى ما هم بالذين نعرفهم، وتنكرت لنا الأرض، حتى ما هي بالتي نعرف.

وكنت أقوى أصحابي، فكنت أخرج وأطوف بالأسواق وآتي المسجد وآتي النبي ﷺ فأسلم عليه وأقول: هل حرك شفتيه بالسلام؟. فإذا قمت أصلي إلى سارية، فأقبلت على صلاتي، نظر إلي بمؤخر عينيه، فإذا نظرت إليه، أعرض عني. واستكان صاحباي فجعلا يبكيان الليل والنهار، ولا يطلعان رؤوسهما. فبينما أنا أطوف بالسوق، إذا برجل نصراني جاء بطعام له يبيعه يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فانطلق الناس يشيرون إليّ، فأتاني بصحيفة من ملك غسان وإذا فيها: أما بعد، فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولست بدار مضيعة ولا هوان، فالْحَقْ بنا نواسيك. فقلت: هذا أيضاً من البلاء، يعني: الدعوة إلى الكفرَ، فسجَّرْت لها التنور فأحرقتها فيه.

فلما مضت أربعون ليلة، إذا رسول من النبي ﷺ قد أتاني وقال: «اعْتَزِلِ امْرَأَتَكَ». فقلت: أطلقها؟ فقال: «لا، وَلٰكِنْ لا تَقْرَبْهَا». فجاءت امرأة هلال بن أمية، فقالت: يا نبي الله إن هلالاً شيخ ضعيف فهل تأذن لي أن أخدمه؟ قال: «نَعَمْ، وَلٰكِنْ لا يَقْرَبَنَّكِ». فقالت: يا نبي الله، والله ما به من حركة من شيءٍ، يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان. قال كعب: فلما طال علي البلاء، اقتحمت على أبي قتادة حائطه، وهو ابن عمي، فسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام، فقلت: أنشدك الله يا أبا قتادة، أتعلم أني أحب الله ورسولهُ؟ فسكت ثم قلت أنشدك بالله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ حتى عاودته ثلاث مرات قال: الله تعالى ورسوله أعلم، فلم أملك نفسي أن بكيت، ثم اقتحمت الحائط خارجاً، حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي ﷺ الناس عن كلامنا، صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر، ثم جلست، وأنا في المنزلة التي قال الله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِم الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إذ سمعت نداء من ذروة سلع أن أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً، وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج. ثم جاء رجل يركب على فرس يبشرني، فكان الصوت أسرع من فرسه، فأعطيته ثوبي بشارة ولبست ثوبين آخرين، وانطلقت إلى النبي ﷺ. وجعل الأنصار يستقبلونني فوجاً فوجاً ويهنئونني ويبشرونني. ولم يقم أحد من المهاجرين غير طلحة بن عبيد الله، قام وتلقاني بالتهنئة، فما نسيت ذلك منه.

وانطلقت إلى النبي ﷺ، فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون وهو يستنير كاستنارة القمر وكان إذا بشّر بالأمر، استنار وجهه كالقمر، فجئت فجلست بين يديه فقال: «أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ أَتَى عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ». فقلت: يا نبي الله أمن عندك أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله» ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ إلى

Marfat.com

قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ الآية. فقلت: يا نبي الله، إن من توبتي ألا أحدث إلاَّ صدقاً، وأن أنخلع من مالي كله صدقة لله ورسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قال: فما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ حين صدقته أنا وصاحباي، ألا نكون كذبنا فهلكنا كما هلكوا. وإني لأرجو ألا يكون الله أبلى أحداً في الصدق كما أبلاني، ما تعمدت لكذبة قط مذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي(١).

وروى الزهري عن كعب بن مالك قال: كانت توبتنا نزلت على النبي ﷺ في ثلث الليل، فقالت أم سلمة: يا نبي الله ألا نبشر كعباً بن مالك؟ قال: «إذاً يَحْطِمَنَّكُمْ النَّاسُ وَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ». وكانت أم سلمة محسنة في شأني، تحزن بأمري وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ يعني: وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. ويقال ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا﴾ عن التوبة، يعني: أبا لبابة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، يعني: بسعتها، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، يعني: ضاقت قلوبهم، ﴿وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾، يعني: علموا وأيقنوا أن لا مفر من عذاب الله ﴿إِلاَّ إِلَيْهِ﴾، يعني: إلا بالتوبة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، يعني: تجاوز عنهم حتى تابوا ويقال: أكرمهم الله فوفقهم للتوبة لكي يتوبوا. ويقال: تاب عليهم ليتوب من بعدهم ويقتدي بهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، يعني: المتجاوز لمن تاب، ﴿الرحيم﴾ بهم بعد التوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾، - أي اخشوا الله ولا تعصوه، وهم من أسلم من أهل الكتاب ﴿وكونوا مع الصادقين﴾(٢) - قال الضحاك: يعني: مع الذين صدقت نياتهم،

---

(١) حديث كعب بن مالك: أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) والترمذي (٣١٠٢) وأحمد ٥/٣٨٧-٣٨٨ وهو عند أبي داود (٣٣٢٠).

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

واستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى الغزو بإخلاص نية، ويقال: هذا الخطاب للمنافقين الذين كانوا يعتذرون بالكذب، ومعناه: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في العلانية ﴿اتقوا الله﴾، ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ أي مع الذين صدقوا.

وروي عن كعب بن مالك أنه قال: فينا نزلت: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وقال الكلبي: ﴿وكونوا مع الصّادقين﴾ يعني: المهاجرين والأنصار الذين صلوا إلى القبلتين، وقال مقاتل: هم الذين وصفهم الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٦٢] الآية ويقال: ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم، يعني: أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله عليهم أجمعين حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر القاضي قال: حدثنا أحمد بن جرير قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا عبد الرحمن المحاربي، عن جويبر، عن الضحاك في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: أمروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ﴾، يعني: المنافقين الذين بالمدينة وحوالي المدينة. ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ﴾ في الغزو ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾، يعني: لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبرّ وأشفق من نفس محمد ﷺ. وأن يتركوا محبته، ويقال: ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، يعني: لا يركنوا بإبقاء أنفسهم على إبقاء نفسه، يعني: ينبغي لهم أن يتبعوه حيث ما يريد. ﴿ذَلِكَ﴾، يعني: النهي عن التخلف، ويقال: ذلك التحضيض الذي حضّهم عليه. ﴿بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ﴾ في غزوهم ﴿ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ﴾، يعني: ولا تعب ولا مشقة في أجسادهم.

ثم قال: ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾، يعني: مجاعة. ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً﴾، يعني: لا يطؤون أرضاً وموضعاً من سهل أو جبل. ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾، يعني: يحزن الكفار بهم، ﴿وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً﴾، يعني: لا يصيبون من عدو قتلاً أو غارة أو هزيمة، ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، يعني: يضاعف حسناتهم على حسنات القاعدين ﴿إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، يقول: لا يبطل ثواب المجاهدين. وفي هذه الآية دليل أن ما أصاب الإنسان من الشدة يكتب له بذلك ثواب. قال بعضهم: لا يكتب له بالشدة ثواب، ولكن يحط عنه الخطيئة، وقال بعضهم: لا يكون بالمشقة أجر، ولكن بالصبر على ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ يعني: في الجهاد ﴿صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾، يعني: قليلاً ولا كثيراً. ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً﴾ من الأودية مقبلين إلى العدو أو مدبرين ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ يعني كتب لهم ثواب ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: ليجزيهم بأعمالهم، ويقال يجزيهم أحسن من أعمالهم، لأنه يعطي بحسنة واحدة عشرة، إلى سبعمائة، إلى ما لا يدرك حسابه، ويقال: ليجزيهم بأحسن أعمالهم وتصير سائر أعمالهم فضلاً.

Marfat.com

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، روي عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، يعني: «ما كان للمؤمنين لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده بالمدينة». ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾، يقول: فهلا خرج ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يعني: عصبة وجماعة، ويقيم طائفة مع النبي ﷺ، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾، يعني: ليتعلموا العلم وشرائع الدين. فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون عن النبي ﷺ، فيعلمونهم ويقولون: إن الله تعالى قد أنزل على نبيكم بعدكم كذا وكذا، وهذا قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، يعني: يتعظون بما أمروا ونهوا عنه.

ولها وجه آخر، وهو ما روي أيضاً عن معاوية بن صالح، عن علي بن طلحة، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ، لما دعا على مضر بالسنين، أجدبت بلادهم. وكانت القبيلة تقبل بأسرها، حتى يلحقوا بالمدينة ويعلنوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر الرسول ﷺ أنهم ليسوا بمؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم بعد ذلك، وهو قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وروى أسباط بن السدي قال: أقبلت أعراب هذيل وأصابتهم مجاعة، واستعانوا بتمر المدينة وأظهروا الإسلام، وكانوا يفتخرون على المؤمنين، فيقولون: نحن أسلمنا طائعين يعني: بغير قتال وأنتم قوتلتم، فنحن خير منكم، فآذوا المؤمنين، فأنزل الله تعالى فيهم يخبرهم بأمرهم قال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أي جميعاً ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ منهم﴾ يعني: من كل بطن طائفة. فأتوا رسول الله ﷺ فسمعوا كلامه، ثم رجعوا إلى قومهم فأخبروهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يعني: يتعظون فيعملون به ولا يعملون بخلافه. وفي هذه الآية دليل أن أخبار الآحاد مقبولة ويجب العمل بها لأن الله تعالى أخبر أن الفرقة من الطائفة إذا تفقهت في الدين وأنذرت قومهم، صح ذلك. ولفظ الطائفة يتناول الواحد والأكثر، لأن أقل الفرقة اثنان، والطائفة من الاثنين واحد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ﴾، يعني: ما حولكم وبقربكم من عدوكم، وهم بنو قريظة والنضير وفدك وخيبر، فأمر الله تعالى كل قوم بأن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار. قال أبو جعفر الطحاوي: منع الله تعالى نبيه عن قتال الكفار بقوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ثم أباح قتال من يليه بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ﴾، ثم أباح قتال جميع الكفار بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ثم قال: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يعني: شدّة عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، ينصرهم على عدوهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني: القرآن على رسول الله ﷺ، ﴿فَمِنْهُم﴾؛ يعني: من المنافقين ﴿مَن يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَاناً﴾، يعني: تصديقاً استهزاء بها.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾: يعني: تصديقاً بهذه السورة مع تصديقهم بالله تعالى وثباتاً على الإيمان. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، يقول: يفرحون بما أنزل الله من القرآن.

قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل، وأبو القاسم الشنابازي قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل العابد قال: حدثنا يحيى بن عيسى قال: حدثنا أبو مطيع، عن حماد بن سلمة، عن أبي المهزّم، عن أبي هريرة أنه قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ﷺ الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «**لا، الإيمانُ مُكَمَّلٌ فِي القَلْبِ. زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ كُفْرٌ**».

قال الفقيه: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستلم قال: حدثنا أبو عمران المؤدب الدستجردي قال: حدثنا صخر بن نوح قال: حدثنا مسلم بن سالم، عن أبي الحويرث، عن عون بن عبد الله قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في خطبته: «لو كان الأمر على ما يقول الشكاك الضلال، أن الذنوب تنقص الإيمان، لأمسى أحدنا حين ينقلب إلى أهله وهو لا يدري ما ذهب من إيمانه أكثر أو ما بقي».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾، يعني: شكاً ونفاقاً، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، قال الكلبي: أي شكاً إلى شكهم، وقال مقاتل: إثماً على إثمهم، وقال القتبي: أصل الرجس النتن، ثم قال: الكفر والنفاق رجس لأنهما نتنان. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، يعني: ماتوا على الكفر، لأنهم كانوا كفاراً في السر، ولم يكونوا مؤمنين في الحقيقة.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ

Marfat.com

يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون﴾ قرأ حمزة: ﴿أو لا ترون﴾ بالتاء، ويكون الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه، وقرأ الباقون بالياء، يعني: ﴿أو لا يرون﴾ المنافقون ولا يعتبرون. ﴿أنهم يفتنون في كل عام﴾، يقول يبتلون بإظهار ما في صدورهم من النفاق في كل عام. ﴿مرة أو مرتين ثم لا يتوبون﴾ من نفاقهم وكفرهم في السر، ﴿ولا هم يذكرون﴾، يعني: لا يتعظون ولا يتفكرون. قال الكلبي: كانوا ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين، فيعاقبون ثم لا يتوبون عن نقض العهد. وقال مقاتل: وذلك أنهم إذا خلوا، تكلموا بما لا يحل لهم، فإذا أتوا النبي ﷺ، أخبرهم بما تكلموا به، فيعرفون أنه نبي. ثم يأتيهم الشيطان فيحدثهم أنه يخبرهم بما بلغه عنهم، فيشكون فيه، فذلك قوله: ﴿يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾، يعني: يعرفون مرة أنه نبي وينكرون مرة أخرى ﴿ثم لا يتوبون﴾ عن ذلك ﴿ولا هم يذكرون﴾ فيما أخبرهم، ويقال: ﴿يفتنون﴾ يعني: يبتلون بالأمراض والأسقام، ويعاهدون الله تعالى لو زال عنا لفعلنا كذا وكذا، ثم لا يوفون به، ولا يتوبون من النفاق ﴿ولا هم يذكرون﴾ أي: لا يتعظون بما أنزل الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ يعني: من القرآن على رسول الله ﷺ مثل سورة براءة، فيها عيب المنافقين، ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ أي: ويتغامزون ويقولون فيما بينهم: ﴿هل يراكم من أحد﴾ من أصحاب محمد ﷺ، فإذا رآهم أحد قاموا وصلوا، وإن لم يرهم أحد انصرفوا. يعني: خرجوا من المسجد، ويقال: انصرفوا عن الإيمان. ﴿صرف الله قلوبهم﴾ عن الإيمان، وخذلهم عن الفهم بخروجهم وانصرافهم عن الإيمان، ويقال: هذا على وجه الدعاء واللعن، كقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]؛ ويقال: هذا على معنى التقديم، ومعناه: صرف الله قلوبهم، لأنهم انصرفوا عن الإيمان. ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أمر الله تعالى.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، قال مقاتل: يعني: يا أهل مكة قد جاءكم رسول من أنفسكم تعرفونه ولا تنكرونه. ويقال: هذا الخطاب لجميع العرب ﴿لقد جاءكم رسول﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿من أنفسكم﴾ يعني: من جميع العرب، لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله ﷺ فيها قرابة. وهذا من المجاز والاستعارة، لأن النبي ﷺ كان فيهم ولم يجيء من موضع آخر، ولكن معناه: ظهر فيكم رسول الله ﷺ؛ ويقال: هذا الخطاب لجميع

Marfat.com

الناس ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: آدمياً مثلكم. قرأ بعضهم ﴿من أنفَسِكُمْ﴾ بنصب الفاء يعني: من أشرفكم وأعزكم، وهي قراءة شاذة.

ثم قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني: شديد عليه ما أثمتم وعصيتم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، قال الكلبي: يعني: على إيمانكم؛ وقال مقاتل: ﴿حريص عليكم﴾ بالرشد والهدى. وقال قتادة: ﴿حريص﴾ على من لم يسلم أن يسلم. ثم قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، أي رفيق بجميع المؤمنين، رحيم بهم.

ثم قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، يعني: إن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ يعني قل: كفاني الله وفوضت أمري إلى الله ووثقت به. ﴿لا إله إلاّ هُوَ﴾، يعني: لا ناصر ولا رازق ولا معين إلاّ هو. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يعني: به أثق ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، يعني: خالق السرير العظيم، الذي هو أعظم من السموات والأرض. وقرأ بعضهم ﴿الْعَظِيمُ﴾ بالرفع فجعل العظيم من نعت الله تعالى، وقراءة العامة ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالخفض ويكون العظيم نعتاً للعرش.

وذكر عن عثمان بن عفان أنه لما جمع القرآن في المصحف، كان لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد بها رجلان، فجاء خزيمة بن ثابت بهاتين الآيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة، فلم يطلب منه البينة وأثبتها في المصحف. وروي عن حذيفة أنه قال: يسمون سورة براءة سورة التوبة، وهي سورة العذاب. عن ابن عباس أنه قال: كنا نسميها الفاضحة، فما زالت تنزل في المنافقين فيهم ومنهم، حتى أشفق كل واحد على نفسه. والله أعلم بالصواب.

Marfat.com

سورة يونس

مكية، وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ۝٢﴾.

قال الله عز وجل: ﴿الر﴾؛ قال ابن عباس: «معناه: أنا الله أرى»[(١)] وهكذا عن الضحاك[(٢)]. وقد ذكرنا تفسير الحروف في أول سورة البقرة. قرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿الر﴾ بإمالة الراء وقرأ ابن كثير وحفص بنصب الراء، وقرأ نافع بين ذلك.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾: يعني: هذه آيات الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد، ويقال: تلك الآيات التي وعدتك يوم الميثاق أن أوحينا إليك الكتاب. ﴿الْحَكِيمِ﴾؛ قال مقاتل: يعني: المحكم من الباطل، لا كذب فيه ولا اختلاف. وقال الكلبي: يعني: أحكمَ بحلاله وحرامه ويقال: ﴿الكتاب الحكيم﴾ يعني: الحاكم على الكتب كلها، ويقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ يعني: حجج وبراهين، وهي التي احتج بها النبي ﷺ على دعواه.

ثم قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾، لأن أهل مكة كانوا يتعجبون ويقولون ﴿أَبَعَثَ الله بَشراً رَسُولاً﴾ فنزل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ يقول: أعجب أهل مكة أن أختار عبداً من عبيْدي وأرسله إلى عبادي من جنسهم وحسبهم، حتى يقدروا أن ينظروا إليه فيعرفونه ولا ينكرونه. ثم بيَّن ما أوحى الله تعالى إليه فقال: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، يعني: خوِّف أهل مكة بما في القرآن من الوعيد. ويقال: في الآية تقديم، ومعناه: تلك آيات الكتاب الحكيم للناس، أكان عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس؟ وقال عامة المفسرين على ظاهر التنزيل.

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي بما في القرآن من الثواب في الجنة. ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، قال مقاتل: يعني: بأن أعمالهم التي قدموها بين أيديهم ستكون خيراً عند

---

(١) عزاه السيوطي ٣٣٩/٤ إلى ابن مردويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات وابن النجار.

(٢) عزاه السيوطي: ٣٤٠/٤ إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

ربهم وهي الجنة، وقال ابن عباس: «يعني: السعادة عند ربهم وهي الجنة». وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «يعني: شفاعة محمد ﷺ، لهم شفيع صدق عند ربهم». وقال الحسن: هي رضوان الله في الجنة، وقال القتبي: ﴿قدم صدقٍ﴾ يعني عَمَلاً صالحاً قدموه.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾؛ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿لَسِحْرٌ﴾ بغير ألف، يعني: إن هذا القرآن لسحر مبين، يعني: كذب بيِّن ظاهر، وقرأ الباقون: ﴿لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾. يعني: أن الذي يقرأ عليهم القرآن لساحر مبين. فالساحر اسم، والسحر فعل. فإن قيل: إذا قال الكفار هذا القول، فما الحكمة في حكاية كلامهم في القرآن؟ قيل له: الحكمة فيه من وجوه أحدها: أنهم كانوا يقولون قولاً فيما بينهم، فيظهر قولهم عند النبي ﷺ، فكان في ذلك علامة لنبوته لمن أيقن به. والثاني: أن في ذلك تعزية للنبي ﷺ ليصبر على ذلك، كما قال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، والثالث: أن في ذلك تنبيهاً لمن بعده أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يمتنع بما يسمع من المكروه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقد ذكرناه. ثم قال: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يعني: يقضي القضاء وينظر في تدبير الخلق. وروى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن ابن سابط قال: مدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل. أما جبريل، فعلى الرياح والوحي والجنود. وأما ميكائيل، فعلى النبات والمطر. وأما ملك الموت، فعلى الأنفس. وأما إسرافيل، فينزل إليهم بما يؤمرون. ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ لأن الكفار كانوا يعبدون الأصنام ويقولون: هم شفعاؤنا عند الله، وبعضهم كانوا يعبدون الملائكة، فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة لأحد إلاَّ بإذن الله ويقال: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يعني: لا يشفع أحد لأحد يوم القيامة من الملائكة ولا من المرسلين، إلا منْ بعد إذنه في الشفاعة لهم.

﴿ذَلِكُم اللهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي يفعل هذا من خلق السموات والأرض، وتدبير الخلق، هو ربكم وخالقكم، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فدل أولاً على وحدانيته وتدبيره، ثم أمرهم بالتوحيد والطاعة

Marfat.com

فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، يعني: وحدوه وأطيعوه. ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾، يعني: أفلا تتعظون بالقرآن؟ ويقال: أفلا تتعظون بأن لا تعبدوا من لا يملك شيئاً، وتعبدون من يملك الدنيا وما فيها؟ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، لأن أصله تتذكرون فأدغم إحدى التاءين في الذال وأقيم التشديد مقامه.

ثم خوفهم فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾، يعني: مرجع الخلائق كلهم يوم القيامة. ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾، يعني: البعث كائناً وصدقاً. وقال الزجاج: ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ صار نصباً على معنى وعدكم الله وعداً، لأن قوله ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع إليه. ﴿إِنَّه يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ قال أهل اللغة: الياء صلة ومعناه: إنه بدأ الخلق ثم يعيده، يعني: خلق الخلق في الدنيا ثم يحييهم بعد الموت يوم القيامة، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ يعني: لكي يثبت الذين آمنوا بالبعث بعد الموت، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾؛ يعني: عملوا الطاعات بالعدل وقال الضحاك: يعني: الذين قاموا بالعدل وأقاموا على توحيده، يعطيهم من رياض الجنة حتى يرضوا. ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: ويجزي الذين كفروا.

ثم بين جزاءهم، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾، يعني: ماءً حاراً قد انتهى حره، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ يعني: يجحدون بالرسالة والكتاب.

ثم ذكّرهم النعم، لكي يستحيوا منه ولا يعبدوا غيره، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ بالنهار ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ بالليل، ويقال: جعل الشمس ضياء مع الحر، والقمر نوراً بلا حر، ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾؛ يعني: جعل الليل والنهار منازل يزيد أحدهما وينقص الآخر، ولا يجاوزان المقدار الذي قدره. ويقال ﴿قَدَّرَهُ﴾ يعني: القمر ﴿منازل﴾ كل ليلة بمنزله من النجوم، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر. وهذا كقوله ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾؛ يعني: لتعلموا بالقمر حساب السنين والشهور، كقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ثم قال: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، يعني: لتعلموا عدد السنين والحساب، ولتعتبروا وتعلموا أن له خالقاً ومدبراً وهو قادر على أن يحيي الموتى. ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، يعني: يبيّن العلامات، يعني: علامة وحدانيته ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: لمن كان له عقل وذهن وتمييز. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون، ومعناهما قريب.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ

Marfat.com

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ وذلك أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: ائتنا بعلامة كما أتت بها الأنبياء قومهم، فنزل: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني: في مجيء الليل وذهاب النهار، ومجيء النهار وذهاب الليل، ويقال: ما يأخذ النهار من الليل وما يأخذ الليل من النهار، ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، من العجائب، يعني: فيما خلق الله ﴿آيَاتٍ﴾، يعني: علامات ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله ويخشون عقوبته. ويقال: لقوم يتقون الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، يعني: لا يخافون البعث بعد الموت، ويقال: لا يرجون ثوابنا بعد الموت. ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: اختاروا ما في الحياة الدنيا، يعني: على ثواب الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾، يقول: ورضوا بها وسكنوا إليها وآثروها وفرحوا بها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، يعني: عن محمد ﷺ والقرآن معرضون فلا يؤمنون. ويقال: تاركين لها ومكذبين بها، ويقال: لم يتفكروا فيها.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، يعني: أهل هذه الصفة مصيرهم إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، يعني: جزاء لكفرهم وتكذيبهم.

ثم أنزل فيما أعدّ الله للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾؛ وقال مقاتل: يهديهم على الصراط إلى الجنة بالنور ﴿بإيمانهم﴾ يعني: بتوحيدهم الله تعالى في الدنيا. وقال الضحاك: يدعوهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة، وقال الكلبي نحو هذا. ويقال: هذا على معنى التقديم، ومعناه: إن الذين يهديهم ربهم بإيمانهم حتى آمنوا وعملوا الصالحات، ويقال: يهديهم ربهم في الدنيا، حتى يثبتهم على الإيمان ويدخلهم في الآخرة الجنة بإيمانهم، ويقال: ينجيهم ربهم بإيمانهم، وقال الحسن: يرحمهم ربهم بإيمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ينتعمون فيها. ثم قال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾، يعني: قولهم في الجنات: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، فهذه علامة بينهم وبين خدمهم في الجنة، فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدم بالموائد ووضعوها بين أيديهم وأوتوا بما يشتهون. فإذا فرغوا من الطعام، قالوا الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: وآخر قولهم بعد ما فرغوا من الطعام أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ على معنى التقديم، وقال الضحاك: في قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سبحانك اللهم﴾ وذلك أن أهل الجنة إذا خلفوا القيامة وصاروا إلى دار الكرامة، يكون فاتحة كلامهم سبحانك اللهم على ما مننت به علينا، ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ يقول: يسلم عليهم الملائكة من الله تعالى. ويقال: يسلم بعضهم على بعض،

Marfat.com

ويقال: يسلمون على الله تعالى، ويقال: تحيتهم لله تعالى بالسلام، كقوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤] ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾، يعني: بعدما رأوا من الكرامات وبعد ما أكلوا من الطعام، حمدوا الله تعالى على ما أعطاهم من الخير.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾، قال مقاتل: وذلك حين تمنى النضر بن الحارث السّهمي العذاب، فنزل قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ يقول: لو استجيب لهم في الشر استعجالهم بالخير، يعني: كما يحبون أن يستجاب لهم في الخير. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ في الدنيا بالهلاك. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ يعني: العقوبة، إذا دعا على نفسه وولده وعلى صاحبته: أخزاك الله، ولعنك الله، كما يعجل لهم الخير إذا دعوه بالرحمة والرزق والعافية، لماتوا وهلكوا. وقال القتبي: هذا من الإضمار ومعناه ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾، يعني: إجابتهم بالشر ﴿استعجالهم بالخير﴾، يعني: كإجابتهم بالخير. وإنّما صار ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ﴾ نصباً على معنى مثل استعجالهم. قرأ ابن عامر ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ بالنصب، يعني: لقضى الله أجلهم، لأنه اتصل بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ﴾، وقرأ الباقون ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

ثم قال: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، يعني: بترك الذين لا يخافون البعث بعد الموت. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، يعني: يتحيرون ويترددون فيها مجازاة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ يقول إذ مس الكافر ما يكره من المرض والفقر والبلاء، ﴿دَعَانَا﴾ يقول أخلص في الدعاء إلينا ﴿لِجَنْبِهِ﴾، يعني: وهو مطروح على جنبه إذا اشتد به المرض، ﴿أَوْ قَاعِداً﴾ إذا كانت العلة أهون، ﴿أَوْ قَائِماً﴾ إذا بقي فيه أثر العلة. ويقال: دعانا في الأحوال كلها مضطجعاً كان، أَوْ قَائِماً، أَوْ قَاعِداً. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾، يعني: فلمّا رفعنا عنه بلاءه، ﴿مَرَّ﴾ يقول: استمر على ترك الدعاء ونسي الدعاء. ويقال: ﴿مَرَّ﴾ في العافية على ما كان عليه قبل أن يبتلى، ولم يتعظ بما ناله. ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ يعني: إلى بلاء أصابه قبل ذلك فلم يشكره. ويقال: معناه أَمِنَ من أن يصيبه مثل الضر الذي دعا فيه حين مسّه ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: المشركين ﴿ما كانوا يعملون﴾ يعني: بالدعاء عند الشدة وترك الدعاء عند الرخاء.

Marfat.com

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، يعني: أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا الرسل أقاموا على كفرهم، خوَّف أهل مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لكيلا يكذِّبوا محمداً ﷺ. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، يعني: بالآيات بالأمر والنهي. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، يعني: لم يصدقوا الرسل ولم يرغبوا في الإيمان. ويقال: وما كانوا ليصدقوا بنزول العذاب بما كذبوا من قبل يوم الميثاق. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾، يعني: نعاقب ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، يعني: الكافرين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ﴾، يعني: جعلناكم يا أمة محمد ﷺ ﴿خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾، يعني: من بعد هلاكهم، ﴿لِنَنظُرَ كَيفَ تَعْمَلُونَ﴾. وهذا على معنى التهديد، يعني: إنْ كانت معاملتكم مثل معاملتهم في تكذيب الرسل، أهلكتكم كما أهلكت تلك القرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، يعني: القرآن، ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ يعني: كفار قريش لما سمعوا القرآن قالوا: ﴿ائتِ بِقُرْآنٍ غَيرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾، يعني: امحه وانسخه، فإنا نجد فيه تحريم عبادة الأوثان وما نحن عليه، وهذا قول الضحاك. وقال الكلبي: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ﴾ يعني: المستهزئين، وكانوا خمسة رهط ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني: لا يخافون البعث بعد الموت ﴿ائتِ بِقُرْآنٍ غَيرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ائت يا محمد أو اجعل مكان آية الرحمة آية العذاب، ومكان آية العذاب آية الرحمة. وقال الزجاج: معناه إئتِ بقرآن ليس فيه ذكر البعث والنشور، وليس فيه عيب آلهتنا، أو بدِّل منه ذكر البعث والنشور.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾، يعني: قل: ما يجوز لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ يقول من قبل نفسي. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، يعني: لا أعمل إلا ما أومر به وأنزل عليّ من القرآن. ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، يعني: إني أعلم أنْ لو فعلت ما لم أؤمر به ﴿عَذَابَ

Marfat.com

يَوم عَظِيم﴾، يعني: يوم القيامة. قال مقاتل والكلبي: نسختها ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ويقال: هذا على وجه المثل، ومعناه: إني أعلم أن من عصى الله وخالف أمره، له عذاب يوم عظيم يعني: يصيبه العذاب. ﴿وَلا أَدْرَاكُم بِهِ﴾، ولا أعلمكم به، ومعناه: أن الله تعالى لو لم يجعلني رسولاً إليكم ما تلوته عليكم كما لم أتل عليكم قبل الوحي. ويقال: معناه لو رضي الله لكم ما أنتم عليه من الكفر والجهل، ما بعثني إليكم رسولاً. قرأ أبو عمرو وحمزة ونافع في رواية ورش والكسائي: ﴿ولا أدرِيكُم﴾ بكسر الراء، وقرأ الباقون بالنصب، وهما لغتان ومعناهما واحد. وعن الحسن أنه قرأ: ﴿وَلا أدرأتُكُم﴾ بالتاء. قال أبو عبيدة: ما أرى ذلك إلا غلطاً منه في الرواية، لأنه لا مخرج لها في العربية.

ثم قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً مِن قَبْلِهِ﴾، يعني: إلى أربعين سنة من قبل هذا القرآن فهل سمعتموني أقرأ شيئاً من هذا عليكم؟ ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أني لم أتقوله من تلقاء نفسي، ولكنه هو القرآن الذي أوحى الله من عنده، لأنه لو كان من تلقاء نفسي لسمعتم مني قبل هذا شيئاً منه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنَ افْتَرَى عَلَى الله كَذِباً﴾، يعني: من أشد في كفره ممن اختلق على الله كذباً أن معه شريكاً، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، يعني: المشركين، وقال الضحاك: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كَذِباً﴾ يعني: مسيلمة الكذاب ﴿إِنَّهُ لا يُفلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: أتباعه وأشياعه ونظراؤه.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله﴾، يعني: الأصنام، ﴿مَا لا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوها ﴿ولا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها ولا تضرهم إن لم يعبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ﴾ يعني: الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنا عِندَ الله﴾ يشفعون لنا في الآخرة. ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله﴾ يعني: أتخبرون الله ﴿بِمَا لا يَعْلَمُ﴾ من الآلهة. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾، أنها تشفع لأحد يوم القيامة، ويقال: معناه أتخبرون الله بشفاعة آلهتكم، أما علموا أنها لا تكون أبداً؟ ويقال: معناه أتشركون مع الله بجاهل لا يعلم ما في السموات ولا ما في الأرض.

ثم نزّه نفسه عن الولد والشريك، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، يعني: تنزيهاً له، ﴿وَتَعَالَى﴾، يعني: ارتفع ﴿عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ من الآلهة. ويقال: معناه هو أعلى وأجل من أن يوصف له شريك. قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ﴿يُشرِكُونَ﴾ بالياء على معنى المغايبة، وقرأ الباقون بالتاء على وجه المخاطبة.

Marfat.com

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ قال مقاتل: وما كان الناس إلاّ على ملة واحدة، يعني: على عهد آدم، وعلى عهد نوح من بعد الغرق كانوا كلهم مسلمين. ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ في الدين بعد ذلك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على عهد آدم، فاختلفوا حين قتل أحد إبني آدم أخاه، فتفرقوا مؤمناً وكافراً ـ وقال الكلبي: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحدة﴾ كافرة على عهد إبراهيم[(١)] ـ فتفرقوا مؤمناً وكافراً. وقال الزجاج ﴿وما كَانَ النَّاسُ﴾ يعني: العرب كانوا على الشرك قبل مجيء محمد ﷺ، فتفرّقوا واختلفوا بعده، فآمن بعضهم وكفر بعضهم. وقال الزجاج: وقيل أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: ولدوا على الفطرة واختلفوا بعد الفطرة. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ ـ أي: لو أن الله جعل لهم أجلاً للقضاء بينهم[(٢)] ـ في اللوح المحفوظ بأن لا يعجل عقوبة العاصين ويتركهم لكي يتوبوا[(٣)]، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في وقت اختلافهم. وقال مقاتل: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا ـ وقال الكلبي: لولا أن الله تعالى أخبر هذه الأمة أن لا يهلكهم كما أهلك الذين من قبلهم ﴿لقضى بينهم﴾ في الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين[(٤)] ـ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، وذلك حين قال عبد الله بن أمية: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] وسألته قريش أن يأتيهم بآية، فقال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لله﴾ أي: نزول الآية من عند الله تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزولها. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لنزولها، ويقال: فانتظروا بي الموت إني معكم من المنتظرين لهلاككم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾، يعني: أصبنا الناس ﴿رَحْمَةً﴾، يعني: المطر، ويقال: العافية ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ من بعد القحط ويقال: من بعد الشدة والبلاء أصابتهم ﴿إِذَا لَهُمْ

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».
(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».
(٣) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».
(٤) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

مكرٌ في آياتنا﴾، يعني: تكذيباً بالقرآن، ويقال: تكذيباً بنعمة الله تعالى، ويقولون: سقينا بنوء كذا ولا يقولون: هذا من رزق الله تعالى، وقال القتبي: ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾ يعني: قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سبباً آخر ﴿قُلِ الله أسرعُ مكراً﴾، يعني: أشد عذاباً وأشد أخذاً. ﴿إنَّ رُسُلَنا﴾ الحفظة ﴿يكتُبونَ ما تمكُرونَ﴾. يعني: ما تقولون من التكذب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾، يعني: يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، ويقال: هو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر. قرأ ابن عامر ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ بالنون والشين من النشر، يعني: يبثكم[1]، والقراءة المعروفة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير يعني: يسهل لكم السير، ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ﴾، يعني: في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ﴾ يقال للسفينة الواحدة: جرَتْ، وللجماعة: جرَيْنَ. واسم الفلك يقع على الواحد وعلى الجماعة، ويكون مذكراً إذا أريد به الواحد ومؤنثاً إذا أريد به الجماعة، كقوله: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] وقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] ذكرا بلفظ التأنيث مرة وبلفظ التذكير مرة. وفيه الدليل أن الكلام يكون بعضه على وجه المخاطبة وبعضه على وجه المغايبة، كما قال هٰهنا ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ﴾ ذكر بلفظ المخاطبة ثم قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ بلفظ المغايبة بريح ﴿طَيِّبَةٍ﴾، يعني: لينة ساكنة، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بالريح الطيبة، ﴿جَاءَتْهَا﴾ يعني: السفينة، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾؛ يعني: شديدة، ﴿وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ يعني: من كل ناحية ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، يعني: علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم. وقال القتبي: وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بالقرية، يقال: دنا أهلها من الهلكة، قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] فصار ذلك كناية عن الهلاك ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، يعني: إذا دنا هلاكهم أخلصوا لله تعالى، يعني: بالدعاء وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾، يعني: من هذه الريح العاصف، ويقال: من هذه الأهوال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ يعني: من الموحدين المطيعين. ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾، يعني: يعصون ﴿فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾، يعني: الدعاء إلى غير عبادة الله تعالى، والعمل بالمعاصي والفساد.

(١) في النسخة «ب» يبسطكم.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: إثم معصيتكم عليكم. وهو كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] ويقال: مظالمكم فيما بينكم ﴿على أنفسكم﴾ يعني: جنايتكم عليكم، وهذا كما يقال في المثل: المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء ستكفيه مساويه. يعني: وباله يرجع إليه. ثم قال: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾، يعني: تمتعون فيها أيام حياتكم. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾. ويقال: عيشكم في الدنيا قليل، ويقال: عمر الدنيا في حياة الآخرة قليل ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي بعد الموت في الآخرة، ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾؛ يعني: نخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿مَتَاعَ﴾ بالنصب ويكون نصباً على المصدر، ومعناه: تمتعون متاع الحياة الدنيا، وقرأ الباقون بالضمّ ﴿متاعُ﴾ ومعناه: هو متاع الحياة الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم ضرب للحياة الدنيا مثلاً فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾، يعني: في فنائها وبقائها، ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، يعني: المطر، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾، يعني: يدخل الماء في الأرض فينبت به النبات، فاتصل كل واحد بالآخر فاختلط. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾، يعني: مما يأكل الناس من الحبوب والثمار، ومما تأكل الدواب والأنعام من العشب والكلأ، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، يعني: زينتها، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾، يعني: حسُنت بألوان النبات، وأصله: تزينت فحذفت التاء وأقيم التشديد مقامها. وهذا كقوله ﴿ادَّارَكُم﴾ [الحاقة: ٣] وأصله تدارك. ثمّ قال: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾، يعني: وحسب أهل الزرع ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾، يعني: على غلاتها وأنها ستتم لهم الآن. ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾، يعني: عذابنا ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾؛ قال أبو عبيدة: الحصيد المُستأصَل، ويقال: الحصيد كحصيد السيف. ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾، يعني: صار كأن لم يكن بالأمس. فكذلك الدنيا، والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان، فيظن أنه قد نال مقصوده، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن، أو رجل ولد له مولود فإذا بلغ فظن أنه قد نال به مقصوده، فيموت ويصير كأنه لم يكن. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، يعني: نبين علامات غرور الدنيا وزوالها، لكيلا يغتروا، ونبيّن بقاء الآخرة ليطلبوها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾، يعني: يدعو إلى عمل الجنة، ﴿وَيَهْدِي مَن

Marfat.com

يشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقِيم﴾، وهو الدين القيم، ويقال: إن عطاءه على وجهين: خاص، وعام. فأما العطاء الخاص فالتوفيق والعصمة واليقين، وأما العطاء العام فالصحة والنعمة والفراغ والأمن. والدعوة هنا عامة والهداية خاصة، فقد دعا جميع الناس بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾ ثم قال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فجعل الهداية خاصاً لأنها فضله، وفضل الله يؤتيه من يشاء. وقال قتادة: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ والله هو السلام وداره الجنة. ويقال: السلام هو السلامة، وإنما سميت الجنة دار السلام، لأنها سالمة من الآفات والأمراض وغير ذلك.

روى أبو أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «نَامَتْ عَيْنِي وَعَقَلَ قَلْبِي وَسَمِعَتْ أُذُنِي، ثُمَّ قِيلَ لِي: إِنَّ سَيِّداً بَنَى دَاراً وَصَنَعَ مَائِدَةً وَأَرْسَلَ دَاعِياً، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَائِدَةِ وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ، وَمَنْ لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد»[1] فالله تعالى هو السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يكرم من يشاء بالمعرفة من كان أهلاً لذلك ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: إلى دين الإسلام.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾. للذين وحدوا الله وأطاعوه في الدنيا، لهم الجنة في الآخرة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، يعني: فضلاً. قال عامة المفسرين: هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهكذا روي عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وأبي موسى الأشعري وغيرهم.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال. حدثنا أبو العباس السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: حدثنا عفان بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَدَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَوْعِداً يُحِبُّ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ فَيَقُولُونَ وَمَا هُوَ المَوْعِد؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وبيض وُجوهَنا، وَأَدْخَلَنَا الجَنَّة، وَنَجَّانا مِنَ النَّارِ؟ قال: ثُمَّ يُكْشَفُ الحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إلى الله تعالى، فَوَالله ما أَعْطَاهُمْ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِ الله تعالى».

(١) عزاه السيوطي ٤/ ٣٥٦ إلى ابن مردويه. وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود.

Marfat.com

قال الفقيه رضي الله عنه: **وأخبرنا** الثقة بإسناده، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة قالا: «الزيادة، النظر إلى وجه الله تعالى». وعن أبي موسى الأشعري قال: «الحسنى، هي الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى». وعن عامر بن سعد، وعن قتادة، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعن عكرمة مثله.

قال الفقيه: سمعت محمد بن الفضل العابد قال: سمعت علي بن عاصم قال: «أجمع أهل السّنة والجماعة أن الله تعالى لم يره أحد من خلقه، وأن أهل الجنة يرونه يوم القيامة» وقال الزجاج: القول في النظر إلى وجه الله تعالى كثير في القرآن، وفي التفسير مروي بالأسانيد الصحاح أنه لا شك في ذلك. وقال مجاهد: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾** قال: الحسنى مثلها، والزيادة المغفرة والرضوان. وروي عن علقمة قال: الحسنى مثلها، وزيادة عشر أمثالها. ويقال: الحسنى الجنة وما فيها من الكرامة، والزيادة ما يأتيهم كل يوم من التحف والكرامات من الله تعالى، فيأتيهم رسول الله فيقول لهم: أنا رضيت عنكم، فهل رضيتم عني؟.

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾، يعني: لا يعلو ولا يغشى وجوههم **﴿قتر﴾** يعني: سواد، وهو كسوف الوجوه عند معاينة النار، ويقال: حزن ﴿ولا ذلة﴾ يعني: ولا مذلة. **﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**، يعني: دائمين لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها.

ثم بيّن حال أهل النار فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾**، يعني: أشركوا بالله وعبدوا الأصنام والشمس والقمر والملائكة، فهذا كله من السيئات. **﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾** بلا زيادة، يعني: لا يزاد على ذلك، وهذا موصول بما قبله فكأنه قال: ﴿وَلِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ **﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾** بلا زيادة وهذا كقوله تعالى: **﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾** [الأنعام: ١٦٠]، ويقال: ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾، يعني: جزاء الشرك النار، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أشد من النار. فيكون العذاب موافقاً لسيئاتهم، كقوله تعالى: **﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾** [النبأ: ٢٦]، أي موافقاً لشركهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، يعني: يغشى وجوههم المذلة، يعني: سواد الوجوه والعذاب. **﴿مَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾**، يعني: مانع يمنعهم من عذاب الله.

ثم وصف سواد وجوههم فقال: **﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾**، يعني: سواد الليل مظلماً، ويقال: **﴿قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ﴾** يعني: بعضاً من الليل وساعة منه.

قال الفقيه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا محمد بن عقيل قال: حدثنا العباس الدوري قال: حدثنا يحيى بن أبي بكر، عن شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: **«أوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيهَا أَلْفَ**

Marfat.com

سَنَةٍ حَتَّى ابيَضَّتْ، ثم أوقِدَ عَلَيهَا ألف سَنَةٍ حَتَّى اسوَدَّتْ؛ فَهِي سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ المُظْلِم»[1] قرأ ابن كثير والكسائي ﴿قِطْعاً﴾ بجزم الطاء، وهو اسم ما قطع منه، يعني: طائفة من الليل، قرأ الباقون ﴿قِطَعاً﴾ بنصب الطاء يعني: جمع قطعة. وإنما أراد به سواد الليل ﴿مُظْلِماً﴾ صار نصباً للحال، أي: في حالة الظلام. ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي مقيمون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾، هذا كله في يوم نجمعهم جميعاً، يعني: الكفار وآلهتهم. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾، يعني: قفوا أنتم وآلهتكم ويقال: الرؤساء والأتباع ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، يعني: ميزنا وفرقنا بين المشركين وبين آلهتهم، وأصله في اللغة: من زال يزول، وأزلته وزيلته بمعنى واحد، ويقال: فرقنا ما بينهم من التواصل والألفة، يعني: بين الرؤساء والأتباع، ويقال: يأمر الله تعالى أن تلحق كل أمة بما كانوا يعبدون من دون الله، فيفرّق بين أهل الملل، فذلك قوله ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يعني: بين أهل الشرك وأهل الإسلام.

ثم قال للمشركين: ماذا كنتم تعبدون؟ فينكرون ويحلفون، ثم يقرون بعدما يختم على أفواههم وتشد أعضاؤهم أنهم كان يعبدون الأصنام. ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾، يعني: آلهتهم لمن عبدها: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا بأمرنا ولا نعلم بعبادتكم إيانا، ولم تكن فينا روح فنعقل عبادتكم إيانا، فيقول من عبدها: قد عبدناكم وأمرتمونا فأطعناكم، فقالت الآلهة: ﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ يعني: عالماً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾، يعني: ولم نعلم أنكم تعبدوننا، والفائدة في إحضار الأصنام: أن يظهر عند المشركين ضعف معبودهم، فيزيدهم حسرة على ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿تَتْلُوا كل نفس﴾ بالتاءين، يعني: عند ذلك تقرّ كل نفس برةٍ أو فاجرةٍ ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾، يعني: ما عملت من خير أو شر. وهذا قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ويقال: تتلو يعني: تتبع، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢] يعني: يتبعها، وقرأ الباقون ﴿تَبْلُو﴾ بالتاء والباء، يعني: عند ذلك تجد، ويقال: تظهر، كقوله ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقال القتبي: أي يختبر.

ثم قال: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، يعني: رجعوا في الآخرة إلى الله مولاهم

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه الترمذي (٢٥٩١) وقال: موقوف أصح ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك. وأخرجه ابن ماجه (٤٣٢٠).

Marfat.com

الحق. ﴿وَضَلَّ عَنهُمْ﴾، يعني: اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: يختلقون من الكذب الأوثان، فلا يكون لهم شفاعة، ويقال بطل افتراؤهم واضمحل.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾، يعني: قل يا محمد للمشركين: من يرزقكم من السماء المطر ومن ﴿وَالأرْضِ﴾ النبات. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾، يعني: يخلق لكم السمع والأبصار، ﴿وَمَنْ يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يعني: ومن يقدر أن يخرج الحي من الميت، يعني: الفرخ من البيضة. ﴿وَيُخرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، يعني: البيضة من الطير، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾، يعني: من يقدر أن يدبر الأمر بين الخلق، وينظر في تدبير الخلائق، ويقال: من يرسل الملائكة بالأمر. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ يفعل ذلك كله لا الأصنام، لأن الأصنام لم يكن لهم قدرة في هذه الأشياء. ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ الشرك فتوحدونه، إذ تعلمون أنه لا يقدر أحد أن يفعل هذه الأشياء إلا الله تبارك وتعالى، ويقال: ﴿أفلا تتقون﴾ أي: تطيعون الله الذي يملك ذلك؟.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾، وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾، يعني: فما عبادتكم بعد ترك عبادة الله تعالى إلا عبادة الشيطان ويقال: فماذا بعد التوحيد إلا الشرك؟ ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾، يعني: فمن أين تمتنعون عن الإيمان بالله؟ ويقال: ﴿فأنى تصرفون﴾ عن هذا الأمر بعد المعرفة؟ وقال مقاتل: فمن أين تعدلون به غيره؟ ويقال: كيف ترجعون عن هذا الإقرار؟.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، يعني: هكذا وجبت كلمة العذاب من ربك، كقوله: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] ويقال: وجبت كلمة ربك، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، يعني: كفروا بربهم. ﴿أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، يعني: لا يصدقون بعلم الله تعالى السابق فيهم، ويقال: ﴿إنهم لا يؤمنون﴾ يعني: لأنهم لا يؤمنون فوجب عليهم العذاب بترك إيمانهم. قرأ نافع وابن عامر ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وكذلك الاختلاف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٩٦].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ

Marfat.com

﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، يعني: أصنامكم التي تعبدونها، هل يقدرون أن يخلقوا خلقاً من غير شيء، ثم يبعثونهم في الآخرة كما يفعل الله تعالى؟ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ الله يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، يعني: إن معبودكم لا يستطيع ذلك. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾، يعني: من أين تكذبون؟ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، يقول: هل يقدر أحد من آلهتكم أن يهدي إلى الحق، يقول: يدعو الخلق إلى الإسلام؟ فإنْ قالوا: لا. ﴿قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، يعني: يدعو الخلق إلى الإسلام، ويوفق من كان أهلاً لذلك ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾، يقول: من يدعو إلى الحق أحق أن يعمل بأمره ويعبد؟ ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي﴾ طريقاً ولا يهتدي ﴿إلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾، يعني: يمشي بنفسه إلا أن يحمل من مكان إلى مكان؟ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿أَمَّنْ لا يَهْدِّي﴾ بجزم الهاء وتشديد الدال، لأن أصله في اللغة: يهتدي، فادغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش ﴿يَهَدِّي﴾ بنصب الهاء وتشديد الدال، لأن حركة التاء وقعت على الهاء وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿يَهِدِّي﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، لأنه لما اجتمع الساكنان حرك أحدهما بالكسر، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿يِهِدِّي﴾ بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، فأتبع الكسرة الكسرة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَهْدِي﴾ بجزم الهاء وتخفيف الدال، ويكون معناه: لا يهتدي. قال الكسائي: قوم من العرب يقول: هديت الطريق بمعنى اهتديت، فهذه خمس من القراءات في هذه الآية.

ثم قال: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ يعني: كيف تقضون لأنفسكم؟ يعني: تقولون قولاً ثم ترجعون عنه. ويقال: ﴿مَا لَكُمْ﴾ كلام تام، فكأنه قيل لهم: فأي شيء لكم في عبادة الأوثان، ثم قيل لهم ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي على أي حال تحكمون؟ ويقال: معناه، كيف تعبدون آلهتكم بلا حجة، ولا تعبدون الله ولا توحدونه بعد هذا البيان لكم؟.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلاَّ ظَنّاً﴾، يعني: لا يستيقنون أن اللات والعزى آلهة إلا

Marfat.com

بالظن، ومعناه: أنهم يتركون عبادة الله وهو الحق، لأنهم يقرون بأن الله خالقهم، فيتركون الحق ويتبعون الظن. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾، يعني: علمهم لا يغني من عذاب الله شيئاً، ويقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني: ما قذف الشيطان في أوهامهم لا يستطيعون أن يدفعوا الباطل بالحق. ويقال: ﴿وما يتبع﴾ يعني: وما يعمل أكثرهم ﴿إلا ظَناً﴾ يظنون في غير يقين وهم الرؤساء، وأما السفلة فيطيعون رؤساءهم ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾. ﴿إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من عبادتهم الأصنام وما يقولون من القول المختلق والكذب.

ثمّ قال: ﴿وَمَا كَانَ هَذا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾، يعني: لهذا القرآن أن يختلق ﴿مِنْ دُونِ الله﴾ تعالى. وقال القتبي: أي وما كان هذا القرآن أن يضاف إلى غير الله أو يختلق، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ يعني: نزل بتصديق الذي بين يديه من التوراة والإنجيل. ويقال: معناه، ولكن بتصديق النبي الذي أنزل القرآن ﴿الذي بين يديه﴾ يعني: الذي هو قبل سماعكم، لأن القرآن تصديق لما جاء من أنباء الأمم السابقة وأقاصيص أنبيائهم، ﴿وتفصيل الكتاب﴾ يعني: بيان كل شيء، ويقال: بيان الحلال والحرام. ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾، يعني: لا شك فيه عند المؤمنين إنه نزل من عند ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: أيقولون افتراه؟ وهم كفار مكة. ﴿افْتَرَاهُ﴾ يقول: تقوّله من تلقاء ذات نفسه. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، يعني: مثل القرآن؛ ﴿وَادْعُوا﴾، يعني: استعينوا على ذلك ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ممن تعبدون. ﴿مِنْ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه تقوّله من تلقاء نفسه. فلما قال لهم ذلك، سكتوا ولم يجيبوا، فنزل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، يعني: بما لم يعلموا بعلمه، يعني: القرآن لم يعلموا بما فيه. ويقال: لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، يعني: ولما يأتهم عاقبة ما وعدوا في هذا القرآن، يعني: سيأتيهم ما وُعد لهم، وهو كائن في الدنيا بالعذاب، وفي الآخرة بالنار.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: هكذا كذب الأمم الخالية رسلهم. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: كيف صار جزاء المكذبين لرسلهم. فيه تعزية لرسول الله ﷺ، وحث له على الصبر، وتخويف لهم بالعقوبة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، يعني: بالقرآن. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

Marfat.com

بِالْمُفْسِدِينَ﴾، يعني: بعقوبة من لم يؤمن به. قال مقاتل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَمِنْهُم مَّن لا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من أهل مكة. وقال الكلبي: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من اليهود، يعني: يؤمن به من قبل موته ولا يموت حتى يقرّ به ﴿وَمِنْهُم مَّن لا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني: بعلم الله تعالى السابق فيه. وقال الزجاج: معناه ﴿ومنهم من يؤمن﴾ أي: يعلم أنه حق، فيصدّق بقلبه ويعاند فيظهر الكفر، ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ أي يشك ولا يصدق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾، يعني: المشركين بما أتيتهم به. ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ يعني: ديني. ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، يعني: دينكم. ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ وأدين ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وتدينون به غير الله وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، ولما نزلت آية القتال نسخت هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، قال الكلبي: نزلت في شأن اليهود، قدموا مكة وكانوا يسمعون قراءة القرآن فيعجبون به ويشتهونه، وتغلب عليهم الشقاوة ولا يسلمون، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾، يعني: تفقّه الكافر الذي لا يعقل الموعظة؟ وقال الضحاك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وذلك أن كفار قريش دخلوا المسجد الحرام والنبي ﷺ قائم عند المقام يصلي، وهو يقرأ سورة طه، قال الوليد بن المغيرة: يا معشر قريش، إنما يتلو محمد ليأخذ بقلوبكم. فقال أبو جهل وأصحابه: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فنزل ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وذلك أنهم صموا عن الحق، ويقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ يعني: من يتصامم ولا يستمع إليك. ﴿وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾، يقول: فإنْ كانوا مع ذلك لا يرغبون في الحق. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، يعني: بغير رغبة. ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾، يقول: أفأنت ترشد من يتعامى؟ ﴿وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ الحق ولا يرغبون فيه. قال القتبي: هذا من جوامع الكلم، حيث بيّنَ فضل السمع والبصر، حيث جعل مع الصم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان البصر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾، يقول: لا ينقص من أجور الناس شيئاً ولا يحمل عليهم من أوزار غيرهم، ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، يعني: يضرُّون أنفسهم بتركهم الحق. قرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَكِنِ النَّاسُ﴾ بكسر النون مع التخفيف وضمّ السين، وقرأ الباقون ﴿ولكنَّ النَّاسَ﴾ بالنصب.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، يقول: يجمعهم في الآخرة. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾؛ قال الكلبي: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاَّ ساعة من النهار. وقال الضحاك: كأنْ لَمْ

Marfat.com

يَلْبَثُوا فِي الْقُبُورِ إلا ما بين العصر إلى غروب الشمس، أو ما بين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس، ويقال: يعني بين النفختين، لأنه يرفع عنهم العذاب فيما بين ذلك. وقال مقاتل: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال الكلبي: يعني: يتعارفون بينهم حين خرجوا من قبورهم، ثم تنقطع عنهم المعرفة فلا يعرف أحد أحداً، وقال الضحاك: يتعارفون بينهم حين خرجوا، وذلك أن أهل الإيمان يبعثون يوم القيامة على ما كانوا عليه في الدنيا من التواصل والتراحم، يعرف بعضهم بعضاً، محسنهم لمسيئهم، وأما أهل الشرك فلا أنساب بينهم يومئذ، ولا يتساءلون.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾، يعني: بالبعث بعد الموت ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، يقول: لم يكونوا مؤمنين في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يعني: مصيرهم في الآخرة. وروي عن عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله أنهما قالا: «أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستخلف أمته من بعده» ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾، يعني: لأهل كل دين رسول أتاهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾، يعني: فأبلغهم فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين رسولهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. وقال مجاهد: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ يعني: يوم القيامة، ﴿قضي بينهم﴾ بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب ينزل بنا ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً﴾، يعني: ليس في يدي دفع مضرة ولا جرّ منفعة، ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾. أن يقويني عليه. قال مقاتل: معناه قل: لا أملك لنفسي أن أدفع عنها سوءاً حين ينزل، ولا أن أسوق إليها خيراً إلا ما شاء الله فيصيبني، فكيف أملك على نزول العذاب بكم؟ وقال القتبي: الضُر بضم الضاد، الشدة والبلاء، كقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] وكقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ [النحل: ٥٤] والضَّر بفتح الضاد ضد النفع، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: ٤٩] يعني: قل لا أملك جر نفع ولا دفع ضَرّ.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإذا جَاءَ أجلهم﴾ يعني: وقتنا. ـ ويقال: ﴿لكل أمة أجل﴾ أي

Marfat.com

مهلة ويقال: أجل الموت[1] ـ بالعذاب، ﴿فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ يعني: لا يتأخرون عنه ساعة، ولا يتقدمون عنه ساعة، فكذلك هذه الأمة إذا نزل بهم العذاب لا يتأخر عنهم ساعة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾. يا أهل مكة ﴿إِنْ أَتاكُمْ عَذَابُهُ﴾، يعني: عذاب الله تعالى. ﴿بَياتاً﴾ ليلاً كما جاء إلى قوم لوط، ﴿أَوْ نَهاراً﴾؛ يعني: مجاهرة كما جاء إلى قوم شعيب عليه السلام. ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾، يقول: بأي شيء يستعجل منه المجرمون، يعني: المشركين، ويقال: ماذا ينفعهم استعجالهم منه، أي من عذاب الله؟.

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾، يعني: إذا وقع العذاب صدقتم به، يعني: بالعذاب، ويقال: صدّقتم بالله تعالى. ﴿الآنَ﴾، يعني: يقال لهم: آمنتم بالعذاب حين لا ينفعكم، ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ وهذا اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التهديد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: قالت لهم خزنة جهنم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾، الذي لا ينقطع. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾، يقول: هل تثابون، ﴿إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ قال قتادة ومقاتل: وذلك أنّ حييّ بْنَ أخطَب حين قدم مكة قال للنبي ﷺ أحق هذا العذاب؟ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾، يعني: إي والله إنّه لكائن. ويقال: معناه ويسألونك عن البعث أحق هو؟ ويسألونك عن دينك أحق هو؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾، يعني قل: يا محمّد نعم ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ يعني: العذاب نازل بكم إن لم تؤمنوا ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين من العذاب حتّى يجزيكم به.

ثم أخبر عن حالهم حين نزل بهم العذاب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

يعني: كفرت وأشركت بالله تعالى، ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لو كان لها ما في الأرض ﴿جميعاً﴾ يعني: النفس ﴿لافْتَدَتْ بِهِ﴾ يعني: النَّفس لافتدت من سوء العذاب، أي لا ينفعها لها ولا يُقبَل منها. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ يعني: أخفوا النَّدامة، يعني: أن القادةُ أخفوا الندامة من السَّفلة، ﴿لَمَّا رَأَوا الْعَذَابَ﴾ حين نزل بهم العذاب، وعاينوه وشاهدوه. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بين القادة والسفلة بالعدل، ويقال: ﴿قضي بينهم﴾، يعني: الخلق بالعدل، فيعطي ثوابهم على قدر أعمالهم. ويقال: يقضي بين الكفَّار بالعدل، وبين المؤمنين بالفضل. ثم قال: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا يُنقَصُونَ من ثواب أعمالهم شيئاً.

ثمَّ بيَّن استغناءه عن عبادة الخلق وقدرته عليهم، فقال: ﴿أَلا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: كلُّهم عبيده وإماؤه، وهو قادر عليهم. ويقال: كلُّ شيء يدلُّ على توحيده، وأنَّ له صانعاً. ﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ يعني: بالبعث بعد الموت هو كائن. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا يُصدِّقون به. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكَّة، ويقال: جميع النَّاس، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: نهياً من ربِّكم عن الشِّرك على لسان نبيِّكم ﷺ، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يعني: القرآن شفاء للقلوب من الشِّرك. ويقال: شفاء من العمى، لأن فيه بيان الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضَّلالة، ويقال: صواباً، وبياناً ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: القرآن نعمة من الله تعالى على المؤمنين، يمنع العذاب عمَّن آمن، وعمل بما فيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ﴾، يعني: قل يا مُحمَّد للمؤمنين: بفضل الله والإسلام ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ القرآن. وروي عن ابن عبَّاس: «أنه ﴿بفضل الله﴾ يعني القرآن، ﴿وبرحمته﴾ الإسلام»، يعني: بنعمته عليكم إذ أكرمكم بالإسلام والقرآن، وهكذا قال أبو سعيد الخدْرِيّ. وقال الضَّحَّاك، ومجاهد: بفضل القرآن، وبرحمته الإسلام. وقال مقاتل: بفضل الله الإسلام، وبرحمته القرآن. وعن الحسن مثله وقال القُتَبِيّ مثله. ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني: بالقرآن والإيمان ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال. قرأ ابن عامر: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء كلاهما على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ

Marfat.com

﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ الله لَكُمْ مِن رِزْقٍ﴾ في الكتاب، ويقال: من السَّماء، ويقال: ما أعطاكم الله من الرِّزق والحرث والأنعام والبحيرة والسَّائبة. وبيَّن في كتاب الله تحليلها. ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً﴾ يعني: حراماً على النساء، وحلالاً على الرجال ﴿قُلْ الله أَذِنَ لَكُمْ﴾ يعني: الله عزّ وجل أمركم بتحريمه وبتحليله؟ ﴿أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ﴾ يعني: تختلقون على الله كذباً ما لم يقله، ولم يأمر به. ويقال: ﴿قل آلله أذن لكم﴾؟ أي أمركم بتحريمه فقالوا: بلى، أمرنا بها، فقال الله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ﴾، يعني: على الله تختلقون.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ﴾ يعني: وما ظنُّهم حين ينزل بهم العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾؟ وكيف ينجون منه؟ ﴿إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: لذو مَنّ على النَّاس، بتأخير العذاب عنهم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله تعالى عليهم، بتأخير العذاب عنهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، يقول: وما تكون يا مُحَمَّدُ في أمر من الأمور، ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ يعني: وما تقرأ من الله من قرآن، يعني: ممَّا أوحي إليك. فخاطب النبي ﷺ، وخاطب أمته أيضاً، فقال تعالى: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ يعني: عالماً بكم وبأعمالكم، فلا تنسوه. ويقال: إلاَّ جعل عليكم شاهداً من الملائكة، وهم الحفظة ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيه﴾ يعني: حين تأخذون في قراءة القرآن، ويقال: حين تخوضون فيه. ﴿وما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ قرأ الكِسَائِيُّ: ﴿وَمَا يَعْزِبُ﴾ بكسر الزّاي. وقرأ الباقون: بالضَّم، وهما لغتان. وهكذا روي عن الفرَّاء. يعني: وما يغيب ﴿عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ قال الكَلْبِيّ: الذرة هي النَّملة الحُمَيْرَاءُ. وقال مقاتل: أصغر نملة في الأرض. ويقال: الذَّرة ما يُرَى في شعاع الشَّمس، والمثقال: عبارة عن الوزن. يعني: لا يغيب عنه وزن الذَّرَّة ﴿فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني: ولا أخف من وزن الذَّرَّة ﴿وَلا أَكْبَرَ﴾، يعني: ولا أثقل من وزن الذَّرّة. ويقال: لا أقلّ منه، ولا أعظم، ﴿إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. يعني: مكتوباً في اللَّوح المحفوظ. قرأ حمزة: ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ﴾ بضمّ الرَّاءين، ومعناه: ولا يغيب عنه أصغر من ذلك، ولا أكبر منه، فيصير رفعاً لأنه فاعل. وقرأ الباقون بالنَّصب، لأن معناه: ولا

Marfat.com

يغيب عنه بمثقال ذرة في الأرض ولا في السَّماء، ولا بمثقال ذرَّة أصغر من ذلك. فموضعه خَفضٌ، إلاّ أنّه لا ينصرف فصار نصباً.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ﴾، يعني: المؤمنين، ويقال: أحباء الله، وهم حملة القرآن والعلم. ويقال: الَّذين يجتنبون الذُّنوب في الخلوات، ويعلمون أنّ الله تعالى مُطَّلِعٌ عليهم. وروي عن النبي ﷺ أنّه سُئِل عن أولياء الله تعالى، فقال: «**هُمُ الَّذِينَ أدامُوا ذِكرَ الله تَعالَى**». وقال وهبُ بنُ مُنَبِّه: قال الحواريُّون لعيسى ابنِ مريمَ: يا روحَ الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الَّذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر النَّاس إلى ظاهرها، ونظروا إلى أجل الدُّنيا حين نظر النَّاس إلى عاجلها، فأحبُّوا ذِكْرَ الموت، وأماتوا ذِكْرَ الحياة، ويحبُّون الله تعالى، ويحبُّون ذكره». وقال الضَّحَّاك: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ﴾ يعني: المخلصين لله، ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لا يخافون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين زفرت جهنَّم.

ثمّ نعتهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني: أقرُّوا وصدَّقوا بوحدانية الله تعالى، ويتَّقون الشِّرك والفواحش، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: البشارة، وهي الرُّؤيا الصَّالحة يراها العبد المسلم لنفسه، أو يرى له غيره. وروي عن عبد الله بن عُمَر عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**الرُّؤيا الصَّالِحَةُ جُزءٌ من سَبْعِينَ جُزءاً مِنَ النبوَّةِ**». وفي خبر آخر: «**مِنْ أَرْبَعِينَ جُزءاً من النُّبوَّة**»(١). وفي خبر آخر: «**مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزءاً**». وروى عَطَاء بن يَسَارٍ، عن رجل كان يفتي بالبصرة، قال: سألت أبا الدَّرداء عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾، قال أبو الدَّرداء: ما سألني أحد منذ سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «**مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، هِيَ الرُّؤيا الصَّالِحَة يَرَاهَا المُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ**»(٢).

ثمّ قال: ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾: الجنَّةُ. وعن عبادة بن الصامت، أنه سأل النبي ﷺ، فأجابه بمثل ذلك. ويقال: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ يعني: عند الموتَ تبَشِّرهم الملائكة، كما

---

(١) حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٢٦٣) (٨) وأحمد ٢/ ٢٣٣ وابن ماجة (٣٨٩٤) بلفظ جزء من ستة وأربعين. ومن حديث أنس عند مالك: ٢/ ٩٥٦ والبخاري (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) وحديث ابن عمر عند مسلم (٢٢٦٥) وأحمد ٢/ ١٨، ٥٠ وابن ماجه (٣٨٩٧ وابن رزين عند الترمذي (٢٢٧٩) وابن ماجه (٢٢٧٩) وابن ماجه (٣٩١٤) وأحمد: ٤/ ١٠.

(٢) عزاه السيوطي ٤/ ٣٧٤ إلى سعيد بن منصور وأحمد والترمذي وحسنّه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي.

Marfat.com

قال في آية أخرى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْكُمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. ﴿وفي الآخرة﴾ تُبَشِّرُهُم الملائكة حين يخرجون من قبورهم. ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾: يقول: لا تغيير ولا تحويل لقول الله، لأنَّ قوله حقٌّ بأنْ ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾. ويقال: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾، يعني: لا خُلف لمواعيده التي وعد في القرآن. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: الثَّواب الوافر. ويقال: النجاة الوافرة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يقول: يا مُحَمَّدُ لا يحزنك تكذيبهم: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾، يعني: بأنَّ النِّعمة والقدرة لله تعالى، وجميع مَن يتعزَّزُ إنَّما هو بإذن الله تعالى. ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: يعني: ﴿السَّميع﴾ لمقالتهم، ﴿العليم﴾ بهم وبعقوبتهم على ترك توحيدهم.

ثم قال: ﴿أَلا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: من الخلق، كلهم عبيده وإماؤه. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: وما يعبد الذين يعبدون من دون الله الأوثان والأصنام. ولم يأت بجوابه، وجوابه مضمر، ومعناه: وما هم لي شركاء، ولا نفع لهم في عبادتهم، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ يقول: ما يعبدون الأصنام إلاَّ بالظن، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يقول: وما هم إلاَّ يكذبون. يقول: ما أمرهم الله تعالى بعبادتها، ولا تكون لهم شفاعة.

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ الْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ثمّ دلَّ بصنعه على وحدانيته، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني: خلق لكم اللَّيل لتَقرُّوا فيه من النَّصبِ والتَّعبِ، ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ يعني: خلق النَّهار مطلباً للمعيشة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في تقلب اللَّيل والنَّهار ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني: لَعِبْرَاتٍ وَعَلاَمَاتٍ لوحدانيَّةِ الله، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: المواعظ.

ثمّ رجع إلى ذِكْرِ كُفَّار مَكَّةَ فقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾، حين قالوا: الملائكة بنات الله تعالى، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نَزَّهَ نفسه عن الولد، فقال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الولد، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ مِنَ الخلق، كلهم عبيده وإماؤه، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ يعني: ما عندكم من حُجَّة بهذا القول، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ بغير حجةٍ.

Marfat.com

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ بأنَّ له ولداً ﴿لا يُفْلِحُونَ﴾. يعني: لا يأمنون من عذابه، ولا ينجون منه. ﴿مَتَاعٌ﴾ قليل يعني: منفعتهم ﴿فِي الدُّنيا﴾ قليل ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، يعني: مصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمْ﴾ يعني: نصيبهم العَذَابَ الشَّدِيدَ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفرهم.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ فإن لم تعتبروا بذلك، فاتْلُ عليهم، يعني: اقرأ عليهم خبر نوح في القرآن، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: عظم وثَقُلَ عليكم ﴿مَقَامِي﴾ يعني: طول مقامي فيكم ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ﴾ يعني: وعظي لكم بالله تعالى، وهو ما قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]الآية. فلمّا وعظهم بذلك أرادوا قتله، حين قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]يعني: من المقتولين بالحجارة. فقال لهم نوح: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ فيكم وعظتي لكم ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يقول: وثقت وفوَّضت أمري إلى الله تعالى، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ يعني: كيدكم. ويقال: قولكم، وعملكم؛ ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ يعني: وادعوا شركاءكم ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ يقول: أظهروا أمركم فلا تكتموه، يعني: القتل. وقال القتبي: الغمّ والغُمّة واحد كما يقال: كُربة وكرَب، يعني: لا يكون أمركم غمّاً عليكم ﴿ثمّ اقضوا إليّ﴾ يعني: امضوا إليّ ويقال: اعملوا ما تريدون كقوله تعالى ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] ﴿وَلا تُنْظِرُونِ﴾ يعني: ولا تمهلون. يعني: اقضوا إليّ ما أنتم قاضون، واستعينوا بآلهتكم. ويقال: اعملوا بما في أنفسكم من الشرّ. وروي عن نافع أنه قرأ: ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بالوصل وبالجزم، مِنْ جمعت. وقرأ الباقون: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ بالقطع من الإجماع. وقرأ الحسن البصريُّ، ويعقوب الحَضْرَمِيُّ: ﴿شركاؤكم﴾ بالرفع يعني: أين شركاؤكم ليجمعوا أمرهم معكم، ويعينوكم؟ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أعرضتم وأبيتم عن الإيمان، وأبيتم أن تقبلوا ما أتيتكم به، ونهيتكم عنه، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: ما سألتكم بذلك أجراً في الدُّنيا

Marfat.com

ومعناه: إن أعرضتم عن الإيمان لا يضرُّني لأنّي لا أطلب منكم بذلك أجراً في الدنيا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: وأمرتُ أن أستقيم على التّوحيد مع المسلمين.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب، بأنّه غير نازلٍ بهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ من الغرق، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ﴾ يعني: خلفاء من بعد هلاكِ كُفّارهم، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: أهلكنا الذين كذّبوا نوحاً بما أتاهم به ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعني: كيف كان آخر أمرِ مَنْ أنذرهم الرُّسلُ فلم يؤمنوا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد هلاك قوم نوح ﴿رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾، مثل: هود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، عليهم السلام ﴿فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي. ويقال: بالآيات والعلامات، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال مقاتل: يعني، ما كان كُفّار مكة ليصدِّقوا بالعذاب أنه نازل بهم، كما لم يصدق به أوائلهم من قبل كفار مكة. وقال الكَلْبِي: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به﴾ عند الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم. وقال: ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ يعني: أولئك القوم ما بعد دعاهم الرُّسل بما كذبوا به من قبل أن يأتيهم الرُّسل ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني: نختم على قلوبهم المتجاوزين من الحلال وإلى الحرام. ويقال: صار تكذيبهم طبعاً على قلوبهم، فمنعهم عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الرُّسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ التّسع ثم قال: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تكبّروا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني: ظهر لهم الحقّ ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ من عند الله تعالى ﴿قالوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: الّذي أتيتنا به كذب بيِّنٌ ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ وفي الآية مضمر، ومعناه: أتقولون للحقّ لما جاءكم إنّه سحر؟ ثمّ قال:

Marfat.com

أسِحْرٌ هذا؟ يعني: أيكون مثل هذا سحراً؟ فليس ذلك بسحر، ولكنَّ ذاك علامة النبوة، ﴿وَلا يُفلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ في الدُّنيا والآخرة. ويقال: لا ظفر لهم.

قوله تعالى: ﴿قالُوا أجِئْتَنَا لتلفتنا﴾ يعني: قال فرعون وقومه لموسى ﴿أجِئْتَنَا﴾؟ يعني: لتصرفنا، وتصدنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يقول: عما كان يعبد آباؤنا ﴿وَتَكُونَ لَكُما الْكِبْرِيَاءُ﴾ يعني: السُّلطان والشَّرف والمُلْكُ ﴿فِي الأرْضِ﴾، يعني: في أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بمصدِّقين بأنكما رسولا ربِّ العالمين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

ثمّ قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: حاذقاً بالسِّحر. قرأ حمزة والكسائي: ﴿سَحَّارٍ﴾، على معنى المبالغة، وقرأ الباقون: ﴿بكلّ سَاحِرٍ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ألْقُوا مَا أنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ يعني: اطرحوا ما في أيديكم من العِصيّ والحبال إلى الأرض ﴿فَلَمَّا ألْقَوْا﴾ ما معهم من الحبال والعِصِيّ إلى الأرض ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ يعني: العمل الذي عملتم به هو السِّحر ﴿إنَّ الله سَيُبْطِلُهُ﴾ يعني: سيهلكه ﴿إنَّ الله لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا يرضى عمل المفسدين. قرأ أبو عمرو: السِّحر، بالمدِّ على وجه الاستفهام، ويكون معناه: ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ يَعني ما الّذي جئتم به؟ وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿السِّحْرَ إنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إنَّ الله لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: عمل السحرة.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ الله الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني: يظهر دينه الإسلام بتحقيقه وبنصرته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: فرعون وقومه.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ يعني: ما صدَّق بموسى ﴿إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني: قبيلته من قومه الذين كانت أمّهاتهم من بني إسرائيل، وآباؤهم من القبط. وروى مقاتل، عن ابن عباس أنه قال: ﴿إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾، يعني: من قوم موسى وهم بنو إسرائيل، وهم ستمائة ألف. وكان يعقوب حين ركب إلى مصر من كنعان في اثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا بمصر حتّى بلغوا ستمائة ألف. ويقال: ﴿إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾، يعني: خربيل وهو الذي قال في آية أخرى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨].

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْن وملائهم﴾ - أي: فما أمن لموسى خوفاً من فرعون ﴿وملأهم﴾ أي قومهم[١] - إشارة إلى فرعون بلفظ الجماعة، كقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤] يعني: محمداً ﷺ خاصة ﴿أَن يفتِنَهُمْ﴾ يعني: يقتلهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لَعات. ويقال: لغالب، ويقال: المخالف والمتكبر في أرض مصر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: لمن المشركين. روى موسى بن عبيدة، عن محمد بن المنكدر، قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة، منها مائتين وعشرين سنة لم ير مكروهاً، ودعاه موسى عليه السلام ثمانين سنة.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يعني: ثقوا بالله وذلك حين قالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] فلما قال لهم هذا موسى عليه السلام ﴿قَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يعني: فوّضنا أمرنا إليه، ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ يقول: بَلِيَّةً وَعِبْرَةً ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. يعني: لا تنصرهم علينا. قال مجاهد: يعني: لا تعذّبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كانوا على الحقّ، ما عُذّبوا وما سُلّطنا عليهم، فَيُفْتَنُوا بنا، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ يعني: بنعمتك ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: فرعون وقومه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ هارون، وذلك لما منعهم فرعون وقومه الصّلاة علانية، وخرّبوا مساجدهم ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بُيُوتاً﴾ يعني: اتّخذوا لقومكما بمصر مساجد في جوف البيوت ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ يعني: مساجد فتصلون فيها. ويقال: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي: حوّلوا بيوتكم نحو القبلة. وقال مجاهد: كانوا يصلون في البِيَع، فأمرهم أن يصلوا في البيوت. وقال إبراهيم النخعي: كانوا خائفين، فأمرهم بالصّلاة في بيوتهم. وكان إبراهيم النخعيّ خائفاً من الحجّاج، وكان يصلي في بيته.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ يعني: أتمّوها بركوعها وسجودها، ولم يأمرهم بالزكاة، لأن فرعون قد استعبدهم، وأخذ أموالهم، فلم يكن لهم مال يجب عليهم الزّكاة فيه. ثم قال للنبي ﷺ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدِّقين بتوحيد الله تعالى بالجنة. قرأ عاصم في

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

رواية حفص: ﴿أَن تَبَوَّيَا﴾ بلا همز، لأنه كره همزة بين حرفين فجعلها ياء. وقرأ الباقون بغير ياء بالهمزة، إلا أنه روي عن حمزة أنه كان يهمز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾، وذلك أن أهل مصر لما عُذِّبوا بالطُّوفان والجراد والسنين، قالوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[الأعراف: ١٣٤]، ثم نكثوا العهد ولم يؤمنوا، فغضب موسى عليهم، ودعا الله تعالى عليهم، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ يعني: أعطيت فرعون وملأة زينة، يعني: الأشراف من قومه أعطيتهم ﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا﴾ أي، ربنا أعطيتهم ليضلوا﴿عن سبيلك﴾ يعني: عن دينك، الإسلام. قرأ أهل الكوفة، وعاصم، وحمزة الكسائي: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء. يعني: ليُضلُّوا النّاس ويصرفونهم عن دينكَ. وقرأ الباقون: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بنصب الياء. يعني: يرجعون عن دينك ويمتنعون عنه. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ يعني: غيِّر دراهمهم ودنانيرهم، وذلك حين وعد فرعون لموسى بأن يؤمن ويرسل معه بني إسرائيل، ثم نقض العهد، فدعا عليهم موسى عليه السلام. وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ قال: بلغنا أنَّ حروثاً لهم صارت حجارة. وعن السّدي أنه قال: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة. وعن أبي العالية أنه قال: صارت أموالهم حجارة، وقال مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ يعني: أهلكها. وقال القتبي في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ﴾ يعني: أهلكها. وهو من قولك: طمس الطريق إذا عفى ودرس..

ثمّ قال تعالى: ﴿واشدذ على قلوبهم﴾ أي إقسها. ويقال: اطبغ قلوبهم وأمتهم على الكفر، ولا توفقهم للإيمان يعني: لكي﴿لا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ وهو الغرق. فدعا موسى عليه السلام وَأَمَّن هارون قال الله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ قال ومحمد بن كعب القرظي: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ «دعا موسى، وأمَّن هارون». وعن أبي العالية، وعكرمة وأبي صالح مثله. وعن أبي هريرة مثله. وعن أنس بن مالك أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَانِي خِصَالاً ثَلاثاً: أَعْطَانِي صَلاةً بِالصُّفُوفِ، وَأَعْطَانِي تَحِيَّةً إنها تَحِيَّةُ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَعْطَانِي التَّأْمِينَ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَداً مِنَ النَّبِيِّينَ قَبْلِي، إلاَّ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى أعطاهُ لِهَارُونَ، يَدْعُو مُوسَى، وَيُؤَمِّنُ هَارُونُ**». قال مقاتل: فمكث موسى بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وهكذا روى الضَّحَّاك: أن الإجابة ظهرت بعد أربعين سنة. وقال بعضهم: بعد أربعين يوماً. وقال بعضهم: كان هذا الدعاء حين خرج موسى ببني إسرائيل، وأيس من إيمانهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: قال لموسى وهارون: ﴿استقيما﴾ على الرِّسالة والدَّعوة واستقيما على ما أمرتكما﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: طريق فرعون وآله من أهل مصر. وروى ابن ذكوان، عن ابن عامر، أنه قرأ: ﴿تَتْبَعَانْ﴾ بجزم التاء ونصب الباء.

Marfat.com

وقرأ الباقون: ﴿تَتَّبِعَانِّ﴾ بنصب التاء، والتشديد، وكسر الباء. ومعناهما واحد، وهذه النون أدخلت مؤكدة.

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، يعني: بحر القلزم. ويقال: هو نهر مصر، وهو النيل. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ يعني: لحقهم. وقال القتبي: أتبعت القوم: أي لحقتهم، وتبعتهم: كنت في أثرهم. ثمّ قال: ﴿بَغْياً﴾ يعني: تكبُّراً ﴿وَعَدواً﴾ يعني: ظلماً. ويقال: ﴿بغياً﴾ في المقالة حيث قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨] ﴿وَعدواً﴾ يعني: اعتدي عليهم وأرادوا قتلهم ﴿حَتَّى إذا أدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ يعني: كربة الموت. ويقال: ألجمه الماء. ويقال: بلغه الموت والأجل، وذلك أن بني إسرائيل لما رأوا فرعون ومن معه، قالوا: هذا فرعون، وقد كنا نلقى منه ما نلقى، فكيف بنا وأين المخرج في البحر؟ فأوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ [الشعراء: ٦٣] فضرب، فصار اثني عشر طريقاً يابساً. فلمّا انتهى فرعون إلى البحر، فرآها قد يبست فقال لقومه: إن البحر قد يبس خوفاً مني فصدّقوه، وهو قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] ولما جاوز قوم موسى، ودخل قوم فرعون، فلما همّ أولهم أن يخرج من البحر، ودخل آخرهم، طم عليهم البحر فغرّقهم. و﴿قَالَ﴾ فرعون عند ذلك ﴿آمَنْتُ﴾ أي صدّقت ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأنا من المسلمين﴾ على دينهم، ويقال: أنا ممن المخلصين على التوحيد. قرأ حمزة، والكسائي: ﴿إِنَّهُ﴾ بالكسر على معنى الابتداء، الباقون بالنصب على معنى البناء، أي: صدّقت بإنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

قال الله تعالى: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ يعني: أتؤمن في هذا الوقت حين عاينت العذاب، وقد عصيت ﴿قبل﴾ يعني: قبل نزول العذاب؟ وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] الآية. ويقال: إن جبريل هو الذي قال له: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: من الكافرين.

قال الفقيه أبو الليث، حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا نصر بن يحيى، قال: حدثنا أبو مطيع، عن الحسن بن دينار، عن حميد بن هلال، قال: كان

Marfat.com

جبريل عليه السلام يناجي النبي ﷺ، فقال له ذات يوم: «يا محمد ما غاظني عبد من عباد الله تعالى مثل ما غاظني فرعون، لمّا أدركه الغرق، قَالَ: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلٰه إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فخشيت أن تدركه الرحمة، فضربت بيدي في البحر، فأخذت كفاً من حمئه، وربما قال: من طينه فكبسته في فيه، فما نبس بكلمة».

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ يقول: نخرجك من البحر بجسدك. وقال أبو عبيدة: نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة من الأرض: ما ارتفع منها ﴿ببدنك﴾ أي: وحدك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يعني: عبرة لمن بعدك من الكفّار، لكيلا يدّعوا الربوبية. وقال قتادة: لمّا أغرق الله فرعون، لم تصدق طائفة من الناس بذلك، فأخرجه الله تعالى من البحر ليكون لهم عظة وآية. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا﴾ يعني: عن هلاك فرعون ﴿لَغَافِلُونَ﴾ يخالفون ولا يعتبرون.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أنزلنا بني إسرائيل ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يعني: منزل صدق، وهو أرض مصر. وذلك أن الله تعالى قد وعد لهم بأن يورّثهم أرض مصر، فلما غرق فرعون، رجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل، إلى أرض مصر، فنزلوا بها وسكنوا الدِّيار. ويقال: ﴿مبوأ صدق﴾ يعني: أرضاً كريمة، يعني: أرض الأردن وفلسطين. ويقال: منزلاً حسناً، وقال قتادة: أرض الشام، ويقال: الأرض المقدسة. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: من ميراث أهل مصر، وأهل الشام. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في الدين حتى جاءهم الكتاب، يعني: جاءهم موسى عليه السلام بعلم التوراة، فاختلفوا من بعد يوشع بن نون. ويقال: فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ حتى جاءهم العلم، يعني: خرج النبي ﷺ وجاء بالقرآن إليهم، لأنهم لم يزالوا مؤمنين به، وذلك أنهم يجدونه مكتوباً عندهم، فلما جاءهم محمد ﷺ جحدوا به بعد العلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الذين آمن به بعضهم، وكفر به بعضهم.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ ـ والله أعلم أنه لم يشكّ ولا يشكّ،

Marfat.com

ولكن أراد أن يقول ما أشك كما قال لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس﴾ علم أنه لم يقل، ولكن أراد أن يقول: ما قلت لهم[1] ـ وذلك أن كُفَّار قريش، قالوا: إنّ هذا الوحي يلقيه إليه الشيطان، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب فسيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة. فقال رسول الله ﷺ: «لا أسألُ أحداً، ولا أشكُّ فيه، بل أشهدُ أنهُ الحقُّ». وقال القتبي: فيه تأويلان، أحدهما: أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ، والمراد فيه غيره من الشُّكّاك، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب وهم يخاطبون الرجل بشيء، ويريدون به غيره، كما قالوا: إيَّاك أعني، واسمعي يا جارية. وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] أراد به الأمة، يدلكَ عليه قوله تعالى في آخره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]. وكقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. ووجه آخر: أن النّاس كانوا على ثلاث مراتب: منهم من كان مؤمناً، ومنهم من كان كافراً، ومنهم من كان شاكاً، وإنّما خاطب بهذا الشّاكّ.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يعني: من الشاكين، ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله﴾ يعني: بالكتاب وبالرسل ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، يعني: من المغبونين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، يعني: وجبت عليهم كلمة ربك بالسخط، وقدّر عليهم الكفر، ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يُصدِّقونَ بالقرآن أنه من الله تعالى، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ يعني: علامة ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ يعني: الهلاك في الدُّنيا، والعذاب في الآخرة. قرأ نافع، وابن عامر: ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ وقرأ الباقون: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ يقول: لم يكن أهل قرية كافرة آمنت عند نزول العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ وقبل منها الإيمان، ودفع عنهم العذاب ﴿إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ عليه السلام. قال مقاتل: ﴿فلولا﴾، على ثلاثة أوجه: الأول ﴿لولا﴾ يعني: فلم، مثل قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾. الثاني: ﴿فلولا﴾ يعني: فهلاّ كقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ [الأنعام: ٤٣] ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦] والثالث:

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

﴿فلولا﴾ يعني: فلوما، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ٨٣] ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

ويقال: ﴿فلولا﴾ هاهنا بمعنى: فهلا كانت قرية آمنت، فنفعها إيمانها. ومعناه: فهلاَّ آمنت في وقت ينفعها إيمانها. فأعلم الله تعالى أن الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، ثم قال: ﴿إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ معناه: لكن قوم يونس ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنهُمْ﴾ يعني: أنهم آمنوا قبل المعاينة، فكشفنا عنهم. وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمَانُهَا﴾ كما نفع قوم يونس. وعن قتادة: إنَّ قوم يونس عليه السلام خرجوا ونزلوا على تل، فدعوا الله تعالى أربعين ليلة، حتى تاب الله عليهم. وروي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم: أنَّ يونس بعثه الله تعالى إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى، وترك ما هم فيه من الكفر فأبوا، فدعا ربه فقال: يا رب قد دعوتهم فأبوا. فأوحى الله تعالى إليه: أن ادعهم، فإن أجابوك وإلا فأعلمهم أن العذاب يأتيهم إلى ثلاثة أيام. فدعاهم فلم يجيبوه، فأخبرهم بالعذاب، فقالوا: ما جربنا عليه كذبةً مذ كان معنا، فإن لم يلبث معكم وخرج من عندكم، فاحتالوا لأنفسكم. فلمّا كان بعض الليل خرج يونس من بينهم، فلما كان اليوم الثالث رأوا حمرة وسواداً في السماء كهيئة النار والدخان، فظنُّوا أن العذاب نازل بهم، فجعلوا يطلبون يونس فلم يجدوه، فلما كان آخر النهار أيسوا من يونس، وجعل يهبط السواد والحمرة، فقال قائل منهم: إن لم تجدوا يونس عليه السلام فإنكم تجدون رب يونس، فادعوه، وتضرعوا إليه.

فخرجوا من القرية إلى الصحراء، وأخرجوا النساء والصبيان والبهائم، وفرقوا بين كل إنسان وولده، وبين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله تعالى مؤمنين به مصدقين. وارتفعت أصوات الرجال والنساء والصبيان، وخوار البهائم وأولادها، واختلطت الأصوات، وقربت منهم الحمرة والدخان، حتى غشي السواد سطوحهم، وبلغهم حرُّ النار. فلما عرف الله تعالى منهم صدق التوبة، رفع عنهم العذاب بعدما كان غشيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ يعني: لم يكن أهل قرية آمَنَتْ ﴿فَنَفَعَهَا إيمَانُهَا﴾ عند نزول العذاب ﴿إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ يعني: صدّقوا بالألسن والقلوب، عرف الله تعالى منهم الصدق، ﴿كَشَفْنَا عَنهُمْ﴾ يعني: رفعنا وصرفنا عنهم ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ يعني: عذاب الهون، ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ﴾ يعني: إلى منتهى آجالهم. وفي هذه الآية تخويف وتهديد لكفار مكة، ولجميع الكفار إلى يوم القيامة، أنهم إن لم يؤمنوا ينزل بهم العذاب، فلا ينفعهم إيمانهم عند نزول العذاب.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ يعني: وفّقهم لذلك وهداهم. ويقال: في الآية مضمر، ومعناه: ولو شاء ربك أن يؤمنوا، لآمنوا كلهم جميعاً. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ يعني: الكفار ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ويقال: هو عمه أبو طالب. ولها وجه آخر: ﴿ولو شاء ربك﴾ لأراهم علامة ليضطروا إلى الإيمان، كما فعل بقوم يونس، ولكن لم يفعل ذلك لأن الدنيا دار ابتلاء ومحنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ يعني: بإرادة الله تعالى وتوفيقه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ يعني: الكفر ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: يترك حلاوة الكفر في قلوب الذين لا يرغبون في الإيمان. ويقال: ﴿ويجعل الرجس﴾ يعني: الإثم. ويقال: ﴿الرجس﴾ يعني: العذاب. قرأ عاصم، في رواية أبي بكر: ﴿وَنَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ بالنون، وقرأ الباقون: بالياء. ثمّ أخبر أنه لا عذر لمن تخلّف عن الإيمان، لأنه قد بيّن العلامات.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ والأرض﴾ من الدلائل: من الشمس، والقمر، والنجوم، ﴿و﴾ ما في ﴿الأرض﴾، من الجبال، والبحار، والأشجار، والثمار، فاعتبروا به.

ثم قال حين لم يعتبروا به: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ﴾ يعني: ما تنفع العلامات، التي في السموات والأرض ﴿وَالنُّذُرُ﴾ يعني: الرسل ﴿عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يرغبون في الإيمان، ولا يطلبون الحق. وقال أبو العالية: لا تنفع الآيات والرسل ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ أي علم الله في سابق علمه أنهم لا يؤمنون. ويقال: ﴿عَنْ﴾ هُهنا صلة، ومعناه: وما تغني الآيات والنذر قوماً لا يؤمنون، يعني: علم الله في الأزل أنهم لا يؤمنون.

ثم خوّفهم فقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاّ مِثْلَ أيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: أن يصيبهم العذاب، مثل ما أصاب الأمم الخالية. ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ يعني: انتظروا العذاب ﴿إنّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. ويقال انتظروا لهلاكي، فإني معكم من المنتظرين لهلاكتكم.

قوله تعالى: ﴿ثُمّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ يعني: أنجيناهم من العذاب والهلاك، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معهم. انصرف هذا إلى قوله: ﴿مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ثُمّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ يعني: أنجيناهم من العذاب، ﴿والذين آمنوا﴾ يعني: أنجيناهم معهم. ومعناه: إذا جاءهم العذاب ينجي الله تعالى محمداً ﷺ، ومن آمن معه، كما أنجى سائر الرسل، والذين آمنوا معهم.

﴿كَذَلِكَ حقاً عَلَيْنَا﴾ يعني: هكذا واجب علينا ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب. قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿ثُمَّ نُنْجِي﴾ بجزم النون وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون: ﴿نُنَجِّي﴾

Marfat.com

بالنصب والتشديد. وكذلك في قوله ﴿نُنجِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ومعناها واحد: نجَّيته، وأنجيته.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ يعني: يا أهل مكة، وذلك حين دعوه إلى دين آبائهم، فقال: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي**﴾ الإسلام، وترجون أن أرجع إلى دينكم، وأترك هذا الدين فلا أفعل ذلك، وهو قوله: ﴿**فلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ من الآلهة، ويقال: معناه، إن كنتم في شك من ديني، فأنا مستيقن في دينكم ومعبودكم أنهما باطلان، ﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾. ﴿**وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهِ**﴾ يعني: أوحّده وأطيعه ﴿**الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**﴾ يعني: يميتكم عند انقضاء آجالكم ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ يعني: مع المؤمنين على دينهم، ولا أرجع عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ**﴾ يعني: إنَّ الله تعالى، قال لي في القرآن: أن أخلص عملك ودينك ﴿**لِلدِّينِ حَنِيفاً**﴾ يعني: استقم على التوحيد مخلصاً ﴿**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أو يقال: وأمرت أن أكون من المسلمين. إلى هٰهنا أمر النبي ﷺ أن يقول ذلك للكفار، وقد تمّ الكلام إلى هذا الموضع. ثم قال الله تعالى للنبي ﷺ بهذا أمرتك ﴿**وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**﴾ يعني: وأمرتك أن تخلص عملك ودينك ﴿للدين حنيفاً﴾ يعني: استقم على ذلك مستقيماً. والحنف في اللغة: هو الميل والإقبال على شيء لا يرجع عنه أبداً، لهذا سُمّيَ الرجل أحنف، إذا كان أصابع رجليه مائلاً بعضها إلى بعض.

ثمّ قال تعالى: ﴿**وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ يعني: لا تعبد غير الله ﴿**مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ**﴾ **يعني: ما لا ينفعك إن عبدته، ولا يضرك إن عصيته، وتركتَ عبادته،** ﴿**فَإِنْ فَعَلْتَ**﴾ **ذلك، يعني: فإن عبدت غير الله** ﴿**فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ **يعني: الضّارّين أنفسهم.**

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ**﴾ **يعني: إن يُصِبْكَ الله بشدة أو بلاء** ﴿**فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ**﴾، **يعني: لا دافع لذلك الضر إلا هو. يعني: لا تقدر الأصنام على دفع الضر عنك** ﴿**وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ**﴾ **يعني: إن يُصِبْكَ بسعة في الرزق وصحة في الجسم،** ﴿**فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ **يعني: لا مانع لعطائه.** ﴿**يُصِيبُ بِهِ**﴾ **يعني: بالفضل** ﴿**مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ **مَنْ كان أهلاً لذلك.** ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ**﴾ **لذنوب المؤمنين،** ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ **بهم.**

Marfat.com

فأعلم الله تعالى أنه كاشف الضر، ومعطي الفضل في الدنيا، وهو الغفور في الآخرة، للمؤمنين، الرحيم بقبول حسناتهم. قال الفقيه رضي الله عنه، **حدثنا محمد بن الفضل، قال:** حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا شيخ بصري عن الحسن، أنه قال: قال عامر بن قيس: ما أبالي ما أصابني من الدنيا وما فاتني منها، بعد ثلاث آيات ذكرهن الله تعالى في كتابه قوله: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أيُّها النّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ**﴾ **يعني**: محمداً ﷺ والقرآن، ﴿**فَمَنِ اهْتَدَى**﴾ **يعني**: من آمن بمحمد ﷺ والقرآن، ﴿**فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ**﴾ **يعني**: ومن كفر ولم يؤمن به، ﴿**فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ **يعني**: جنايته على نفسه، وإثم الضلالة على نفسه، ﴿**وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**﴾ **يعني**: لست عليكم بمسلط، وهذا قبل الأمر بالقتال.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ يعني: إن لم يصدقوك، فاعمل بما أنزل إليك من القرآن، ﴿**وَاصْبِرْ**﴾ على تكذيبهم، ﴿**حَتَّى يَحْكُمَ الله**﴾ **يعني**: يقضي الله تعالى بعذابهم في الدنيا وفي الآخرة، ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ **يعني**: أعدل العادلين. ويقال: ﴿**واصبر حتى يحكم الله**﴾ **يعني**: حتى يأمر الله تعالى المؤمنين بقتالهم. ويقال: ﴿**فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه**﴾ **يعني**: من اجتهد حتى اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ﴿**ومن ضل فإنما يضل عليها**﴾ **يعني**: ومن تغافل عن الحق حتى ضل فعقوبته عليها والله أعلى وأعلم، وصلى الله على سيدنا محمد.

Marfat.com

سورة هود

مكية، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿الر﴾ قال ابن عباس يعني: أنا الله أرى، ويقال: الألف الله آلاؤه، واللام لطفه، والراء ربوبيته. ﴿كِتَابٌ﴾ يعني: هذا الكتاب، وهو القرآن ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ من الباطل، فلم يوجد فيه عوج ولا تناقض. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ يعني: بيَّن أمره ونهيه. وقال الحسن: ﴿أحكمت آياته﴾ بالأمر والنهي، وفصلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب. وقال مجاهد: ﴿فصلت﴾ أي: فُسِّرت. وقال القتبي: ﴿أحكمت﴾، فلم تنسخ، ثم ﴿فُصِّلت﴾ بالحلال والحرام. ويقال: ﴿فصلت﴾ يعني: أنزلت شيئاً بعد شيء، فلم تنزل جملة. ﴿مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ يعني: أنزل جبريل على محمد ﷺ من عند الله تعالى قال: ﴿حكيم﴾ في أمره، ﴿خبير﴾ بالعباد وبأعمالهم، ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ الله﴾ يعني: نزل جبريل بالقرآن، وقد بيَّنَ فيه، ألا توحدوا ولا تطيعوا غير الله، ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ يعني: قل لهم يا محمد إنني لكم من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ يعني: مخوفاً من عذابه للكافرين، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة للمؤمنين. ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الذنوب ويقال: صلّوا لربكم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: وتوبوا إليه من الشرك والذنوب ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً﴾ يعني: يُعَيِّشْكُمْ في الدنيا عيشاً حسناً في خير وعافية، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى منتهى آجالكم. وقال القتبي: أصل الإمتاع الإطالة، يقال: حبل ماتع وقد متع النهار إذا طال. ﴿يمتعكم﴾ يعني: يُعَمِّركم، ويقال: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ يعني: يجعلكم راضين بما يعطيكم، ويقال: ويجعل حياتكم في الطاعة.

ثم قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾. يعني: يعطي في الآخرة كل ذي فضل في العمل في الدنيا فضله، والدرجات. وروى جويبر، عن الضحاك، قال: يؤت كل ذي عمل ثواب عمله[1] ـ وقال سعيد بن جبير، في قوله: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال: من عمل حسنة

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

كتبت له عشر حسنات، ومن عمل سيئة كتبت عليه سيئة واحدة، فإن لم يعاقب بها في الدنيا، أُخذ من العشرة واحدة، وبقيت له تسع حسنات، وهكذا قال ابن مسعود، ثم قال ابن مسعود: «هلك من غلب آحاده أعشاره».

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: قل لهم يا محمد: إني أخاف عليكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يعني: القحط. قال مقاتل: حبس الله تعالى عنهم القطر سبع سنين حتى أكلوا الموتى. ويقال: ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾، يعني: عذاب النار يوم القيامة. ويقال: ﴿إني أخاف﴾، يعني: أعلم، فيوضع الخوف موضع العلم، لأن فيه طرفاً من العلم.

ثم قال: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مصيركم في الآخرة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: هو قادر على بعثكم بعد الموت.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألا إنهم يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال الكلبي: يقول: يكتمون ما في صدورهم من العداوة ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعني: ليستروا ذلك منه ﴿ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يعني: يلبسون ثيابهم، يعني: حين يُغشي الرجل نفسه بثيابه، يعني: ما تحت ثيابه، و﴿يعلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من العداوة، ﴿ومَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم. قال الكلبي: نزلت في شأن أخنس بن شريق. وقال مقاتل: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ يعني: يلوون. وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن، نكسوا رؤوسهم على صدورهم، كراهية استماع القرآن، ﴿ليستخفوا منه﴾ يعني: من النبي ﷺ.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: أخفى ما يكون للإنسان إذا أسر في نفسه شيئاً، ويغطى بثوبه، فذلك أخفى ما يكون والله تعالى مطلع على ما في نفوسهم ﴿إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: ما في قلوب العباد من الخير والشر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا﴾ يعني: إلا الله القائم على رزقها. ويقال: الله ضامن لرزقها. ويقال: يرزقها الله حيث ما تَوَجَّهَتْ. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ يعني: ﴿يعلم مستقرها﴾ حيث تأوي بالليل، ﴿ومستودعها﴾ حيث تموت وتدفن. وروي عن عبد الله بن مسعود، قال: «مستقرها الأرحام، ومستودعها الأرض التي تموت فيها». وقال عبد الله: «إذا كان الرجل بأرض وقد دنا أجله عرضت له الحاجة، حتى إذا كان عند انقضاء أجله قبض. فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني». وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: المستقر الرحم، والمستودع الأصلاب. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: المستقر،

Marfat.com

والمستودع، وبيان كل شيء، ورزق كل دابة، مكتوب في اللوح المحفوظ، وهو خلق من درة بيضاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال ابن عباس: «يعني: من أيام الآخرة». وقال الحسن: «من أيام الدنيا» ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلق السموات والأرض، لأنه لم يكن تحته شيء سوى الماء.

قال الفقيه: حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عوف، قال: حدثنا فارس بن مردويه، قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا أبو مطيع، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: «بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين الماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، بِعُلُوِّهِ وقدرته يعلم ما أنتم فيه.»

وروى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، قال: «كان عرشه على الماء، فلمّا خلق الله تعالى السموات والأرض، قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفه تحت العرش وهو البحر المسجور، وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى، وهو مكتوب في الكتاب الأول، ويسمى اليم».

وعن سعيد بن جبير، قال: سئل ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: «على متن الريح». ويقال: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ يعني: فوق الماء كقولك: السماء فوق الأرض، لا أنه ملتزق بالماء.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ يعني: ليختبركم ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ أي أخلص عملاً، وأزهد في الدنيا. والاختبار من الله تعالى، هو إظهار ما يعلم من خلقه.

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ما هذا إلا كذب بين حتى يخبرنا أنه يكون البعث. قرأ حمزة والكسائي: ﴿سَاحِرٌ مبين﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿سحر مبين﴾ بغير ألف.

﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ

Marfat.com

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ يعني: سنين معلومة، يعني: إلى الوقت الذي جعل أجلهم. وقال القتبي: يعني: إلى حين توفته وفي قوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] إنما هو سبع سنين ﴿لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني: العذاب، على وجه الاستهزاء، ﴿ألا يَوْمَ يأْتِيهِمْ﴾ يعني: العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ يعني: ليس أحد يصرف العذاب عنهم، إذا نزل بهم في الدنيا وفي الآخرة. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ يعني: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أنه غير نازل بهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ﴾ يعني: أصبنا الإنسان ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾، يعني: نعمة وخيراً وعافية ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾ يعني: آيس من رحمة الله، كفور بنعم الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ يعني: أعطيناه خيراً وعافية وسعة في الرزق ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ يعني: فلا يشكر الله تعالى.

ذكر في الابتداء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ بنصب اللام بلفظ الواحد، لتقديم الفعل على الاسم، وفي الثاني: بضم اللام لأنه فعل جماعة ولم يذكر الاسم، وفي الثالث: ذكر بنصب اللام لأنه فعل الواحد. ويقول: ذهب السيئات عني ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ يعني: بطراً فرحاً بما أعطاه الله تعالى، وهو الطغيان في النعمة، ﴿فخور﴾ في نعم الله تعالى، ومتكبر على الناس.

ثم استثنى، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، وهم المؤمنون الذين صبروا على الطاعات والشدائد ليسوا كذلك، وليسوا من أهل هذه الصفة، إذا ابتلوا صبروا وإذا أعطوا شكروا ﴿وعملوا الصَّالِحَاتِ﴾ بينهم وبين ربهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم في الدنيا ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: ثواباً عظيماً في الجنة.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ وذلك أن كفار مكة. قالوا: كيف لا ينزل الله إليه ملكاً، أو يكون له كنز، وطلبوا منه بأن لا يعيب آلهتهم، فهمّ النبي ﷺ بأن يترك عيبها رجاء أن يتبعوه، فنزل: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من أمر الآلهة ﴿وَضَائِقٌ بِهِ

Marfat.com

صَدْرُكَ﴾ في البلاغ، ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ يعني: المال، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يُعِينُهُ ويُصَدِّقُهُ، فأمر بأن لا يترك تبليغ الرسالة بقولهم وقال: قل يا محمد، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ يعني: إنما عليك تبليغ الرسالة والتخويف. ﴿والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يعني: شهيد بأنك رسول الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني: أتقولون، و﴿أم﴾ صلة افتراء، يعني: اختلقه من تلقاء نفسه. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ يعني: مختلقات. قال الكلبي: يعني: بعشر سور مثله مثل سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة، ويونس. وهود، لأن العاشرة هي سورة هود. وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح، لأن سورة هود مكية، والبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة مدنيات، أُنزِلَتْ بعد سورة هود بمدة طويلة. ولكن معناه: ﴿فأتوا بعشر سور﴾ مثل سور القرآن، أي سورة كانت، ﴿مفتريات﴾ يعني: مختلقات إن كنتم تزعمون أن محمداً ﷺ يختلقه من ذات نفسه، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ﴾ يعني: استعينوا بآلهتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالتكم. فسكتوا ولم يجيبوا، فنزل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ يعني: فإن لم يجيبوك، خاطب النبي ﷺ بلفظ الجماعة، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] ويقال: أراد النبي ﷺ وأصحابه، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ يقال: فاعلموا يا أهل مكة، إنما أُنزل بعلم الله، يعني: أنزل جبريل هذا القرآن بإذن الله تعالى وبأمره. وقال القتبي: ﴿بعلم الله﴾ يعني: من علم الله، والباء مكان من.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: فاعلموا أن لا إله إلا هو، يعني: أن الله تعالى هو منزل الوحي، وليس أحد ينزل الوحي غيره ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يعني: مقرّين بأن الله أنزله على محمد ﷺ ويقال: مخلصون بالتوحيد ويقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا على وجه الأمر، يعني: أسلموا.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، ولا يريد به وجه الله تعالى. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ يعني: ثواب أعمالهم في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم شيء في الدنيا، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل القبلة. وقال الحسن: نزلت في المنافقين والكافرين.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ يعني: ثواب أعمالهم، لأنه لم يكن لوجه الله تعالى. ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وروى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صَارَتْ أُمَّتِي

Marfat.com

ثلاث فِرَقٍ: فِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى خَالِصاً، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى رِيَاءً، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ الله تَعالَى لِيُصِيبُوا بِهَا الدُّنْيَا. فَيَقُولُ الله تَعَالَى لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُ الله لِلدُّنْيَا: وَمَاذَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِكَ؟ فَيقُولُ: الدُّنْيَا. فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: لاَ جَرَمَ، وَلاَ يَنْفَعُكَ مَا جَمَعْتَ، وَلاَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ. وَيَقُولُ: انطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيَقُولُ لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُ الله رِيَاءً، مَاذَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِكَ؟ فَيَقُولُ: الرِّيَاءَ، فَيَقُولُ الله تَعَالَى: انطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيَقُولُ لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُ الله تَعَالَى خَالِصاً: مَاذَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِكَ؟ فَيَقُولُ أَنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، كُنْتُ أَعْبُدُكَ لِوَجْهِكَ وَذَاتِكَ. قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي، انطَلِقُوا بِهِ إِلَى الجَنَّةِ»[١].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ﴾ يعني: على بيان من ربه، وهو محمد ﷺ ﴿ويَتْلوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ يقول: يقرأ جبريل هذا القرآن على محمد ﷺ وهو ﴿شاهد منه﴾ يعني: من الله تعالى، وهذا قول ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم النخعي. ويقال: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ يعني: أن الله بيّن أمره ونبوته بدلائل أعطاها محمداً ﷺ، ﴿ويَتْلوهُ﴾ يعني: يقرأ القرآن جبريلُ على محمد ﷺ ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، أي: ملك أمين من الله تعالى، وهو جبريل. وقال شهر بن حوشب: «القرآن شاهد من الله تعالى»، ومعناه: يتلو القرآن، وهو شاهد من الله تعالى. وقال الحسن: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ يعني: لسان محمد ﷺ. وقال قتادة: لسانه شاهد منه. وكذلك قال عكرمة.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا أبو إسماعيل، قال: حدثنا صفوان بن صالح، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا الخليل، عن قتادة، عن عروة، عن محمد بن علي، قال: قلت لعليّ: إنَّ الناس يزعمون في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ أنك أنت التالي، قال: «وددت أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ﷺ». ويقال: الشاهد القرآن، ﴿ويتلوه﴾ يعني: بعده. ويقال: ﴿يتلوه﴾ يعني: يتبعه، كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢]. قال القتبي: هذا كلام على الاختصار ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه، كالذي يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم، كقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩] يعني: كمن هو بخلاف ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ يعني: جبريل قرأ التوراة على موسى عليه

(١) عزاه السيوطي: ٤/٤٠٧ ـ ٤٠٨ إلى البيهقي في الشعب.

Marfat.com

السلام من قبل أن يتلو القرآن على محمد ﷺ، وهذا قول الكلبي، ومقاتل. وقال عبدالله بن سلام: يتلو القرآن، وكان من قبله يتلو التوراة. والتأويل الأول أصح، لأن هذه السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم في بالمدينة. ويقال: هم الذين آمنوا بمكة من أهل الكتاب، حين قدموا من الحبشة.

ثم قال: ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ يعني: ﴿إماماً﴾ يُهتدى به ويعمل به، ﴿ورحمةً﴾، يعني: ونعمة من العذاب لمن آمن به، يعني: كتاب موسى عليه السلام ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن وهذا كقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧] يعني: بالقرآن.

ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ يعني: من يجحد بالقرآن ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يعني: مصيره. قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى، حتى بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ، لاَ يَهُودِيٌّ، وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لاَ يُؤْمِنُ بِي إِلاَّ دَخَلَ النَّارَ**»(١). فجعلت أقول وأتفكر: أين هذا في كتاب الله؟ حتى أتيت على هذه الآية، ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ قال: هي في أهل الملل كلها.

ثم قال: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ يعني: فلا تك في شك منه أن موعده النار. و﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: فلا تك في شك أن القرآن من الله تعالى، و﴿أنه الحق من ربك﴾ أي: الصدق من ربك، رداً لقولهم: إنه يقول ذلك من شيطان يلقيه إليه يقال له: الري.

- وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَمَعَهُ شَيْطَانٌ فَاغِرٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَعَانَنِي عَلَيْهِ وَأَسْلَمَ**»(٢). ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بالقرآن يعني أهل مكة بأنه من عند الله تعالى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) عزاه السيوطي ٤/٤١١ إلى ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة.

(٢) ساقط من النسخة: «ب». وهو من حديث عائشة أخرجه البيهقي ٢/١١٦ وابن خزيمة (٦٥٤).

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ يعني: ومن أشد في كفره ﴿ممن افترى﴾ يقول: ممن اختلق على الله كذباً، بأن معه شريكاً ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني: يساقون إلى ربهم يوم القيامة، ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ﴾ يعني الرسل: قد بلغناهم الرسالة ـ وقال الضحاك: ﴿ويقول الأشهاد﴾، يعني: الأنبياء[1] ـ. وقال قتادة، ومجاهد، ﴿ويقول الأشهاد﴾، يعني: الملائكة. وقال الأخفش: ﴿الأشهاد﴾ واحدها شاهد، مثل أصحاب وصاحب، ويقال: شهيد وأشهاد، مثل: شريف وأشراف.

قال الله تعالى: ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني: افتروا على الله عز وجل بأن معه شريكاً، وقال الله: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، يعني: عذابه وغضبه على المشركين.

ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يطلبون بملة الإسلام زيفاً وغِيراً، ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: ينكرون البعث.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لم يفوتوا، ولم يهربوا من عذاب الله تعالى حتى يجزيهم بأعمالهم الخبيثة، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: ما كان لهم من عذاب الله تعالى مانع يمنعهم من العذاب، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: الرؤساء يكون لهم العذاب بكفرهم، وبما أضلوا غيرهم، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ يعني: ما كانوا في العذاب ﴿يستطيعون السمع﴾ يعني: لا يقدرون أن يسمعوا ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ في النار شيئاً.

ويقال: ذلك التضعيف لهم، لأنهم كانوا لا يستطيعون الاستماع إلى محمد ﷺ، في الدنيا من بغضه، ﴿وما كانوا يبصرون﴾، أي: عمياً لا ينظرون إليه من بغضه. وقال الكلبي: ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ بما كانوا يستطيعون السمع والهدى، وبما كانوا لا يبصرون الهدى. ويقال: ما كانوا يستطيعون السمع، فلم يسمعوا، وكانوا يستطيعون أن يبصروا، فلم يبصروا. ويقال: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ يعني: لم يكن لهم سمع القلب، ﴿وما كانوا يبصرون﴾، أي لم يكن لهم بصر القلب. قرأ ابن كثير، وابن عامر ﴿يُضَعَّفُ لَهُمْ﴾ بتشديد العين بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿يُضَاعَفُ﴾ بالألف، ومعناهما واحد.

ثم بيّن أن ضرر ذلك يرجع إلى أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني: غبنوا حظ أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: وبطل عنهم ما كانوا يعملون ويعبدون من دون الله تعالى، فات عنهم ولا ينفعهم شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿لا جَرَمَ﴾ قال الكلبي: يعني حقاً. ويقال: نعم. ويقال: ﴿لا جرم﴾،

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

يعني: لا شك. ويقال: لا كذب. ويقال: ﴿لا جرم﴾، أي: بلى. وذكر عن الفراء أنه قال: ﴿لا جرم﴾، كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة حقاً، ﴿أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ يعني: الخاسرين. ويقال: الأخسر إذا قلت بالألف واللام، يكون بمعنى الخاسر، وإذا قلت: أخسر بغير الألف واللام، يكون أخسر من غيره.

ثم أخبر عن المؤمنين، وما أعدّ لهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى، ﴿وعملوا الصالحات﴾، يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، قال القتبي: يعني تواضعوا، والإخبات: التواضع. وقال مقاتل: ﴿وأخبتوا﴾ يقول أخلصوا، ويقال: يخشعون فرقاً من عذاب ربهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يعني: أهل الجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: دائمون، لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم ضرب مثل المؤمنين والكافرين فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: مثل المؤمن والكافر، مثل الذي يبصر الحق، ومثل الذي لا يبصر الحق: ﴿كَالأَعْمَى﴾ يعني: عن الإيمان، ولا يبصره، ﴿وَالأَصَمِّ﴾ عن الإيمان، ولا يسمعه، وهو الكافر، ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ وهو المؤمن. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ في الشبه؟ ويقال: معناه، مثل الفريقين كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، يعني: الذي لا يسمع من الذي لا يسمع ولا يبصر، هل يستوي بالذي يسمع ويبصر؟ ويقال معناه: كالأعمى والبصير، والأصم والسميع. وقال النبي ﷺ لكفار مكة: «هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ والأَصَمُّ وَالسَّمِيعُ؟» قالوا لا. قال: ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أنهما لا يستويان. قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ﴿أفلا تَذَكرُونَ﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون: ﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾ بالتشديد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، ﴿إنّي لكم﴾ بكسر الألف، ومعناه: قال لهم إنّي لكم نذير. وقرأ الباقون: بالنصب، ومعناه: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بالإنذار. وفي الآية تهديد لأهل مكة، ومعناه: واتل عليهم نبأ نوح، يعني: إن لم يتّعظوا بما ذكرت، فاتل عليهم خبر نوح.

Marfat.com

وروى أبو صالح، عن ابن عباس: «أن نوحاً أُوحي إليه وهو ابن أربعمائة وثمانون سنة، فدعا قومه مائة وعشرين سنة، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة، ومكث بعد هلاك قومه ثلاثمائة وخمسين سنة، فذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً»، وذكر عن وهب بن منبه، قال: «أوحى الله تعالى إلى نوح وهو ابن خمسين سنة ولبث فيما بينهم تسعمائة وخمسين سنة، فلما هلك قومه عاش بعدهم خمسين سنة، فتمام عمره ألف وخمسون سنة».

وقال عكرمة: «إنما سُمّي نوحاً لأنه كان ينوح على أهله ونفسه». ويقال: كان اسمه شاكراً، فمن كثرة نواحه على نفسه، سُمّيَ نوحاً، فدعا قومه إلى الله تعالى وقال لهم: ﴿إنّي لكم نذير مبين﴾ من العذاب. ويقال: ﴿مبين﴾ يعني: بيِّن بلغة تعرفونها ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إلاَّ الله﴾ يعني: ألا تطيعوا ولا توحّدوا إلا الله، ﴿إنّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: الغرق.

قال الله تعالى: ﴿فقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني: الأشرافُ من قومه ﴿مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشراً مِّثْلَنا﴾ يعني: آدمياً مثلنا، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ يعني: ما آمن بك ﴿إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ يعني: سفلتنا وضعفاؤنا ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. قال الكلبي: ظاهر الرأي، يعني: إنهم يعرفون الظاهر، فلا تمييز لهم. وقال مقاتل: يعني: أراذلنا أي سفلتنا وضعفاؤنا. وقال القتبي: ﴿أراذلنا﴾ يعني: شرارنا، وهو جمع أرذل. وقوله: ﴿بادي الرأي﴾، بغير همز، أي ظاهر الرأي، من بدا يبدو. وأما بالهمز، فيعني: أول الرأي، من قولك: بدأ يبدأ. قرأ أبو عمرو: ﴿بادىء الرأي﴾ بالهمز، وقرأ الباقون: على ضد ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي قوم نوح قالوا لنوح: ﴿ما نرى لكم علينا من فضل﴾ في مُلْكٍ ولا مال، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ يعني: نحسبكَ من الكاذبين. وقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة، ويقال: إنما أراد به نوحاً ومن آمن معه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ يعني: قال نوح لقومه ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي﴾ يعني: أخبروني إن كنت على دين ويقين من ربي وبيان، ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقول: أكرمني بالرّسالة والنّبوّة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: عميت عليكم هذه البينة. ويقال: عُميتم عن ذلك. يقال: عمي عليه هذا، إذا لم يفهم. ويقال: التبست عليكم هذه النعمة وهذه البينة التي هي من الله تعالى، فلم تبصروها ولم تعرفوها. قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بضم العين وتشديد الميم، على معنى فعل ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الباقون:

Marfat.com

بنصب العين والتخفيف، ومعناه واحد، يعني: فَخَفِيَتْ عليكم هذه النعمة والرحمة. واتفقوا في سورة القصص ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: ٦٦] بالنصب.

ثم قال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾؟ يعني: نعرِّفكموها وأنتم للنبوة كارهون؟ قال قتادة: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك. ـ ويقال: أفأريكموها يعني: أنفهمكموها ﴿وأنتم لها كارهون﴾ أي منكرون؟ ويقال: أنحملكموها، أي معرفتها[1] ـ ويقال: أنعلمكموها وأنتم تكذبونني ولا تناظرونني في ذلك.

ثم أخبرهم عن شفقته، وقلة طمعه في أموالهم، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ يعني: لا أطلب منكم على الإيمان أجراً، يعني: رزقاً ولا جعلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ يعني: ما ثوابي إلا على الله، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، لأنهم طلبوا منه أن يطرد مَنْ عنده من الفقراء والضعفاء، فقال ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾ فيجزيهم بأعمالهم. ويقال ﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ فيشكونني إلى الله تعالى إن لم أقبل منهم الإيمان وأطردهم، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ما أمرتكم به وما جئتكم به.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ يعني: لو طردتهم فيعذبني الله بذلك، فمن يمنعني من عذاب الله، إن طردتهم عن مجلسي؟ ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتَّعِظون ولا تفهمون أنَّ مَنْ آمن بالله لا يُطْرَدُ؟.

ثم قال: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ يعني: مفاتيح الله في الرزق، ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أن الله يهديكم أم لا. ويقال: ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، يعني: علم ما غاب عني، ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من الملائكة، ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني: تحتقر أعينكم من السفلة، ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ يعني: لا أقول إن الله تعالى لا يكرمهم بالإيمان، ولا يهدي من هو حقير في أعينكم، ولكن الله يهدي من يشاء.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

ثم قال: ﴿الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفسِهِمْ﴾ يعني: بما في قلوبهم من التصديق والمعرفة، ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: إن طردتهم فلم أقبل منهم الإيمان، بسبب احتقاركم إياهم ما لم أعلم ما في قلوبهم، كنت ظالماً على نفسي.

فعجز قومه عن جوابه، ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَد جَادَلْتَنَا﴾، قال مقاتل: يعني: ماريتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ يعني: مرآءنا. وقال الكلبي: دعوتنا فأكثرت دعاءنا. ويقال: وعظتنا فأكثرت موعظتنا. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يعنيَ: لا نقبل موعظتك، فأتنا بما تعدنا من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأن العذاب نازل بنا.

﴿قَالَ﴾ لهم نوح: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ الله إِنْ شَاءَ﴾ إن شاء يُعذبكم، وإن شاء يصرفه عنكم، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني: إن أراد أن يعذبكم لا تفوتون من عذابه.

ثم قال: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ يعني: دعائي وتحذيري ونصيحتي، ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ يعني: إن أردت أن أدعوكم من الشرك إلى التوحيد والتوبة والإيمان، ﴿إِن كَانَ الله يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ يعني: لا تنفعكم دعوتي، إن أراد الله أن يضلكم عن الهدى، ويترككم على الضلالة ويهلككم. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: هو أولى بكم. ويقال: هو ربكم رب واحد ليس له شريك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني: بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ قال مقاتل: هذا الخطاب لأهل مكة، معناه: أتقولون إن محمداً تقوله من ذات نفسه ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ﴾ من ذات نفسي ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ يعني: خطيئتي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ يعني من خطاياكم. وقال الكلبي: هذا الخطاب أيضاً لقوم نوح، يعني: قوم نوح ﴿أم يقولون افتراه﴾ يعني: اختلقه من ذات نفسه. فقال لهم نوح: ﴿إن افتريته فعليَّ إجرامي﴾ يعني: آثامي ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ يعني: مما تأثمون.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ قال الحسن: إن نوحاً عليه السلام لم يدع على قومه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إنّه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن﴾ فدعا عليهم عند ذلك ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر وذلك أن نوحاً ندم على دعائه، وجعل يبكي ويتأسف عليهم، فقال الله تعالى: ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: لا يحزنك إذا نزل بهم الغرق، بما كانوا يفعلون من الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ يقول: اعمل السفينة، ويقال للواحد وللجماعة: الفلك، ﴿باعيننا﴾ قال الكلبي: يعني: بمنظر منا، ﴿ووحينا﴾ يعني: بوحينا إليك.

Marfat.com

وقال مقاتل: يعني: بتعليمنا وأمرنا. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: فلا تراجعني في قومك، ولا تدعُني بصرف العذاب عنهم، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطوفان. ويقال: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾، يعني ابنه كنعان.

وقال عكرمة: كان طول سفينة نوح ثلاثمائة ذراع، وعمقُها في الماء ثلاثون ذراعاً، وعرضها خمسون ذراعاً. وقال الحسن: كان طول سفينة نوح ألف ومائتا ذراع، وعمقُها في الماء ثلاثون ذراعاً وعرضها ستمائة ذراع. - وقال ابن عباس: «كان طول سفينة نوح ثلاثمائة، وطولها في الماء ثلاثون ذراعاً، وعرضها خمسون ذراعاً»[1].

وقال القتبي: قرأت في التوراة: إن الله تعالى أوحى إلى نوح أن اصنع الفلك، وليكن طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً، وليكن بابها في عرضها. وادخل أنت في الفلك وامرأتك وبنوك ونساء بنيك ومن كل زوجين من الحيوان ذكراناً وإناثاً، فإني منزل المطر على الأرض، أربعين يوماً وأربعين ليلة، فأتلف كل شيء خلقته على الأرض. فأرسل الله تعالى ماء الطوفان على الأرض، في سنة ستمائة من عمر نوح عليه السلام، ولبث في الماء مائة وخمسين يوماً، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: مكث نوح ينجر السفينة مائة سنة، فلما فرغ من عملها أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من كل حيوان، فحمل فيها امرأته وبنيه ونساءهم، فركب فيها لسبع عشرة ليلة خلت من صفر، فمكث في الماء سبعة أشهر لم يقر لها قرار، فأرسيت على الجودي خمسة أشهر، فأرسل الغراب لينظر كم بقي من الماء، فمكث على جيفة، فغضب عليه نوح ولعنه، ثم أرسل الحمامة فوقعت في الماء، فبلغ الماء قدر حمرة رجليها، فجاءت فأرته، فبارك عليها نوح.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ يعني: ينحت السفينة. ويقال: إن الله تعالى أمره بأن يغرس الأشجار، فغرسها حتى أدركت، وقطعها حتى يبست، ثم اتخذ منها السفينة، فاستأجر أجراء ينحتون معه. ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يعني: الأشراف من قومه ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ يعني: استهزؤوا به، وكانوا يقولون: إن الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً، ومرة كانوا يقولون: أتجعل

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

للماء إكافاً فأين الماء. ﴿قَالَ﴾ لهم نوح ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ يعني: إن تسخروا منا اليوم، فإنا نسخر منكم بعد الهلاك، يعني: يصيبكم جزاء السخرية، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منا، يعني: بما تسخرون ويقال إن تستجهلوا بنا بهذا الفعل، فإنا نستجهلكم بترك الإيمان، كما تستجهلوننا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: تعرفون بعد هذا من أحق بالسخرية، وهذا وعيد لهم، ﴿فسوف تعلمون﴾ يعني: تعرفون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني: يهلكه ويذله ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يعني: ينزل عليه عذاب دائم، لا ينقطع عنه أبداً.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: قولنا بالعذاب، ويقال: حتماً إذا جاء عذابنا، وهو الغرق ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني: نبع الماء من أسفل التنور. وقال مقاتل: التنور الذي يخبز فيه في أقصى ديار بالشام ـ وقال ابن عباس: ﴿وفار التنور﴾ يعني: نبع الماء من وجه الأرض(١) ـ وقال علي بن أبي طالب: ﴿وفار التنور﴾ «يعني: طلوع الفجر، أي تنوُّر الصبح»، يعني: إذا طلع الفجر، كان وقت الهلاك. وروي عن عليّ رضي الله عنه أيضاً أنه قال: فار منه التنور وجرت منه السفينة، إلى مسجد بالكوفة ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ يعني: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: من كل صنفين ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني: واحمل أهلك فيها معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالغرق، يعني: سوى من قدرت عليه الشقاوة والكفر، فلا تحمله، يعني: امرأته الكافرة، وابنه كنعان، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ يعني: واحمل في السفينة من آمن معك.

قال الفقيه: أخبرني الثقة، بإسناده عن وهب بن منبه، قال: «أمر نوح بأن يحمل من كل زوجين اثنين، فقال: رب كيف أصنع بالأسد والبقرة؟ وكيف أصنع بالذئب والعناق؟ وكيف أصنع بالحمام والهرة؟ قال: يا نوح من ألقى بينهم العداوة؟ قال: أنت يا رب، قال: فإني أؤلف بينهم حتى يتراضوا».

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الماسرخسي، قال: حدثنا إسحاق، قال: حدثنا قبيصة بن عقبة، قال: حدثنا سفيان، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: «كثر الفار في السفينة، حتى خافوا على حبال السفينة، فأوحى الله تعالى إلى نوح، أن امسح عن جبهة الأسد فمسحها، فعطس، فخرج منها سنوران، فأكلا الفئران. وكثرت العذرة في السفينة، فشكوا إلى نوح، فأوحى الله تعالى إلى نوح: أن امسح ذنب الفيل، فمسحه فخرج خنزير، فأكل العذرة». وفي خبر آخر: «فخرج منه خنزيران فأكلا العذرة». قال الفقيه، أبو الليث رحمه الله: وفي خبر وهب بن منبه دليل أن الهرة كانت من قبل. وفي هذا الخبر أن الهرة لم تكن من قبل، والله أعلم بالصواب منهما.

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما فار الماء من التنور، فأرسل الله تعالى من السماء مطراً

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

شديداً، فأقبلت الوحوش حين أصابتها المطر إلى نوح، وسخِّرت له، فحمل في السفينة من كل طير زوجين، ومن كل دابة زوجين، ومن كل بهيمة زوجين، ومن كل سبع زوجين، يعني: الذكر والأنثى. فقال نوح: رب هذه الحية والعقرب، كيف أصنع بهما؟ فبعث الله تعالى جبريل، فقطع فقار العقرب، وضرب فم الحية. وكان نوح عليه السلام جعل للسفينة ثلاثة أبواب، بعضها أسفل من بعض، فجعل في الباب الأسفل: السباع والهوام، وجعل في الباب الأوسط: البهائم والوحوش، وجعل في الباب الأعلى: بني آدم من ذكر منهم»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: «هم ثمانون إنساناً»، وقال الأعمش في قوله: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ قال: كان نوح، وثلاثة بنين، ونساؤهم. وقال مقاتل: كانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة. قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿من كلٍّ﴾ بالتنوين، يعني: من كل شيء، ثُمَّ قال ﴿زوجين﴾ على وجه التفسير للكل، وقرأ الباقون: ﴿من كلِّ زوجين﴾ بغير تنوين، على معنى الإضافة.

﴿۞ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ يعني: ادخلوا في السفينة. ويقال: الجؤوا فيها من الغرق ﴿بسم الله مجراها﴾ يعني: إذا ركبتموها فقولوا: ﴿بِسْم الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾. قرأ حمزة والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿بسم اللهِ مَجْرِيهاَ﴾ بنصب الميم، وهكذا قرأ ابن مسعود، والأعمش. وقرأ الباقون: بضم الميم. واتفقوا في ﴿مُرْسَاهَا﴾، أنها بضم الميم، إلا أن حمزة، والكسائي قرآ بالإمالة. فأما من قرأها بضم الميم، فيكون بمعنى المصدر، ومعناه: يعني إجراؤها وإرساؤها بأمر الله تعالى، وهذا قول الفراء. ويقال: معناه بسم الله من حيث تجري وتحبس. ومن قرأ بالنصب فمعناه: بسم الله جريها وحبسها يعني: بأمر الله تعالى. ﴿إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ يعني: السفينة تجري بهم في أمواج ﴿كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقرأ بعضهم: ﴿ونادى ابنها﴾، يعني: ابن امرأته ولم يكن ابنه حقيقةً، وقرأ بعضهم: ﴿ونادى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ بضم الألف، وهي بلغة طيىء. ويقال: إنه لم يكن ابنه، ولكن كان ابن امرأته. وقراءة العامة: ﴿ونادى نوحٌ ابنه﴾ قالوا: ﴿وَكَانَ﴾ ابن نوح ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ يعني: في ناحية من السفينة، ويقال: من الجبل، ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ يعني: أسلمْ، واركب في السفينة معنا ﴿وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: لا تثبت على الكفر، وتتخلف مع الكافرين. قرأ عاصم: ﴿يَا بُنَيَّ اركب﴾ بنصب الياء قرأ الباقون ﴿يا بُنَيِّ اركب﴾ بالكسر. وقال أبو عبيدة:

Marfat.com

القراءة عندنا بالكسر، للإضافة إلى نفسه، كما اتفقوا في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ [يوسف: ٥] وفي لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ [لقمان: ١٦] وإنما فرق عاصم فيهما لمكان يرى الألف الحقيقية التي في قوله: ﴿اركب﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿قَالَ سَآوِي﴾ يعني: قال ابنه: سأصعد ﴿إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يعني: يمنعني من الغرق، ولا أؤمن، ولا أركب السفينة، ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ يقول: لا مانع اليوم من عذاب الله، أي الغرق، لا جبل ولا غيره ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ يعني: إلا من آمن، فعصمه تعالى.

ثم قال: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يعني: فرَّق بين كنعان وبين الجبل الموج، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا﴾، يعني: بين نوح وابنه الموج، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ يعني: فصار من المغرقين.

وروي عن ابن عباس: «أنه أمطرت السماء أربعين يوماً، وخرج ماء الأرض أربعين يوماً الليل والنهار، فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ * وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢] وارتفع الماء على كل جبل في الأرض، خمسة عشر ذراعاً. وروي عن الحسن أنه قال: «ارتفع الماء فوق كل جبل وكل شيء، ثلاثين ذراعاً. وسارت بهم السفينة، فطافت بهم الأرض كلها في خمسة أشهر، ما استقرت على شيء، حتى أتت الحرم فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعاً، ورفع البيت الذي بناه آدم إلى السماء السادسة، وهو البيت المعمور، وجعل الحجر الأسود على أبي قبيس. ويقال: أودع فيه، ثم ذهبت السفينة في الأرض حتى انتهت بهم إلى الجودي، وهو جبل بأرض الموصل، فاستقرت عليه بعد خمسة أشهر».

قال ابن عباس: «ركب نوح السفينة لعشر مضين من رجب، وخرج منها يوم عاشوراء، فذلك ستة أشهر، فلما استقرت على الجودي، كشف نوح الطبق الذي فيه الطير، فبعث الغراب ليأتيه بالخبر، فأبصر جيفة فوقع عليها، فأبطأ على نوح فلم يأته، ثم أرسل الحدأة على أثره، فأبطأت عليه، ثم أرسل بالحمامة فلم تجد في الأرض موضعاً، فجاءت بورق الزيتون، فعرف نوح أن الماء قد نقص، فظهرت الأشجار، ثم أرسلها فوقعت على الأرض، فغابت رجلاها في الطين فجاءت إلى نوح، فعرف أن الأرض قد ظهرت، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ معناه: ماءك الذي خرج منك ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ يعني: احبسي وامسكي ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ يعني: نقص الماء، وظهرت الجبال والأرض، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني: فرغ من الأمر،

Marfat.com

ومعناه: نجا من نجا وهلك من هلك ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾يعني: استقرت السفينة على الجودي.

وروي في الخبر: «أن الله تعالى أوحى إلى الجبال: أني أنزل السفينة على جبل، فتشامخت الجبال، وتواضع الجودي لله تعالى، فأرسيت عليه السفينة». وقال الحكيم: خرج قوس قزح بعد الطوفان أماناً لأهل الأرض من الغرق أن يغرقوا جميعاً ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾يعني: سحقاً ونكساً للقوم الكافرين، وهو البعد من رحمة الله.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾فإنك قد وعدتني أن تنجيهم من العذاب، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾يعني: أنت الصَّادق في وعدك، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين ﴿قَالَ﴾الله تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾الذي وعدتك أن أنجيهم. وروي عن الحسن أنه قال: «إنه تخلف، لأنه لم يكن ابن نوح».

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: كنت عند الحسن قال: ﴿ونادى نوح ابنه﴾فقال: لعمر الله ما هو ابنه، قلت: يا أبا سعيد، يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾وأنت تقول: هو ليس بابنه؟ قال: أفرأيت قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾الذي وعدتك أن أنجيهم، ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه. قال: إنَّ أهل الكتاب يكذبون.

وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: «أنه ابنه»، غير أنه خالفه في العمل. وقال بعض الحكماء: إن الابن إذا لم يفعل ما يفعل الأب انقطع عنه، والأمة إذا لم يفعلوا ما فعل نبيُّهم، أخاف أن ينقطعوا عنه.

ثمَّ قال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾قرأ الكسائي: ﴿إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ بكسر الميم ونصب الراء ﴿وغير صالح﴾بنصبِ الراء. وروت أمُّ سَلَمَةَ عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ هكذا، ومعناه: إن ابنك عمِلَ عَمَلَ المشركين، ولم يعمل عمل المؤمنين. وقرأ الباقون: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ﴾ بالتنوين والضم ﴿غير صالح﴾ بضمّ الراء، ومعناه: إنَّ سؤالك ودعاءك لابنك الكافر عَمَلٌ غير صالح، ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾يعني: بياناً. وقرأ أهل الكوفة: ﴿فلا تسألن﴾بتخفيف النون بغير ياء، لأن الكسر يقوم مقام الياء. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: رأيت في مصحف عثمان هكذا.

Marfat.com

وقرأ أبو عمرو: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾ بإثبات الياء بغير تشديد، وهو الأصل في اللغة. وقرأ ابن كثير: ﴿فَلا تَسْأَلَنَّ﴾ بنصب النون والتشديد بغير ياء، ويكون معناه: التأكيد في النهي. وقرأ ابن عامر، ونافع في رواية قالون: ﴿فلا تسألنِ﴾ بالكسر بغير ياء مع التشديد. وقرأ نافع في رواية ورش: ﴿فلا تسألنّي﴾ بالياء مع التشديد.

ثم قال: ﴿إِنّي أَعِظُكَ﴾ أي أنهاك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: ممَّن يترك أمري. ويقال: من المكذبين بقدرة الله تعالى وقضائه ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ﴾، يعني: اعتصم وامتنع بك ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني: احفظني بعد اليوم، لكيلا أسألك ما ليس به علم ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ يعني: إن لم تغفر لي، ولم ترحمني، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: أكن من المغبونين.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا﴾ يعني: انزل من السّفينة مسلَّماً من عذابنا وغرقنا. ويقال: بسلامي عليك، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ يعني: وسعادات ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني: الذين كانوا معه في السفينة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني: من كان من أهل الشّقاء سنمتّعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾ يعني: يَصِيبهم ﴿مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وقال مقاتل: اهبط من السفينة بسلام منا، فسلمه الله ومن معه من الغرق ﴿وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾. يعني بالبركة: أنهم توالدوا وكثروا ﴿وأمم سنمتعهم﴾، وهم قوم هود، وشعيب، ولوط.

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك وأُمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ قال: دخل في السلام والبركة، كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في المتاع والعذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. ويقال: إنهم لمّا خرجوا من السفينة، بنوا مدينة وسموها مدينة الثمانين، ويقال: ماتوا كلهم ولم يكن منهم نسل، إلا من أولاد نوح عليه السلام، وكان له ثلاثة بنين: سام، وحام، ويافث، سوى الذي غرق كما قال في موضع آخر: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني: ما سبق من ذكر نوح وقومه يعني: من أخبار الغيب، يعني: أحاديث ما غاب عنك، فكان في إخبار النبي ﷺ عن قصته دلالة نُبُوَّته، لأنه لا

Marfat.com

يُعْرَفُ ذلك إلاّ بالوحي. ﴿نُوحِيها إِلَيكَ﴾يعني: أخبار الغيب ينزل بها عليك جبريل. ﴿مَا كُنْتَ تَعلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذا﴾يعني: القرآن، ﴿فَاصْبِرْ﴾يعني: إن لم يصدِّقوك، فاصبر على تكذيبهم. ﴿إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾يعني: آخر الأمر للموحدين الذين يتقون الشرك والفواحش.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾يعني: أرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ﴾نبيُّهم ﴿هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾يعني: وحِّدوا الله، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾يعني: ليس لكم رب سواه، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾يعني: ما أنتم إلا تكذبون في مقالتكم بأن لله شريكاً.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾أي: لا أسألكم على الإيمان ﴿أَجْراً﴾يعني: جعلاً ورشوة. ومعناه: لست بطامع في أموالكم، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾يعني: ما ثوابي ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾يعني: خلقني ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾أن الذي خلقكم هو ربكم، وهو أحق بعبادتكم من غيره؟

ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾قال الضحاك: يعني: وحِّدوا ربكم. وقال الكلبي: يعني، صلُّوا لربكم. ويقال. معناه، قولوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾يعني: توبوا إليه من شرككم ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾يعني: إن تبتم يغفر لكم ذنوبكم، ويرسل عليكم المطر متتابعاً دائماً، كلما تحتاجون إليه، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾يعني: شدة مع شدتكم بالماء والولد. ويقال: صحة الجسم، وطول العمر. ﴿وَلا تَتَوَلَّوا مُجْرِمِينَ﴾يقول: لا تُعْرِضُوا كافرين. ويقال: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه من الإيمان والتوحيد، وتثبتوا على الشرك.

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

قال له قومه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾يقولون: لم تأتنا: بحجة وبيان ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾يقول: لا نترك عبادة آلهتنا بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾يعني: لا

Marfat.com

تصدقك بأنك رسول الله ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ﴾ يعني: ما نقول: إلا أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يعني: - اعتراك من بعض الأوثان الخبل والجنون، فاجتنبها سالماً. ويقال: أن نقول لك إلا نصيحة كيلا يصيبك بعض آلهتنا بشدّة(١) -. فردّ عليهم هود عليه السلام ف﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا﴾ أنتم ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأوثان ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ يعني: اعملوا بي أنتم وآلهتكم ما استطعتم، واحتالوا في هلاكي ﴿ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ أي لا تمهلون.

ثمّ قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ﴾ يعني: فوّضتُ أمري إلى الله، ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ يعني: خالقي وخالقكم، ورازقي ورازقكم، ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ يعني: هو قادر عليها يحييها ويميتها، وهو يرزقها، وهي في ملكه وسلطانه.

ثمّ قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: على الحقّ، فإن كان هو قادراً على كل شيء، فإنه لا يشاء إلا العدل. وقال مجاهد: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾، يعني: على الحق. ويقال: ﴿على صراط مستقيم﴾، يعني: بيده الهداية، وهو يهدي إلى صراط مستقيم، وهو دين الإسلام. ويقال: يدعوكم إلى طريق الإسلام. ويقال: معناه، أمرني ربي أن أدعوكم إلى صراط مستقيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: إنْ تتولوا، ومعناه: إن أعرضتم عن الإيمان، فلم تؤمنوا. وهذا كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. ثمّ قال: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: إن تتولوا، فأنا معذور لأني قد أبلغتكم الرسالة، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ إن شاء. ويقال: قد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم من التوحيد، ونزول العذاب في الدنيا. ﴿ويستخلف ربي﴾ بعد هلاككم ﴿قوماً غيركم﴾ يعني: خيراً منكم وأطوع لله تعالى. ﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ يعني: إن لم تؤمنوا به، فلا تنقصون من ملكه شيئاً. ويقال: إهلاككم لا ينقصه شيئاً ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يعني: حافظاً، لا يغيب عنه شيء. ويقال: معناه، حفظ كل شيء عليه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ا».

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا، وهو الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمنوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ يعني: بنعمة منا ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني: من العذاب الذي عذب به عاد في الدنيا، ومما يعذبون به في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: كذبوا بعذاب ربهم أنه غير نازل بهم، ومعناه: يا أهل مكة، انظروا إلى حالهم كيف عذبوا في الدنيا وفي الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا﴾ [النمل: ٥٢] فكذلك هٰهنا، ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ بَيَّنَ جرمهم، ثم بَيَّنَ عقوبتهم، فقال: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني: عاداً خاصة، ويقال: معناه كذبوا هوداً بما أخبرهم عن الرسل. وقيل: إنما جمع، لأن من كذَّب رسولاً واحداً فقد كذَّبَ جميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني: عملوا بقول كل جبار. ويقال: أخذوا بدين كل جبار. والجبار: الذي يضرب ويقتل عند الغضب، ﴿عنيد﴾ يعني: مُعرضاً ومجانباً عن الحق.

ثم بَيَّنَ عقوبتهم، فقال: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ يعني: أُلحقوا ﴿فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعني: العذاب والهلاك، وهو الريح العقيم. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة أُخرى، وهو عذاب النار إلى الأبد ﴿أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ فهذا تنبيه للكفار أنَّ عاداً كفروا ربّهم، فأهلكهم الله تعالى، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم ما أصابهم بكفرهم، ويقال: ﴿أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يعني: ينادي مناد يوم القيامة لإظهار حالهم: ﴿ألا إنَّ عاداً كفروا ربهم﴾ وقال الضحاك: ترفع لهم راية الغدر يوم القيامة، فينادي منادٍ يوم القيامة: هذه غدرة قوم عاد، فيلعنهم الملائكة وجميع الخلق، فذلك قوله تعالى: ﴿ألا بُعْداً﴾ يعني: خزياً وسحقاً ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ يعني: وأرسلنا إلى ثمود. وإنما لم ينصرف، لأنه إسم القبيلة، وفي الموضع الذي ينصرف جعله اسماً للقوم. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ أي: وَحِّدُوا الله، وأطيعوه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني: ليس لكم رب غيره ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ يعني: هو الذي خلقكم، ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: خلق آدم من أديم الأرض، وأنتم ولده، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني: أسكنكم وأنزلكم فيها، وأصله: أعمركم. يقال: أعمرته الدار إذا جعلتها له أبداً،

Marfat.com

وهي العُمْرَى. وقال مجاهد: ﴿واستعمركم﴾ يعني: أطال عمركم فيها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: توبوا من شرككم، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ يعني: قريباً ممن دعاه، مجيباً بالإجابة لمن دعاه من أهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ يعني: كنا نرجو أن ترجع إلى ديننا قبل أن تدعونا إلى دين غير دين آبائنا، ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يعني: يريبنا أمرك ودعاؤك إيانا إلى هذا الدين. ومعناه: إنا مريبون في أمرك.

﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، يقول: أخبروني إن كنت على بيان وحجة ودين أتاني من ربي، ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يقول: أكرمني الله تعالى بالإسلام والنبوة، أيجوز لي أن أترك أمره، ولا أدعوكم إلى الله، وإلى دينه؟ ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ يقول: فمن يمنعني من عذاب الله إن رجعت إلى دينكم، وتركت دين الله تعالى؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يقول ما تزيدونني في مقالتكم إلا بصيرة في خسارتكم. ويقال: معناه، فما تزيدونني غير تكذيب، لأن التكذيب سبب لخسارتهم. ويقال: معناه، فما تزيدونني إن تركت ما أوجب الله عليّ من الدعوة غير تخسير؛ لأن العذاب إذا نزل بي لا تقدرون على منعه عني.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ وروي عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إنَّ صَالِحاً، لمَّا دَعَا قَوْمَهُ إلى الإسلام كذَّبُوهُ، فَضَاقَ صَدْرُهُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أنْ يَأذَنَ لَهُ بِالخُرُوجِ مِنْ عِنْدِهِمْ، فَأذِنَ لَهُ فَخَرَجَ وَانْتَهَى إلى سَاحِلِ البَحْرِ، فإذا رَجُلٌ يَمْشِي عَلَى المَاءِ، فقالَ لَهُ صَالِحٌ: وَيْحَكَ مَنْ أنْتَ؟ فقالَ: أنا مِنْ عِبادِ اللَّهِ. قالَ: كُنْتُ في سَفِينَةٍ كَانَ قَوْمُهَا كَفَرَةً غَيْرِي، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعالَى وَنَجَّانِي مِنْهُم، فَخَرَجْتُ إلى جَزِيرَةٍ أتَعَبَّدُ هُنَاكَ. فَأَخْرُجُ أحْيَاناً وَأَطْلُبُ شَيْئاً مِنْ رِزْقِ اللَّهِ تَعالَى، ثُمَّ أرْجِعُ إلى مَكَانِي».

فَمَضَى صَالِحٌ، وَانْتَهَى إلى تَلٍّ عَظِيمٍ، فَرَأَى رَجُلاً يَتَعَبَّدُ هناك، فَانْتَهَى إلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ، فَقالَ لَهُ صَالِحٌ مَنْ أنْتَ؟ قال: كَانَتْ هاهُنَا قَرْيَةٌ، كانَ أهْلُهَا كُفَّاراً غَيْرِي،

Marfat.com

فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تعالى وَنَجَّانِي مِنهُم، فَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى هاهنا إلى أنْ أموتَ، وَقَدْ أَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِي شَجَرَةَ رُمَّانٍ، وَأَظْهَرَ لِي عَيْنَ ماءٍ، فآكُلُ مِنَ الرُّمَّانِ، وَأَشْرَبُ مِنْ ماءِ العَيْنِ، وَأَتَوَضّأُ مِنْهُ.

فَذَهَبَ صالحٌ، وَانْتَهَى إلى قَرْيَةٍ كانَ أَهْلُها كُفَّاراً كُلُّهُمْ، غَيْرَ أَخَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ يَعْمَلانِ عَمَلَ الخُوصِ» فَضَرَبَ النبي ﷺ: مثلاً قال: لَوْ أَنَّ مُؤْمِناً دَخَلَ قَرْيَةً فِيها أَلفُ رَجُلٍ، كُلُّهُمْ كُفَّارٌ وفِيهَا مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ، فلا يَسْكُنُ قَلْبُهُ مَعَ أَحَدٍ حَتَّى يَجِدَ المُؤْمِنَ. وَلَوْ أَنَّ مُنَافِقاً دَخَلَ قَرْيَةً فِيهَا أَلْفُ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٌ وَاحِدٌ، فلا يَسْكُنُ قَلْبُ المُنَافِقِ مَعَ أَحَدٍ ما لَمْ يَجِدِ المُنَافِقَ.

فَدَخَلَ صَالِحٌ، فانتهى إلى الأَخَوَيْنِ وَمَكَثَ عِندَهُمَا أياماً. وَسَأَلَهُمَا عَنْ حَالِهِمَا، فَأَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا يَصْبِرَانِ عَلَى إيذاءِ المُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُمَا يَعْمَلانِ عَمَلَ الخُوصِ، وَيُمْسِكَانِ قُوتَهُمَا، وَيَتَصَدَّقَانِ بِالفَضْلِ. فَقَالَ صَالِحٌ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَانِي في الأَرْضِ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى أَذى الكُفَّارِ، فأنا أَرْجِعُ إلى قَوْمِي وَأَصْبِرُ عَلَى أذاهُمْ. فَرَجَعَ إلَيْهِمْ وَقَدْ كانُوا خَرَجُوا إلى عِيدٍ لَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إلى الإيمانِ فَسَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ نَاقَةً مِنَ الصَّخْرَةِ، فَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى، فَأَخْرَجَ لَهُمْ ناقةً عُشَرَاءَ». فذلك قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي: علامة وعبرة، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ يعني: في أرض الحجر ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يعني: لا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾، يعني: يصيبكم ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

فولدت الناقة ولداً وكانت لهم بئر واحدة عذبة، قال ابن عباس: «كان للناقة شرب يوم لا يقربونها، ولهم شرب يوم وهي لا تحضره، وكانوا يستقون الماء في يومهم ما يكفيهم للغد فيقتسمونه فيما بينهم، فإذا كان يوم شربها كانت ترتع في الوادي، ثم تجيء إلى البئر فتبرك، فتدلي رأسها في البئر فتشرب منها، ثم تعود فترعى، ثم تعود إلى البئر فتشرب منها، فتفعل ذلك نهارها كله.

وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون. منهم: قذار بن سالف، ومصدع بن دهر، وكانت في تلك القرية امرأة جميلة غنية، وكانت تتأذى بالناقة لأجل سائمتها فقالت: مَنْ عقر الناقة أزوِّج نفسي منه. فخرج قذار بن سالف ومصدع بن دهر، وكمن لها مصدع في مضيق من ممرها، ورماها بسهم فأصاب رجلها. فَمَرَّتْ بقدار وهي تجر رجلها، فضربها بالسيف فعقرها، وقسموا لحمها على جميع أهل القرية. وكان في القرية تسعمائة أهل بيت، ويقال: ألف وخمسمائة»، فذلك قوله ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ يعني: عيشوا وانتفعوا في داركم، ﴿ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم يأتيكم العذاب، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فقالوا له: ما العلامة في ذلك؟ قال: أن تصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة، وفي اليوم الثاني محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، ثم خرج صالح من بينهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾

Marfat.com

يعني: بنعمة منا، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني: من عذاب يومئذ. قرأ نافع والكسائي: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ بنصب الميم، لأنها إضافة إلى اسم غير متمكن، فيجوز النصب. وقرأ الباقون: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾، بكسر الميم، على معنى الإضافة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أخبر الله تعالى محمداً ﷺ، أنه قادر في أخذه، المنيع ممن عصاه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ يعني: كفروا، صيحة جبريل. صاح صيحة، فماتوا كلهم، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يعني: صاروا خامدين ميتين، ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يعني: صاروا كأن لم يكونوا في الدنيا. ويقال: كأن لم ينزلوا في ديارهم، ولم يكونوا.

﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يعني: جحدوا وحدانية ربهم، فهذا تنبيه وتخويف لمن بعدهم ﴿أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾ يعني: خزياً وسحقاً لثمود في الهلاك. قرأ الكسائي: ﴿أَلاَ بُعْداً لِثَمُودٍ﴾ بكسر الدال مع التنوين، وجعله اسماً للقوم، فلذلك جعله منصرفاً. وقرأ الباقون بنصب الدال، لأنه اسم القبيلة. وإنما يجري في قوله: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُوداً﴾ اتباعاً للكتابة في مصحف الإمام، وأما الكسائي، فأجراه لقربه من قوله: ﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم﴾ أي جحدوا بوحدانية ربهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني: ببشارة الولد. وذلك أن مدينة يقال لها: سدوما، ويقال: سدوم، وكانت بلدة فيها من السعة والخير ما لم يكن في سائر البلدان، وكان الغرباء يحضرون من سائر البلدان في أيام الصيف، ويجمعون من فضل ثمارهم مما كان خارجاً من الكروم والحدائق. فجاء إبليس عليه اللعنةُ، فشبه نفسه بغلام أمرد، وجعل يدخل كرومهم وحدائقهم ويراودهم إلى نفسه، حتى أظهر فيهم الفاحشة. وجاء إلى نسائهم، وقال: إن الرجال قد استغنوا عنكن، فعلّمهنّ أن يستغنين عن الرجال، حتى استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء. فأوحى الله تعالى إلى لوط ليدعوهم إلى الإيمان ويمتنعوا عن الفواحش، فلم يمتنعوا. فبعث الله جبريل ومعه أحد عشر من الملائكة بإهلاكهم، فجاؤوا إلى إبراهيم كهيئة الغلمان، فدخلوا على إبراهيم، فنظر فرأى اثني عشر غلاماً أمرد، ويقال: كانوا

Marfat.com

ثلاثة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ويقال: كانوا أربعة، فسلموا عليه ﴿قَالُوا سَلاَماً قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلاَمٌ﴾ يعني: ردّ عليهم السلام.

قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، ﴿قالوا سلاماً قال سَلاَمٌ﴾ كلاهما سلام، إلا أن الأول صار نصباً، لوقوع الفعل عليه، والآخر رفعاً بالحكاية، ومعناه: قال: قولاً فيه سلام. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿قالوا سلاماً قال سِلْمٌ﴾ بكسر السين، وسكون اللام، يعني: أمري سلمٌ، ما أريد إلا السلامة. ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ يعني: فما مكث ﴿أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قال السُّدِيّ: الحنيذ السمين، كما قال في آية أُخرى: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] ويقال: ﴿حنيذ﴾ يعني: نضيج. ويقال: المشوي الذي يقطر منه الوَدَك. وقال أهل اللغة بأجمعهم: الحنيذ، المشوي بغير تنور، وهو أن يتخذ له في الأرض حنذاً، فيلقى فيه. قال مقاتل: إنما جائهم بعجل، لأنه كان أكثر ماله البقر، فلما قربه إليهم ووضع بين أيديهم كفوا ولم يأكلوا، ولم يتناولوا منه.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ يعني: إلى الطعام ولم يمدّوا أيديهم إلى الطعام ﴿نَكِرَهُمْ﴾ يقول: أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ يعني: وأضمر منهم خوفاً، حيث لم يأكلوا من طعامه، وظن أنهم لصوص. وذلك أنه في ذلك الزمان إذا لم يأكل أحد من طعام إنسان، يخاف عليه غائلته، ﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ بهلاكهم. وقال السدي: لما لم يأكلوا من الطعام، قال لهم إبراهيم عليه السلام: ما لكم لا تأكلون طعامي؟ قالوا: إنا قوم لا نأكل طعاماً إلا بثمن. فقال إبراهيم: إن لطعامي ثمناً، فأصيبوا منه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله عليه في أوله، وتحمدونه في آخره. فقال جبريل لميكائيل: حق لهذا أن يتخذه الله خليلاً.

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وفي الآية تقديم، يعني: بشرناها بإسحاق، فضحكت سروراً. ويقال: ضحكت تعجباً من خوف إبراهيم ورعدته في حشمه وخدمه، ولم يخف ولم يرتعد من نمرود الجبار حين قذفه في النار، وهذا قول القتبي. وقال عكرمه في قوله: ﴿فضحكت﴾ يعني: حاضت. يقال: ضحكت الأرنب، إذا حاضت. وغيره من المفسرين جعلها الضحك بعينه، وكذلك هو في التوراة. قرأت فيها أنها حين بشرت بالغلام، ضحكت في نفسها، وقالت: من بعد ما بليت أعود شابة؟ وقال قتادة: ضحكت من أمر القوم وغفلتهم، وجبريل جاءهم بالعذاب، يعني: قوم لوط ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قال الشعبي: «الوراء، ولد الولد». وروى حبيب بن أبي ثابت، أن رجلاً دخل على ابن عباس ومعه ابن ابنه، فقال له: من هذا؟ فقال ابن ابني. فقال: ابنك من وراء، فوجد الرجل في نفسه، فقرأ ابن عباس: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وقال مقاتل: يعني: ومن بعد إسحق يعقوب. وقال أبو عبيدة: الوراء ولد الولد.

Marfat.com

وقرأ ابن عامر، وحمزة، وعاصم في رواية حفص ﴿يعقوبَ﴾، بنصب الباء، وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ بالضم، فهو على معنى الابتداء، يعني: ويكون من وراء إسحاق، يَعْقُوبُ. ومن قرأ بالنصب، فهو عطف على قوله: ﴿بإسحاق﴾ فيكون في موضع خفض، إلا أنه لا ينصرف.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ يعني: عقيماً لم ألد قط، وقد كبرت في السن، ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ قال الكلبي: كانت سارة ابنة ثمان وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة، أكبر منها بسنة. وقال الضحاك: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، وسارة بنت تسع وتسعين سنة، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: لأمر عجيب ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني: من قدرة الله ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: نعمته وسعادته عليكم، ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعني: يا أهل البيت. ويقال: ﴿أتعجبين﴾ أي: ألا تعلمين أن رحمة الله وبركاته عليكم أن يستخرج الأنبياء كلهم من هذا البيت؟ وقال السدي: أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً، فدلكه بين أصبعيه، فإذا هو شجرة تهتز، فعرفت أنه من الله تعالى. ثم قال ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ في فعاله، ويقال: حميد لأعمالكم، ﴿مَجِيدٌ﴾ يعني: شريفاً.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ يعني: الفزع من الرسل ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يعني: يخاصم ويتشفع في قوم لوط. وكان لوط ابن أخيه، وهو لوط بن هازر بن آزر، وإبراهيم بن آزر، ويقال: ابن عمه، وسارة كانت أخت لوط. فلما سمعا بهلاك قوم لوط، اغتما لأجل لوط. وروى معمر، عن قتادة في قوله: ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ قال لهم: أرأيتم لو كان فيهم من المسلمين خمسون، أتعذبونهم؟ قالوا: لا نعذبهم. قال: أربعون؟ قالوا: ولا أربعون. قال: ثلاثون؟ قالوا ولا ثلاثون، حتى بلغوا عشرة. قال مقاتل: فما زال ينقص خمسة خمسة، حتى انتهى إلى خمسه أبيات، يعني: لو كان فيها خسمة أبيات من المسلمين لم يعذبهم.

ثم قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ الأواه: الذي إذا ذكر الله تعالى تأوه. ﴿منيب﴾: أي راجع إليه بالتوبة.

وقد ذكرناه في سورة التوبة. ثم قال جبريل ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني: اترك جدالك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذاب ربك ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يعني: غير مصروف عنهم.

ثم خرجوا من عند إبراهيم، متوجهين إلى قوم لوط، فانتهوا إليهم نصف النهار، فإذا هم

Marfat.com

بجواري يستقين من الماء، فأبصرتهم ابنة الوط وهي تستقي الماء، فقالت لهم: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟ قالوا أقبلنا من مكان كذا، ونريد مكان كذا. فأخبرتهم عن حال أهل المدينة وخبثهم، فأظهروا الغم وقالوا: هل أحد يضيفنا؟ قالت: ليس فيها أحديضيفكم إلا ذلك الشيخ، فأشارت إلى أبيها لوط وهو على بابه. فأتوا لوطاً فلا رآهم وهيئتهم، ساءه ذلك، فذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ يقول: ساءه مجيئهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ يعني: صدره اغتماماً، ومخافة عليهم، لا يدري أيأمرهم بالرجوع أم بالنزول؟ ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يعني: شديد. ثم قال لامرأته: ويحك، قومي واخبزي ولا تعلمي أحداً. وكانت امرأته كافرة منافقة، فانطلقت تطلب بعض حاجاتها، وجعلت لا تدخل على أحد إلا أعلمته، وتقول: إن عندنا قوماً من هيئتهم كذا وكذا. فلما علموا بذلك، جاؤوا إلى باب لوط عليه السلام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني: يسرعون إليه، وهو مشيء بين المشيتين، ويقال: يدفعون إليه دفعاً، ويقال يشتدون إليه شداً، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني: من قبل أن يبعث إليهم لوط، ويقال: من قبل إتيان الرسل، كانوا يعملون الفواحش، وهي اللواطة والكفر، فلما أرادوا الدخول، ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿يا قَوْمِ هَوْلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي: أحل لكم من ذلك، وكان لوط يناظرهم، ويقول: هن أطهر لكم، وكان جبريل مع أحد عشر من الملائكة، وكسروا الباب، فضرب أعينهم.

قال الضحاك: ﴿هؤلاء بناتي﴾ عرض عليهم بنات قومه. وقال قتادة: أمرهم لوط أن يتزوجوا النساء، وقال: ﴿هن أطهر لكم﴾ ولم يعرض عليهم بناته. وروى سفيان عن ليث، عن مجاهد، قال: لم يكنَّ بناته، ولكن كُنَّ من أمته، وكل نبي هو أب أمته. وروي عن ابن مسعود، أنه كان يقرأ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وهو أب لهم، وهي قراءة أبي بن

Marfat.com

كعب. وهكذا قال سعيد بن جبير: إنه أراد بنات أمته. ويقال: إن رؤساءهم كانوا خطبوا بناته وكان يأبى، فقال لهم: إني أزوجكم بناتي، هنّ أطهر لكم من الحرام، وكان النكاح بين الكافر والمسلم جائزاً.

ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ يقول: لا تفضحوني في أضيافي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يعني: مرشداً صالحاً يزجركم عن هذا الأمر. ويقال: رجل عاقل، ويقال: رجل على الحق يستحي مني. ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ يعني: من حاجة، يقولون: ما لنا في النساء من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الأضياف فـ﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ يعني: منعة بالولد ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أي: أرجع إلى عشيرة كبيرة، يعني: لو كانت لي عشيرة ومنعة لمنعتكم مما تريدون.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللَّهُ أخي لُوطاً لَقَدْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»(١) يعني: إن الله تعالى ناصره. وروى عكرمة، عن ابن عباس، قال: «ما بعث الله نبياً بعد لوط، إلا في منعةٍ من قومه وعزّ». ويقال: لما أرادوا الدخول، وضع جبريل يده على الباب فلم يقدروا على فتحه، فكسروا الباب ودخلوا، فامتلأت داره، فمسح جبريل جناحه على وجوههم فذهبت أعينهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] فرجعوا وقالوا: يا لوط جئت بالسحرة حتى طمسوا أعيننا، والله لنهلكنك غداً. فلما سمع لوط تهديدهم إياه، ساءه صنيع القوم وخاف، فلمّا رأى جبريل ما دخله ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ يعني: لن يقدروا أن يصنعوا بك شيئاً، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ يعني: سر وادلج بأملك ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾. قال الكلبي: القطع من الليل، آخر السحر، وقد بقيت منه قطعة. وقال السدي: سألت أعرابياً عن قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال: ربع الليل ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني: لا يتخلف منكم أحد ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب، ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾.

قرأ ابن كثير، ونافع: ﴿فاسر﴾ بجزم الألف، وقرأ الباقون: ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الألف ومعناهما واحد، يقال: سريت وأسريت، إذا سرت بالليل. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿إلاَّ امرأتُكَ﴾ بضم التاء، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب، انصرف إلى الإسراء، يعني: أسر بأهلك إلا امرأتَكَ، على معنى الاستثناء؛ وفي قراءة ابن مسعود: فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتَكَ. ومن قرأ بالضم، فهو ظاهر، يعني: أنها تتخلف مع الهالكين.

وقال لوط لجبريل عليه السلام: إن أبواب المدينة قد أُغلقت، فجمع لوط أهله وابنتيه ريثا وزغورا، فحمل جبريل لوطاً وابنتيه وماله على جناحه إلى مدينة زُغر، وهي إحدى مدائن لوط،

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٣٣٧٥) و(٣٣٨٧) و(٦٩٩٢) ومسلم (١٥١) (٢٣٨) وأحمد: ٢/ ٣٢٢ والترمذي (٣١١٦).

Marfat.com

وهي خمس مدائن، وهي على أربعة فراسخ من سدوما، ولم يكونوا على مثل عملهم. فقال له جبريل ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ يعني: وقت هلاكهم وقت الصبح. فقال لوط: يا جبريل، الآن عجل هلاكهم. فقال له جبريل: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فلما كان وقت الصبح، أدخل جبريل جناحه تحت أرض المدائن الأربعة، فاقتلعها من الماء الأسود، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديك. ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ .

قال وهب بن منبه: لما رفعت إلى السماء، أمطر الله عليهم حجارة الكبريت والنار، ثم قلبت. وقال مقاتل: أمطر على أهلها من كان خارجاً من المدائن الأربعة، حجارة ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني: من طين مطبوخ، كما يطبخ الآجر، ﴿مَنْضُودٍ﴾ يعني: متتابعاً بعضه على أثر بعض. وقال مجاهد: ﴿سجيل﴾ بالفارسية: سنج وجك، كقوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] وروي عن ابن عباس، في بعض الروايات، قال: «سنك وكل». وقال أبو عبيدة: السجيل: الشديد، ﴿منضود﴾ أي ملتزق بالحجارة. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ قال الفراء: مخططة بالحمرة والسواد. وقال أبو عبيدة: ﴿مسومة﴾ ، أي: معلمة. ويقال: مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يصيبه. ويقال: مختّمة. وقال وكيع: رفع إلي حجر من تلك الحجارة المختمة بطرسوس.

ثم قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني: من قوم لوط عليه السلام ويقال: هذا تهديد لأهل مكة، وغيرهم من المشركين. فقال: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ لكيلا يعملوا مثل عملهم. ويقال: ما هن من الظالمين ببعيد. قريات لوط ليست ببعيدة من أهل مكة، فأمرهم بأن يعتبروا بها. وقال الزجاج: ﴿سجيل﴾ ، يعني: ما كتب لهم أن يعذبوا به. ويقال: ﴿سجيل﴾ من سجّلته، يعني: أرسلته، ومعناه: حجارة مرسلة عليهم، ويقال: كثيرة شديدة.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ يعني: وأرسلنا إلى مدين أخاهم ﴿شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: وحدوا الله وأطيعوه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني: ليس لكم رب سواه، ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ في البيع والشراء، ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يعني: بسعة في المال والنعمة، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ يعني: إن لم ترجعوا عن نقصان المكيال

Marfat.com

والميزان، تزول عنكم النعمة والسعة، ويصيبكم القحط والشدة وعذاب الآخرة. وقال مجاهد: ﴿إني أراكم بخير﴾ يعني: برخص السعر.

﴿وَيَا قوم أوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، يعني: أتموا الكيل والوزن ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يقول: بالعدل ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني: لا تنقصوا الناس حقوقهم ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تسعوا في الأرض بالفساد والمعاصي، ونقصان الكيل والوزن. وقال سعيد بن المسيب: إذا أتيت أرضاً يوفون المكيال والميزان فأطل المقام بها، وإذا أتيت أرضاً ينقصون المكيال والميزان، فأقلَّ المقام بها. وقال عكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار، قيل له: فمن وفى الكيل والوزن؟ قال: ليس رجل في المدينة يكيل كما يكتال، ولا يزن كما يوزن، والله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

ثم قال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: «ما أبقى الله لكم من الحلال، خير لكم من الحرام» ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين، فصدقوني فيما أقول لكم ويقال: ثواب الله خير لكم في الآخرة. وقال مجاهد: ﴿بقية الله خير لكم﴾ يعني: طاعة الله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ خير لكم ويقال: ثواب الله خير لكم في الآخرة. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يعني: رقيباً ووكيلاً، وإنما عليَّ البلاغ.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

قوله: ﴿قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ يعني: قال له قومه. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿أصلاتُكَ﴾ بلفظ الوحدان يعني: أقراءتك، ويقال: أدعاؤك يأمرك. وقرأ الباقون: ﴿أَصَلَوَاتُكَ﴾ بلفظ الجماعة، يعني: أكثرة صلواتك تأمرك ﴿أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤنا﴾ وكان شعيب كثير الصلاة، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشاءُ﴾ من نقصان الكيل والوزن؟ ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يعني: السفيه الضّال استهزاء منهم به.

﴿قَالَ﴾ شعيبُ ﴿يا قَوْم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يعني: على دين وطاعة وبيان وأتاني رحمة من ربي، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ يعني: بعثني بالرسالة فهداني لدينه، ووسّع عليّ من رزقه. وقال الزجاج: جواب الشرط ههنا متروك، والمعنى: إن كنت على بينة من ربي، أتبع الضلال، فترك الجواب لعلم المخاطبين بالمعنى.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعني: لا أنهاكم عن شيء، وأعمل ذلك العمل، من نقصان الكيل والوزن. ويقال: ومعناه، أختار لكم ما أختار لنفسي نصيحة لكم وشفقة عليكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ﴾ يقول: ما أريد إلا العدل ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ يعني: ما قدرت، يعني: لا أترك جهدي في بيان ما فيه مصلحة لكم.

ثم قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ يعني: وما تركي هذه الأشياء ودعوتي لكم ﴿إلا بالله﴾ أي إلا بتوفيق الله وبأمره، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني: وثقت به ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أقبل إليه وأدعو الله بالطاعة.

ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَيَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يعني: لا يحملنكم بغضي وعداوتي، أن لا تتوبوا إلى ربكم، ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ يعني: يقع بكم العذاب، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ يعني: مثل عذاب قوم نوح بالغرق، ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريح، ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ بالصيحة، فإن طال عهدكم بهم، فاعتبروا بمن أقرب منكم، وهم قوم لوط، فقال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يعني: كان هلاكهم قريباً منكم، ولا يخفى عليكم أمرهم.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: وتوبوا إلى الله، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بعباده، ﴿وَدُودٌ﴾ يعني: يتودد إلى أوليائه بالمغفرة، ويقال: محبٌ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ يعني: لا نعقل ما تدعونا إليه من التوحيد، ومن وفاء الكيل والوزن، يعنون: إنك تدعونا إلى شيء، خلاف ما كنا عليه، وخلاف ما كان عليه آباؤنا، ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ يعني: ومع ذلك أنت ضعيف العين عنا. وقال مقاتل: يعني: ذليلاً لا قوة لك، ولا حيلة. وقال الكلبي: يعني: ضرير البصر. ويقال: إنه ذهب بصره من كثرة بكائه من خشية الله تعالى، ويقال: وحيداً لم يوافقك من عظمائنا أحد. ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ يعني: لولا عشيرتك لقتلناك، لأنهم كانوا يقتلون رجماً. وقال القتبي: أصل الرجم: الرمي، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] ثم قد يستعار ويوضع موضع الشتم إذ الشتم رَمْيٌ، كقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] يعني: لأشتمنك. ويوضع موضع الظن، كقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] أي ظناً.

والرجم أيضاً: الطرد واللعن، وقيل للشيطان رجيم، لأنه طريد يرجم بالكواكب. وقد يوضع الرجم موضع القتل، لأنهم كانوا يقتلون بالرجم. ولأن ابن آدم قتل أخاه بالحجارة، - فلما كان أوّل القتل رجماً، سمّي القتل رجماً وإن لم يكن القتل بالحجارة[1] -.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

/

Marfat.com

ثم قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ يعني: بكريم، ويقال: بعظيم، أي لا خطر لك عندنا لولا حرمة عشيرتك. ويقال: ما قتلك علينا بشديد.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

ثم ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: حرمة قرابتي أعظم عندكم من حرمة الله تعالى؟ ويقال: خوفكم من عقوبة قرابتي أكبر عندكم من خوف الله. ويقال: عشيرتي أعظم عليكم من كتاب الله تعالى، ومن أمره ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ يقول: تركتم أمر الله خلف ظهوركم، وتعظمون أمر رهطي، وتتركون تعظيم الله تعالى، ولا تخافونه؟ وهذا قول الفراء. وقال الزجاج: معناه، اتخذتم أمر الله ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي: نبذتموه وراء ظهوركم - والعرب تقول لكل من لا يُعبأ بأمره: قد جعل فلان هذا الأمر بظهره. وقال الأخفش: ﴿وراءكم ظهرياً﴾ يقول: لم تلتفتوا إليه[1] -. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني: عالماً بأعمالكم، من نقصان الكيل والوزن وغيره. والإحاطة: إدراك الشيء بكماله.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: اعملوا في هلاكي وفي أمري، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ في أمركم ومكانتكم، والمكانة والمكان بمعنى واحد.

ثم قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذا وعيد لهم، ستعلمون من هو كاذب، ويقال: ﴿مَنْ يأتيه عذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني: يهلكه ويهينه، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني: ستعلمون من هو كاذب. ويقال معناه: من يأتيه عذاب يخزيه، ويخزي أمره، من هو كاذب على الله بأن معه شريكاً، ﴿وارْتَقِبوا﴾ يعني: انتظروا بي العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ يعني: منتظر بكم العذاب في الدنيا.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا، وذلك: أنه أصابهم حر شديد، فخرجوا إلى غيضة لهم، فدخلوا فيها، فظهرت لهم سحابة كهيئة الظلة، فأحدقت بالأشجار، وأشعلت فيها النار، وصاح فيهم جبريل صيحة، فماتوا كلهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وذلك قوله: ﴿ولما جاء أمرنا﴾ يعني: عذابنا ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا معهُ برَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة جبريل ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ يعني: صاروا في مواضعهم ميتين لا يتحركون.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يعني: كأن لم يعمروا ولم يكونوا فيها، ﴿أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ﴾ يعني: بعدوا من رحمة الله، ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ من رحمته. وروى أبو صالح، عن ابن عباس، قال: «لم تعذب أمتان بعذاب واحد، إلا قوم شعيب بن ذُويب وصالح بن كانوا، صاح بهم جبريل فأهلكهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع، ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: حجة بينة، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يعني: قومه، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: أطاعوا قول فرعون وقومه. وطاعتهم حين قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩] فأطاعوه في ذلك حين قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فأطاعوه وتركوا أمر موسى عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ يعني: ما قول فرعون بصواب.

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: يتقدم أمام قومه يوم القيامة وهم خلفه، كما كانوا يتبعونه في الدنيا، ويقودهم إلي النار، ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ يقول: أدخلهم النار، ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ يقول: بئس المدخل المدخول، يعني: بئس المصير الذي صاروا إليه.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ يعني: جعل عليهم اللعنة في الدنيا، وهو الغرق، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة أُخرى وهي النار، ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ يعني: اللعنة على أثر اللعنة، ومعناه: بئس الغرق وزفرة النار، ترادفت عليهم اللعنتان: لعنة الدنيا الغرق، ولعنة الآخرة النار. وقال القتبي: ﴿بئس الرفد المرفود﴾ يعني: بئس العطاء المعطى، يقال: رفدته أي: أعطيته، وقال الزجاج: كل شيء جعلته عوناً لشيء، وأسندت به شيئاً فقد رفدته. وقال قتادة في قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ يعني يمضي بين أيديهم، حتى يهجم بهم على النار. وفي قوله: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال: وزيدوا بها اللعنة في الآخرة، على اللعنة في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ يعني: هذا الذي وصفت لك وقصصت عليك من أخبار الأمم، والقرون الماضية، ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ يعني: ينزل جبريل، ليقرأ عليك ليكون فيها دليل نبوتك، ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ يعني: من تلك القرى قائم، ومنها ما هو حصيد. والقائم،

Marfat.com

يعني: الظاهر ينظر إليه الناظر، والحصيد: يعني، خرب وهلك أصحابه. ويقال: القائم على بنيانه، والحصيد ما خرب. وقال قتادة: ﴿منها قائم﴾ يعني: خاوية على عروشها ﴿وحصيد﴾، يعني: مستأصلة. وقال الضحاك: ﴿منها قائم﴾ يعني: مدينة عاد هلكوا، وبقيت مساكنهم، ﴿وحصيد﴾ يعني: مدائن قوم لوط، حصدت: أي قلعت من الأرض السفلى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ يعني: لم نعذبهم بغير ذنب، ﴿وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: أضروا بأنفسهم حيث أكلوا رزق الله، وعبدوا غيره، وكذبوا رسله، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ يعني: ما نفعتهم عبادة آلهتهم، ﴿الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إنما سماهم آلهة على وجه المجاز، يعني: آلهتهم بزعمهم، ولم يكونوا آلهة في الحقيقة. ومعناه: أصنامهم لا تقدر أن تمنعهم من عذاب الله من شيء، ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني: حين جاء عذاب ربك، وقال القتبي: إذا رأيت لِلَمَّا جواباً فهو بمعنى حين، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] يعني: حين أغضبونا، وكقوله: ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني: حين جاء أمر ربك، يعني: عذاب ربك، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يعني: غير تخسير، كقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] أي خسرت.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخذُ رَبِّكَ﴾ يعني: هكذا عقوبة ربك، ﴿إِذَا أَخَذَ القُرَى﴾ يعني: إذا عاقب القرى، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ يعني: أهلها كفار جاحدون بوحدانية الله تعالى. قرأ عاصم الجحدري: ﴿إِذْ أَخَذَ﴾، بألف واحدة، لأن إذ تستعمل للماضي، وإذا تستعمل للمستقبل، وهذه حكاية عن الماضي، يعني: حين أخذ ربك القرى. وهي قراءة شاذة، وقراءة العامة: ﴿إِذَا أَخَذَ﴾ بألفين، ومعناه: هكذا أخذ ربك، متى أخذ القرى.

ثم قال: ﴿إِنَّ أَخذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: عقوبته مؤلمة شديدة. وروى أبو موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[1].

(١) حديث أبي موسى: أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) والترمذي (٣١١٠) وابن ماجه (٤٠١٨) والبيهقي. ٦/٩٦ والبغوي (٤١٦٢).

Marfat.com

ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في الذي أخبرتك عن الأمم الخالية لعبرة، ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ويقال: في عذابهم موعظة وعبرة بالغة لمن آمن بالله واليوم الآخر. ويقال: فيه عبرة لمن أيقن بالنار، وأقرّ بالبعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ يعني: مجموع فيه الناسُ، يعني: يجمعُ فيه الأولون والآخرون ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يشهده أهل السموات، وأهل الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ يعني: إلى حين معلوم. ويقال: لانقضاء أيام الدنيا. ومعناه: أنا قادر على إقامتها الآن، ولكن أؤخرها إلى وقت معدود، ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يعني: إذا جاء يوم القيامة، ويقال: ﴿يوم يأت﴾ ذلك اليوم، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يعني: لا تتكلم نفس بالشفاعة، إلا بأمره، ويقال: معناه: لا يجترىء أحد أن يتكلم من هيبته وسلطانه بالاحتجاج وإقامة العذر، إلا بإذنه.

قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ بغير ياء في الوصل والقطع، وقرأ الباقون: بالياء عند الوصل. قال أبو عبيدة: القراءة عندنا على حذف الياء في الوصل والوقف. قال: ورأيت في مصحف الإمام عثمان: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ بغير ياء، وهي لغة هذيل. قال: وروي عن عثمان، أنه عرض عليه المصحف، فوجد فيه حروفاً من اللحن، فقال: لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل، لم توجد فيه هذه الحروف، فكأنه قدم هذيلاً في الفصاحة.

ثم قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ يعني: يوم القيامة من الناس ﴿شَقِيٌّ﴾ يعني: يعذب في النار، ﴿وسعيد﴾، يعني: مكرم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ يعني: كتب عليهم الشقاوة، ﴿فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال الربيع بن أنس: الزَّفير في الحلق، والشهيق في الصدر، وروي عن ابن عباس، أنه قال: «زفير كزفير الحمار، وهو أول ما ينهق الحمار، والشهيق وهو أول ما يفرغ من نهيقه في آخره». ويقال: زفير وشهيق، معناه: أنيناً وصراخاً، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: مقيمين دائمين في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يعني: سماء الجنة وأرضها ﴿إلاَّ ما شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: إلا من أخرجهم منها وهم الموحدون.

وقال الكلبي، ومقاتل: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ يعني: كما تدوم السموات والأرض لأهل الدنيا، فكذلك يدوم الأشقياء في النار ﴿إلا ما شاء ربك﴾ أي: يخرجون من النار. وقال الضحاك: يعني: سماء القيامة وأرضها، وهما باقيتان. ويقال: العرب كانت من عادتهم، أنهم إذا ذكروا الأبد يقولون: ما دامت السمٰوات والأرض، فذكر على عادتهم على ما يتعاهدون ويتفاهمون، ومعناه: أنهم خالدون فيها أبداً. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إن شاء أدخل النار خالداً، وإن شاء أخرجه إن كان موحداً، وأدخله الجنة.

Marfat.com

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وأمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿سُعِدُوا﴾ بضم السين، وقرأ الباقون بنصب السين. فمن قرأ بالنصب، فمعناه: الذين استوجبوا السعادة في الجنة، ومن قرأ بالضم، فمعناه: وأما الذين سُعِدُوا، أي قدر عليهم السعادة، وخلقوا للسعادة ﴿فَفِي الجنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن يحبس في المحشر، وعلى الصراط. ويقال: الذين شقوا يعني الكفار، والذين سعدوا المؤمنين، ومعناه: الكفار في النار إلا ما شاء الله أن يسلموا، والمؤمنون في الجنة إلا ما شاء الله أن يرجعوا عن الإسلام. ويقال: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ يعني: قد شاء ربك.

ثم قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يعني: رزقاً غير منقطع عنهم، ولا ينقص من ثمارهم، ولا من نعمتهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ يعني: في شك ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ﴾ إن الله تعالى يعاقبهم بذلك، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: لا يرغبون في التوحيد، كما لم يرغب آباؤهم من قبل الذين هلكوا، ﴿وَإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ يعني: نوف لهم ولآبائهم حظهم، من العذاب غير منقوص عنهم، وهو قول مقاتل. وقال سعيد بن جبير: معنى نصيبهم من الكتاب، الذي كتب في اللوح المحفوظ، من السعادة والشقاوة. وقال مجاهد: ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ يعني: ما قدر لهم من خير أو شر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يعني: آمن به بعضهم وكفر به بعضهم، وهذا تعزية للنبي ﷺ، حتى يصبر على تكذيبهم كما صبر موسى على تكذيبهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: وجب قول ربك بتأخير العذاب عن أمة محمد ﷺ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: لجاءهم العذاب، ولفرغ من هلاكهم، ﴿وَإنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يعني: من القرآن، ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني: ظاهر الشك.

قوله تعالى: ﴿وَإنْ كُلاًّ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿وإنْ كلاًّ﴾ بجزم

Marfat.com

النون، وقرأ الباقون بالنصب والتشديد. فمن قرأ بالجزم يكون، معناه: وما كل إلا ليوفينهم، كقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ [يس: ٣٢] يعني: ما كلٌ جميع. ومن قرأ بالتشديد، يكون إنَّ لتأكيد الكلام. وقرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف، فمن قرأ بالتخفيف، يكون لمّا لصلة الكلام، ومعناه: وإنَّ كلاً ليوفينهم، فتكون ما صلة كقولهم: عما قليل، يعني: عن قليل. ومن قرأ بالتشديد: يكون بمعنى إلاَّ، يعني: وإنَّ كُلاً إلا ليوفينهم، كقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] فمن قرأ بالتشديد كتلك الآية، يكون معناه: إلا عليها حافظ. ومعنى الآية: إن كلا الفريقين ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ ثواب ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بالخير خيراً، وبالشر شراً. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الخير والشر.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ يعني: استقم على التوحيد والطاعة كما أمرت ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أيضاً يستقيموا على التوحيد ﴿وَلاَ تَطْغَوْا﴾ أي: لا تعصوا الله، في التوحيد وطاعته. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشرّ ﴿بَصِيرٌ﴾. قال الفقيه: **حدّثنا** محمد بن الفضل، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا أبو حفص، عن سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي: امض على ما أمرت قال: إن الله تعالى أمر بالاستقامة على التوحيد، وأن لا يطغى في نعمته. وقال القتبي: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ يعني: امضِ على ما أمرت به، إن الله أمر بأن يُمضى ما أمر به.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ قال قتادة: ولا ترجعوا إلى الشرك فتمسكم النار، يعني: تصيبكم النار، وقال أبو العالية: ولا ترضوا بأعمال أهل البدع. والركون: هو الرضا. ويقال: ولا تميلوا إلى دين الذين كفروا. ويقال: ولا ترضوا قول الذين ظلموا. وروى أبو هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلِ**»(١). وعن عبد الله بن مسعود، أنه قال: «اعتبروا الناس بأخدانهم».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: حين تمسكم النار، لم يكن لكم من عذاب الله ﴿من أولياء﴾ يعني: من أقرباء ينفعونكم، ﴿ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا تمنعون من العذاب.

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه الترمذي: (٢٣٧٨) بلفظ) «الرجل» فقال: حديث حسن غريب. وأبو داود (٤٨٣٣) وصححه الحاكم ٤/ ١٧٠ ووافقه الذهبي.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني: واستقم كما أمرت، ﴿وأقم الصلاة﴾ أي: أتمّ الصلاة، ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أي: صلاة الفجر والظهر والعصر، ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني: دخولاً من الليل ساعة بعد ساعة، واحدها: زلفة، وهي صلاة المغرب، والعشاء، ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني: الصلوات الخمس يكفرن السيئات فيما دون الكبائر، ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ يعني: الصلوات الخمس توبة للتائبين.

قال الكلبي: نزلت الآية في عمرو بن غزية الأنصاري، ويقال: نزلت في شأن أبي اليسر، كان يبيع التمر، فجاءته امرأة تشتري تمراً، فأدخلها في الحانوت، وفعل بها كل شيء إلا الجماع، ثم ندم فأخبر بذلك النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. ويقال: نزلت في شأن أبي مقبل التمار. وروي عن إبراهيم النخعي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني لقيت امرأة في البستان فضممتها إليَّ وقبلتها وفعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، فسكت عنه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. فدعا رسول الله ﷺ الرجل، وقرأها عليه، فقال عمر: «ألهُ خاصة أم للناس كافة؟» قال: «بل للناس كافة»[(١)].

وروى حماد بن سلمة، عن علي بن زيد قال: عن أبي عثمان، قال: كنت مع سلمان، فأخذ غصناً من شجرة يابسة فحته، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ هٰذَا الوَرَقُ»[(٢)] ثم قرأ هذه الآية: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ إلى آخرها.

ثم قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ نفسك يا محمد على التوحيد، ولا تركن إلى الظلمة، ﴿واصبر﴾ على ما أصابك ويقال: ﴿واصبر﴾ أي أقم على هذه الصلوات الخمس، حتى لا تترك منها شيئاً، ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ يعني: ثواب الموحّدين المخلصين. ويقال: المقيمين على الصّلوات.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

---

(١) حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (٥٢٦) و(٤٦٨٧) وأخرجه مسلم (٢٧٦٣) (٤٠) (٤١) (٤٢) والترمذي (٣١١٢) وأبو داود (٤٤٦٨) والبيهقي: ٨/ ٢٤١ وابن خزيمة (٣١٢) وابن ماجه (٤٢٥٤).

(٢) حديث سلمان. عزاه السيوطي ٤/ ٤٨٤ إلى الطيالسي وأحمد والدارمي وابن جرير والطبراني والبغوي في معجمه وابن مردويه.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ﴾ يعني: فهلا كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ يعني: ذوو بقية من آمن. وقال مقاتل: يعني: فلم يكن من القرون من قبلكم ﴿أولو بقية﴾ يعني: ذوو بقية من دين، ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ينهون عن الفساد في الأرض. وقال القتبي: فهلاّ كان أولو بقية من دين يقال: قوم لهم بقية، إذا كان فيهم خير. قال القتبي: إذا رأيت «فلولا» بغير جواب، يريد به هلا، كقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣] ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨] وقال بعض المفسرين: جعل «لولا» هلاً هاهنا. وفي سورة يونس: بمعنى لم. وقال الزجاج: ﴿أولو بقية﴾ معناه: أولو تمييز، ويجوز أولو طاعة وفضل. ومعنى بقية: إذا قلت في فلان بقية، معناه: فيه فضل، فيما يمدح به. ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكنّ قليلاً ممن أنجينا ممن ينهى عن الفساد. وروى سيف بن سليمان المكي، بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَلاَ يُنْكِرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلكَ عَذَّبَ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ»(١). ثم قال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: اشتغل الذين كفروا ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ يقول: ما أنعموا وأعطوا من المال. ويقال: ارتكنوا على ما خوّلوا في الدنيا، واشتغلوا عما سواها من أمر الآخرة ويقال: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾ يعني: السفلة ﴿ما أترفوا في﴾ يعني: من أترفوا، وهم القادة والرؤساء. وقال الفراء: اتبعوا في دنياهم ما عوّدوا من النعيم، وإيثار الدنيا على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مشركين.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ﴾، يقول: لم يكن ربك ليعذب أهل قرية، ﴿بظلم﴾ يعني: بغير جرم، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يعني: موحّدين مطيعين. وروي عن ابن عباس أنه قال: «ما أهلك الله قوماً إلا بعملهم، ولم يهلكهم بالشرك»، يعني: لم يهلكهم بشركهم وهم مصلحون، لا يظلم بعضهم بعضاً، لأن مكافأة الشرك النار، لا دونها. وإنما أهلكهم الله بمعاصيهم زيادة على شركهم، مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بنقصان الكيل والوزن، وقوم فرعون بإيذائهم موسى وبني إسرائيل. ويقال: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ يعني: وفيهم من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. وقال: لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم، وإن كانوا مجرمين.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾

---

(١) حديث عدي الكندي: أخرجه أحمد ٤/ ١٩٢.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: لجمع الناس على ملة واحدة، وأكرمهم بدين الإسلام كلهم، ولكن علم أنهم ليسوا بأهل لذلك، ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني: أهل الباطل في الدين ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: عصم ربك من الاختلاف. وقال عطاء: ولا يزالون مختلفين، يعني: اليهود والنصارى والمجوس، ﴿إلا من رحم ربك﴾ بالحنيفية ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني: الحنيفية خلقهم للرحمة. وقال الحسن: ﴿لذلك خلقهم﴾ يقول: للاختلاف، هؤلاء لجنته، وهؤلاء لناره.

وقال ابن عباس: ﴿ولذلك خلقهم﴾ «يعني: فريقين، فريقاً يرحم ولا يختلف»، وفريقاً لا يرحم ويختلف. ويقال: ﴿ولذلك خلقهم﴾ يعني: للأمر والنهي، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] يعني: للأمر والنهي، وقال الضحاك: وللرحمة خلقهم. وقال مقاتل: وللرحمة خلقهم، وهو الإسلام. وروى حماد بن سلمة، عن الكلبي قال: خلقهم أهل الرحمة، أن لا يختلفوا. وقال قتادة: ﴿ولذلك خلقهم﴾ للرحمة والعبادة، ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يقول: لا يزال أهل الأديان مختلفين في دين الإسلام.

ثم استثنى بعضاً. وقال: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وهم المؤمنون أهل الحق، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: سبق ووجب قول ربك للمختلفين، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا لام القسم، فكأنه أقسم أن يملأ جهنم من كفار الجنة والناس أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ يعني: ننزل عليك من أخبار الرسل ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يقول: ما نشدد به قلبك ونحفظه، ونعلم أن الذي فعل بك قد فعل بالأنبياء قبلك، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ قال قتادة: أي في الدنيا. وقال ابن عباس: «يعني في هذه السورة». وروى سعيد بن عامر، عن عوف، عن أبي رجاء، قال: خطبنا ابن عباس على منبر البصرة، فقرأ سورة هود وفسرها، فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ «قال: في هذه السورة»، وقال سعيد بن جبير وأبو العالية ومجاهد مثله. وهكذا قال مقاتل: عن الفراء. ثم قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ يعني: تأدبة لهذه الأمة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يعني: عظة وعبرة، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: للمصدقين بتوحيد الله تعالى.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بتوحيد الله تعالى، ﴿واعملوا على مكانتكم﴾ يعني: على منازلكم، على إهلاكي، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ في أمركم. يقال: ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بهلاكي، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكم العذاب والهلاك، فهذا تهديد لهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: غيب نزول العذاب، متى ينزل

Marfat.com

بكم، ويقال: سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَإِلَيهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ يعني عواقب الأمور كلها ترجع إليه يوم القيامة ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ يقول: أطعه واستقم على التوحيد، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ يقول: فوض إليه جميع أمورك، ﴿وَمَا رَبُّك بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: بما يفعل الكفار. قرأ نافع وعاصم في رواية حفص: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ بضم الياء ونصب الجيم، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون: بنصب الياء وكسر الجيم، فيكون الفعل للأمر. وقرأ نافع وعاصم، في رواية حفص: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة، وروي عن كعب الأحبار، أنه قال: خاتمة السورة هذه الآية ﴿ولله غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة، وصلى الله على سيدنا محمد.

Marfat.com

سورة يوسف

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى، قالوا لأصحاب النبي ﷺ: سلوا صاحبكم ما كان سبب انتقال يعقوب وأولاده من كنعان إلى مصر، ومبدأ أمرهم، فنزل: ﴿الر﴾ يقول: أنا الله أرى وأسمع سؤالهم إياك يا محمد عن هذه القصة. ويقال: ﴿الر﴾ أنا الله أرى صنيع إخوة يوسف ومعاملتهم معه. ويقال: أنا الله أرى ما يرى الخلق، وما لا يرى ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾ يعني: حججه وبراهينه. ويقال: هذه الآيات التي وعدتكم في التوراة أن أنزلها على محمد ﷺ. وعدهم بأن ينزل عليه كتاباً، في كثير من أوائل سوره حروف الهجاء. ﴿المُبِينِ﴾ يعني: مبين حلاله وحرامه. ويقال: بَيَّنَ فيه خبر يوسف وإخوته. وروى معمر، عن قتادة، قال: بَيَّنَ الله رشده وهداه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاه قُرْآناً عَرَبِياً﴾ يقول: إنا أنزلنا جبريل ليقرأ على محمد ﷺ القرآن، بلسان العرب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لعلكم تفهمون ما فيه.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصصِ﴾. وذلك أن المسلمين قالوا لسلمان: أخبرنا عن التوراة فإن فيها العجائب. فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾[(١)]. في هذا القرآن، ويقال: لا يصح هذا، لأن سلمان أسلم بالمدينة، وهذه السورة مكية، ولكن أصحاب النبي ﷺ تمنوا نزول سورة عليهم، لا يكون فيها أمر ونهي وأحكام وحدود، فنزلت هذه السورة. ويقال: كانت اليهود تفاخروا بأن لهم قصة يوسف مذكورة في التوراة، فنزلت هذه السورة أفصح من لغة اليهود، فذهب افتخارهم على المسلمين. فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾ سماه الله في ابتدائه أحسن القصص، وفي آخره عبرة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. ويقال: ينزل عليك جبريل بأحكم الخبر، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يقول: بالذي أوحينا إليك. ﴿هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لمن الغافلين﴾ عن خبر يوسف، لم تعلمه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ ـ أي نقصّ عليك ﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ ويقال: معناه، واذكر ﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾[1] ـ قرأ ابن عامر: ﴿يا أبتَ﴾ بنصب التاء في جميع القرآن، لأن أصلها يا أبتاه. وقرأ الباقون بالكسر لأجل الإضافة. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يعني: رأيت في المنام أحد عشر كوكباً نزلت من السماء، والشمس والقمر نزلا من السماء يسجدون لي. وروي عن عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: «الكواكب إخوته، والشمس والقمر أبواه»[2]. وقال معمر: قال بعض أهل العلم: «أبوه وخالته». وفي رواية الكلبي: قال «رؤياه كانت ليلة القدر، في ليلة جمعة».

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فلمّا قصّها على أبيه انتهره وزجره، وقال ليوسف في السر: إذا رأيت رؤيا بعد هذا، فلا تقصها على إخوتك فذلك قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيداً﴾ يعني: يعملوا بك عملاً، ويحتالوا بك حيلة في هلاكك. فإن قيل قوله: ﴿رأيتهم﴾ هذا اللفظ يستعمل في العقلاء ولا يستعمل في غير العقلاء، يقال: رأيتها ورأيتهن، فكيف قال ههنا: ﴿رأيتهم﴾؟ قيل له: لأنه حكى عنها الفعل الذي يكون من العقلاء، وهي السجدة. فذكر باللفظ الذي يوصف به العقلاء. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة. قرأ أبو جعفر القاريء المدني، ﴿أحَدْ عَشَرَ﴾ بجزم الدال، وقراءة العامة ﴿أحَدَ عَشَرَ﴾ بالنصب. قال أبو عبيدة: هكذا تقرؤها، لأنها أعرف اللغتين، والناس عليها.

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يقول: يصطفيك ويختارك بالنبوة. ويقال: بالحسن والجمال والمحبة في القلوب. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ يعني: من تعبير الرؤيا. ويقال: هي الكتب المنزلة. ويقال: عواقب الأمور، يعني: يفهمك ويعلّمك ﴿من تأويل الأحاديث﴾ حتى تكون عالماً بعواقبها ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ يعني: يثبتك على الإسلام، ويقال: بالنبوة والإسلام ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ وأكرمهما بالنبوة، وثبتهما على الإسلام.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

(٢) عزاه السيوطي: ٤/٤٩٩ إلى عبد الرزاق وابن جرير.

Marfat.com

قال الزجاج: وقد فسّر له يعقوب الرؤيا، فالتأويل: أنه لما قال يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ تأول لأحد عشر نفساً لهم فضل وأنهم يستضاء بهم، لأن الكواكب لا شيء أضوء منها، وتأول الشمس والقمر أبويه، فالقمر الأب، والشمس الأم، والكواكب إخوته، فتأول ليوسف أنه يكون نبياً وأن إخوته يكونون أنبياء، لأنه أعلمه أن الله تعالى يتم نعمته عليه وعلى إخوته، كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق. ويقال: ﴿كما أتمها على أبويك﴾ حين رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه، فأمره الله تعالى أن يفديه. وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أنه كان يجعل الجد أباً»، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿كما أتمها على أبويك﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعني: ﴿عليم﴾ بما صنع به إخوته، ﴿حكيم﴾ بما حكم من إتمام النعمة عليه.

﴿۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ قرأ ابن كثير: «آية» بلفظ الوحدان، وهكذا قرأ مجاهد. يعني: فيه علامة لنبوة محمد ﷺ وقرأ الباقون: بلفظ الجماعة ﴿آيات﴾ وهذا موافق لمصحف الإمام عثمان. حكى أبو عبيدة: أنه رأى في مصحف الإمام هكذا، ومعنى الآية: أن في خبر يوسف وإخوته عبرة وموعظة لمن سأل عن أمرهم.

قال ابن عباس: «وذلك أن حبراً من أحبار اليهود، دخل على النبي ﷺ ذات يوم، وكان قارئاً للتوراة، فوافق رسول الله ﷺ يقرأ سورة يوسف كما أنزلت في التوراة، فقال له الحبر: يا محمد، من علمكها؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله علَّمنيها». فرجع الحبر إلى اليهود، فقال لهم: أتعلمون، والله إن محمداً يقرأ في القرآن سورة يوسف كما أنزلت في التوراة؟ فانطلق بنفرٍ منهم حتى جاؤوا ودخلوا عليه، فجعلوا يستمعون إلى قراءته ويتعجبون، فقالوا: يا محمد، من علمكها؟ قال: «الله علَّمنيها»، فنزلت: ﴿لَقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾.

قال الشيخ: وكان بدء أمرهم أن يعقوب عليه السلام كان مع خاله، وكان لخاله ابنتان إحداهما يقال لها: «لايا»، ويقال: «لاوى»، وهي أكبرهما، والأخرى «راحيل» وهي أصغرهما، فخطب يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما، فقال له: هل لك مال؟ قال: لا ولكن أعمل لك. قال: صداقها أن ترعى لي سبع سنين. وفي بعض الروايات قال: أن تخدمني سبع سنين. وقال يعقوب: أخدمك سبع سنين على أن تزوجني راحيل، وهي شرطي، قال: ذلك بيني وبينك. فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما قضى الأجل زفت إليه الكبرى، وهي لايا. فقال له يعقوب: إنك خدعتني، وإنما أردت راحيل، فقال له خاله: إنا لا ننكح الصغيرة قبل الكبيرة،

Marfat.com

ولكنْ هلمَّ فاعمل سبع سنين أخرى، فأزَوِّجك أختها، وكان الناس في ذلك الزمان يجمعون بين الأختين، إلى أن بعث الله موسى عليه السلام. فرعى له سبع سنين أخرى، فزوجه راحيل. وكان خاله حين جهزها دفع إلى كل واحدة منهما أمة تخدمها، فوهبتا الأمتين ليعقوب. فولدت لايا أربعة بنين، وولدت له راحيل ابنين، وولدت كل واحدة من الأمتين ثلاثة بنين، فجملةُ بنيه: اثنا عشر سوى البنات.

قال الفقيه أبو الليث: سمعت أهل التوراة يقولون: إن أسماء أولاد يعقوب مثبتة في التوراة: روبيل، وشمعون، ويهوذا، ولاوي، فهؤلاء من امرأته لايا. ويوسف، وبنيامين، من امرأته الأخرى راحيل. والستة الباقون من الأمتين: يستر، وبالعربية يساخر، وزوبولون وبالعربية زبالون، ودون وبالعربية دان، ونفتال وبالعربية: يفتايل، وحوذ وبالعربية حاذ، وروى بعضهم: هاذ بالهاء، وأشير، وبالعربية: أشر. فأراد يعقوب أن يخرج إلى بيت المقدس ولم يكن له نفقة، وكان ليوسف خال له أصنام من ذهب، فقالت لايا ليوسف: اذهب واسرق من أصنامه، فلعلنا نستنفق به. فذهب يوسف وأخذ واحداً، وكان يوسف أعطف على أبيه، وكان أحب أولاده إليه. فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له.

ورأى يوسف في المنام، أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له فقالوا عند ذلك ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني: جماعة عشرة، فهو يؤثرهما علينا في المنزلة والحب، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يقول: في خطأ بَيِّنٍ في حب يوسف وأخيه، حيث قدم الصغيرين في المحبة علينا، ونحن جماعة ونفعنا أكثر من نفعهما. وقال مقاتل: كان فضل حُسْنِ يوسف على الناس في زمانه، كفضل القَمَرِ ليلة البدر على سائر الكواكب. وقال القتبي: العصبة: ما بين العشرة إلى الأربعين.

ثم قال بعضهم لبعض: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيداً من أبيكم ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقول: يقبل إليكم أبوكم بوجهه، ويصفُ لكم وجهه. ويقال: يصلح حالكم عند أبيكم ﴿وتكونوا من بعدِهِ قوماً صالحين﴾ يعني: إذا غاب عنكم صلحت أحوالكم عند أبيكم، بعد ذهاب يوسف. ويقال: وتكونوا من بعد هلاكه قوماً تائبين إلى الله تعالى. وقال بعض الحكماء: هكذا يكون المؤمن، يهيىء أمر التوبة قبل المعصية.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنهُمْ﴾ يعني: من إخوة يوسف لا تقتلوه، يعني: ﴿لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم. وقال الكلبي: كان صاحب هذا القول: يهوذا، لم يكن أكبرهم في السّن، ولكن كان أعقلهم. وقال قتادة والضحاك: صاحب هذا القول: روبيل، وكان أكبر القوم سناً. ﴿وَأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ يعني اطرحوه في أسفل الجب. وقال الزجاج: الغيابة كل ما غاب عنك أو غيّبت شيئاً عنك. قرأ نافع: ﴿غيابات﴾ بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون ﴿غَيَابَة الجبّ﴾، لأن المعنى فيها على موضع واحد. وروي عن أبي بن كعب، أنه كان يقرأ: ﴿غَيْبَةِ الجُبّ﴾. وقال الزجاج: الجُبُّ: البئر التي ليست بمطوية سميت جُبًّا، لأنها قطعت قطعاً، ولم يحدث فيها غير القطع.

ثم قال: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ يعني: يأخذه بعض من يمر عليه من المسافرين ﴿إنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يعني: إن كنتم لا بد فاعلين من الشر الذي تريدون. وروي عن الحسن، ومجاهد، أنهما قرآ: ﴿تلتقطه﴾ بالتاء، ومعناه: تلتقطه السيارة، وينصرف إلى المعنى. فلما قال لهم ذلك يهوذا أو روبيل، أطاعوه بذلك، وجاؤوا إلى أبيهم و ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ بأن ترسله معنا، ﴿وَإنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ يعني: لحافظون. ويقال: محبون مشفقون. قرأ أبو جعفر القارىء المدني: ﴿لاَ تَأْمَنَا﴾ بجزم النون، وقرأ الباقون ﴿تأمنا﴾ بإشمام النون إلى الرفع، لأن أصلها تأمُننا، فأدغمت إحداهما في الأخرى، وأقيم التشديد مقامها، وبقي رفعه.

ثم قال: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً﴾ يعني: أخوة يوسف قالوا لأبيهم: أرسل يوسف معنا إلى الغنم ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال مجاهد: يحفظ بعضنا بعضاً، ونتحارس. وقال قتادة: ننشط ونسعى ونلهو. وقال القتبي: من قرأ بتسكين العين، أي نأكلْ يقال: رتعت الإبل إذا رعت. ومن قرأ بكسر العين، أراد به: نتحارس ويرعى بعضنا بعضاً، أي: يحفظ. قرأ ابن كثير: ﴿نَرْتَعِ﴾ بالنون وكسر العين، ﴿ونلعب﴾ بالنون. وقرأ نافع: ﴿يَرْتَعِ﴾ بالياء وكسر العين، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء وجزم العين، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ بالنون وجزم العين. واتفقوا في جزم الباء.

قال أبو عبيدة، قلت لأبي عمرو: كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ قال: لم يكونوا يومئذٍ أنبياء. قال الفقيه أبو الليث: لم يريدوا به اللعب الذي هو منهيّ عنه، وإنما أرادوا به المطايبة في خروجهم، وفيه دليل: أن القوم إذا خرجوا من المصر، فلا بأس بالمطايبة والمزاح في غير مأثم. ويقال: ﴿نرتع ونلعب﴾ يعني: نجيء ونذهب، حتى نتشجع ونترحّل. ويقال: حتى نجمع النفع والسرور. ﴿وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا يصيبه أذى ولا مكروه، وإنا مشفقون عليه ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ يعني: إن ذهابكم به ليحزنني. قرأ نافع: ﴿لَيُحْزِنُنِي﴾ بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الباقون بنصب الياء، وضم الزاي. ومعناهما واحد.

ثم قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ يعني: أخاف أن تضيعوه فيأكله الذئب، ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ

Marfat.com

﴿غَافِلُونَ﴾ يعني: مشغولين بأمركم. قرأ أبو عمرو والكسائي ونافع في رواية ورش: ﴿الذِّيبُ﴾ بغير همز. وقرأ الباقون بالهمز، وهما لغتان. وروي عن بعض الصحابة، أنه قال: لا ينبغي أن يلقن الخصم حجّتة، لأن إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس، إلى أن قال لهم يعقوب ذلك، وإنما قال ذلك يعقوب لأنه رأى في المنام أن ذئباً كان يعدو على يوسف فأنجاه بنفسه.

﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني: جماعة عشرة ﴿إِنَّا إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ يعني: لعاجزين. فلما قالوا ذلك رضي بخروجه معهم، فبعثه معهم، وأوصاهم عند خروجه أن يحسنوا إليه، ويتعاهدوا أمره، ويردوه إذا طلب الرجوع. فقبلوا ذلك منه. ويقال: إنه أبى أن يرسله معهم، حتى أتوا يوسف فقالوا له: اطلب من أبيك ليبعثك معنا، وطلب يوسف ذلك من أبيه، فبعثه معهم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ يعني: فلما برزوا به إلى البَرِيَّة ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ يقول: واتفقوا أن يلقوه في أسفل الجب، ثم أظهروا له العداوة، فجعل أحدهم يضربه فيستغيث بالآخر، فيضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيماً، فضربوه حتى كادوا أن يقتلوه. فقال يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه؟ قوله: ﴿فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابه الجب﴾ أي: فانطلقوا به إلى الجب، وهي بئر على رأس فرسخين من كنعان، ويقال: أربع فراسخ، فجعلوا يدلونه في البئر، فيتعلق بشفة البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه. فقال: يا إخوتاه، ردوا عليّ قميصي أتوارى في الجب، فقالوا له: ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يؤنسوك. فدلوه في البئر، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه، وأرادوا أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة في البئر، وقام عليها وجعل يبكي. فجاءه جبريل يؤنسه ويطعمه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: لتخبرهم بصنيعهم ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يعني: تخبرهم بأمورهم، أو بصنيعهم هذا بمصر ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني: لا يعرفونك بمصر. ويقال: معناه ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ أن الله تعالى أوحى إليه، وهم لا يعرفونه. ويقال: لما أرادوا أن يلقوه في البئر، تعلق بإخوته، فقال له

Marfat.com

جبريل: لا تتعلق بهم، فإنك تنجو من البئر. فألقوه حتى وقع في قعرها، فارتفع حجر حتى قام عليه، ثم إنهم أخذوا جدياً من الغنم فذبحوه، ثم لطخوا القميص بدمه.

ثمَّ أقبلوا إلى أبيهم كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ يعني: بعد العصر، فلما سمع يعقوب أصواتهم، فزع وقال: يا بني ما لكم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ يعني: نتصيَّد ويقال: ننتضل، أي يسابق بعضنا البعض في الرمي، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ فلما قالوا هذا القول: بكى يعقوب، وصاح بأعلى صوته: ثم قال: أين قميصه؟ فأخذ القميص وبكى، ثم قال إن هذا الذئب كان بابني رحيماً، كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟ وروى سماك، عن عامر، أنه قال: في قميص يوسف ثلاث آيات: حين قُدَّ قميصه من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيراً، وحين جاؤوا على قميصه بدم كذب، علم أن الذئب لو أكله لخرَّق قميصه.

فقال لهم: كذبتهم، فقالوا له: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ يعني: بمصدق لنا في مقالتنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ في مقالتنا ﴿وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ يعني: بدم السخلة ولم يكن دم يوسف. ويقال: بدم كذب أي مكذوب به. وقرأ بعضهم: ﴿بدم كدب﴾ بالدال، يعني: بدم طري. فأروه القميص بالدم ليعرف به، وهي قراءة شاذة، وقراءة العامة بالذال وقال يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ يقول: زينت واشتهت لكم أنفسكم أمراً، فضيَّعتموا يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يعني: عليَّ صبر جميل بلا جزع. ويقال: معناه لا حيلة لي إلا الصبر. ويقال: معناه فصبري صبر جميل.

وروي عن بعض الصحابة، أنه كان يقرأ ﴿فَصَبْراً جَمِيلاً﴾، يعني: أصبر صبراً جميلاً. وروي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن قوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال «صبر لا شكوى فيه، ومن بث فلم يصبر». ثم قال: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يقول: أستعين بالله، وأطلب العون من الله واستعين بالله، على ما تقولون، وتكذبون من أمر يوسف.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (٢٠)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قافلة يمرون من قبل مدين إلى مصر، فنزلوا بقرب البئر، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: طالب مائهم، ويقال: أرسل كل قوم ساقيهم يستقي لهم الماء، فجاء مالك بن دعر إلى الجب الذي فيه يوسف، ﴿فأدلى دلوه﴾ يقول: أرخى، وأرسل دلوه في البئر، فتعلق يوسف بالدلو، فنظر مالك بن دعر، فإذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان. ﴿قَالَ يا بُشرَى هَذَا غُلامٌ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بالألف والياء، ونصب الياء، وقرأ عاصم: ﴿يَا بُشْرَى﴾ بنصب الراء وسكون الياء، وقرأ نافع في رواية

Marfat.com

ورش: بالألف والياء مع السكون، وكذلك يقرأونه في ﴿مَثْوَايْ﴾ و ﴿مَحْيَايْ﴾ و ﴿عَصَايْ﴾، بسكون بالياء. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَا بُشْرِي﴾ بغير ألف، وسكون الياء، وكسر الراء.

فمن قرأ: ﴿يا بُشْرَايَ﴾، يكون بمعنى الإضافة إلى نفسه، ومن قرأ: ﴿يا بشْرَى﴾ يكون على معنى تنبيه المخاطبين، كقوله: يا عجبًا، وإنما أراد به: اعجبوا. ومن قرأ: ﴿يا بشرى﴾، كأنه اسم رجل دعاه باسمه بشرى، وقال أبو عبيدة: هذه القراءة تقرأ، لأنها تجمع المعنيين، إن أراد به الاسم، أو أراد به البشرى بعينها.

وقال السدي: تعلق يوسف بالحبل فخرج، فلما رآه صاحب الدلو، نادى رجلاً من أصحابه، يقال له البشرى، وقال: يا بشراي، هذا غلام. وقال قتادة وغيره: إنه بشّر واردهم حين وجد يوسف.

ثم قال: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: التُّجار بعضهم بعضاً وقال بعضهم لبعض: اكتموه عن أصحابكم لكيلا يسألوكم فيه بشركة، فإن قالوا لكم ما هذا الغلام؟ قولوا: استبضعنا بعض أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، فذلك قوله: ﴿وأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: أسروه وأعلنوه بضاعة، فرجع إخوته بعد ثلاثة أيام، فرأوا يوسف في أيديهم، فقالوا: هذا غلام أبق منا منذ ثلاثة أيام، فقالوا لهم: ما بال هذا الغلام لا يشبه العبيد، وإنما هو يشبهكم؟ فقالوا: إنما وُلِدَ في حجرنا وإنه ابن وليدة منّا أمرتنا ببيعه. وقالوا ليوسف بلسانهم: لئن أنكرت أنك عبد لنا لنأخذنَّك ونقتلنَّك. أترى أنا نرجع بك إلى يعقوب أبداً، وقد أخبرناه أن الذئب قد أكلك. فقال: يا إخوتاه ارجعوا بي إلى أبي، وأنا ضامن لكم رضاه، وأنا لا أذكر له هذا أبداً. فأبوا عليه فذلك قوله تعالى ﴿والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بما يصنع به إخوته.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بثمن﴾، يعني: باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ يعني: ظلماً وحراماً لم يحل بيعه. ويقال: ﴿بثمن بخس﴾ أي: بدراهم رديئة ويقال: البخس: الخسيس ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: يسير عددها. وقال مجاهد: البخس القليل، والمعدودة: عشرون درهماً، وقال: كان في ذلك الزمان ما كان فوق الأوقية وزنوه وزناً، وما كان دون الأوقية عدّوه عداً. وقال بعضهم: باعوه بعشرة دراهم، لأن اسم الدرهم يقع على ما بين الثلاثة إلى العشرة، فأصاب كل واحد منهم درهماً.

وروي عن الضحاك، أنه قال: باعوه باثني عشر درهماً، وقال ابن مسعود: «بيع بعشرين درهماً»، وقال عكرمة: البخس: أربعون درهماً، وقال بعضهم: لم يبعه إخوته ولكن الذين وردوا الماء، وجدوه في البئر، وأخرجوه من البئر، فباعوه بثمن بخس، ﴿دراهم معدودة﴾ وهو قول المعتزلة ـ لأن مذهبهم أن الأنبياء معصومون عن الكبيرة قبل النبوة لأن الكبيرة عندهم تخرج

Marfat.com

المؤمن عن الإيمان، وعند أهل السنة: الكبيرة لا تخرج المؤمن عن الإيمان، وجاز جريان المعصية قبل النبوة[١] ـ وقال عامة المفسرين: إن إخوته باعوه وروي عن ابن عباس: «أن إخوته باعوه بعشرين درهماً، وكتب يهوذا شراءه على رجل منهم».

ثم قال: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يعني: الذين اشتروه لم يعلموا بحاله وقصته. ويقال: يعني إخوة يوسف، في ثمنه لم يكونوا محتاجين إليه. ثم إن مالك بن دعر، لما أدخله مصر باعه. قال مقاتل: باعه بعشرين ديناراً ونعلين وحلة. وقال الكلبي: بعشرين درهماً ونعلين وحلة. وقال بعضهم: باعه بوزنه فضة. وقال بعضهم: باعه بوزنه ذهباً. وقال وهب بن منبه: باعه مالك بن دعر، بعدما عرضه في بيع من يزيد، ثلاثة أيام، فزاد الناس بعضهم على بعض، حتى بلغ ثمنه بحيث لا يقدر أحد عليه، فاشتراه عزيز مصر، وكان خازن الملك وصاحب جنوده لامرأته زليخا، بوزنه مرة مسكاً، ومرة لؤلؤاً، ومرة ذهباً، ومرة فضة، ومرة حللاً، وسلم كلها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ﴾ قال ابن عباس: «كان اسمه قُوطَيفَر، وهو العزيز، قال لامرأته واسمها: زليخا ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ يعني: منزله وولايته ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في ضياعنا وغلاتنا على وجه التبرك به ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ يقول: نتبناه فيكون ابناً لنا. وروى أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز، حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وبنت شعيب النبي قالت ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر، حين تفرَّس في عمر رضي الله عنها وولاه من بعده»[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: في أرض مصر، وهي أربعون فرسخاً في أربعين فرسخاً ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ يعني: كي يلهمه تعبير الرؤيا، وغير ذلك من العلوم، ﴿والله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ إذا أمر بشيء لا يقدر أحد أن يرد أمر الله تعالى، إذا أراد بأحد من خلقه. ويقال: ﴿والله غالب على أمره﴾، يعني: والله متمٌ ليتم أمر يوسف الذي

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

(٢) عزاه السيوطي: ٥١٧/٤ إلى سعيد بن منصور وابن سعد وابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه.

Marfat.com

هو كائن ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني: أهل مصر. ويقال: يعني: أهل مكة لا يعلمون أن الله تعالى غالب على أمره.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني يوسف: تمت قوة نفسه وعقله. ويقال: بلغ مبلغ الرجال. ويقال: الأشد بلوغ ثلاثين سنة. وقال الضحاك: يعني: بلغ ثلاثاً ثلاثين سنة. ويقال الأشد: ما بين ثمانية عشرة سنة، إلى ثلاثين سنة ويقال: إلى ستّ وثلاثين سنة ويقال: من خمسة عشر إلى ثمانٍ وثلاثين سنة. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يقول: أكرمناه بالنبوة، والعلم والفهم والفقه فجعلناه حكيماً وعليماً، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: هكذا نكافىء من أحسن. ويقال: هكذا نجزي المخلصين في العمل بالفهم والعلم.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: راودته عما أرادت عليه، مما تريد النساء من الرجال، فعلم بذلك ذكر الفاحشة الذي راودته عليه. ومعناه: طلبت إليه أن يمكنها من نفسه، يعني: امرأة العزيز واسمها زليخا ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ عليها وعلى يوسف، وجعلت تغمزه وتمازحه، ويوسف يعظها بالله ويزجرها.

وروي عن ابن عباس، أنه قال: «كان يوسف إذا تبسم، رئيت النور في ضواحكه، وإذا تكلم رأيت شعاع النور في كلامه يذهب من بين يديه، ولا يستطيع آدمي أن ينعت نعته». فقالت له: يا يوسف ما أحسن عينيك! قال: هما أول شيء يسيلان إلى الأرض من جسدي. ثم قالت: يا يوسف ما أحسن ديباج وجهك! قال: هو للتراب يأكله. ثم قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك! قال: هو أول ما ينتثر من جسدي. ﴿وَقَالَتْ﴾: يا يوسف، ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم، ﴿هَيْتَ لك﴾ بنصب الهاء والتاء، بمعنى: أقبل، ويقال: هلّم إليّ، والعرب تقول: هيت فلان لفلان، إذا دعاه وصاح به، وهكذا قرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن. وقرأ ابن عامر في رواية هشام ﴿هِئْتُ﴾ بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك. وقرأ ابن كثير ﴿هَيْتُ﴾ لك بنصب الهاء وضم التاء، ومعناه: أنا لك، وأنا فداؤك، وقرأ نافع وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿هِيتَ﴾ بكسر الهاء ونصب التاء، بغير همز. ﴿قَالَ مَعَاذَ الله﴾ قال يوسف: أعوذ بالله أن أعصيه وأخونه. ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يعني: إنه سيدي الذي اشتراني أحسن إكرامي، فلم أكن لأفعل بامرأته ذلك. ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: لا ينجو الزناة من عذاب الله تعالى، وفي هذه الآية دليل: أن معرفة الإحسان واجب، لأن يوسف امتنع عنها لأجل شيئين: لأجل المعصية والظلم، ولأجل إحسان الزوج إليه.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ روى حماد بن سلمة عن الكلبي أنه قال: كان من همها أنها دعته إلى نفسها واضطجعت، وهَمَّ بها بالموعظة والتخويف من الله تعالى، وقيل: إنه حلّ سراويله، وجلس بين رجليها ﴿لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يقول: مثل له يعقوب في الحائط عاضاً على شفتيه، فاستحيا، فتنحى بنفسه. وقال وهب بن منبه: لم تزل تخدعه حتى همَّ بها، ودخل معها في فراشها، فنودي من السماء: مهلاً يا يوسفُ، فإنك لو وقعت في خطيئة محي اسمك عن ديوان النبوة. وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ ما بلغ من همه؟ قال: «أطلق هميانه فنودي: يا يوسف لا تكن كالطائر له ريش فزنى، فسقط ريشه». ويقال: كان همها هم إرادة وشهوة، وهمه همّ اضطرار وغلبة. وقال بعضهم: كان همه حديث النفس والفكر وهما مرفوعان. وقال بعضهم: ﴿هم بها﴾ يعني: يضربها. وقال بعضهم: يعني: هم بالفرار عنها. وقال بعضهم: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ تم الكلام، ثم قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يعني: لما رأى البرهان لم يهم بها، فقد قيل هذه الأقاويل، والله أعلم. وقد روي في الخبر: «أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة غير يحيى بن زكريا، ولكنهم كانوا معصومين من الفواحش».

وقوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «مثّل له يعقوب، فضرب بيده على صدره، فخرجت شهوته من أنامله». وقال محمد بن كعب ﴿لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ قال: لولا أن قرأ القرآن من تحريم الزنى، وذلك أنه استقبل بكتاب الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ يقول: هكذا صرفت السوء والفحشاء عن يوسف بالبرهان، حين استعاذ إليّ بقوله: معاذ الله.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بالتوحيد والطاعة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، ومعناه ما ذكرناه. وقرأ الباقون ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بالنصب، يعني: المعصومين من الذنوب والفواحش، ويقال: أخلصه الله بالنبوة والرسالة والإسلام.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ يعني: تبادرا إلى الباب، يعني: يوسف وزليخا. أما يوسف

Marfat.com

فاستبق ليخرج من الباب، وأما زليخا فاستبقت لتغلق الباب، فأدركته قبل أن يخرج من الباب، فتعلقت به قبل أن يخرج من الباب. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ يعني: مزقت وخرّقت قميصه من خلفه. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ يعني: صادفا ووجدا سيدها ﴿لَدَى البابِ﴾ يعني: زوجها عند الباب. ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ يعني: قالت لزوجها: ﴿ما جزاء﴾، يعني: ما عقاب ﴿من أراد بأهلك سوءاً﴾ يعني: قصد بها الزنى ﴿إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ﴾ يعني: يحبس في السجن. ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: يضرب ضرباً وجيعاً، وذلك أن الزوج قال لهما ما شأنكما؟ قالت له زليخا: كنت نائمة في الفراش عريانة، فجاء هذا الغلام العبراني وكشف عن ثيابي، وراودني عن نفسي، فدفعته عن نفسي، فانشق قميصه. ﴿قَالَ﴾ يوسف: بل ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَفْسِي﴾ يعني: دعتني إلى نفسها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال مجاهد: قميصه شاهد أنه قَدْ قُدَّ من دبر، فظهر أن الذنب كان لها بتلك العلامة. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «كان صبي في المهد لم يتكلم بعد فتكلم، وقال ﴿إِنْ كَانَ قُدَّ قَمِيصُهُ مِنْ قُبُلٍ فكذبت وهو من الصادقين﴾ الآية. وقال قتادة: كان رجلاً حكيمٌ من أهلها. ويقال: كان رجل من خواصّ الملك. وروي عن عكرمة أنه قيل له: إنه صبي قال: لا، ولكنه رجل حكيم. وقال الحسن: ولكن كان رجلاً له رأي، فقال برأيه. وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: «كان زوجها على الباب مع ابن عم لها يقال له تمليخا، وكان رجلاً حكيماً، فقال: قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب، ولا ندري أيكما قدام صاحبه؟ فقال ابن عمها: إن كان قد شقّ القميص من قدامه فأنت صادقة فيما قلت، وإن كان مشقوقاً من خلفه فهو صادق، فنظروا إلى قميصه، فإذا هو مشقوق من خلفه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ يعني: زليخا ﴿وَهُوَ﴾ يعني: يوسف ﴿مِنَ الكَاذِبِينَ﴾. ﴿وإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾، يعني: زليخا ﴿وَهُوَ﴾ يعني: يوسف ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك أن الرجل لا يأتيها إلا مقبلاً. ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ يعني: مقدوداً من دبر ﴿قَالَ﴾ ابن عمها ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ يعني: من صنيعكن، ويقال: قال الزوج: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يعني: صنيعكن عظيم يخلص إلى البريء والسقيم والصالح والطالح. وفي هذه الآية دليل: أن القضاء بشهادة الحال جائز، وقال بعض الحكماء: سمى الله كيد الشيطان ضعيفاً، وسمى كيد النساء عظيماً، لأن كيد الشيطان بالوسوسة والخيال، وكيد النساء بالمواجهة والعيان.

ثم أقبل على يوسف فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني: يا يوسف أعرض عن هذا القول، ولا تذكره، واكتم هذا الحديث. ثم أقبل عليها فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يعني: توبي وارجعي عن ذنبك، ويقال ابن عمها هو الذي قال لها: واستغفري لذنبك، واعتذري إلى زوجك من ذنبك. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ يعني: من المذنبين. وفشا ذلك الخبر في مصر وتحدثت النساء فيما بينهن.

Marfat.com

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ﴾ قال الكلبي: هنَّ أربع نسوة: امرأة ساقيه يعني: ساقي الملك، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب السجن، وامرأة صاحب دوابّه. ويقال: هن خمس، خامستهن امرأة صاحب الملك. ويقال: أربعون امرأة. ويقال: جماعة كثيرة من النساء اجتمعن في موضع وقلن فيما بينهنّ ﴿امرأةُ العَزيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: تطلب عبدها وتدعوه إلى نفسها. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ قال الحسن: يعني، قد شق شغاف قلبها حبه. وقال عامر الشعبي: الشغوف المحب، والمشغوف المحبوب. وقال القتبي: ﴿قد شغفها حباً﴾ أي بلغ الحب شغافها، وهو غلاف القلب. ومن قرأ ﴿قد شعفها﴾ أي فتنها، من قولك: فلان شعوف بفلانة. ويقال: شغف الشيءُ الشيءَ إذا علاه ﴿قد شغفها﴾ أي علاها. ويقال: أهلكها، فلا تعقل غيره ﴿إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بيّن. ويقال: في عشق بيّن، فلا تعقل غيره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ يعني: سمعت زليخا بمقالتهن. وإنما سمّي قولهنّ مكراً والله أعلم، لأن قولهن لم يكن على وجع النصيحة والنهي عن المنكر، ولكن كان على وجه الشماتة والتعيير. ﴿أرسَلَتْ إِلَيهِنَّ﴾ فدعتهن ﴿وَأعتَدَتْ لَهُنَّ متكأً﴾ يعني: اتخذت لهن وسائد يتكئن عليها لجلوسهنّ، وذلك أنها اتخذت ضيافة، ودعت النسوة، ووضعت الوسائد لجلوسهن. وقال الفراء: من قرأ ﴿متكاً﴾ غير مهموز فإنه الأترج، وكذلك قال ابن عباس.

روى منصور عن مجاهد أنه قال: من قرأ مثقلة قال: يعني: الطعام، ومن قرأ: مخففة قال الأترج. ويقال: الزُمَاوَرْد وهو نوع من التمر. وقال عكرمة كل شيء يقطع بالسكين ﴿وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهنَّ سِكيناً﴾ يعني: أعطت زليخا كل واحدة من النسوة سكيناً، وأمرت يوسف بأن يلبس أحسن ثيابه، وزيّنته أحسن الزينة ﴿وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيهِنَّ﴾ يعني: اخرج على النساء، فخرج عليهن. روى أبو الأحوص عن ابن مسعود قال: «أوتي يوسف وأمه ثلث حسن الناس: في الوجه، والبياض، وغير ذلك. وكانت المرأة إذا رأت يوسف، غطى وجهه مخافة أن تفتن به. فلما خرج يوسف إلى النسوة غطى وجهه فنظرن إليه» ﴿فَلَمَّا رَأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ﴾ يقول: أعظمنه، أي:

Marfat.com

أعظمن شأنه، وتحيرن، وبقين مدهوشات طائرة عقولهن، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يقول: حززن، وخدشن أيديهن بالسكين، ولم يشعرن بذلك ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ يعني: معاذ الله ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ قرأ بعضهم: بالرفع. ﴿ما هذا بَشَرٌ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ما هذا ببشرٍ﴾ يعني: مثل هذا لا يكون بشراً. وقراءة العامة ﴿ما هذا بشراً﴾ بنصب الراء والتنوين، لأنه خبر «ما». ولأنه صار نصباً لنزع الخافض. ومعناه: ﴿ما هذا بشراً﴾ يعني: مثل هذا لا يكون آدمياً ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: على ربه. فإن قيل: إنهن لم يرين الملك، فكيف شبّهنه بشيء لم يرينه؟ قيل له: لأن المعروف عند الناس، أنهم إذا وصفوا أحداً بالحسن، يقولون: هذا يشبه الملك، كما أنهم إذا وصفوا أحداً بالقبح، يقولون: هو كالشيطان، وإن لم يروا الشيطان.

قرأ أبو عمرو ﴿حَاشَا لله﴾ بالألف. وقرأ الباقون: بغير ألف. وكذلك الذي بعده ﴿قَالَتْ﴾ زليخا للنسوة ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يقول: عذلتني فيه وعبتني فيه فهل عذرتنني؟ فقلن لها: أنت معذورة. قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع بنفسه مني ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ يعني: احبسه في السجن ﴿وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني: من المهانين بالسجن. ويقال: من المذلين. وقرأ بعضهم ﴿ليكونَنَّ﴾ بتشديد النون، وهذا خلاف مصحف الإمام. وقراءة العامة: ﴿وليكوناً﴾ لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف بالألف.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿رَبِّ﴾ يقول: يا سيدي ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾ النسوة ﴿إِلَيْهِ﴾ من العمل القبيح. قرأ بعضهم ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ﴾ بنصب السين على معنى المصدر. يقال: سجنته سَجْناً وهي قراءة شاذة. وقراءة العامة بالكسر يعني: نزول بيت السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، يعني به: امرأة العزيز خاصة. ويقال: أراد به النسوة اللاتي حضرن هناك، لأنهن قلن له: أطع مولاتك ولا تخالفها، فإن لها عليك حقاً. وقد اشترتك بمالها وهي تحسن إليك، وتحبك، وتطلب هواك. فقال: ﴿رب السجن أحب إليَّ﴾ وقال بعض الحكماء: لو أنه قال: رب العافية أحَبُّ إليّ، لعافاه الله تعالى. ولكن لما نجا بدينه، لم يبال بما أصابه في الله.

ثم قال: ﴿وإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ يعني: إذا لم تصرف عني عملهن وشرهن ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمل إليهن ﴿وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ يعني: من المذنبين.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فيما دعاه يوسف ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ يعني: فعلهن، وشرهن. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ يسمع لمن دعاه. ويقال: ﴿السميع﴾ للدعاء فيما دعاه يوسف ﴿العليم﴾ به.

Marfat.com

ثم إن المرأة قالت لزوجها: إن هذا الغلام العبراني لا يقلعُ عني، وقد فضحني في الناس، يعتذر إليهم ويخبرهم، ويقول: أنني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذري، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس وأخبرهم بحالي، وإما أن تحبسه حتى ينقطع حديثه فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ يعني: ثم بدا للزوج من بعد ما رأى شق القميص، وقضاء ابن عمها بينهما ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ قال الكلبي: فسجنه خمس سنين. ويقال: ﴿حتى حين﴾ يعني: إلى يوم من الأيام، أو إلى وقت من الأوقات.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧)﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ يعني: حبس معه في السجن الخباز والساقي، عبدان للملك غضب عليهما. يعني: صاحب شرابه، وصاحب مطبخه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ ليوسف ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْراً﴾ يعني: عنباً بلغة عمّان. قال الضحاك: إن ناساً من العرب يسمون العنب خمراً. ويقال: معناه، أعصر العنب الذي يكون عصيره خمراً، وذلك أنه قال: رأيت في المنام كأني دخلت كرماً فيه حبلة حسنة، فيها ثلاث من القضبان، وفي القضبان ثلاثة عناقيد عنب، قد أينع وبلغ، فأخذته وعصرته في الكأس، ثم أتيت به الملك فسقيته.

﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوقَ رَأْسِي خُبْزاً﴾ يقول: رأيت في المنام كأني أحمل فوق رأسي ثلاث سلال خبزاً ﴿تَأْكُلُ الطَّيرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ يقول: أخبرنا بتفسير هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من الموحدين. وذلك أنه ينصر المظلوم، ويعين الضعيف، وكان يداوي مرضاهم، ويعزي مكروبهم، فإذا احتاج واحد منهم، قام وجمع له شيئاً. ويقال: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ يعني: من الصادقين في القول، ويقال: كان متعبداً لربه، ويقال: كان أهل السجن يجتمعون عنده ويسألونه أشياء فيخبرهم، فقالا: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ يعني. نراك عالماً، وقد أحسنت العلم ﴿قَالَ﴾ لهما يوسف ﴿لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ يعني: تطعمانه ﴿إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتأويله﴾ يقول: أخبرتكما بتفسيره وألوانه ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ الطعام. وإنما أراد بذلك: أن يبيّن لهما علامة نبوته، وهذا مثل قول عيسى عليه السلام لقومه: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] فلما أخبر يوسف بذلك، قالا: وكيف تعلمُ ولسْتَ بساحرٍ ولا عرّاف ولا كاهن؟ قال يوسف: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أراد أن يبيّن لهما علامة نبوته لكي يسلما.

ثم قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ يعني: تبرأت من ﴿مِلَّةِ قَوْمٍ﴾ يعني: دين قوم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾

Marfat.com

أي: لا يصدّقون بوحدانية الله ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني: بالبعث جاحدون.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني: اتبعت دينهم ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما جاز لنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الآلهة ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ يعني: ويقال ذلك الإرسال الذي أرسل إليه بالنبوة من فضل الله ﴿عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ يعني: المؤمنين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: أهل مصر ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

ثم دعاهما إلى الإسلام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يعني: الخباز والساقي ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أي: الآلهة وعبادتها ﴿خَيْرٌ أَمْ﴾ عبادة ﴿اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾.

ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الآلهة ﴿إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: لا عذر ولا حجة بعبادتكم إياها، ﴿إِنِ الحُكْمُ﴾ يعني: ما القضاء فيكم ﴿إِلا للهِ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ يعني: أمر في الكتاب أن لا تطيعوا في التوحيد إلا إياه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ يعني: هذا التوحيد هو الدين المستقيم، وهو دين الإسلام الذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن دين الله هو الإسلام.

ثم أخبرهما بتأويل الرؤيا، بعد ما نصحهما ودعاهما إلى الإسلام، وأخذ عليهما الحجة فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ وهو الساقي. قال له يوسف: تكون في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج، فتكون على عملك، وتسقي سيدك خمراً. وقرأ بعضهم: ﴿فيُسقي﴾ بضمّ الياء من أسقيته إذا جعلتُ له سقياً يعني: تتخذ الشراب الذي تسقي للملك. قراءة العامة ﴿فَيَسْقِي﴾ بنصب الياء، يقال: سَقَيْتُهُ إذا ناولته.

ثم بيّن تأويل رؤيا الآخر فقال: ﴿وَأَمَّا الآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ﴾ يعني: يخرج من السجن بعد ثلاثة أيام ويصلب ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾. فلما أخبرهما يوسف بتأويل الرؤيا، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال لهما يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الأمر الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يعني: تسألان، رأيتماها أو لم ترياها، قلتما لي، وقلت لكما، فكذلك يكون. وروى إبراهيم النخعي

Marfat.com

عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «إنهما كان يتحاكما ليجرّباه، فلما أوّل رؤياهما، قالا: إنما كنا نلعب» قال يوسف: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُما﴾ يعني: قال يوسف عليه السلام للذي علم أنه ينجو من السجن والقتل وهو الساقي: ﴿اذْكُرنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ قال يوسف للساقي: إذا دعاك الملك وسقيته، فاذكرني عنده فإني مظلوم قد عدا عليّ إخوتي فباعوني. ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيطَانُ ذِكرَ ربه﴾ يعني: أنسى الشيطان يوسف أن يستغيث بالله تعالى، فاستغاث بالملك. وقال الفراء: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فأنسَاهُ الشَّيطَانُ﴾ قال: هو يوسف، أنساه الشيطان ذكر ربه، وأمره بذكر الملك، وابتغى الفرج من عنده[1] ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجنِ بِضعَ سِنينَ﴾ بقوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾.

وروى معمر عن قتادة أنه قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «لَوْ لَمْ يَسْتَعِنْ يُوسُفُ عَلَى رَبِّهِ، لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ»[2]. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد، يعني: من واحد إلى أربعة. وقال الأصمعي: ما بين الثلاث إلى التسع. هكذا قال قطرب، والسدي. وروى منصور عن مجاهد قال: البضع ما بين الثلاث إلى السبع. وذكر عبد العزيز بن عمر الكندي، أن يوسف رأى جبريل في السجن فقال له: يا أخا المنذرين، ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين، رب العزة يُقرِئُكَ السلام ويقول: أما استحييت مني إذ استشفعت بالآدميين؟ فبعزتي لألبثنك في السجن بضع سنين». قال بعضهم: بضع سنين أي سبع سنين، سوى الخمس الذي مكث فيه، وذلك اثنتا عشرة سنة. وقال بعضهم: جميع ما أقام فيه سبع سنين. وقال بعضهم: ثماني عشرة سنة.

ثمّ إن الملك رأى في المنام، واسم الملك ريان بن الوليد، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلِكُ إنّي أرى﴾ يعني: رأيت في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن من نهر مصر ثمّ خرج من بعدهنّ ﴿سبع بقرات عجاف﴾ هزلى، فابتلع العجاف السمان، فدخلن في بطونهن، فلم يرَ منهنّ شيء، ورأيت ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ يعني: سنبلات أخر يابسات ﴿يَا أيُّهَا

---

(١) عزاه السيوطي ٤/٥٤٢ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة.

(٢) عزاه السيوطي: ٤/٥٤١ إلى ابن جرير وأبي الشيخ.

Marfat.com

المَلأُ﴾ يعني: العرافين والسحرة والكهنة ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ يعني: عبروا رؤياي، وبيّنوا تفسيرها ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: تفسرون ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ يعني: أباطيل أحلام مختلطة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ يعني: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تفسير. وقال أهل اللغة: كل رؤيا لا تأويل لها، فهي ﴿أضغاث أحلام﴾ أي: أباطيل أحلام مختلطة، واحدها: ضِغْث.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يعني: تذكر بعد حين، أي بعد سبع سنين. وقال الزجاج: أصل ﴿ادَّكر﴾ إدتكر. ولكن التاء أبدلت بالدال وأدغم الدال في الدال. وقال القتبي: الأمة الصنف من الناس والجماعة كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] ثم تستعمل الأمة في الأشياء المختلفة. يقال للإمام: أمة كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] لأنه سبب للاجتماع. ويسمى الدين أمة كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على دين، لأن القوم يجتمعون على دين واحد، فيقام ذلك اللفظ مقامه. ويسمى الحين أمة كقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وكقوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] وإنما سمي الحين أيضاً أمة، لأن الأمة من الناس ينقرضون في حين، فيقام الأمة مقام الحين.

وقرأ بعضهم ﴿وادَّكَرَ بعد أَمَةٍ﴾ يعني: بَعْدَ نسيانٍ يقال: أمهْتُ أي: نسيت. وقال الفراء: يقال رجل مأموه، كأنه ليس معه عقل. فلما تذكر الساقي حال يوسف، جاء وجثا بين يدي الملك، وقال: ﴿أنا أنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ يعني: بتأويل ما رأيت من الرؤيا. وروي عن الحسن: أنه كان يقرأ: ﴿أنا آتيكم بتأويله﴾، وقراءة العامة ﴿أنَبِّئُكُمْ بتأويله﴾ فقال: وما يدريك يا غلام، ولست بمعبّر ولا كاهن؟ فقصّ عليه أمره الذي كان وقت كونه في السجن برؤيته الرؤيا، وتعبير يوسف لها، وصدق تعبيره على نحو ما وصفه له، وأخبره بحال يوسف وحكمته وعلمه وفهمه، قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ يعني: أرسلني أيها الملك إلى ﴿يوسف﴾ خاطبه بلفظ الجماعة، كما يخاطب الملوك. فأرسله الملك، فلما جاء إلى يوسف في السجن، فدخل عليه، واعتذر إليه بما أنساه الشيطان ذكر ربه، وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ يعني: يا يوسف أيها الصديق، و﴿الصديق﴾

Marfat.com

الكثير الصدق: يعني: أيها الصادق فيما عبرت لنا ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي يبتلعهنّ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ هزلى ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ يعني: إلى أهل مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَدْرَكَ ومنزلتك. ويقال: أرجع إلى الناس، يعني: إلى الملك لكي يعلم مكانك، فيكون ذلك سبباً لخلاصك إذا علم تعبير رؤياه. فعبر يوسف رؤياه وهو في الحبس، فقال: أما السبع البقرات السمان فهي سبع سنين خصب، أما السبع العجاف فهي سبع سنين شدة وقحط، ولا يكون في أرض مصر البر. وأما السبع السنبلات الخضر فهي الخصب، واليابسات هي القحط.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ يعني: ازرعوا سبع سنين ﴿دأباً﴾ يعني: دائماً ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من الزرع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ يعني: في كعبرته. فهو أبقى لكم لكي لا يأكله السوس إذا كانت في الكعبرة، ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: تدرسون بقدر ما تحتاجون إليه، فتأكلون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الخصب ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني: القحط سنين مجدبات ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يعني: ما وراء السبع السنين. ويقال: ﴿ما قدمتم﴾ يعني: ما جمعتم لهنّ ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يعني: تدّخرون، وتخزنون. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القحط ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني: يمطر الناس، والغيث: المطر. ويقال: هو من الإغاثة يعني: يغاثون بسعة الرزق ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني: ينجون من الشدة، ويقال: يعصرون العنب والزيتون. قرأ حمزة والكسائي: ﴿تَعْصِرُونَ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة. يعني: الناس. وقرأ بعضهم ﴿يُعْصَرُونَ﴾ بضم الياء، ونصب الصاد، يعني: يمطرون من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤] فرجع الساقي إلى الملك وأخبره بذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ قال بعضهم: كان الملك رأى الرؤيا ونسيها، فأتاه يوسف فأخبره بما رأى، وأخبره بتفسيره. ولكن في ظاهر الآية، دليل أن الملك كان ذاكراً لرؤياه، وأن يوسف عبّر رؤياه وهو في السجن، قبل أن ينتهي إلى الملك ﴿وقال الملك ائتوني به﴾ يعني: بيوسف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ برسالة الملك: أنّ الملك يدعوك ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني: إلى سيدك وهو الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يعني: سله حتى يتبيّن له أني مظلوم في حبسي، أو ظالم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يعني: إن سيدي وخالقي عالم بما كان منهن.

قال: حدّثنا الخليل بن أحمد. قال: حدّثنا إبراهيم الدبيلي. ـ قال: حدّثنا أبو عبيد الله، عن سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ:[(١)] ـ «لَوْلا الكَلِمَةُ الَّتِي قَالَ يُوسُفُ ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ وَلَقَدْ

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ وصَبْرِهِ، وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ أنا الَّذِي دُعِيتُ إِلى الخُرُوجِ لَبَادَرْتُهُمْ إِلى البَابِ، وَلكِنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ العُذْرُ[1] بِقَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ التي قطَّعن أَيْدِيهُنَّ﴾» قال ابن عباس: «لو خرج يوسف حين دعي، لم يزل في قلب الملك منه شيء. فلذلك ﴿قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة﴾.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ - وذلك أن الملك أرسل إلى النسوة وجمعهن، ثم سألهن[2] - فقال: ﴿ما خطبكن﴾ يعني: ما حالكن وشأنكن في أمركن؟ ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: طلبت امرأة العزيز إلى يوسف المراودة عن نفسه، هل ليوسف في ذلك ذنب؟ فأخبرن الملك ببراءة يوسف فقال: ﴿قُلْنَ حَاشَ لله﴾ يعني: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني: ما رأينا منه شيئاً من الفاحشة، ولم يكن له ذنب. فلما رأت امرأة العزيز، أن النسوة شهدن عليها، اعترفت على نفسها وأقرت بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ﴾ يعني: ظهر الحق ووضح، ويقال: استبان. قال الزجاج: اشتقاقه في اللغة من الحصَّة أي: بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل ومن جهته ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنه لم يراودني، وهو صادق فيما قال ذلك اليوم حيث قال: هي راودتني عن نفسي. قال يوسف عند ذلك: إنما فَعَلْت ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أني لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ﴾ يعني: لم أخنه في امرأته إذا غاب عني، فذلك قوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنهُ بالغيب وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ يعني: لا يرضى عمل الزانين.

وروى إسماعيل بن سالم، عن أبي صالح قال: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ قال: هو يوسف لم يخن العزيز في امرأته. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه لما قال يوسف ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أني لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ﴾ «قال له جبريل عند ذلك: ولا يوم هممت بما هممت به». قال يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾ يعني: من الهم الذي هممت به ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ يعني: بالمعصية. ويقال: القلب آمر للجسد بالسوء والإثم. يقال في اللغة: إذا أمرت النفس بشيء، فهي آمرة، وإذا أكثرت الأمر يقال: هي أمَّارة. فقال: ﴿إن النفس لأمارة

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

(٢) عزاه السيوطي: ٤/٥٤٥ إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

Marfat.com

بالسوء﴾ يعني: مائلة إلى الشهوات ﴿إلاَّ مَا رَحِم رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى من المعصية ﴿إنَّ رَبِّي غفورٌ﴾ للهم الذي هممت به ﴿رَحيمٌ﴾ حين تاب وعصمني وغفر لي

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائتوني بِهِ اسْتَخْلِصهُ لِنَفْسي﴾ يعني: أجعله في خاصة نفسي. فلما خرج يوسف من السجن، ودّع أهل السجن، ودعا لهم وقال: اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم، ولا تستر الأخبار عليهم. فمن ثم تقع الأخبار عند أهل السجن، قبل أن تقع عند عامة الناس. ولما دخل يوسف على الملك وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فأجابه يوسف بذلك كله. ثم تكلم يوسف بالعبرانية، فلم يحسنها الملك، فقال: ما هذا اللسان يا يوسف؟ قال: هذا لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

ثم كلمه بالعربية، فلم يحسنها الملك، فقال: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان عمي إسماعيل ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أمِينٌ﴾ في المنزلة ﴿أمين﴾ على ما وكلتك. قَالَ له يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزائِنِ الأرْضِ﴾ يعني: على خراج مصر ﴿إنِّي حَفِيظٌ﴾ للتدبير. ويقال: ﴿حفيظ﴾ بما وكلت به ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع الألسن. ويقال: ﴿عليم﴾ بأخذها ووضعها مواضعها. وإنما سأل ذلك صلاحاً للخلق، لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله. ويقال: ﴿حفيظ عليم﴾ يعني: عليماً بساعة الجوع. وكان الملك يأكل في كل يوم نصف النهار. فلما كانت الليلة التي قضى الله بالقحط فيها، أمر يوسف بأن يتخذ طعام الملك بالليل، فلما أصبح الملك قال: الجوع الجوع. فأتي بطعام مهيىء، قال: وما يدريكم بذلك؟ قالوا: أمرنا بذلك يوسف، ففوض الملك أموره كلها إلى يوسف، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يعني: صنعنا ليوسف ﴿في الأرْضِ﴾ يعني: أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ يعني: ينزل منها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾. قرأ ابن كثير ﴿حيث نَشاء﴾ بالنون يعني: حيث يشاء الله. وقرأ الباقون: بالياء ﴿حيث يشاء﴾ يوسف ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ نختص بنعمتنا: النبوة، والإسلام، والنجاة من نشاء ﴿وَلاَ نُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ يعني: لا نبطل ثواب الموحدين، حتى نوفيه جزاءه في الدنيا، ومع ذلك له ثواب في الآخرة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلأجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾

Marfat.com

يعني: ثواب الآخرة أفضل مما أعطي في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك.

وروي في الخبر: أن زوج زليخا مات، وبقيت امرأته زليخا. فجلست يوماً على الطريق، فمر عليها يوسف في حشمه، فقالت زليخا: الحمد لله الذي جعل العبد ملكاً بطاعته، وجعل الملك مملوكاً بمعصيته. وتزوجها يوسف فوجدها عذراء، وأخبرت أن زوجها كان عنيناً، لم يصل إليها. ثم وقع القحط بالناس حتى أكلوا جميع ما في أيديهم، واحتاجوا إلى ما عند يوسف. وكان يوسف قد جمع في وقت الخصب مقدار ما يكفي السنين المجدبة للأكل والبيع، فجعل الناس يعطونه أموالهم: العروض، والرقيق، والعقار، وغير ذلك، ويأخذون منه الطعام. ووقع القحط بأرض كنعان، حتى أصاب آل يعقوب الحاجة إلى الطعام، فقال يعقوب لبنيه: إنهم يزعمون أن بمصر ملكاً يبيع الطعام، فخرج بنو يعقوب وهم عشرة نحو مصر حتى أتوا يوسف فدخلوا عليه، وعليه زي الملوك فلم يعرفوه، فعرفهم يوسف، وكلموه بالعبرانية، فأرسل يوسف إلى الترجمان، وهو يعلم لسانهم. ولكنه أراد أن يشتبه عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يعني: عرف يوسف أنهم إخوته ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ يعني: لم يعرفوا أنه يوسف، لأنهم كانوا فارقوه في حال الصغر، وكان يوسف عليه زي الملوك، بخلاف ما كانوا كانوا رأوه في حال الصغر.

روى أسباط عن السدي وغيره، قال: استعمله الملك على مصر، وكان صاحب أمره الذي يلي البيع والتجارة. فبعث يعقوب بنيه إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف عرفهم. فلما نظر إليهم، قال: أخبروني ما أمركم؟ فإني أنكر شأنكم. قالوا: نحن قوم من أرض الشام. قال: فما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نمتار طعاماً. قال: كأنكم عيون كم أنتم؟ قالوا: عشرة. قال: أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف رجلٍ، فأخبروني خبركم. قالوا: إنا إخوة بنو رجل صديق، وإنا كنا اثني عشر، فكان أبونا يحب أخاً لنا، وهو هلك في الغنم، ووجدنا قميصه ملطخاً بالدم، فأتينا به أبانا، فكان أحبنا إلى أبينا منا. قال: فإلى من سكن منكم أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ له أصغر منه. قال: فكيف تخبروني أنه صديق، وهو يختار الصغير منكم دون الكبير؟ وكيف تخبروني أنه هلك، وبقي قميصه؟ فلو كان اللصوص قتلوه لأخذوا قميصه، ولو كان الذئب أكله لمزق قميصه. فإذاً كلامكم متناقض، احبسوهم. ثم قال: إن كنتم صادقين في مقالتكم، فخلفوا عندي بعضكم، واتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه، ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ قالوا: اختر أينا شئت، فارتهن شمعون، ثم أمر يوسف بوفاء كيلهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني: كال لهم كيلهم، وأعطى كل واحد منهم حمل بعير، ثم ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ يعني: أفضل من يضيف ويكرم الذي نزل به ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ يعني: بأخيكم ﴿فَلَا

Marfat.com

كَيلَ لَكُمْ عِندِي﴾ فيما تستقبلون ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ يعني: ولا تستقبلوا إليّ مرة أخرى، فإني لا أعطي لكم الطعام. قال الزجاج: القراءة بالكسر يعني: بكسر النون وهو الوجه. ويجوز ﴿ولا تقربون﴾ بفتح النون، لأنها نون الجماعة كما قال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] بفتح النون. قال: ويكون ﴿ولا تقربون﴾ لفظه لفظ الخبر، ومعناه: معنى النهي.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ يعني: سنطلب من أبيه أن يبعثه معنا ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ يعني: لصانعون ذلك فنطلبه من أبيه ليبعثه. ويقال: وإنا لضامنون ذلك ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿لفتيانه﴾ بالألف والنون، وقرأ الباقون ﴿لِفِتْيَتِهِ﴾. فقال أهل اللغة: الفتيان والفتية بمعنى واحد، وهم الغلمان والخدم. يعني: قال يوسف لغلمانه وقومه الذين يكيلون، يعني: الطعام ﴿واجعلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ يعني: دسوا دراهمهم في رحالهم. يعني: في جواليقهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ يعني: يعرفون كرامتي عليهم ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ يعني: إذا رجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الثانية.

قال الفراء: فيها قولان. أحدهما: أن يوسف خاف ألا يكون عند أبيهم دراهم، فجعل البضاعة في رحالهم لعلهم يرجعون، ولا يتأخرون عن الرجوع بسبب الدراهم. والآخر: أنهم إذا عرفوا بضاعتهم وقد اكتالوا الطعام، ردوها عليه ولا يستحلون إمساكها، لأنهم أنبياء الله تعالى لا يستحلون إمساك مال الغير ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ﴾ فيما نستقبل يعني: الحنطة، وأخبروه بالقصة قالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ يعني: يشتري هو ويكيلون لنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من الضيعة حتى نرده إليك. قرأ حمزة والكسائي ﴿يَكْتَلْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون. فمن قرأ بالياء، يعني: هو يكتال لنفسه، لأنهم كانوا لا يبيعون من كل رجل إلا وقراً واحداً. ومن قرأ بالنون، فمعناه: أن الملك قد أخبر أنه لا كيل لنا في المستقبل، فلو أرسلته معنا، فإنا نكتال منه. فلما أخبروه بذلك ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيهِ﴾ يعني: هل ائتمنكم عليه ﴿إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ومعناه: هكذا قلتم لي في أمر يوسف، ولا أقدر أن آخذ عليكم من العهد أكثر ما أخذت عليكم في يوسف من قبل. قرأ ابن مسعود: هل تحفظونه إلا كما حفظتم من قبل أخاه يوسف ﴿فَاللَّهُ خَيرٌ حَافِظاً﴾ منكم إن أرسلته معكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ حين خلصه من الجوع ولا بد من

Marfat.com

أن أرسله. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿حَافِظاً﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿حِفظاً﴾ بغير ألف، والحافظ الاسم، والحفظ المصدر.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ**﴾ يعني: أوعيتهم وجواليقهم ﴿**وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ**﴾ يعني: دراهمهم ﴿**رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا**﴾ لأبيهم ﴿**يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي**﴾ يعني: ما نكذب، إنه ألطف علينا وأكرمنا ﴿**هَذِهِ بِضَاعَتُنَا**﴾ أي: دراهمنا ﴿**رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا**﴾ يعني: نمتار لأهلنا، يعني: مار أهله، وأمار لأهله، إذا حمل إليهم قوتهم من غير بلده، يعني: ابعثه معنا لكي نحمل الطعام لأهلنا ﴿**وَنَحْفَظُ أَخَانَا**﴾ من الضيعة ﴿**وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعيرٍ**﴾ أي: حمل بعيرٍ من أجله.

روى الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة: أنه كان يقرأ ﴿رِدَّتْ إلينا﴾ بكسر الراء، لأن أصله رددت، فأدغمت إحدى الدالين في الأخرى، ونقل الكسر إلى الراء، وهي قراءة شاذة.

ثم قال: ﴿**ذَلِكَ كَيلٌ يَسيرٌ**﴾ يعني: سريع، لا حبس فيه إن أرسلته معنا ويقال: ذلك أمر هين الذي نسأل منك.

﴿**وَقَالَ**﴾ لهم يعقوب ﴿**لَنْ أرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ الله**﴾ يعني: تعطوني عهداً وثيقاً من الله ﴿**لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ**﴾ قال الكلبي: إلا أن ينزل بكم أمر من السماء، أو من الأرض. وروى معمر عن قتادة أنه قال: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. وقال مجاهد: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ يعني: تهلكوا جميعاً. وقال الفراء: إلا أن يأتيكم من أمر الله تعالى ما يعذركم. ﴿**فَلَمَّا آتَوهُ مَوْثِقَهُمْ**﴾ يعني: أعطوه عهودهم ﴿**قَالَ**﴾ يعقوب ﴿**الله عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ يعني: كفيلاً. ويقال: شهيداً.

ثم قال تعالى: ﴿**قَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ**﴾ يعني: قال يعقوب لبنيه حين أرادوا الخروج: يا بني لا تدخلوا من باب واحد، يعني: إذا دخلتم مصر، فلا تدخلوا من سكة واحدة، ومن طريق واحد. ويقال: من درب واحد ﴿**وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**﴾ يعني: من سكك متفرقة، ومن طرق شتى، لكي لا يظن بكم أحد أنكم جواسيس. ويقال: خاف يعقوب عليهم العين لجمالهم وقوتهم، وهم كلهم بنو رجل واحد. فإن قيل: أليس هذا بمنزلة الطيرة،

Marfat.com

وقد نهي عن الطيرة؟ قيل له: لا، ولكن أمر العين حق. وروي عن رسول الله ﷺ: «أنه كان يرقي من العين، ويتعوذ منها للحسن والحسين».

ثم قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللهِ﴾ يعني: من قضاء الله ﴿مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ﴾ يعني: ما القضاء ﴿إِلاَّ للهِ﴾ إن شاء أصابكم العين، وإن شاء لم يصبكم. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني: فوضت أمري وأمركم إليه ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ﴾ يعني: فليثق الواثقون.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِن حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ من السكك المتفرقة ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنهُمْ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: حذرهم لا يغني من قضاء الله من شيء، يعني: إن العين لو قدرت أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون، كما تصيبهم وهم مجتمعون.

ثم قال: ﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفسِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: حزازة في قلبه، وهي الحزن ﴿قَضَاهَا﴾ يعني: أبداها وتكلم بها. ويقال: معناه لكنْ لحاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يعني: علم يعقوب أنه لا يصيبهم إلا ما أراد الله تعالى وقدر عليهم. وعلم أن دخولهم في سكك متفرقة لا ينفعهم من قضاء الله تعالى من شيء. ويقال: معناه أنه عالم بما علمناه، ويقال: ﴿لذو علم لما علمناه﴾ أي: لتعليمنا إياه. ويقال: لذو حظ لما علمناه.

ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا يصيبهم إلا ما قدر الله تعالى عليهم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني: إخوته ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ يعني: ضمّ إليه أخاه بنيامين ﴿قال إني أنا أخوكَ﴾ قال بعضهم: أخبره في السر أنه أخوه. وقال بعضهم: لم يخبره، ولكن معناها: إني لك كأخيك الهالك. فأنزلهم يوسف منزلاً، وأجرى عليهم الطعام والشراب فلما كان الليل أتاهم بالفرش، وقال: لينام كل أخوين منكم على فراش واحد. ففعلوا، وبقي الغلام وحده فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي. فبات معه يوسف، يشم ريحه.

Marfat.com

ويقال: لما كان عند الطعام، أمر كل اثنين أن يأكلا في قصعة واحدة، وبقي بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخي في الأحياء، لأكلت معه. فقال له يوسف: إني أنا أخوك، يعني: بمنزلة أخيك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: لا تحزن بما يعيرون يوسف وأخاه بشيء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني: كال لهم كيلهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ يعني: وضع ودس الإناء ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين فخرجوا وحملوا الطعام، وذهبوا. فخرج يوسف على أثرهم حتى أدركهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ يعني: نادى منادٍ بينهم، واسم المنادي أفرايم من فتيان يوسف. قال: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إناء الملك، فانقطعت ظهورهم، وساء ظنهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: وأقبلوا إليهم وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ يعني: ماذا تطلبون ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال المنادي والغلمان ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال قتادة: ﴿صواع﴾ إناء الملك الذي يشرب فيه. وقال عكرمة: هو إناء من فضة[1]. وقال سعيد بن جبير: هو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، وكانت الأعاجم تشرب فيه[2]. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «كان إناء من فضة مثل المكوك، وكان للعباس واحد منها في الجاهلية». وروي عن أبي هريرة أنه قرأ: ﴿صاع الملك﴾ يعني: الصاع الذي يكال به الحنطة[3]. وقرأ بعضهم: ﴿صَوْعَ الملك﴾. وقرأ يحيى بن عمرو ﴿صَوْغَ الملك﴾ بالغين. يعني: إناء مصوغاً. وقراءة العامة: ﴿صُوَاعَ الْمَلك﴾ يعني: الإناء وهي المشربة من فضة. وكان الشرب في إناء الفضة مباحاً في الشريعة الأولى، وأما في شريعتنا فالشراب في إناء الفضة حرام.

ثم قال: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ يعني: قال المنادي: من جاء بالصوع فله حمل بعير من بر، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي أنا كفيل بتسليم ذلك إليه، لأن الملك يتّهمني في ذلك. ﴿فقالوا﴾ أي: أخوة يوسف ﴿تالله﴾ والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: ما جئنا لنعمل بالمعاصي في أرض مصر، ونخون أحداً. ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ وكان الحكم في أرض مصر للسارق: الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان: أنهم يأخذون السارق ويسترقونه، ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم ﴿قَالُوا﴾ يعني: المؤذن وأصحابه لأولاد يعقوب ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ يعني: فما جزاء السارق ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿جَزَاؤُهُ﴾ يعني: عقابه ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ يعني: في وعائه ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ يعني: الاستعباد جزاء سرقته ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب السارق في سنة آل يعقوب.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/٥٥٩ إلى ابن جرير وأبي الشيخ.
(٢) عزاه السيوطي: ٤/٥٥٩ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) عزاه السيوطي: ٤/٥٥٩ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري.

Marfat.com

كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

ثم قال: ﴿فَبَدَأَ﴾ يعني: المنادي، ويقال: يوسف ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ يعني: أوعية إخوته، وطلب في أوعيتهم ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فلم يجد فيها شيئاً. وروى معمر عن قتادة أنه قال: كلما فتح متاع رجل، استغفر الله تائباً مما صنع، حتى بقي متاع الغلام، فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، قالوا: بلى، فاستبرأه، فطلب، فوجد فيه، فاستخرجها من وعاء أخيه، فلما استخرجت من رحله انقطعت ظهور القوم وتحيروا وقالوا: يا بنيامين لا يزال لنا منكم بلاءٌ ما لقينا من ابني راحيل. فقال بنيامين: بل لقي ابنا راحيل منكم. فأما يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم، وأما أنا فسرقتموني. قالوا: فمن جعل الإناء في متاعك؟ قال: الذي جعل الدراهم في متاعكم. فسكتوا، فذلك قوله ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: كذلك صنعنا ليوسف، والكيد: الحيلة. يعني: كذلك احتلنا له وألهمناه الحيلة.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يعني: في قضاء ملك مصر، لأنه لم يكن في قضائه أن يستعبد الرجل في سرقته. ثم قال: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ يعني: وقد شاء الله أن يأخذه بقضاء أبيه. ويقال: ما كان يقدر أن يأخذ في ولاية الملك بغير حكم، إلا بمشيئة الله تعالى. ويقال: إلا أن يشاء الله ذلك ليوسف. ثم قال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني: من نشاء بالفضائل.

وقرأ أهل الكوفة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ بتنوين التاء. وقرأ الباقون: ﴿دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ﴾ بغير تنوين، على معنى الإضافة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يعني: ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى. وروى وكيع، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب، أن رجلاً سأل علياً عن مسألةٍ. فقال فيها قولاً، فقال الرجل: ليس هو كذا، ولكنه كذا. فقال: عليّ «أصبتَ وأخطأتُ» ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. وروي عن سعيد بن جبير، أن ابن عباس حدث بحديث، فقال رجل عنده: الحمدُ لله ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقال ابن عباس: «إن الله تعالى هو العالم، وهو فوق كل عالم».

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ يعني: قال إخوة يوسف: إن يسرق بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ يعني: فأضمر الكلمة يوسف ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ أي في قلبه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ يعني: لم يعلن لهم جواباً ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: صنيعاً من يوسف، لأن يوسف سرق الوثن، وأنتم تسرقون الصواع. وذلك أن يوسف كان سرق صنماً من

Marfat.com

ذهب، من خاله لاوي، وقال قتادة: ذكر لنا أنه سرق صنماً، كان لجده أبي أمه، فعيّروه بذلك.

﴿فقال: أنتم شر مكاناً﴾ لأن سرقتكم قد ظهرت، وسرقة أخيه لم تظهر إلا بقولكم، ولا ندري أنتم صادقون في مقالتكم أم لا؟ ﴿والله أعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني: بما تقولون. وروى عكرمة عن ابن عباس. قال: «عوقب يوسف ثلاث مرات: حين هَمَّ بها فسجن. وحين قال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فردوا عليه وقالوا: فقد سرق أخ له من قبل».

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أيُّهَا العَزِيزُ إنَّ لَهُ أباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ يعني: ضعيفاً حزيناً على ابن له مفقود ﴿فَخُذْ أحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ رهناً ﴿إنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾ إن فعلت ذلك إلينا، فقد أحسنت إلينا الإحسان كله. ويقال: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ إلى من أتاك من الآفاق فأحسِن إلينا. فقال يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ الله﴾ يعني: أعوذ بالله ﴿أن نأخُذَ﴾ رهناً ﴿إلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُونَ﴾ لو أخذنا غيره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيأسُوا مِنْهُ﴾ يعني: أيسوا من بنيامين أن يرد عليهم، ويقال: أيسوا من الملك أن يقضي حاجتهم ﴿خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ يعني: اعتزلوا يتناجون بينهم، ليس فيهم غيرهم. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يعني: كبيرهم في العقل وهو يهوذا. ولم يكن أكبرهم في السن، وهذا في رواية الكلبي ومقاتل. وقال في قوله تعالى: ﴿كبيرهم﴾ أي: أعلمهم وهو شمعون، وكان رئيسهم. وقال في قوله تعالى: ﴿كبيرهم﴾ أي كبيرهم في السن روبيل، وهو الذي أشار إليهم ألا يقتلوه ﴿ألَمْ تَعْلَمُوا أنَّ أبَاكُمْ قَدْ أخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ الله﴾ يعني: عهداً من الله في هذا الغلام ﴿لَتَأتُنَّنِي بِهِ﴾ أي: لتردنه إليّ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ يعني: ما تركتم وضيعتم العهد في أمر يوسف من قبل هذا الغلام ﴿فَلَنْ أبْرَحَ الأرْضَ﴾ يعني: فلن أترك أرض مصر ﴿حَتَّى يأذَنَ لي رَبِّي﴾ أي: حتى يبعث إليّ أحداً أن آتيه ﴿أوْ يَحْكُمَ الله لِي﴾ فيرد عليّ أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين، وأفصل الفاصلين.

وروى أسباط، عن السدي. أنه قال: كان بنو يعقوب إذا غضبوا، لم يطاقوا. فغضب

Marfat.com

روبيل، فقال: أيها الملك والله لتتركنا أو لأصيحن صيحة لا تبقى امرأة حامل إلا ألقت ما في بطنها، وقامت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه. وقال ابن عباس: «كان يهوذا إذا غضب وصاح، لم تسمع صوته امرأة حامل إلا وضعت حملها، وتقوم كل شعرة في جسده، فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فيسكن. فقال يوسف لابن له صغير: اذهب وضع يدك عليه، فذهب ووضع يده عليه، فسكن غضبه، فقال: إن في هذا الدار أحداً من آل يعقوب».

ثم قال لإخوته: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ يعني: قال يهوذا ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابنكَ سَرَقَ﴾ أي: سرق الصواع، يعني: إناء الملك. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿إِنَّ ابنكَ سُرِّقَ﴾ بضم السين وكسر الراء مع التشديد، يعني: اتهم بالسرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي: وما قلنا إلا ما رأينا حين أخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ يعني: وما كنا نرى أنه سرق، ولو علمنا ما ذهبنا به. ويقال: إنا لم نطلع على أنه سرق، ولكنهم سرّقوه.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿واسْأَلِ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: سلْ أهل القرية. قال الكلبي: وهي قرية من قرى مصر. ويقال: هي مصر بعينها. ويقال: هو المنزل الذي أذن المؤذن فيه، إنكم لسارقون ﴿والعِيرَ التي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ يعني: سل أهل العير الذين كانوا معنا من أرض كنعان ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا. فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول، فاتهمهم يعقوب فقال: كلما خرجتم من عندي، نقصتم واحداً، ذهبتم مرة فنقصتم يوسف. وذهبتم مرة فنقصتم شمعون، وذهبتم الآن ونقصتم بنيامين، فقد صرتم كالذئاب يأكل بعضهم بعضاً.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أمراً﴾ يعني: قال يعقوب: اشتهت وزينت لكم قلوبكم ﴿أمراً﴾ فصنعتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يعني: عليّ صبر جميل حسن، من غير جزع، لا أشكو فيه إلى أحد ﴿عَسَى الله أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يعني: لعل الله أن يرد عليّ يوسف ويهوذا وبنيامين ﴿إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ﴾ بمكانهم ﴿الحَكِيمُ﴾ أن يحكم بردهم عليّ.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يعني: أعرض عن بنيه وخرج عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني: يا حزناً على يوسف، والأسف: أشد الحسرة ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ﴾ يعني: من البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: مغموماً مكروباً، يتردد الحزن في جوفه. والكظيم والكاظم بمعنى واحد، مثل القدير والقادر. وهو الممسك على حزنه، لا يظهره ولا يشكوه. وروي عن الحسن أنه قال: مكث يعقوب ثمانين سنة ما تجف دموعه، ولا يفارق قلبه الحزن يوماً، وما كان على الأرض يومئذٍ أحد أكرم على الله منه. قال: وألقي يوسف في الجب وهو

Marfat.com

يومئذٍ ابن سبع سنين، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعدما جمع الله شمله ثلاثاً وعشرين سنة. وروي عن ابن عباس أنه قال: «غاب يوسف عنه اثنين وعشرين سنة». وقال سعيد بن جبير: ما أعطيت أمة من الأمم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] غير هذه الأمة، ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال: ﴿يا أسفى على يوسف﴾ وروي عن إبراهيم بن ميسرة أنه قال: لو أن الله أدخلني الجنة، لعاتبت يوسف بما فعل بأبيه، حيث لم يكتب إليه كتاباً، ولم يعلمه حاله، ليسكن ما به من الغم.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ يعني: أن بنيه قالوا ليعقوب: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي: دنفاً من الوجع. ويقال: حتى تبلى وتهرم. وقال القتبي: لا تحذف من الكلام، ويراد به إثباتها، لقوله: ﴿تفتؤ﴾ أي: لا تفتأ، أي لا تزال تذكر يوسف كقوله ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] أي: لكيلا تحبط أعمالكم ﴿حتى تكون حرضاً﴾. وقال الربيع بن أنس: حتى تكون بالياً، يابس الجلد، وقال محمد بن إسحاق: ﴿حتى تكون حرضاً﴾ يعني: لا عقل لك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يعني: من الميتين. وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت، والهالك الميت ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ يعني: همي وغمي ﴿إِلَى الله﴾ لما رأى من فظاظتهم، وسوء لفظهم، ولا أشكو ذلك إليكم. وقال القتبي: البث أشد الحزن، إنما سمي الحزن البث، لأن صاحبه لا يصبر عليه، حتى يبثه أي: يفشوه.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أن يوسف حي، وليس بميت. وإنما كان يعلم ذلك من تحقيق رؤيا يوسف، حين رأى في المنام أحد عشر كوكباً، أن ذلك سيكون. ويقال: إن يعقوب رأى ملك الموت في المنام، وسأله: هل قبضت روح قرة عيني يوسف؟ قال: لا، ولكن هو في الدنيا حي، فلذلك قال: ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخيه﴾ يعني: انطلقوا إلى مصر، فاطلبوا خبر يوسف ﴿وَأَخِيهِ﴾ قالوا له: أما بنيامين فلا نترك الجهد في أمره، وأما يوسف فإنه ميت، وإنا لا نطلب الأموات. فقال لهم يعقوب: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله﴾ يعني: لا تقنطوا من رحمة الله ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: الجاحدين لنعمة الله.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾

Marfat.com

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يعني: رجعوا إلى يوسف، ودخلوا عليه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعني: أصابنا وأهلنا الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ قال الحسن يعني: قليلة. وقال: المزجاة النفاية. وكان لا يؤخذ في الطعام إلا جيداً في ذلك الوقت، لأن الطعام كان عزيزاً، فلا يؤخذ فيها إلا الجيد. وعن عبد الله بن الحارث في قوله: ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ قال: متاع الأعراب الصوف والسمن واللبن، ونحو ذلك. وعن ابن عباس قال: «يعني جئنا بدراهم رديئة». وقال سعيد بن جبير: بدراهم زيوف ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يعني: أتمم لنا الكيل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ يعني: وتصدق علينا ما بين الثمنين. يعني: ما بين الجيد والرديء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني: يثيبهم في الآخرة بما صنعوا. وقال ابن عباس: «لو علموا أنه مسلم لقالوا: إن الله يجزيك بالصدقة». يعني: إنه كان يلبس عليهم فلا يعرفون حاله ومذهبه. فأخرج يوسف الكتاب الذي كان كتبه يهوذا حين باعوا يوسف، ودفعه إليهم، فعرف يهوذا خطه، وقالوا: نحن بعنا هذا الغلام إذ كنا نرعى الغنم. فقال لهم: ظلمتم، وبعتم الحر. فدعا يوسف بالسيافين وأمرهم بأن يقتلوا إخوته جميعاً، فاستغاثوا كلهم، وصرخوا، وقالوا: إن لم ترحمنا فارحم الشيخ الضعيف، فإنه قد جزع على ولد واحد، فكيف إنْ هلكَ أولاده كلهم. ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني: مذنبون ووصف لهم ما فعلوا به.

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ يوسف﴾ بهمزة واحدة، وكسر الألف، يعني: حققوا أنه يوسف. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر: ﴿أَإِنَّكَ﴾ بهمزتين على معنى الاستفهام. يعني: إنك يوسف أم لا؟ وقرأ نافع وأبو عمرو، ﴿آينك﴾ بهمزة واحدة مع المد. ومعناه: مثل الأول على معنى الاستفهام ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ يعني: أنعم علينا بالصبر ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَقِ﴾ الله تعالى ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلاء ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ثواب الصابرين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ يعني: إخوة يوسف اعتذروا إليه فقالوا: لقد فضلك الله علينا، واختارك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يقول: وقد كنا لعاصين لله تعالى فيما صنعنا بك

Marfat.com

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم الْيَوْمَ﴾ يعني: لا تعيير عليكم اليوم، ولا عيب، ولا عار عليكم. وأصل التثريب: الإفساد. ويقال: ثرب الأمر علينا علينا إذا أفسد. ثم قال: ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ من غيره.

ثم قال تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وروي عن وهب بن منبه قال: كان القميص من الجنة، وهو القميص الذي ألبس جبريل لإبراهيم، حين ألقي في النار، فبردت عليه النار، فصار عند إسحاق، ثم صار عند يعقوب، فجعله يعقوب في عوذه، وعلّقه في عنق يوسف، فكان معه حين ألقي في الجب، ونزع عنه قميصه، فبشره جبريل، وألبسه في الجبِّ، وكان القميص معه، وقال لإخوته: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصي هَذَا﴾ ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ أي: يعود إليه بصره. وذلك أنه سألهم فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: لما فارقه بنيامين، عمي من الحزن. قال: ﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ فألقوه على وجه أبي، يأت بصيراً، كما كان أول مرة.

ثم قال: ﴿وَائْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فاختلفوا فيما بينهم، فقال كل واحد منهم: أنا أذهب به، فقال يوسف: يذهب به الذي ذهب بقميصي الأول. فقال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص الأول، وهو ملطخ بالدم وأخبرته بأنه قد أكله الذئب، وأنا اليوم أذهب بالقميص فأخبره أنه حي وأفرحه كما أحزنته. وأمر لهم بالهدايا والدواب والرواحل، فتوجهوا نحو كنعان.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ يعني: خرجت العير من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال ابن عباس: «لما خرجت العير، هاجت ريح، فجاءت بريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال، فقال يعقوب: إني لأشم ريح يوسف» ﴿لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ يقول لولا أن تعيِّروني وتجهّلوني. يقال: فنده الهرم، إذا خلط في كلامه ﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ يعني: ولد ولده قالوا ليعقوب: إنك مختلط في الكلام كما كنت في القديم من ذكر يوسف.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يعني: جاء يهوذا بالبشارة ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ يعني: دفع القميص إليه، ووضعه على وجهه، فذلك قوله: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ يعني: رجع بصيراً كما كان ﴿قَالَ﴾ يعقوب لولد ولده ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ويقال: قال لولده: ألم أقل لكم حين قلت لكم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ

Marfat.com

تَعلَمُونَ﴾ أن يوسف في الأحياء ﴿قَالُوا يا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فاعتذروا إليه لما فعلوا به، وطلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بذنبهم أنهم كانوا خاطئين حيث قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾. ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ يعني: عند السحر استغفر لكم. ويقال: معناه سوف استغفر لكم إن شاء الله على وجه التقديم في قوله: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمنِينَ﴾، فأخر الاستغفار، إلى أن قدموا مصر، فاستغفر لهم ليلة الجمعة عند السحر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع وندم على ما فعل. فخرجوا كلهم بأثقالهم وأهاليهم ومواشيهم، وكانوا اثنين وسبعين رأساً، وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «كان أهل بيت يعقوب حين دخلوا مصر ثلاثة وسبعين إنساناً، رجالهم ونساؤهم، فخرجوا مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، فلما دنوا من مصر، خرج يوسف بجماعته وحاشيته حتى أدخلهم مصر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ﴾ أي: ضمّ إليه ﴿أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمنِينَ﴾ قال أبو عبيدة: هذا من كلام يعقوب، حيث قال: سوف استغفر لكم إن شاء الله، وكذلك قال ابن جريج. ويقال: هذا من كلام يوسف. قال لهم حين دخلوا مصر: انزلوا بأرض مصر. ويقال: إنما قال لهم قبل أن يدخلوها ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ من الجوع. ويقال: من الخوف، لأنها أرض الجبابرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني: على السرير. أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله. قال مقاتل: يعني أباه وخالته، وكانت أمه راحيل قد ماتت، وخالته تحت يعقوب أبيه. وعن وهب بن منبه قال: أبوه وخالته. وعن سفيان الثوري مثله، وهو قول ابن عباس. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الخالة أم». ويقال: إن أمه راحيل قد ماتت في ولادة بنيامين، ولذلك سمي بنيامين، واليامين وجع الولادة بلسانهم.

ثم قال: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ على وجه التقديم، يعني: ﴿وخرّوا له سجداً﴾ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ وكانت تحيتهم: أن يسجد الوضيع للشريف، فسجد له إخوته وأبوه وخالته. ﴿وَقَالَ﴾ يعني: يوسف عند ذلك ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: هذا السجود تحقيق رؤياي من قبله ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقاً﴾ يعني: جعل رؤياي صدقاً. ويقال: كائناً. وروي

Marfat.com

﴿وَقَالَ﴾ يعني: يوسف عند ذلك ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: هذا السجود تحقيق رؤياي من قبله ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ يعني: جعل رؤياي صدقاً. ويقال: كائناً. وروي عن ابن عباس أنه قال: «كان بين رؤياه وبين ذلك: اثنان وعشرون سنة». وروى أبو عثمان النهدي، عن سلمان أنه قال: «كان بين رؤياه، وبين أن رأى تأويلها، أربعون سنة». وعن عبد الله بن شداد بن الهاد أنه قال: «وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة، وإليه ينتهي الرؤيا». وقال السدي: «كان بينهما تسع وثلاثون سنة». وقال: حين رأى رؤياه: كان يوسف ابن تسع سنين، فظهر تأويلها وهو ابن أربعين سنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ﴾ يعني: جاء بكم معافين سالمين من البادية. يعني: أرض كنعان و﴿مِن بَعْدِ أَن نَزَغَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: من بعد أن أفسد وألقى الشيطان ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ من الفرقة، والجماعة. ويقال: ﴿لطيف﴾ في فعاله، إن يشأ فرق، وإن يشأ جمع ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما صنعوا ﴿الْحَكِيمُ﴾ إذ رد عليّ أبي، وجمع بيني وبين إخوتي.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: إن الله تعالى مدح يوسف في هذه السورة، في ثمانية مواضع. أولها: أن أخوته لما فعلوا به ما فعلوا، صرف العداوة من إخوته إلى الشيطان. فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوتِي﴾ والثاني: حين راودته المرأة، قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فعرف حرمة سيده، ولم يهتك حرمته. الثالث: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فاختار السجن على الشهوة الحرام. والرابع: قال: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ بعد ما ظهر أن الذنب كان من غيره. والخامس: لما اعتذر إليه إخوته، قال لهم: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ والْيَوْمَ﴾ والسادس: أنه بعث القميص على يد إخوته كما أدخلوا على أبيهم الحزن في الابتداء، أراد أن يدخلوا عليه السرور، فقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ والسابع: لما لقي أباه، لم يذكر عنده ما لقي من الشدة، وإنما ذكر المحاسن حيث قال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ البَدْوِ﴾. والثامن: لما تمّ أمره، تمنى الموت وترك الدنيا، قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني من الملك. يعني: بعض الملك، وهو ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ يعني: بعض التأويل. ويقال: ﴿من﴾ ههنا لإبانة الجنس، لا للتبعيض. ومعناه ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني تأويل الأحاديث﴾ يعني: تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خالق السموات والأرض ﴿أَنتَ وَلِيـيِّ فِي الدُّنْيَا

Marfat.com

وَالآخِرَةِ﴾ يعني: وليّ نعمتي في الدنيا والآخرة، ويقال: أنت حافظي وناصري وربّي في الدنيا والآخرة، ﴿توفّني مسلماً﴾ يعني: أمتني مخلصاً بتوحيدك ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني: بآبائي المرسلين. ويقال: عاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة، وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة. وعاش يوسف بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة. ويقال: ابن مائة وعشر سنين. وأوصى يعقوب بأن يدفن عند آبائه، فحمل إلى الأرض المقدسة، فدفن مع أخيه عيصو بن إسحاق عليهم السلام. فلما مات يوسف، أرادوا أن يحملوه إلى الأرض المقدسة، فلم يتركهم أهل مصر، واختلفوا في دفنه، وأراد أهل كل محلة أن يدفن في مقابرهم، وكاد أن يقع بينهم قتال، حتى اصطلحوا واتفقوا على أن يدفن عند قسمة مياههم في أعلى مصر، لكي يصيب بركته أهل مصر، وكان هناك إلى زمن موسى عليه السلام، فرفعه موسى، وحمله إلى الأرض المقدسة، ووضعه عند آبائه، وقد كان يوسف أوصى إلى بني إسرائيل أن يحملوا عظامه من أرض مصر إذا خرجوا من أرض مصر.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يقول: من أخبار ما غاب عنك علمه يا محمد ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني: ننزل عليك جبريل بالقرآن ليقرأه عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يعني: وما كنت عند إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ يعني: قولهم أن يطرحوا يوسف في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: يحتالون ليوسف.

ثم قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ في الآية تقديم ومعناه: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت لعلم الله السابق فيهم. ويقال: ﴿ولو حرصت بمؤمنين﴾. يعني: من قدّرت عليه الكفر، وعلمتُ أنه أهل لذلك، لا يؤمن بك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ من أجرٍ﴾ يعني: على الإيمان يعني: إن لم يجيبوك، فلا تبال، لأنهم لا ينقصون من رزق ربك شيئاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني: ما هذا القرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ﴾ يعني: وكم من علامة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض الأمم الخالية، والأشياء التي خلقت في الأرض، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني: مكذبين، لا يتفكرون فيما قال.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ فهذا إيمان منهم. ثم هم يشركون». وقال القتبي وهم في غيره مشركون، قد يكون في معانٍ، فمن الإيمان تصديق ببعض، وتكذيب ببعض. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] يعني: مقرون أن الله خالقهم، وهم مع ذلك يجعلون لله شريكاً. وقال الضحاك: كانوا مشركين في تلبيتهم. وقال عكرمة: يعلمون أنه ربهم، وهم مشركون به من دونه.

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ يعني: يغشاهم العذاب، ويقال: غاشية قطعة ﴿مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يعني: فجاة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني: ديني الإسلام، ويقال: هذه دعوتي ﴿أدْعُوا﴾ الخلق ﴿إِلَى اللهِ﴾ تعالى. ويقال: أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين وحقيقة. ويقال: على بيان ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يعني: من اتبعني على ديني، فهو أيضاً على بصيرة ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ تنزيهاً له عن الشرك ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأنبياء كانوا من الآدميين، ولم يكونوا من الملائكة. قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ بالنون. وقرأ الباقون بالياء ﴿يُوحَى إِلَيْهِمْ﴾، ومعناهما واحد ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ يعني: منسوبين إليها. ثم أمرهم بأن يعتبروا، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: يسافروا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ويقال: يقرؤوا القرآن ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يعني: يعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كيف كان آخر المنذرين من قبلهم من الأمم الخالية ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة أفضل من الدنيا.

ثم رجع إلى حديث الرسل الذين كذبهم قومهم، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ يعني: أيسوا من إيمان قومهم أن يؤمنوا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قرأ أهل الكوفة: عاصم وحمزة والكسائي ﴿كُذِبُوا﴾ بتخفيف الذال. وقرأ الباقون: بالتشديد. وروى الأعمش، عن أبي

Marfat.com

الضحى، عن ابن عباس، أنه قرأ: ﴿كُذِبُوا﴾ بتخفيف الذال. ويقال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم بالنصرة.

وروى ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس أنه قال: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال: «كانوا بشراً فضعفوا وسئموا وظنوا أنهم قد كذبوا، وأشار بيده إلى السماء». قال ابن أبي مليكة: فذكرت ذلك لعروة. فقال: قالت عائشة رضي الله عنها: «معاذ الله ما حدث رسوله شيئاً إلا وعلم الله أنه سيكون قبل أن يموت. قالت: ولكن نزل بالأنبياء البلاء حتى خافوا أنْ يكون من معهم من المؤمنين كذبوهم؛ وكانت تقرأ ﴿قد كُذِّبُوا﴾ بالتشديد. وعن عائشة قالت: «استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم، وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم»(١). وقال القتبي: الذي قالت عائشة أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله تعالى ﴿جاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: للأنبياء بالنصرة.

ثم قال: ﴿فَنُجِيَ مَنْ نَشاءَ﴾ يعني: من آمن بالأنبياء. قرأ عاصم وابن عامر: ﴿فَنُجِّيَ من نشاء﴾ بنون واحدة مع التشديد، وقرأ الباقون بالنونين إلا أن من قرأ بنون واحدة، أدغم إحداهما في الأخرى ثم قال: ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الكافرين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ يعني: في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ يعني: لذوي العقول. يعني: عجيبة لمن له عقل، لكيلا يحسد أحد أحداً. ويقال: لمن أراد أن يعتبر بيوسف، ويقتدي به، ولا يكافيء أحداً بسيئة. ويقال: ﴿عبرة﴾ يعني: دلالة لنبوة محمد ﷺ لمن أراد أن يؤمن به ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾ يعني: مثل هذا الكلام لا يكون اختلاقاً وكذباً ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: بيان الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: رحمة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بتوحيد الله تعالى، وبمحمد ﷺ، وبالقرآن والله أعلم.

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ٥٩٥ إلى أبي عبيد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عروة عن عائشة.

Marfat.com

سورة الرعد

وهي: أربعون وخمس ايات كلها مكية، غير آيتين: قوله تعالى ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾. ويقال: كلها مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿المر﴾ قال ابن عباس: أنا الله أعلم وأرى، ويقال: معناه أنا الله أعلم وأرى ما تحت العرش إلى الثرى، وما بينهما. ويقال: أنا الله أعلم وأرى ما لا يعلم الخلق، وما لا يرى. ويقال: أنا الله أعلم، وأرى ما يعملون ويقولون. ويقال: هذا قسم أقسم الله به ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال قتادة: يعني: التي قبل القرآن، من التوراة والإنجيل ﴿وَالَّذِي﴾ يعني: القرآن ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: الكتب التي قبل القرآن، والقرآن الذي أُنزل إليك، كله من الله تعالى وهو الحق، والإيمان به واجب. وقال ابن عباس: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ يعني: تلك «آيات القرآن». ومعناه: هذه آيات الكتاب. ﴿والذي أُنزل من ربك هو الحق﴾ يعني: القرآن. ويقال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ يعني: الأحكام والحجج والدلائل ﴿والذي أنزل إليك﴾ يعني: جبريل، ليقرأ عليك من ربك الحق. يعني: اتبعوه واعملوا به. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون أنه من الله تعالى.

فلما ذكر أنهم لا يؤمنون، بيّن في الدلائل التي توجب التصديق بالخالق، **فقال تعالى:** ﴿الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ يعني: ليس لها عمد ترونها، يعني: بلا عمدٍ تبصرونها، وهذا قول الحسن وقتادة: وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: معناه، «لها عمد، ولكن لا ترونها. يعني: أنتم ترونها بغير عمد في المشاهدة، ولكن لها عمد». وكلا التفسيرين معناهما واحد، لأن من قال: إن لها عمداً ولكن لا ترونها، يقول: العمد هو قدرة الله تعالى التي تمسك السموات والأرض.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس: «كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض»، وقد ذكرناه من قبل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني: ضوء الشمس بالنهار، وضوء

Marfat.com

القمر بالليل، ذلك لبني آدم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يقول: يسير إلى وقت معلوم لا يجاوزه، وللشمس والقمر منازل، كل واحد منهما يغرب في كل ليلة في منزل ويطلع في منزل، حتى ينتهي إلى أقصى منازله ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يعني: يقضي القضاء، ويبعث الملائكة بالوحي والتنزيل ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يقول: يبيّن العلامات في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ يعني: تصدقون بالبعث.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ يعني: بسط الأرض من تحت الكعبة على الماء، وكانت تكفي بأهلها كما تكفي السفينة، فأرساها الله بالجبال الثقال، وهو قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ فيها رواسي﴾ يعني: الجبال الثوابت من فوقها ﴿وَأَنهاراً﴾ يعني: خلق في الأرض أنهاراً ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: خلق فيها من ألوان كلّ الثمرات ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: خلق من كل شيء لونين من الثمار، حلواً وحامضاً. ومن الحيوان ذكراً وأنثى.

﴿يُغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ﴾ يعني: يعلو الليل على النهار، ويعلو النهار على الليل، واقتصر بذكر أحدهما إذا كان في الكلام دليل عليه. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يُغَشّي﴾ بنصب الغين، وتشديد الشين. وقرأ الباقون: بالجزم والتخفيف. ثم بيّن أن ما ذكر من هذه الأشياء، فيه برهان وعلامات لمن تفكر فيها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: فيما ذكر من صنعه ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني: لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في اختلاف الليل والنهار، فيوحّدونه.

ثم بيّن أن في الأرض علامات كثيرة، ودلائل كثيرة لوحدانيته، لمن له عقل سليم فقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ يعني: بالقطع الأرض السبخة، والأرض العذبة. ﴿متجاورات﴾ يعني: مُلتصقات متدليات قريبة بعضها من بعض، فتكون أرضاً سبخة، وتكون إلى جنبها أرض طيبة جيدة. وقال قتادة: ﴿قطع متجاورات﴾ أي: قرى متجاورات، ويقال: العمران، والخراب، والقرى والمفاوز. ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ يعني: الكروم ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيرُ صِنْوَانٍ﴾ قرأ بعضهم: بضم الصاد. وقراءة العامة: بالكسر. وهما لغتان ومعناهما واحد. قال مجاهد وقتادة: الصنوان النخلة التي في أصلها نخلتان، وثلاث أصلهن واحد. وقال الضحاك: يعني: النخل المتفرق والمجتمع ويقال: ﴿صنوان﴾ النخلة التي بجنبها نخلات ﴿وغير صنوان﴾ يعني: المنفردة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ تُؤْذُونِي فِي العَبَّاسِ، فإِنَّهُ

Marfat.com

بَقِيةُ آبَائي، وإِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ». قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص: ﴿وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ﴾ كلها بالضم على معنى الابتداء. وقرأ الباقون: بالكسر على معنى النعت للجنات، ويقال: على وجه المجاورة، لأن الزرع لا يكون في الجنات.

ثم قال: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ يعني: أن الماء والتراب واحد، ويكون الثمار مختلفة في ألوانها وطعومها، فدلّ على نفسه وبراهينه على من ضلّ عنه، لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب، لوجب في القياس أن لا تختلف الألوان والطعوم، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا ثبت في مغرس واحد، وسقي بماء واحد، ولكنه صنع اللطيف الخبير. وقال مجاهد: هذا مثل لبني آدم، أصلهم من أب واحد، ومنهم صالح ومنهم خبيث.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني: فيما ذكر ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أنه من الله تعالى. قرأ حمزة والكسائي: ﴿يُسْقَى﴾ بالياء وَ﴿يُفَضِّلُ﴾ بالياء، وقرأ عاصم وابن عامر في إحدى الروايتين: ﴿يُسْقَى﴾ بالياء بلفظ التذكير، ﴿ونُفَضِّلُ﴾ بالنون. وقرأ الباقون: ﴿تُسْقَى﴾ بالتاء ﴿ونُفَضِّلُ﴾ بالنون.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال الكلبي: يعني: إن تعجب من تكذيب أهل مكة لك، وكفرهم بالله، ﴿فعجب قولهم﴾ يقول: أعجب من ذلك قولهم. ﴿أئذا كُنّا تُراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ وقال مقاتل: ﴿وإن تعجب﴾ مما أوحينا إليك من القرآن، فعجبٌ. قولهم: ﴿أئذا كنا تراباً﴾ ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إكذاباً منهم بالبعث. قرأ الكسائي: ﴿أإذَا﴾ بهمزتين على وجه الاستفهام. وقرأ عاصم وحمزة كليهما: بهمزتين. وقرأ أبو عمرو: ﴿آيِذَا﴾ بهمزة واحدة مع المد، وكذلك في قوله: ﴿آينّا﴾ بالمد. وقرأ ابن كثير: ﴿أيذَا﴾ بالياء، وكذلك ﴿أينّا﴾، وقرأ ابن عامر ﴿إِيذَا كُنّا﴾ بهمزة واحدة بغير استفهام، ﴿أيِنّا﴾ بالهمزة والمد. قال: لأنهم لم يشكوا في الموت، وإنما شكوا في البعث، فينبغي أن يكون الاستفهام في الثاني دون الأول.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يعني: تغل أيمانهم على أعناقهم بالحديد في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: دائمون فيها، ولا يخرجون منها.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال ابن عباس: «سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم العذاب استهزاءً منهم بذلك، فنزل» ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ يعني: بالعذاب قبل العافية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ يعني: قد مضت من قبلهم العقوبات والنقمات قبل قريش فيمن هلك، وأصل المثلة: الشبه وما يعتبر به، وجمعه المثلات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يقول: تجاوز ﴿لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ يعني: على شركهم إن تابوا. ويقال: بتأخير العذاب عنهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن مات منهم على شركه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يعني: هلاّ أنزل على محمد ﷺ علامة من ربه لنبوته.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ يعني: مخوفاً ومبلغاً لهذه الأمة الرسالة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال الكلبي: داعٍ يدعوهم إلى الضلالة، أو إلى الحق. وقال الضحاك: يعني: ﴿إنما أنتَ منذر﴾ وأنا الهادي. وقال سعيد بن جبير الهادي هو الله. وقال عكرمة: محمد ﷺ هو النذير، وهو الهادي. يعني: يدعوهم إلى الهدى. ﴿ولكل قوم هاد﴾ وقال مجاهد: يعني: لكل قوم نبي. قرأ ابن كثير: ﴿هَادي﴾ بالياء عند الوقف، وكذلك قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧] وقرأ الباقون: بغير ياء.

قوله تعالى: ﴿الله يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ ذكراً أو أنثى، ويعلم ما في الأرحام سوياً أو غير سوي. ثم قال: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ يعني: ما تنقص الأرحام من تسعة أشهر في الحمل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يعني: على التسعة أشهر في ذلك الحمل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ قال قتادة: «رزقهم وأجلهم»، وقال ابن عباس: «من الزيادة، والنقصان، والمكث في البطن، والخروج، كل ذلك بمقدار قدره الله تعالى، فلا يزيد ولا ينقص على ذلك». وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ يعني: «الحامل إن ترى الدم نقص من الولد، وإن لم تر الدم يزيد في الولد». وروى أسباط عن السدي قال: «إن المرأة إذا حملت واحتبس حيضها، كان ذلك الدم رزقاً للولد. فإذا حاضت على ولدها خرج وهو أصغر من الذي لم تحض عليه» ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ وهي الحيضة التي على الولد، ﴿وما تزداد﴾ . فحين يستمسك الدم، فلا تحيض وهي حبلى. قال الفقيه: هذا الذي قال السدي، إن الحامل تحيض، إنما هو على سبيل المجاز، لأن دم الحامل لا يكون حيضاً. ولكن معناه: إذا سال منها الدم فيكون ذلك استحاضة.

قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا ابن خزيمة. قال: حدثنا عليّ. قال: حدثنا

Marfat.com

إسماعيل، عن عبد الله بن دينار، أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: **«مِفْتَاحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ الله، لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ أَحَدٌ إلاَّ الله، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ أَحَدٌ إلاَّ الله، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إلاَّ الله، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إلاَّ الله، وَلاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ الله تعالى»**(1).

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. ويقال: عالم بما كان، وبما لم يكن. ويقال: عالم السر والعلانية ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ يعني: هو أكبر وأعلى من أن تكون له صاحبة وولد.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ منكُم مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ يعني: سواء عند الله من أسر القول ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ يعني: من أخفى العمل، ومن أعلن بالعمل ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيلِ﴾ يعني: في ظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: منصرف في حوائجه. يقال: سَرَبَ يَسْرُبُ إذا انصرف، ومعناه: المختفي، والظاهر عنده سواء. وقال مجاهد: المستخفي بالمعصية، والسارب يعني: الظاهر بالمعاصي ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ قال ابن عباس: «له حافظات» ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله﴾ يعني: بأمرَ الله حتى ينتهوا به إلى المقادير. فإذا جاءت المقادير، خلوا بينه وبين المقادير المعقبات يعني: الملائكة يعقب بعضهم بعضاً في الليل والنهار، إذا مضى فريق يخلفه بعده فريق. وروي عن عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿له معقبات﴾ قال: الملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ يعني: بأمر الله. ويقال: للمؤمن طاعات وصدقات ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ أي: من عذاب الله عند الموت، وفي القبر، وفي يوم القيامة.

ثم قال: ﴿إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ يعني: لا يبدل ما بقوم من النعمة التي أنعمها عليهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ يقول: يبدلوا ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بترك الشكر. قال مقاتل: ﴿إن ا لله لا يغيّر ما بقوم﴾ يعني: كفار مكة، نظيرها في الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ [الأنفال: ٥٣]، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، وأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، فلم يعرفوها، فغيّر ما بهم، فجعل ذلك لأهل المدينة. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: في الآية تنبيه لجميع الخلق، ليعرفوا نعمة الله عليهم، ويشكروه لكيلا تزول عنهم النعم.

---

(١) حديث ابن عمر: أخرجه البخاري (٤٦٩٧) (٤٧٧٨) و(٣٧٣٩) وأحمد: ٢/ ٢٤، ٥٢ والبغوي (١١٧٠).

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ يعني: إذا أراد بهم عذاباً أو هلاكاً فلا مرد لقضائه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يعني: ليس لهم من عذابه ولي، ولا قريب يمنعهم، ولا ملجأ يلجؤون إليه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ يعني: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم الحاضر، ويقال: ﴿خوفاً﴾ لمن يخاف ضرر المطر، ﴿وطمعاً﴾ لمن يحتاج إلى المطر، لأن المطر يكون لبعض الأشياء ضرراً، ولبعضها رحمة.

ثم قال: ﴿وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ يعني: يخلق السحاب الثقال من الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يعني: بأمره. قال: حدثنا عمرو بن محمد. قال: حدثنا أبو بكر الواسطي. قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف. قال: حدثنا وكيع، عن عمرو بن أبي زائدة أنه قال: سمعت عكرمة يقول: «الرعد ملك يزجر السحاب بصوته كالحادي بالإبل». وروى وكيع، عن المسعودي، عن سلمة بن كهيل، أنه سئل عن الرعد فقال: «هو ملك يزجر السحاب». وسئل عن البرق فقال: «هو مخاريق بأيدي الملائكة». وسئل وهب بن منبه عن الرعد فقال: «ثلاث ما أظن أحداً يعلمهن إلا الله عز وجل: الرعد، والبرق، والغيث، وما أدري من أين هن، وما هن». فقيل له: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال: نعم. ولا ندري أنزل من السماء أو من السحاب، فتلقحت فيه، أو يخلق في السحاب فيمطر، وسمى السحاب سماء. وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرعد فقال: «**هُوَ مَلَكٌ فِي السَّمَاءِ، وَاسْمُهُ الرَّعْدُ، وَالصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ هُوَ زَجْرُ السَّحَابِ، وَيُؤَلِّفُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ فَيَسُوقُهُ**»(١).

ثم قال: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ يقول: يسبح الملائكة كلهم خائفين لله تعالى ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي نار من السماء لا دخان لها ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾قال ابن عباس يعني: الله تعالى، ﴿شديد المحال﴾. ويقال: أصله في اللغة الحيلة، وقال قتادة: يعني: الحيلة والقوة لله. ويقال: هو شديد القدرة والعذاب. ويقال: ﴿المحال﴾ في اللغة هو الشدة. وقال بعضهم: هو كناية عن الذي يجادل، ويكون معناه ﴿فيصيب بها من يشاء﴾ ﴿وهم يجادلون في الله﴾ يعني: يصيبهم في حال جدالهم. وقال مجاهد: جاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني من أي شيء ربك، أمن لؤلؤ هو؟

(١) عزاه السيوطي: ٤/ ٦٢٠ إلى أحمد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم.

Marfat.com

فأرسل الله عليه صاعقة فقتلته، فنزل ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ يعني: شديد العداوة. وقال قتادة: دخل عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وقال: أسلِمُ على أن لك المدر ولي الوبر. يعني: لك ولاية القرى، وليَ ولاية البوادي، فقال النبي ﷺ: «أَنْتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ»؟ قال عامر: لك الوبر ولي المدر. فأجابه بمثل ذلك. قال عامر: ولي الأمر من بعدك. فأجابه بمثل ذلك. فغضب عامر وقال: لأملأنها عليك رجالاً ألفا رجلٍ أشعر، وألفا أمرد، فخرج ولقي أربد بن قيس فقال له: ادخل على محمد والهِه بالكلام حتى أدخل فأقتله! فدخلا عليه، فجعل عامر يسأله ويقول: أخبرنا يا محمد عن إلٰهك، أمن ذهب هو أم من فضة؟ فلما طال حديثه قاما وخرجا، فقال عامر: مالك لم تقتله؟ قال: كلما أردت أن أقتله وجدتك بيني وبينه. فجاء جبريل، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فدعا عليه، فأصابته صاعقة فقتلته[١]. فنزل ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يعني: كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، يدعو الخلق إليها. ويقال معناه: له على العباد دعوة الحق أن يدعوه فيجيبهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام والأوثان ﴿لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ يقول: لا ينفعهم بشيء ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يعني: كمادِ يديه ﴿إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ والعرب تقول لمن طلب شيئاً لا يجده: هو كقابض الماء. يعني: كمن هو مشرف يدعو الماء بلسانه، ومشرف يدعو الماء بلسانه فلا يجيبه أبداً، أو يشير باليد ﴿وما هو ببالغه﴾ يقول: فلا يناله أبداً. وقال مجاهد: كالذي يشير بيده إلى الماء، فيدعوه بلسانه، فلا يجيبه أبداً. هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك الذي عبد مع الله إلٰهاً آخر، أنه لا يجيبه الصنم ولا ينفعه، كمثل العطشان الذي ينظر إلى الماء من بعيد ولا يقدر عليه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: ما عبادة أهل مكة ﴿إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ يضل عنهم، إذا احتاجوا إليه في الآخرة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ قال قتادة: أما المؤمن فيسجد لله طائعاً، وأما الكافر فيسجد كرهاً، ويقال: أهل الإخلاص يسجدون لله طائعين، وأهل النفاق يسجدون له كرهاً ـ ويقال: من ولد في الإسلام يسجد ﴿طوعاً﴾ ومن سبي في دار الحرب يسجد ﴿كرهاً﴾[٢] ـ ويقال: ﴿يسجد لله﴾ يعني: يخضع له من في السموات والأرض، ولا يقدر أحد أن يغير نفسه عن خلقته ﴿وَظِلاَلُهُمْ﴾ يعني: تسجد ظلالهم،

---

(١) عزاه السيوطي: ٤/٦٢٦ إلى ابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

وسجود الظل دورانه. ويقال: ظل المؤمن يسجد معه، وظل الكافر يسجد لله تعالى إذا سجد الكافر للصنم. ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ﴾ يعني: أول النهار وآخره، وقال أهل اللغة: الأصيل ما بين العصر إلى المغرب، وجمعه أُصُل، والآصال جمع الجمع.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّموات وَالأَرْضِ﴾ يعني: قل يا محمد لأهل مكة من خالق السموات والأرض؟ فإن أجابوك وإلا فـ﴿قُلِ الله﴾.

ثم قال: ﴿قُلْ أفاتَّخذتُم مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ يعني: أفعبدتم غيره ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُل هَلْ يَسْتَوي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. ويقال: ﴿الأعمى﴾ الجاهل الذي لا يتفكر، ولا يرغب في الحق، ﴿والبصير﴾ العالم الذي يتفكر، ويرغب في الحق. ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾ أي: كما لا تستوي الظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الإيمان والكفر. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يَسْتَوِي﴾ بلفظ التذكير، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث، لأن تأنيثه ليس بحقيقي، فيجوز أن يذكر ويؤنث، ولأن الفعل مقدم على الاسم.

ثم قال: ﴿أم جَعَلُوا لله شُرَكاءَ﴾ يعني: بل جعلوا لله شركاء من الأصنام. ويقال: معناه أجعلوا لله شركاء، والميم صلة. ثم قال: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: هل خلق الأوثان خلقاً كما خلق الله فاشتبه عليهم خلق الله تعالى من خلق غيره؟ فلما ضرب الله مثلاً لآلهتهم سكتوا.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قل يا محمد، الله عز وجل خالق جميع الموجودات ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني: الذي لا شريك له القاهر لخلقه، القادر عليهم. ثم ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل، لأن العرب كانت عادتهم أنهم يوضحون الكلام بالمثل، وقد أنزل الله تعالى القرآن بلغة العرب، فأوضح لهم الحق من الباطل بالمثل فقال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ [illegible] ماءً﴾ يعني: المطر ﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ يعني: سال في الوادي الكبير بقدره، وفي الوادي الصغير بقدره، فشبه القرآن بالمطر، وشبه القلوب بالأودية، وشبه الهدى بالسيل ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ يعني: عالياً على الماء. فشبه الزبد بالباطل يعني: احتملته القلوب

Marfat.com

على قدر أهوائها باطلاً كبيراً. فكما أن السيل يجمع كل قذر، كذلك الأهواء تحتمل الباطل، وكما أن الزبد لا وزن له، فكذلك الباطل لا ثواب له. فذلك قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يعني: يذهب كما جاء. ويقال يذهب: ﴿جفاء﴾ أي سريعاً. وقال مقاتل: ﴿جفاء﴾ أي: يابساً فلا ينتفع به، ويقذفه السيل. وقال القتبي: الجفاء ما رمى به الوادي في جنباته. ويقال: جفأت القدر بزبدها، إذا ألقته عنها ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: يبقى الماء الصافي في الأرض، فكذلك الإيمان واليقين ينتفع به أهله في الآخرة، كما ينتفع بالماء الصافي في الدنيا، والباطل لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم ضرب مثلاً آخر بالذهب والفضة، فقال تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من الذهب والفضة ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ يعني: التماس حلية تلبسونها، يخرج منها الخبث، ويبقى الذهب والفضة خالصاً.

ثم ضرب مثلاً آخر فقال: ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ يعني: النحاس والحديد والصفر يزول عنها الخبث، ويبقى الصفر والحديد خالصاً، فيتخذ منها المتاع. فهذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد، كما يضمحل هذا الزبد، ويبقى خالص الماء، وخالص الذهب والفضة والحديد والصفر فكذلك يضمحل الباطل عن أهله. وكما يمكث الماء في الأرض ويخرج نباتها، وكما يبقى خالص الذهب والفضة حين يدخلان النار، فكذلك يبقى الحق وثوابه لصاحبه. وقال القتبي في قوله: ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ قال: هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل. يقول الحق: الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلا، فإن الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله، مثل مطر سال في الأودية بقدرها ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ أي: عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق. ومن جواهر الأرض التي تدخل الكور، توقدون عليها، يعني: الذهب والفضة للحلية. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ يعني: الشبه والحديد والآنك يكون للآنية، له خبث يعلوها مثل زبد الماء. فأما الزبد، فيذهب جفاء يتعلق بأصول الشجر، وكنبات الوادي، وكذلك خبث الفلز يعني: الجوهر يقذفه، فهذا مثل الباطل. وأما ما ينفع الناس وينبت المرعى، فيمكث في الأرض. فكذلك الصفر من الفلز يبقى صالحاً فهو مثل الحق.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ على وجه التقديم والتأخير. يعني: هكذا يضرب الله المثل للحق والباطل. ويقال: معناه هكذا يبيّن الله الحق من الباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ على معنى التقديم والتأخير، وقد ذكرناه من قبل ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ يعني: يبيّن الله الأشباه، ويوضح الطريق، ويقيم الحجة.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

Marfat.com

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ يعني: للذين أجابوا ربهم بالطاعات في الدنيا، لهم الجنة في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ يعني: لم يجيبوه، ولم يطيعوه في الدنيا ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ يعني: وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ يقول: لفادوا به أنفسهم من العذاب، ولو فادوا به لا يقبل منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ يعني: شديد العقاب. ويقال: ﴿سوء الحساب﴾ المناقشة في الحساب. وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: أتدرون ما سوء الحساب؟ قالوا لا. قال هو الذنب يحاسب عليه العبد ثم لا يغفر له. وعن الحسن أنه سئل عن سوء الحساب قال: يؤخذ العبد بذنوبه كلها فلا يغفر له منها ذنب.

ثم قال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ يعني: الفراش من النار، ويقال: بئس موضع القرار في النار.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: يعلم أن القرآن الذي أنزل من الله تعالى هو الحق ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ يعني: كمن هو لا يعلم. ويقال: ﴿أفمن يعلم﴾ أن ما ذكر من المثل حق كمن لا يعلم. وهذا كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] يعني: المثل. ويقال: ﴿أفمن يعلم﴾ يقول: أفمن يرغب في الحق أي يعلم، أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق ﴿كمن هو أعمى﴾ يعني: كمن لا يرغب فيه ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني: يتعظ بما أنزل إليك من القرآن ذوو العقول من الناس، وهم المؤمنون.

ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ يعني: العهد الذي بينهم وبين الله تعالى، والعهد الذي بينهم وبين الناس ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يعني: الميثاق الذي أخذ عليهم يوم الميثاق. ويقال: يعني: الميثاق الذي أخذ على أهل الكتاب في كتابهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني: يصلون الأرحام ولا يقطعونها،

Marfat.com

وقال: يعني: الإيمان بجميع الأنبياء ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يعني: يمتنعون عما نهاهم الله تعالى عنه، والخشية من الله: الامتناع عن المحرمات والمعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ يعني: شدّة الحساب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني: صبروا عن المعاصي، وصبروا عن أداء الفرائض، وصبروا على المصائب والشدائد، وصبروا على أذى الكفار والمنافقين ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: صبروا على ما ذكر ابتغاء مرضاة الله تعالى ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتموها بركوعها وسجودها في مواقيتها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يعني: من الأموال ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: يتصدقون في الأحوال كلها، ظاهراً وباطناً. ويقال: مرة يتصدقون سراً مخافة الرياء، ومرة يتصدقون علانية لكي يقتدى بهم. ويقال: يتصدقون صدقة التطوع في السر، ويتصدّقون صدقة الفريضة في العلانية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يقول: يدفعون بالكلام الحسن السيئة. يعني: الكلام القبيح، فهذا كله صفة ذوي الألباب، وهم الذين استجابوا لربهم.

ثم بيّن ثوابهم ومرجعهم في الآخرة فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: هؤلاء لهم الجنة، وهم المهاجرون والأنصار، ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ﴾ يعني: ومن آمن وأطاع الله تعالى ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يدخلون أيضاً جنات عدن وهذا كقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ويسلمون عليهم، ويقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على أمر الله تعالى وطاعته ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: نعم العاقبة الجنة. فقد بيّن حال الذين استجابوا لربهم، والذين يعلمون أن الذي أنزل إليك هو الحق.

ثم بيّن حال الذين لم يستجيبوا له، وهم الذين ينقضون الميثاق، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يعني: من بعد تأكيده وتغليظه، يعني: بعد إقرارهم بالتوحيد يوم الميثاق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني: الأرحام. ويقال: الإيمان بالنبيّين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعاء إلى عِبادة غير الله تعالى أي عبادة الأوثان ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ يعني: يلعنهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يعني: سوء المرجع. ويقال: ﴿لهم اللعنة﴾. يعني: هم مطرودون من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، ﴿ولهم سوء الدار﴾ يعني: عذاب النار في الآخرة.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يقتر في الرزق. يعني: يختار للغني الغنى، وللفقير الفقر في رزق الله تعالى، لأنه يعلم أن صلاحه فيه. وروي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى خلق الخلق، وهو بهم

Marfat.com

عليم، فجعل الغنى لبعضهم صلاحاً، وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً، فذلك الخيار للفريقين» وقال الحسن البصري: ما أحد من الناس يبسط الله له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه، ـ وما أمسكها الله من عبد فلم يظن أنه خير له فيها، إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه(١) ـ».

ثم قال: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول: استأثروا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ يعني: الدنيا بمنزلة الأواني التي لا تبقى مثل السكرجة والزجاجة، وأشباه كل ذلك التي يتمتع بها ثم يذهب، فكذلك هذه الدنيا تذهب وتفنى. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمَثَلِ مَاءٍ يَجْعَلُ أَحَدُكُم أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ». وقال مجاهد: ﴿إلا متاع﴾ أي: قليل ذاهب، وهكذا قال مقاتل.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني: هلا أنزل عليه آية من ربه، يعني: علامة لنبوته ﴿قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يشاءُ﴾ يعني: من عباده عن الهدى، يعني: إذا لم يرغب فيه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ يعني: يرشد إلى دينه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ يعني: من رجع إلى الحق. ويقال: رجع عن الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا مقرون بالأول، يعني: ويهدي الذين آمنوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: تسكن قلوبهم وترضى ﴿بِذِكْرِ الله﴾ يعني: إذا ذكروا الله تعالى بوحدانيته، آمنوا به غير شاكين. وقال الكلبي: يعني: وتسكن وترضى قلوبهم لمن يحلف لهم بالله ﴿أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ يعني: تسكن وترضى قلوب المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بالله وبمحمد وبالقرآن، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ يعني: غبطة لهم. قال مجاهد: ﴿طوبى لهم﴾ يعني: الجنة. ويقال: ﴿طوبى﴾ شجرة في الجنة.

قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل. قال: حدثنا محمد بن جعفر. قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف. قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي اليسر، عن أبي أوفى، عن مغيث بن سمي في قوله تعالى ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ قال: «طوبى شجرة في الجنة ليس لأهل الجنة من دار إلا ويظلهم غصن من أغصانها، ـ قال ابن عباس: ﴿طوبى﴾ شجرة في الجنة ساقها من ذهب، الورقة منها تغطي الدنيا، ليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن من أغصانها(٢) ـ. وقال أبو

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة: «ب».

(٢) ما بين معقوفتين ساقط في النسخة: «ب».

Marfat.com

هريرة، ﴿طوبى﴾ «شجرة في الجنة». وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك إذا أصبت خيراً. وقال عكرمة: ﴿طوبى لهم﴾ أي: نعمى لهم. ويقال: ﴿طوبى لهم﴾ أي: خير لهم. ثم قال تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ يعني: حسن المرجع في الآخرة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ يقول: هكذا بعثناك في أمة كما بعثنا إلى من كان قبلك من الرجال في الأمم الخالية ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أمم﴾ يعني: قد مضت من قبل قومك ﴿أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيهِمْ﴾ يعني: أرسلناك لتقرأ عليهم ﴿الَّذِي أَوْحَينَا إِلَيكَ﴾ من القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يعني: يجحدون ويكذبون، وذلك أن عبد الله بن أمية المخزومي وأصحابه قالوا: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ يعني: قل يا محمد، الرحمن الذي تكفرون به هو الله ربي الذي ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني: فوضت أمري إليه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾يعني: وإليه أتوب وأرجع.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ وذلك أن عبد الله بن أمية وغيره من كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: سيِّر لنا جبال مكة ذهباً وفضة حتى نعلم أنك صادق في مقالتك، أو قرب أسفارنا كما فعل سليمان بن داود بريحه، أو كلِّم موتانا كما فعل عيسى بدعائه، فنزل ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾ غدوها شهر، ورواحها شهر ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوتَى﴾ فلم يذكر جوابه، لأن في الكلام دليلاً عليه. يعني: لو فعلنا ذلك بقرآن قبل قرآن محمد ﷺ، لفعلنا ذلك بقرآن محمد ﷺ. ويقال: لو فعل أحد من الأنبياء ما سألتموني، لفعلت لكم، ولكن الأمر إلى الله تعالى، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لله الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ ويقال: معناه، ولو أن قرآناً سيرت به الجبال عن أماكنها، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لم يؤمنوا به، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١] الآية إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿بَلْ لله الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ إن شاء هدى من كان أهلاً لذلك، وإن شاء لم يهد من لم يكن أهلاً لذلك.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الحسن وقتادة: أفلم يعلم الذين آمنوا وقال الفراء: لم أجد في العربية مثل هذا، ويقال: معناه أفلم يتبيّن للذين آمنوا. ويقال: هو من الإياس. ومعناه: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يؤمنون ﴿أَن لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ يعني: إنهم لم يكونوا أهلاً لذلك، فلم يهدهم. وروى ابن أبان بإسناده عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ ﴿أفلم يتبين للذين آمنوا﴾ فقيل له: إنها ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ فقال: «إني أرى الكاتب كتبها وهو ناعس». وروي في خبر آخر: أن نافع بن الأزرق، سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ قال: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقال ابن عباس: أما سمعت مالك بن عوف وهو يقول:

قد يَئِسَ الأقوامُ أني أنا ابنه وإنْ كنتُ عن أرضِ العشيرةِ نائيا

ثم قال: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ يعني: نكبة وشدة. ويقال: ﴿قارعة﴾ داهية تقرع، ويقال: لكل مهلكة قارعة، ويقال: نازلة تنزل لأمر شديد. فالمراد هنا: سرية من سرايا رسول الله ﷺ تأتيهم، وتصيبهم من ذلك شدة ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِن دَارِهِمْ﴾ يعني: تنزل أنت يا محمد بجماعة أصحابك قريباً من دارهم، يعني: من مكة، وذلك أن النبي ﷺ سار بجنوده حتى أتى عسفان، ثم بعث مائتي راكب حتى انتهوا قريباً من مكة، ثم قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ يعني: فتح مكة. قالوا: هذه الآية مدنية.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي: بفتح مكة على النبي ﷺ.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك قومُك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أمهلتهم بعد الاستهزاء، ولم أعاقبهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب عند المعصية بالتكذيب، فأهلكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يعني: فكيف رأيت إنكاري وتعييري عليهم بالعذاب؟ لم ير النبي ﷺ عقوبتهم، إلا أنه علم بحقيقته فكانه رأى عياناً.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يقول: هو الله القائم على كل نفس برة وفاجرة بالرزق لهم، والدفع عنهم، وجوابه مضمر، يعني: كمن هو ليس بقائم على ذرة، وهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] ثم قال: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ﴾ يعني: قالوا ووصفوا لله شركاء. وقال مقاتل: ﴿وجعلوا الله شركاء﴾ يقول: يعني: السواء أنا القائم

Marfat.com

على كل نفس بأرزاقهم، وأطعمتهم، كالذين يصفون أن لي شريكاً. معناه: لا تكون عبادة الله كعبادة غيره ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ يعني: قل يا محمد، سمُّوا هؤلاء الشركاء. يعني: سموا دلائلهم وبراهينهم وحججهم. ويقال: سموا منفعتهم وقدرتهم.

ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَه بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: تخبرونه بما علم أنه لا يكون. ويقال: معناه أتشركون معه جاهلاً لا يعلم ما في الأرض. ويقال: معناه أتخبرون الله بشيء لا يعلم من آلهتكم. يعني: يعلم الله أنه ليس لها في الأرض قدرة ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: أتقولون قولاً بلا برهان ولا حجة. ويقال: بباطل من القول. يعني: إن قلتم إن لها قدرة لقلتم باطلاً. وقال قتادة: الظاهر من القول الباطل، وكذلك قال مجاهد.

ثم قال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ يقول: ولكن زين للذين كفروا من أهل مكة كفرهم، وقولهم الشرك ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو، ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ بنصب الصاد. يعني: إن الكافرين صدوا الناس عن دين الله الإسلام. وقرأ الباقون: ﴿وَصُدُّوا﴾ بضم الصاد على فعل ما لم يسم فاعله. مثل قوله: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ﴾ [فاطر: ٨].

ثم قال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ يعني: من يخذله الله عن دينه الإسلام، ولا يوفقه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني: ما له من مرشد إلى دينه غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لهم في الدنيا الشدائد والأمراض. ويقال: عند الموت. ويقال: القتل على أيدي المسلمين، والغلبة عليهم ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ يعني: أشدّ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يعني: ملجأ يلجؤون إليه يقيهم من عذاب الله.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال بعضهم: المثل هنا أراد به الصفة، ولم يرد به التشبيه، لأنه قد ذكر من قبل حديث الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد: ١٨] وقال بعد ذلك: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] ثم بيّن ههنا صفة الجنة. يعني: صفة الجنة ﴿التي وعد المتقون﴾، الذين يتقون الشرك، والفواحش. روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿أمثال الجنة التي وعد المتقون﴾ يعني: صفاتها وأحاديثها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ يعني: حملُها ونعيمها لا ينقطع عنهم أبداً ﴿وَظِلُّهَا﴾

Marfat.com

يقول: وهكذا ظلها دائم أبداً، ليس فيها شمس. وقال بعضهم: أراد به التشبيه، لأن الله عرفنا نعيم الجنة وأمورها، التي لم نرها، ولم نشاهدها بما شهدنا من أمور الدنيا، ومعناه: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ جنة تجري من تحتها الأنهار.

ثم قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني: تلك الجنة، جزاء الذين اتقوا الشرك والفواحش ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ يعني: مصيرهم وجزاؤهم النار.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب، يعجبون بذكر الرحمن ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ يعني: أهل مكة ينكرون ذكر الرحمن، ويقولون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب. ويقال: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ يعني: مِن أهل الكتاب من ينكر ما كان فيه نسخ شرائعهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ يعني: أمرت أن أقيم على التوحيد ﴿وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ﴾ شيئاً.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ يقول: أدعو الخلق إلى توحيده ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ يعني: المرجع في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن أنزلنا جبريل ليقرأ عليك القرآن ﴿حُكْماً﴾ يعني: القرآن حكماً على الكتب كلها. ويقال: محكماً ﴿عَرَبِيّاً﴾ يعني: القرآن بلغة العرب ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال الكلبي: يعني: لئن صليت إلى قبلتهم، نحو بيت المقدس ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يعني: من بعد ما أتاك العلم بأن قبلتك نحو الكعبة. ويقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ يعني: أهل مكة فيما يدعونك إلى دين آبائك بعد ما ظهر لك أن الإسلام هو الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ﴾ يعني: من عذابه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ينفعك ﴿وَلاَ وَاقٍ﴾ يقيك من عذاب الله، والخطاب للنبي ﷺ والمُراد به أصحابه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ﴾ وذلك أن اليهود عَيَّروا رسول الله ﷺ وقالوا: لو كان هذا نبياً كما يزعم، لشغلته النبوة عن تزوج النساء. فنزل ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ قال الكلبي: كان لسليمان بن داود عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهرية، وتسعمائة سرية، وكان لداود مائة امرأة.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ يعني: ليس ينبغي لرسول ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ إلى قومه ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ يعني: بأمر الله تعالى. ويقال: معناه ما كان أحد يقدر أن يأتي بآية من الآيات إلا بإذن الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل أجل من آجال الدنيا كتاب مكتوب، لا يزاد عليه، ولا ينقص

Marfat.com

منه. ويقال: لكل أجل وقت قد كتب فيه. وقال الفراء: هذا مقدم ومؤخر أي: لكل كتاب أجل مثل قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أي: سكرة الحق بالموت، وكذلك قال ابن عباس.

ثمّ قال تعالى: ﴿يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ روى شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أن قريشاً لما نزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨] قالوا: ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر، فنزلت هذه الآية تخويفاً، ووعيداً لهم. فإنّا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما نشاء، فيمحو الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء من أرزاق العباد، ومصايبهم فيما يعطيهم وبما يرزقهم ويقسم لهم(١). وروى وكيع عن الأعمش، عن أبي وائل أنه كان يقول في دعائه: «اللّهم إن كنتَ كتبتَنا سعداء فأثبتنا، وإن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء. فإنك تمحو ما تشاء، وتثبت ما تشاء، وعندك أم الكتاب».

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: ﴿يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ «إلا الشقاوة والسعادة والموت والحياة»(٢). وروى منصور عن مجاهد أنه قال: «الشقاوة والسعادة لا يتغيران». ويقال: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ يعني: من أعمال بني آدم، وما كتبت الحفظة ما ليس فيه جزاء خير ولا شر ﴿ويثبت﴾ ما فيه جزاء خير أو شر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إن الحفظة إذا رفعت ديوان العبد، فإن كان في أوله وآخره خير، يمحو الله ما بينهما من السيئات، وإن لم يكن في أوله وآخره حسنات، يثبت ما فيه من السيئات». وقال مقاتل: ﴿يمحو الله﴾ يعني: ينسخ الله ما يشاء من القرآن، ﴿ويثبت﴾ يقول: ويقر المحكم الناسخ ما يشاء فلا ينسخه. ويقال: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ يعني: المعرفة عن قلب من يشاء ﴿ويثبت﴾ في قلب من يشاء. وهو مثل قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] - وفي آية أخرى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ أي يمحو من الشرائع والكتب الممحوّة: التوراة، والإنجيل والزبور، والمثبت هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، وهذا القول هو المختار(٣) - ويقال: يقضي على العبد البلاء، فيدعو العبد، فيزول عنه كما روي في الخبر «الدُّعَاءُ يَرُدُّ البَلَاءَ».

ثم قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني: أصل الكتاب وجملته، وهو اللوح المحفوظ كتب فيه كل شيء قبل أن يخلقهم.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ

(١) عزاه السيوطي: ٤/٦٥٩ إلى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) عزاه السيوطي: ٤/٦٥٩ إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.
(٣) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ**﴾ من العذاب والزلازل والمصائب في الدنيا إذ كذبوك وأنت حي ﴿**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ يقول: أو نميتنّك قبل أن نرينك ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ**﴾ بالرسالة ﴿**وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ يعني: الجزاء.

ثم قال: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ يعني: نفتحها من نواحيها. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**هُوَ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ**». وقال ابن عباس: «**ذهاب فقهائها، وخيار أهلها**». وعن ابن مسعود نحوه. وقال الضحاك: أو لم ير المشركون أنا ننقصها من أطرافها يعني: يأخذ النبي ﷺ ما حولهم من أراضيهم وقراهم وأموالهم، أفهم الغالبون؟ يعني: أو لا يرون أنهم المغلوبون والمنتقصون؟ وعن عكرمة. أنه قال: الأرض لا تنقص، ولكن تنقص الثمار، وينقص الناس. وعن عطاء أنه قال: «**هو موت فقهائها وخيارها**». وقال السدي: يعني: ينقص أهلها من أطرافها، ولم تهلك قرية إلا من أطرافها. يعني: تخرب قبل، ثم يتبعها الخراب. ﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾ يقول: لا راد لحكمه، ولا مغير له، ولا مرد لما حكم لمحمد ﷺ بالنصر والغنيمة ﴿**وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ إذا حاسب فحسابه سريع.

قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ يعني: صنع الذين من قبلهم كصنيع أهل مكة بمحمد ﷺ ﴿**فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً**﴾ يعني: يجازيهم جزاء مكرهم، وينصر أنبياءه، ويبطل مكر الكافرين. ثم قال: ﴿**يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ**﴾ برّة أو فاجرة ﴿**وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ يعني: الجنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً**﴾ يعني: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر اليهود. ويقال: يعني، أهل مكة ﴿**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ يقول: كفى بالله شاهداً بيني وبينكم على مقالتكم ﴿**وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ يعني: ومن آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وأصحابه ﴿شهيداً بيني وبينكم﴾ لأنهم وجدوا نعته وصفته في كتبهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ بجزم الثاء والتخفيف. وقرأ الباقون: بنصب الثاء، وتشديد الباء ومعناهما واحد. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ**﴾ بلفظ الجماعة. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ ﴿**وَمِنْ عِندِهِ**﴾ بالكسر،

Marfat.com

يعني: القرآن من عند الله تعالى. وروي عنه أيضاً: ﴿وسيعلم الكافرون﴾. وقرأ أبي بن كعب: ﴿وسيعلم الذين كفروا﴾. وقال عبد الله بن مسعود: هذه السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم بعد ذلك بمدة، فكيف يجوز أن يكون المراد به عبدالله بن سلام؟ وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ: بالكسر. وقرأ بعضهم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عُلِمَ الكتاب﴾ بضم العين، وكسر اللام، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وروى عن ابن عباس أنه كان يقول: هذه الآية مدنية، وكان يقرأ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ بالنصب والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

Marfat.com

سورة إبراهيم

مكية وهي: اثنتان وخمسون آية إلا آيتين مدنيَّتين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قال الله عز وجل: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: هذا كتاب أنزلنا جبريل ليقرأ عليك، وهو القرآن ﴿لِتُخرِجَ النَّاسَ﴾ أي: لتدعو الناس ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: من الكفر إلى الإيمان. وسمى الكفر ظلمات، لأن الكفر طريق الضلالة، فمن وقع فيه ضلّ الطريق. وسمى الإيمان نوراً، لأنه طريق واضح مبين ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: بأمر ربهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ يعني: دين الإسلام العزيز، المنيع بالنقمة لمن لم يجب الرسول، ﴿الحميد﴾ لمن وحّده. ويقال: ﴿الحميد﴾ في فعاله. ويقال: ﴿الحميد﴾ لأفعال الخلق. يشكر لهم اليسير من أعمالهم، ويعطي الجزيل.

ثم قال الله تعالى: ﴿الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من الخلق. قرأ ابن عامر ونافع: ﴿الله﴾ بالضم على معنى الابتداء، وقرأ الباقون: ﴿الله﴾ بالكسر على معنى البناء.

ثم قال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: الكافرين بوحدانية الله تعالى ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: غليظ دائم. والويل: الشدة من العذاب. ويقال: الويل وادٍ في جهنم.

ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني: يستأثرون ويختارون الدنيا الفانية ﴿على الآخرة﴾ الباقية، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن ملة الإسلام ﴿وَيَبْغُونَها عِوَجاً﴾ يعني: يريدون بملة الإسلام غيراً وزيغاً ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق. يعني: في خطأ طويل بعيد عن الحق.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ يعني: بلغة قومه ليفهموه وليكون

Marfat.com

أبيَنَ لهم. يعني: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ طريق الهدى ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن دين الإسلام من لم يكن أهلاً لذلك ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إلى دينه الإسلام من كان أهلاً لذلك ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وقضائه، ويقال: ﴿الحكيم﴾ حكم بالضلالة والهدى لمن يشاء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني: باليد والعصا ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ يعني: ادع قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: من الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ يعني: خوّفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ليحذروا فليؤمنوا. وقال مجاهد: أيام نعمه، وكذلك قال قتادة والسدي. يعني: ذكرهم نعمائي ليؤمنوا بي. وروي في الخبر: «أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن حببني إلى عبادي، قال: ربِّ كيف أحببك إلى عبادك، والقلوب بيدك؟ فأوحى الله إليه أن ذكرهم نعمائي».

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعني: في الذي فعلت بالأمم الخالية، وما أعطيتهم من النعم لعلامات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله، والصبار: هو المبالغ في الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ يعني: شكور لنعَم الله تعالى، وهو على ميزان فَعُول، وهو المبالغة في الشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: من فرعون وآله، كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال: ٥٤] يعني: فرعون وآله. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يقول: يعذبونكم بأشد العقاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الصغار ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني: يستخدمون نساءكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ يعني: ذبح الأبناء، واستخدام النساء، ﴿بَلَاءٌ من رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يعني: بلية عظيمة لكم من خالقكم. ويقال: في إنجاء الله نعمة عظيمة لكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: قد قال ربكم. ويقال: أعلم ربكم ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي عليكم ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من النعمة ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيد الله وجحدتم نعمتي عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ في الآخرة. قال الفقيه: حدثنا أبي رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة أنه قال: «من رزق ستاً لم يحرم ستاً. من رزق الشكر لم يحرم الزيادة لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾

Marfat.com

ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ومن رزق التوبة لم يحرم القبول لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ومن رزق النفقة لم يحرم الخلف لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ **يعني:** إن جحدتم نعمة الله ولم تؤمنوا به ﴿فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ﴾ **يعني:** غنياً عن إيمانكم وطاعتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ لمن عبده منكم بالمغفرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ **يقول:** ألم يأتكم في القرآن خبر الذين من قبلكم من الأمم الماضية، كيف عذّبهم الله تعالى عند تكذيب رسلهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف أهلكهم الله بالغرق، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكهم الله بالريح، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أهلكهم بالصيحة، فهذا تهديد لأهل مكة ليعتبروا بهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كيف عذبوا ﴿لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ﴾ **يعني:** لا يعلم عددهم إلا الله. قال ابن مسعود: «كذب النسابون وقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ﴾ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ **يعني:** الأمم الخالية جاءتهم رسلهم بالأمر والنهي» ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال مقاتل: وضع الكفار أيديهم على أفواههم، فقالوا للرسل: اسكتوا فإنكم كذبة، وإن العذاب غير نازل بنا. وروى هبيرة بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: «جعلوا أصابعهم في فيهم». وقال القتبي: أي: عضوا عليها حنقا وغيظاً.

قال مجاهد وقتادة: يعني: ردّوا عليهم قولهم وكذبوهم، ويقال: ﴿فردوا أيديهم﴾ يعني: نِعَم رسلهم، لأن مجيئهم بالبينات نعم. يعني قوله: ﴿في أفواههم﴾ أي: بأفواههم. أي: ردوا تلك النعمة بالنطق بالتكذيب ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ فهذا هو ردهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يعني: بما تدعونا إليه ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وهو المبالغة في الشك يعني: ظاهر الشك.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ

Marfat.com

يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ يقول: أفي وحدانية الله شك، وعلامات وحدانيته ظاهرة؟ وهو قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: أتشكون في الله خالق السموات والأرض ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ يعني: يدعوكم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى ليتجاوز عنكم ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: منتهى آجالكم، فلا يصيبكم فيه العذاب. فأجابهم قومهم ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يقول: ما أنتم إلا آدميون مثلنا، لا فضل لكم علينا بشيء. ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ أي: تصرفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: بحجة بيّنة.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يقول: ما نحن إلا آدميون مثلكم كما تقولون ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويختاره للنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ جواباً لقولهم: ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ يعني: لا ينبغي أن نأتيكم بِسُلْطَانٍ ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ لأن الأمر بيد الله تعالى ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله.

قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ يعني: وفقنا لطريق الإسلام، ويقال: أكرمنا بالنبوة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثق الواثقون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يقول: لتدخلن في ديننا، فهذا كله تعزية للنبي ﷺ ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يقول: أوحى الله تعالى إلى الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا لام القسم، ويراد به: التأكيد للكلام، أن يهلك الكافرين من قومهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يقول: لننزلنكم في الأرض من بعد هلاكهم. فأهلك الله تعالى قومهم، فسكن الرسل ومن معهم من المؤمنين ديارهم ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ يقول: ذلك الثواب ﴿لمن خاف مقامي﴾ يعني: مقامه يوم القيامة بين يدي رب العالمين.

وروي عن أبي بن كعب أنه قال: «يقومون ثلاثمائة عام لا يؤذن لهم فيقعدون، أما المؤمنون فيهون عليهم، كما تهون عليهم الصلاة المكتوبة». وروي عن منصور عن خيثمة أنه

Marfat.com

قال: كنا عند عبد الله بن عمر فقلنا: إن عبد الله بن مسعود كان يقول: «إن الرجل ليعرق حتى يسبح في عرقه، ثم يرفعه العرق حتى يلجمه. فقال ابن عمر: هذا للكفار، فما للمؤمنين؟ فقلنا: الله أعلم. فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، حدثكم أول الحديث، ولم يحدثكم آخره، إن للمؤمنين كراسي يجلسون عليها، ويظلل عليهم بالغمام، ويكون يوم القيامة عليهم كساعة من نهار».

ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وخشي عذابي عليه. قرأ نافع في رواية ورش: ﴿وخاف وَعِيدِي﴾ بالياء يعني: خاف عذاب الله. وقرأ الباقون: بغير ياء، لأن الكسرة تقوم مقامه، وأصله الياء.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ يقول: واستنصروا. قال قتادة: استنصرت الرسل على قومهم، وقال مقاتل: يعني، قومهم دعوا الله فقالوا: اللهم إن كانت رسلنا صادقين فعذبنا. ويقال: استنصر كلا الفريقين ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقول: خسر عند الدعاء كل متكبر عن الإيمان، معرض عن التوحيد. وقال الزجاج: الجبار، الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والعنيد: الذي يعدل عن القصد. ويقال: الجبار الذي يضرب عند الغضب، ويقتل عند الغضب. وقال مجاهد: ﴿كل جبار عنيد﴾ أي: المعاند للحق مجانبه. ويقال: هذه الآية نزلت في أبي جهل.

قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ يقول: من قدامه جهنم، يعني: بعد الموت. ويقال: من بعده جهنم. ويقال: ﴿من ورائه جهنم﴾ يعني: أمامه. كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] يعني: أمامهم.

ثم قال: ﴿وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ يعني: بماءٍ يسيل من جلودهم من القيح والدم. ويقال: ماء كهيئة الصديد.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَرَّعُهُ﴾ يعني: يردُه في حلقه ﴿وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقول ولا يقدر على ابتلاعه لكراهيته، وقال ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: يجترُه من كل مكان من جسده. ويقال: من كل ناحية، ومن كل عرق، ومن كل موضع شعرة يجد طعم الموت ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، يعني: لا يموت أبداً ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ يعني: من بعد الصديد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يعني: شديد لا يفتر عنه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ

Marfat.com

مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يقول: صفة الذين كفروا. ويقال: مثل أعمال الذين كفروا بربهم يوم القيامة ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ يقول: ذرته الريح ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ يعني: عاصف شديد الريح. فكذلك الكفار أحبط الله ثواب أعمالهم، وهذا كقوله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] لأن أعمالهم كانت بغير إيمان، ولا تُقبل الإيمان إذا لم يكن بالإخلاص، ولا تقبل الأعمال إلا بالإيمان، ولا ثواب لهم بها. - قرأ نافع ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ﴾ بالألف. وقرأ الباقون: بغير ألف[1] -. ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يقول: لا يقدرون على ثواب أعمالهم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ يعني: الخطأ البعيد عن الحق.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خلق﴾ يقول: ألم تعلم أن الله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿خالِقُ السموات والأرض﴾ بكسر الضاد على معنى الإضافة. وقرأ الباقون: ﴿خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ﴾ بنصب الضاد على معنى الفعل الماضي.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل. ويقال: ببيان الحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يقول: يميتكم، ويهلكهم إن عصيتموه ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني: قوماً غيركم، خيراً منكم، وأطوع لله تعالى. فهذا تهديد من الله تعالى ليخافوه.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ﴾ يعني: إهلاككم ليس على الله بشديد.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً﴾ يقول: وخرجوا من قبورهم لأمر الله تعالى. يعني: القادة والأتباع اجتمعوا للحشر والحساب، وهذا كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني: الأتباع والسفلة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ في الدنيا نطيعكم فيما أمرتمونا به ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ يقول: هل أنتم حاملون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ قَالُوا﴾ يعني: القادة للسفلة ﴿لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ يقول: لو أكرمنا الله

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

بالهدي والتوحيد لهديناكم لدينه، وأنا أمرناكم بأعمالنا التي كنا عليها. ويقال: معناه، لو أدخلنا الله الجنة، لشفعنا لكم.

ثم قالت القادة للسفلة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ العذاب، ﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ يعني: من مفر ولا ملجأ من عذاب الله. وروى أسباط عن السدي أنه قال: يقول أهل النار: تعالوا فلنصبر، لعلّ الله يرحمنا بصبرنا، فيصبرون، فلا يرحمون. فيقولون: تعالوا فلنجزع، لعل الله يرحمنا بجزعنا فيجزعون، فلا يغني عنهم شيئاً، فيقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ روى سفيان، عن رجل، عن الحسن أنه قال: إذا كان يوم القيامة، ودخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، قام إبليس خطيباً على منبر من نار، فقال: ﴿إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ ووعدتُكم فأخلفتم﴾. ويقال: إنهم لما دخلوا النار، أقبلوا على إبليس، وجعلوا يتهمونه ويلومونه ويقولون: أنت الذي أضللتنا، فيرد عليهم إبليس عليه اللعنة، فبيّن الله تعالى ردّه عليهم لكيلا يغتروا به في الدنيا، فذلك قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ يعني: لما فرغ من الأمر حين دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فقال إبليس لأهل النار: ﴿إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ يعني: البعث بعد الموت والجنة والنار ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ بأنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث، ولا حساب ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فكذبتكم الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: لم يكن لي قدرة على الإكراه والقهر. ويقال: لم أكن ملكاً فقهرتكم على عبادتي. ويقال: لم يكن لي حجة على ما قلت لكم ﴿إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ يعني: سوى أن دعوتكم إلى طاعتي ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ يعني: أجبتم لي طوعاً واختياراً ﴿فَلاَ تَلُومُونِي﴾ بدعوتي إياكم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالإجابة ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم فأخرجكم من النار ﴿وما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ يقول: ولا أنتم بمغيثيّ، فتخرجونني من النار. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ قال الكلبي: فيه تقديم وتأخير. يقول: إني كفرت من قبل ما عبدتموني به وكنت كافراً قبل ذلك، فليس لكم عندي صراخ، ولا إجابة. وقال مقاتل: معناه إني تبرأت اليوم بما أشركتموني مع الله في طاعتي من قبل في الدنيا. وقال القتبي: في قوله: ﴿إني كفرت﴾، أي تبرأت كقوله في سورة الممتحنة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: تبرأنا منكم. وكذلك في العنكبوت: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] يعني: يتبرأ بعضكم من بعض. وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

Marfat.com

ثم قال: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: الكافرين لهم عذاب دائم. قرأ حمزة ﴿ما أنتم بِمُصْرِخِيِّ﴾ بكسر الياء، وهي قراءة الأعمش. وقرأ الباقون: بنصب الياء. قال أبو عبيدة: النصب أحسن. والأول ما نراه إلا غلطاً. وهكذا قال الزجاج. ويقال: هي لغة لبعض العرب. والنصب هي اللغة الظاهرة. وهو موافق للعربية قرأ أبو عمرو ﴿أَشْرَكْتُمُونِي﴾ بالياء عند الوصل، وقرأ الباقون بغير الياء وقرأ نافع ﴿اشتدت به الرياح﴾ بالألف، والباقون بغير ألف.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: وحدوا الله، وأدوا الفرائض، وانتهوا عن المحارم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهي الأنهار التي ذكر في قوله فيها: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] الآية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في الجنة لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبداً ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يعني: يسلم بعضهم على بعض. ويقال: لهم التحية من الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً﴾ يقول: كيف بيّن الله شبهاً ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، لا تكون في كلمة التوحيد زيادة ولا نقصان، ولكن يكون لها مدد وهو التوفيق للطاعة في الأوقات ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة. كما أنه ليس في الثمار شيء أحلى وأطيب من الرطب، فكذلك ليس في الكلام شيء أطيب من كلمة الإخلاص.

ثم وصف النخلة فقال: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: رأسها في الهواء فكذلك الإخلاص يثبت في قلب المؤمن، كما تثبت النخلة في الأرض. فإذا تكلم المؤمن بالإخلاص، فإنها تصعد في السماء، كما أن النخلة رأسها في السماء، وكما أن النخلة لها فضل على سائر الشجر في الطول واللون والطيب والحسن، فكذلك كلمة الإخلاص لها فضل على سائر الكلام، فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول: ﴿أصلها ثابت﴾ يعني: أن المعرفة في قلب المؤمن ثابتة كالشجرة الثابتة في الأرض، بل هي أثبت في الشجرة في الأرض، لأن الشجرة تقطع ومعرفة العارف لا يقدر أحد أن يخرجها من قلبه، إلا المعرف الذي عرفه. ويقال: ﴿وفرعها في السماء﴾ يعني: ترفع أعمال المؤمن المصدق إلى السماء، لأن الأعمال لا تقبل بغير إيمان، فالإيمان أصل، والأعمال فرع الإيمان، فترفع أعماله وتقبل منه.

ثم قال: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ يعني: تخرج ثمارها في كل وقت، وتخرج منها في كل

Marfat.com

وقت من ألوان المنفعة ﴿كل حين﴾ يعني: في كل وقت. روى الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس أنه قال: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قال: «غدوة وعشية». وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: «النخلة يكون حملها شهرين. فنرى أن الحين شهران». وروى هشام بن حسان، عن عكرمة، أنه قال: حلف رجل فقال: إن فعلت كذا إلى حين، فعليّ كذا. فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى ناس من الفقهاء فسألهم، فلم يقولوا شيئاً، قال عكرمة. فقلت: إن من الحين حيناً لا يدرك كقوله تعالى ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] ومنها ما يدرك كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ فأراد ما بين خروج الثمرة إلى صرامها، فأراد به ستة أشهر. قال: فأعجب بذلك أي: فرح بذلك عمر بن عبد العزيز. وروي عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن امرأة حلفت ألاّ تدخل على أهلها حيناً، قال: الحين ما بين أن يطلع الطلع إلى أن يجد، فبين أن يجدّ إلى أن: يطلع الطلع، ستة أشهر. وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «الحين ما بين الثمرتين». أي سنة. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: «الحين السنة». وعن مقاتل: سنة. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الحين ستة أشهر. وقال عكرمة: النخلة لا يزال فيها شيء ينتفع به إما ثمرة وإما حطبه، فكذلك الكلمة الطيبة ينتفع بها صاحبها في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: بأمر ربها ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ للناس﴾ يعني: يبيّن الله الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون، ويتفكرون في الأمثال فيوحّدونه.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: كلمة الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة ليس لها حلاوة ولا رائحة طيبة، فكذلك الشرك بالله خبيث. ثم وصف الشجرة فقال: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ أي: اقتلعت من فوق الأرض ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يعني: ليس لها أصل، تجيء بها الريح، وتذهب. فكذلك الكفر ليس له أصل، ولا حجة في الأرض، ولا في السماء.

ثم قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ بلا إله إلا الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: يثبتهم على ذلك القول عند النزع ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني: في القبر. وقال البراء بن عازب: «نزلت الآية في عذاب القبر: يسأل من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ يعني: إذا أجاب فقد ثبّته الله تعالى». وقال الضحاك: إذا وضع المؤمن في قبره وانصرف عنه الناس، دخل عليه ملكان، فيجلسانه ويسألانه: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ وما كتابك؟ وما قبلتك؟ فيثبّته الله في القبر، كما يثبته في الحياة الدنيا بالإقرار بالله تعالى وكتبه ورسله. وروى ابن طاوس عن أبيه

Marfat.com

أنه قال: ﴿في الحياة الدنيا﴾ يعني: قول لا إله إلا الله، يثبتهم عليها في الدنيا، ﴿وفي الآخرة﴾ عند المسألة في القبر. وهكذا قال قتادة. وقال الربيع بن أنس ﴿في الحياة الدنيا﴾ يعني: في القبر ﴿وفي الآخرة﴾ يعني: يوم الحساب. ويقال: ﴿في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يعني: يموت مع الإيمان، ويبعث على الإيمان يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: يضلهم عن الحجة، فلا يقولونها في القبر. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا دخلَ الكافِرُ والمنافِقُ قبرَهُ. قالا له: مَنْ ربُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومَنْ نبيُّكَ؟ فيقول: لا أدري، فيقُولانِ له: لا دَرَيْتَ ويضرِبَانِه بمرزبَةٍ، فيصيحُ صيحَةً يسمعُهَا ما بينَ الخافِقَيْنِ، إلا الجنّ والإنس»**[1]. فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: ما شاء للمؤمنين أن يثبتهم، وللكافرين أن يضلهم عن الجواب.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفراً﴾ قال مقاتل: كانت النعمة أن الله أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، يعني: من الخوف والقتل. ثم بعث فيهم رسولاً منهم، فكفروا بهذه النعمة وبدّلوها، وهم: بنو أمية، وبنو المغيرة ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ﴾ يعني: وأنزلوا سائر قريش ﴿دار البوار﴾ أي: دار الهلاك بلغة عمان، أهلكوا قومهم، ثم يصيرون بعد القتل إلى النار يوم القيامة، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفراً﴾ أي: غيّروا نعمة الله عليهم بالكفر ﴿وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ﴾ يعني: دار الهلاك قال قتادة: وهم قادة المشركين يوم بدر. قال الكلبي: ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ يعني: ﴿جهنم يصلونها﴾ هي دارهم في الآخرة. وقال الكلبي: ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ يعني: مصرعهم ببدر. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني: يدخلونها يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يعني: بئس المستقر جهنم.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله أَنْدَاداً﴾ يعني: شركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: ليصرفوا الناس عن دين الإسلام. قرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بنصب الياء، يعني: إنهم أخطؤوا الطريق وضلوا. وقرأ الباقون: بالضم، يعني: ليصرفوا الناس عن الهدى.

قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ يعني: عيشوا في الدنيا. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ يعني: مرجعكم يوم القيامة إلى النار.

---

(١) حديث أنس: أخرجه البخاري (١٣٣٨) (١٣٧٤) ومسلم (٢٨٧٠) (٧١) والنسائي: ٤/ ٩٨ وأحمد: ٣/ ١٢٦.

Marfat.com

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ
﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا
سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر: ﴿قُلْ لِعِبَادِ الذين﴾ بغير ياء. وقرأ الباقون: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الذين﴾ بالياء مع النصب. وأصله الياء، إلا أن الكسرة تغني عن الياء. وقال بعض الحكماء: شرف الله تعالى عباده بهذه الياء، وهي خير لهم من الدنيا وما فيها، لأن فيه إضافة إلى نفسه، والإضافة تدل على العتق، لأن رجلاً لو قال لعبده: يا ابن، أو يا ولد لا يعتق، ولو قال يا ولدي أو يا ابني يعتق بالإضافة إلى نفسه، فكذلك إذا أضاف الله العباد إلى نفسه، وفيه دليل على أنه يعتقهم من النار.

قوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: يتمونها بركوعها وسجودها ومواقيتها، ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال ﴿سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾ يعني: ﴿سراً﴾ على المتعففين، ﴿وعلانية﴾ على السائلين ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ﴾ يعني: لا فداء فيه ﴿وَلاَ خِلاَلٌ﴾ يعني: لا مخالة تنفعه، وهي الصداقة. لأنه إذا نزل بهم شدة في الدنيا، يفادون ويشفع خليلهم، وليس في الآخرة شيء من ذلك، وإنما هي أعمالهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لاَ بَيْعَ ولا خِلاَلَ﴾ بنصب العين واللام. وقرأ الباقون: بالرفع والتنوين فيهما، وهذا الاختلاف مثل قوله ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثم بيّن دلائل وحدانيته فقال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ يعني: فأنبت بالمطر ﴿من الثمرات﴾ يعني: من ألوان الثمرات، ﴿رزقاً لكم﴾ يعني: طعاماً لكم. ﴿وسخر لكم الفلك﴾ يعني: ذلّل لكم ركوب الفلك ﴿لتجري في البحر بأمره﴾ يقول بإذنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يعني: دائمين مطيعين. يعني: ذلّل لكم ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني: جعل بني آدم، يلتمسون فيها المعيشة، وينتشرون في النهار إلى حوائجهم، وفي الليل مستقرهم ومنامهم، ﴿وآتاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يعني: أعطاكم من كل شيء لم تحسنوا أن تسألوا، فأعطيتكم برحمتي. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة أنه قال: لم تسألوه بكل الذي أعطاكم. وقال معمر والحسن: آتاكم من كل الذي سألتموه. قال مجاهد: كل ما سألتموه، أي رغبتم إليه فيه، قرأ بعضهم ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ بالتنوين يعني: أعطاكم من كل شيء.

Marfat.com

وقراءة العامة ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من غير تنوين على معنى الإضافة. يعني: من جميع ما سألتموه.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ يعني: لا تقدروا على أداء شكرها. ويقال: ﴿لا تحصوها﴾ يعني: لا تحفظوها ﴿إِنَّ الإنْسَانَ﴾ يعني: الكافر ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يعني: يظلم نفسه بالكفر بنعم الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ يعني: مكة آمناً من القتل والغارة. ويقال: من الجذام والبرص ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وذلك أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت، سأل ربه أن يجعل هذا البلد آمناً، وخاف على بنيه لأنه رأى القوم يعبدون الأوثان. فسأل ربه أن يجنّبهم عبادة الأوثان فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ يقول: احفظني وبنيّ ﴿أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ يعني: لكي لا نعبد الأصنام، وفيه دليل أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن على إيمانه، وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله ليثبّته على الإيمان، كما سأله إبراهيم لنفسه ولبنيه الثبات على الإيمان. وروي عن يحيى بن معاذ أنه كان يقول: إنَّ جميع سروري بهذا الإسلام، وأخاف أن تنزعه منّي، فما دام هذا الخوف معي رجوت أن لا تنزعه مني».

ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ يقول: بهن ضلّ كثير من الناس، فكأن الأصنام سبب لضلالتهم. فنسب الإضلال إليهن، وإن لم يكن منهن عمل في الحقيقة. وقال بعضهم: كان الإضلال منهن، لأن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام وتتكلم، فذلك الإضلال منهن.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني: من آمن بي فهو معي على ديني. ويقال: فهو من أمتي ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يعني: لم يطعني، ولم يوحدك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن تاب، وأن توفقه حتّى يسلم.

ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: أنزلت بعض ذريتي، وهو إسماعيل ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني: بأرض مكة، وذلك أن سارة كانت لها جارية يقال لها: هاجر، فوهبتها من إبراهيم، فولدت منه إسماعيل، فغارت سارة وناشدته أن يخرج بهما من أرض الشام، فأخرجهما إبراهيم عليه السلام إلى أرض مكة ثم رجع إلى سارة فلمّا كبر إسماعيل،

Marfat.com

رجع إبراهيم إليه، وبنى معه البيت. فذلك قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: بعض ذريتي، وهو إسماعيل، بأرض ليس فيها زرع ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرّم فيه القتال والاصطياد، وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ يعني: وفّقهم ليتموا الصلاة، وإنما ذكر الصلاة خاصة، لأن الصلاة أولى العبادات وأفضلها ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: تشتاق إليهم. قال مجاهد: لو قال إبراهيم: فاجعل أفئدة الناس. تهوى إليهم لزاحمتهم الروم وفارس، ولكنه قال: ﴿أفئدة من الناس﴾ ﴿وَارْزُقْهُمْ﴾ يعني: أطعمهم ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يعني: لكي يشكروا فيما رزقتهم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)﴾

ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ من الوجد بإسماعيل وهاجر، والحب لهما، ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ عند سارة من الصبر عنهما ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: لا يذهب على الله شيء ﴿فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: من عمل أهل السماء وأهل الأرض. قال بعضهم: هذا كلام إبراهيم، وقال بعضهم: هذا كلام الله تعالى.

ثم رجع إلى كلام إبراهيم فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ يعني: بعد الكبر، وهو ابن تسع وتسعين سنة في رواية الكلبي، وفي رواية الضحاك: ابن مائة وعشرين سنة. ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وكان إسماعيل أكبرهما بثلاث عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ يعني: مجيب الدعاء.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ يعني: أكرمني بإتمام الصلاة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: فأكرمهم أيضاً لإتمام الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: استجب دعائي. ويقال: معناه تقبل عملي، واستجب دعائي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قرأ بعضهم: ﴿ولوالدتي﴾ لأن أمه كانت مسلمة. وقرأ بعضهم: ﴿ربّنا اغفرْ لي ولوَلَدَيّ﴾ يعني: إسماعيل وإسحاق، وقراءة العامة ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ لأنه كان يستغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: اغفر لجميع المؤمنين ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يعني: يوم القيامة.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قرأ حمزة وعاصم وابن عامر: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ﴾ بنصب السين، وقرأ الباقون: بالكسر، ومعناهما واحد. يعني: لا تظنّن يا محمد أن الله غافل عما يعمل الظالمون، أي: المشركين. يعني: إن أعمالهم لا تخفى عليَّ، ولو شئتُ لعجَّلْتُ عقوبتهم في الدنيا. قال ميمون بن مهران: هذه الآية تعزية للمظلوم ووعيد الظالم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: يمهلهم ويؤجلهم. قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿نُؤخِرهُمْ﴾ بالنون وقرأ الباقون: بالياء. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ يعني: تشخص فيه أبصار الكافرين. وذلك حين عاينوا النار شخصت فيهِ أبصارهم فلا يطرفون فيها.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، يقال: أهطع البعير في السير، إذا أسرع. ويقال: ﴿مهطعين﴾ أي ناظرين قاصدين نحو الداعي. وقال قتادة: ﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين ﴿مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ المقنع الذي يرفع رأسه شاخصاً بصره، لا يطرف. وقال مجاهد: ﴿مهطعين﴾ مديمي النظر، ﴿مقنعي رؤوسهم﴾، رافعي رؤوسهم. وقال الخليل بن أحمد: المهطع الذي قد أقبل إلى الشيء ينظره، ولا يرفع عينيه عنه ﴿مقنعي﴾ يعني: رافعي رؤوسهم، مادي أعناقهم ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يعني: لا يرجع إلى الكفار بصرهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ يعني: خالية من كل خير، كالهواء ما بين السماء والأرض. وقال السدي: هوت أفئدتهم بين موضعها وبين الحنجرة، فلم ترجع إلى موضعها. ولم تخرج كقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨] وهكذا قال مقاتل، وقال أبو عبيدة: ﴿هواء﴾ أي مجوفة لا عقول فيها.

ثم قال: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يعني: خوف أهل مكة ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ يعني: أجلنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لنرجع إلى الدنيا ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ يعني: الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ على دينهم. يقول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تكونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول: حلفتُم وأنتم في الدنيا من قبل هذا اليوم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي: لا تزولون عن الدنيا، ولا تبعثون.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ يقول: نزلتم ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي أشركوا، يعني: منازل قوم عاد وثمود ﴿وَتَبيَّنَ لَكُمْ كَيفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ يقول: كيف عاقبناهم عند التكذيب ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ يقول: بيّنا ووصفنا لكم عصيانهم وجحودهم، والعذاب الذي نزل بهم. يعني: إنكم سمعتم هذا كله في الدنيا فلم تعتبروا. فلو رجعتم بعد هذا اليوم، لا تنفعكم الموعظة أيضاً.

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ يعني علم الله مكرهم، وقد: صنعوا صنيعهم، يعني: الأمم الخالية ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرَهُمْ﴾ يعني: علم الله مكرهم، ولا يخفى عليه. قال علي بن أبي طالب: ﴿وعند الله مكرهم﴾ «أي التابوت، والنسور، وهو نمرود بن كنعان وقومه». وروى وكيع بإسناده عن عليّ رضي الله عنه قال: «إن جباراً من الجبابرة قال: لا انتهي حتى أعلم ما في السماء، يعني: نمورد، فاتخذ فراخ نسور، ثم أمر بها فأطعمت اللحم حتى اشتدت وغلظت واستفحلت، وأخذ تابوتاً يسع فيه رجلان، ثم أمر بالنسور فجوعت، ثم ربط أرجلها بالأوتاد، وشدت بقوائم التابوت، وجعل في وسط التابوت اللحم، ثم جلس في التابوت هو ورجل معه، ثم أرسل النسور وجعل اللحم على رأس خشبة على التابوت، فطارت النسور إلى السماء ما شاء الله. ثم قال لصاحبه: انظر ماذا ترى؟ فنظر فقال: أرى الجبال كأنها ذباب، ثم طارت ما شاء الله، ثم قال: انظر ماذا ترى، فنظر فقال: ما أرى إلا السماء، وما تزداد منها إلا بعداً. قال: نكّس الخشبة، فنكسها فانقضت النسور حتى سقطت على الأرض، فسمع هزته الجبال، فكادت تزول عن أماكنها». ثم قرأ عليّ رضي الله عنه ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي: وقد كاد مكرهم ليزيل الجبال عن أماكنها. ويقال: إن نمرود بن كنعان هو أول من تجبر وقهر وسنّ سنن السوء، وأول من لبس التاج، فأهلكه الله تعالى ببعوضة دخلت في خياشمه، فعذب بها أربعين يوماً ثم مات. وقال قتادة: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يعني: الكفار حين ادعوا لله تعالى ولداً، فكاد أن تزول الجبال. ويقال: أهل مكة مكروا في دار الندوة، وقد كاد مكرهم أن يزول منه أمر النبي ﷺ، وأمر دين الإسلام. إذ ثبوته كثبوت الجبال، لأن الله تعالى وعد نبيُّهُ ﷺ إظهار دين الإسلام، بدليل ما قال بعد هذا ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ قرأ الكسائي ﴿لَتَزُولُ﴾ بنصب اللام الأولى، ورفع الثانية. وقرأ الباقون: بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية ومعناه: ما كان مكرهم ليزول به أمر دين الإسلام، إذ ثبوته كثبوت الجبال. ومن قرأ ﴿لِيَزُولَ﴾ فمعناه: وإن كان مكرهم يعني: مكر الكفار ليبلغ إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينه. وروي عن ابن مسعود أن قرأ ﴿وإنْ كَادَ مَكْرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ يعني: في نزول العذاب بكفار مكة، إن شاء عجل لهم العقوبة في الدنيا. ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ذو انتقام للكفار.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال عليّ بن أبي طالب يعني: «أي: غير هذه الأرض التي عليها بنو آدم، بأرضٍ بيضاء نقية لم يعمل فيها بالمعاصي، ولا سفك عليها الدماء». وهكذا قال ابن مسعود.

قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا أبو يعقوب. قال: حدثنا محمد بن يونس العامري. قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم. قال: حدثنا القاسم بن الفضل، عن الحسن، عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ قال: «أَمَّا عِنْدَ مَوَاطِنَ ثَلاَثَةٍ فَلاَ: عِنْدَ الصِّرَاطِ، والكِتَابِ، والمِيزَانِ». قالت: ألم يقل الله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأرضِ﴾ أين يكونُ الناس يومئذٍ؟ قال: «سَأَلْتِنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكِ». فقال: «النَّاسُ يَوْمَئِذٍ عَلَى الصِّرَاطِ». وروي عن ابن عباس أنه قال: «تمد الأرض مد الأديم، ويزاد في سعتها».

ثم قال: ﴿وَبَرَزُوا لله الواحد القهار﴾ يعني: خرجوا من قبورهم، وظهروا ﴿لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لخلقه.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجرِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾ مسلسلين ﴿فِي الأَصْفَادِ﴾ يعني: في الأغلال، يقرن كل كافر مع شيطان ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ يعني: قمصهم ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ أي قمصهم من النحاس المذاب هكذا قال قتادة. وقال الحسن البصري: ﴿القطران﴾ الآنك. وقال عكرمة: هو القطران الذي يطلى به الأشياء، حتى يشتعل ناراً. وقال الضحاك: ﴿من قطران﴾ يعني: من صفر حار قد انتهى حره. وقال القتبي: ﴿مقرنين﴾ أي: قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال. وروي عن أبي هريرة أنه كان يقرأ من ﴿قِطْرٍ آنٍ﴾. ويقول: القطر النحاس والآنك الذي انتهى حره، و﴿سرا بيلهم﴾ أي قمصهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ يعني: تعلو وجوههم النار، ولا يمتنعون منها.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول: إذا حاسب، فحسابه سريع.

قوله: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: هذا القرآن إرسال وبيان من الله تعالى. ويقال: أبلغكم عن الله تعالى. ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ يعني: ليخوفوا بالقرآن عن معصية الله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ يعني: لكي يعلموا ﴿أنما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ صادق ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ أي ليتعظ بما أنزل من التخويف في القرآن ﴿أُولُو الأَلْبَابِ﴾ يعني: ذوو العقول من الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم - وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم(١).

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

سورة الحجر

مكية، وهي تسعون وتسع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

قال الله عزّ وجلّ: ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب **﴿وقُرآنٍ مُبينٍ﴾ أي:** بيّن حلاله، وحرامه. والكتاب والقرآن واحد. وقال قتادة في قوله: **﴿وَقُرآنٌ مُبِينٍ﴾ بيّن الله هداه** ورشده، وخيره، **﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** قرأ نافع وعاصم **﴿رُبَمَا﴾** بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد وقال عاصم: قرأت عند زر بن حبيش **﴿رُبَّمَا﴾** بالتشديد. فقال: إنك لتحب الرُّب. وقال: هي رُبَمَا مخففة، ولكن معناهما واحد. **فالتخفيف لغة بعض** العرب، واللغة الظاهرة بالتشديد، أي: ربما يأتي على الكافر يوم يتمنى أنه كان أسلم. **ويقال:** أقسم الله بالألف، واللام، والراء، إن هذا القرآن حق، وهو يبيّن لكم الحق من الباطل. **وأقسم** أنه رُبَّ يومٍ يأتي على الكافر يتمنى أنه ليت كان مؤمناً في الدنيا. **يقول الكافر: يا ليتني كنت** مؤمناً في الدنيا. أي: يوم القيامة. وذلك أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب، **ورأى** حالاً من أحوال المسلمين، وَدَّ أن لو كان مسلماً. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «يخرج من النار حين يقال: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. **فيتمنى** الكافر أن لو كان مؤمناً»، فذلك قوله **﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو كانوا مسلمين﴾**.

وروي حماد بن أبي سليمان قال: سألت إبراهيم النخعي عن هذه الآية. **قال: «نزلت في** الكفار، يعيّرون أهل التوحيد ويقولون: ما أغنى عنكم إيمانكم، وأنتم معنا، **فيغضب الله لهم،** فيأمر الله النبيين والملائكة فيشفعون، فيخرج أهل التوحيد من النار، حتى إن إبليس يتطاول رجاء أن يخرج، ويتمنى الكافر أن لو كان مسلماً في الدنيا».

قال: حدّثنا الخليل بن أحمد. قال: حدّثنا محمد بن شوكر. قال: حدّثنا القاسم قال: **حدّثنا أبو حنيفة، عن يزيد بن صهيب، عن جابربن عبد الله. قال: سألته عن الشفاعة. فقال:** **«يعذب الله قوماً من أهل الإيمان، ثم يخرجهم منها بشفاعة محمد ﷺ. قلت له: فأين قوله:** **﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ [المائدة: ٣٧] قال: اقرأ ما قبلها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ** **كَفَرُواْ﴾ [غافر: ١٠] الآية. يعني: إن تلك الآية نزلت في الكفار. وقال مجاهد: إذا أخرج من**

Marfat.com

النار من قال لا إله إلا الله، فعند ذلك يقولون: يا ليتنا كنا مسلمين، وعن أبي العالية مثله.

ثم قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ يقول: اتركهم وخلّ عنهم يا محمد في الدنيا يأكلوا ويتمتعوا ﴿يأكلوا﴾ كالأنعام، ﴿ويتمتعوا﴾ بعيشهم في الدنيا، لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد ﴿وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ﴾ يعني: يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة، وعن ذكر الله تعالى. ويقال: يشغلهم طول الأمل عن الطاعة، وذكر الأجل ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم، أي يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: أهل قرية ﴿إلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: أجلاً مؤقتاً، ووقتاً معروفاً ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ يعني: لا يموت أحد قبل أجله ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بعد أجلهم طرفة عين. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: الذي يزعم أنه ينزل عليه القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ نزلت في عبد الله بن أُمية ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ يعني: هلاّ تأتينا بالملائكة، فتخبرنا بأنك رسول الله ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك نبي مرسل، وأن العذاب نازل بنا.

قال الله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي والعذاب وبقبض الأرواح، ﴿وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ يعني: إذا نزلت عليهم الملائكة، لا يؤجلون بعد نزول الملائكة. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ما ﴿نُنَزِّلُ﴾ بالنون، وتشديد الزاي، ونصب ﴿الملائكة﴾ من قولك: نَزَّل يُنَزِّلُ. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ما تُنَزَّلُ﴾ بالتاء، والضم، ونصب الزاي مع التشديد، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون ﴿ما تَنَزَّلُ﴾ بنصب التاء، وتشديد الزاي، فجعل الفعل للملائكة.

ثم قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يعني: القرآن، ويقال: محمداً ﷺ من القتل. وقال قتادة: يعني: القرآن يحفظه الله تعالى، من أن يزيد فيه الشيطان باطلاً، أو يبطل منه حقاً. وكذلك قال مقاتل.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ

Marfat.com

فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: قد أرسلنا قبلك يا محمد رسلاً ﴿فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ أي: في أمم وقرون الأولين قبل أمتك ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ من رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: كانوا يسخرون منهم كما سخر منك قومك ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ بعضهم ﴿نُسْلِكُه﴾ بضم النون، وكسر اللام. وقراءة العامة: بنصب النون، وضم اللام. وهما لغتان. يقال: سلكتُ الخيط في الإبرة، إذا أدخلته فيها. ومعناه: هكذا ندخل الإضلال في قلوب المجرمين أي: المشركين عقوبة ومجازاة لكفرهم. ويقال: معناه هكذا نطبع على قلوب المجرمين. ويقال: نجعل حلاوة التكذيب بالعذاب. ويقال: للشرك في قلوب المشركين الذين ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: لا يصدقون بالله. ويقال: بمحمد ﷺ ويقال: بالعذاب إنه غير نازل بهم. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت بالعذاب عند التكذيب. ويقال: تقدمت سيرة الأولين بالهلاك.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فصاروا يصعدون فيه وينزلون، يعني: الملائكة، ويراهم المشركون، وهم أهل مكة ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ يقول: أخذت، وأغشيت أبصارنا ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ولقالوا سحرنا فلا نبصر. وروى قتادة عن ابن عباس أنه قال: «لو فتح الله عليهم باباً من السماء، فظلت الملائكة يعرجون فيه لقالوا: أخذت أبصارنا». قرأ ابن كثير ﴿سُكِرَتْ﴾ بالتخفيف. وهكذا قرأ الحسن. وقرأ الباقون بالتشديد. وقال القتبي: ﴿سُكِّرَتْ﴾ بالتشديد أي: غُشِّيَتْ. ومنه يقال: سُكْر النهر إذا سدّ، ومنه إذا أسكر الشراب وهو الغطاء على العقل. ومن قرأ ﴿سُكِرَت﴾ بالتخفيف أي: سحرت، يعني: إنهم لا يعتبرون به، كما لم يعتبروا بانشقاق القمر حين رأوه معاينة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ أي: نجوماً. ويقال: هي القصور في السماء. وقال الضحاك وسعيد بن المسيب ومجاهد: «هي النجوم» ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: زينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ يعني: السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي: مرجوم، ويقال: ملعون مبعد من الرحمة ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: لكن من اختلس السمع خلسة

Marfat.com

﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مبينٌ﴾ أي: لحقه نجم حار متوهج متوقد، لا يخطئه الشهاب أن يصيبه. فإما أن يأتي على نفسه، وإمّا أن يخبله، حتى لا يعود إلى الاستماع إلى السماء.

وقال ابن عباس: «إن أهل الجاهلية من الكهنة قالوا: لا يكون كاهن إلا ومعه تابع من الجن، فينطلق الشياطين الذين كانوا مع الكهنة، فيقعدون من السماء مقاعد السمع، ويستمعون إلى ما هو كائن في الأرض من الملائكة، فينزلون به على كهنتهم فيقولون: إنه قد كان كذا وكذا من الأمر، فتفشيه كهنتهم إلى الناس، فيتكلمون به قبل أن ينزل على النبي ﷺ، فإذا تكلم به النبي ﷺ قالوا: قد علمنا قبله وكانت الشياطين لا تحجب عن الاستماع في السموات حتى بعث عيسى ابن مريم، فمنعوا من ثلاث سماوات، وكانوا يصعدون في أربع سماوات، فلما بعث النبي ﷺ، منعوا من السموات السبع، وكان الشيطان المارد منهم يصعد، ويكون آخر أسفل منه، فإذا استمع قال للذي أسفل منه: قد كان من الأمر كذا وكذا، فيهرب الأسفل، ويرمي الذي استمع بالشهاب، ويأتي الأسفل بالأمر الذي سمع إلى كهنتهم، فذلك قوله: ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاها﴾ يقول: بسطناها على الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: الجبال الثوابت لكي لا تتحرك من أمكنتها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبال ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: مقسوم معلوم. ويقال: ﴿من كل شيء موزون﴾ مما يخرج من الجبال من: الحديد، والرصاص، والفضة، والذهب. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: من الزرع والنبات. ويقال: ﴿وأنبتنا فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من كل شيء موزون﴾ أي: معدود من الحبوب وغيره. ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ أي: خلقنا فيها معايش البهائم، والوحوش، والطيور، يعني: أنتم لستم ترزقونها، وأنا أرزقها.

قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: مفاتيح رزقه. ويقال: علمه، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وهو المطر ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ أي: المطر ﴿إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: بكيل ووزن معروف. قال ابن عباس: «أي، يعلمه الخزان إلا يوم الطوفان الذي أغرق اللهُ به قوم نوح، فإنه طغى على خزانه، وخرج وكثر فلم يحفظوا ما خرج منه يومئذٍ، وخرج أربعين يوماً».

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال: بعث الله الريح، فتلقح السحاب، ثم تمر به فتدرُّ كما تدر اللقحة ثم تمطر، هذا قول ابن مسعود. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي: ملقحات تلقّح الأشجار. وقال قتادة: ﴿لواقح﴾ أي: تلقح السحاب،

Marfat.com

وهكذا قال الكلبي. قرأ حمزة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون: بلفظ الجماعة.

ثم قال: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ يعني: بماء المطر فأرويناكم به وحبستم الماء في الغدران والحياض، لتسقوا الضياع والمواشي ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: بمالكين وحافظين. ويقال: ليس مفاتيحه بأيديكم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي للبعث، ونميت في الدنيا. ويقال ﴿نحيي﴾ الأرض بالمطر أيام الربيع، ونميتها أيام الخريف ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي: المالكون. ويقال: معناه يهلك الخلق، ويبقى الرب تبارك وتعالى.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي: الأموات ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ يعني: الأحياء. ويقال: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ في الصف الأول، ﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾ في الصف الآخر. وروى أبو الجوزاء، عن ابن عباس أنه قال: «كانت امرأة حسناء تصلي خلف النبي ﷺ، فكان بعض القوم يتقدم في الصف الأول لكي يراها، ويتأخر بعضهم. فإذا ركع، نظر من تحت إبطيه، فنزل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ولقد علمنا المستأخرين﴾ ويقال: إن النبي ﷺ حرَّض الناس على الصف الأول، وكان قوم بيوتهم قاصية من المسجد، فقالوا: لنبيعن دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف الأول، فصارت الديار البعيدة خالية، فقال النبي ﷺ «مَنْ أَتَى المَسْجِدَ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ آثَارُهُ وَيُكْتَبُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً، وَتُرْفَعُ لَهُ كَذَا وَكَذَا دَرَجَةً» فجعل الناس يشترون الدور البعيدة من المسجد لكي يكتب لهم آثارهم، فنزل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، وإنما يؤجرون بالنية، فاطمأنوا وسكنوا. وقال مجاهد: ﴿ولقد علمنا المستقدمين﴾ أي: ما مضى ﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾ ما بقي من أمة محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿المستقدمين﴾ آدم ومن مات قبل نزول هذه الآية. ﴿والمستأخرين﴾ من لم يخلق بعد، كلهم قد علمهم. وقال الحسن: ﴿المستقدمين﴾ في الخير، ﴿والمستأخرين﴾، يقول: المبطئين.

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حكم بحشر الأولين والآخرين ﴿عليمٌ﴾ بهم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: آدم ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: من طين يتصلصل إذا مشيت عليه يتقلقل، وإذا تركته يتفلّق، ﴿مِنْ حَمَإٍ مسْنُونٍ﴾ أي: من طين أسود منتن. وقال الأخفش: أي من طين مصبوب. ويقال: ﴿مسنون﴾ أي: متغير الرائحة كقوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ويقال: الذي أتت عليه السنون. وقال القتبي: ﴿الصلصال﴾ الطين اليابس الذي لم تصبه نار، إذا ضربته صوّت، وإذا مسته النار فهو فخار. والمسنون: المتغير الرائحة،

Marfat.com

والحمأ: جمع حمئة وهو الطين المتغير ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ آدم ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ وهي نار لا دخان لها، وهم في الأرض مع إبليس سكانُ الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إني خالق بشراً﴾ يعني: قال ربك للملائكة سأخلق خلقاً ﴿مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مسنُونٍ فإذَا سَوَّيتُهُ﴾ أي: جمعت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي﴾ أي: جعلت الروح فيه ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي: فخرُّوا له سجَّداً ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ﴾ سجدة تحية لا سجدة عبادة وكانت التحية لآدم عليه السلام، والعبادة لله تعالى. ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ روي عن الخليل أنه قال: ﴿أجمعون﴾ على معنى توكيد بعد توكيد. وذكر عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: معناه سجدوا كلهم في حالة واحدة. وقال الزجاج: الأول أجود، لأن أجمعين معرفة، ولا يكون حالاً. ﴿إلاَّ إبْلِيسَ﴾ قال بعضهم: لكن إبليس لم يكن من الساجدين، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، فلا يكون الاستثناء من غير جنس ما تقدم، بدليل قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال بعضهم: استثنى إبليس من الملائكة، وكان من جنسهم، إلا أنه لما لم يسجد لعن وغيّر عن صورة الملائكة فذلك قوله ﴿إلاَّ إبْلِيسَ﴾ ﴿أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: تعظَّم عن السجود لآدم مع الملائكة قوله عز وجل ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسَ مَا لَكَ ألاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: مع الملائكة ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مسنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الأرض. ويقال: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: ملعون مطرود، فألحقه بجزائر البحور ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي طرد من رحمته إلى يوم الحساب.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أجلني ﴿إلى يَوْم يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: من المؤجلين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: النفخة الأولى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا

Marfat.com

أغْوَيْتَنِي﴾ يقال: معناه، بإغوائك إياي ويقال: أضللتني عن ا لهدى لأجل آدم. قال القتبي: أي بالذي أغويتني ﴿لأزينَنَّ لهم في الأرض﴾ أي ما في الأرض من الشهوات واللذات ﴿ولأغوينهم﴾ أي لأضلّنهم عن الهدى ﴿أجْمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر ﴿الْمُخلِصِينَ﴾ بكسر اللام أي: المخلصين في العبادة، ويقال: الموحدين. وقرأ الكسائي ونافع وحمزة وعاصم: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بنصب اللام أي: المعصومين من الشرك.

قال: حدّثنا الفقيه أبو جعفر. قال: حدّثنا أبو القاسم. قال: حدّثنا محمد بن سلمة. قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله. قال: حدّثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام، عن الحسن قال. قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا لُعِنَ إبْلِيسُ، قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لا أُفَارِقُ قَلْبَ ابنِ آدَمَ حَتَّى يَمُوتَ». قال: قيل له: «وعزتي لا أحجب عنه التوبة، حتى يغرغر بالموت»[(١)].

ثم قال عز وجل: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي: هذا التوحيد صراط ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ وعلى دلالته، وهذا قول الحسن. ويقال: معناه على ممر من أطاعك، ومن عصاك. كقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ويقال: معناه هذا بيدي، لا بيدك. وقال الضحاك: هذا سبيل الله عليّ مستقيم، أي: عليّ هدايته ودلالته كقوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] وروي عن ابن سيرين: أنه كان يقرأ ﴿هذا صراط عَلِيٌّ مستقيم﴾ بكسر اللام، ورفع الياء مع التنوين، ومعناه: هذا صراط رفيع مستقيم، وهو قول قتادة، أي: طريق شريف لا عوج فيه.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أي: عبادي الذين لا يطيعونك ﴿لَيسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة ولا ملكاً، ولا أسلطك عليهم. كقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ٩٩].

ثم قال تعالى: ﴿إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من أطاعك من الكافرين. ويقال: معناه إنما نفاذ دعوتك ووسوستك لمن اتبعك من المشركين.

ثم بيّن مصير من اتبعه ومصير من لم يتبعه فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لمصير من اتبعه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي: سبعة منازل ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: لكل منزل صنف ممن يعذب من الكفار، على قدر منزلته من الذنب، نصيب معروف. أسفلها هاوية وهي لآل فرعون، ولأصحاب المائدة الذين كفروا بعيسى، وللمنافقين، والزنادقة. والثانية: لظى وهي منزلة المجوس والثنوية الذين قالوا بإلهين. والثالثة: سقر وهي منزلة المشركين وعبدة

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٧٩ إلى ابن أبي حامد وابن مردويه.

Marfat.com

الأوثان. والرابعة: الجحيم، وهي منزلة اليهود الذين كذبوا الرسل، وقتلوا أنبياء الله بغير حق. والخامسة: الحطمة وهي منزلة النصارى الذين كذبوا محمداً ﷺ، وقالوا قولاً عظيماً. والسادسة: السعير وهي منزلة الصابئين، ومن أعرض عن دين الإسلام وخرج منه. والسابعة: جهنم وهي أعلى المنازل، وعليها ممر الخلق كلهم، وهي منزل أهل الكبائر من المسلمين. قال ابن عباس، في رواية أبي صالح: «الباب الأول جهنم، والثاني السعير، والثالث سقر، والرابع جهنم، والخامس لظى، والسادس الحطمة، والسابع الهاوية». وقال بعضهم: جهنم اسم عام يقع على الإدراك كلها، والأول أصح: إن جهنم اسم لا يقع على الإدراك، وهكذا روي عن جماعة من الصحابة.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين يتقون الشرك والفواحش، ويتقون إجابة الشيطان في بساتين، وعيون ظاهرة، ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: مسلمين، ويقال: سالمين، ناجين من العذاب. ﴿آمِنِينَ﴾ أي: من الموت والخوف.

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي: من حسد وعداوة كانت بينهم في الدنيا، ويكونون في الآخرة ﴿إِخْوَاناً﴾ صار نصباً على الحال ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: متزاورين متحدثين. وروى سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، أن علياً قال: «أرجو أن أكون أنا وطلحة، والزبير، من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾»[(١)] وروى ربعي بن خراش قال: قام رجل من همدان فقال: يا أمير المؤمنين: الله أعدل من ذلك، فصاح به عليٌّ فقال: «إذا لم نكن نحن فمن هم»؟ ثم قال: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يقول: لا يصيبهم في الجنة تعب، ولا مشقة ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي: من الجنة.

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أي: أخبر عبادي يا محمد ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب منهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لمن مات على الكفر، ولم يتب. قال: حدثنا أبو

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٨٥ إلى ابن جرير وسعيد بن مصنور وابن المنذر وابن مردويه.

Marfat.com

جعفر. قال: حدّثنا إسحاق بن عبد الرحمن. قال: حدّثنا محمدبن شاذان الجوهري. قال: حدّثنا محمد بن مقاتل. قال: حدّثنا عبد الله بن المبارك. قال: حدّثنا مصعب بن ثابت عن عاصم بن عبيد، عن عطاء، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، ونحن نضحك، فقال: «أَتَضْحَكُونَ؟» ثم قال: «لا أُرَاكُمْ تَضْحَكُونَ» ثم أدبر فكأن على رؤوسنا الرخم، حتى إذا كان عند الحجر، ثم رجع إلينا القهقرى فقال: «جَاءَ جِبْرِيلُ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ: لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِي؟[1] ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾» وقال قتادة: ذكر لنا أنّ النبي ﷺ قال: «لَوْ يعلَمُ العَبْدُ قدرَ رَحْمَةِ الله، مَا تَوَرَّعَ عَنْ حَرَامٍ قطُّ، وَلَوْ عَلِمَ قَدرَ عُقُوبَةِ الله، لَبَخَعَ نَفْسَهُ». أي: أهلك نفسه في عبادة الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن أضياف إبراهيم إلا أن هذا اللفظ مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع، وذلك حين بعث الله تعالى جبريل في اثني عشر من الملائكة.

قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيم ﴿فَقَالُوا سَلاَماً﴾ أي: فسلموا عليه. فرد عليهم السلام. كما قال في موضع آخر ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] وقال الكلبي: فأنكرهم إبراهيم في تلك الأرض، لأنهم لم يطعموا من طعامه. ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفين ﴿قَالُوا لاَ تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف منا، وبشروه، فقالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ قرأ حمزة ﴿نَبْشُرك﴾ بجزم الباء، مع التخفيف. ونصب النون، وضم الشين. وقرأ الباقون بالتشديد ﴿بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بإسحاق ﴿عليم﴾ في صغره، حليم في كبره، ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: بعدما أصابني الكبر والهرم ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قرأ نافع ﴿تُبَشِّرُونِ﴾ بكسر النون مع التخفيف، لأن أصله: تبشرونني بالياء، فأقيم الكسر مقامه. وقرأ ابن كثير ﴿فبم تبشرونّ﴾ بكسر النون مع التشديد، لأنه في الأصل بنونين، فأدغم إحداهما في الأخرى مثل قوله ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ و﴿تحاجُونِّي﴾ في الأصل. وقرأ الباقون ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بنصب النون مع التخفيف، لأنها نون الجماعة. وقال أبو عبيدة: هذا أعجب إليّ لصحتها في العربية ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالولد. ويقال: بالصدق ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من الولد. ويقال: من نعم الله ﴿قَالَ إبراهيم وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ أي: من نعمة ربه ﴿إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ أي: الجاهلون. قرأ الكسائي، وأبو عمرو، ﴿يَقْنِطُ﴾ بكسر النون، وقرأ الباقون ﴿يَقْنَطُ﴾ بالنصب، ومعناهما واحد.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/٨٦ إلى ابن جرير وابن مردويه.

Marfat.com

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم قال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي قال إبراهيم: ما حالكم، وشأنكم، وبماذا جئتم، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين. قال إبراهيم: من هم؟ قالوا: قوم لوط. قال إبراهيم: أتهلكونهم، وفيهم لوط؟ فقالوا: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ يعني: ابنتيه زعورا وريثا. ويقال: امرأة له أخرى غير التي أهلكت ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إِنا لَمُنْجُوهُمْ﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون: بنصب النون، وتشديد الجيم. من أَنْجى، يُنْجِي، ونَجَّى، يُنَجِّي، بمعنى واحد ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا﴾ عليها الهلاك ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي لمن المتخلفين للهلاك. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿قَدَرْنَا﴾ بالتخفيف، وهو من القدَر. وقرأ الباقون: بالتشديد، وهو من التقدير.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لما دخلوا عليه، أنكرهم ولم يعرفهم ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بما كانوا يشكون من نزول العذاب بهم ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب، وهو العدل والصدق ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بأن العذاب نازل بهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في بعض الليل. قرأ ابن كثير ونافع ﴿فَاسْرِ﴾ بجزم الألف، والباقون بالنصب، سريت وأسريت إذا سرت ليلاً ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ يقول: امش وراءهم ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾. لا يتخلف منكم أحد ﴿وَامْضُوا﴾ أي: انطلقوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي إلى المدينة وهي مدينة زغر.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أي أمرناه بالخروج إلى الشام إلى مدينة زغر ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: إنهم مستأصلون عند الصباح.

ثمّ قال: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بدخول الرجال منزل لوط ﴿قَالَ﴾ ﴿لوط إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي﴾ يقول: أضيافي ﴿فَلاَ تَفْضَحُونِ﴾ فيهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ﴾ أي: لا تذلوني في أضيافي ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ألم ننهك أن تضيف أحداً من الغرباء ﴿قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي﴾ أي: بنات قومي أزوجكم بهنّ ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: فتزوجوا النساء، فإن الله تعالى خلق النساء للرجال، وأمر بتزويجهن.

Marfat.com

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

ثم قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياتك يا محمد، إنهم لفي جهالتهم وضلالتهم ﴿يعمهون﴾ أي: يترددون، ويتجبرون. يعني: إن أهل مكة يسمعون هذه العجائب، ولا تنفعهم، وهم على جهلهم مصرون. قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد. قال: حدّثنا ابن معاذ. قال: حدّثنا عبد العزيز بن أبان، عن سعيد بن زيد، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس أنه قال: «ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره. فقال ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾».

ثم رجع إلى قصة قوم لوط فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مشرقين﴾ أي: أخذتهم صيحة جبريل عند طلوع الشمس، وذلك أن جبريل قلع الأرض وقت الصبح، فرفعها مع الملائكة إلى قريب من السماء، ثم قلبها وأهواها إلى الأرض، وصاح بهم وقت طلوع الشمس فذلك قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقد ذكرناها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هلاك قوم لوط ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: علامات ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ يقول: للمتفكرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال الضحاك: للناظرين. وقال مجاهد: للمفترِسين. قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد. قال: حدّثنا أبو يعقوب. قال: حدّثنا عمار بن الربيع الباهلي، عن أبي صالح بن محمد، عن محمد بن مروان، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد، أن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1]. ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ وقال الزجاج: حقيقته في اللغة، النُّظار المثبتون في نظرهم، حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء. يقال: توسمت في فلان كذا وكذا أي: عرفت ذلك من هيئته.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: قريات لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي: بطريق واضح بيّن يرونها حين مروا بها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في هلاك قوم لوط ﴿لَآيَةً﴾ أي لعلامة وعبرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانَ﴾ يقول: وقد كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: أصحاب الغيضة، والغيضة والأيكة: الشجرة، وهم قوم شعيب. قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة. وقال بعضهم: بعث شعيب إلى قومين: أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقال بعضهم: آل مدين والأيكة واحد، لأن الأيكة كانت عند مدين، وهذا أصح ﴿لَظَالِمِينَ﴾ أي: لكافرين.

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٩٠ ـ ٩١ إلى البخاري في تاريخه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبي نعيم، وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري. وعن ابن جرير عن ابن عمر وعن ثوبان.

Marfat.com

قوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: قريات لوط وشعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي لبطريق واضح. وقال القتبي: أصل الإمام ما يؤتم به. قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ أي: يؤتم، ويقتدى بك، ثم تستعمل لمعاني منها: يسمَّى الكتاب إماماً، لأنه يؤتم بما أحصاه الكتاب. قال الله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتابهم. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] أي: في اللوح المحفوظ. وهو الكتاب. ويسمَّى الطريق إماماً، لأن المسافر يأتم به، ويستدل به. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي: بطريق واضح. أي: قرية شعيب وقريات قوم لوط، عليهما السلام.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾ وهم قوم صالح، كذبوا صالحاً، والحجر: أرض ثمود ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: الناقة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يقول: مكذبين لها ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ من أن تقع عليهم الجبال. ويقال: ﴿آمنين﴾ من نزول العذاب، فلم يعرفوا نعمة الله تعالى. فعقروا الناقة، وقسموا لحمها، فأهلكهم الله تعالى بصيحة جبريل فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: حين أصبحوا ويقال: ﴿آمنين﴾ من العذاب بعقر الناقة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالحَقِّ﴾ أي: للحق. والباء توضع موضع اللام، أي: لينظر عبادي إليها فيعتبروا. ويقال: وما خلقناهما إلا عذراً وحجة على خلقي، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة، لا محالة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ﴾ أي: اعرض عنهم إعراضاً جميلاً بلا جزع منك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ أي: عليماً بمن يؤمن، وبمن لا يؤمن، ويقال ﴿العليم﴾ متى تقوم الساعة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي﴾ أي: فاتحة الكتاب ﴿وَالقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ أي: سائر القرآن، وهذا قول: ابن عباس، وعليّ بن أبي طالب، وابن مسعود وروى مجاهد عن ابن عباس

Marfat.com

أنه قال: «السبع المثاني، السبع الطوال». وعن سعيد بن جبير قال: «البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس». قال: «لأنه يثني فيها حدود الفرائض والقرآن». ويقال: السبع المثاني، والقرآن كله وهو سبعة أسباع. سمي مثاني: لأن ذكر الأقاصيص فيه مثنى كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] وقال طاوس: «القرآن كله مثاني». وقال أبو العالية: «المثاني، فاتحة الكتاب سبع آيات، وإنما سمي مثاني، لأنه يثنى مع القرآن كلما قرىء القرآن». قيل إنهم يزعمون أنها السبع الطوال. قال: لقد أنزلت هذه الآية، وما أنزل شيء من الطوال. وسئل الحسن عن قوله: ﴿سبعاً من المثاني﴾ قال: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ حتى أتى على آخرها. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ أُمُّ الكِتَابِ وَأُمُّ القُرْآنِ وَالسَّبْعُ المَثَانِي». وقال قتادة: السبع المثاني هي فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة أوتطوع، يعني: في كل صلاة. ويقال: ﴿من المثاني﴾ أي: مما أثني به على الله تعالى، لأن فيها حمدَ الله تعالى وتوحيده و﴿من﴾ ههنا على ضربين: يكون للتبعيض من القرآن أي: أعطيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله تعالى، وآتيناك القرآن العظيم، ويجوز أن يكون السبع هي المثاني كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: اجتنبوا الأوثان.

قوله: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظرن بعين الرغبة ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ أي: إلى ما أعطيناك في الدنيا من القرآن خير وأفضل مما أعطيناهم من الأموال، فاستغن بما أعطيناك من القرآن والدين والعلم، ولا تنظر إلى أموالهم. ﴿أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً منهم، وألواناً من الأموال، وقوله: ﴿منهم﴾ أي أعطينا رجلاً من المشركين منهم ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا، لأن مقدوري عليهم الكفر. ويقال: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ إن نزل بهم العذاب ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ليِّن جناحك عليهم أي: تواضع للمؤمنين ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ أخوِّفكم بعذاب مبين، بلغة تعرفونها.

قال عز وجل: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ﴾ أي: كما أنزلنا العذاب ﴿على المقتسمين﴾ وهم الذين اقتسموا على عقاب مكة، ليردوا الناس عن دين الإسلام، وعن الإيمان بمحمد ﷺ. ويقال: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ بالقرآن، كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين، وهم اليهود والنصارى، اقتسموا فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى، فرقوا القرآن، آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. ويقال: إن أهل مكة قالوا أقاويل مختلفة. ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: فرقوا القول فيه. قال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: شعر، وهذا قول قتادة. ويقال: أصله في اللغة الفرقة. يقال: فرّقوه أي: عضّوه أعضاء. يقال: ليس دين الله بالتعضية أي: بالتفريق. وروى الضحاك، عن ابن عباس، أنه قال: «جزّؤوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور».

Marfat.com

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ثم قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بنفسه ليسألنهم يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، وعن ترك قول: لا إله إلا الله، وعن الإيمان بالله، والرسول ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر أمرك، وامض، لما أمرتك ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتركهم حتى يجيء أمر الله تعالى. وكان رسول الله ﷺ قبل نزول هذه الآية مستخفياً لا يظهر شيئاً مما أنزل الله عليه، حتى نزلت هذه الآية، فأعرض عن المشركين.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي: أظهر أمرك، فقد أهلك الله المستهزئين، وهم خمسة رهط، فأهلكوا كلهم في يوم وليلة، وذلك أن النبي ﷺ أراد الخروج إلى الموسم أيام الحج ليدعو الناس، فمنعه المستهزئون، وبعثوا على كل طريق رجلاً، فإذا سألهم أحد من الغرباء عن النبي ﷺ قالوا: هو ساحر كاهن. ثم قالوا: هذا دأبنا كل سنة، فشقّ على النبي ﷺ، فأهلكهم الله تعالى، منهم الوليد بن المغيرة. فنزل جبريل على النبي ﷺ فقال: كيف تجد هذا؟ فقال: «بِئْسَ الرَّجُلُ». فقال: كفيناكه. فمضى وهو يتبختر في ردائه، ويقال: ببردته، فمر برجل يصنع السهام، فتعلق سهم بردائه، وأخذ طرف ردائه ليجعله على كتفه، فأصاب السهم أكحله، فنزف فمات.

ومنهم: العاص بن وائل السهمي، مرّ عليه النبي ﷺ فسأله عنه فقال: «**بئس الرجل هو**». فقال: «كفيناكه» فوطىء على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه، حتى هلك. ومنهم: الحارث بن حنظلة، أصاب ساقه شيء فانتفخ فمات. ومنهم: أسود بن عبد يغوث، أصابه العطش، فجعل يشرب الماء حتى انتفخ بطنه فمات. ومنهم: أسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزّى، ضربه جبريل بجناحه فمات. ويقال: خرج مع غلام له، فأتاه جبريل عليه السلام وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح برأسه الشجرة، ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك، حتى مات وهو يقول: قتلني رب محمد. وفي رواية الكلبي: أن أسود بن عبد يغوث، خرج من أهله، فأصابه السواد حتى عاد حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب حتى مات(١).

وروي في خبر آخر أن العاص بن وائل السهمي، خرج في يوم مطير على راحلته مع ابنين له؟ فنزل شعباً من الشعاب، فلما وضع قدمه على الأرض، لدغت فطلبوا، فلم يجدوا شيئاً، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه. وعن أبي بكر الهُذلي أنه قال: قلت

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/٩٨ إلى ابن إسحق وابن أبي حاتم والبيهقي، وأبي نعيم في الدلائل عن ابن عباس.

Marfat.com

للزهري: إن سعيد بن جبير وعكرمة قد اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال سعيد: هو الحارث بن عَيْطلة. وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس. فقال: صدقا كانت أمه اسمها عيطلة، وأبوه قيس. ويقال: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه عطش، فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقدّ فمات وهو يقول: قتلني رب محمد فنزل ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾ أي: يقولون ﴿مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا يفعل بهم، هذا وعيد لسائر الكفار.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: صلِّ بأمر ربك. ويقال: استعن بعبادة ربك، ولا تشغل قلبك بهم ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ من المصلين. ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: واستقم على التوحيد ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أي: الموت.

قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل. قال: حدثنا محمد بن جعفر. قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف. قال: حدثنا المحاربي، عن إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل، عن مسلم عن جبير بن نفير، عن أبي مسلم الخولاني أن النبي ﷺ قال: **«مَا أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ وَأَكُونَ مِنَ التُّجار، وَلٰكِنْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ اليَقِينُ»**[(1)] والله أعلم.

(١) عزاه السيوطي: ٥/١٠٥ إلى سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي.

Marfat.com

سورة النحل

مكية وهي مائة وعشرون وثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: أخبرنا الثقة بإسناده عن الشعبي قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة إلا هذه الآية ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية وقال ابن عباس: سورة النحل كلها مكية، إلا أربع آيات نزلت بالمدينة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا في الله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بالله﴾ إلى آخرها(1).

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)﴾

قوله تعالى: ﴿أتى أمرُ الله﴾ أي يوم القيامة. ويقال: يعني، العذاب. كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] أي: أتى أمر الله، بمعنى: يأتي، أي: هو قريب لأن ما هو آتٍ آتٍ، وهذا وعيد لهم إنها كائنة. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] ثم نزل بعدها ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قالوا: يا محمد تزعم أن الساعة قد اقتربت ولا نرى من ذلك شيئاً، فنزل ﴿أتى أمرُ الله﴾ أي: عذاب الله، فوثب رسول الله ﷺ قائماً لا يشك أن العذاب قد أتاهم، فقال لهم جبريل: ﴿فلاَ تَستَعجِلُوهُ﴾ قال: فجلس النبي ﷺ بعد قيامه، ثم قال: ﴿سُبحَانَهُ﴾ نزّه نفسه عن الولد، والشريك. ويقال: ارتفع، وتعاظم عن صفة أهل الكفر، فقال عز وجل: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشركُونَ﴾ به من الأوثان. قرأ حمزة والكسائي ﴿تُشرِكُونَ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون: بالياء بلفظ المغايبة، وكذلك ما بعده.

ثم قال: ﴿يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ﴾ أي: جبريل ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي وبالنبوة والقرآن ﴿مِنْ أمرِهِ﴾ أي: بأمره. قال القتبي: ﴿من﴾ توضع موضع الباء كقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: بأمر الله. وقال ههنا: يلقي الروح ﴿من أمره﴾ أي: بأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾

(١) عزاه السيوطي: ١٠٧/٥ إلى ابن مردويه.

Marfat.com

أي: يختار للنبوة والرسالة. وقال قتادة: ينزل الملائكة بالرحمة والوحي ﴿على من يشاء من عباده﴾ من كان أهلاً لذلك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنْزِلُ﴾ بجزم النون من قولك أنْزَلَ يُنْزِلُ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿تَنَزَّلُ﴾ بالتاء ونصب النون والزاي مع التشديد، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالياء، وكسر الزاي مع التشديد، من قولك: نَزَّلَ.

ثم قال تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ﴾ أي: خوفوا بالقرآن الكفار، وأعلموهم أنه ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ يعني: إن الله واحد لا شريك له فوحدوه وأطيعوه ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ أي: للحق. ويقال: للزوال والفناء. ﴿تَعَالَى﴾ أي تبرأ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يقول: من ماء الرجل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ يقول: جدل باطل ظاهر الخصومة، وهو أبيّ بن خلف، حيث أخذ عظماً بالياً ففتّه بيده، وقال: عجباً لمحمد يزعم أنه يعيدنا بعد ما كنا عظاماً ورفاتاً، وإنا نعاد خلقاً جديداً، فنزل ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] الآية.

ثم بين النعمة فقال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ أي: ما يستدفأ به من الأكسية وغيرها، والذي يتخذ منه البيوت من الشعر والوبر والصوف. وأما المنافع، فظهورها التي تحمل عليها، وألبانها. ويقال: الدفء الصغار من الإبل. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: في نسل كل دابة ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من لحمها.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: ولكم يا بني آدم في الأنعام، ﴿جمال﴾ حسن المنظر، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: حتى تروح الإبل راجعة إلى أهلها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: تسرح إلى الرعي أول النهار ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أمتعتكم وزادكم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ قال: هي مكة. ويقال: هذا الخطاب لأهل مكة، كانوا يخرجون إلى الشام، وإلى اليمن، ويحملون أثقالهم على الإبل. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ لم يعجلكم بالعقوبة.

ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي خلقها لكم لتركبوها ﴿وزينة﴾ أي: جمالاً ومنظراً حسناً. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه سئل عن لحوم الخيل فكرهها وتلا هذه الآية ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ يعني: إنما خلق هذه

Marfat.com

الأصناف الثلاثة للركوب والزينة لا للأكل وسائر الأنعام خلقت للركوب وللأكل، كما قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبه كان يقول أبو حنيفة: «إن لحم الخيل مكروه». ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: خلق أشياء تعلمون، وخلق أشياء مما لا تعلمون. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ أَرْضاً بَيْضَاءَ مِثْلَ الدُّنْيَا ثَلاثِينَ مَرَّةً، مَحْشُوَّةً خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى، لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ» قالوا: يا رسول الله أمن ولد آدم هم؟ قال: «مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ». قالوا: فأين إبليس منهم؟ قال: «مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ إِبْلِيسَ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ «﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾»(١).

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيان الهدى، ويقال: هداية الطريق ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من الطرق ما هو مائل من طريق الهدى إلى طريق اليهودية والنصرانية. وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يعني: بيان الهدى، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: سبيل الضلالة. وقال قتادة: في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ومنها جائر﴾ أي: مائلاً عن طريق الهدى ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو علم الله تعالى أن الخلق كلهم أهلاً للتوحيد لهداهم. ويقال: لو شاء الله لأنزل آية يضطر الخلق إلى الإيمان.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: المطر ﴿لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ﴾ وهو ما يستقر في الأرض من الغدران، وتشربون منه، وتسقون أنعامكم ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: ومن الماء ما يتشرَّبُ في الأرض، فينبت منه الشجر والنبات ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون أنعامكم. ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ أي: يخرج لكم بالمطر الزرع، ﴿والزيتون وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾ أي: الكروم ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من ألوان الثمرات. قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿نُنبِتُ لكم﴾ بالنون. وقرأ الباقون بالياء، ومعناهما واحد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: فيما ذكر من نزول المطر وخروج النبات لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آياته.

ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي ذلّل لكم الليل والنهار لمعايشكم

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ١١٣ إلى ابن مردويه.

Marfat.com

﴿وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ﴾ أي: خلق الشمس والقمر ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمره﴾ أي: مذللات بإذنه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن له ذهن الإنسانية.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي: وما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار والثمار ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي في اختلاف ألوانها لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون. قرأ ابن عامر ﴿والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ﴾ كلها بالرفع على معنى الابتداء. وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ﴾ بالنصب على معنى البناء، أي: سخر لكم الشمس والقمر. ثم ابتدأ فقال: ﴿والنُّجومُ﴾ بالضم على معنى الابتداء. وقرأ الباقون الثلاثة كلها بالنصب، ويكون بمعنى المفعول.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ﴾ أي: ذلّل لكم البحر. ويقال: ذلّل لكم ما في البحر ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ أي: من البحر ﴿لَحْماً طَرِيّاً﴾ أي: السمك الطري ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ﴾ يعني: من البحر ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: لؤلؤاً تتزينون بها. يعني: زينة للنساء ﴿وَتَرَى الفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ﴾ أي: مقبلة، ومدبرة فيه. ويقال: تذهب وتجيء بريح واحدة. وقال عكرمة: يعني، السفينة حين تشق الماء يقال: مخرت السفينة إذا جرت، لأنها إذا جرت تشق الماء ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لكي تطلبوا من رزقه حين تركبون السفينة للتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا الله فيما صنع لكم من النعم.

قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَى﴾ أي: وضع ﴿فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال الثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني: لكيلا تميد بكم، وقد يحذف لا ويراد إثباته، كما قال هٰهنا: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لا تميد بأهلها. وروى معمر عن قتادة أنه قال: لما خلقت الأرض كادت تميد، فقالت الملائكة ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال. وقال القتبي: الميد، الحركة والميل. ويقال ﴿أن تميد﴾ أي كراهة أن تميد بكم ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي: وجعل لكم فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلاً﴾ أي: طرقاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعرفون بها الطرق ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ أي: جعل في الأرض علامات من الجبال وغيرها تهتدون به الطرق في حال السفر. ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بالجدي، والفرقدين تعرفون بها الطرق في البر والبحر. وروى عبد الرزاق عن معمر في قوله: ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ قال: قال الكلبي: الجبال. وقال

Marfat.com

قتادة: النجوم. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: منها ما يكون علامة، ومنها ما يهتدى به. وقال عمر بن الخطاب: «تعلَّموا من النجوم ما تهتدون به في طرقكم وقبلتكم، ثم كفوا، وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم». وقال السدي: ﴿وعلامات﴾ أي: الجبال بالنهار يهتدون بها الطرق، والنجوم بالليل.

ثم قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ يعني: ﴿أفمن يخلق﴾ هذه الأشياء التي وصفت لكم ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي: لا يقدر أن يخلق شيئاً وهم الأصنام. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون في صنعه، وتوحّدوه وتعبدوه، ولا تعبدوا غيره.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ أي: لا تطيقوا إحصاءها، فكيف تقدرون على أداء شكرها ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب ورجع. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالقول. ويقال: ما تخفون من أعمالكم ﴿وما تعلنون﴾ أي: تظهرون منها، فالسر والعلانية عنده سواء.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: يعبدون من دون الله من الأوثان ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ أي: لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: ينحتون من الأحجار والخشب وغيره. ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قال الكلبي: يعني، أن الأصنام أموات ليس فيها روح ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: الأصنام ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يحيون فيحاسبون. ويقال ﴿أموات﴾ يعني: أن الكفار غير أحياء. يعني: كأنهم أموات لا يعقلون شيئاً ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ يعني: أن الكفار لا يعلمون متى يبعثون. و﴿أيان﴾ كلمة اختصار أصله: أي أوان ﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: الذين لا يصدقون بالبعث ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ للتوحيد، ويقال: قلوبهم خبيثة لا تدخل المعرفة فيها ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متعظمون عن الإيمان.

ثم قال تعالى ﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي: حقاً وذكر عن الفراء أنه قال ﴿لا جرم﴾ بمنزلة لا بد ولا محالة، ثم كثرت في الكلام، حتى صارت بمنزلة حقاً ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يكتمون وما يظهرون من الكفر والمكر في أمر محمد ﷺ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: المتعظمين عن الإيمان. ويقال: لا يحب المتكبرين الذين يتكبرون على الناس.

Marfat.com

قال الفقيه: حدّثنا محمد بن الفضل. قال: حدّثنا محمد بن جعفر. قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف. قال: حدّثنا الفضل بن دكين، عن مسعر بن كدام، عن أبي مصعب، عن أبيه، عن أبي بن كعب قال: «سيأتي المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر في صور الرجال يغشاهم، أو يأتيهم الذل من كل مكان».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ يعني: الخراصين من أهل مكة. وروى أسباط عن السدي قال: اجتمعت قريش فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان، إذا كلمه رجل ذهب بعقله، فانظروا أناساً من أشرافكم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين، فمن جاء يريده ردّوه عنه. فخرج ناس منهم في كل طريق، فكان إذا جاء رجل وافد قوم، ينظر ما يقول محمد ﷺ. فنزل بهم. فقالوا له: أنا فلان بن فلان، فيعرفه بنسبه. ثم يقول: أنا أخبرك عن محمد، فلا تتبعنّه هو رجل كذاب لم يتبعه إلا السفهاء والعبيد، ومن لا خير فيه. أما أشياخ قومه وأخيارهم، فهم مفارقوه. فيرجعون أي: الوافدون. وإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشد يقول: بئس الوافد أنا لقومي. إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل، وأنظر ماذا يقول. فيدخل مكة، فيلقى المؤمنين فيسألهم: ما يقول محمد ﷺ؟ فيقولون: ﴿خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠] فذلك قوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي: للمقتسمين من أهل مكة ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد ﷺ، ﴿قَالُوا أساطيرُ الأوّلِينَ﴾ يعني: الذين يذكر أنه منزل، هو كذب الأولين، وأحاديثهم.

قال عز وجل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: آثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ أي: وافرة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا يغفر لهم شيء، وذنوب المؤمنين تكفر عنهم من الصلاة إلى الصلاة، ومن رمضان إلى رمضان، ومن الحج إلى الحج، وتكفر بالشدائد والمصائب. وذنوب الكفار لا تغفر لهم، ويحملونها كاملة يوم القيامة. أي: وبال الذنوب التي عملوا بأنفسهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ أي: يصدّونهم عن الإيمان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير عذر وحجة وبرهان. ويقال: ﴿من أوزار الذين يضلونهم﴾ أي: أوزار إضلالهم. وهذا كما قال النبي ﷺ: «من سنّ سنّةً سيئةً، فعليه وزرُها ووزرُ مَنْ عمِلَ بها إلى يوم القيامة». ﴿ألاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس ما يحملون من الذنوب. ويقال: بئس الزاد زادهم الذنوب.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ

Marfat.com

كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد صنع الذين من قبلهم مثل المقتسمين، فأبطل الله كيدهم ﴿فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: قلع بنيانهم من أساس البيت ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي: سقف البيت، قال الكلبي: وهو نمروذ بن كنعان، بنى صرحاً طوله في السماء خمسة آلاف ذراع وكان عرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسون ذراعاً، فهدم الله بنيانه، وخرّ عليهم السقف من فوقهم، فأهلكهم الله. وقال القتبي: هذا مثل، أي أهلك مَنْ قبلَهُم من الكفار كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله فخرّ عليه. ويقال: هدم بنيان مكرهم من الأصل، فخرّ عليهم السقف، أي: رجع وبال مكرهم إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يعذبهم، وما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِين كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادونني وتخالفونني بسببهم وعبادتهم. قرأ نافع ﴿تُشَاقُّونِ﴾ بكسر النون على معنى الإضافة والباقون بالنصب لأنها نون الجماعة.

قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: الملائكة. ويقال: المؤمنون ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي: العقاب ﴿والسُّوءَ﴾ أي: الشدة من العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أي: يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه، ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: انقادوا واستسلموا حين رأوا العذاب. قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ أي: ما كنا نشرك. وقال الكلبي: هم قوم خرجوا مع المشركين يوم بدر، وقد تكلموا بالإيمان، فلما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى الشرك فقتلوا. ويقال: جميع المشركين. قال الله تعالى: ﴿بَلَى﴾ أشركتم بالله ﴿إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

Marfat.com

ثم قال: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: تقول لهم خزنة جهنم: ادخلوا أبواب جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها أبداً ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ عن الإيمان.

ثم نزل في المؤمنين الذين يدعون الناس إلى الإيمان، وذلك أن أهل مكة لما بعثوا إلى عقاب مكة رجالاً، ليصدوا الناس عن رسول الله ﷺ، بعث رسول الله ﷺ رجالاً من أصحابه إلى عقاب مكة، فكان الوافد إذا قدم قالوا له: إن هؤلاء المشركين كذبوا، بل محمد ﷺ يدعو إلى الحق، ويأمر بصلة الرحم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير، فذلك قوله تعالى ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي: يدعو إلى الخير ﴿للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي: للذين وحّدوا الله في هذه الدنيا، لهم الحسنة في الآخرة أي: الجنة ﴿ولدار الآخرة خير﴾ أي: أفضل من الدنيا ﴿ولنعم دار المتقين﴾ يعني: المطيعين. قال مقاتل في قوله: ﴿قالوا خيراً﴾ أي: قالوا للوافد: إنه يأمر بالخير، وينهى عن الشر ﴿قالوا خيراً﴾ ثم قطع الكلام.

يقول الله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ أي: أحسنوا العمل في هذه الدنيا، لهم حسنة في الآخرة أي: في الجنة ﴿ولدار الآخرة خير﴾ يعني: الجنة أفضل من ثواب المشركين الذين يحملون أوزارهم. ويقال: هذه كلها حكاية كلام المؤمنين، إلى قوله: ﴿المتقين﴾. قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿تسرون وتعلنون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة. ﴿ويدعون﴾ بالياء على معنى المغايبة. وروي عنه حفص: الثلاث كلها بالياء على معنى المغايبة. وقرأ الباقون كلها: بالتاء على معنى المخاطبة.

ثم وصف دار المتقين فقال: ﴿جنات عدن﴾ يعني: الدار التي هي للمتقين هي جنات عدن ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: يحبون ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي: هكذا يثيب الله المتقين الشرك.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ أي: ملك الموت ﴿طيبين﴾ يقول: زاكين طاهرين من الشرك والذنوب، ﴿يقولون﴾ أي: يقول لهم خزنة الجنة في الآخرة: ﴿سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا. ويقال: هذا مقدم ومؤخر، أي: جنات عدن يدخلونها.

ثم قال: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ قرأ حمزة: ﴿الذين يتوفاهم﴾ بالياء بلفظ التذكير. والباقون: بالتاء بلفظ التأنيث، لأن الفعل إذا كان قبل الاسم جاز التذكير والتأنيث.

Marfat.com

قوله: ﴿هل ينظرون﴾ يقول: ما ينظرون وهم أهل مكة ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ أي: ملك الموت ليقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي: عذاب ربك يوم بدر، ويقال: يوم القيامة ﴿كذلك فعل﴾ أي: كذلك كذب ﴿الذين من قبلهم﴾ رسلهم، كما كذبك قومك، فأهلكهم الله تعالى ﴿وما ظلمهم الله﴾ يعني: بإهلاكه إياهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بتكذيبهم رسلهم. قرأ حمزة والكسائي: ﴿إلا أن يأتيهم﴾ بالياء بلفظ التذكير، والباقون بلفظ التأنيث، لأن الفعل مقدم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ثمّ قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاء ما عملوا ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب أنه غير نازل بهم.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: أهل مكة ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، يعني: إن الله قد شاء لنا ذلك الذي ﴿نحن﴾ فيه ﴿ولا آباؤنا﴾ ولكن شاء لنا ولآبائنا ﴿وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولكن شاء لنا ولآبائنا من تحريم البحيرة والسائبة وأمرنا به، ولو لم يشأ، ما ﴿حرمنا من دونه من شيء﴾.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يقول: هكذا كذب الذين من قبلهم من الأمم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي: تبليغ الرسالة ﴿الْمُبِينُ﴾ أي: يبينوا لهم ما أمروا به.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: في كل جماعة ﴿رَسُولاً﴾ كما بعثناك إلى أهل مكة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ أي: وحدوا الله، وأطيعوه ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اتركوا عبادة الطاغوت، وهو: الشيطان، والكاهن، والصنم، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ﴾ لدينه، وهم الذين أجابوا الرسل للإيمان ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ فلم يجب الرسل إلى الإيمان ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يقول: سافروا في الأرض ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: اعتبروا كيف كان آخر أمر المكذبين.

فلما نزلت هذه الآية، قرأها ﷺ عليهم فلم يؤمنوا، فنزل: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ يعني: على إيمانهم ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ يقول: من يضلل الله وعلم أنه أهل لذلك،

Marfat.com

وقدر عليه ذلك. قال مقاتل: فإن الله لا يهدي من يضل، يقول: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] قرأ أهل الكوفة: حمزة، وعاصم، والكسائي: ﴿لاَ يَهْدِي﴾ بنصب الياء وكسر الدال، أي: لا يهدي من يضلله الله. وقرأ الباقون: ﴿لاَ يُهْدَى﴾ بضم الياء، ونصب الدال، على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقال إبراهيم بن الحكم: سألت أبي عن قوله تعالى: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ فقال: قال عكرمة: قال ابن عباس: «من يضلله الله لا يُهدى» ﴿وَمَا لَهُم مِن نَّاصِرِينَ﴾ أي: من مانعين من نزول العذاب.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ وكل من حلف بالله فهو جهد اليمين، وكانوا ينكرون البعث فحلفوا بالله حين قالوا: ﴿لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ فكذبهم الله عز وجل في مقالتهم، فقال: ﴿بلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً﴾ أوجبه على نفسه ليبعثنهم بعد الموت. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث بعد الموت.

ثم قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من الدين يوم القيامة، يعني: يبعثهم ليبين لهم أن ما وعدهم حق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: ليستبين لهم عندما خرجوا من قبورهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في الدنيا.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ يعني: إن بعثهم على الله يسير ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة: ﴿فَيَكُونُ﴾ بضم النون، وقرأ الباقون: بالنصب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ﴾ أي: هاجروا من مكة إلى المدينة في طاعة الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي: عذبوا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لننزلنهم بالمدينة ولنعطينهم الغنيمة، فهذا الثواب في الدنيا ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ﴾ أي: الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أفضل ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يصدقون بالثواب.

ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على العذاب ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يثقون به ولا يثقون بغيره، منهم: بلال بن حمامة، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وخباب بن الأرت. قال مقاتل: نزلت الآية في هؤلاء الأربعة، عذبوا على الإيمان بمكة. وقال في رواية

Marfat.com

الكلبي: نزلت في ستة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، أسرهم أهل مكة، وذكر هؤلاء الأربعة، واثنين آخرين: عابس وجبير مولى لقريش، فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام. فأما صهيب فابتاع نفسه بماله ورجع إلى المدينة، وأما سائر أصحابه فقالوا بعض ما أرادوا، ثم هاجروا إلى المدينة بعد ذلك.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

ثم قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم﴾ كما أوحي إليك. وذلك أن مشركي قريش لما بلغهم النبي ﷺ الرسالة، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى، أنكروا ذلك وقالوا: لن يبعث الله رجلاً إلينا، ولو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً، لبعث إلينا من الملائكة الذين عنده، فنزل ﴿وَمَا أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية ﴿إلاَّ رِجَالاً﴾ مثلك ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كما نوحي إليك. قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿نُوحِي﴾ بالنون وقرأ الباقون: بالياء.

قوله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: أهل التوراة والإنجيل ﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير. أي: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم بالبينات، والزبر. وروى أسباط عن السدي قال: ﴿البينات﴾: الحلال والحرام. ﴿والزبر﴾: كتب الأنبياء. وقال الكلبي: ﴿البينات﴾ أي: بالآيات الحلال والحرام والأمر والنهي ما كانوا يأتون به قومهم منها، وهو كتاب النبوة. ويقال: ﴿البينات﴾ التي كانت تأتي بها الأنبياء مثل عصا موسى وناقة صالح. وقال مقاتل: ﴿والزبر﴾ يعني: حديث الكتب.

ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتقرأ للناس ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ما أمروا به في الكتاب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتفكروا فيه، ليؤمنوا به.

ثم خوفهم فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ يعني: أن تغور الأرض بهم، حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون بهلاكهم. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في سفرهم، في ذهابهم، ومجيئهم في تجارتهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: على تنقص. ويقال: يأخذ قرية بالعذاب، ويترك أخرى قريبةً منها فيخوفها بمثل ذلك. وهذا قول مقاتل. وروي عن بعض التابعين: أن عمر سأل جلساءه عن قوله: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ فقالوا: ما نرى إلا عند بعض ما يرون من الآيات يخوفهم، فقال عمر:

Marfat.com

«ما أراه إلا عند بعض ما يتنقصون من معاصي الله»، فخرج رجل فلقي أعرابياً، فقال: يا فلان ما فعل دينك؟ تخوّفته: أي: تنقصته. فرجع إلى عمر فأخبره بذلك. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لا يعجل عليهم بالعقوبة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون: بالياء على معنى المغايبة يعني: أولم يعتبروا ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ عند طلوع الشمس وعند غروبها ﴿يَتَفَيؤَا ظِلالُهُ﴾ يعني: يدور ظلاله ﴿عَنِ الْيَمِينِ والشَّمَائِلِ﴾ قال القتبي: أصل الفيء الرجوع، وتفيؤ الظلال: رجوعها من جانب إلى جانب ﴿سجداً لله وهم داخرون﴾ أي: صاغرون ويقال: وهم مطيعون. وأصل السجود التطأطؤ والميل. يقال: سجد البعير إذا تطأطأ، وسجدت النخلة إذا مالت، ثم قد يستعار السجود ويوضع موضع الاستسلام والطاعة، ودوران الظل من جانب إلى جانب هو سجوده لأنه مستسلم، منقاد، مطيع. فذلك قوله: ﴿سُجَّداً لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ﴾ أي: يستسلم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: يسجد لله جميع ما في الأرض من دابة ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ يعني: وما على الأرض من الملائكة. ويقال: فيه تقديم وتأخير، ومعناه: ما في السموات من الملائكة، وما في الأرض من دابة. ويقال: معناه يسجد له جميع ما في السموات وما في الأرض يعني: الدواب، والملائكة يعني: الذين هم في السموات والأرض. ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يتعظمون عن السجود لله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي: يخافون الله تعالى. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ لله تَعَالَى مَلائِكَةً فِي السَّماءِ السَّابِعَةِ سُجوداً مُذْ خَلَقَهُمُ الله تعالى إلَى يَوْم القِيامَةِ، تُرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ الله تَعَالَى، فَإذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فقالُوا: ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبادَتِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾» أي: يخافون خوفاً، معظمين، مجلّين. ويقال: خوفم بالقهر والغلبة والسلطان. ويقال: معناه يخافون ربهم الذي على العرش كما وصف نفسه، والطريق الأول أصح كقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أي: بالقهر والغلبة والسلطان ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي: لا يعصون الله تعالى طرفة عين. قرأ أبو عمرو: ﴿يتفيؤا﴾ بالتاء بلفظ التأنيث، وقرأ الباقون: بالياء لأن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث.

Marfat.com

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَخِذُوا إِلَهَينِ اثْنَينِ﴾ أي: لا تقولوا ولا تصفوا إلٰهين اثنين، أي: نفسه والأصنام. ويقال: نزلت الآية في صنف من المجوس وصفوا إلٰهين اثنين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: فاخشوني ووحدوني وأطيعوني، ولا تعبدوا غيري ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ من الخلق: الجن والإنس، كلهم عبيده وإماؤه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي: دائماً خالصاً. ويقال: الألوهية والربوبية له خالصاً. ويقال: دينه واجباً أبداً لا يجوز لأحد أن يميل عنه. ويقال: معناه، وله الدين والطاعة، رضي العبد بما يؤمر به أو لم يرض، والوصب في اللغة: الشدة والتعب. ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: تعبدون غيره.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ يعني: إن الذي بكم من الغنى، وصحة الجسم، من قبل الله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي: الفقر والبلاء في جسدكم. ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ يعني: إليه تتضرعون ليكشف الضر عنكم، كما قال في سورة الدخان ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنكُمْ﴾ أي: الكفار ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: الكفار يعبدون غيره. ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: يجحدوا بما أعطيناهم من النعمة ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بقية آجالكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعرفون في الآخرة ماذا نفعل بكم.

ثم قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً﴾ أي: يجعلون لآلهتهم نصيباً من الحرث والأنعام، كقوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقوله: ﴿لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾ [النحل: ٥٦] قال بعضهم: يعني: الكفار جعلوا لأصنامهم نصيباً ولا يعلمون منهم ضراً ولا نفعاً. وبعضهم قالوا: معناه يجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئاً نصيباً، أي: حظاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الحرث والأنعام. قال تعالى: ﴿تَاللهِ أي: واللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: تكذبون على الله، لأنهم كانوا يقولون إنَّ الله أمرنا بهذا.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

Marfat.com

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ﴾ يعني: يصفون لله ويقولون: الملائكة بنات الله فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن الولد ﴿وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: الأولاد الذكور، أي: يصفون لغيرهم البنات، ولأنفسهم الذكور.

ثم وصف كراهتهم البنات لأنفسهم فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى﴾ يقول: إذا بشر أحد الكفار بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا﴾ أي: صار وجهه متغيراً من الحزن والخجل، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكروباً مغموماً من الحزن، يتردد حزنه في جوفه.

ثم قال: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بشرّ به﴾ يعني: يكتم ما به من القوم ويستتر ويختفي من سوء ما بشرّ به أي: ما ظهر على وجهه من الكراهية، ويدبر في نفسه كيف أصنع بها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي: الأنثى التي ولدت له على هوان، يعني: أيحفظه على هوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ أي: يدفنه ﴿في التُّرَابِ ألاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئسما يقضون به، لأنفسهم الذكور وله الإناث.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: المشركين ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: جزاء السوء النار في الآخرة. ويقال: عاقبة السوء. ويقال: لآلهتهم صفة السوء صم بكم عمي ويقال للكفار: هم صمّ بكم عمي. ﴿ولله الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي: الصفة العليا، وهي شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤] فهذا وصفه الأعلى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحكِيمُ﴾ في أمره، أَمَرَ الخلق أن لا يعبدوا غيره.

قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بشركهم ومعصيتهم، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي: لم يترك على ظهر الأرض من دابة، ودل الإضمار على الأرض، لأن الدواب إنما هي على الأرض. يقول: أنا قادر على ذلك. ﴿وَلكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم، ويقال: ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ لأنه لو أخذهم بذنوبهم لمنع المطر، وإذا منع المطر لم يبق في الأرض دابة إلا أهلكت، ولكن يؤخر العذاب إلى أجلٍ مسمًى. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم، لأصاب العذاب جميع الخلائق، حتى الْجُعْلاَن في جحرها، ولأمسكت السماء عن الأمطار، ولكن يؤخرهم بالفضل والعفو».

Marfat.com

ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجل العذاب ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي: لا يتأخرون عن الوقت ﴿سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدمون قبل الوقت.

قوله: ﴿ويَجعَلُونَ﴾ أي: يقولون ويصفون لله ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ﴿وَتَصِفُ أَلسِنَتُهُمُ الكَذِبَ﴾ أي: يقولون الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي: الذكور من الولد، ويقال: الجنة أي: يصفون لأنفهسم مع أعمالهم القبيحة أن لهم في الآخرة الجنة.

ثم قال عز وجل: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي: حقاً، ويقال: لا بد، ولا محالة ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ وهو كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] إلى قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] ﴿وَأَنَّهُمْ مُفرِطُونَ﴾ قرأ نافع: بكسر الراء، يعني: أفرطوا في القول، وأفرطوا في المعصية. وقرأ الباقون: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء، أي: متروكون في النار. ويقال: منسيون في النار، وهو قول سعيد بن جبير. وقال قتادة: أي معلجون في النار. ويقال: الفارط في اللغة الذي يتقدم إلى الماء، وهذا قول يوافق قول قتادة.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَاللهِ﴾ يقول: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: بعثنا إلى أمم من قبلك الرسل، كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ضلالهم حتى أطاعوا الشيطان، وكذبوا الرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ أي: قرينهم في النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهذا تهديد لكفار مكة أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، وهو تعزية للنبي ﷺ ليصبر على أذاهم.

ثم قال: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين، لأنهم كانوا في طرق مختلفة: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية وغير ذلك. فأمر النبي ﷺ بأن يبيّن لهم طريق الهدى. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزلنا القرآن بياناً من الضلالة، ونعمة من العذاب لمن آمن به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: علامة لوحدانيته، وعلموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يطيعون ويصدقون ويعتبرون ويبصرون.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بنصب النون، وقرأ الباقون: بضم النون، ومعناهما واحد. يقال: سقيته وأسقيته بمعنى واحد ﴿مما في بطونه﴾ ولم يقل مما في بطونها، والأنعام جماعة مؤنثة، وفي هذا قولان: إن شئت رددت إلى واحد من الأنعام، وواحدها نعم، والنعم تذكر، وتؤنث، كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤] أي: من الحجر. وإن شئت قلت على تأويل آخر ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ أي: بطون ما ذكرنا، وهذا مثل قوله: ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ إلى آخره[الأنعام: ١٤١] وقال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى آخره [المائدة: ٩٠] ولم يقل فاجتنبوها، أي: فاجتنبوا ما ذكرنا.

ثم قال تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ يعني: يخرج اللبن من بين الفرث والدم. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «إن الدابة تأكل العلف، فإذا استقر في كرشها، طحنه الكبد فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً، والكبد مسلط على هذه الأصناف الثلاثة. فيقسم الدم فيجري في العروق، ويجري اللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو في الكرش». وقال بعضهم: إذا استقر العلف في الكرش، صار دماً بحرارة الكبد، ثم ينصرف الدم في العروق، فمقدار ما ينتهي إلى الضرع صار لبناً لبرودة الضرع، بدليل أنَّ الضرع إذا كانت فيه آفة، يخرج منه الدم مكان اللبن. ﴿لَبَناً خَالِصاً﴾ صار اللبن نصباً على معنى التفسير ﴿سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: سهلاً في الشرب لا يغص به شاربه. ويقال: ليشتهي شاربه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾ أي: من الثمرات سكراً. ويقال: ﴿منه﴾ كناية عن الأول وهو قوله ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون﴾ من ذلك ﴿سَكَراً﴾ والسكر: هو نقيع التمر إذا غلى واشتد قبل أن يطبخ. ويقال: يعني: خمراً. قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية وهي يومئذٍ لهم حلال»، وهكذا قال الحسن والقتبي: إن هذه الآية نزلت في الخمر ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ يعني: الخل والزبيب والرُّبُّ. وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿تتخذون منه سكراً﴾ «يعني: ما حرم منه» ﴿ورزقاً حسناً﴾ «ما أحل منه». وقال الشعبي: السكر هو: النبيذ والخل. والرزق الحسن: التمر، والزبيب. وقال الضحاك: السكر الحرام، والرزق الحسن: الحلال. وهؤلاء كلهم قالوا: كان هذا قبل تحريم الخمر. وقال الأخفش: ﴿سكراً﴾ طعاماً. يقال: هذا سكر لك أي: طعام لك. وقال القتبي: لست أدري هذا.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ توحيد الله تعالى.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي: ألهمها إلهاماً مثل قوله ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ أي: مسكناً ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ يعني: أن اتخذي من الجبال ومن الشجر مسكناً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يَعْرُشُونَ﴾ بضم الراء، والباقون بالكسر، ومعناهما واحد. أي: ومما يبنون من سقوف البيت مسكناً ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من ألوان الثمرات، أي: ألهمها بأكل الثمرات، ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي: ادخلي الطريق الذي يسهل عليك. ويقال: خذي طرق ربك مذللاً، أي مسخراً لك. وقال مقاتل: ﴿فاسلكي سبل ربك﴾ يعني: ادخلي طرق ربك في الجبال، وفي خلال الشجر ﴿ذللاً﴾ لأنَّ الله تعالى ذلل لها طرقها حيثما توجهت. ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ أي: من بطون النحل، من قبل أفواهها مثل اللعاب ﴿شَرَابٌ﴾ أي: العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي العسل: أبيض، وأصفر، وأحمر. ويقال: يخرج من أفواه الشبان من النحل الأبيض، ومن الكهول الأصفر، ومن الشيوخ الأحمر ﴿فِيهِ﴾ أي: في العسل ﴿شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. روى أبو المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري. قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال له: «اسْقِهِ عَسَلاً». فسقاه ثم جاء فقال: سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً. فقال له: «اسْقِهِ عَسَلاً»، فسقاه ثم جاءه فقال: سقيته فلم يزده إلاَّ استطلاقاً. فقال له: «اسْقِهِ عَسَلاً. صَدَقَ الله وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ». فسقاه فبرىء.

قال الفقيه أبو الليث: إنما يكون العسل شفاء إذا عرف الإنسان مقداره، ويعرف لأي داء هو. فإذا لم يعرف مقداره، ولم يعرف موضعه، فربما يكون فيه ضرر، كما أن الله تعالى جعل الماء حياة كل شيء، وربما يكون الماء سبباً للهلاك. وقال السدي: العسل شفاء الأوجاع التي يكون شفاؤها فيه. وقال مجاهد: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي: في القرآن بيان للناس من الضلالة. وروى أبو الأحوص، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور». وروى الأسود عن ابن مسعود أنه قال: «عليكم بالشفاءين القرآن، والعسل». ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: فيما ذكر من أمر النحل لعلامة لوحدانيتي ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: أن معبودهم لم يغنهم من شيء.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يقبض أرواحكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: إلى أسفل العمر، وهو الهرم ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: صار بحال لا يعلم ما علم من قبل. ويقال: لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً. ويقال: إن الهرم اسوأ

Marfat.com

العمر وشره. وقوله: ﴿لكي لا يعلم﴾ أي: حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً، لشدة هرمه، بعد ما كان يعلم الأمور قبل الهرم ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿قَدِيرٌ﴾ على تحويلكم. ويقال: معناه ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ يعني: أنه يحولكم من حال إلى حال تكرهونه، ولا يقدر معبودكم أن يمنعني من تغيير ذلك، والله عليم قدير على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: فضّل الموالي على العبيد في المال ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: الموالي لا يرضون بدفع المال إلى المماليك ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا ترضون أن يكون عبيدكم معكم شركاء في أموالكم، فكيف ترضون لله تعالى أن تصفوا له شريكاً في ملكه وصفاته، وتصفوا له ولداً من عباده؟ وقال قتادة: هو الذي فضل في المال والولد لا يشرك عبيده في ماله، فقد رضيتم بذلك لله تعالى ولم ترضوا به لأنفسكم. وقال مجاهد: ضرب الله مثلاً للآلهة الباطلة مع الله تعالى. ويقال: نزلت الآية في وفد نجران حين قالوا في عيسى ما قالوا.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقول: بوحدانية الله تعالى تكفرون وترضون له ما لا ترضون لأنفسكم.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثاً ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ أي: خلق لكم من نسائكم بَنِينَ ﴿وَحَفَدَةً﴾ أي: ولد الولد. ويقال: هم الأعوان والخدم والأصهار. وروي عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود أنه قال: «الحفدة: الأختان». وقال مجاهد: «الخدم وأنصاره وأعوانه». وعن ابن مسعود أنه قال: «هم أصهاره». وقال الربيع بن أنس: البنون ابن الرجل من امرأته. والحفدة ابن المرأة من غيره. وقال زر بن حبيش: الحفدة: حشم الرجل. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «الولد الصالح». وقال أهل اللغة: أصله في اللغة السرعة في المشي، ويقال في دعاء التوتر: ونحفد أي: ونجتهد في الخدمة والطاعة.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال الكلبي: يعني، الحلال إن أخذتم به. وقال مقاتل: ﴿الطيبات﴾ الخبز والعسل وغيرهما من الأشياء الطيبة، بخلاف رزق البهائم والطيور.

ثم قال: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال الكلبي: يعني: الآلهة، وقال مقاتل: ﴿أفبالباطل﴾ يقول: بالشيطان يصدقون بأن مع الله إلهاً آخر. ويقال ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ يعني: أفيعبدون الأصنام التي لا تقدر على قوتهم، ولا على منفعتهم ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يجحدون

Marfat.com

بوحدانية الله تعالى ويقال: ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ فلا يؤمنون برب هذه النعمة.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾أي: الأصنام ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ﴾ أي: لا يقدر لهم ﴿رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ﴾ أي: من إنزال المطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ والنبات ﴿شَيْئاً﴾ يعني: لا يملكون شيئاً من ذلك. وقال القتبي: إنما نصب ﴿شيئاً﴾ بإيقاع الرزق عليه. ومعناه: يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً. كما تقول: ويخدم من لا يستطيع إعطاءه درهماً. ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ﴾ أي: لا تصفوا لله شريكاً فإنه لا إله إلا غيره ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا شريك له، ويقال: إن الله يعلم ضرب الأمثال ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ضرب الأمثال.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ أي: وصف الله شبهاً ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ وهو الكافر ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ يقول: لا يقدر على مال ينفقه في طاعة الله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ أي: مالاً حلالاً ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ أي: يتصدق منه ﴿سِرّاً وَجَهْراً﴾ يقول: يتصدق خفية وعلانية وهو المؤمن ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ في الطاعة مثلاً ﴿الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ضرب المثل. وروي عن ابن عباس أنه قال: «نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان والآخر أبو العيص بن أمية وهو كافر، لا يقدر أن ينفق خيراً لمعاده، وعثمان أنفق لآخرته فهل يستويان»؟ أي: هل يستوي الكافر والمؤمن؟ ويقال ضرب المثل للآلهة، ومعناه: أن الاثنين المتساويين في الخلق، إذا كان أحدهما قادراً على الإنفاق، والآخر عاجزاً لا يستويان، فكيف يسوون بين الحجارة التي لا تتحرك ولا تعقل، وبين الذي هو على كل شيء قدير؟ فبيّن الله تعالى علامة ضلالتهم، ثم حمد نفسه، ودل خلقه على حمده، فقال: ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

ثم ضرب مثلاً آخر فقال: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي أخرس وهو الصنم ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من مال ولا منفعة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ أي: ثقل على وليه وقرابته، يعني: الصنم عيال ووبال على عابده. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: حيث يبعثه لا يجيء بخير ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ يعني: بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يدل الخلق إلى التوحيد. ويقال: هذا المثل للكافر مع النبي ﷺ يعني: الكافر الذي لا يتكلم بخير، هل يستوي هو ﴿ومن يأمر بالعدل﴾ أي: التوحيد ويدعو الناس إليه ﴿وهو على صراط مستقيم﴾ يدعو الناس إليه وهو على دين الإسلام. وقال السدي: المثلان ضربهما الله لنفسه وللآلهة.

Marfat.com

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلله غَيبُ السَّمٰواتِ وَالأَرضِ﴾ أي: ما غاب عن العباد ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ أي: قيام الساعة ﴿إِلاَّ كَلَمحِ البَصَرِ﴾ أي: كرجع البصر ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: بل هو أقرب، أي أسرع. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن البعث والإحياء في قدرة الله تعالى، ومشيئته كلمح البصر. ولم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، ولكنه وصف سرعة القدرة على الإتيان بها. ويقال: ﴿أو هو أقرب﴾ الألف زائدة، ومعناه: وهو أقرب. ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: من البعث وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَالله أَخرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إِمهاتكم﴾ بكسر الألف، وقرأ الباقون: بالضم، ومعناهما واحد. وقال الزجاج: الأصل في الأمهات أمّات، ولكن الهاء زيدت مؤكدة، كما زادوها في قولهم: أهرقت الماء، وأصله أرقت الماء. ﴿لا تَعلَمُونَ شَيْئاً﴾ أي: لا تعقلون شيئاً. ويقال: لا تعلمون الأشياء كلها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ والأبصارَ وَالأفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا النعمة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

ثم بيّن لهم العبرة ليعتبروا بها، ويعرفوا بها وحدانيته فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ يقول: مُذلّلات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عند قبض الأجنحة وعند بسطها ﴿إِلاَّ الله إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: لعلامات لوحدانية الله تعالى، لمن علم أن معبوده لم يعنه في ذلك. ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي: لمن آمن به. قرأ ابن عامر وحمزة ﴿ألم تروا﴾ بالتاء على المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء.

ثم قال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ أي: خلق لكم البيوت قراراً ومأوى لكم، ويقال: معناه سخر لكم الأرض، لتبنوا فيها البيوت. ويقال: معناه وفقكم لبناء البيوت لسكناكم وقراركم، فذكر النعم والمنن والدلائل لوحدانيته.

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ﴾ أي: من الشعر والصوف والوبر ﴿بيوتاً﴾ أي: الفساطيط والخيام ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تستخفون حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: يوم انتقالكم وسفركم، ويوم نزولكم ﴿ومن أصوافها﴾ أي: من أصواف الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي:

Marfat.com

الإبل ﴿وأشعارها﴾ أي: أشعار المعز ﴿أثاثاً﴾ متاع البيت أي من الأكسية والفرش. وقال قتادة والكلبي: ﴿أثاثاً﴾ أي: المال. ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي: المنفعة تعيشون فيه إلى الموت. ويقال: تنتفعون بها إلى حين تبلى. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو ﴿يوم ظعنكم﴾ بنصب العين، والباقون: بالجزم، ومعناهما واحد.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي: أشجاراً تستظلون بها. ويقال: بيوتاً تسكنون فيها ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي: الغيران والأسراب، واحدها كنّ ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ أي: القمص ﴿تقيكم الحر﴾ والبرد، اكتفى بذكر أحدهما إذا كان يدل على الآخر. وقال قتادة في قوله: ﴿مما خلق ظلالاً﴾ أي: من الشجر وغيره ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ قال: غيراناً في الجبال يسكن فيها ﴿تقيكم من الحر﴾ أي: من القطن والكتان والصوف. قال: وكانت تسمى هذه السورة سورة النعم. ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ وهي الدروع من الحديد تدفع عنكم قتال عدوكم. ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي: ما ذكر من النعم في هذه السورة ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تعرفون رب هذه النعم فتوحدوه، وتخلصوا له بالعبادة. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿لعلكم تَسلَمون﴾ بنصب التاء واللام، ومعناه: «تسلمون من الجراحات إذا لبستم الدروع، وتسلمون من الحر والبرد إذا لبستم القمص».

ثم قال بعد ما بيّن العلامات: ﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ تبلغهم رسالتي، وتبيّن لهم الهدى من الضلالة.

قوله تعالى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ أي: يعرفون أن خالق هذه الأشياء هو الله تعالى، ﴿ثم ينكرونها﴾ ويقولون: هي بشفاعة آلهتنا، وهذا قول الكلبي. وقال السدي: يعرفون محمداً ﷺ أنه نبي، وأنه صادق، ولا يؤمنون به. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿يعرفون نعمة الله﴾ قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها وسرابيل الحديد والثياب، يعرف هذا الكافرون ﴿ثم ينكرونها﴾ أي البعث، ﴿وَأَكْثَرُهُم الْكَافِرُونَ﴾ بالتوحيد. ويقال: جاحدون بالنعم.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ

Marfat.com

شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ أي: واذكر يوم نبعث **﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾** أي: نبياً شاهداً على أمته بالرسالة أنه بلغها **﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أي: في الكلام **﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** أي: لا يرجعون من الآخرة إلى الدنيا. وقال أهل اللغة: عَتَب يَعْتِب إذا وجد عليه، وأعتَبَ يُعْتِبُ إذا رجع عن ذنبه، واستعتَبَ يستعتبُ إذا طلب منهم الرجوع، أي: لا يطلب منهم الرجوع إلى الدنيا.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: الكفار **﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾** أي: العذاب حين رأوها **﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾** أي: لا يمهلون ولا يؤجلون ولا يتركون ساعة ليستريحوا.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: آلهتهم **﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا﴾** يقولون: نعبد من دونك، وهم أمرونا بذلك. ويقال: يعني السفلة إذا رأوا شركاءهم. يعني: أمراءهم ورؤساءهم قالوا: ربنا هؤلاء الذين كنا ندعو من دونك، أي: هم أمرونا بالمعصية فأطعناهم **﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾** يعني: القادة والآلهة، وأجابوهم **﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** ما أمرناكم بذلك.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وخضعوا وانقادوا. العابد والمعبود، والتابع والمتبوع، خضعوا كلهم يومئذٍ لله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلفون، ويقال: بطل عنهم ما كانوا يقولون من الكذب في الدنيا.

ثم بيّن عذابهم فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ فوق عذاب السفلة. ويقال: التابع والمتبوع زدناهم في كل وقت عذاباً مع العذاب. وقال مقاتل: يجري الله عليهم خمسة أنهار من نحاس ذائب، ثلاثة أنهار في وقت الليل، واثنان في وقت النهار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ في الدنيا. وقال الكلبي نحو هذا.

قال الفقيه أبو الليث: حدثنا محمد بن الفضل. قال: حدثنا محمد بن جعفر. قال: حدثنا

Marfat.com

إبراهيم بن يوسف، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: «أفاعي في النار». وعن ابن مسعود قال: «زيدوا عقارب في النار، أنيابها كالنخل الطوال». وعن مجاهد قال: «في النار عقارب كالبغال، أنيابهن كالرماح، تضرب إحداهن على رأسه فيسقط لحمه على قدميه». ويقال: يسألون الله تعالى المطر في ألف سنة ليسكن ما بهم من شدة الحر والغم، فتظهر لهم سحابة فيظنون أنها تمطر عليهم الغيث، فإذا هي تمطر عليهم الحيات والعقارب. ويقال: يسلط عليهم الجوع. ويقال: الجرب.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: رسولاً من الآدميين ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمر والنهي. إلا أن بعضه مفسر، وبعضه مجمل يحتاج إلى الاستخراج والاستنباط. وقال مجاهد: ما يسأل الناس عن شيء إلا في كتاب الله تبيانه، ثم قرأ: ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال علي بن أبي طالب: «كل شيء علمه في الكتاب إلا أن آراء الرجال تعجز عنه».

ثم قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي ﴿هدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ أي: نعمة من العذاب لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ أي: بتوحيد الله، وشهادة أن لا إله إلا الله، ﴿والإحسان﴾ إلى الناس، والعفو عن الناس. ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: صلة الرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: عن الزنى ويقال: جميع المعاصي ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما لا يعرف في شريعة ولا في سنة. ويقال: المنكر ما وعد الله عليه النار ﴿والْبَغْيِ﴾ يعني: الاستطالة والكبر. فقد أمر بثلاثة أشياء، ونهى عن ثلاثة أشياء، وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين، وجميع الخصال المحمودة.

وروي عن عثمان بن مظعون أنه قال: ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياءً من رسول الله ﷺ، وذلك أنه كان يدعوني فيعرض عليّ الإسلام، فاستحييت منه فأسلمت، ولم يقر الإسلام في قلبي، فمررتُ به ذات يوم وهو بفناء داره جالساً محتبياً فدعاني، فجلست إليه، فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء حتى رأيت طرفه قد انقطع، ثم رأيته خفضه عن يمينه، ثم ولاني وركه ينفض رأسه كأنه يستفهم شيئاً يقال له: ثم دعا فرفع رأسه إلى السماء ثم خفضه حتى وضعه عن يساره، ثم أقبل عليّ محمراً وجهه يفيض عرقاً، فقلت: يا رسول الله ما رأيتك صنعت هذا في طول ما كنت أجالسك فقال: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ»؟ قلت: نعم. قال:

Marfat.com

«بَينَمَا أُحدِّثُكَ إذْ رَفَعتُ بَصَرِي إلى السَّماءِ، فَرَأيتُ جِبرِيلَ يَنزِلُ عَلَيَّ، فَلَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةٌ غَيرُهُ حَتَّى نَزَلَ عَنْ يَمِينِي فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ ﴿إنَّ الله يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِي القُرْبَى﴾ إلى آخر الآيَة». قال عثمان: فوقر الإيمان في قلبي، فآمنت به وصدقته. فأتيت أبا طالب فأخبرته بما نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا معشر قريش، اتبعوا ابن أخي ترشدوا وتفلحوا، ولئن كان محمد صادقاً أو كاذباً، ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق. فلما رأى النبي ﷺ من عمه اللين قال: **«يا عَمَّاهُ أتَأمُرُ النَّاسَ أنْ يَتبعُونِي وَتَدَعُ نَفْسَكَ»**؟ وجهد عليه، فأبى أن يسلم[1] فنزل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] إلى آخر الآية.

قال الفقيه أبو الليث: حدثنا أبو منصور عبد الله الفرائضي بسمرقند بإسناده عن عكرمة، أن النبي ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة ﴿إنَّ الله يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحْسَانِ وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾ إلى آخر الآية. فقال له: يا ابن أخي أعد عليّ، فأعاد عليه، فقال: «والله يا ابن أخي إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هذا بقول البشر». وقال قتادة في قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية. قال: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يستحسنونه بينهم إلا أمر الله به، وليس من خلق سيىء يتعايرونه بينهم إلاّ نهى الله عنه.

ثم قال تعالى: ﴿يعظكم﴾ أي: يأمركم وينهاكم عن هذه الأشياء التي ذكرها الله في الآية **﴿لعلكم تذكرون﴾** أي: تتعظون.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إذَا عَاهَدْتُمْ﴾ يقول: إذا حلفتم بالله فأتموا له بالفعل. ويقال: ﴿أوفوا بعهد الله﴾ أي: العهود التي بينكم وبين الله تعالى، والعهود التي بينكم وبين الناس.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَنقُضوا الأَيمَانَ بعد توكيدها﴾ أي: لا تنكثوا العهود بعد تغليظها،

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/١٥٩ إلى أحمد والبخاري في الأدب وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس.

Marfat.com

وتشديدها، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ أي: شهيداً على إتمام العهود والوفاء بها. ويقال: حفيظاً على ما قال الفريقان ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في وفاء العهد والنقض.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً آخر فقال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا﴾ في نقض العهد ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ وهي ريطة الحمقاء بنت عمرو بن كعب بن سعد وهي أم الأخنس بن شريف الزهري ﴿مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً﴾ أي: من بعد ما أبرمته وأحكمته، كانت إذا غزلت الشعر والكتان نقضته، ثم غزلته. فقال: ولا تنقضوا العهد بعد توكيده، كما نقضت المرأة غزلها، وقال القتبي: أي لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان والعهود، ثم تنقضوا ذلك، فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت، ثم نقضت ذلك النسج فجعلته أنكاثاً، والأنكاث: ما نقض من غزل الشعر وغيره، واحدها نكث.

ثم قال: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي: دغلاً وخيانة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي: فريقاً منكم ﴿هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: هي أكثر وأغنى من أمة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كندة ومراد، وذلك أنه كان بينهم قتال حتى كَلَّ الظهر، ثم تواعدوا لستة أشهر حتى يصلح الظهر أي: الدواب، ولحم الخيل. فلما مضت خمسة أشهر أمر قيس بن معد يكرب بالجهاد إليهم، فقالوا: قد بقي من الأجل شهر، فمكث حتى علم أنه يأتيهم بعد انقضاء الأجل، فقتلوه وهزموا قومه، فذلك قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٤] أي: عهودكم بالله ﴿دخلاً﴾ أي: مكراً وخديعة بينكم ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ يعني: أن تكون أمة أكثر من أمة، فينقضون العهد لأجل كثرتهم، فلا تحملنكم الكثرة على نقض العهد ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ يعني: إنما يبتليكم الله بالكثرة، لنقض العهد والوفاء. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز، نقضوا وحالفوا الأعز، فنزل ﴿إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾ أي: يختبركم بنقض العهود وبالكثرة ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين، ويبيّن لكم ما نقضتم من العهود، ويجازيكم به.

قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على ملة واحدة وهي الإسلام ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يخذل من علم أنه ليس من أهل الإسلام ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يكرم بالإسلام من هو أهل لذلك ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عمّا كنتم تعملون﴾ فهذه اللام لام القسم والتأكيد، أي: يسألكم ﴿عما كنتم تعملون﴾ من الوفاء، والنقض بالعهد.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: إنّ ناقض العهد يزل عن الطاعة، كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أي: تتجرعوا العقوبة ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: صرفتم الناس عن دين الله ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: شديد في الآخرة.

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثمناً قليلاً﴾ أي: لا تختاروا على عهد الله، والحلف به عرضاً يسيراً من الدنيا ﴿إِنَّمَا عِندَ اللهِ﴾ في الآخرة من الثواب الدائم ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ثواب الجنة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا. ويقال: إن كنتم تصدقون بثوابه. قال الكلبي: نزلت الآية في رجل من حضرموت يقال له: عبدان بن الأشوع. قال: يا رسول الله إنّ امرأ القيس الكندي جاورني في الأرض، فاقتطع أرضي فذهب بها وغلبني عليها، فقال له رسول الله ﷺ: «أَيَشْهَدُ لَكَ أَحَدٌ عَلَى ما تَقُولُ»؟ قال: يا رسول الله إنّ القوم كلهم يعلمون أنّي صادق فيما أقول، ولكنه أكرم عليهم مني عليهم، فقال رسول الله ﷺ لامرىء القيس «مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ»؟ قال: الباطل والكذب. فأمره رسول الله ﷺ بأن يحلف. فقال عبدان: إنه لفاجر وما يبالي أن يحلف. فقال له رسول الله ﷺ: «إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ شُهُودٌ فَخُذْ يَمِينَهُ» فقال عبدان: وما لِي يا رسول الله إلا يمينه؟ فقال: «لا» فأمره رسول الله ﷺ أن يحلف. فلما قام ليحلف، أخره رسول الله ﷺ وقال له: «انْصَرِفْ»، فانصرف من عنده. فنزلت هذه الآية ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمناً قليلاً﴾ إلى قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي: ما عندكم من أمر الدنيا يفنى ﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ أي: ثواب الله في الجنة دائم لأهلها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عن اليمين وأقروا بالحق. ويقال: الذين صبروا على الإيمان، وأقروا بالحق ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بالإحسان الذي كانوا يعملون في الدنيا. ويقال: يجزيهم بأحسن أعمالهم، ويبقى سائر الأعمال فضلاً. قال الكلبي: فلما نزلت هاتان الآيتان، قال امرؤ القيس: أمّا ما عندي فينفد، وأمّا صاحبي فيجزى بأحسن ما كان يعمل. اللّهم إنه صادق فيما قال، لقد اقتطعت أرضه، والله ما أدري كم هي، ولكنه يأخذ ما يشاء من أرضي ومثلها معها بما أكلت من ثمارها، فنزلت: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: لا يقبل العمل منه ما لم يكن مؤمناً، فإذا كان مؤمناً وعمل صالحاً، يقبل منه.

وقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ في الجنة. ويقال: يجعل حياته في طاعة الله. ويقال: فلنقنعنّه باليسير من الدنيا. وروي عن ابن عباس أنه قال: «الكسب الطيب، والعمل الصالح». وعن عليّ قال: «القناعة». وقال الحسن: «لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة». وقال الضحاك: «الرزق الحلال، وعبادة الله تعالى».

ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ليثيبهم

Marfat.com

بإحسانهم، ويعفو عن سيئاتهم. قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ولَنَجْزِيَنَّ﴾ بالنون. وقرأ الباقون: ﴿ولنجزينّهم﴾ بالياء.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ يعني: إذا أردت أن تقرأ القرآن في الصلاة وغير الصلاة، ﴿فاستعذ بالله﴾ أي تعوذ بالله. وهذا كقولك: إذا أكلت فقل بسم الله، يعني: إذا أردت أن تأكل، وهذا مثل قوله ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] يعني: إذا أردتم القيام للصلاة.

وقوله: ﴿مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ﴾ يعني: اللعين الخبيث. ويقال: ﴿الرجيم﴾ يعني: المرجوم. ويقال: فيه تقديم، ومعناه: فاستعذ بالله، إذا قرأت القرآن.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ يقال: ليس له غلبة ولا حجة. ويقال: ليس له نفاذ الأمر ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يثقون به ولا يثقون بغيره.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي غلبته وحجته ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يطيعونه من دون الله تعالى. فمن أطاعه فقد تولاه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بالله. وقال القتبي: ﴿والذين هم به مشركون﴾ لم يرد أنهم بإبليس كافرون، ولو كانوا هكذا لكانوا مؤمنين، وإنَّما أراد به الذين هم من أجله مشركون بالله تعالى، كما يقال: صار فلان بك عالماً أي: من أجلك.

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ أي: ناسخة ﴿مَكَانَ آيَةٍ﴾ منسوخة، أي: نسخنا آية بآية. قال ابن عباس: «إنَّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية فيها شدة، أخذ الناس بها، وعملوا ما شاء الله أن يعملوا، فيشق ذلك عليهم، فينسخ الله تعالى هذه الشدة، ويأتيهم بما هو ألين منها وأهون عليهم منها»، قالوا: أي كفار قريش: ما يعلمه إلا عابس غلام حويطب بن عبد العزى، ويسار بن فكيهة مولى ابن الحضرمي وكانا قد أسلما، وكان رسول الله ﷺ يأتيهما فيحدثهما ويعلمهما، وكانا يقرآن كتابهما بالعبرانية. فنزل ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ يعني: بما يصلح للخلق ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: مختلق من تلقاء نفسك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله أمرك بما شاء، نظراً لصلاح العباد. وقال مقاتل: في الآية تقديم، ومعناه: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ فتقول على الله تعالى الكذب. قلت: كذا ثم نقضته، فجئت بغيره، ثم قال في التقديم: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

Marfat.com

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

قال عز وجل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ﴾ أي: قل يا محمد، نزل جبريل بالقرآن، والتشديد لكثرة نزوله. ويقال: نَزَّله بمعنى تَنَزَّلَ. كما يقال: قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ، وَبَيَّنَ: بمعنى تَبَيَّنَ. ويقال: ﴿نزّله﴾ بمعنى: تلاه والوحي بلغه. ويقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ﴾ يعني: جبريل الذي يأتيك بالناسخ والمنسوخ ﴿مِن رَبِّكَ﴾ أي: من عند ربك. ويقال: من كلام ربك ﴿بِالحَقِّ﴾ أي: بالوحي. ويقال: بالصدق. ويقال: للحق. ويقال: لصلاح الخلق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام. ويقال: لِتَطمئن إليه قلوب الذين آمنوا ﴿وَهُدَى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة.

وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: أن كفار قريش يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون: جبراً ويساراً. وروى حصين عن عبد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان من أهل اليمن نصرانيان، اسم أحدهما يسار، والآخر جبر، صيقليان، وكانا يقرآن بلسانهما، فكان رسول الله ﷺ يمر عليهما ويستمع منهما. فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فأكذبهم الله تعالى حيث قال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾» أي: رومي اللسان. وقال مقاتل: كان غلام لابن الحضرمي اسمه يسار، وهو يهودي أعجمي اللسان، فكان النبي ﷺ إذا آذاه كفار قريش يدخل عليه ويحدثه، فقال المشركون: إنما يعلمه يسار. فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمه أعجمي، أي: عبراني. وأصل الإلحاد: الميل ﴿وَهَذَا﴾ يعني: القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: مفقه بلغتهم. وروي عن طلحة بن عمير أنه كان يقول: بلغني أن خديجة كانت تختلف إلى غلام ابن الحضرمي وكان نصرانياً صاحب كتب، يقال له: جبر وكانت قريش تقول: إنَّ عبد الحضرمي يعلم خديجة، وخديجة تعلم محمداً ﷺ. فنزل ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ثم أسلم جبر بعد ذلك، وحسن إسلامه، وهاجر مع سيده. قرأ ابن كثير ﴿روح القُدْسِ﴾ بجزم الدال، وقرأ الباقون: ﴿القُدُسِ﴾ بالضم وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بنصب الياء والحاء، وقرأ الباقون: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء ومعناهما واحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ

Marfat.com

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله﴾ أي: القرآن ﴿لاَ يَهْدِيهِمُ الله﴾ أي: لا يوفقهم الله ولا يكرمهم لقلة رغبتهم في الإيمان. ويقال: لا ينجيهم في الآخرة من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلاَّ الله كذّبوا بها، وهؤلاء أكذب الكذبة. ﴿مَنْ كَفَرَ بِالله مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعليهم غضب من الله على معنى التقديم.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ أي: أكره على الكفر، وتكلم بالكفر مكرهاً ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالإِيمَانِ﴾ يقول: قلبه معتقد عليه، وهو عمار بن ياسر، وأصحابه. وذلك أن ناساً من أهل مكة آمنوا، فخرجوا مهاجرين، فأدركتهم قريش بالطريق فعذبوهم، فكفروا مكرهين، فنزلت هذه الآية فيهم. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله. وروي عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن عمار بن ياسر أخذه بنو المغيرة، فطرحوه في بئر ميمونة حتى أمسى، فقالوا له: اكفرْ بمحمدٍ وأشرك بالله، فتابعهم على ذلك وقلبه كاره، فنزلت الآية. وذكر أن النبي ﷺ رأى عمار بن ياسر وهو يبكي، فجعل يمسح الدموع من عينيه، ويقول: «أخذني الكفار ولم يتركوني حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير». فقال: «**كَيفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ**»؟ قال: مطمئن بالإيمان. فقال: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**». وقال مقاتل: أسلم جبر مولى ابن الحضرمي، فأخذه مولاه وعذبه حتى رجع إلى اليهودية، ثم رجع إلى هؤلاء النفر، فنزلت الآية ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾.

ثم بيّن حال الذين ثبتوا على الكفر فقال: ﴿وَلَكِنْ مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ أي: فتح صدره بالقبول. يعني: قبل الكفر طائعاً وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتدّ ولحق بمكة ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: شديد في الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: اختاروا الدنيا ﴿عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي﴾ أي: لا يرشد إلى دينه ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ مجازاة لهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾

قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ مجازاة لهم ﴿وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي: التاركون لأمر الله تعالى.

Marfat.com

ثم قال: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿أَنهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ قال ابن عباس: «نزلت في عمار بن ياسر وأبويه وبلال، وصهيب، وخباب بن الأرت حيث عذبهم المشركون، ثم هاجروا إلى المدينة، فأخبروا رسول الله ﷺ فنزل» ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ يقول: عذبهم أهل مكة ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ مع النبي ﷺ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على البلاء، ﴿وصبروا﴾ على دينهم، ﴿وصبروا﴾ مع النبي ﷺ على طاعة الله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد الفتن، ويقال: من بعد الهجرة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾. ويقال: نزلت الآية في عياش بن أبي ربيعة، وقد ذكرناه في سورة النساء. قرأ ابن عامر ﴿مَا فَتَنُوا﴾ بفتح الفاء والتاء، أي: أصابتهم الفتنة. وقرأ الباقون ﴿فُتِنُوا﴾ على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كل نفس﴾، أي: تحضر. ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ يعني: كل إنسان يخاصم عن نفسه، ويذبُّ عنها، ويقول: نفسي نفسي، وذلك حين زفرت جهنم زفرة، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه وقال: ربِّ نفسي نفسي، أي: أريد نجاة نفسي. ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ﴾ أي: توفى كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت في دار الدنيا من خير أو شر ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصون من حسناتهم، ولا يزادون على سيئاتهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلاً﴾ يقول: وصف الله شبهاً ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مطمئنة﴾ يعني: مكة من العدو ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ من العدو أي: ساكنة مقيماً أهلها بمكة ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أي: يحمل إليها طعامها ورزق أهلها ﴿رَغَداً مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: موسعاً من كل أرض، يحمل إليها الثمار وغيرها ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُم الله﴾ أي: طغت وبطرت. ويقال: كفرت بمحمد ﷺ ﴿فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ أي: عاقبهم الله تعالى بالجوع سبع سنين. ومعنى اللباس هنا: سوء الحال، واصفرار الوجوه. ﴿وَالْخَوْفِ﴾ يعني: خوف العدو، وخوف سرايا النبي ﷺ، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ دعا عليهم فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا

Marfat.com

عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»؛ فاستجاب الله دعاءه، فوقع القحط والجدوبة حتى اضطروا إلى أكل الميتة والكلاب. قال القتبي: أصل الذوق بالفم، ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ أي: ابتلاهم الله بالجوع والخوف، وظهر عليهم من سوء آثارهم، وتغير الحال عليهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوه فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الجوع ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: كافرون. ثم إن أهل مكة بعثوا أبا سفيان بن حرب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما هذا البلاء، هبك عاديت الرجال، فما بال الصبيان والنساء؟ فأذن رسول الله ﷺ بأن يحمل إليهم الطعام، فحمل إليهم الطعام، ولم يقطع عنهم وهم مشركون.

ثمّ قال: ﴿فَكُلوا مِمَّا رَزَقَكُم الله حَلالاً طَيِّباً﴾ أي: من الحرث، والأنعام، ﴿حلالاً طيباً﴾ وهم خزاعة وثقيف ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ الله إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إن كنتم تريدون بذلك وجه الله ورضاء الله وعبادته، فإن رضاه أن تستحلوا ما أحلّ الله، وتحرّموا ما حرّم الله.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

ثم بيّن المحرمات فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ﴾ أي: ذبح بغير اسم الله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: أجهد إلى شيء مما حرّم الله عليه ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ في أكله أي: لا يأكل فوق حاجته. ويقال: غير مفارق الجماعة، ﴿فَإِنَّ الله غَفُورٌ﴾ فيما أكل ﴿رَحِيمٌ﴾ حين رخص له في أكل الميتة عند الاضطرار.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ﴾ أي: لا تقولوا يا أهل مكة فيما أحللت لكم ﴿هَذَا حَلاَلٌ﴾ على الرجال، ﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾ على النساء. ويقال: في الآية تنبيه للقضاة والمفتين كي لا يقولوا قولاً بغير حجة وبيان.

ثم قال: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الْكَذِبَ﴾ أي: بتحريم البحيرة والسائبة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يفوزون، ولا ينجون من العذاب ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: عيشهم في الدنيا قليل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ يقول: مالوا عن الإسلام، وهم اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في القرآن من قبل هذه السورة في سورة الأنعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ما حرّمنا عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم، فحرّمنا عليهم الأشياء عقوبة لهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: عملوا المعصية بجهالة. وروي عن ابن عباس أنه قال: «كل سوء يعمله العبد فهو فيه جاهل، وإن كان يعلم أن ركوبه سيئة». ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: العمل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد السيئة، ويقال: من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله﴾ أي: إماماً يقتدى به ﴿قَانِتاً﴾ أي: مطيعاً لربه. وروى عامر عن مسروق أنه قال: ذكر عند عبد الله بن مسعود معاذ بن جبل، فقال عبد الله بن مسعود: «كان معاذ بن جبل أمةً قانتاً». فقال رجل: وما الأمة؟ قال: «الذي يعلّم الناس الخير، والقانت الذي يطيع الله ورسوله». وقال القتبي: إنما سماه ﴿أمةً﴾ لأنه كان سبب الاجتماع وقد يجوز أنه سماه أمةً لأنه اجتمع عنده خصال الخير. ويقال: إنما سماه ﴿أمةً﴾ لأنه آمن وحده حين لم يكن مؤمن غيره. وهذا كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَجِيءُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ يَوْمَ القِيَامَةِ أمةً وَحْدَهُ»، وقد كان أسلم قبل خروج النبي ﷺ حين لم يكن بمكة مؤمن غيره، وتابعه ورقة بن نوفل، وعاش ورقة بن نوفل إلى وقت خروج النبي ﷺ حتى أنزل عليه الوحي.

ثم قال: ﴿حَنِيفاً مُسْلِماً﴾ أي: مستقيماً مائلاً عن الأديان كلها ﴿ولم يك من المشركين﴾ أي: مع المشركين على دينهم، وأصله: ولم يكن، فحذفت النون لكثرة استعمال هذا الحرف.

﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾ يقول: بما أنعم الله عليه ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره للنبوة، ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى دين قائم وهو الإسلام ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول: أكرمناه بالثناء الحسن. ويقال: بالنبوة. ويقال: بالولد الطيب ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مع الأنبياء في الجنة.

قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بعده هذه الكرامة التي أعطيناها إبراهيم، أمرناك ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: استقم على دين إبراهيم ﴿حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ على دينهم.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا

Marfat.com

﴿كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يقول: إنما أمروا في السبت بالقعود عن العمل ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ أي: في يوم الجمعة. وذلك أن موسى عليه السلام أمرهم أن يتفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً، فيعبدوه ولا يعملوا فيه شيئاً من أمر الدنيا، وستة أيام لصناعتهم ومعايشهم، ويتفرغوا في يوم الجمعة. فأبوا أن يقبلوا ذلك اليوم، وقالوا: إنَّما نختار السبت، اليوم الذي فرغ الله فيه من أمر الخلق. فجعل ذلك عليهم، وشدد عليهم، ثم جاءهم عيسى بالجمعة، فاختاروا يوم الأحد. وقال مجاهد: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: في السبت اتَّبعوه، وتركوا الجمعة. وروى همام عن أبي هريرة أنه قال: قال النبي ﷺ: **«نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ يوم الجمعة، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع، واليهود غداً، والنصارى بعد غد»**[1].

ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين، فبيّن لهم الحق معاينة.

ثم قال عز وجلّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى دين ربك، وإلى طاعة ربك ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة والقرآن ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: عظهم بالقرآن ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: حاججهم، وناظرهم بالحجة والبيان. ويقال: باللين. وفي الآية دليل أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة، إذا قصد بها إظهار الحق. وهذا مثل قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ لدينه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ قال ابن عباس: «وذلك حين قتل المشركون حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ يوم أحد ومثلوا به، فقال النبي ﷺ: **«لَئِنْ أَمْكَنَنَا اللهُ لَنُمَثِّلَنَّ بِالأَحْيَاءِ فَضْلاً عَنِ الأَمْوَاتِ»**. فنزل ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية، وقال محمد بن كعب القرظي: «لما رأى رسول الله ﷺ حمزة بالحال التي هو بها حين

---

(١) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٨٧٦) و(٢٩٥٦) (٦٦٢٤) (٧٠٣٦) ومسلم (٨٥٥) والنسائي ٣/ ٨٥ - ٨٧ وأحمد ٢/ ٢٤٣، ٢٤٩، ٢٧٣.

Marfat.com

مثل به، فقال النبي ﷺ: «لَئِنْ ظَفِرْتُ بِقُرَيْشٍ لأُمَثِّلَنَّ بِثَلاثِينَ مِنْهُمْ». فلما رأى أصحاب رسول الله ﷺ ما به من الوجع. قالوا: لئن ظفرنا بهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد[1]. فنزل ﴿وإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ فلم تعاقبوا ولم تمثلوا ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من المثلة أي: ثواب الصبر خير من المكافأة، ثم صارت الآية عامة في وجوب القصاص: أنه لا يجوز إلا مثلاً بمثل، والعفو أفضل.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

قال عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ﴾ يقول: ﴿واصبر﴾ أي أثبت على الصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ يعني: ألهمك ووفقك للصبر ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِم﴾ أي على كفار قريش إن لم يسلموا ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ قرأ ابن كثير ﴿في ضِيقٍ﴾ بكسر الضاد، وقرأ الباقون: بالنصب. ومعناهما واحد. أي: لا يضق صدرك مما يقولون لك، ويصنعون بك. وقال مقاتل: نزلت الآية في المستهزئين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: معين للذين اتقوا الشرك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في العمل. ويقال: معين الذين اتقوا مكافأة المسيء ﴿والذين هم محسنون﴾ إلى من أساء إليهم. والله أعلم بالصواب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ١٧٩ إلى ابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس.

Marfat.com

سورة الإسراء

مكية وهي: مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ أي: عجبٌ من أمر الله تعالى ﴿الذي أسرى بعبده﴾. ويقال: تنزيه الله تعالى. وروى موسى بن طلحة قال: كان رسول الله ﷺ سئل عن ﴿سبحان﴾. فقال: «نَزَّهَ الله نَفْسَهُ عَنِ السُّوءِ». وروي عن عليّ بن أبي طالب، أن ابن أبي الكَوَّاءَ سأله عن سبحان الله فقال عليّ: «كلمة رضيها الله لنفسه». ويقال: معناه سبحوا الله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ أي: أدلج برسوله ﷺ ﴿لَيلاً﴾ أي: في ليلة. ويقال: ﴿أَسْرَى﴾ يعني: سار بعبده ليلاً ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: مكة. وقال ابن عباس: من بيت أم هانىء ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ يعني: إلى بيت المقدس.

قال الفقيه: أخبرني الثقة بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الليلة التي أسرى به فيها، فقال: «أُوتِيتُ بِدَابَّةٍ هِيَ أَشْبَهُ الدَّوَابِّ بِالبَغْلِ وَهُوَ البُرَاقُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَرْكَبُهُ الأَنْبِيَاءِ». قال: «فَانْطَلَقَ بِي يَضَعُ يَدَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى بَصَرِهِ، فَسَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ يَمِينِي: يا مُحَمَّدُ عَلَى رِسْلِكَ. فَمَضَيْتُ وَلَمْ أَعْرُجْ عَلَيْهِ أي ما التفتُ إليه، ثُمَّ سَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ شِمَالِي فَمَضَيْتُ. ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْنِي امْرَأَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ، فَمَدَّتْ يَدَيْهَا، وَقَالَتْ: عَلَى رِسْلِكَ فَمَضَيْتُ وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا. ثُمَّ أَتَيْتُ البَيْتَ المَقْدِسَ. أَوْ قَالَ: المَسْجِدَ، فَنَزَلْتُ وَأَوْثَقْتُهُ بِالحَلْقَةِ الَّتِي كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ يُوثِقُونَ بِهَا، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ، فَقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ سَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ: ذَاكَ دَاعِي اليَهُودِيَّةِ، أما إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهِ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ. فَقُلْتُ: وَسَمِعْتُ نِدَاءً عَنْ شِمَالِي. قالَ: كانَ ذٰلِكَ دَاعِيَ النَّصَارَى، أَمَا إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهِ لَتَنَصَّرَتْ أُمَّتُكَ، وَأَمَّا المَرْأَةُ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزَيَّنَتْ لَكَ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ عَلَيْهَا لاخْتَارَتْ أُمَّتُكَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ. قالَ: ثُمَّ أُوتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا فِيهِ لَبَنٌ، وَالآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ. فَقَالَ لِي: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ وَشَرِبْتُ. فَقَالَ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ، أَيْ أُعْطِيتَ أُمَّتَكَ الإِسْلامَ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَةَ لَغَوَتْ أُمَّتُكَ. ثُمَّ جِيءَ بِالمِعْرَاجِ الَّذِي تَعْرُجُ فِيهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فَإِذَا هُوَ أَحْسَنُ ما رَأَيتَ، فَعُرِجَ بِنَا

Marfat.com

فيه»(١). وذكر قصة طويلة فنزل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ محمداً ﷺ من أول الليل من المسجد الحرام. يقول: من الحرم من بيت أم هانىء بنت أبي طالب، إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى أي: الأبعد. يعني: إلى مسجد إيلياء وهو بيت المقدس ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالماء والأشجار، وهو المدائن التي حوله مثل دمشق والأردن وفلسطين. ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: لكي نريه من آياتنا. أراه الله تعالى في تلك الليلة من عجائب السموات والأرض. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالة أهل مكة وإنكارهم ﴿الْبَصِيرُ﴾ أي: العليم بهم.

وذلك أنه لما أخبرهم عن قصة تلك الليلة، أنكروا. وروى الزهري عن عروة قال: إنه لما أسري به ﷺ إلى المسجد الأقصى، فأخبر الناس بذلك، فارتد ناس كثير ممن كان صدقه، وفتنوا بذلك، وكذبوا به، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا له: هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسري به الليلة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فإني أشهد إن كان قال ذلك أنه قد صدق. فقالوا: أتصدقه بأنه جاء إلى الشام ورجع في ليلة واحدة، قبل أن يصبح؟ فقال أبو بكر: نعم. إني أصدقه في أبعد من ذلك. أصدقه بخبر السماء غدوة وعشية. فذلك سمي أبو بكر «الصديق». قال الزهري: أخبرني أنس بن مالك: أن النبي ﷺ فرضت عليه الصلاة ليلة أسري به خمسين، ثم نقصت إلى خمس، ثم نودي يا محمد ما يبدل القول لديَّ، وإن لك بالخمس خمسين.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة جملة واحدة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بياناً لهم من الضلالة، أي: دللناهم به على الهدى ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ يعني: ألاّ تعبدوا من دوني رباً.

قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ يعني: بالذرية ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة في أصلاب الرجال وأرحام النساء. ويقال: معناه ألاّ تعبدوا ذُرية من حملنا مع نوح مثل عيسى وعزير. قرأ أبو عمرو ﴿أن لا يَتَّخِذُوا﴾ بالياء على معنى المغايبة، والخبر عنهم. أي: أعطيناك الكتاب لكيلا يتخذوا إلهاً غيري، وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة، أي: قل لهم لا تتخذوا إلهاً غيري.

(١) عزاه السيوطي: ٥/٢١٧ إلى ابن مردويه.

Marfat.com

ثم أثنى على نوح فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ أي: كان يحمد الله إذا أكل وشرب، واكتسى. ويقال: الشكور هو المبالغ في الشكر، أي: كان شاكراً في الأحوال كلها.

قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يقول: أعلمنا وبينا كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٠] أي: أعلمناه، وبيناه ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: أخبرناهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي لتعصُنَّ في الأرض، ولتهلكنَّ فيها مرتين ﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾ أي: لتقهرن قهراً شديداً.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة أنه قال: أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت، حتى بعث الله طالوت ومعه داود، فقتله داود، ثم رُدَّت الكرة لبني إسرائيل. ثم جاء وعد الآخرة من المرتين ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] أي: يقبحوا وجوهكم، وليدمروا تدميراً، وهو بُخْتَنَصَّر. وإن عدتم عدنا، فعادوا، فبعث الله عليهم محمداً ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: وَعْدُ أُولاهُمَا: جاءتهم فارس معهم بختنصر، ثم رجعت فارس أي: أهل فارس معهم ولم يكن قتال، ونصرت بنو إسرائيل عليهم. فذلك وعد الأولى. فإذا كان وَعْدُ الآخرة، جاءهم بختنصر، ودمر عليهم.

وروى أسباط عن السدي: أن وعد الأولى كان ملك النبط، فجاسوا خلال الديار. ثم إن بني إسرائيل تجهزوا وغزوا النبط، فأصابوا منهم، واستنقذوا ما في أيديهم، فردت الكرة عليهم. وكان بختنصر في ذلك الوقت يتيماً في ذلك العسكر، وخرج ليسأل شيئاً، فلما كبر وجمع الجيوش، وجاءهم، وخوفهم، وخرب البلدة.

قال القتبي: إن بختنصر غزاهم فرغبوا إلى الله وتابوا، فردَّ الله عنهم بعد أن فتحوا المدينة، وجالوا في أسواقهم. ثم أحدثوا، فبعث الله إليهم أرميا النبي عليه السلام فقام فيهم بوحي الله، فضربوه وقيدوه وحبسوه، فبعث الله تعالى إليهم عند ذلك بختنصر، ففعل ما فعل.

وقال الكلبي: لما عصوا الله تعالى، وهو أول الفسادين، سلط الله عليهم بختنصر، خرج من بابل فأتاهم بالشام، وظهر على بيت المقدس، فقتل منهم أربعين ألفاً ممن كان يقرأ التوراة، وأدخل بقيتهم أرضه. فمكثوا كذلك سبعين سنة حتى مات، ثم إن رجلاً من همدان يقال له: كورش غزا أهل بابل فظهر عليهم وسكن الدار، وتزوج امرأة من بني إسرائيل، وطلبت إلى زوجها أن يرد قومها إلى أرضهم، ففعل، فردهم إلى أرض بيت المقدس، فمكثوا فيها، فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه. ثم عادوا فعصوا المرة الثانية، فسلط الله عليهم ملكاً من ملوك الروم يقال له: إسبسيانوس، فحاصرهم سنين ثم مات. فبعث الله عليهم ابنه ططيوس بن إسبسيانوس الرومي، فحاصرهم، ثم بعد ذلك ملكهم، فقتل منهم مائة ألف، وثمانين ألفاً حتى قتل يحيى بن زكريا وسبى منهم مثل ذلك، وخرب بيت المقدس فلم يزل خراباً حتى بناه المؤمنون في زمن عمر رضي الله عنه. فذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ يقول: أول الفسادين ﴿بَعَثْنَا

Marfat.com

﴿عَلَيْكُم﴾ أي: سلطنا عليكم ﴿عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: ذوي قتال شديد ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ يقول: قتلوكم وسط الأزقة. وقال القتبي ﴿فجاسوا﴾ أي: عاثوا، وأفسدوا. ويكون ﴿جاسوا﴾ بمعنى دخلوا بالفساد ﴿وَكَانَ وَعداً مَفْعُولاً﴾ أي: كائناً لئن فعلتم، لأفعلن بكم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

وقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: أعطيناكم الدولة. ويقال: الرجعة عليهم.

قوله: ﴿وَأَمْدَدْناكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ يعني: أكثر رجالاً وعدداً. وقال القتبي: ﴿أكثر نفيراً﴾ أي أكثر عدداً أصله من نفر ينفر مع الرجل من عشيرته، وأهل بيته، والنفير والنافر مثل القدير والقادر.

قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يقول: إن وحدتم الله وأطعتموه ﴿أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يثاب لكم الجنة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أي: أشركتم بالله ﴿فَلَهَا﴾ رب يغفر لها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: آخر الفسادين ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أخذ من السوء أي: بعثناهم إليكم، ليقبحوا وجوهكم بالقتل والسبي. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لِيَسُوءَ﴾ بالياء ونصب الواو معه. وقرأ الكسائي ﴿لنسوءَ﴾ بالنون، فيكون الفعل لله تعالى. وقرأ الباقون ﴿لِيَسُوءُوا﴾ بالياء، وضم الواو بلفظ الجماعة، يعني: إن القوم يفعلون ذلك ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: بيت المقدس ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ يقول: وليخربوا ما ظهروا عليه ﴿تتبيراً﴾ أي هلاكاً. وقال الزجاج: يقال لكل شيء منكسر من الحديد، والذهب، والفضة، والزجاج: تبر، ومعنى: ﴿ما علوا﴾ أي: وليدمروا في حال علوهم.

قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد هاتين المرّتين، فرحمهم وعادوا إلى ما كانوا عليه وبعث فيهم الأنبياء، فكانوا رحمة لهم فذلك قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: إن ﴿عدتم﴾ إلى المعصية ﴿عدنا﴾، إليكم بالعذاب. ويقال: ﴿إن عدتم﴾ إلى تكذيب محمد ﷺ كما كذبتم سائر الأنبياء ﴿عدنا﴾ يعني: سلطناه عليكم، فيعاقبكم بالقتل والجزية والسبي في الدنيا. ﴿وجعلنا جهنم لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي: سجناً ومحبساً. قال الحسن: أي سجناً، وقال قتادة: أي وحبساً يحبسون فيها. وقال مقاتل: أي مجلساً يجلسون، ولا يخرجون أبداً، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ [البقرة: ٢٧٣] ويقال: هذا فعيل بمعنى فاعل. وقال الزجاج:

Marfat.com

﴿حصيراً﴾ أي حبيساً، أخذ من قوله: حصرت الرجل إذا حبسته، وهو محصور، والحصير المنسوج، وإنما سمي ﴿حصيراً﴾ لأنه حصرت طاقاته بعضها فوق بعض.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: يدعو ويدل ويرشد إلى التي هي ﴿أقوم﴾ وهو توحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان برسول الله والعمل بطاعة الله. هذه صفة الحال التي هي أقوم، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: القرآن بشارة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ في الجنة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي: هيأنا لهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: وجيعاً. قرأ حمزة والكسائي: ﴿وَيَبْشُرُ المؤمنين﴾ بنصب الياء وجزم الباء والتخفيف. وقرأ الباقون: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ برفع الياء والتشديد.

قوله: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ وأصله في اللغة: ويدعو بالواو، إلا أن الواو والألف حذفت في الكتابة، لأن الضمة تقوم مقامها مثل قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] وأصله سندعو أي: يدعو الإنسان باللعن على نفسه وأهله وولده وماله وخدمه، ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: دعاءه بالرزق والعافية والرحمة وما يستجاب له. فلو استجيب له إذا دعاه باللعن كما يجاب له بالخير لهلك. ويقال: نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ يعني: إن آدم عجل بالقيام قبل أن تتمَّ فيه الروح، وكذلك النضر بن الحارث استعجل بالدعاء على نفسه، وهو يستعجل العذاب. ويروي الحكم، عن إبراهيم، عن سلمان أنه قال: «لما خلق الله تعالى آدم، بدأ بأعلاه قبل أسفله، فجعل آدم ينظر وهو يخلق، فلما كان بعد العصر قال: يا رب عجّل قبل الليل». فذلك قوله: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ قال ابن عباس: «لما جعل فيه الروح فإذا جاوز عن نصفه، أراد أن يقوم فسقط فلذلك قيل له: لا تعجل»، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي: خلقنا الشمس والقمر علامتين يدلان على أن خالقهما واحد ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: ضوء القمر، وهو السواد الذي في جوف القمر. وقال محمد بن كعب القرظي: «كانت شمسٌ بالليل، وشمس بالنهار، فمحيت شمس الليل». وقال ابن عباس: «كان في الزمان الأول لا يعرف الليل من النهار. فبعث الله جبريل، فمسح جناحه بالقمر، فذهب ضوؤه، وبقي علامة جناحه وهو السواد الذي في القمر»، فذلك

Marfat.com

قوله: ﴿فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ ﴿وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: وتركنا علامة النهار مضيئة مبينة ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: لتطلبوا رزقاً من ربكم في النهار ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ أي: حساب الشهور والأيام ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً﴾ أي: بيناه في القرآن.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال ابن عباس: «أي: خيره وشره مكتوب عليه لا يفارقه». وقال قتادة: «سعادته وشقاوته». قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل. قال: حدثنا محمد بن جعفر. قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف. قال: حدثنا يزيد بن ربيع عن يونس عن الحسن. قال في قوله: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال: ﴿طائره﴾ عمله، وإليه هداه أمّيّاً كان أو غير أمي. وروى الحكم عن مجاهد قال: ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد. وقال الضحاك: ﴿طائره في عنقه﴾ الشقاوة والسعادة والأجل والرزق. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ أي: مفتوحاً. قرأ ابن عامر: ﴿يُلَقّاهُ﴾ بضم الياء، وتشديد القاف، أي: يعطاه. والباقون ﴿يَلْقَاهُ﴾ أي: يراه.

وقوله: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: شاهداً، ويقال: محاسباً لما ترى فيه كل حسنة وسيئة محصاة عليك. قال ابن عباس: «فإن كان مؤمناً أعطي كتابه بيمينه، وهي صحيفة يقرأ سيئاته في باطنها وحسناته في ظاهرها، فيجد فيها: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا وصنعت كذا وكذا، وقلت كذا وكذا، في سنة كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، وفي يوم كذا وفي ساعة كذا وكذا، فإذا انتهى إلى أسفلها، قيل له: قد غفرها الله لك، اقرأ ما في ظهرها فيقرأ حسناته، فيسره ما يرى فيها، ويشرق لونه، عند ذلك يقول»: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]. قال: «ويعطى الكافر كتابه بشماله، ويقرأ حسناته في باطنها، وسيئاته في ظاهرها. فإذا انتهى إلى آخره، قيل له: هذه حسناتك قد ردت عليك، اقرأ ما في ظهرها، فيرى فيها سيئاته قد حفظت عليه كل صغيرة وكبيرة، فيسوءه ذلك، ويسود وجهه، وتزرق عيناه، ويقول عند ذلك: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥] فذلك قوله: ﴿كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: حفيظاً». وقال مقاتل: وذلك حين جحد، فختم على لسانه، وتكلمت جوارحه، فشهدت جوارحه على نفسه، وذلك قوله: ﴿كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: شهيداً، فلا شاهد عليك أفضل من نفسك.

ثم قال: ﴿مَنِ اهْتَدَى فإنما يهتدي لنفسه﴾ يعني: من اجتهد حتى اهتدى فثوابه لنفسه

Marfat.com

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: ومن تغافل حتى ضل ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إثمه عليها ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تؤخذ نفس بذنب نفس أُخرى.

وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ حجة عليهم مع علمه أنهم لا يطيعون، وينذرهم على ما هم عليه من المعصية، فإن أجابوا وإلاّ عذبوا.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أكثرنا جبابرتها، يقال: أَمَرَ إِذَا أكثر وآمَرَ إذا أكثر وهما لغتان. وروي عن زينب بنت جحش أنها قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ وهو يقول: «ويلٌ للعرَبِ من شرٍّ قد اقترَبَ، فتحَ اليومَ من رَدم يأجوج ومأجُوج مثل هَذا وَحلقَ إبهامه بالتي تليها». قالت: قلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثُرَ الخبثُ». ويقال: أمَرَ وآمر مثل فعل وأفعل بمعنى: أكثر. ومنه قوله ﷺ: «خير المال مهرة مأمورة» أي: خيل كثير النتاج. قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين وابن كثير في إحدى الروايتين ونافع في إحدى الروايتين: «أمَّرْنَا» بالتشديد بغير مد، وفي إحدى الروايتين عن ابن كثير ونافع «آمَرْنَا» بالمد والتخفيف. فمن قرأ بالمدّ يعني: أكثرنا جبابرتها، وقرأ الباقون بالتخفيف بغير مد. فمن قرأ بالتشديد فمعناه: سلّطنا جبابرتها. ومن قرأ بالتخفيف له معنيان: أحدهما: أكثرنا جبابرتها وأشرافها وورؤساءها ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي: فعصوا فيها ومعنى آخر: أمرناهم بالطاعة وخذلناهم حتى تركوا الأمر وعصوا الله تعالى. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها السخط بالعذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ أي: أهلكناها بالعذاب إهلاكاً.

قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ يعني: إن الله تعالى عالم بذنوبهم قادر على أخذهم ومجازاتهم، فيه تهديد لهذه الأمة لكي يطيعوا الله ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: من كان يريد بعمله الذي افترض الله عليه ثواب الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ﴾ أي: أعطينا له ﴿فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من عرض الدنيا ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن نهلكه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: أوجبنا له جهنم ﴿يَصْلاهَا﴾ أي: يدخلها ﴿مَذْمُوماً﴾ ملوماً في عمله ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مطروداً مقصياً من كل خير، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ من المؤمنين بعمله الذي افترض الله عليه ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ يعني: عمل للآخرة عملها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ

Marfat.com

سَعْيُهُمْ مَّشْكُوراً﴾ أي: عملهم مقبولاً ويقال: معناه، من كان غرضه وقصده وعزمه الدنيا وحطامها وزهرتها، عجلنا له فيها للمزيد في الدنيا ما نشاء لمن نريد أن نعطيه بإرادتنا لا بإرادته، ومن كان قصده وعزمه الآخرة وعملَ عملَ الآخرة فنعطي له ما يريدُ من الآخرة.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ﴾ أي: كلا الفريقين من المؤمنين والكافرين نعطي هؤلاء من أهل الطاعة، ﴿وَهَؤُلاَءِ﴾ من أهل المعصية ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: من رزق ربك. وقال الحسن: ﴿كلاً نمد﴾ أي: نعطي من الدنيا البر والفاجر ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أي: محبوساً عن البر والفاجر في الدنيا.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا بالمال ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ يقول: ولفضائل الآخرة أرفع درجات مما فضلوا في الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي: وأرفع في الثواب. وقال الضحاك: ﴿وللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ في الجنة، فالأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه، والأسفل لا يرى أن فوقه أحداً. وقال مقاتل: معناه، فضل المؤمنين في الآخرة على الكفار أكبر من فضل الكفار على المؤمنين في المال في الدنيا، وقال بعض الحكماء: إذا أردت هذه الدرجات وهذا التفضيل فاستعمل هذه الخصال التي ذَكَرَ في هذه الآيات إلى قوله ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾. وروي عن ابن عباس أنه قال: «هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى حيث كتب الله له فيها، أنزلها الله تعالى على نبيه محمد عليه السلام وهي كلها في التوحيد وهي في الكتب كلها موجودة لم تنسخ قط» وهو قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً﴾ أي: ويذمك الناس بفعلك ﴿مخذولاً﴾ ويخذلك الذي تعبده، فتبقى في النار يذمك الله ويذمك الناس وتذم نفسك ﴿مخذولاً﴾ أي: يخذلك معبودك ولا ينصرك.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أي: أمر ربك أن لا تطيعوا أحداً إلا إياه، يعني: إلا الله تعالى، فلا تطيعوا أحداً في المعصية وتطيعوا الله في الطاعة، ويقال لا توحّدوا إلا الله. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي: أمر بالإحسان إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إِمَّا يَبْلُغَانِ﴾ بلفظ التثنية لأنه سبق ذكر الوالدين،

Marfat.com

وقرأ الباقون ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ بلفظ الوحدان، لأنه انصرف إلى قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ يعني: إن يبلغ الكبر ﴿أحدهما أَوْ كِلاَهُمَا﴾ يعني: إن بلغ أحد الأبوين عندك الهرم أو كلا الأبوين ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تقذرهما ولا تقل لهما ﴿أف﴾ قولاً رديئاً عند خروج الغائط منهما إذا احتاجا إلى معالجتهما عند ذلك.

قال الفقيه: حدثنا أبو عبد الرحمن بن محمد قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا أصرم، عن عيسى بن عبد الله الأشعري عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ عَلِمَ الله شَيْئاً مِنَ العَقُوقِ أعظم مِنْ أُفٍّ لحرّمه، فَلْيَعْمَلِ العَاقّ مَا شَاءَ أَنْ يَعْمَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ، وَلْيَعْمَلِ البَارّ مَا شَاءَ أَنْ يَعْمَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ**». وقال مجاهد: إذا كبرا فلا تأف لهما، لأنهما قد رأيا منك مثل ذلك. وقال القتبي: ﴿لا تقل لها أفٍ﴾ بكسرٍ وبفتحٍ وبضم، وهو ما غلظ من الكلام يعني: لا تستثقل شيئاً من كلامها ولا تغلظ لهما القول. قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿أفَ﴾ بنصب الفاء، وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص ﴿أفٍّ﴾ بكسر الفاء مع التنوين، وقرأ الباقون ﴿أفِّ﴾ بكسر الفاء بغير تنوين ومعنى ذلك كله واحد. ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ يقول: لا تغلظ عليهما بالقول ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ أي ليناً حسناً.

قوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: كن ذليلاً رحيماً عليهما. وروى هشام عن عروة عن أبيه في قوله: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ قال: يكون لهما ذليلاً ولا يمتنع من شيء أحباه. وقال عطاء: جناحك يداك، لا ينبغي أن ترفع يديك على والديك ولا ينبغي لك أن تحد بصرك إليهما تغيظاً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا دَعَاكَ أَبَوَاكَ وَأَنْتَ فِي الصَّلاَةِ فَأَجِبْ أُمَّكَ وَلاَ تُجِبْ أَبَاكَ**». وعن النبي ﷺ أنه قال: «**لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ الرَّاهِبُ فَقِيهاً لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَةَ أُمِّهِ أَفْضَلَ مِنْ صَلاَتِهِ**».

قال الفقيه أبو الليث رضي الله عنه: لأن في ذلك الوقت كان الكلام الذي يحتاج إليه مباحاً في الصلاة، وكذلك في أول شريعتنا، ثم نسخ الكلام في الصلاة فلا يجوز أن يجيبها إلا إذا علم أنه وقع لها أمر مهم، فيجوز له أن يقطع ثم يستقبل.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: عند معالجتك في الكبر إياهما. ويقال: رب اجعل رحمتهما في قلبي حتى أربيهما في كبرهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أي: كما عالجاني في صغري، ويقال: معناه، ادعُ لهما بالرحمة بعد موتهما أي: كن باراً بهما في حياتهما وادع لهما بعد موتهما.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

Marfat.com

ثم قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: بارين فإنْ لم تكونوا بارِّين، فارجعوا إلى الله وتوبوا إليه ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ أي: للراجعين من الذنوب إلى طاعة الله تعالى. وقال مجاهد: الأواب الذي يذكر ذنوبه في الخلوة ويستغفر منها. وقال سعيد بن جبير: الأواب، الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الحسن: الأواب، الذي يُقبل إلى الله بقلبه وعمله. وقال السدي: الأواب، المحسن. وقال القتبي: الأواب، التائب مرة بعد مرة من قولك: آب يؤوب. ويقال: الأواب الذي يصلي بين المغرب والعشاء.

قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي: صلته ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ أي: أعط السائلين ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي: الضيف النازل، وحقه ثلاثة أيام. ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ أي: لا تنفق مالك في غير طاعة الله تعالى. وروي عن عثمان بن الأسود أنه قال: سمعت مجاهداً ونحن نطوف بالبيت ورفع رأسه إلى أبي قبيس وقال: لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً، ولو أنفق درهماً في طاعة الشيطان كان مسرفاً. وروى الأعمش، عن الحكم، عن أبي عبيدة وكان ضريراً، وكان عبد الله بن مسعود يدنيه فجاءه يوماً فقال: من نسأل إن لم نسألك؟ فقال: سل، فقال: فما الأواه؟ قال: «الرحيم». قال: فما التبذير؟ قال: «إنفاق المال في غير حقه». قال: فما الماعون؟ قال: «ما يعاره الناس فيما بينهم». قال: فما الأمة؟ قال: «الذي يعلّم الناس الخير».

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانوا إخوان الشياطين﴾ أي: المنفقين أموالهم في غير طاعة الله تعالى كانوا أعوان الشياطين ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي: كافراً.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: عن قرابتك في الرحم وغيرهم ممن يسألك حياء منهم ورحمة لهم ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: انتظار رزق من ربك أن يأتيك، أو قدوم مال غائب عنك ترجو حضوره ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أي: هيناً ليناً. وعِدْهُمْ عدة حسنة. وقال مقاتل: نزلت الآية في خباب بن الأرت وبلال وعمّار ونحوهم من أصحاب الصُّفة، كانوا يسألون النبي ﷺ فلا يجد شيئاً يعطيهم، فيعرض عنهم، فنزلت الآية. وقال السدي: معناه لا تعرض عنهم ابتغاء أن تصيب مالاً ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: قل لهم نعم وكرامة، ليس عندنا اليوم شيء، فإن أتانا شيء نعرف حقكم. وقال محمد بن الحنفية: «كان رسول الله ﷺ لا يقول لشيء لا، فإذا سئل وأراد أن يفعل، يقول: نعم، وإذا لم يرد أن يفعل سكت، فكان قد علم ذلك منه».

Marfat.com

قوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ يقول: لا تمسك يدك في النفقة من البخل، بمنزلة المغلولة يده إلى عنقه ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ في الإسراف فتعطي جميع ما عندك، فيجيء الآخرون ويسألونك فلا تجد ما تعطيهم، وهذا قول ابن عباس. وقال قتادة: لا تمسكها عن طاعة الله وعن حقه، ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ يقول: لا تنفقها في المعصية وفيما لا يصلح. وقال مقاتل في قوله: ﴿لا تبسطها كل البسط﴾، في العطية فلا يبقى عندك شيء، وإذا سئلت لم تجد ما تعطيهم. وقال بعض الحكماء: «كان النبي ﷺ لأمته كالوالد، ولا ينبغي للوالد أن يعطي جميع ماله لبعض ولده ويترك الآخرين، فنهاه الله تعالى أن يعطي جميع ماله لمسكين واحد، وأمره أن يقسم بالسوية كي لا ييأسوا منه».

ثم قال تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ يعني: لو أعطيت جميع مالك فتبقى ﴿مَلُوماً﴾ يلومك الناس وتلوم نفسك ﴿مَحْسُوراً﴾ منقطعاً عن المال لا مال لك، والمحسور في اللغة: المنقطع. وروي في الخبر: «أن امرأة بعثت ابنها إلى النبي ﷺ فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك درعاً، فإن قال لكَ حتى يأتينا شيء، فقل له: إنها إذَنْ تستكسيك قميصك. فأتاه فقال له: إن أمي تستكسيك درعاً فقال له: «حتى يأتينا شيء». فقال: إنها تستكسيك قميصك، قال: فنزع قميصه ودفعه إليه، ولم يبق له قميص يخرج به إلى الصلاة»[1]، فنزلت هذه الآية ﴿ولا تبسطها كلّ البسط فتقعُد ملوماً محسوراً﴾. أي: تبقى عرياناً لا تقدر أن تخرج إلى الصلاة بغير قميص.

قال الفقيه: إذا أردت أن تعرف أن البخل قبيح، فانظر إلى هذه الآية، وذلك أن النبي ﷺ لما أعطى قميصه حتى عجز عن الخروج إلى الصلاة عاتبه الله تعالى على ذلك، فبدأ بالنهي عن الإمساك فقال ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ فنهاه أولاً عن البخل، ثم نهاه عن دفع الكل وهو التبذير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسّع الرزق على من يشاء، من كان صلاحه في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء في الرزق: وقال الحسن: ﴿إنّ ربك يبسط الرزق لم يشاء ويقدر﴾ لمن يشاء ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ من البسط والتقتير، يعلم صلاح كل واحد من خلقه.

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/٢٧٦ إلى ابن أبي حاتم عن المنهال بن عمر وابن جرير عن ابن مسعود.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ أي: مخافة الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ أي: ذنباً عظيماً. ويقال: ظلماً عظيماً وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِداً وَهُوَ خلقَكَ» قال: يا رسول الله ثم أي؟ قال: «أنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». قال: ثم أي؟ قال: «أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قرأ ابن عامر ﴿خَطأً كبيراً﴾ بنصب الخاء، وجزم الطاء. وقرأ ابن كثير: ﴿خِطَاءً﴾ بكسر الخاء، وفتح الطاء، ومد الألف. وقرأ الباقون: بكسر الخاء بغير مد أي: إثماً كبيراً. ويقال: خَطِىءَ يَخطَأُ خِطْأً مثل أثم يأْثَمُ إثْماً. ومن قرأ بالنصب معناه: إنَّ قتلهم كان غير صواب. يقال: أَخطَأَ يُخطِىءُ خَطَأً وخَطَاءً. وقرأ بعضهم: بنصب الخاء والطاء، وهي قراءة شاذة.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: معصية ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أي: بئس المسلك. وروى عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لا أحد أغير من الله، وبذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى، ولذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العُذر من الله تعالى، ولذلك بعث الرسل، وأنزل الكتب»

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يعني إلا بإحدى ثلاث مواضع: إذا قتل أحداً فيقتص به، أو زنى وهو محصن فيرجم، أو يرتد فيقتل. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي: سبيلاً وحجة عليه، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية. يعني: إذا اصطلحا. وقال مجاهد: كل سلطان في القرآن فهو حجة، وكل ظن في القرآن فهو يقين. ﴿فَلاَ يُسْرِفْ فِي القَتْلِ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، أي لا تقتل غير القاتل حمية، ولا تقتل بعد ما عفا أو أخذ الدية ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي: معاناً من الله تعالى في كتابه، جعل الأمر إليه في القَوَدِ. قرأ حمزة والكسائي ﴿فلا تُسْرِفْ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا على وجه التجارة لينمو مال اليتيم بالأرباح، أو ينمو على وجه المضاربة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني: حتى ﴿يبلغ﴾

Marfat.com

ويتم خلقه. وقال القتبي: أشد الرجل، غير أشد اليتيم، وإن كان لفظهما واحداً، لأن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأحقاف: ٢٥] إنّما هو الإكتهال، وذلك ثلاثون سنة. وأشد الغلام أن يشتد خلقه، وذلك ثمان عشرة سنة. وقال مقاتل: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ يعني: العهد الذي بينكم وبين الله تعالى، والعهد الذي بينكم وبين الناس ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً﴾ يعني: إن ناقض العهد يسأل عنه يوم القيامة.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العدل بلغة الروم. قرأ حمزة والكسائي ﴿بالقِسْطَاسِ﴾ بكسر القاف، والباقون بالضم، وهما لغتان يعني: الميزان. ويقال: هو القبان. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: الوفاء بجميع ما أمركم الله به، ونهاكم عنه، خير من البخس والنقصان. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: عاقبة ومرجعاً في الآخرة.

وقال: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول: لا تقل ما لم تعلم، فتقول: علمت ولم تعلم، ورأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، أي: كأنك تقفو الأمور. يقال: قفوت أثره، والقائف: الذي يعرف الآثار ويتبعها.

ثم حذرهم فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾ أي: يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة، فيشهدن عليه. ويقال: معناه صاحب السمع والبصر والفؤاد يسأل يوم القيامة عن السمع والبصر والفؤاد. ويقال: معنى قوله: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ أي: لا تقل ما لم تعلم، ولا تسمع اللغو، ولا تنظر إلى الحرام، ولا تحكم على الظن ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ يعني: عن الكلام باللسان، والتسمع بالسمع، والتبصر بالبصر على وجه الإضمار، وهو من جوامع الكلم.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ يعني: بالتكبر والفخر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ﴾ يعني: لن تدخل ﴿الأَرْضَ﴾ ولن تجاوزها ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ يريد: أنه ليس للعاجز أن يمدح نفسه، ويستكبر. ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي: كل ما أمرتك به، ونهيتك عنه ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي ترك ذلك سيئة ومعصية عند الله ﴿مَكْرُوهاً﴾ أي: منكراً. قرأ ابن كثير وأبو عمرو، ونافع، ﴿سَيِّئَةً﴾ بنصب الهاء مع التنوين، يعني: خطيئة. ومعناه: ما ذكر في هذه الآية تركه كان معصية وسيئة. وقرأ الباقون ﴿سَيِّئُهُ﴾ بضم الهاء على معنى الإضافة، قال أبو عبيدة: وبهذه القراءة نقرأ، وحجته قراءة أُبَيّ، كان يقرأ سَيِّئَاتِهِ على معنى الإضافة.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾، يعني: مما بيّن الله تعالى وأمر ونهى وكان ذلك مكتوباً في اللوح، وأوحى إليك ربك. ﴿مِنَ الحِكْمَةِ﴾، أي بيان الحلال والحرام. ﴿وَلاَ تَجْعَلْ﴾، أي لا تقل. ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾؛ فالخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته. ﴿فَتُلْقَى﴾، أي تطرح ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً﴾، أي يلومك الناس، ﴿مَدْحُوراً﴾، أي مقصياً من كل خير. وقال القتبي: ﴿مدحوراً﴾ أي مبعداً. يقال في الدعاء: «اللَّهُمَّ ادْحَرْ عَنِّي الشَّيْطَانَ»، أي ابعده عني.

قوله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾، أي أفاختاركم بالبنين. ﴿وَاتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ في العقوبة، ويقال: قولاً منكراً قبيحاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ﴾ أي: من كلّ وجهٍ ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾، أي ليتعظوا بالقرآن، ويقال: في القرآن من كل شيء يحتاج إليه الناس، ويقال: بيّنا في هذا القرآن من كل وعد ووعيد، ﴿ليذكروا﴾ أي ليتعظوا بما في القرآن فينتهوا عن عبادة الأوثان. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي الوعيد في القرآن ﴿إِلاَّ نُفُوراً﴾ أي: تباعداً عن الإيمان. قرأ حمزة والكسائي ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ بالتخفيف، يعني: ليذكروا ما فيه، وقرأ الباقون بالتشديد، لأن أصله ليتذكروا، فادغم التاء في الذال وشدد.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾، قال ابن عباس: «قلْ لأهل مكة ﴿لو كان معه آلهة﴾ ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ من الأوثان، ﴿إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾، أي: طريقاً وكانوا كهيئته». وقال قتادة: أي يعرفوا فضل ذي العرش ومرتبته عليهم. ويقال: ابتغوا طريقاً للوصول إليه. وقال مقاتل: لطلبوا سبيلاً ليقهروه كفعل الملوك بعضهم بعضاً.

ثم نزه نفسه عن الشريك، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي تنزيهاً له ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي عما يقول الظالمون أن معه شريكاً. ﴿عُلُوّاً كَبِيراً﴾، أي بعيداً عما يقول الكفار.

وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السموات السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ من الخلق؛ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، أي ما من شيء إلا يسبح له بأمره وبعلمه ﴿ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم﴾ وقال الكلبي: كل شيء ينبت، يسبح من الشجر وغير ذلك، فإذا قطع منه صار ما قطع منه ميتاً لا يسبح.

وروي عن الحسن أنه قيل له: أيسبح هذا الخوان؟ قال: كان يسبح في شجره، فأمّا الآن فلا. ويقال: إذا قطع الشجر، فإنه يسبح ما دام رطباً، بدليل ما روي عن رسول الله ﷺ أنه مرّ بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ فِي القَبْرِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ بِكَبِيرَةٍ. فَأَمَّا أَحَدُهُمَا كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ،

Marfat.com

وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَنْزِهُ عن البَوْلِ». ثم أخذ جريدتين من شجر، وغرس إحداهما في قبر والأخرى في قبر الآخر، فقال: «لَعَلَّهُمَا لا يُعَذَّبَانِ ما دَامَتَا رَطْبَتَيْنِ»(١). قال الحكماء: الحكمة في ذلك، أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى، ويقال: معناه ما من شيء إلا يسبح بحمده، ويقال: معناه ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ يدل على وحدانية الله تعالى، ويسبحه، فإنّ الله خالقه. ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾، يعني: أثر صنعه فيهم، هذا بعيد، وهو خلاف أقاويل المفسرين، ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾، حيث لم يجعل العقوبة لمن اتخذ معه آلهة، ﴿غفوراً﴾ لمن تاب منهم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾، يعني: إذا أخذت في قراءة القرآن. ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾؛ قال بعضهم: الحجاب المستور، هو أن يمنعهم عن الوصول إليه، كما روي أن امرأة أبي لهب جاءت إلى النبي ﷺ وكان عنده أبو بكر، فدخلت فقالت لأبي بكر: هجاني صاحبك. قال أبو بكر: والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فرجعت، فقال أبو بكر: أما رأتك يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «لَمْ يَزَلْ بَيْنِي وَبَيْنَها مَلَكٌ يَسْتُرُنِي عَنْهَا حَتَّى رَجَعَتْ»(٢). وقال قتادة: الحجاب المستور هو الأكنة. وقال مقاتل: الحجاب المستور هو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية حتى لا يرغبوا في الحق، ويقال: ﴿جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ يعني: الجن والشياطين ﴿حجاباً مستوراً﴾ فلا يصلون إليك. وقال الكلبي: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن، ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات، إذا قرأهن حجب عنهم. إحداهن: في سورة الكهف: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧] والآية الثانية في النحل: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] والثالثة في حم الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] الآية.

قوله تعالى: ﴿وفي آذانهم وقراً﴾، أي صمماً وثقلاً لا يسمعون الحق. قرأ ابن كثير ﴿قُل لَّو

---

(١) حديث ابن عباس: أخرجه البخاري (٢١٨) (١٣٧٨) و(٦٠٥٢) ومسلم (٢٩٢) والترمذي (٧٠) والنسائي ١/ ٢٩ ـ ٣٠ وأبو داود (٢٠) وأحمد ١/ ٢٢٥ والبيهقي: ٢/ ٤١٢ والبغوي (١٨٣).

(٢) عزاه السيوطي: ٥/ ٢٩٥ إلى أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي و٥/ ٢٩٦ إلى ابن مردوية عن أبي بكر.

Marfat.com

كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢] كلها بالتاء على معنى المخاطبة، والآخرون بالياء، وقرأ أبو عمرو: الأوسط بالياء، واختلفوا عن عاصم في رواية حفص الآخر خاصة بالتاء، وروى أبو بكر مثل ابن عامر.

وقال تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾، يعني: وحدانيته، قول لا إله إلا الله. ﴿ولوا على أدبارهم نفوراً﴾، أي أعرضوا تباعداً عن الإيمان. وقال القتبي: ولوا على أعقابهم هرباً، وهو مثل ما قال مقاتل: ولّوا على أعقابهم وذلك حين قال لهم النبي ﷺ: «قُولُوا لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ تَمْلِكُوا بِهَا العَرَبَ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ»، فنفروا من ذلك.

ثم قال: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾، يعني: بالقرآن. ﴿إذ يستمعون إليك﴾ أي إلى قراءتك القرآن. ﴿وإذ هم نجوى﴾، يعني: يتناجون فيما بينهم. ﴿إذ يقول الظالمون﴾، أي المشركون للمؤمنين: ﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾، أي: ما تطيعون إلا رجلاً مغلوب العقل. وذكر القتبي، عن مجاهد أنه قال: ﴿مسحوراً﴾ أي مخدوعاً، لأن السحر حيلة وخديعة، كقوله ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي من أيه تخدعون. وذكر عن أبي عبيدة قال: السَّحر الرئة. يقال للرجل: انتفخ سَحرك، إذا جبن، يعني: إن تتبعون إلا رجلاً ذا رئة، أي بشراً مثلكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾، أي وصفوا لك الأشباه حيث قالوا: ساحر أو مجنون. ﴿فضلوا﴾، أي أخطؤوا في المقالة وتحيروا. ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾، أي لا يجدون مخرجاً مما قالوا لتناقض كلامهم، لأنهم قالوا مرة: ساحر، والساحر عندهم المبالغ في العلم، ومرة قالوا: مجنون، والمجنون عندهم من هو في غاية الجهل. قال ابن السائب: وذلك أن أبا سفيان بن حرب، وحويطب بن عبد العزى وأبا جهل بن هشام وأبا لهب، وامرأته جميلة أخت أبي سفيان، والنضر بن الحارث وغيرهم، كانوا يأتون رسول الله ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر ذات يوم ورسول الله ﷺ يحدث أصحابه: ما أدري ما يقول محمد، غير أني أرى شفتيه تتحركان. فقال أبو جهل: هو مجنون، وقال أبو لهب: بل هو كاهن، وقال حويطب: بل هو شاعر. فنزل: ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ إلى قوله: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾[1].

وقوله: ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً﴾، أي: صرنا عظاماً ﴿ورفاتاً﴾، أي تراباً. ﴿أئنا لمبعوثون﴾؟ أي لمحيون في الآخرة ﴿خلقاً جديداً﴾. والاختلاف في قوله: ﴿أئنا﴾ في القرآن مثل ما ذكرنا في الرعد.

(١) عزاه السيوطي: ٥/٢٩٨ - ٢٩٩ إلى ابن إسحق والبيهقي في الدلائل، عن الزهري.

Marfat.com

﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حديداً﴾ اللفظ لفظ الأمر، ومعناه معنى الخبر، يعني: لو كنتم من الحجارة، أو من الحديد. ﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ قال مجاهد: معناه، حجارة أو حديداً أو ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله الذي فطركم أول مرة كما كنتم. ويقال: ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدروكم﴾ يعني: السماء والأرض والجبال؛ وقال الكلبي: معناه لو كنتم الموت لأماتكم الله. وعن الحسن وسعيد بن جبير وعكرمة قالوا: ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾، يعني: الموت، فيبعثكم كما خلقكم أول مرة. قالوا: لو كنا من الحجارة أو من حديد أو من الموت فمن يعيدنا؟ وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يا محمد: فسيعيدكم الله ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾، أي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾، يهزُّون إليك رؤوسهم تعجباً من قولك. وقال القتبي: يعني: يحركونها استهزاء بقولك. وقال الزجاج: أي سيحركون رؤوسهم تحريك من يستثقله ويستبطئه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾، يعنون البعث. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾. وكل ما هو آت فهو قريب، و﴿عسى﴾ من الله واجب. قالوا يا محمد: فمتى هذا القريب؟ فنزل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾؛ يعني: إسرافيل، وهي النفخة الأخيرة. ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾؛ يقول: تخرجون من قبوركم بأمره وتقصدون نحو الداعي. وقال مقاتل: يوم يدعوكم من قبوركم فتستجيبون للداعي بأمره، وذلك أن إسرافيل يقوم على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن: أيتها العظام البالية، واللحوم المتفرقة، والعروق المتقطعة، اخرجوا من قبوركم، فيخرجون من قبورهم.

ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾، في القبور ﴿إلا قليلاً﴾ أي: ما لبثتم في القبور إلا يسيراً. قال الكلبي: وذلك أنه يرفع عنهم العذاب ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة، فينسون العذاب، فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا يسيراً، وروي ذلك عن ابن عباس. وهذا أصح ما قيل فيه، لأن بعض المبتدعين قالوا: إذا وضع الميت في قبره لا يكون عليه العذاب إلى وقت البعث، فيظنون أنهم مكثوا في القبر قليلاً.

قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ قال ابن عباس: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يؤذيهم المشركون بمكة بالقول، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فنزل» ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾، أي المسلمين ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي يجيبوا بجواب حسن، برد السلام بلا

Marfat.com

فحش. وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكرٍ سبّه رجل عند رسول الله ﷺ، فأمر الله بالكف عنه، ويقال: نزلت في شأن عمر كان بينه وبين كافر كلام.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيطَانَ يَنزَغُ بَينَهُمْ﴾ أي يوسوس ويوقع بينهم العداء، لعنه الله، ليفسد أمرهم. ﴿إِنَّ الشَّيطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾، أي ظاهر العداوة. وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾، أي أعلم بأحوالكم وما أنتم فيه من أذى المشركين. ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾، فينجيكم من أهل مكة إذا صبرتم على ذلك. ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، فيسلطهم عليكم إذا جزعتم ولم تصبروا. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيهِمْ وَكِيلاً﴾، يعني: مسلطاً. وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، ويقال: ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾، أي ليست المشيئة إليك في الهدى والضلالة.

وقال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أي ربك عالم بأهل السموات وأهل الأرض، وهو أعلم بصلاح كل واحد منهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، منهم من فضل الله بالكلام وهو موسى، ومنهم من اتخذه خليلاً وهو إبراهيم عليه السلام، ومنهم من رفعه مكاناً علياً وهو إدريس، ومنهم من اصطفاه وهو محمد ﷺ. ﴿وَآتَينَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾، أي كتاباً. قال مقاتل: الزبور مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا فريضة، إنما ثناء على الله عز وجل. قرأ حمزة ﴿زُبُوراً﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقون بالنصب؛ وهما لغتان ومعناهما واحد.

قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، قال ابن عباس: «إن ناساً من خزاعة كانوا يعبدون الجن، وهم يرون أنهم هم الملائكة، فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: تعبدون من دون الله. ﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ﴾، لا يقدرون ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾؛ يقول: صرف السوء عنكم من الأمراض والبلاء إذا نزل بكم. ﴿وَلاَ تَحْوِيلاً﴾؛ يقول: ولا تحويله إلى غيره ما هو أهون منه، ويقال: ولا يحولونه إلى غيرهم. ﴿أُولَئِكَ﴾، يعني: الملائكة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أي: يعبدونهم ويدعونهم آلهة. قرأ ابن مسعود ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء على معنى

Marfat.com

المخاطبة. ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمِ الْوَسِيلَةَ﴾، يقول: يطلبون إلى ربهم القربة والفضيلة والكرامة بالأعمال الصالحة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، أكرم على الله تعالى، وأقرب في الفضيلة والكرامة. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾، أي جنته. ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، أي ناره. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾، يعني: لم يكن لأحد أمان من عذاب الله تعالى، ويقال: ﴿محذوراً﴾ يعني: ينبغي أن يحذر منه.

وروى الأعمش، عن إبراهيم، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «كان ناس من الإنس يعبدون قوماً من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم، فأنزل الله»: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أي: الجن ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. وروى السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «عيسى وعزيراً والملائكة، وما عبد من دون الله وهو لله مطيع».

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَٰتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ قال ابن عباس: «يعني: نميت أهلها». ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾، يعني: بالسيف والزلازل والأمراض والخوف والغرق والحرق. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾، أي: في الذكر الذي عند الله، وقال مجاهد: ﴿مهلكوها﴾ أي مبيدوها أو معذبوها بالقتل والبلاء، ما كان من قرية في الأرض إلا سيصيبها بعض ذلك. روى حماد بن سلمة، عن أبي العلاء، عن مكحول أنه قال: «أول أرض تصير خراباً أرض أرمينية». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «أول أرض تصير خراباً أرض الشام»؛ وروى ابن سيرين عن ابن عمر أنه قال: «البصرة أسرع الأرضين خراباً وأخبثهم تراباً». عن عليّ بن أبي طالب أنه قال: «أكثروا الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه، فكأني برجل من الحبشة حمش الساقين، يهدمها حجراً حجراً».

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾، وذلك أن قريشاً طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية، فنزل ﴿وما منعنا﴾ أي ليس أحد يمنعنا أن نرسل الآيات عندما سألوها. ﴿إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾، يعني: تكذيب الأولين حين أتتهم الآيات، فلم يؤمنوا، فأتاهم العذاب.

قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا أبو العباس بن السراج قال: حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: حدّثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن

Marfat.com

سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل الصفا لهم ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعونها، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نتخير منهم وإن شئت أن نريهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما هلك من كان قبلهم. فقال: ﴿بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ﴾، فنزل ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾.

ثم قال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، أي معاينة يبصرونها، ويقال: علامة لنبوته. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أي جحدوا بها فعقروها، فعذبوا. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ لهم ليؤمنوا، فإن أبوا أتاهم العذاب.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾؛ قال الكلبي: أحاط علمه بالناس، ويقال: هم في قبضته، أي قادر عليهم؛ وقال قتادة: يعني: يمنعك من الناس حتى تبلغ رسالات الله وقال السدي: معناه إن ربك مظهرك على الناس.

قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾؛ قال: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا محمد بن إبراهيم بن أحمد الدبيلي قال: حدّثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال في قوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: «هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به». ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾؛ أي: ذكر الشجرة الملعونة في القرآن فتنة لهم، يعني: بلية لهم. وذلك أن المشركين قالوا: يخبرنا هذا أنَّ في النار شجرة والنار تأكل الشجرة. فصار ذلك فتنة لهم، يعني: بلية لهم.

ويقال: لما نزل ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ قالوا: هي التّمر والزبد. فرجع أبو جهل إلى منزله، فقال لجاريته: زقمينا، وأمرها أن تأتي بالتمر والزبد، فخرج به إلى الناس وقال: كلوا فإن محمداً يخوفكم بهذا، فصار ذكر الشجرة فتنة لهم، ثم يخوّفهم: بذكر شجرة الزقوم فذلك قوله: ﴿ونخوّفهم﴾ ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾، يعني: تمادياً في المعصية. قال الكلبي: قوله ﴿والشجرة﴾ قال: هي شجرة الزقوم. ثم قال: هي ليلة أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، فنشر له الأنبياء كلهم، فصلى بهم، ثم صلى الغداة بمكة فكذبوه، فذلك قوله: ﴿فتنة للناس﴾ حين كذبه أهل مكة. وقال عكرمة: أمّا إنها رؤيا عين يقظة ليست برؤيا منام. وقال سعيد بن المسيب: أُري النبي ﷺ بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فقيل له: إنما هي دنيا يعطونها فقرت عينه فنزل: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة لنا﴾ يعني: بني أمية.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ فتعظم عن السجود لآدم.

Marfat.com

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

وقال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾. الآية وفيها مضمر، معناه: فلعنه الله، فقال إبليس: أرأيتك هذا الذي لعنتني لأجله وفضلته عليَّ؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، يعني: لئن أجلتني إلى يوم البعث. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع ﴿لئن أَخَّرْتَنِي﴾ بالياء عند الوصل، وقرأ الباقون بغير ياء لأن الكسرة تقوم مقامه. ثم قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾، أي لأستزلنَّ ذريته. يقول: أطلب زلتهم؛ وقال القتبي: ﴿لأحتنكَنَّ﴾ أي لأستأصلنَّ، يقال: احتنك الجراد ما على الأرض، إذا أكله كله. ويقال: هو من حنك الدابة يحنكها حنكاً، إذا شدّ في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به، أي لأقودنهم حيث شئت. ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾؛ يعني: الأنبياء والمخلصين لله، ويقال: إلاّ من عصمته مني.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ﴾، أي من أطاعك ﴿مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾، يعني: نصيبكم من العذاب في النار. ﴿جَزَاءً مَوْفُوراً﴾، أي نصيباً ﴿موفوراً﴾ أي وافراً لا يفتر عنهم.

ثم قال: ﴿واسْتَفْزِزْ﴾، يقول: استزلّ ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾؛ يقول: بدعائك ووسوستك، ويقال: بأصوات الغناء والمزامير. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، يعني: استعن عليهم بأعوانك من مردة الشياطين الذين يوسوسون للناس، ويقال: خيل المشركين ورجالهم، وكل خيل تسعى في معصية الله تعالى فهي من خيل إبليس. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بنصب الراء وكسر الجيم، فدلّ الواحد على الجنس. وقرأ الباقون بجزم الجيم وهو جمع الراجل.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ﴾، أي ما أكل من الأموال بغير طاعة الله تعالى، وهو ما جُمع من الحرام. ويقال: ﴿وشاركهم في الأموال﴾ وهو ما جعلوا من الحرث والأنعام نصيباً لآلهتهم، ويقال: كل طعام لم يذكر اسم الله عليه فللشيطان فيه شركة.

قال الفقيه رضي الله عنه: حدّثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدّثنا أحمدبن حنبل قال: حدّثنا سفيان بن يحيى قال: حدّثنا أبو مطيع، عن الربيع بن زيد، عن أبي محمد وهو رجل من أصحاب أنس قال: «قال إبليس لربه: يا رب جعلت لبني آدم بيوتاً فما بيتي؟ قال الحمام. قال: وجعلت لهم مجلساً فما مجلسي؟ قال: السوق. قال: وجعلت لهم قرآناً فما قرآني؟ قال

Marfat.com

الشعر. قال: وجعلت لهم حديثاً فما حديثي؟ قال: الكذب. قال: وجعلت لهم أذاناً فما أذاني؟ قال: المزامير. قال: وجعلت لهم رسلاً فما رسلي؟ قال: الكهنة. قال: وجعلت لهم كتاباً فما كتابي؟ قال الوشم. قال: وجعلت لهم طعاماً فما طعامي؟ قال: ما لم يذكر اسم الله عليه. قال: وجعلت لهم شراباً فما شرابي؟ قال: كل مسكر. قال وجعلت لهم مصايد فما مصايدي؟ قال: النساء».

ثم قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ﴾، أي: كل نفقة في معصية الله تعالى. ﴿وَالأَوْلادِ﴾، أي أولاد الزنى، فهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير. ويقال: هو ما سموا أولادهم عبد العزى وعبد الحارث، ويقال كل معصية بسبب الولد، ويقال: إذا جامع الرجل أهله ولم يذكر اسم الله فيه، جامع معه الشيطان. ويقال: المرأة النائحة والسكرانة يجامعها الشيطان، فيكون له شركة في الولد. قال الفقيه أبو الليث: هذا الكلام مجاز لا على وجه الحقيقة، إنما يراد به المثل.

ثم قال: ﴿وَعِدْهُمْ﴾، أي مَنِّهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾، أي باطلاً.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أي: حجة، ويقال: نفاذ الأمر. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾، أي كفيلاً على ما قال. ويقال: حفيظاً لهم. وقال أبو العالية: قوله: ﴿إِنَّ عبادي﴾ الذين لا يطيعونك.

ثم ذكر الدلائل والنعم ليطيعوه ولا يطيعوا الشيطان، ثم قال: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾، أي يسيِّر لكم الفلك. ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي من رزقه. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾، يعني: إنّ ربكم رحيم بكم.

ثم قال: ﴿وإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾، يقول: إذا أصابكم الخوف وأهوال البحر. ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، أي بطل من تدعون من الآلهة وتخلصون بالدعاء لله تعالى. ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾، يعني: من أهوال البحر. ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، أي تركتم الدعاء والتضرع ورجعتم إلى عبادة الأوثان. ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾، أي كافراً ﴿كفوراً﴾ بأنعم الله.

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ يعني: إن عصيتموه ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ أي يغور بكم، ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾، إلى الأرض السفلى. وقال مقاتل: يعني: ناحية من البر. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾، أي حجارة من فوقكم كما أرسل على قوم لوط. ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾، أي مانعاً يمنعكم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾، أي البحر ﴿تَارَةً أُخْرى﴾، يعني: مرة أخرى. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾، أي ريحاً شديداً ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بالله وبنعمه، ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾، أي من يتبعنا ويطالبنا بدمائكم، كقوله ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، أي مطالبة حسنة. ويقال: يعني: ثائراً ولا ناصراً، ينتقم لكم مني. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿أن نَخْسِفَ بكم﴾ ﴿أَوْ نُرْسِلَ﴾ ﴿أَنْ نُعِيدَكُمْ فَنُرْسِلَ عَلَيْكُمْ فَنُغْرِقَكُمْ﴾ هذه الخمسة كلها بالنون، وقرأ الباقون كلها بالياء.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بعقولهم. وقال الضحاك: ﴿كرمنا بني آدم﴾ بالعقل والتمييز. ويقال: إن الله تعالى خلق نبات الأرض والأشجار وجعل فيها الروح، لأنه ينمو ويزداد بنفسه ما دام فيه الروح، فإذا يبس خرج منه الروح وانقطع نماؤه وزيادته. وخلق الدواب وجعل لهن زيادة روح تطلب بها رزقها، وتسمع منه الصوت. وخلق بني آدم وجعل لهم زيادة روح، يعقلون بها ويميزون ويعلمون. وخلق الأنبياء وجعل لهم زيادة روح، يبصرون بها الملائكة ويأخذون بها الوحي ويعرفون أمر الآخرة.

ثم قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: ﴿حملناهم في البرّ﴾ على الرطوبة أي على ظهر الدواب، وفي البحر على اليبوسة وهي السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، أي: الحلال ويقال: من نبات الحبوب والفواكه والعسل، وجعل رزق البهائم التبن والشوك. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾، يعني: على الجن والشياطين والبهائم. وروي عن ابن عباس أنه قال: «فضلوا على الخلائق كلهم غير طائفة من الملائكة: جبريل وميكاييل وإسرافيل وأشباههم منهم»، وروي عن أبي هريرة أنه قال: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده».

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، أي: بكتابهم، ويقال بداعيهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، يدعى إمامهم قبلهم؛ وقال أبو العالية: ﴿بإمامهم﴾ أي

Marfat.com

بأعمالهم، وقال مجاهد: بنبيهم. وقال الحسن: بكتابهم الذي فيه أعمالهم. ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾، أي: يقرؤون حسناتهم ويعطون ثواب حسناتهم. ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، يعني: لا يمنعون من ثواب أعمالهم مقدار الفتيل، وهو ما فتلته من الوسخ بين أصبعيك.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾، أي من كان في هذه النعم أعمى، يعني: لم يعلم أنها من الله، ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن حجته، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾؛ يعني: أضلُّ عن حجته. قال مجاهد: ﴿من كان في هذه الدنيا أعمى﴾ عن الحجة فهو في الآخرة أعمى عن الحجة ﴿وأضل سبيلاً﴾، أي أخطأ طريقاً، وقال قتادة: ﴿من كان في هذه الدنيا أعمى﴾ عمَّا عاين من نعم الله وخلقه ومن عجائب الله، فهو في الآخرة التي هي غائبة عنه ولم يرها أعمى. وقال مقاتل: فيه تقديم ومعناه ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾. ومن كان عن هذه النعم أعمى، فهو عما غاب عنه من أمر الآخرة أعمى. وقال الزجاج: معناه إذا عمي في الدنيا وقد تبين له الهدى وجعل إليه التوبة وضله عن رشده، فهو في الآخرة لا يجد متاباً ولا مخلصاً مما هو فيه، فهو أشد عمًى وأضلّ سبيلاً أي أضل طريقاً، لأنه لا يجد طريقاً إلى الهداية فقد حصل على عمله. وذكر عن الفرّاء أنه قال: تأويله من كان في هذه النعم التي ذكرتها أعمى، لا يعرف فضلها ولا يشكر عليها وهي محسوسة، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ يعني: أشد شكاً في الذي هو غائب عنه في الآخرة من الثواب والعقاب.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: وقد كادوا ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك إن قدروا على ذلك. وذلك أن ثقيفاً أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: نحن أخوالك وأصهارك وجيرانك. فقال رسول الله ﷺ: «مَاذَا تُرِيدُونَ؟» قالوا: نريد أن نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال. فقال ﷺ: «وَمَا هُنَّ؟» قالوا: لا ننحني في الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتّعنا بالأصنام سنة أي: بطاعة الأصنام سنة. فقال لهم النبي ﷺ: «أَمَّا قَوْلُكُمْ لا نَنْحَنِي فِي الصَّلاةِ، فَإِنَّهُ لا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ وَلا سُجُودٌ». قالوا: فإنا نفعل ذلك وإن كان فيه دناءة. «وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إنا لا نَكْسِرُ أَصْنَامَنَا بِأَيْدِينَا، فَإِنَّا سَنَأْمُرُ بِكَسْرِهَا». قالوا: فتمتّعنا باللات فقال: «فَإِنِّي غَيْرُ مُمَتِّعِكُمْ بِهَا سنة». قالوا: يا رسول الله فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا، فسكت رسول الله ﷺ وكره أن يقول لا، مخافة أن يأبوا الإسلام، فنزل ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾.

وقال السدي: إن قريشاً قالت للنبي ﷺ: إنك ترفض آلهتنا كل الرفض، فلو أنك تأتيها فتمسّها أو تبعث بعض ولدك فيمسها، كان أرق لقلوبنا وأحرى أن نتبعك. فأراد أن يبعث ابنه

Marfat.com

الطاهر فيمسح، فنهاه الله تعالى عن ذلك ونزل: ﴿وإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ وروى أبو معشر، عن أصحابه منهم القرظي قال: لما قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم فبلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠]، جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى، وأنَّ شفاعتهن ترتجى، فلما بلغ السجدة، سجد فسجد معه المشركون، ثم جاء جبريل فقال: ما جئتك بهذا، فنزل: ﴿وإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وإذا لاتَّخذُوكَ خَلِيلاً﴾، فلم يزل النبي ﷺ مغموماً حتى نزل: ﴿وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ إلى قوله[١]: ﴿ألْقَى الشَّيْطَانُ في أمْنِيَتِهِ﴾ الآية.

وروى سعيد بن جبير، عن قتادة قال: ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسوِّدونه ويقاربونه، وكان في قولهم أن قالوا: يا محمد إنك تأتي بشيء لم يأت به أحد من الناس، وأنت سيدنا وابن سيدنا، فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقاربهم. ولا أنّ الله تعالى منعه وعصمه عن ذلك[٢]، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٧٤] الآية؛ وذلك قوله: ﴿وَإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ في القرآن. ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾، يعني: لتقول وتفعل غير الذي أمرتك في القرآن. ﴿وَإذاً لاتَّخذُوكَ خَلِيلاً﴾، أي صفياً وصديقاً. ويقال: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: اطرد عن مجلسك سقاط الناس ومواليهم حتى نجلس معك، فهمَّ النبي ﷺ أن يفعل ذلك، فنزل: ﴿وإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ من تقريب المسلمين. ﴿وإذاً لاتَّخذُوكَ خَلِيلاً﴾ لو فعلت ما طلبوا منك.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

ثم قال: ﴿وَلَوْلا أنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾، يقول: عصمناك، ويقال: حفظناك. ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ﴾، أي: هممت أن تميل إليهم. ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾، وتعطي أمنيتهم شيئاً قليلاً. ﴿إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ﴾، أي عذاب الدنيا، ﴿وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾؛ أي: عذاب الآخرة، وهذا قول ابن عباس. وروى ابن أبي نجيح، عن مجاهد أنه قال: ﴿ضعف الحياة﴾ عذابها، أي عذاب الدنيا، ﴿وضعف الممات﴾ أي عذاب الآخرة، وهذا مثل الأول. ويقال: ﴿ضعف الممات﴾ أي عذاب القبر، ويقال: هذا وعيد للنبي ﷺ، أي: لو فعلت ذلك، يضاعف لك العذاب على عذاب غيرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٣١٩ إلى ابن أبي حاتم.
(٢) عزاه السيوطي: ٥/ ٣٢٠ إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

﴿ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، لأن درجة النبي ﷺ ودرجة من وصفهم فوق درجة غيرهم، فجعل لهم العذاب أشد. وروي عن مالك بن دينار أنه قال: سألت أبا الشعثاء عن قوله: ﴿ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾، فقال: ضعف عذاب الدنيا، وضعف عذاب الآخرة.

ثم قال: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾؛ يقول: مانعاً يمنعك من ذلك، ويقال: مانعاً يمنع منك العذاب، ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، أي ليستزلونك وليخرجونك من أرض مكة. ﴿وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ﴾، أي بعدك ﴿إلاَّ قَلِيلاً﴾، فيهلكهم الله تعالى.

وروى عبد الرزاق، عن معمر قال: قد فعلوا ذلك فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً. وقال مقاتل: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾، يعني: من أرض المدينة. نزلت الآية في حيي بن أخطب وغيره من اليهود حين دخل النبي ﷺ المدينة حسدوه وقالوا: إنك لتعلم أن هذه ليست من أرض الأنبياء إنما أرض الأنبياء الشام، فإن كنت نبياً فاخرج منها فخرج، فنزل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، أي من أرض المدينة إلى الشام ﴿وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ وأمر بالرجوع إلى المدينة.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾، أي: هكذا سنتي فيمن قد مضى: أن أهلك من عصوا الرسول ولم يتبعوه، ولا أهلكهم ونبيهم بين أظهرهم، فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذّبهم. ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾، يعني: تغييراً أو تبديلاً. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿خَلْفَكَ﴾ ومعناهما قريب، أي: بعدك.

ثم قال عز وجل: ﴿أقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: بعد زوالها الظهر والعصر ﴿إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي: إلى دخول الليل وهو المغرب والعشاء. وروى سالم، عن ابن عمر أنه قال: «دلوكها زيغها بعد نصف النهار». وقال قتادة: دلوكها زيغها عن كبد السماء. وروى ابن طاوس، عن أبيه أنه قال: دلوكها غروبها» وروى معمر، عن الشعبي، عن ابن عباس أنه قال: ﴿لدلوك الشمس﴾ «حين تزول الشمس». وروى مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: «دلوكها غروبها»، وكذا قال ابن مسعود. وقال القتبي: إلى غسق الليل. والغسق ظلامه.

ثم قال: ﴿وَقُرآنَ الفَجْرِ﴾، أي صلاة الغداة وإنما سميت صلاة الغداة قرآناً، لأن القراءة فيها أكثر وأطول. ويقال: لأنه يقرأ في كلتا الركعتين، وفي كلتا الركعتين القراءة فريضة. ﴿إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾، أي صلاة الغداة مشهودة، يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار،

Marfat.com

ويقال: ﴿كان﴾ أي صار، يعني صار مشهوداً، لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الغداة، فينزل ملائكة النهار والقوم في صلاة الغداة قبل أن تعرج ملائكة الليل، فإذا فرغ الإمام من صلاته، عرجت ملائكة الليل فيقولون: ربنا إنا تركنا عبادك وهم يصلون. ويقول الآخرون: ربنا أدركنا عبادك وهم يصلون. ﴿وقرآن الفجر﴾ صار نصباً، لأن معناه: أقم قرآن الفجر، ويقال: صار نصباً على وجه الإغراء، أي عليك بقرآن الفجر

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافلة لك﴾، يعني: قم بالليل بعد النوم، والتهجد: القيام بعد النوم؛ روى شهر بن حوشب، عن أبي أمامة أنه قال: «كانت النافلة لرسول الله ﷺ خاصة»، وقال مجاهد: «لم تكن النافلة إلا للنبي ﷺ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»؛ ويقال: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾، أي فضلاً لك، ويقال: خاصة لك ﴿عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾؛ قال مقاتل: يعني: إن الشفاعة لأصحاب الأعراف يحمده الخلق كلهم، ويقال: إخراج قوم من النار.

قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا محمد بن معاوية الأنماطي قال: حدّثنا الحسن بن الحسين، عن عطية العوفي قال: حدّثنا أبو حنيفة، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ قال: «**يُخرِجُ الله أقْوَاماً مِنَ النَّارِ مِنْ أهْلِ الإيمانِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَذٰلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ، فَيُؤْتَى بِهِمْ نَهراً يُقَالُ لَهُ الحَيَوَانُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا ينبتُ التَّقَارِيرُ. ثم يُخْرَجُونَ فَيُدْخَلُونَ الجَنَّةَ، فَيُسَمَّوْنَ فِيهَا الجَهَنَّمِيُّونَ، ثم يطلبونَ إلى الله تعالى أنْ يُذْهِبَ عَنهُمْ هٰذا الاسْمَ، فَيُذْهِبَ به عَنْهُمْ**»(١).

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: «**يجتمع الأولون والآخرون يوم القيامة في صعيد واحد، ينفذهم البصر ويسمعهم المنادي، فيقول: يا محمد، فيقول: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ بِيَدَيْكَ»**. وهو المقام المحمود، ويغبطه به الأولون والآخرون.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، أي: قال هذا حين أمره الله بالرجوع إلى المدينة أي أدخلني في المدينة إدخال صدق. ﴿وَأخرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، يعني: من المدينة إلى مكة إخراج صدق، ويقال: ﴿أدخلني﴾ في الدين ﴿مدخل صدق﴾، أي ثبتني على

---

(١) عزاه السيوطي: ٣٢٦/٥ إلى الترمذي وحسنه وابن جرير، وابن مردويه.

Marfat.com

الدين ﴿وأخرجني﴾، أي احفظني من الكفر، ويقال: أخرجني من الدنيا إخراج صدق، وأدخلني في الجنة. ويقال: أدخلني بعز وشرف وإظهار الإسلام. ويقال: أدخلني في القبر مدخل صدق وأخرجني من القبر مخرج صدق، وقال مجاهد: أدخلني في النبوة والرسالة مدخل صدق الجنة، وقال السدي: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وعن أبي صالح: أدخلني في الإسلام وارفعني في الإسلام. ﴿واجعَل لِي مِن لَدُنكَ﴾، أي: من عندك ﴿سُلطَاناً نصيراً﴾، أي ملكاً مانعاً لا زوال فيه، ولا يرد قولي ويقال: حجة ثابتة ظاهرة.

قوله عز وجل: ﴿وَقُل جَاءَ الحَقُّ﴾، ظهر الإسلام والقرآن، ﴿وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾؛ يقول: وهلك الشرك وأهله. ﴿إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، يعني: إنّ الشرك كان هالكاً لم يكن له قرار ولا دوام. روي عن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وذكر أن النبي ﷺ كان يقول ذلك والصنم ينكب لوجهه.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ورحمة للمؤمنين﴾، أي بيان من العمى، ويقال: شفاء للبدن، إذا قرىء على المريض يبرأ، أو يهوّن عليه. ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي ونعمة من العذاب لمن آمن بالقرآن. ﴿ولاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾، أي المشركين ما نزل من القرآن ﴿إلاَّ خساراً﴾ أي تخسيراً وغبناً.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أنعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ﴾، أي إذا وسعنا على الكافر الرزقَ ورفعنا عنه العذاب في الدنيا، ﴿أعْرَضَ﴾ عن الدعاء. ويقال: النعمة هي إرسال محمد ﷺ، أعرض عنه الكافر. ﴿وَنأَى بِجَانِبِهِ﴾، يعني: تباعد عن الإيمان فلم يقرّبه. قرأ ابن عامر: ﴿وَنَاءَ﴾ بمد الألف على وزن باع؛ وقرأ أبو عمرو بنصب النون وكسر الألف، وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون والألف، وقرأ الباقون بنصب النون. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾، يعني: إذا أصابه الفقر في معيشته والسقم في الجسم، كان آيساً من رحمة الله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾؛ قال القتبي: أي: على خليقته وطبيعته وهو من الشكل. وقال الحسن: ﴿على شاكلته﴾ أي: على نيّته، وكذلك قال معاوية بن قرة. وقال الكلبي: على ناحيته ومنهاجه وحديثه وأمره الذي هو عليه. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾، أي بمن هو أصوب ديناً، ويقال: هو عالم بمن هو على الحق.

Marfat.com

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي لا علم لي فيه. وقال مجاهد: الروح خلق من خلق الله تعالى، له أيدٍ وأرجل. وقال مقاتل: الروح ملك عظيم على صورة الإنسان، أعظم من كل مخلوق. وروى معمر، عن قتادة والحسن أنهما قالا: هو جبريل. وقال قتادة: كان ابن عباس يكتمه، أي يجعله من المكتوم الذي لا يفسر.

وروى الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه. فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فقام متوكئاً على عسيب، فظننت أنه يوحى إليه فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه»(١).

ويقال: الروح القرآن كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٧] وروي بعض الرواة، عن ابن عباس قال: «الروح ملك له مائة ألف جناح، كل جناح لو فتحه يأخذ ما بين المشرق والمغرب» ويقال: إن جميع الملائكة تكون صفاً واحداً والروح وحده يكون صفاً واحداً، كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨] ويقال: معناه ﴿يسألونك عن الروح﴾ الذي هو في الجسد، كيف هو؟ قل: ﴿الروح من أمر ربي﴾ ويقال: الروح جبريل؛ كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] أي يسألونك عن إتيان جبريل كيف نزوله عليك؟ ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي ما أعطيتم من العلم مما عند الله إلا قليلاً.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن من قلبك؛ ويقال: ﴿لئن شئنا﴾ لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر. ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ أي لا تجد من تتوكل عليه في ردّ شيء منه، ويقال: ثم لا تجد لك مانعاً يمنعني من ذلك. ﴿إلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين. وروى أبو حازم، عن أبي هريرة أنه قال: «سيؤتى على كتاب الله، فيرفع إلى السماء فلا تصبح

---

(١) حديث ابن مسعود: أخرجه البخاري (١٢٥) و(٤٧٢١) و(٧٢٩٧) ومسلم (٢٧٩٤) (٣٣) (٣٤) والترمذي (٣١٤١) وأحمد: ١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

Marfat.com

على الأرض من آية من القرآن، وينزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو»، وروي عن ابن مسعود أنه قال: «يصبح الناس كالبهائم». ثم قرأ: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ الآية.

ثم قال: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾، أي بالنبوة والإسلام.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، أي بمثل هذا القرآن على نظمه وإيجازه ونسقه مع كثير مما ضمن فيه من الأحكام والحدود وفنونها. ويقال: مثل هذا القرآن من تعرّيه عن التناقض مع كثرة الأقاصيص والأخبار. ويقال: ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾، لأن فيه علم ما كان وعلم ما يكون، ولا يعرف ذلك إلا بالوحي. ويقال: ﴿بمثل هذا القرآن﴾، لأنه كلام منثور لا على وجه الشعر، لأن تحت كل كلمة معاني كثيرة. ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾، أي معيناً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي بينًا للناس منه من كل لون: من الحلال والحرام، والأحكام والحدود، والوعد والوعيد. ﴿فأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾، أي ثباتاً على الكفر، ويقال: أبوا عن الشكر ﴿إلاَّ كفوراً﴾، أي كفراناً مكان الشكر، ويقال: لم يقبلوه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَن نُؤْمِنَ لَكَ﴾؛ أي لن نصدقك، وهو عبد الله بن أمية المخزومي وأصحابه، قالوا للنبي ﷺ: ﴿لَن نُؤْمِنَ لَكَ﴾. ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ أي عيوناً. قرأ أهل الكوفة، عاصم وحمزة والكسائي ﴿تَفْجُرَ﴾ بنصب التاء وجزم الفاء وضم الجيم مع التخفيف، وقرأ الباقون: ﴿تُفَجِّرَ﴾ بضم التاء، ونصب الفاء مع التشديد. وقال أبو عبيدة: هذا أحب إليّ، لأنهم اتفقوا في الذي بعده، ولا فرق بينهما في اللغة. فمن قرأ بالتشديد فللتكثير والمبالغة، كما يقال: قتلوا تقتيلاً للمبالغة.

ثم قال: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾، أي بستان ﴿مِن نَخِيلٍ وعِنَبٍ﴾، أي الكروم. ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ﴾، أي تشقق الأنهار ﴿خِلالَهَا﴾، وسطها. ﴿تفجيراً﴾، أي تشقيقاً. ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾، أي قطعاً. قرأ ابن عامر وعاصم ونافع ﴿كِسَفاً﴾ بنصب السين، وقرأ

Marfat.com

الباقون بالجزم؛ ومعناهما واحد، أي: تسقط علينا طبقاً، واشتقاقه من كسفت الشيء، إذا غطيته. ومن قرأ بالنصب، جعلها جمع كسْفة وهي القطعة ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾، أي ضميناً وكفيلاً، والقبيل: الكفيل. ويقال: من المقابلة، أي معايناً شهيداً، يشهدون لك بأنك نبي الله. ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾، أي من ذهب. ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾، أي تصعد إلى السماء. ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾، أي لصعودك. ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتاباً نَقْرَؤُه﴾.

روى أسباط، عن السدي أنه قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أمية المخزومي أخو أم سلمة، فأبى أن يبايعهما، فقالت أم سلمة: ما بال أخي يكون أشقى الناس بك يا رسول الله وابن عمك؟ فقال: «**أَمَّا ابْنُ عَمِّي، فَإِنَّهُ كَانَ يَهْجُونا، وأمَّا أَخُوكِ، فَإِنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ لا يُؤْمِنُ بِي حَتَّى أَرْقَى السَّمَاءِ، وَلَوْ رَقِيتُ إِلَى السَّمَاءِ لَنْ يُؤْمِنَ حَتَّى آتِيَهُ بِكِتَابٍ يَقْرَؤُهُ**». ثم دعاهما، فقبل منهما وبايعهما[1].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾، فإني لا أقدر على ما تسألوني. قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿قَالَ سُبْحَانَ﴾ على وجه الحكاية، وقرأ الباقون: ﴿قُلْ سُبْحَانَ﴾ على وجه الأمر.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾، يعني: أهل مكة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى﴾، يعني: القرآن ومحمد ﷺ. ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾، يعني: الرسول من الآدميين، ومعناه: أنه ليست لهم حجة سوى ذلك القول.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾، أي لو كان سكانُ الأرض ملائكة يمشون ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾، أي مقيمين في الأرض ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾، أي لبعثنا عليهم رسولاً من الملائكة، وإنما يبعث الملك إلى الملائكة والبشر إلى البشر، فلما قال لهم ذلك قالوا له: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأني رسول الله ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) عزاه السيوطي ٥/٣٣٩ إلى سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

Marfat.com

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ الله فهو المتهدي﴾ أي: من يكرمه الله تعالى بالإسلام ويوفقه، فهو على الهدى والصواب. قرأ نافع وأبو عمرو ﴿المهتدي﴾بالياء عند الوصل، وقرأ الباقون بغير ياء. ﴿وَمَن يُضلِلْ﴾ أي يخذله عن دينه، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أي يهدونهم من الضلالة. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي نبعثهم يوم القيامة ونسوقهم منكبين على وجوههم، يسحبون عليها ﴿عُمْياً وبُكماً وصُمّاً﴾عن الهدى، ويقال: في ذلك الوقت يكونون عمياً وبكماً وصماً كما وصفهم. ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ يقول: كلما سكن لهبها ولم تجد شيئاً تأكله، ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي وقوداً، وأعيدوا خلقاً جديداً. قال مقاتل: أن النار إذا أكلتهم فلم تبقَ منهم غير عظام وصاروا فحماً، سكنت النار فهو الخبو. يقال: أخبت النار إذا سكن اللهب، وإذا بقي في جمرها شيء، ويقال: خمدت وانطفأت ثم بدلوا جلوداً غيرها، فتشتعل وتسعر عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿زدناهم سعيراً﴾ وقال أهل اللغة: وإذا لم يبق من جمرها شيء، يقال همدت.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي ذلك العذاب عقوبتهم وجزاء أعمالهم. ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَقَالُوا ائِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ أي تراباً. ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾بعد الموت.

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أو لم يخبروا في القرآن؟ ﴿أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ قادرٌ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ﴾ يقول: لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائن. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلاّ كُفُوراً﴾ أي أبى المشركون عن الإيمان، ولم يقبلوا إلاّ الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ يقول: لو تقدرون على مفاتيح رزق ربي، ﴿إذاً لأمسكتم﴾ يقول: لبخلتهم وامتنعتم عن الصدقة ﴿خَشْيَةَ الإنفاقِ﴾ أي مخافة الفقر. ﴿وَكَانَ الإنسانُ قَتُوراً﴾ أي ممسكاً بخيلاً. قال الزجاج هذا جواب لقولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]وقال بعضهم: هذا ابتداء وصف بخلهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي

Marfat.com

﴿لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، أي علامات واضحات مضيئات بالحجة عليهم وهاديات، إذ جاءهم موسى بالبينات. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن ابن عباس في قوله: ﴿تسع آيات بينات﴾، وهي في سورة الأعراف ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] قال: «السنين لأهل البوادي، والنقص من الثمرات لأهل القرى، فهاتان آيتان. والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهذه خمس ويد موسى إذ أخرجها بيضاء من غير سوء، وعصاه إذ ألقاها فإذا هي ثعبان مبين».

قال الفقيه: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا أبو موسى محمدبن إسحاق وخزيمة قالا: حدّثنا علي بن حزم قال: حدّثنا علي بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن صفوان بن عسال قال: «قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي فنسأله عن هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بيِّنات﴾. فقال: لا تقل، فإنه لو سمعها صارت له أربعة أعين. فأتوه فسألوه، فقال: «**ألاَّ تُشرِكُوا بالله شَيئاً، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالحَقِّ، وَلا تَسْرِقُوا، ولاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلا تَسْحَرُوا، وَلا تَقْذِفُوا مُحْصَناً** ـ أو قال ـ: **ولا تَفِرُّوا يَوْمَ الزَّحْفِ**، ـ شكّ شعبة ـ **وَلا تَمْشُوا بَبرِيءٍ إلى سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ ألا تعدُوا فِي السَّبْتِ**». فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد إنك نبي الله ورسوله. فقال: «**وَمَا يَمْنَعُكُمَا أنْ تُسْلِمَا؟**» فقالا: لأن داود دعا ربه ألاّ يزال في ذريته نبي، فنخاف أن تقتلنا اليهود(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يعني: موسى. **﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾**؛ أي مغلوب العقل. **﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هؤلاءِ﴾**؛ الآيات. قرأ الكسائي: ﴿علمتُ﴾ بضم التاء، يعني: علمت أنا ما أنزل هؤلاء الآيات **﴿إلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ﴾**، يعني: إن لم تصدّقني، فأنا على يقين من ذلك. وقرأ الباقون بالنصب، يعني: إنك تعلم ذلك، كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤]. **﴿بَصَائِرَ﴾**، أي علامات لنبوتي. **﴿وَإنِّي لأظُنُّكَ﴾**، أي لأعلمنك **﴿يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾**، أي ملعوناً هالكاً. قال الحسن: ﴿مثبوراً﴾ أي مُهلَكاً، وكذا قال قتادة. وروى مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: ﴿مثبوراً﴾ ملعوناً، وكذا رُوي عن الكلبي والضحاك.

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٣٤٤ إلى الطيالسي وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجة وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

Marfat.com

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

وقال: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الأَرْضِ﴾، أي يَسْتَنْزِلَهُمْ ويخرجهم، ويقال: أي يستخفهم من الأرض، يعني: من أرض الأردن وفلسطين ومصر. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، الذين مع موسى: ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾، أي انزلوا أرض الأردن وفلسطين ومصر. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾، أي البعث بعد الموت، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾؛ أي جميعاً. واللفيف: الجماعة من كل قبيلة.

قوله عز وجل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي أنزلنا عليك جبريل بالقرآن. ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، أي بالقرآن نزل جبريل؛ ويقال: أنزلناه بالحق والحكمة والحجة.

ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً﴾ بالجنة للمؤمنين ﴿وَنَذِيراً﴾ بالنار للكافرين.

وقال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾، حين أنزلنا به جبريل متفرقاً آية بعد آية، وسورة بعد سورة. ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، أي على ترسل، ومهل ليفهموه ويحفظوه. وكان ابن عباس يقرأ: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أي بيّنا فيه الحلال والحرام. ويقال: أنزلناه متفرقاً. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾، أي بيّناه بياناً.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ﴾، أي صدقوا بالقرآن. ﴿أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا﴾، يعني: أو لا تصدقوا، ومعناه: إن صدقتم به أو لم تصدقوا، فإنه غني عن إيمانكم وتصديقكم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾، يعني: أعطوا علم كتابهم وهم مؤمنو أهل الكتاب من قبله أي من قبل القرآن. ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾، أي يعرض عليهم القرآن عرفوه. ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾، أي يقعون على الوجه ﴿سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾، أي تنزيهاً لربنا. وقال الكلبي: أي نصلي لربنا. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ وقد كان وعد ربنا ﴿لمفعولاً﴾ أي: كائناً مقدوراً.

وقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾، أي يقعون على الوجوه. ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾،

Marfat.com

أي تواضعاً ومذلة. ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾؛ قال الكلبي: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في بدىء ما نزل من القرآن، وقد كان أسلم ناس من اليهود منهم عبد الله بن سلام وأصحابه، وكان ذكره في التوراة كثيراً، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزل: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾. قرأ حمزة والكسائي: ﴿قُلِ ادْعُوا الله أو ادعُوا الرحمن﴾ بكسر اللام والواو، وقرأ أبو عمرو بكسر اللام وضم الواو وقرأ الباقون بالضم، ومعناهما واحد. ﴿أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني: بأي الاسمين تدعون، فهو حسن ﴿فله الأسماء الحسنى﴾، أي له الصفات العلى.

قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ كان بمكة، وكان يصلي بأصحابه، فإذا رفع صوته، أذاه المشركون، وإذا خفض لا يسمع صوته الذين خلفه، فأنزل الله تعالى ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾، أي بقراءتك فيؤذيك المشركون ﴿ولا تخافت بها﴾ في جميع الصلوات، يعني: لا تسرّ قراءتك فلا يسمع أصحابك قراءتك. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾؛ أي اجهر في بعض الصلوات، وخافت في البعض.

ثم قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾؛ قال الكلبي: وذلك أنه لما نزل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾، قالت كفار قريش: كان محمد يدعو إلهاً واحداً، وهو اليوم يدعو إلْهَيْن، ما نعرف الرحمن إلاّ مسليمة الكذاب. فنزل: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾، يعني: ذكر الرحمن، وأمره بأن يقول: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، أي لم يتخذ ولداً فيرث ملكه، ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ فيعارضه في عظمته. وقال أبو العالية: معناه، وقل الحمد لله الذي لم يجعلني ممن يتخذ له ولداً، ولم يجعلني ممن يقول له شريك في الملك. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾، أي من اليهود والنصارى، وهم أذل خليقة الله تعالى، يؤدون الجزية. وقال مقاتل: معناه لم يذل فيحتاج إلى ولي يعينه، أي لم يكن له ولي ينتصر به من الذل.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾، أي عظِّمه تعظيماً، ولا تقل له شريك. وروى إبراهيم بن الحكم، عن أبيه أنه قال: بلغني أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رجل كثير الدين، كثير الهم. فقال له النبي ﷺ: «اقْرَأْ آخِرَ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ حَتَّى تَخْتِمَهَا، ثُمَّ قُلْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ».

Marfat.com

سورة الكهف
مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن
لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)
وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾

قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ لله﴾، يقول: الشكر لله، والألوهية لله. ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتابَ﴾، أي أنزل على عبده محمداً ﷺ القرآن. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾، أي لم ينزله متناقضاً. ﴿قَيِّماً﴾، بل أنزله مستقيماً. ويقال: في الآية تقديم، ومعناه: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً أي مستقيماً، ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ أي لم ينزله مخالفاً للتوراة والإنجيل. قال أهل اللغة: ﴿عوجاً﴾ بكسر العين في الأقوال وبنصب العين في الأشخاص ويقال: في كلامه عِوج، وفي هذه الخشبة عَوج. ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾، أي لينذركم ببأس شديد، كما قال: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي بأوليائه وهذا قول القتبي وقال الزجاج: أي لينذرهم بالعذاب البئيس. ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾، أي من قبله، ويقال: ﴿لينذر بأساً شديداً﴾، أي يخوفهم بالعذاب الشديد بما في القرآن ﴿مِنْ لَدُنْه﴾، أي من عنده. قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿من لدْنه﴾ بجزم الدال، وقرأ الباقون بالضم، ومعناهما واحد. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بالجنة.

ثم وصف المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، فيما بينهم وبين ربهم. ثم بيّن الذي يبشرهم به، فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ أجراً حَسَناً﴾ في الجَنَّة، ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾؛ أي مقيمين في الثواب والنعيم خالداً مخلداً و﴿مَاكِثِينَ﴾ منصوب على الحال في معنى خالدين.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾، أي يخوف بالقرآن الذين قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾، وهم المشركون والنصارى. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي ليس لهم بذلك القول بيان ولا حجة، ﴿وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾؛ أي ولا حجة لآبائهم الذين مضوا، فأخبر أنهم أخذوا دينهم من آبائهم بالتقليد لا بالحجة والبيان، لأنهم قالوا كان آباؤنا على هذا. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، أي عظمت الكلمة. قرأ الحسن

Marfat.com

بالضم، ومعناه: عظمت كلمة وهي قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[البقرة: ١١٦] ﴿كلمة﴾ ﴿تخرجُ مِن أَفْوَاهِهِمْ﴾، فصارت نصباً بالتفسير. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِباً﴾، أي ما يقولون إلا كذباً.

وقال: ﴿فَلَعلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾، أي قاتل نفسك أسفاً وحزناً ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾، أي على أعمالهم. ﴿إِن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾، أي بهذا القرآن أسفاً، والأسف: المبالغة في الحزن والغضب، وهو منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾، أي ما على وجه الأرض من الرجال زينة لها، أي للأرض. ويقال: جعلنا ما على الأرض من النبات والأشجار والأنهار زينة لها، أي للأرض ﴿لِنَبْلُوَهُم﴾، أي لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، أي أخلص، ويقال: أيهم أخلص في الزهد في الدنيا وأتركُ لها. ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾، أي ما على الأرض في الآخرة من شيء من الزهرة. ﴿صَعِيداً جُرُزاً﴾، أي تراباً أملس لا نبات فيه. وقال القتبي: الصعيد المستوي قال: ويقال وجه الأرض، ومنه يقال للتراب صعيد، لأنه وجه الأرض، والجرز الذي لا نبات فيه. يقال: أرض جرز وسنة جرز، إذا كان فيه جدوبة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾، أي غار في الجبل ﴿والرَّقِيمِ﴾ الكتاب. وقال قتادة: دراهمهم، وقال عكرمة، عن ابن عباس قال: «كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين، وحنان، والأواه، والرقيم»، وقال القتبي: ﴿الرقيم﴾ لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف، ونصب على باب الكهف. ﴿والرقيم﴾ الكتاب، وهو فعيل بمعنى مفعول ومنهُ: كِتَابٌ مَرْقُومٌ أي مكتوب. وقال الزجاج: هو اسم الجبل الذي فيه الكهف، وقال كعب الأحبار: ﴿الرَّقِيمُ﴾ اسم القرية.

روي عن ابن عباس: أن قريشاً اجتمعوا، وكان فيهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، وأبو جهل بن هشام، وأمية وأبي أبناء خلف، والأسود بن عبد المطلب، وسائر قريش، فبعثوا منهم خمسة رهط إلى يهود يثرب ـ أي يهود المدينة ـ فسألوهم عن محمد وعن أمره وصفته، وأنه خرج من بين أظهرنا ويزعم أنه نبي مرسل، واسمه محمد، وهو فقير يتيم. فلما قدموا المدينة، أتوا أحبارهم وعلماءهم، فوجدوهم قد اجتمعوا في عيد لهم، فسألوهم عنه ووصفوا لهم صفته، فقالوا لهم: نجده في التوراة كما وصفتموه لنا، وهذا زمانه، ولكنْ سلوه عن ثلاث خصال، فإن أخبركم بخصلتين ولم يخبركم بالثالثة، فاعلموا أنه نبي فاتبعوه، فإنا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء الخصال، فلم يدر ما هن، وقد زعمتم أنه يتعلم من مسيلمة

Marfat.com

الكذاب. سلوه عن أصحاب الكهف، أي: قصوا عليه أمرهم، وسلوه عن ذي القرنين إن كان ملكاً وكان أمره كذا وكذا، وسلوه عن الروح، فإن أخبركم عن قليل أو كثير فهو كاذب، ففرحوا بذلك. فلما رجعوا وأخبروا أبا جهل، ففرح وأتوه فقال أبو جهل: إنا سائلوك عن ثلاث خصال، فسألوه عن ذلك، فقال لهم: «ارجعوا غداً أخبركم» ولم يقل: إن شاء الله. فرجعوا ولم ينزل عليه جبريل إلى ثلاثة أيام وفي رواية الكلبي: إلى خمسة عشر يوماً(1)، وفي رواية الضحاك: إلى أربعين يوماً، فجعلت قريش تقول: يزعم محمد أنه يخبرنا غداً بما سألناه، وقد مضى كذا وكذا يوماً. فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل، فقال لجبريل: «لقد علمتَ ما سألني عنهُ قومي، فلمَ أبطأتَ علي؟» فقال: أنا عبد مثلك ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]؛ وقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]. وكان المشركون يقولون: إن ربه قد ودعه وأبغضه، فنزل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] ونزل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾. فلما قرأ عليهم، قالوا: هذان ساحران، يعني: محمداً وموسى عليهما السلام ولم يصدقوه. وقوله: ﴿عجباً﴾ يقول هم عجب، وأمرهم أعجب، وغيرهم مما خلقت أعجب منهم: الشمس والقمر والجبال والسموات والأرض أعجب منهم.

ثم بيَّن أمرهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾، أي صاروا إليه وجعلوه مأواهم. والفتية: جمع فتى، غلام وغلمة، وصبي وصبية. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾، أي ثبتنا على الإسلام. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾، أي هب لنا من أمرنا مخرجاً.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾، أي أنمناهم وألقينا عليهم النوم؛ وقال الزجاج: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: منعناهم أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه. ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾؛ ويراد بذكر العدد التأكيد، لأن الكثير يحتاج أن يعد، وإنما صار نصباً لأنه مصدر.

قال ابن عباس في حديث أصحاب الكهف أنه قال: «إن مدينة كانت بالروم ظهر عليها ملك من الملوك يقال له دقيانوس، غلب على مدينتهم وأرضهم، وكانت المدينة تسمى أفسوس، فجعل يدعوهم إلى عبادة الأوثان ويقتلهم على ذلك، فمن كفر بالله واتبع دينه تركه. فهدى الله شاباً من أهل تلك المدينة إلى دين الإسلام، فجعل يدعوهم سراً حتى تابعه على ذلك سبعة أغلمة، ففطن لهم الملك، فأرسل إليهم وأخذهم ودفعهم إلى آبائهم يحفظونهم حتى يرسل

(١) عزاه السيوطي: ٥/٣٣٧ إلى ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

Marfat.com

إليهم من يطلبهم من آبائهم. فأرسل إليهم فهربوا، فقالت آباؤهم: والله لقد خرجوا من عندنا بالأمس، فما ندري أين هم. فمروا بغلام راعٍ ومعه كلب له، فدعوه إلى أمرهم فأعجبه ذلك، فتابعهم عليه. فمضى معهم واتبعه كلبه، حتى أتوا غاراً، أي: كهفاً فدخلوا فيه. ثم أرسلوا بعضهم إلى السوق، ليشتري لهم طعاماً من السوق، فركب الملك والناس معه في طلبهم وهم يسألون عنهم. فسمع رسولهم بذلك، فعجَّل أن يشتري لهم كل الذي أرادوا. فاشترى بعضه، وأتاهم فأخبرهم أن الملك والناس في طلبهم، فأكلوا ما أتاهم به ولم يشبعوا. ثم ناموا على وجوههم، فضرب الله على آذانهم بالنوم سنين عدداً.

وسار الملك والناس معه، حتى انتهوا إلى باب الكهف، فوجدوا آثارهم داخلين ولم يجدوا آثارهم خارجين. فدخلوا الكهف، فأعمى الله عليهم، فطلبوهم فلم يجدوا شيئاً. فقال الملك: سدوا عليهم باب الكهف حتى يموتوا فيه، فيكون قبرهم إن كانوا فيه، ثم انصرف الملك والناس معه. فعمد رجلان مسلمان يكتمان إيمانهما إلى لوح من رصاص، فكتبا فيه أسماء الفتية وأسماء آبائهم ومدينتهم، وأنهم خرجوا فراراً من دقيانوس الملك الكافر. فمن ظهر عليهم، يعلم بأنهم مسلمون، وألْزَقَاهُ في السد من داخل الكهف».

وقال في رواية السدي، في قصة أصحاب الكهف: «كان في المدينة فتية ليس منهم أحد يعرف صاحبه، فخرج ملكهم مخرجاً له وخرج الفتية ومنهم واحد له كلب، وليس منهم أحد إلا وهو يقول في نفسه: إن رأيت أحداً استضعفت، دعوته إلى الإيمان بالله. فلما رجع الناس، تخلف الفتية فاجتمعوا على باب المدينة، وقد أغلق الباب دونهم، فطلبوا أن يدخلوا فلم يفتح لهم. فقال بعضهم: إني أسر إليكم أمراً، فإن تابعتموني عليه رشدتم. فقص عليهم أمره، فقالوا جميعاً: نحن على هذا فذلك. قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية، فصاروا إلى الكهف فدخلوه ورقدوا فيه، ورقد الكلب بفناء الكهف، فضرب الله على آذانهم بالنوم. فلما فقدهم أهلوهم، انطلقوا إلى الملك فأخبروه، فدعا بصخرة، فكتب فيها أسماءهم وكتب فيها أنهم هلكوا في زمن كذا، ثم ضربها في سور المدينة على الباب، وهو الرقيم.

وفي رواية وهب بن منبه قال: «جاء حواريّ من حواريي عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى مدينة أصحاب الكهف، فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له. فكره أن يدخلها، وأتى حماماً كان قريباً من تلك المدينة، فكان يعمل فيه يعني: أنه أجَرَ نفسه من صاحب الحمام، فرأى صاحب الحمام في حمامه البركة، ودر عليه الرزق، واجتمع إليه فتية من أهل المدينة، فكان يخبرهم بخبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه. وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة، فكانوا في ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة، فدخل بها الحمام، فماتا في الحمام جميعاً. فأتي الملك، فقيل له: صاحب الحمام قتل ابنك:

Marfat.com

فالتمسه، فلم يقدر عليه. فقال: من كان يصحبه؟ فسموا الفتية، فالتمسوهم فخرجوا من المدينة. فمروا بصاحب لهم في زرع له، وكان على مثل أمرهم، فذكروا له أنهم التمسوا. فانطلق معهم ومعه الكلب، حتى آواهم الليل إلى الكهف، فدخلوه وقالوا: نبيت ها هنا الليلة، ثم نصبح إن شاء الله، فترون رأيكم. فضرب على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم، حتى وجدوا آثارهم وقد دخلوا الكهف، فلما أراد رجل منهم أن يدخل الكهف، أرعب فلم يطق أحد أن يدخل عليهم، فقال له قائل: ألست لو كنت قدرت عليهم قتلتهم؟ فسدَّ عليهم باب الكهف ودعْهم حتى يموتوا عطشاً وجوعاً، ففعل ذلك.

ثم إن راعياً احتاج أن يبني حظيرة لغنمه، فهدم ذلك السد وبنى عليه لغنمه، فصار باب الكهف مفتوحاً. وكلما غزا ملك تلك المدينة فظهر عليها، أظهر علامته. إن كان مسلماً أظهر علامة المسلمين، وإن كان كافراً أظهر علامة المشركين. ثم مات دقيانوس، وملك ملك آخر مسلم، فأظهر علامة المؤمنين بالمدينة، وكان يقال له: ستفاد الملك.

ثم إن أصحاب الملك استيقظوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فنظر واحد منهم إلى الشمس وقد دنت إلى الغروب ويقال: عند زوال الشمس، فقال: ﴿كم لبثتم؟﴾ ﴿قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾. فقال كبيرهم: لا تختلفوا، فإنه لم يختلف قوم إلا هلكوا. ثم قال: الآخرون: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[الكهف: ١٩]، أي أحلُّ وأطهر، لأنهم كانوا يذبحون الخنازير. فدفعوا الدراهم إلى رجل يقال له تمليخا.

فخرج تملينا، فلما انتهى إلى باب الكهف، رأى حجارة مكسرة على بابه فقال: إن هذا شيء ما رأيناه بالأمس. فلما خرج أنكر الطريق، فدنا إلى باب المدينة فلم يعرفها. فلما دخل المدينة لم يعرف أحداً من الناس، فأشكل عليه فقال: لعل هذه غير تلك المدينة. فسأل إنساناً، فقال: أي مدينة هذه؟ فقال: أفسوس. فقال: لقد أصابني شر أو تغير عقلي، فهذه مدينتنا ولا أعرفها، ولا أعرف أحداً من أهلها. فأخرج الدراهم، وجاء إلى الخباز ودفعها إليه. فأخذ الخباز الدراهم فأنكرها، وقال: من أين لك هذه الدراهم؟ لقد وجدت كنزاً لتخبرني وإلا رفعتك إلى الملك.

وكان كل ملك يحدث بعد آخر، تضرب دراهم على سكته وختمه، فمن وجد معه دراهم غير تلك الدراهم، علم أنه كنز. فلما وجدوا معه تلك الدراهم، قالوا: هذا كنز. فقال: هذه الدراهم ما أخرجت من المدينة إلا أمس. فظن الخباز أنه يتجانن عليه ليرسله، فقال له: لقد علمت أنك تتجانن علي، لا أرسلك حتى تعطيني من هذا الكنز، وإلا رفعتك إلى الملك.

فاجتمع الناس عليه وذهبوا به إلى الملك، فجعل تمليخا يبكي خوفاً من الملك، وأن يرفع إلى ملكهم الجبار الذي فرّ منه. فلما أدخل على غيره سكن، فقال له الملك: من أين لك هذه الدراهم؟ فقال: خرجت بها عشية أمس أنا وأصحاب لي فراراً من دقيانوس الملك. فقال: إنك

Marfat.com

رجل شاب، وذلك الملك قد مضى عليه دهر طويل، فما أنا بالذي أرسلك، حتى تخبرني من أين لك هذه الدراهم؟ فقص عليه أمره وأمر أصحابه، فقال أُنَاسٌ من المسلمين قد أخبروا بقصتهم: أن آباءنا أخبرونا أن فتية قد خرجوا بدينهم وهم مسلمون فراراً من دقيانوس الملك، وإنا والله لا ندري ولعله صادق، فاركبْ وانظر لعله شيء أراد الله أن يظهرك عليه، أو يكون في ولايتك. فركب الملك وركب معه الناس، المسلم والكافر، حتى انتهوا إلى الكهف. فلما رأى أصحابه الناس قد انتهوا إليهم، عانق بعضهم بعضاً يبكون ولا يشكون، إلا أنه الملك الجبار الكافر. فقال لهم تمليخا: امكثوا حتى أدخل أولاً، فدخل عليهم، فأخبرهم بالقصة».

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «دخل عليهم الملك والناس، فسألوهم عن أمرهم، فقصوا عليهم قصتهم، فنظروا فإذا اللوح الرصاص الذي كتبه المسلمان فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم، فقال الملك: هم قوم هلكوا في زمن دقيانوس، وأحياهم الله في زماني، فلم يبق أحد من الكفار مع الملك إلا أسلموا كلهم إذا رأوهم. فبينما هم يتحدثون، إذ ماتوا كلهم».

وقال في رواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «إن القوم لما انتهوا إلى الكهف، قال لهم الفتى: مكانكمْ حتى أدخل على أصحابي، لا تهجموا عليهم فيفزعوا منكم. فدخل فعمي عليهم المكان، فلم يدروا أين ذهب، ولم يقدروا على الدخول عليهم، فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾، فجعلوا عليهم مسجداً وصاروا يصلون فيه، فذلك قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾، أي: أيقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾، يعني: أي الفريقين المسلم والكافر ﴿أحصى﴾، أي أحفظ. ﴿لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾، يعني: لما مكثوا أجلاً. وكان المسلمان كتبا في اللوح، فظهر لهم مقدار ما لبثوا فيه، ولم يعلم الكفار مقدار ذلك؛ ويقال: ﴿أي الحزبين﴾، يعني: الذين كانوا مؤمنين قبل ذلك، والذين أسلموا في ذلك الوقت، ويقال: أي الفريقين أصدق قولاً، لأنهم قد اختلفوا في البعث: منهم من كان ينكر ذلك، فظهر لهم أن البعث حق.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ﴾، أي ننزل عليك في القرآن خبر الفتية ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي بالصدق. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، أي صدقوا بتوحيد ربهم. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدى﴾، أي يقيناً وبصيرة في أمر دينهم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

Marfat.com

وقال عز وجل: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي حفظنا قلوبهم على الإيمان: وقيل: ألهمناهم الصبر حتى ثبتوا على دينهم. ﴿إِذْ قَامُوا﴾ من نومهم: ويقال: قاموا بإثبات الحجة، ويقال: خرجوا من عند الملك. ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً﴾، أي لم نقل من دون الله رباً وإن فعلنا ﴿فقد قلنا إذاً شططاً﴾، أي كذباً وجوراً. ويقال: ﴿شططاً﴾، أي علواً، يقال: قد أشط إذا علا في القول، أي جاوز الحد. ﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾، أي عبدوا. ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، يعني: هلا يأتون بحجة بينة على عبادة آلهتهم. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾، أي اختلق ﴿عَلَى الله كَذِباً﴾ أن له شريكاً.

ثم قال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾، يقول بعضهم لبعض: لو تركتموهم ﴿وما يعبدون إلا الله﴾ يعني: لو تركتم ما يعبدون فلا يعبدون إلا الله. ويقال: لو اعتزلتم عبادتهم إلا الله، يعني: قولهم: الله خالقنا، ويقال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾؛ هذا قولهم، ثم قال حكاية عن قولهم، فقال: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله﴾ يعني: أصحاب الكهف. ﴿فَأْووا إِلَى الْكَهْفِ﴾، أي فارجعوا إلى الكهف، ويقال: فادخلوا الكهف. ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَحْمَتِهِ﴾، أي يهب لكم ربكم من نعمته، ويقال: يبسط لكم من رزقه. ﴿وَيُهَيِّىءْ لَكُم مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾، أي يجعل لكم من أمركم الذي وقعتم فيه ما يرفق بكم ويصلحكم؛ ويقال: مخرجاً ونجاة ورزقاً.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾، أي تميل وتنحرف عن كهفهم. ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾، أي تجاوزهم. ويقال: تتركهم وتمر بهم، وأصل القرض: القطع، ومنه سمي المقراض. ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾، أي شمال الكهف. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾، أي في ناحية من الغار، ويقال: في متسع منه. فأخبر أنه بوأهم كهفاً مستقبلاً بنات نعش، والشمس تميل عنه وتستدبر طالعة وغاربة، ولا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها، ولا يحلفهم سمرمها فيغير ألوانهم وتبلى أبدانهم، وكانوا في متسع منه ينالهم نسيم الريح، وينفي عنهم غمة الغار، والغمة: الهواء العفن، ويجوز الرفع النصب ﴿في فجوة منه﴾ الغار وكربه.

قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾، أي: ذلك الخبر والذكر، ويقال: ذلك الذي فعل بهم واختار لهم المكان الموافق من عجائب الله ولطفه وكرمه. ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾، أي من يوفقه الله للهدى فهو المهتدي. ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾، أي موفقاً يرشده إلى

Marfat.com

التوحيد. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفِقاً﴾ بنصب الميم وكسر الفاء، والباقون بكسر الميم ونصب الفاء ومعناهما واحد، وهو ما يرتفق به. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿تَزَّاوَرُ﴾ بتشديد الزاي مع الألف، لأن أصله: تتزاور أي: تميل، فأدغم وشدد الزاي. وقرأ ابن عامر ﴿تَزْوَرُّ﴾ بجزم الزاي وتشديد الراء، ومعنى ذلك كله واحد وهو الميل.

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾، لأن عيونهم كانت مفتحة، ويقال: من كثرة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾؛ وذلك أن جبريل عليه السلام كان يقلبهم في كل سنة مرة لكيلا تأكل الأرض لحومهم، وهو قول ابن عباس. وقال مجاهد: مكثوا ثلاثمائة عام على شق واحد، وقلبوا في التسع سنين. ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾، أي ماداً ذراعيه بفناء الباب. ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾، أي لو هجمت عليهم اليوم، لأدبرت فراراً من هيبتهم.

وروى سعيد بن جابر، عن ابن عباس أنه قال: «غزا معاوية غزوة نحو الروم، فمروا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشفنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس: قد منع الله ذلك عمن هو خير منك، يعني: قال للنبي ﷺ ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾؛ فقال معاوية: «لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث أناساً، فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف، فلما ذهبوا ودخلوا، بعث الله تعالى ريحاً فأخرجتهم».

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾، أيقظناهم من نومهم. ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾، ليتحدثوا. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، أي: كم مكثتم في نومكم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً﴾. فلما رأوا الشمس قد زالت قالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾. وروى مجاهد، عن ابن عباس قال: «كانت دراهم أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل». قرأ ابن كثير ونافع ﴿وَلَمُلِّئْتَ﴾ بتشديد اللام، وهي لغة لبعض العرب، وقرأ الباقون بالتخفيف، وهما لغتان. وقرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿بورْقكم﴾ بجزم الراء، وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان.

Marfat.com

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾، أي أطيب خبزاً أو أحل ذبيحة، وهذا قول ابن عباس، ويقال: أي أهلها أزكى طعاماً. وقال عكرمة: أي أكثر وأرخص طعاماً. ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾، أي بطعام مِنْهُ. ويُقَالُ: ﴿أزكى طعاماً﴾ أي: لم يكن غصباً. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: وليرفق في السؤال. ﴿وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أحداً﴾، أي لا يُعلمن بمكانكم أحداً من الناس. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، يعني: إن يطلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، يقتلوكم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾، أي لن تفوزوا، ولن تسعدوا إذاً أبداً إن عبدتم غير الله تعالى.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يقول: أطلعنا الملك عليهم. قال القتبي: وأصله في اللغة أن من عثر بشيء، نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير العثار مكان التبين والظهور ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾، يعني: البعث بعد الموت. وذلك أن القوم كانوا مختلفين، منهم من كان مقراً بالبعث، ومنهم من كان جاحداً، فلما ظهر حالهم، عرفوا أن البعث حق وأنه كائن. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، يعني: إذ يختلفون فيما بينهم، وقال بعضهم: اختلفوا في عددهم؛ وقال بعضهم: اختلفوا، فقال المؤمنون: فيما بينهم نبني مسجداً وقالت النصارى: نبني كنيسة، فغلب عليهم المسلمون وبنوا المسجد. فذلك قوله: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾، أي مسجداً. ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي عالم بهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾، الذين كانوا على دين أصحاب الكهف وهم المؤمنون. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾؛ قال الزجاج: فيه دليل أنه ظهر أمرهم، وغلب الذين أقروا بالبعث على غيرهم، لأنهم اتخذوا مسجداً، والمسجد للمسلمين.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُم﴾؛ قال بعضهم: اختلفوا في أمرهم ويقال: هذا الاختلاف في زمن النبي ﷺ. فاختلفوا وذلك أن أهل نجران: السيد والعاقب ومن معهما، قدموا على رسول الله ﷺ، فكان السيد صارماً يعقوبياً، والعاقب نسطورياً، وصنف منهم ملكانياً فسألهم النبي ﷺ عن عدة أصحاب الكهف، فقال السيد وأصحابه: ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي العاقب وأصحابه: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾، أي ظناً بالغيب. ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي صنف منهم: ﴿سَبعةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾؛ وهذا إخبار من الله تعالى أن عدتهم سبعة. قال ابن عباس وفي رواية أخرى أنه قال: «أظن القوم كانوا ثلاثة.

Marfat.com

قال واحد منهم: كم لبثتم؟ فقال الثاني: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فقال الثالث: ربكم أعلم بما لبثتم». وروي عن ابن عباس أنه قال: «إنهم سبعة وذكر أسماءهم فقال: مكسلمينا وهو أكبرهم، وتمليخا، ومطرونس، وسارينوس، ونوانس، وكفاشطهواس، وبطنبورسوس». وذكر في رواية وهب أسماؤهم بخلاف هذا إلا تمليخا، فقد اتفقوا على اسمه. وقال ابن عباس: «كان اسم الكلب قطمير» وقال سعيد بن جبير: كان اسمه فرفدين؛ ويقال: كان لونه خليج، ويقال: كان لونه غلبة بالفارسية ومعناه بالعربية أبلق، وقال بعض المحدثين: إن كلب أهل الكهف يكون معهم في الجنة، وقال بعضهم: يصير تراباً مثل سائر الحيوانات. وإنما الجنة للمؤمنين خاصة.

ثم قال عز وجل: ﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً﴾ قال قتادة: ﴿فلا تُمار﴾يقول: حسبك ما أعلمناك من خبرهم. ﴿وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي لا تسأل عن أصحاب الكهف من النصارى أحداً. ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾أردتُ أن أفعله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ يعني: إلا أن تستثني فتقول: إن شاء الله. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يعني: إذا نسيت الاستثناء، فاذكرها بعد ما ذكرت واستثن، وهذا في غير اليمين. وأما في اليمين، فاتفق الفقهاء من أهل الفتوى أن الاستثناء لا يكون موصولاً إلا رواية عن ابن عباس، روى عنه مجاهد قال: «يستثني الرجل في يمينه متى ذكر». ثم قرأ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وهذه الرواية غير مأخوذة.

وروى أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كَانَ لِسُلَيْمَانَ بنِ دَاودَ مِائَةُ امْرأَة، فَقَالَ: لأَطُوفَنَّ اللَّيلَةَ عَلَيهِنَّ جَمِيعاً وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَأْتِي بِغُلامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله، وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ الله، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِشَيْءٍ، إِلاَّ امْرأَةٌ وَاحِدَةٌ أَتَتْ بِشِقِّ غُلام. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ الله، لَوُلِدَ لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ دَرَكاً له فِي حَاجَتِهِ**».

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي﴾ أي: يرشدني ﴿لأَقْرَبَ﴾ أي: لأسرع ﴿مِنْ هَذَا﴾الميعاد الذي وعدت لكم، ﴿رشداً﴾ أي صواباً، وهذا قول مقاتل. وقال الزجاج: معناه عسى ربي أن يعطيني من الآيات والدلائل على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل على قصة أصحاب الكهف. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿أَنْ يَهْدِيَنِي﴾بالياء عند الوصل، وقرأ الباقون بحذف الياء.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾

قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كهفهم ثلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾قالت النصارى: أمّا ثلاثمائة فقد عرفنا، وأمّا تسعاً فلا علم لنا فيه، فنزل ﴿وازدادوا تسعاً﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ثَلاثَ مائةِ﴾بكسر الهاء بغير تنوين على معنى الإضافة، وقرأ الباقون بالتنوين. ﴿لَهُ غَيْبُ

Marfat.com

﴿السَّمواتِ وَالأَرضِ﴾، أي عالم بما لبثوا في رقودهم. وقال الكلبي: ﴿أَبصِرْ بِهِ وَأَسمِعْ﴾، أي هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ﴾؛ أي أصحاب الكهف. ﴿وَلاَ يُشرِكُ فِي حُكْمِهِ أحداً﴾؛ قرأ ابن عامر ﴿وَلاَ تُشرِكْ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء، ومعناه: أنه قد جرى ذكر علمه وقدرته، وأعلم أنه لا يشرك في حكمه أحداً. كما قال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، ومن قرأ بالتاء يقول: لا تنسبن أحداً إلى عالم الغيب، ومعناه: أنه لا يجوز لأحد أن يحكم بين رجلين بغير حكم الله تعالى، فيما حكم أو دلَّ عليه حكم الله، فليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

ثمّ قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِليكَ﴾، يقول: اقرأ عليهم الذي أنزل إليك ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾، يعني: القرآن. ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾؛ يقول: لا مغير لنزول القرآن ولا خلف له، ويقال: ولا ينقص منه ولا يزاد فيه. ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحداً﴾، أي لا ملجأ يمنعك منه، ويقال: ﴿ملتحداً﴾، أي: مانعاً يمنعك؛ ويقال: معدلاً. وإنما سمي اللحد لحداً، لأنه في ناحية، ويقال: معناه وإن زدت فيه أو نقصت منه، لن تجد من عذابه ملجأ. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، يقول: واحبس نفسك ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، أي يصلون لله تعالى ﴿بِالغَدَاة وَالعَشِيِّ﴾، يعني: الصلوات الخمس.

قال ابن عباس: «نزلت الآية في سلمان، وصهيب، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وعامر بن فهيرة، ونحوهم من الفقراء قالوا: بينا رسول الله ﷺ جالس ذات يوم، عنده سلمان على بساط منسّق بالخوص أي منسوج إذ دخل عليه عيينة بن حصن الفزاري، فجعل يدفعه بمرفقه وينحّيه، حتى أخرجه من البساط. وكان على سلمان شملة قد عرق فيها فقال عيينة: إنَّ لنا شرفاً، فإذا دخلنا عليك فأخرج هذا أو اضربه، فوالله إنه ليؤذيني ريحه، أما يؤذيك ريحه؟ فإذا خرجنا من عندك، فأدخلهم وأذن لهم بالدخول إن بدا لك أن يدخلوا عليك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً، فنزل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ. . .﴾ الآية ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي يطلبون رضاه.

وقال: ﴿وَلاَ تعد عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي لا تجاوزهم ويقال: لا تحتقرهم ولا تزدرهم. ﴿تُرِيدُ زينةَ الحَياةِ الدُّنْيا﴾، أي ما قال عيينة بن حصن الفزاري وأمثاله ﴿وَلاَ تطع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبه عَنْ ذِكْرِنَا﴾، أي عن القرآن. ﴿وَاتَّبع هَوَاهُ﴾ في عبادة الأصنام. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾، أي ضياعاً. وقال السدي: هلاكاً. قال أبو عبيدة: ندماً. وقال القتبي: أصله من العجلة والسبق. قال المفسرون: أي سرفاً. وقال الزجاج: تفريطاً وهو العجز.

Marfat.com

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُم﴾، أي: القرآن. ﴿فَمَن شاءَ فَلْيُؤمِن وَمَن شاءَ فَلْيكفُر﴾، أي: من شاء فليقل: لا إله إلا الله، ويقال: معناه من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر. ويقال: ﴿فمن شاء فليؤمن﴾ من لفظه لفظ المشيئة، والمراد به الأمر، يعني: آمنوا. ﴿ومن شاء فليكفر﴾ لفظه لفظ المشيئة والمراد به الخبر، ومعناه: ومن كفر. ﴿إنّا أعْتَدنَا للظّالِمينَ ناراً﴾، يعني: للكافرين ﴿أحَاطَ بِهِمْ سُرادِقُها﴾، يعني: أن دخانها محيط بالكافرين، قال الكلبي ومقاتل: يخرج عنق من النار، فيحيط بهم كالحظيرة.

ثم قال: ﴿وإن يَسْتَغيثُوا﴾ من العطش، ﴿يُغاثُوا بِماءٍ كَالمُهل﴾، أي أسودَ غليظاً كرديء الزيت، وهذا قول الكلبي والسدي وابن جبير. وروى عكرمة، عن ابن عباس مثله، ويقال: هو الصُفر المذاب، أو النحاس المذاب إذ بلغ غايته في الحر. وروى الضحاك، عن ابن مسعود: «أنه أذاب فضة من بيت المال، ثم بعث إلى أهل المسجد وقال: من أحب أن ينظر إلى المهل، فلينظر إلى هذا» وقال مجاهد: المهل القيح والدم الأسود كعكر الزيت. ﴿يَشوِي الوُجوهَ﴾، يعني: إذا هوى به إلى فيه أنضج وجهه. ﴿بِئسَ الشَّرابُ﴾ المهل. ﴿وَساءَتْ مُرتَفقاً﴾، يقول: بئس المنزل النار، رفقاؤهم فيها الشياطين والكفار. ﴿وَساءَتْ مُرتَفقاً﴾، أي مجلساً. وأصل الارتفاق: الاتكاء على المرفق.

قوله عز وجل: ﴿إنّ الّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ إنّا لا نُضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾، أي لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة.

ثم بيّن ثوابهم فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنّاتُ عَدْنٍ﴾، العدن: الإقامة، ويقال: العدن بُطنان الجنة، وهي وسطها ﴿تَجري مِن تَحْتِهِمُ الأنْهارُ يُحلَّوْنَ فِيهَا مِن أَساوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضراً مِن سُندُسٍ وَإستَبْرَقٍ﴾، السندس: ما لطف من الديباج، والاستبرق: ما ثخن من الديباج؛ وقال القتبي: يقول قوم: هو فارسي معرب، أصله استبرك، وقال الزجاج في قوله: ﴿إنّ الّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ﴾: يجوز أن يكون خبره: ﴿إنّا لا نُضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾، كأنه يقول: إنا لا نضيع أجرهم، ويحتمل أن يكون الجواب قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنّاتُ عَدْنٍ﴾ ويجوز أن يكون جوابه لم يذكر.

Marfat.com

وقد بيّن ثواب من أحسن عملاً في موضع آخر، وهو قوله: ﴿مِنهُمْ مَغفِرَة وَأجراً عَظِيماً﴾ وقوله ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، واحدها سوار والأسورة جمع الجمع. ﴿مُتكِئِينَ فيها عَلى الأرائِك﴾، أي على السرر في الحجال، ولا يكون أريكة إلا إذا اجتمعا على السرير والحجلة. ﴿نِعْمَ الثَّوابُ﴾ الجنة، ﴿وَحَسُنَتْ مُرتَفقاً﴾، أي: منزلاً في الجنة، قُرناؤهم الأنبياء والصالحون.

﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَاضرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَين﴾، أي صف لأهل مكة صفة رجلين أخوين من بني مخزوم، أحدهما: مؤمن واسمه أبو سلمة بن عبد الأسد، والآخر: كافر ويقال له أسود بن عبدالأسود وهما من هذه الأمة. وآخرين أيضاً من بني إسرائيل مؤمن وكافر، فالمؤمن: اسمه تمليخا، ويقال يهوذا، والكافر: اسمه أبو قطروس. هكذا روي عن ابن عباس، ويقال: هذا المثل لجميع من آمن بالله، وجميع من كفر به. وروي عن ابن مسعود أنه قال: «كانا مشركين من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فاقتسما فأصاب كل واحد منهما أربعين ألف درهم». وروي عن ابن عباس أنه قال: «كانا أخوين ورث كل واحد منهما من أبيه أربعة آلاف دينار، فالكافر أنفق ماله في زينة الدنيا، نحو شراء المنازل والخدم والحيوان، وأنفق المؤمن ماله في طاعة الله تعالى، وتصدق على الفقراء والمساكين». وذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جنتَين مِنْ أعنَاب﴾، أي بساتين. قال السدي: كان بستاناً واحداً عليه جدار واحد، وكان في وسطه نهر، فلذلك قال: ﴿جنتين﴾ لمكان النهر الذي بينهما، وسماه جنة للمكان الدائر الذي عليه. ﴿وحففناهما بنخلٍ﴾، يعني: الجنتين. ثم قال ﴿وَجَعلْنَا بَيْنَهُمَا زَرعاً﴾، أي مزرعاً يقال: كان حول البستان نخيل وأشجار، وداخل الأشجار كروم، وداخل الكروم موضع الزرع والرطاب ونحو ذلك. ﴿كِلتَا الجَنتَين آتتْ أكُلهَا﴾، أي أعطت وأخرجت حملها وثمارها. ﴿وَلَمْ تَظلِمْ مِنهُ شَيئاً﴾، أي لم تنقص من ثمر الجنتين شيئاً.

وقال الزجاج: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾، لأن لفظ كلتا واحد، والمعنى: أن كل واحدة منهما ﴿آتت أكلها﴾، يعني: أعطت وأخرجت حَملَهَا وثَمَرتَها ﴿وَلَمْ تَظلِمْ مِنهُ شَيئاً﴾، يعني: لم ينقص من ثمر الجنتين شيئاً، ولو قال: أتت، لكان جائزاً. ﴿وَفَجرْنا خِلالَهُمَا﴾، أي أجرينا وسطها ﴿نَهراً﴾، والنهر بنصب الهاء والجزم بمعنى واحد في اللغة، إلا أن قراءة النصب أصح.

وقال: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾، قرأ أبو عمرو ﴿ثمر﴾ بضم الثاء وجزم الميم، وقرأ الباقون غير عاصم بضم الثاء والميم، ومعناهما واحد، وقرأ عاصم بنصب الثاء والميم. فمن قرأ بالنصب، فهو ما يخرج من الشجر، ومن قرأ بالضم، فهو المال. يقال: قد أثمر فلان مالاً، ويقال: الثمر

Marfat.com

جمع ثمار، ويقال: ثمرة وثمار، وجمع الثمار ثمر. ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾، يعني: قال الكافر للمؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي يفاخره ويراجعه، وذلك أن أخاه احتاج فأتاه يسأله منه شيئاً، فلم يعطه شيئاً، وعاتبه بدفع ماله، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾، يعني: وأكثر خدماً.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

وقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾، وهو آخذ بيد أخيه المسلم. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالشرك، فمن كفر بالله فهو ظالم لنفسه، لأنه أوجب لها العذاب الدائم. ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾، لأن أخاه المؤمن عرض عليه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فأجابه الكافر: فـ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾، يعني: لن تفنى هذه أبداً. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي كائنة. ﴿وَلَئِنْ رُدِدتُ إِلَى رَبِّي﴾، أي إن كان الأمر كما يقول، ورجعت إلى ربي في الآخرة، ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ في الآخرة، أي مرجعاً. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿خَيْراً مِنْهُمَا﴾ لأنها كناية عن الجنتين، وقرأ الباقون ﴿منها﴾، لأنه كناية عن قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾، أي أخاه المسلم، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي يكلمه ويعظه في الله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾، يعني: آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾، يعني: خلقك معتدل القامة.

قوله: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾؛ قرأ ابن عامر ونافع في إحدى الروايتين ﴿لَكِنَّا﴾ بالألف وتشديد النون، لأن أصله: لكن أنا، فأدغم فيه. وقرأ الباقون ﴿لكن﴾، وفي مصحف الإمام ﴿لَكِنْ أَنَا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾، فهذا هو الأصل في اللغة، ومعناه: لكن أنا أقول هو الله ربي. ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾، يقول: فهلا إذ دخلت بستانك، ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾، يعني: بقوة الله أعطانيها لا بقوتي. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، لَمْ يرَ فِيهِ مَا يَكْرَهُ».

ثم قال: ﴿إِنْ تَرَنِ﴾، يعني: إن رأيتني ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ في الدنيا، ﴿فَعَسَى رَبِّي

Marfat.com

أن يُؤتِينِ خيراً مِن جَنّتِكَ﴾ هذه في الآخرة، ﴿وَيُرسِلَ عَلَيهَا﴾؛ أي على جنتك ﴿حُسْباناً مِنَ السَّماءِ﴾، أي ناراً من السماء، وهذا وقول الكلبي والضحّاك ومقاتل، وقال قتادة: ﴿حُسْبَاناً﴾، أي مراميَ واحدها حسبانة. وقال الزجاج: الحسبان أصله الحساب كقوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، أي بحساب، وهكذا قال هنا: ﴿حسباناً﴾ أي حساباً بما كسبت يداك. وقال بعض أهل اللغة: الحُسبان في اللغة سهم فارق وهو ما يُرمى به.

ثم قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾، أي فتصير تراباً أملس لا نبات فيها. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غوْراً﴾، أي غائراً، يقال: غار ماؤها فلم يقدر عليه ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾، أي حِيلَةً. ﴿وأحيط بثَمره﴾، أي: فأهلك جميع ماله، والاختلاف في الثمر كما ذكرنا. ﴿فَأَصبحَ يُقَلِّبُ كَفَّيهِ﴾ أي يصفق يده على الأخرى ندامة ﴿عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ من المال، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ أي ساقطة على سقوفها، ﴿وَيقُولُ﴾ في الآخرة: ﴿يَا لَيتَنِي لَمْ أُشرِكْ بِرَبِّي أحداً﴾ في الدنيا.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

وقال: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، أي جنداً وقوماً وأعواناً يمنعونه من عذاب الله. ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾، أي ممتنعاً هو بنفسه. قرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ بالياء بلفظ التذكير، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث وقال الزجاج: لو قال نصره، لجاز وإنما ينصره على المعنى، أي أقواماً ينصرونه.

﴿هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ لله الحَقّ﴾، أي عند ذلك وهو يوم القيامة، يعني: السلطان والحكم لله الحق لا ينازعه أحد في ملكه يومئذٍ، وهذا كقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. فمن قرأ ﴿الحقِّ﴾ بكسر القاف جعله نعتاً لله؛ ومن قرأ بالضم جعله نعتاً للولاية. قرأ حمزة ﴿هُنَالِكَ الوِلاَيَةُ﴾ بكسر الواو وضم القاف، وقرأ الباقون ﴿الوَلاَيَةَ لله الحَقُّ﴾ ﴿الولاية﴾ بنصب الواو وكسر القاف، وقال بعضهم: ﴿الولاية﴾ بالكسر والنصب لغتان، وقيل: بالكسر مصدر الوالي، يقال: والى بين الولاية، وبالنصب مصدر الولي بين الولاية. ﴿هُوَ خَيرٌ ثَواباً﴾، أي خير من أثاب العبد ﴿وَخَيرٌ عُقباً﴾، أي خير من أعقب. قرأ حمزة وعاصم ﴿عُقْباً﴾ بجزم القاف، وقرأ الباقون بضم القاف، ومعناهما واحد وهو العاقبة. فبيّن الله تعالى حال الأخوين في الدنيا وبيّن حالهما في الآخرة في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] إلى قوله: ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

ثم قال: ﴿وَاضرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا﴾، أي للمشركين، شبّه ما في الدنيا من الزينة

Marfat.com

والزهرة. ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، وهو المطر. ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾، أي اختلط الماء بالنبات، لأن الماء إذا دخل في الأرض ينبت به النبات، فكأنه اختلط به، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾. وفي الآية مضمر، ومعناه: فاختلط الماء بنبات الأرض فنبت وحسُن، حتى إذا بلغ أرسل الله آفة فأيبسته فصار هشيماً، أي صار يابساً متكسراً بعد حُسنه. قال القتبي: وأَصْلُهُ من هشمت الشيء إذا كسرته، ومنه سمي الرجل هاشماً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، أي ذرته الرياح كالرماد ولم يبق منه شيء، فكذلك الدنيا في فنائها وزوالها تهلك إذا جاءت الآخرة وما فيها من الزهرة. ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾، أي قادراً من البعث وغيره. قرأ حمزة والكسائي: ﴿الريح﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون ﴿الرياح﴾ بلفظ الجماعة.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي غروراً لا يبقى كما لا يبقى الهشيم حين ذرته الريح، وإنما يبقى في الآخرة. ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، أي الصلوات الخمس، هكذا روي عن أبي الهيثم ومسروق. وقال مسروق: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ هي الخمس صلوات، وهي الحسنات يذهبن السيئات، وكذلك قال ابن أبي مليكة. وروى سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد في قوله ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». وروي عن رسول الله ﷺ أنه خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ وَقَالَ خُذُوا جُنَّتَكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَمِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ، قَالَ: **لاَ بَلْ مِنَ النَّارِ**. قَالُوا: وَمَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: «**سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله والله أَكْبَرُ**». ويقال: كل طاعة يبقى ثوابها، فهي الباقيات الصالحات: الصلاة، والصدقة، والتسبيح، وجميع الطاعات. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾، أي خير من هذه الزينة والغرور عند الله تعالى، وخير ما يثبت الله العبد، ﴿وخير أملاً﴾ أي خير ما يوصل العبد الصلاة والتسبيح، أي: أفضل رجاء مما يرجو الكافر، لأن ثواب الكافر النار ومرجعه إلى النار.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾، أي نزيلها عن وجه الأرض ونسيرها كما نسير السحاب كقوله: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي ظاهرة من تحت الجبال، ويقال: ﴿بارزة﴾ أي خالية مما فيها من الكنوز والأموات، كما قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿وَيَوْمَ تُسَيَّرُ الْجِبَالُ﴾ بالتاء مع الضمة ونصب الياء وضم اللام، على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون: ﴿نُسَيِّرُ﴾ بالنون ونصب اللام، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾، أي لم نترك منهم أحداً ولا

Marfat.com

نخلف منهم أحداً. ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾، يقول: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤]، أي جميعاً.

يقول الله تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فرادى عراة حفاة، ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا أهل ولا مال. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾، أي قد قلتم في الدنيا: ﴿أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾، أي لن نبعثكم في الآخرة.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، أي وضع كتاب كل امرىء منهم بيمينه أو بشماله، ﴿فترى الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي المشركين والمنافقين والعاصين. ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أي خائفين مما في الكتاب من الإحصاء. ﴿وَيَقُولُونَ يَا وِيلتنا﴾، يا ندامتنا ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً﴾؟ يعني: الزلل والكبائر، ويقال: تبسماً وضحكاً، ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾؛ يقول: حفظها عليهم، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الكتاب ﴿حَاضِراً﴾ من خير أو شر مكتوباً. ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾، أي لا ينقص من ثواب أعمالهم ولا يزيد في سيئاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ الذين كانوا في الأرض مع إبليس: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قال بعضهم: كان أصله من الجن فلحق بالملائكة وجعل يتعبد معهم، وقال مقاتل: كان من الجن وهو جنس من الملائكة يقال لهم: الجن. روي عن ابن عباس: «أنه كان من الملائكة الذين هم خزّان الجنان»، ويقال: ﴿كان من الجن﴾ أي: صار من الجن، كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، أي تعظم من طاعة ربه وخرج عن طريق ربه. يقال: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾؟ أفتطيعونه وتتركون أمر الله، ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟ أي أعداء، كقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾، أي بئس ما استبدلوا عبادة الشيطان بعبادة الله تعالى، ويقال: بئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

Marfat.com

ثم قال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أي ما استعنت بهم على خلق السموات والأرض، يعني: إبليس وذريته ﴿وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي ولا استعنت بهم على خلق أنفسهم. ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾، أي ما كنت أتخذ الذين يضلون الناس عوناً يعني: الشياطين، ﴿عَضُداً وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾، أي لعبده الأوثان وهو يوم القيامة ﴿نادوا شركائي﴾ أي: ادعوا آلهتكم، ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم لي شركاء، ليمنعوكم مني من عذابي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾، يعني: الآلهة، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهم﴾؛ أي لم يجيبوهم. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾؛ قال مجاهد: وادٍ في جهنم، وهكذا قال مقاتل، وقال القتبي: أي مهلكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم، ومنه يقال: أوبقته ذنوبه ويقال: موعداً، وقال الزجاج: وجعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، أي وجعلنا بينهم وبين شركائهم الذين أضلوهم ﴿موبقاً﴾ أي مهلكاً. قرأ حمزة ويوم ﴿نَقُولُ﴾ بالنون وقرأ الباقون بالياء.

ثمّ قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾، أيْ رآها المشركون من مكان بعيد، ﴿فَظَنُّوا﴾؛ أي علموا واستيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾، أي داخلوها، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي معدلاً ولا ملجأ ولا مفراً يرجعون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾، أي بيّنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي من كل وجه ونوع ليتعظوا فلم يتعظوا، ويقال: بينا من كل وجه يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ من أمر الباطل، يعني: من أمر البعث مثل أبيّ بن خلف وأصحابه.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن محمد الصاعد قال: حدثنا العباس بن محمد الدّوري قال: حدثنا محمد بن بشر قال، حدثنا الحجاج بن دينار قال، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ**». والدليل على أن الإنسان أراد به الكافر، ما قال في سياق الآية ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ...﴾ الآية.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾؛ يقول: لم يمنع المشركون أن يصدقوا. ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾، يعني: الرسول والكتاب والدلائل والحجج، قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾، أي وما منعهم من الاستغفار والرجوع عن شركهم، ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾، أي عذاب الأمم الخالية. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾، أي عياناً بالسيف. قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿قُبُلاً﴾ بضم القاف والباء، وقرأ الباقون بكسر القاف ونصب الباء. فمن قرأ بالضم فهو بمعنى: فعل من

Marfat.com

قبل، أي مما يقابلهم، ويجوز أن يكون جمع قبيل، هو أن يأتيهم العذاب أنواعاً، ومن قرأ بالكسر معناه: عياناً.

وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾، أي للمؤمنين بالجنة، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾؛ أي للكافرين بالنار ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي يخاصموا بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي ليزيلوا ويذهبوا به ﴿الْحَقَّ﴾ ومنه يقال: حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ، إذا زالت عن المحجّة وقال مقاتل: ﴿ليدحضوا به﴾ أي ليبطلوا به الحقّ، يعني: القرآن والإسلام، يعني: يريدون أن يفعلوا إن قدروا عليه. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾، يعني: القرآن ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾، أي وما خوفوا به ﴿هُزُواً﴾ أي سخرية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي فلا أحد أظلم، ويقال: أشد في كفره ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِهِ﴾، أي وعظ بالقرآن، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾. يقول: فكذب بها ولم يؤمن بها، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي نسي ذنوبه التي أسلفها. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أي جعلنا أعمالهم على قلوبهم أكنة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي لكيلا يعرفوه ولا يفهموه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾، أي صمماً وثقلاً مجازاة لكفرهم. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾، أي إلى الإسلام، ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾؛ أي لن يؤمنوا. ﴿إِذاً أَبداً وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾، أي المتجاوز إن رجعوا. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي بتأخير العذاب عنهم، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِما كَسَبُوا﴾؛ أي لو يعاقبهم بكفرهم، ﴿لَعَجَّلَ لَهُم الْعَذَابَ﴾ في الدنيا، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾، أي أجلاً. ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾، أي ملجأ يلجؤون إليه ولا منجى منه.

قوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾، أي أهلها يعني: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، يعني: القرون الماضية حين أقاموا وثبتوا على كفرهم. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾، أي لهلاكهم أجلاً يهلكون فيه. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿لِمَهلَكهم﴾ بنصب الميم واللام، وقرأ عاصم في رواية حفص: بنصب الميم وكسر اللام، وقرأ الباقون: بضم الميم ونصب اللام، ومعنى ذلك كله واحد. قال الزجاج: يكون للمصدر، ويجوز للوقت. وإن كان مصدراً، فمعناه: جعلنا لوقت هلاكهم أجلاً. وإن كان للوقت فمعناه: جعلنا لوقت هلاكهم أجلاً.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ

Marfat.com

أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾، أي لتلميذه وهو يوشع بن نون. وقال أهل الكتاب: إنما هو موسى بن إفراتيم بن يوسف بن يعقوب، وذكر عن القتبي أنه قال: زعم أهل التوراة أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وقال عامة المفسرين: هو موسى بن عمران الذي هو أخو هارون.

قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الخليلبن أحمد قال: حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا الأوزاعي، عن الزهري، عن عبيد الله بن منبه: أن ابن عباس تمارى هو وجبر بن قيس الفزاري في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إليه، قال ابن عباس: «هو الخضر»، إذ مر أبي بن كعب، فناداه ابن عباس فقال: تماريت أنا وهذا في صاحب موسى، فقال: سمعت رسول الله ﷺ **«بَيْنَا مُوسَى فِي مَلإٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْكَ؟ فَقَالَ: لا، فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ بَلْ عَبْدِي الخَضِرُ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لِقَائِهِ، فَجَعَلَ الله لَهُ الحُوتَ آيَةً. فَقَالَ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا ما قَصَّ الله تَعَالَى فِي القُرْآنِ»**.

وروى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوف البكالي زعم أن موسى نبي بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر، فقال ابن عباس: «كذب عدو الله، أخبرنا أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: **«قَامَ مُوسَى خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ»**، وذكر نحو الحديث الأول»[1].

وروى أسباط، عن السدي قال: بلغنا أن موسى بن عمران نبي الله خطب خطبة فأبلغ فيها، فدخله بعض العجب، وتعجبت بنو إسرائيل لبلاغته، فقالوا: يا نبي الله هل تعلم أحداً أبلغ منك؟ فأوحى الله تعالى إليه أن لي عبداً في الأرض هو أعلم منك فاطلبه قال: وما علامته؟ قال: تنطلق معك بزاد، فإذا تعبت في سفرك أي أعييت وفقدت زادك، فعند ذلك تلقاه. فانطلق موسى وفتاه يوشع بن نون وحملا معهما خبزاً وحوتاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ﴾. قال الكلبي: وإنما سماه موسى فتى لأنه كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه، وكان يوشع من أشراف بني إسرائيل، وهو الذي استخلفه موسى على بني إسرائيل. وقال مقاتل: كان فتاه يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى من سبط يوسف.

---

(١) عزاه السيوطي: ٤٠٩/٥ إلى البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي.

Marfat.com

قوله: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾، أي بحر الملح، وهو بحر فارس وبحر الروم والبحر العذب؛ وقد قيل: معناه آتي الموضع الذي يجتمع فيه بين العالمين يعني: موسى والخضر، وهما بحران في العلم. والتفسير الأول أصح، لأنه ذكر بعد هذا حديث البحر. ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾، أي زماناً ودهراً. وقال الكلبي: الحقب الواحد ثمانون سنة. ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، أي موسى ويوشع بن نون مجمع البحرين، جلسا على شاطىء البحر فأصابا من طعامهما ونام موسى، وجعل يوشع يتوضأ من عين على شاطىء البحر، فانتضح من ذلك الماء على الحوت، الملحُ فحيي فعاش الحوت، وكانت تلك العين عين الحياة لا تصيب شيئاً إلا عاش، فوثب الحوت في الماء، فجعل الحوت يضرب بذنبه في الماء، فلا يضرب في ذنبه في الماء إلا يبس. فأراد يوشع أن يخبر موسى بذلك، فلما استيقظ موسى نسي يوشع أن يخبر موسى، فذلك قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ يعني: أن يوشع نسي أن يخبر موسى عن خبر الحوت. ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾؛ قال الفراء: أي أخذ طريقه يبساً، وقال القتبي: اتخذ طريقه في البحر مذهباً ومسلكاً، فذهبا عن ذلك الموضع في غدوتهما، حتى أصابهما التعب ولم ينصب موسى في سفره حتى كان يومئذٍ، فنصب فقال لفتاه يوشع.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ يوشع: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾، أي مشقة وتعباً. ﴿قَالَ﴾ يوشع لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾، أي حين نزلنا عند الصخرة، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾؛ يقول: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت. ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك وأمره. ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾، أي طريقه ﴿عَجَباً﴾، قال بعضهم: ﴿عَجَباً﴾ هو من كلام موسى، وقال بعضهم: من كلام يوشع قال: ﴿عجباً﴾ وذلك أن يوشع لما أخبره، فقال موسى عجباً فكأنه قال: أعجبُ عجباً. وقال بعضهم: هو كلام يوشع ﴿قَالَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ أي يبساً وذلك حين يبس له الماء وأثره في الماء.

فـ﴿قال﴾ موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أي نطلب من حاجتنا. ﴿فَارْتَدَّا﴾، أي رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾، يقتصان أثر طريقهما الذي جاء فيه. وإنما سمي قاصاً، لأنه يقص أثر الأمم، ومعناه: أنهما رجعا في الطريق الذي سلكاه، فلما انتهيا إلى الصخرة حيث قام الحوت، أراه يوشع مكان الحوت وأثره في الماء، فعجب موسى من أثره، فأبصر رجلاً عند الصخرة قائماً يصلي وعليه مدرعة صوف وكساء صوف. فلما فرغ من صلاته، قال موسى: السلام عليك. فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل. قال: ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ قال: أخبرني الذي أخبرك بمكاني، فذلك قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي أعطيناه النبوة، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾؛ أي علم بعض الكوائن. روي عن رسول الله ﷺ في قصة الخضر، في بعض الأخبار فقال: «كَانَ ابْنَ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ، فَأَرَادَ أَبُوهُ أَنْ يَسْتَخْلِفَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ وَهَرَبَ مِنْهُ وَلَحِقَ بِجَزَائِرِ الْبَحْرِ، فَطَلَبَهُ أَبُوهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ».

Marfat.com

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

ثم قال: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، أي أصحبك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾، أي هدى وصواباً. قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿رَشَداً﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بالضم، وأختلف عن عاصم ونافع، ومعناهما واحد. فقال له الخضر: إن لك فيما في التوراة كفاية من طلب العلم في بني إسرائيل وفضل، وإنك سترى مني أشياء تنكرها، ولا ينبغي للرجل الصالح أن يرى شيئاً منكراً لا يغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ إنك لَنْ تَسْتَطِيعَ معِي صبْراً﴾، يعني: إنك ترى مني أشياء لا تصبر عليها. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبراً﴾؟ أي ما لم تعلم به علماً. ويقال: معناه كيف تصبر على ما ظاهره منكر؟ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمراً﴾، أي لا أترك أمرك فيما أمرتني. ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿فإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾، أي صحبتني ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ فعلت، ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي حتى أخبرك منه خبراً، يعني: إن أنكرته فلا تعجل عليّ بالمسألة. فأمر موسى يوشع أن يرجع إلى بني إسرائيل، وأقام موسى مع الخضر.

قرأ نافع ﴿فَلاَ تَسْأَلَنّي﴾ بتشديد النون مع إثبات الياء والتشديد للتأكيد للنهي، وقرأ ابن عامر ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّ﴾ بتشديد النون بغير ياء، لأن الكسرة تدل عليه، وقرأ الباقون ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾ بالتخفيف وإثبات الياء، وقرأ بعضهم بالتخفيف بغير ياء.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

ثمّ قال: ﴿فَانْطَلَقَا﴾، يعني: موسى والخضر. وذلك أن موسى رد يوشع إلى بني إسرائيل وذهب موسى مع الخضر. ﴿حَتَّى إذا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾. وذلك أنهما لما أتيا السفينة: قال أهل السفينة؛ لا يدخل علينا هذان الرجلان، فإنا لا نعرفهما ونخاف على متاعنا منهما. فقال الملاح: بل سيماهما سيما الزهاد، فحملهما في السفينة بغير نول أي مجاناً. فأخذ الخضر فأساً لما ركبا السفينة، وجعل يثقب السفينة ويخرقها. فقال أهل السفينة: الله الله لا تخرق سفينتنا فنغرق. فقال موسى: حملنا بغير نول وتخرق السفينة وتغرق أهلها؟ فذلك قوله؛ ﴿حَتَّى إذا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ ﴿خَرَقَهَا﴾، أي ثقبها. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. قرأ حمزة والكسائي ﴿لِيُغْرِقَ﴾ بالياء والنصب ﴿أَهْلُهَا﴾ بضم اللام، وقرأ الباقون بالتاء والضم وكسر الراء والنصب في اللام. فمن قرأ بنصب التاء فالأهل هو المفعول. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾، أي

Marfat.com

منكراً شديداً. قال القتبي: ﴿إِمْراً﴾ أي: داهية وكذلك ﴿نُكراً﴾، إلا أن النكر أشد استعظاماً بالعين وإنكاراً بالقلب.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قالَ﴾ له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً﴾. روي عن ابن عباس أنه قال: قال له موسى: يا عبد الله، إنه لا يحل لك أن تخرق سفينة القوم فتغرقهم. فلم يكلمه الخضر، وجعل يخرق السفينة حتى خرقها، فتنحى موسى وجلس فقال: وما كنت أصنع إنْ أتبعْ هذا الرجل يظلم هؤلاء القوم، وقد كنت في بني إسرائيل أقرأ عليهم كتاب الله غدوة وعشية، ويقبلون مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم. فقال الخضر: يا موسى، أتدري ما حدثْتَ به نفسك؟ فقال موسى: ما هو؟ قال الخضر: قلت: كنتُ في بني إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية، يقبلونه مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم. ثمّ قال له: ﴿ألم أقل لك إنك لا تستطيع معي صبراً﴾.

قال: فجاء عصفور فوقع على جانب السفينة، فنقر من البحر نقرة من الماء ثمّ طار، فقال الخضر: والله ما ذهبت أنا وأنت من العلم في علم الله تعالى، إلا مثل ما يغرف هذا العصفور من الماء من هذا البحر. ﴿قالَ﴾ موسى: ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، أي بما تركت من وصيتك. وقال ابن عباس: هذا من معاريض الكلام، لأن موسى لم ينس، ولكن قال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ يعني: إذا كان مني نسيان فلا تؤاخذني به. ﴿وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾، يعني: لا تكلفني من أمري شدة. ﴿فَانطَلَقَا﴾، أي خرجا من السفينة ومضيا، ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً﴾؛ قال الكلبي: كان اسمه خشنوذ. وقال غيره: كان اسمه خربث بن كاذرى فقتله، أي أخذ برأسه قرعه. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: كان رجلاً، إلا أنه لم يهتك بعد، وكان كافراً يقطع الطريق». وقال سعيد بن جبير في رواية ابن عباس: كان صبياً غير مدرك فمر بغلمان يلعبون، فأخذ برأس غلام منهم فقطعه. وقال في بعض الروايات: خنقه، فذلك قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾. وروي أن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس أن النبي نهى عن قتل الصبيان في دار الحرب، وأن صاحب موسى قد قتل صبياً فكتب إليه ابن عباس: «إنك لو علمت من الصبيان ما علم صاحب موسى، جاز لك أن تقتلهم».

﴿قالَ﴾ له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي طاهرة بغير ذنب؟ ويقال: ﴿زكية﴾ لم تجن عليك ﴿بغير نفس﴾ يقول: بغير دم وجب عليها. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿زاكية﴾ بالألف، وقرأ الباقون بغير ألف، ومعناهما واحد، مثل قاسية وقسية، وقال

Marfat.com

القتبي الزكية المطهرة التي لم تذنب قط. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكراً﴾ ، أي منكراً، أي أمراً فظيعاً. قال القتبي: إنما قال ها هنا ﴿نكراً﴾ ، لأن قتل النفس أشد استعظاماً من خرق السفينة. وقال الزجاج: ﴿نكراً﴾ أقل من إمراً، لأن إغراقه من في السفينة كان أعظم عنده من قتل النفس الواحدة.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ ؛ وقد زاد هنا ﴿لك﴾ للتأكيد، قيل: لأنه قد سبق منه الزجر مرة. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ ، يعني: إن طلبت صحبتك فلا تتابعني؛ وقد قرىء ﴿فَلاَ تَصْحَبْنِي﴾ أبداً. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لدُنِّي عُذْراً﴾ ؛ يقول: قد أعذرت فيما بيني وبينك في الصحبة.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ؛ قال ابن عباس: وهي أنطاكية، ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ ، أي: استضافا، قال بعضهم: سألاهم، وقال بعضهم: لم يسألاهم، ولكن كان نزولهما بين ظهرانيهم بمنزلة السؤال منهما. ﴿فَأَبوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ، يعني: لم يطعموهما. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً﴾ يعني: في تلك القرية. ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ وهذا كلام مجاز، لأن الجدار لا يكون له إرادة، ومعناه: كاد أن يسقط، ﴿فَأَقَامَهُ﴾ يعني: سواه الخضر. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيهِ أَجْراً﴾ ، أي جعلاً خبزاً تأكله. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لَتَخِذْتَ﴾ بغير ألف وكسر الخاء، والباقون ﴿لاتَّخَذْتَ﴾ ومعناهما واحد. وقرأ نافع ﴿مِنْ لَدُنِي﴾ بنصب اللام وضم الدال وتخفيف النون، وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو ﴿مِنْ لدُنّي﴾ بتشديد النون وهي اللغة المعروفة، والأول لغة لبعض العرب. واختلف الروايات عن عاصم. ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ، أي هذا شرط الفراق بيني وبينك، وأنت حكمت على نفسك. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ ، أي بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ ، أي تعلم ما رأيتني أصنع فأنكرت لتعرف أهلها وتأويله:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي يؤاجرون في البحر ويكسبون قوتهم، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ؛ أي أجعلها معيبة، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ ، أي: أمامهم

Marfat.com

ملك. روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ ملك»: ﴿يأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾؛ وكان ابن مسعود يقرأ أيضاً: «كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غصباً». أي: كل سفينة بغير عيب. وكان اسم الملك جَلَندى، يعني: أنها لو كانت بغير عيب أخذها الملك، فإذا كانت مع العيب تبقى للمساكين. قال الفقيه أبو الليث: فيه دليل أن للوصي أن ينقض مال اليتيم إذا رأى فيه صلاحاً، وهو أنه لو كانت له دار نفيسة، فخاف أن يطمع فيها بعض السلاطين، فأراد أن يخرب بعضها ليبقيها لليتيم جاز. وروي عن أبي يوسف: أنه كان يجيز مصانعة الوصي في مال اليتيم، وهو يدفع من ماله شيئاً إلى السلطان ليدفعه عن بقية ماله.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

ثم قال ﴿وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾، أي يقول: يكلفهما ﴿طُغْيَاناً وَكُفراً﴾، يقول: تمادياً وإثماً ومعصية. ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿يُبَدِّلَهُمَا﴾ بتشديد الدال، وقرأ الباقون بالتخفيف، ومعناهما واحد. يقال: بدّل وأبدل بمعنى واحد أي: يعطيهما ولداً غير هذا الولد ﴿رَبُّهُمَا خيراً مِنْهُ﴾، أي أفضل. ﴿زَكَاةً﴾، أي ولداً صالحاً. ﴿وأقربَ رُحْماً﴾، أي أوصل رحماً، ويقال: رحماً. ويقال: أقرب رحمة وعطفاً عليهما. قال الكلبي: فولدت امرأته جارية فتزوجها نبي من الأنبياء، فهدى الله على يده أمة من الأمم.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامينِ يَتِيمَينِ فِيَ الْمَدِينَةِ﴾ أحدهما أصرم والآخر صريم، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾ قال الكلبي: أي مالاً لهما، وقال مقاتل ومجاهد: كل شيء في القرآن من كنز فهو مال غير ههنا، فإنه الصحف التي فيها علم. وقال الضحاك: ﴿كنز لهما﴾ أي علم لهما.

قال الفقيه: حدثني أبي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**وجدَ تحتَ الجدارِ الذي قالَ الله تعالى ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾ لوحٌ من ذهب والذهب لا يصدأ ولا ينقصُ مكتوبٌ فيه بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، عجبتُ لمَنْ يُوقِنُ بالموتِ كيفَ يفرحُ، وعجبتُ لمَنْ يوقِنُ بالقدرِ كيفَ يحزنُ، وعجبتُ لمَنْ يوقِنُ بزوالِ الدنيا وتقلّبِها بأهلِها كيف يطمئِنُّ إليها، لا إله إلا الله محمد، رسول الله**». روي عن ابن عباس أنه قال: «**كان في اللوح خمس كلمات**»، وذكر نحوه.

قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ ذا أمانة واسمه كاشح، فحفظا بصلاح أبيها ولم يذكر منهما

Marfat.com

صلاحاً. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تَعالَى لَيُصْلِحُ بِصَلاحِ الرَّجُلِ أهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَأهْلَ دُوَيْرَتِهِ وَأهْلَ الدُّوَيْرَاتِ حوله». ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾، أي يبلغا مبلغ الرجال، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي نعمة من ربك. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي من قبل نفسي ولكن الله أمرني به. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾، أي تفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾. تستطع وتسطع بمعنى واحد، يقال: اسطاع واستطاع.

قال الفقيه رضي الله عنه: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد الدوري قال: حدّثنا الحجاج الأعور قال: حدّثنا حمزة الزيات، عن أبي إسحق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ «إذا دَعا لأحدٍ بَدَأَ بنفسه وقال: «رَحْمَةُ الله عَلَيْنا وَعَلَى مُوسَى فَلَوْ كَانَ صَبَرَ لَقَصَّ الله عَلَيْنا مِنْ خَبَرِهِمَا»[1]. وفي رواية أخرى: «لَقَصَّ اللّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا العَجَائِبَ» فلما أراد موسى أن يرجع، قال للخضر: أوصني. فقال له الخضر: «إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيِّر الخطائين بخطاياهم، وأبكِ على خطيئتك يا ابنَ عمرانٍ». قال مجاهد: إنما سمي الخضر خضراً، لأنه لا يكون بأرض إلا اخضرت.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾، وكان اسمه اسكندر. وروي عن وهب بن منبه أنه قيل له: لم سمي ذا القرنين؟ فقال: «اختلف فيه أهل الكتاب، فقال بعضهم: لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: لأنه كان في رأسه شبه القرنين، وقال بعضهم: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، فسماه الملك الذي عند قاف ذا القرنين، ويقال: رأى في المنام أنه دنا من الشمس وأخذ منها، فقصَّ رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين»، وقال الزجاج: «سمي ذا القرنين لأنه كان له ضفيرتان». وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: «ضرب على قرني رأسه، وقيل: لأنه بلغ قطر الأرض»؛ وقال عكرمة: «كان ذو القرنين نبياً، ولقمان نبياً»، والخضر نبياً، وروى مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «كان ذو القرنين نبياً»، وروي عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين، فقال: كان رجلاً صالحاً، وهكذا قال ابن عباس وجمعة من الصحابة: «أن ذا القرنين كان رجلاً صالحاً، ولقمان كان رجلاً حكيماً»،

(١) حديث أبي بن كعب: أخرجه البخاري (١٢٢) و(٣٤٠٠) و(٤٧٢٥) و(٤٧٢٧) ومسلم (٢٣٨٠) (١٧١) وأبو داود (٢٩٨٤).

Marfat.com

وروي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن ذي القرنين فقال: «هو ملك يسيح في الأرض» وقال مجاهد: ملك الأرض أربعة، اثنان مؤمنان واثنان كافران. أما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران فالنمروذ بن كنعان وبختنصر.

قال تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾، أي: خبراً وعلماً من الله تعالى. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾، أي ملكناه وأعطيناه ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾، أي علماً. ويقال: أعطيناه علم الوصول إلى كل شيء يحتاج إليه من الحروف وغيرها، ويقال: علماً بالطريق ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾، أي أخذ طريقاً فسار إلى المغرب، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿حَامِيَةٍ﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿حَمِئَةٍ﴾ بغير ألف. فمن قرأ ﴿حَامِيَةٍ﴾ يعني: جائرة، ومن قرأ بغير ألف يعني: من طينة سوداء منتنة. وروي أن معاوية قرأ ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ فقال ابن عباس: ما نقرؤها إلا حمئة، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال: كما قرأتها. قال ابن عباس: «في بيتي نزل القرآن»، فبعث معاوية إلى كعب يسأله: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ قال: «في ماء وطين وقال: في مدرة سوداء». قال القتبي ﴿حَمِئَةٍ﴾ ذات حمات، والحامية حارّة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿فاتّبع﴾ بتشديد التاء وكذلك ما بعده، وقرأ الباقون فأتبع بنصب الألف وجزم التاء بغير تشديد.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾، أي عند العين التي تغرب فيها الشمس مؤمنين وكافرين، فظهر عليهم. ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾؛ قال مقاتل: أوصى الله تعالى إليه، وقال ابن عباس: ألهمه الله تعالى. ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾، يعني: أن تقتل من كان كافراً ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾، يعني: تنعم عليهم وتغفر لمن كان مؤمناً. وقال بعضهم: كانوا كلهم كفاراً، قيل له: إما أن تعذب من لم يؤمن، وإما أن تتخذ فيهم حسناً لمن آمن.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، أي كفر بالله، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: نقتله إن لم يتب. ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ في النار ﴿عَذَاباً نُّكْراً﴾؛ يقول شديداً. ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ يقول: صدق بالله، ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى، ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿جَزَاءً﴾ بنصب الألف والتنوين، وقرأ الباقون

Marfat.com

بضم الألف بغير تنوين. فمن قرأ بالنصب فمعناه: أن له الحسنى جزاءً، صار الجزاء نصباً للحال. ومن قرأ بالضم جزاءً للإضافة، بغير جزاء إحسانه. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾، أي سنعد له في الدنيا معروفاً عدة حسنة معروفة، ويقال: وسنقول له قولاً جميلاً.

ثمّ قال: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾، أي أخذ طريقاً. وقال القتبي: السبب أصله الحبل، ثمّ كل شيء توصلت به إلى موضع أو حاجة فهو سبب. تقول: فلان سببي إليك، أي وصلتي، وتسمى الطريق سبباً، لأنه يصل إلى الموضع الذي يريده.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾، أي لم يكن لهم من دون الشمس شيء يظلهم، لا شجر ولا جبل ولا ثوب، إلا عراة عماة عن الحق؛ وكانوا في مكان لا يستقر عليه البناء وقال قتادة: يقال إنهم الزنج، وكانوا في مكان لا ينبت فيه نبات، وكانوا يدخلون سرباً إذا طلعت الشمس، حتى تزول عنهم ويخرجون في معايشهم. ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا بلغ مطلع الشمس أيضاً، كما بلغ مغربها.

ثم استأنف فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾، أي بما عنده علماً. وهذا قول مقاتل ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أخبرتك بهذا الخبر، كذلك كان علمنا محيطاً به قبل ذلك. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾، أي أخذ طريقاً.

ثمّ قال: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، أي بين الجبلين، قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿السُّدَّيْنِ﴾ بضم السين وكذلك الثاني، والذي في سورة يس، وروى حفص عن عاصم: أنه نصب كله، وابن كثير وأبو عمرو نصبا هاهنا ورفعا في يس، وحمزة والكسائي رفعا بين السدين ونصبا ما سوى ذلك. وقال بعض أهل اللغة: ما كان مسدوداً خلقة فهو سَد بالنصب، وما كان بعمل الناس فهو سُدٌ بالضم، وروي عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: إن المراد هاهنا طرفا الجبل. ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾، أي من قبل الجبلين ﴿قَوْماً لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾، أي كلاماً غير كلامهم ولساناً غير لسانهم. قرأ حمزة والكسائي ﴿يُفْقِهُونَ﴾ بضم الياء وكسر القاف، يعني: أن كلامهم لا يفهمه أحد غيرهم. وقرأ الباقون ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بالنصب، يعني: أنهم لا يفقهون قول غيرهم.

﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأَرْضِ﴾، أي يخرجون إلى أرضنا

Marfat.com

ويأكلون رطبنا، ويحملون يابسنا، ويقتلون أولادنا. وكان يأجوج رجلاً ومأجوج رجلاً، وكانا أخوين من بني يافث بن نوح، فكثر نسلهما فنسب إليهما. ويقال: سمي يأجوج ومأجوج لكثرتهم وازدحامهم، لأنهم يموجون بعضهم في بعض. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾؛ قرأ عاصم: ﴿يَأجوج وَمَأجُوجَ﴾ بهمز الألف، وقرأ الباقون بغير همز، وقرأ حمزة والكسائي ﴿خَرَاجاً﴾ بالألف وقرأ الباقون ﴿خرجاً﴾ بغير ألف، ويقال: الخراج هو الضريبة، والخرج هو الجعل، ويقال: أحدهما اسم والآخر مصدر. ﴿عَلَى أَنْ تجعَلَ بَيْنَنَا سَدّاً﴾، أي حاجزاً.

فـ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ قرأ ابن كثير ﴿مَا مَكَّنَنِي﴾ بنونين وهو الأصل في اللغة، وقرأ الباقون ﴿مَكَّنِّي﴾ فأدغم إحدى النونين في الأخرى وأقيم التشديد مقامه، أي ما ملّكني وأعطاني فيه ربي من القوة والمال خير من جعلكم، ويقال: ما يعطيني الله تعالى في الآخرة من الثواب خير من جعلكم في الدنيا. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قالوا: وما تريد؟ قال: آلة العمل وهي آلة الحدادين. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾. قالوا: وَمَا هِيَ؟ قال: ﴿آتوني زُبَرَ الحديدِ﴾، أي قطع الحديد ﴿أجعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ سَدًا﴾ قرأ عاصم في إحدى الروايتين ﴿إيتُونِي﴾ على معنى جيئوني، وقرأ الباقون ﴿آتُونِي﴾ بمد الألف أي أعطوني. فأتوه بقطع الحديد فبناه.

﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدفين﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿الصُّدُفَيْنِ﴾ بضم الصاد والدال، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿الصُّدْفين﴾ بضم الصاد وجزم الدال، وقرأ الباقون بنصب الصاد والدال، وهما ناحيتا الجبل. فأخذ قطع الحديد وجعل بينهما حطباً وفحماً، ووضع المنافخ وقال: انفخوا. فنفخوه حتى صار كهيئة النار. ثم أتى بالصفر ويقال: بالنحاس، فأذابه وأفرغ عليه حتى صار جبلاً من حديد ونحاس، فذلك قوله ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي بين الجبلين. ﴿قَالَ انفُخُوا﴾، فنفخوا. ﴿حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَاراً﴾، أي صيّر الحديد ناراً، ﴿قَالَ آتونِي أُفرِغْ عَلَيهِ قِطْراً﴾، وهو الصفر المذاب أصببْ عليه. قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة ﴿قَالَ ائتُوني﴾ بجزم الألف والباقون بالمد ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾، أي فما قدروا ﴿أَنْ يظْهَرُوهُ﴾، يعني: أن يعلوا فوق السد. ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾، أي ما قدروا على نقب السد. ويقال: ﴿مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي ما تحت السد في الأرض، لأنه بناه في الأرض إلى السماء.

قال الفقيه رضي الله عنه: حدّثنا عمرو بن محمد قال: حدّثنا أبو بكر الواسطي قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدّثنا أبو حفص، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ: قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ الرَّدْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، حَتَّى إذا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَداً، فَيُعِيدُهُ الله كَمَا كَانَ. حتى إذا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، قَالَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ ارجِعُوا فَسَنَحْفِرُه غَداً إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى. فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَقُونَ المِيَاهَ وَتَحَصَّنُ النَّاسُ فِي

Marfat.com

حُصُونِهِمْ، فَيَبْعَثُ الله عَلَيْهِمْ نغفاً فِي أَقْفِيَتِهِمْ فَيُهْلِكُهُمُ الله بِهَا»[1].

وروى أبو صالح، عن ابن عباس: «أن يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل منهم حتى يلد لصلبه ألف ابن، وذكر: أن يأجوج ومأجوج ـ كما ذكرنا ـ وهما ابنا يافث بن نوح، فإذا انكسر السد وذلك عند اقتراب الساعة، يخرجون فيمرون ببحيرة طبرية بأرض الشام وهي مملوءة ماء فيشربها أولهم، ثم يمر آخرهم فيقولون: لقد كان هاهنا مرة ماء. قال: والسد نحو بنات نعش، ثم يمرون بالبحر فيأكلون ما في جوفه من سمك وسرطان وسلحفاة أو دابة، ثم يأكلون ورق الشجر، ويأكلون ما في الأرض من شيء، ويهرب الناس منهم فيقتلون من قدروا عليه، ولا يستطيعون أن يأتوا أربعة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد بيت المقدس، ومسجد طور سيناء. ثم لا يرون على الأرض غيرهم، ثم يقولون: لقد قتلنا أهل الأرض وبقي أهل السماء، فيرمون سهامهم نحو السماء فتصيب الطير في جو السماء، فترجع سهامهم مختضبة بالدماء فيقولون: لقد قتلنا أهل السماء وأهل الأرض ولم يبقَ غيرنا. فيبعث الله تعالى عليهم دوداً يُسمَّى النغف، فيدخل في آذانهم فيقتلهم، فتنتن الأرض من جيفهم، ثم يرسل الله تعالى السَّما أربعين يوماً حتى يحمل السيل جيفهم فيرميها إلى البحر، ويعود البحر كما كان[2]. قرأ حمزة ﴿فما اسطّاعوا﴾ بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

فلما فرغ ذو القرنين من بناء السَّد: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، أي هذا السد رحمة من ربي عليكم. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾؛ يقول: إذا جاء أجل ربي، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ يعني كسراً. قرأ أهل الكوفة ﴿دكَّاء﴾ بالمد، وقرأ الباقون بالتنوين قال القتبي: ﴿جعله دكاً﴾ أي ألقصه بالأرض. وقرأ الباقون بالتنوين ﴿دكاً﴾ إذا لم يكن لها سنام. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقاً﴾، أي صدقاً وكائناً بخروجهم.

ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، أي يجول في بعض وراء السد، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قال أبو عبيدة: تنفخ الأرواح في الصور، وقال عامة المفسرين: يعني: ينفخ إسرافيل في الصور، وهذا موافق لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ

(١) حديث أبي هريرة: عزاه السيوطي ٥/ ٤٦٢ إلى أبي يعلى والحاكم وصححه وابن عساكر.

(٢) عزاه السيوطي ٥/٤٦١ إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

Marfat.com

وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَهُ وَحَنَا جَبْهَتَهُ عَلَيْهِ وَيَنْتَظِرُ مَتى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ فِيهِ»؟ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾، أي يوم القيامة نجمع يأجوج ومأجوج وجميع الخلق. ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: كشفنا الغطاء عنها قبل دخولهم جهنم. ﴿لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾، أي: كشفاً ويكون المصدر لتأكيد الكلام.

ثم نعت الكافرين فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾، أي أعين الكافرين ﴿فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾، أي في عمى عن التوحيد والقرآن فلم يؤمنوا. ﴿وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾، أي استماعاً إلى النبي ﷺ من بغضه وعداوته.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، يعني: أن يعبدوا غيري، ومعناه: لا يحسبن الكافرون بأن يتخذوا أولياء يعبدون معي شيئاً، لأن المشركين كانوا يدعون بعض المؤمنين إلى الشرك، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ويقال: ومعناه أفيظن الذين كفروا أن يعبدوا عبادي، يعني: الملائكة وعزيراً والمسيح، ﴿من دوني أولياء﴾ يعني: أرباباً؟ ومعناه: يظنون أنهم لو اتخذوهم أرباباً تنفعهم عبادتهم ويفوتون من عذابي.

ثم بيّن عذابهم فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾، أي منزلاً. روي عن علي بن أبي طالب أنه قرأ: ﴿أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بجزم السين وضم الباء ومعناه: أيكفيهم مني ومن طاعتي أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء فحسبهم جهنم ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾، يعني: الخاسرين أعمالهم، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾؛ أي بطلت أعمالهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، أي: يظنون أنهم يفعلون فعلاً حسناً. قال علي بن أبي طالب: «هم الخوارج»؛ وهكذا روي عن أبي أمامة الباهلي، وروي عن سلمان الفارسي أنه قال: «هم رهبان النصارى أهل الصوامع»، وهكذا قال مقاتل. ﴿أولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، أي بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَلِقَائِهِ﴾، أي البعث بعد الموت. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي بطلت حسناتهم، ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾؛ أي لا توزن أعمالهم مثقال ذرة، ويقال: لا نقيم لأعمالهم ميزاناً. ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾، أي هكذا عقوبتهم. ﴿جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي﴾، أي القرآن ومحمداً ﷺ ﴿هُزُواً﴾، أي استهزاء.

Marfat.com

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾، أي منزلاً. وقال مقاتل: ﴿الفردوس﴾ بلغة الروم البساتين عليها الحيطان، وقال السدي: الأعناب بالنبطية. وروى الحسن، عن سمرة بن جندب قال: «الفردوس ربوة خضراء من الجنة هي أعلاها وأحسنها». وقال الكلبي: جنات الفردوس من أدنى الجنان منزلاً. وروى أبو أمامة الباهلي قال: «الفردوس سرة الجنة»، أي أوسطها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي دائمين فيها. ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾، أي تحولاً رضوا بها وبثوابها. وقال بعض المفسرين: تمام النعمة أنهم لا يتمنون التحول لأنهم لو تمنوا التحول عنها لتنغّص النعم عليهم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ وذلك أن اليهود قالوا: يزعم محمد أن من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثم يزعم ويقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فكيف نوافق الخير الكثير مع العلم القليل؟ فنزل: قل يا محمد: ﴿لَو كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ يكتب به، ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام، ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾؛ أي لا تنفد كلمات ربي. كما قال في آية أخرى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾، أي بمثل البحر. وقرأ بعضهم: ﴿ولو جئنا بمثله مِداداً﴾. وقراءة العامة ﴿مَدَداً﴾ ومعناهما واحد ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وهو قليل عند علم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، أي من يخاف البعث بعد الموت. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾، أي: خالصاً فيما بينه وبين الله تعالى، ﴿وَلاَ يُشْرِكْ﴾؛ أي لا يخلط ولا يرائي ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾. وقال سعيد بن جبير ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو﴾، أي من كان يرجو ثواب ربه. وروي عن مجاهد: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال: إني أتصدق بالصدقة وألتمس بها وجه الله، وأحب أن يقال لي خيراً. فنزل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿أَنْ يَنفَدَ﴾ بالياء بلفظ التذكير، وقرأ الباقون: بالتاء بلفظ التأنيث، لأن الفعل إذا كان مقدماً على الاسم يجوز التأنيث والتذكير.

قال الفقيه: حدّثنا أبو الحسن أحمد بن عمران قال: حدثنا أبو شهاب، قال: حدّثنا غنام بن يوسف، قال: حدّثنا أبو عبد الله المديني، عن مخلد بن عبد الواحد، عن الخليل، عن علي بن زيد بن جدعان، عن زر بن حبيش، عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ

Marfat.com

قرأ سورَةَ الكهفِ فهُوَ مَعصومٌ ثمانِيَةَ أيّام مِن كُلّ فِتنَةٍ تكونُ، فإنْ خرَجَ الدجّالُ في تِلْكَ الثمانِيَةِ أيّام، عَصمَهُ الله مِن فِتنَةِ الدَّجّالِ، ومَنْ قَرأَ الآيةَ الّتي في آخِرها ﴿قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾ إلى الخاتِمةِ حِينَ يأخذُ مَضجعَهُ، كانَ لَهُ نورٌ يتلألأُ في مَضجعِهِ إلى مَكّةَ، حَشْوُ ذلِكَ النّورِ مَلائِكَةٌ يُصلّون علَيهِ حتّى يقُوم مِن مَضجعِهِ. وإنْ كانَ مَضجعُهُ بمَكّةَ فتلاها، كانَ له نورٌ يتلألأُ مِن مَضجعِهِ إلى البَيتِ المَعمُورِ، حَشْوُ ذلكَ النّورِ مَلائِكَةٌ يُصلّونَ علَيهِ ويَستَغفِرُونَ لَهُ حتّى يَستَيقِظَ مِن نَوْمِهِ». إلى غير ذلك مما ورد في فضلها من الأخبار والآثار. وصلى الله على سيدنا محمد النبي المختار وعلى آله وصحابته الأطهار، صلاة وسلاماً دائمين ما تعاقب الليل والنهار، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين

Marfat.com

سورة مريم

مكية وهي تسعون وثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③
قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّى
خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ
ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿كهيعص﴾؛ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص: بنصب الهاء والياء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي: بكسر الهاء والياء، وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء ونصب الياء، وقرأ حمزة وابن عامر بنصب الهاء وكسر الياء، وقرأ نافع بين الكسر والفتح، وهو اختيار أبي عبيدة، ومعنى هذا كله واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله: ﴿كهيعص﴾، قال: «الكاف: فالله كافٍ لخلقه، والهاء: فالله الهادي لخلقه، وأما الياء: فيد الله مبسوطة على خلقه بالرزق لهم والعطف عليهم، وأما العين: فالله تعالى عالم بخلقه وأمورهم، وأما الصاد: فالله تعالى صادق بوعده»(١). وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «هو اسم الله الأعظم»، وروي عنه أنه قال: «هو قسم أقسم الله تعالى بكهيعص»، ويقال: هي حروف تدل على ابتداء السور نحو ﴿الر﴾ و﴿المر﴾ وغيرهما.

ثم قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، معناه على طريق ابن عباس: «باسم الله الكافي الهادي العالم الصادق»، ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ بالرحمة. ومن قال إنه قسم، فمعناه: ورب كهيعص إنه ذكر عبده زكريا بالرحمة. ومن قال: هو ابتداء السورة، فمعناه: اقرأ ﴿كهيعص﴾.

ثم قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، ومعناه: ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة، لأن ذكره بالرحمة لا يكون إلا بالله تعالى ففي الآية تقديم وتأخير يقول: ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة، وهو زكريا بن ماثان ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾، يقول: دعا ربه نداءً خفياً، يقول:

(١) عزاه السيوطي: ٥/٤٧٧ إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي.

Marfat.com

أخفاه وأسره من قومه، ويقال: دعا ربه دعاء سراً، لأنه علم أن دعاء السر أنفع وأسرع إجابة، ويقال: دعا ربه نداءً خفياً يعني: خالصاً. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، أي ضعف عظمي، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾؛ يعني: أخذ في الرأس شيباً وبياضاً. ﴿شَيْباً﴾ صار نصباً بالتمييز، والمعنى: اشتعل الرأس من الشيب، يقال للشيب إذا كثر جداً: قد اشتعل رأس فلان بالشيب.

ثم قال: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، يعني: لم تكن تخيب دعائي عندك إذا دعوتك.

ثم قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾، يعني: خشيت، ويقال: يعني: الورثة، ويقال: بنو العم، ويقال: العصبة من ورائي، يعني: من بعد موتي، خاف أن يرثه غير الولد. وروي عن قتادة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يَرْحَمُ اللهُ تَعَالَى زَكَرِيَّا وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَثَتِهِ»(١). وروي عن سعيد بن العاص أنه قال: أملى علي عثمان رضي الله عنه ﴿وَإِنِّي خَفَّتِ الْمَوَالِيَ﴾ بنصب الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء، ويقال: يعني: ذهبت الموالي. وقال أبو عبيدة: لولا خلاف الناس لاتبعنا عثمان فيها.

ثم قال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾، يعني: عقيماً لم تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، يعني: ولداً. ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾. وقال عكرمة: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، وهكذا قال الضحاك. وقال بعضهم: ﴿يرثني﴾ يعني: علمي وسنتي، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون مالاً. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ». وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دَرَاهِمَ وَلا دَنَانِيرَ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا هٰذَا العِلْمَ» ويقال: لأنه رأى من الفتن وغلبة أهل الكفر، فيخاف على إفساد مواليه إن لم يكن أحد يقوم مقامه ويخولهم بالموعظة. قرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿يَرِثْنِي وَيَرِثْ﴾ بجزم كلا الثاءين على معنى جواب الأمر، أي أنك إذا وهبت لي ولياً يرثني، وقرأ الباقون: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ بالضم. وقال أبو عبيدة: وهذا أحب إلي. قال: معناه هب لي الذي هذه حاله وصفته، لأن الأولياء قد يكون منهم الوراثة وغيرهم، فيقول: هب لي الذي يكون وراثي وارث النبوة. ثم قال: ﴿واجعَلْهُ ربِّ رَضِياً﴾، يعني: صالحاً زكياً.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا زَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾، يعني: أوحى الله تعالى وأرسل إليه

(١) عزاه السيوطي: ٤٧٩/٥ إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

Marfat.com

جبريل، وأن جبريل عليه السلام أدى إليه الرسالة من الله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ وقد بيّن ذلك في سورة آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]. ثم قال هنا: ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، يعني: لم نجعل لزكريا من قبل يحيى ولداً يسمى يحيى، ويقال: لم يكن قبله أحد يسمى بذلك الاسم، ويقال: لم يكن بذلك الاسم في زمانه أحد، وإنما سمي يحيى: لأنه حي بالعلم والحكمة التي أوتيها. ويقال: لأنه حي به المجالس، ويقال: لأنه حيي به عقر أمه، ويقال ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي نظيراً ومثالاً. قرأ حمزة ﴿نَبْشُرُكَ﴾ بنصب النون وجزم الباء وضم الشين بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد وضم النون ونصب الباء وكسر الشين ﴿نُبَشِّرُكَ﴾.

فقال زكريا عند ذلك لجبريل عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، يقول: يا سيدي ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، يعني: من أين يكون لي ولد؟ ويقال: إنما قال ذلك على وجه الدعاء لله تعالى، فقال: يا رب من أين يكون لي ولد؟ ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ من الولد، ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، يقول: تحول العظم مني يابساً، ومنه يقال: قلب عات، إذا كان قاسي القلب غير لين، ويقال لكل شيء انتهى: فقد عتى. ولم يكن زكريا شاكاً في بشارة الله عز وجل، ولكن أحب أن يعلم من أي وجه يكون. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص والكسائي ﴿عِتِيًّا﴾ بكسر العين وكذلك ﴿صِلِيًّا﴾ وَ﴿جِثِيًّا﴾ ﴿وَبِكِيًّا﴾ إلا أن عاصماً خالفهما في ﴿بُكِيًّا﴾، وقرأ الباقون كلها بالضم، وكان أبو عبيدة اختار الضم، لأنه أفصح اللغتين وهي قراءة أبي رضي الله عنه.

﴿قَالَ﴾ جبريل لزكريا ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعني: هكذا كما قلت إنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيِّنٌ﴾ يعني: كما قلت أنك قد بلغت من الكبر عتياً ولكن الله عز وجل ﴿قَالَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، يعني: خلقه عليّ يسير ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل يحيى ﴿ولم تك شيئاً﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿وقد خلقناك﴾ بالنون مقدمة والألف مؤخره، وقرأ الباقون ﴿خَلَقْتُكَ﴾ وهو اختيار أبي عبيدة.

قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ في الولد. روى أسباط، عن السدي قال: لما بشر زكريا عليه السلام جاءه الشيطان عليه اللعنة فقال: إن هذا النداء الذي نوديت ليس من الله عز وجل، وإنما هو من الشيطان ليسخر بك، ولو كان من الله عز وجل، لأوحاه إليك كما كان يوحي إليك، فـ﴿قَالَ﴾ عند ذلك: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أعلم بها أن هذا النداء منك.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى له: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: علامتك أن لا تستطيع أن تكلم الناس ثلاث ليال وأنت صحيح سليم من غير خرس ولا مرض. ورجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها، ووضع الولد في رحمها، فلما أصبح اعتقل لسانه عن كلام الناس.

Marfat.com

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

﴿فخرج على قومه من المحراب﴾، يعني: من المسجد. ﴿فَأَوحَى إِلَيهِم﴾، يعني: أشار وأومأ إليهم، ويقال: كتب كتاباً وألقاه على الأرض ولم يقدر أن يتكلم به. ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾، يعني: صلوا لله تعالى ﴿بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾، يعني: غدوة وعشياً. فعرف عند ذلك أنه آية الولد.

قوله عز وجل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، يعني: أوحى الله تعالى إليه أن: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾، يعني: بجد ومواظبة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، يعني: أجرينا الحكم على لسانه في حال صغره، وذلك أنه مرّ بصبيان يلعبون، فقالوا له: تعال حتى نلعب. فقال لهم: ما للعب خلقنا. ويقال: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، أي بجدٍّ وعون من الله تعالى، ويقال بكثرة الدرس. ﴿آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، يعني: النبوة والفقه والخير كله في صغره ﴿وَحَنَاناً من لَدُنَّا﴾، يعني: آتيناه رحمة من عندنا، وأصله: من حنين الناقة على ولدها ﴿وَزَكَاةً﴾، يعني: وصدقة منا، ويقال: التطهير، ويقال: صلاحاً في دينه. وقال سعيد بن جبير: الزكاة التزكية. ﴿وَكَانَ تَقِياً﴾، يعني: مطيعاً لربه، ﴿وَبَراً بِوَالِدَيْهِ﴾، يعني: مطيعاً لهما ولا يعصيهما. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً﴾، يعني: لم يكن قتّالاً، والجبار الذي يقتل على الغضب، ويضرب على الغضب ﴿عَصِيّاً﴾، يعني: لم يكن عصياً لربه، والعصيّ والعاصي واحد.

قوله عز وجل: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ﴾، أي السلام من الله عز وجل والسعادة تناله ﴿يوم ولد﴾، أي حين ولد ﴿ويوم يموت﴾، يعني: حين يموت ﴿ويوم يبعث حياً﴾، أي: حين يبعث حياً. وروى قتادة عن الحسن أن يحيى عليه السلام قال لعيسى عليه السلام حين التقيا: أنت خير مني. فقال عيسى صلوات الله عليه: بل أنت خير مني، سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي. وروي عن بعض الصحابة أنه قال: «ما من الناس أحد إلا وهو يلقى الله عز وجل يوم القيامة وهو ذو ذنب إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام» وروي عن الحسن، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أَذْنَبَ يَحْيَى وَلا هَمَّ بِامْرَأَةٍ»[(1)].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/٤٦٨ إلى عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

Marfat.com

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، يعني: اذكر في القرآن خبر مريم، ومعناه: اقرأ عليهم ما أنزل عليك في القرآن من خبر مريم ﴿إذ انتَبَذَتْ﴾ يعني: اعتزلت وتنحت ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً﴾، يعني: مشرقة الشمس في دار أهلها. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾، يعني: ضربت وأرخت من دونهم ستراً. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيهَا رُوحَنَا﴾، يعني: بعثنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً﴾، يعني: تشبه لها في صورة شاب تامّ الخلقة فدنا منها، فأنكرت مريم مكان الرجل. و﴿قَالَتْ إِنّي أعوذ بالرَّحْمٰنِ مِنكَ إِنْ كُنتَ تَقِياً﴾، يعني: إن كنت مطيعاً لله عز وجل. وإنما قالت: ﴿إِنْ كنت تقياً﴾، لأن التقي إذا وعظ بالله عز وجل اتعظ وخاف، والفاسق يخوف بالسلطان، والمنافق يخوف بالناس، فالتقيّ يخوف بالله. ويقال: في الآية مضمر ومعناه احذر إن كنت تقياً ﴿قال﴾ لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً﴾، يعني: ولداً صالحاً. قرأ أبو عمرو ونافع في إحدى الروايتين ﴿لِيَهَبَ لَكَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿لأَهَبَ لكِ﴾ بالألف. فمن قرأ ﴿لِيَهَبَ﴾، فمعناه: ليهب الله تعالى لك. ومن قرأ ﴿لأَهَبَ لَكِ﴾ يكون فيه مضمر، ومعناه: إنما أنا رسول ربك فقال: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً﴾ يعني: قال ربك، وهذا اختيار أبي عبيدة، وهو موافق لخط المصاحف.

﴿قالت﴾ مريم لجبريل عليه السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِيَ غُلامٌ﴾، يعني: من أين يكون لي ولد؟ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، يعني: لم يقربني زوج، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِياً﴾ يعني: لم أك فاجرة. ﴿قالَ﴾ لها جبريل عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ﴾، يعني: هكذا كما قلت. ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، يعني: خلقه عليّ يسير، ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾؛ يعني: عبرة للناس، يعني: لبني إسرائيل، ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ يعني: ونعمة منا. ﴿وَكَانَ أَمراً مَقْضِياً﴾، يعني: قضاء كائناً.

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، يعني: حملت مريم بعيسى عليه السلام. وقال وهب بن منبه: إن مريم حملت بعيسى عليه السلام تسعة أشهر، وقال بعضهم: ثمانية أشهر، فتلك آية، لأنه لا يعيش مولود في ثمانية أشهر. وروي في بعض الروايات، عن ابن عباس أنه قال: «ما هي إلا أن حملت ثم وضعت»، وقال مقاتل: حملت في ساعة ووضعت في ساعة. ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ

Marfat.com

مكاناً قصياً﴾، يعني: انفردت بولادتها مكاناً بعيداً. قال القتبي: القصيُّ أشد بعداً من القاصي.

ثم قال: ﴿فَأَجاءها الْمَخاضُ﴾، يعني: جاء بها وألجأها المخاض، يعني: الطلق بولادة عيسى عليه السلام ﴿إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾، أي: أصل النخلة قال ابن عباس: النخلة اليابسة في شدة الشتا، يعني: الطلق. ﴿قَالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنسِياً﴾، يعني: شيئاً متروكاً لم أذكر، ويقال للشيء الحقير الذي إذا ألقي ينسى نسيٌّ. وقال قتادة: يعني، لا أعرف ولا أدري من أنا. وقال عكرمة: يعني: جيفة ملقاة، وهكذا قال الضحاك. وقال ربيعة بن أنس: يعني سقطاً. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿نَسياً﴾ بنصب النون والباقون ﴿نِسياً﴾ بكسر النون، قال أبو عبيد: وبالكسر نقرؤها، لأنها كانت أكثر في لغة العرب وأفشاها، وعليها أهل الحرمين والبصرة.

ثم قال عز وجل: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحتِهَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص ﴿مِن تحتِها﴾ بكسر الميم، يعني: الملَك، وهكذا قرأ مجاهد والحسن، وقرأ الباقون ﴿مَن تحتَها﴾ بالنصب يعني به عيسى عليه السلام وقال أبو عبيد: بالأولى نقرأ يعني: بالكسر، لأن قراءتها أكثر والمعنى فيها أعمّ، لأنه إذا قال: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بالكسر فقد احتمل أن يكون الملك، ويكون عيسى. وإذا قرأ ﴿مَن تحتَها﴾ فإنما هو عيسى خاصة. ﴿ألاَّ تَحْزَنِي﴾ بولادة عيسى ومكان الحدث، ﴿قَدْ جعل رَبُّكِ تَحْتَكِ سريّاً﴾ يعني: نهراً صغيراً بحبال ويقال: ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾، أي بيتاً، فذكر هذا القول عند ابن حميد فأنكره وقال: هو الجدول. ألا ترى أنه قال: ﴿فكلي واشربي﴾. قال مجاهد: السريّ بالسريانية، وقال سعيد بن جبير: بالنبطية.

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُزِّي إليك بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾؛ يقول: حركي أصل النخلة ﴿تُسَاقِطْ عليك رُطباً جنياً﴾، يعني: غضاً طرياً. قرأ حمزة ﴿تَسَاقَطْ﴾ بنصب التاء وتخفيف السين، وأصله تتساقط إلا أنه حذفت منه إحدى التاءين للتخفيف وهذا كقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] وأصله تتسوى، وكقوله ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وكقوله ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿تُسَاقِطْ﴾ بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف يعني: أن النخلة تساقط عليك، وقرأ الباقون بنصب التاء وتشديد السين ونصب القاف، لأن التشديد أقيم مقام التاء التي حذفت. وروي عن البراء بن عازب أنه كان يقرأ ﴿يُساقط﴾ بالياء يعني: أن الجذع يساقط عليك، وقرأ بعضهم: ﴿نُساقطُ﴾ بالنون ومعناه: ونحن نساقط عليك، وروي أنها كانت نخلة بلا رأس، وكان ذلك في الشتاء، فجعل الله عز وجل لها رأساً، وأنبت فيها رطباً، فذلك قوله عز وجل: ﴿تساقط عَلَيْكَ رُطَباً﴾ أي غضاً طرياً.

قيل لها: ﴿فَكُلي﴾ من الرطب، ﴿وَاشْرَبي﴾ من النهر، ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ يعني: طيبي نفساً بولادة عيسى عليه السلام. وقال الربيع بن خيثم: «ما للنفساء عندي دواء إلا الرطب، ولا للمريض إلا العسل».

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِمَّا تَرِينَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾، يعني: إن رأيت أحداً من الناس، ﴿فقولي﴾ إن سألك سائلٌ شيئاً فقولي: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً﴾، يعني: صمتاً. وروي عن ابن عباس في بعض الروايات أنه كان يقرأ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَمْتاً﴾. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾؛ يعني: قولي ذلك بالإشارة لا بالقول، وكان المتقدمون يصومون من الكلام كما يصومون من الطعام.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

ثمّ قال: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تحمله﴾ وذلك أن مريم حملت عيسى عليه السلام ودخلت على أهلها، وكان أهلها أهل بيت صالحين. ﴿قالوا﴾ أي قال لها قومها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾، يعني: أتيت وفعلت أمراً منكراً عظيماً، لا يعرف منك ولا من أهل بيتك.

قوله عز وجل: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، يعني: هارون بن ماثان، وكان من أمثل بني إسرائيل ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، يعني: يا شبه هارون في الصلاة والصلاح، ويقال: كان رجل سوء يسمى هارون فعيّروها به وشبهوها بهارون، ويقال: كان لها أخ يقال له هارون من أبيها ولم يكن من أمها، وذكر أن أهل الكتاب قالوا: كيف تقولون إن مريم أخت هارون وكان بينهما ستمائة سنة؟ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ» عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يعني: أن أخا مريم سُمّي باسم هارون النبي عليه السلام.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾، يعني: زانياً ﴿وَمَا كَانَتِ أُمُّكِ بغِيّاً﴾، يعني: فاجرة.

قوله عز وجل: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، يعني: أشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه، يعني: كلّموا عيسى. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾؟ يعني: من هو في الحجر رضيع. ويقال: معناه كيف نكلم من هو يكون في المهد؟ ويقال: معناه كيف نكلم من يكون في المهد صبياً؟ فأنطق الله عز وجل عيسى، فتكلم و﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾، فأول الكلام الذي تكلم به هو ردّ على النصارى، لأنه أقر بأنه عبد الله ورسوله. ثم قال: ﴿آتَانِي الْكِتَابَ﴾؛ روي عن ابن عباس أنه قال: «معناه علمني الكتاب في بطن أمي»، ويقال: معناه يؤتيني الكتاب وهو الإنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ أي أكرمني الله تعالى بأن جعلني نبياً، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً﴾؛ يعني: جعلني معلماً للخلق ﴿أينما كُنتُ﴾، يعني: حيث ما كنت، ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾؛

Marfat.com

يعني: أوصاني وأمرني بإتمام الصلاة وإعطاء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَياً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي﴾، يعني: جعلني رحيماً بوالدتي، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَاراً شَقِيّاً﴾ يعني: لم يخذلني حتى صرت به جباراً عصياً. ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ﴾ يعني: السلام عليَّ من الله عز وجل ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ يعني: حين ولدت، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني: حين أموت، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ يعني: أبعث يوم القيامة. فكلمهم بهذا ثم سكت، فلم يتكلم حتى كان قدر ما يتكلم الغلمان.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ﴾، أي ذلك الذي قال: إني عبد الله، هو عيسى ابن مريم عليه السلام، لا كما يقول النصارى إنه إله. ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، يعني: خبر الصدق. قرأ عاصم وابن عامر ﴿قَوْلَ الحقِّ﴾ بنصب اللام، وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ بالنصب فمعناه: أقول قول الحق، ومن قرأ بالضم معناه: وهو قول الحق. ﴿الذي فيه يمترون﴾، يعني: يشكون في عيسى عليه السلام ويختلفون فيما بينهم.

ثم كذبهم في قولهم، فقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾، يعني: عيسى. ثم نزّه نفسه عن الولد فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، ﴿إذا قضى أمراً﴾ يعني: إذا أراد أن يخلق خلقاً مثل عيسى، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، قرأ ابن عامر ﴿فَيَكُونَ﴾ بنصب النون، وقرأ الباقون بالضم، وقرأ بعضهم: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة، وقراءة العامة بالياء، لأنها ليست فيها مخاطبة.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿وأَنَّ اللهَ﴾ بنصب الألف ﴿رَبُّكُمْ﴾ بالنصب على معنى البناء، وقرأ والباقون ﴿وَإِنَّ الله﴾ بالكسر على معنى الابتداء وهي قراءة أبي عبيدة. وفي قراءة أبيّ ﴿إنَّ الله﴾ بغير واو فتكون قراءته شاهدة على الكسر.

ثم قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، يعني: وحدوه وأطيعوه. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، يعني: هذا الإسلام طريق مستقيم.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، يعني: الكفار من أهل النصارى ﴿من بينهم﴾ يعني: بينهم في عيسى عليه السلام وتفرقوا ثلاث فرق: قالت النسطورية: عيسى ابن الله، واليعقوبية قالوا: إن الله هو المسيح، والملكانية قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. ﴿فَوَيْلٌ﴾، يعني: شدة من

Marfat.com

العذاب ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: من عذاب يوم القيامة، بأن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه، ويقال: ويلٌ صخرة في جهنم.

قال عز وجل: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ يعني: أعلِمْهم وأسمعهم. وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني: يوم القيامة بأن عيسى لم يكن الله، ولا ولده، ولا شريكه، ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركون. ﴿الْيَوْمَ﴾، يعني: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، يعني: في خطأ بيّن لا يسمعون الهدى ولا يبصرون ولا يرغبون فيه. ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، يقول: خوفهم يا محمد بهول يوم القيامة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾؛ يعني: فرغ من الأمر، إذا دخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار، وهو يوم الندامة. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، يعني: هم في الدنيا في غفلة عن تلك الندامة والحسرة. ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يعني: لا يصدقون بالبعث.

قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر المدني، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن الزهري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيطلعُونَ. وَيُقَالُ: يا أَهْلَ النَّارِ، فيطلعونَ. فيقالُ: هَلْ تَعرِفُونَ هٰذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَم يَا رَبَّنَا، هَذا المَوْتُ. قال: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ على الصِّرَاطِ، ثم يقالُ: للفريقينِ. خُلُودٌ لا مَوْتَ فِيهَا أبداً».
وروى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ نحوه، فذلك قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الآية.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

ثم قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾، يعني: نميت أهل الأرض كلهم ومن عليها، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾، يعني: خبر إبراهيم. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾، يعني: صادقاً. وقال الزجاج: الصديق اسم للمبالغة في الصدق، يقال: كل من صدق بتوحيد الله عز وجل وأنبيائه عليهم السلام وفرائضه وعمل بما صدّق فيه فهو صديق، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق. ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾، وهو آزر بن تارخ بن تاخور وكان يعبد الأصنام: ﴿يَا أَبَتِ

Marfat.com

لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ﴾ دعاءك ﴿وَلا يُبْصِرُ﴾ عبادتك ﴿وَلا يُغْنِي عَنكَ﴾ من عذاب الله عز وجل ﴿شَيْئاً﴾؛ قرأ ابن عامر: ﴿يا أبتَ﴾ بالنصب، والباقون بالكسر، وكذلك ما بعده. والعرب تقول في النداء: يا أبتِ ولا تقول يا أبتي.

ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ من الله عز وجل من البيان، ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أنه من عبد غير الله عز وجل، عذبه الله في الآخرة بالنار. ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾، يعني: أطعني فيما أدعوك، ويقال: اتبع دين الله ﴿أَهْدِكَ﴾، يعني: أرشدك ﴿صِرَاطاً سَوِياً﴾، يعني: طريقاً عدلاً قائماً ترضاه.

ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾، يعني: لا تطع الشيطان، فمن أطاع شيئاً فقد عبده. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً﴾، يعني: عاصياً.

ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ﴾، يعني: أعلم أن يمسك ﴿عذاب﴾ يعني: إن أقمت على كفرك يصيبك عذاب. ﴿من الرحمن﴾، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً﴾؛ يعني: قريناً في النار. ﴿قال﴾ له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي﴾، يعني: أتارك أنت عبادة آلهتي؟ ﴿يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾، يقول: إن لم تنته عن مقالتك ولم ترجع عنها، لأسبنك وأشتمنك. وكل شيء في القرآن من الرجم فهو القتل غير ها هنا، فإن هٰهنا أراد به السبَّ والشتم. ﴿واهجرني ملياً﴾، يعني: تباعد عني حيناً طويلاً ولا تكلمني؛ وقال السدي: ﴿ملياً﴾ تعني أبداً، وقال قتادة: ﴿واهجرني ملياً﴾ يعني: تباعد عني سالماً، ويقال: لا تُكلمني دهراً طويلاً.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾، يعني: أكرمك الله بالهدى، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، يعني: سأدعو لك ربي. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِياً﴾، يعني: باراً عوّدني الإجابة إذا دعوته، ويقال: تحفّيتُ بالرجل إذا بالغتُ في إكرامه، وهذا قول القتبي، ويقال: ﴿حَفِياً﴾ يعني: عالماً يستجيب لي إذا دعوته، وكان يستغفر له ما دام أبوه حياً، وكان يرجو أن يهديه الله عز وجل، فلما مات كافراً، ترك الاستغفار له.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾، يعني: وأترككم ﴿وما تدعون من دون الله﴾، يعني: وأترك عبادة ما تعبدون من دون الله عز وجل، ﴿وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَنْ لا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِياً﴾؛ يعني: لا يخيّبني إذا دعوته، ثم هاجر إلى بيت المقدس. ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا له إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، يعني: أكرمناه بالولد وهو إسحاق وولد الولد وهو يعقوب عليهما السلام. وقال بعض الحكماء: من هاجر لطلب رضاء الله عز وجل، أكرمه الله عز وجل في

Marfat.com

الدنيا والآخرة، كما أن إبراهيم عليه السلام هاجر من قومه في طلب رضى الله تعالى عنه، فأكرمه الله تعالى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام والثناء العمل الصالح.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾، يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أكرمناهم بالنبوة، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يعني: من نعمتنا المال والولد في الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ». ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾، يعني: أكرمناهم بالثناء الحسن، وكل أهل دين يتولّون دين إبراهيم عليه السلام بزعمهم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾، يعني: أخلصه الله عز وجل، ويقال: ﴿مخلصاً﴾ يعني: جعله الله مختاراً خالصاً. قرأ حمزة والكسائي وعاصم بنصب اللام يعني: أخلصه الله عز وجل ويقال: معصوماً من الكفر والمعاصي. وقرأ الباقون ﴿مُخْلِصاً﴾ بالكسر يعني: مخلِصاً في العمل. ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ إلى بني إسرائيل، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾، يعني: من يمين موسى عليه السلام ولم يكن للجبل يمين ولا شمال ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾، أي كلمناه بلا وحي. وقال الكلبي: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ يعني: وقربناه حتى سمع صرير القلم في اللوح، وقال السدي: أدخل في السماء الدنيا وكلم، وقال الزجاج: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ مناجياً حتى سمع.

ثم قال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي: من نعمتنا ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾، فكان هارون عليه السلام معه وزيراً نبياً معيناً.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾، يعني: اذكر في القرآن خبر إسماعيل. ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، إذا وعد أنجز. قال مقاتل: إن إسماعيل وعد رجلاً أنْ ينتظره، فقام مكانه ثلاثة أيام للميعاد، حتى رجع الرجل إليه. وقال في رواية الكلبي: كان ميعادُه الذي وعد فيه صاحبه انتظره حتى حال الحول، وقال مجاهد: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ يعني: لم يَعِدْ شيئاً إلا وفى به. ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾، يعني: ﴿كان رسولاً﴾ إلى قومه، ﴿نبياً﴾ يُخبر عن الله عز وجل. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾، يعني: أهل دينه وقومه ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، يعني: بإتمام الصلاة وإيتاء الزكاة. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾، يعني: صالحاً ذكياً.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ

Marfat.com

ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾، يعني: خبر إدريس عليه السلام. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِيقاً نَبِياً﴾، يعني: صادقاً يُخبر عن الله عز وجل، وذكر عن وهب بن منبه أنه قال: «إنما سمي إدريس لكثرة ما يدرس من كتاب الله عز وجل والسنن، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من لبس ثوب القطن، وكانوا من قبل ذلك يلبسون جلود الضأن، واسمه أخنوخ، ويقال: إلياس». ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾، يعني: الجنة. وقال مجاهد: يعني: في السماء الرابعة.

قال: أخبرني الثقة بإسناده، عن ابن عباس، أنه سئل كعب الأحبار عن إدريس فقال كعب: «إن إدريس كان رجلاً خياطاً، وكان يقوم الليل ويصوم النهار ولا يفتر عن ذكر الله عز وجل، وكان يكتسب فيتصدق بالثلثين. فأتاه ملك من الملائكة عليهم السلام يقال له إسرافيل، فبشره بالجنة وقال له: هل لك من حاجة؟ قال: وددت أني أعلم إلى متى أجلي فأزداد خيراً. فقال له: ما أعلمه، ولكن إن شئت حملتك إلى السماء. قال: فحمله إلى السماء، فلقي ملك الموت، فسأله عن أجله، ففتح كتاباً معه فقال: لم يبق من أجلك إلا ست ساعات أو سبع ساعات، وقال: أُمرتُ أن أقبض نفسك هٰهنا، فقبض نفسه في السماء، فذلك قوله: ﴿رفعناه مكاناً علياً﴾».

وروى الكلبي، عن زيد بن أسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إدريس جد أبي نوح» وكان أهل الأرض يومئذ بعضهم مؤمناً وبعضهم كافراً، فكان يصعد لإدريس من العمل ما كان يصعد لجميع بني آدم، فأحبه ملك الموت، فاستأذن الله تعالى في خلته، فأذن له. قال: فهبط إليه في صورة غير صورته، على صورة آدمي لكيلا يعرفه فقال: يا إدريس، إني أحب أن أصحبك وأكون معك. فقال له إدريس: إنك لا تطيق ذلك. قال: أنا أرجو أن يقويني الله عز وجل على ذلك، فكان معه يصحبه. وكان إدريس عليه السلام يسيح النهار كله وهو صائم، فإذا جنه الليل أتاه رزقه حيث يمسي، فيفطر عليه، ثم يحيي الليل كله. فساحا النهار كله صائمين، حتى إذا أمسيا أتى إدريس رزقه فأكله ودعا الآخر، فقال: لا الله الذي جعلك بشراً ما أشتهيه، فطعم إدريس ثم استقبلا الليل بالصلاة. وإدريس تناله السآمة والفترة من الليل والآخر لا يسأم ولا يفتر، فجعل إدريس عليه السلام يتعجب منه، ثم أصبحا صائمين، فساحا حتى إذا جنهما الليل أتى إدريس رزقه فجعل يطعم ودعا الآخر فقال: لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه فطعم إدريس.

ثم استقبلا الليل كله وإدريس تناله السآمة والفترة والآخر لا يسأم ولا يفتر، فجعل إدريس يتعجب منه، ثم أصبحا اليوم الثالث صائمين، فساحا فمرا على كرم قد أينع وطاب، فقال: يا

Marfat.com

إدريس لو أنا أخذنا من هذا الكرم فأكلنا. فقال إدريس: ما أرى صاحبه ههنا فأشتريه منه وإني لأكره أن آخذ بغير ثمن. قال: فمضيا حتى مرا على غنم فقال: يا إدريس لو أخذنا من هذا الغنم شاة فأكلنا من لحمها، فقال له إدريس: إنك معي منذ ثلاثة أيام ما طعمت شيئاً، فلو كنت آدمياً لطعمت، وإني لأدعوك إلى الحلال كل ليلة فتأبى علي، فكيف تدعوني إلى الحرام أن آخذه؟ فبصحبة ما بيني وبينك إلا أنبأتني من أنت؟ قال: إنك ستعلم. قال: أخبرني من أنت؟ قال: أنا ملك الموت. ففزع إدريس عليه السلام حين قال أنا ملك الموت.

قال: فإني أسألك حاجة. قال: ما هي؟ قال: أن تذيقني الموت ـ فإنه قد بلغني عنه شدة؛ ولعلي أعلم ما شدته، فأكون له أشد استعداداً[1]ـ. قال ملك الموت عليه السلام: مالي من ذلك شيء وليس لك بدّ من أن تذوقه قال: فأوحى الله عز وجل إلى ملك الموت أن يقبض روحه ساعة ثم يرسله. قال: فقبض نفسه ساعة ثم أرسله، فقال: كيف رأيت؟ قال: لقد بلغني عنه شدة، فلقد كان أشد مما بلغني عنه.

قال: فإني أسألك حاجة أُخرى. قال: ما هي؟ قال: أحب أن تُريني النار. قال: ما لي من ذلك من شيء، ولكن سأطلب لك، فإن قدرت عليه فعلت. فسأل ربه، فأمره فبسط جناحه فحمله عليه، حتى صعد به إلى السماء، فانتهى به إلى باب من أبواب النار فدقّه فقيل: من هذا؟ فقال: ملك الموت. فقال: مرحباً بأمين الله عز وجل، فهل أمرت فينا بشيء؟ فقال: لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم، ولكن هذا إدريس عليه السلام سألني أن أريه النار، فأحب أن تروها إياه. ففُتح باب منها بشيء، فجاءت بأمر عظيم، فخرّ إدريس مغشياً عليه. فحمله ملك الموت وحبسه في ناحية حتى أفاق، فقال له ملك الموت: ما أحببت أن يصيبك هذا في صحبتي، ولكن سألتني فأحببت أن أسعفك.

قال: فإني أسألك حاجة أخرى لا أسألك غيرها. قال: ما هي؟ قال: أحب أن تريني الجنة. قال: ما لي من ذلك من شيء، ولكن سأطلب فإن قدرت عليه فعلت. فانطلق به إلى خزنة الجنة، فدق باباً من أبوابها فقيل: من هذا؟ فقال: أنا ملك الموت. فقالوا: مرحباً بأمين الله عز وجل، هل أمرت فينا بشيء؟ فقال: لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم، ولكن هذا إدريس سألني أن أريه الجنة فأحب أن تروها إياه. قال: ففتح له الباب، فدخل فنظر إلى شيء لم ينظر مثله قط، فطاف فيها ساعة ثم قال له ملك الموت: انطلق بنا فلنخرج. فانطلق إلى شجرة فتعلق بها ثم قال: والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني. فقال ملك الموت: إنه ليس حينها ولا زمانها، ولكن طلبت إليهم لترى، فانطلق بنا. فأبى عليه، فقيض الله له ملكاً من الملائكة فقال له ملك الموت: اجعل هذا الملك حكماً بيني وبينك قال: نعم. قال الملك: ما

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

هو يا ملك الموت؟ فأخبره بالقصة، ثم نظر الملك إلى إدريس قال: ما تقول يا إدريس؟ قال: أقول إن الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥] فقد ذقته ويقول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾[مريم: ٧١] وقد وردتها وقال لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] . فوالله لا أخرج منها حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني. قال: فسمع هاتفاً يقول: بإذني دخل وبإذني فعل فخلِّ سبيله، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ ، يعني: الجنة. ويقال: ﴿ورفعناه﴾ في القدر والمنزلة، ويقال: ﴿ورفعناه﴾ في النبوة والعلم.

ثم قال عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ ، يعني: إبراهيم، وموسى، وإسماعيل، وإدريس، وسائر الأنبياء عليهم السلام ﴿الذين أنعم الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ من سائر الأنبياء وهم ولد نوح عليه السلام إلا إدريس عليه السلام، يعني: حملناهم على السفينة وهم في صلب نوح وأولاده، ﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل﴾ وهو يعقوب ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ يعني: أكرمنا بالنبوة، ويقال: أكرمنا بالإسلام، ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ ؛ يعني: واصطفينا بعد هؤلاء. ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ ، يعني: القرآن ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ ؛ يعني: يسجدون ويبكون من خوف الله عز وجل. بكيّ: جمع باكي. وقوله: ﴿سُجداً وَبُكياً﴾ منصوب على الحال، وقال بعضهم: ﴿بُكِياً﴾ مصدر بكى يبكي بكياً، وقال الزجاج: من قال مصدر فهو خطأ، لأن ﴿سجداً﴾ جمع ساجد ﴿وبُكياً﴾ عطف عليه فهو جمع باك.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ، يعني: بقي بعد الأنبياء الذين ذكرناهم من أول السورة إلى هنا بقيات سوء، وهم اليهود والنصارى. يقال: في الرداءة خَلْفٌ بإسكان اللام، وفي الصلاح خَلَفَ بفتح اللام.

ثم وصفهم فقال: ﴿أَضَاعُوا الصَّلاَةَ﴾ ، يعني: عن وقتها، ويقال: تركوها، ويقال: تركوا الصلاة فلم يؤدُّوها وجحدوا بها فكفروا، ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ ؛ يعني: شرب الخمر، ويقال: استحلوا الزنى، ويقال: استحلوا نكاح الأخت من الأب. ﴿فسوف يَلْقَوْنَ غَياً﴾ ، يعني: شراً، ويقال: وادي في جهنم يسمى غَياً، ويقال: مجازاة الغيّ كما قال الله عز وجل ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي مجازاة الآثام.

ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ﴾ ، يعني: رجع عن الكفر ﴿وَآمَنَ﴾ ، يعني: صدق بتوحيد الله عز وجل، ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ بعد التوبة. ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ ، يعني: لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ صار خفضاً، لأن معناه يدخلون في ﴿جنات عَدْنٍ﴾. ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾، يعني: ما غاب عن العباد والله عز وجل لا يغيب عنه شيء. ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾، يعني: جائياً كائناً. وقال القتبي: ﴿مأتِياً﴾ يعني: المفعول بمعنى الفاعل، يعني: جائياً. وقال الزجاج: ﴿مأتِياً﴾ مفعول من الإتيان، لأن كل من وصل إليك فقد وصلت إليه، وكل منَ أتاك فقد أتيته.

ثم قال عز وجل: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾، يعني: في الجنة ﴿لَغْواً﴾، يعني: حَلفاً وباطلاً. ﴿إلاَّ سَلاماً﴾، يعني: ويسمعون السلام، يسلم بعضهم على بعض. وقال الزجاج: اللغو ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه، والسلام اسم جامع للخير، لأنه يتضمن السلامة، يعني: لا يسمعون إلا سلامهم.

ثمّ قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً﴾، يعني: طعامهم على مقدار البكرة والعشي، وليس هناك بُكرة ولا عشيّ. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبهم ذلك، فأخبرهم الله تعالى أن لهم في الجنة هذه الحالة. وقال القتبي: الناس يختلفون في طاعمهم، فمنهم من يأكل الوجبة، أي مرة واحدة في كل يوم، ومنهم من يأكل متى وجد بغير وقت ولا عدد، ومنهم من يأكل الغداء والعشاء، فأعْدل هذه الأحوال كلها وأنفعها الغداءُ والعشاءُ. والعرب تقول: من ترك العشاء يهرمهُ، ويذهب بلحم الكارة، يعني: باطن الفخذ، فجعل طعام أهل الجنة على قدر ذلك.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ننزّل من عبادنا ﴿مَنْ كَانَ تَقِياً﴾ يعني: مطيعاً لله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وذلك حين أبطأ عليه الوحي، وعند سؤال أهل مكة عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وأمر الروح، عاتب المصطفى جبريل عليه السلام، فقال الله تعالى: قل يا جبريل لمحمد، ومعناه قل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ما بين النفختين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًا﴾ يعني: لم يكن ينساك ربك حيث لم يوح إليك، ويقال: ﴿ما بين أيدينا﴾ يعني: أمر الآخرة والثواب والعقاب ﴿وما خلفنا﴾ جميع ما مضى من أمر الدنيا ﴿وما بين ذلك﴾ ما يكون في هذا الوقت منا. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ أي قد علم الله عز وجل ما كان وما يكون وما هو كائن حافظ لذلك، ويقال: ما نسيك ربك وإن تأخر عنك الوحي. وروي عن سعيد بن جبير

Marfat.com

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»[(١)] فنزلت هذه الآية.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

ثم قال: ﴿رَبُّ السَّمواتِ والأرْضِ﴾ أي: خالق السموات الأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق، ويقال: ﴿رب السموات والأرض﴾ أي مالكهما وعالم بهما وما فيهما. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: أطعه ﴿واصْطبِرْ لِعبادتِهِ﴾ يعني: احبس نفسك على عبادته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يعني: هل تعلم أحداً يسمى الله سوى الله؟ وهل تعلم أحداً يسمى الرحمن سواه؟ ويقال: هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون؟

قوله عز وجل: ﴿ويقُولُ الإنسانُ﴾ يعني: أبي بن خلف ﴿أئِذا ما متُّ لَسوْفَ أُخرَجُ حَياً﴾ للبعث على معنى الاستفهام، قال الله عز وجل: ﴿أوَ لاَ يَذْكرُ الإنسانُ﴾ يعني: أو لا يتعظ ويعتبر ﴿أنّا خلقْناهُ مِن قبلُ ولَمْ يكُ شيئاً﴾ قرأ: نافع وعاصم وابن عامر ﴿أو لا يذْكر﴾ بجزم الذال مع التخفيف يعني: أو لا يعلم، والباقون ﴿أو لا يَذَّكرُ﴾، بنصب الذال والتشديد.

ثم قال عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم الرب بنفسه ليبعثنهم وليجمعنهم، يعني: الذين أنكروا البعث. ﴿والشَّياطِينَ﴾ يعني الشياطين قرناءهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ يعني: لنجمعنهم ﴿حول جهنَّم جِثياً﴾ يعني: جميعاً. **قال أهل اللغة:** الجثيُّ جمع جَاثِي، مثل بارِك وبرُك، وساجد وسجُد، وقاعد وقعُد، أي على ركبهم ولا يقدرون على القيام. **قال الزجاج:** الأصل ضمُّ الجيم، وجاز كسرها إتباعاً لكسر التاء، وهو نصب على الحال. ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شيعَةٍ﴾ يعني: لنخرجن من كل شيعة يعني: من أهل كل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ يعني: جرأة على الله عز وجل، وهم القادة في الكفر وساداتهم، نبدأ بهم فنعذبهم في النار. وروي عن سفيان عن علي بن الأقمر عن أبي الأحوص في قوله ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ قال: يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: أحق بالنار دخولاً.

---

(١) عزاه السيوطي ٥/٥٢٩ ـ ٥٣٠ إلى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير والحاكم والبيهقي.

Marfat.com

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال بعضهم: يعني: داخلها، المؤمن والكافر يدخلون على الصراط، وهو ممدود على متن جهنم، ويقال: ﴿وَإِنْ مِنكُم إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم.

وروى سفيان عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، أن نافع بن الأزرق خاصم ابن عباس وقال: لا يردها مؤمن، فقال ابن عباس: «أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر بماذا نخرج منها إن خرجنا»[(١)].

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار، ثم يمرون على الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرَّجُل، حتى أن آخرهم مثل رجل نوره على موضع إهاب قدميه، ثم يتكفأ به الصراط، والصراط دحض[(٢)] مزلق[(٣)] مزلقة كحدّ السيف، عليه حسك[(٤)] كحسك العتاد، وحافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس، فبين مارٍ ناج، وبين مخدوش مكدوش[(٥)] في النار، والملائكة عليهم السلام يقولون: ربِّ سلِّم سلِّم».

وروى سفيان عن ثور بن خالد بن معدان قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: أَلَمْ يَعِدْنا رَبُّنا أَنَّا نَرِدُ النَّارَ؟ قيل: إنكم قد مررتم بها وهي خامدة، فذلك قوله عز وجل ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ يعني: الخلائق على الصراط، والصراط في جهنم ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً﴾ يعني قضاء واجباً.

قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوست رحمه الله قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا عدي بن عاصم قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا جرير عن أبي السليل عن غنيم بن قيس عن أبي العوام قال: قال كعب: «هل تدرون ما قوله ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾؟ قالوا: ما كنا نرى ورودها إلا دخولها. قال: لا، ولكن

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٥٣٥ إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.
(٢) دحض: دحضت رجله أي زلقت، والادحاض الإزلاق.
(٣) زلق: بالتحريك، دحض. وهو في الأصل مصدر زلقت وأزلقتها، والمَزلق والمَزلقة.
(٤) حسك: ما يعمل من الحديد على مثاله وهو من آلات العسكر كما في الصحاح.
(٥) مخدوش هو الكدوح وخدش وجهه من باب ضرب. وكدش: كدح وبابه ضرب.

Marfat.com

ورودها أن يجاء بجهنم كأنها متن إهالة، حتى إذا استوت عليها أقدام الخلائق برّهم وفاجرهم، نادى مناد: خذي أصحابك وذري أصحابي، فتخسف بكلّ ولي لها، وهي أعلم بهم من الوالد بولده، وينجو المؤمنون ندية ثيابهم».

قال الفقيه: وحدثني الثقة بإسناده عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية كبا لها الناس كبوةً شديدة، وحزنوا حتى بلغ الحزن منهم كل مبلغ، وقالوا: وليس أحد إلا وهو يدخلها فأنشؤوا يبكون. قال: ونزل بابن مظعون ضيف فقال لامرأته: هيّئي لنا طعاماً فاستوصي بضيفك خيراً حتى آتي رسول الله ﷺ، فانتهى إليهم وهم يبكون فقال: ما يُبْكيكُمْ؟ قالوا: نزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ مِنكُم إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً﴾ يقول: كائناً لا يبقى أحد إلا دخلها، فأنشأ عثمان بن مظعون يبكي، ثم انصرف إلى منزله باكياً، فلما أتى منزله سمعت امرأته بكاءه، فأنشأت تبكي، فلما سمع الضيف بكاءهما أنشأ يبكي، فلما دخل عليهما عثمان قال لها: ما يبكيك؟ قالت: سمعت بكاءك فبكيت، فقال للضيف: وأنت ما يبكيك؟ قال: عرفت أن الذي أبكاكما سيبكيني، قال عثمان: فابكوا وحق لكم أن تبكوا، أنزل الله عز وجل اليوم على رسوله ﴿وَإِنْ مِنكُم إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فمكثوا بعد هذه الآية سنتين، ثم أنزل الله هذه الآية، وهو قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وروي في بعض الأخبار أنه نزل بعد ثلاثة أيام ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي الذين اتقوا الشرك والمعاصي ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿فِيهَا جِثِيّاً﴾ يعني: جميعاً، ففرح المسلمون بها. قرأ الكسائي. ﴿نُنْجِي﴾ بالتخفيف، قرأ والباقون بالنصب والتشديد، أنجى ينجي وَنَجّى ينجّي بمعنى واحد.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم﴾ يعني: تعرض عليهم ﴿آياتُنا بيِّنات﴾ يعني: واضحات، قد بين فيها الحلال والحرام ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: النضربن الحارث قال لأصحاب النبي ﷺ ويقال: أهل مكة قالوا لأصحاب النبي ﷺ ﴿أيّ الفَرِيقَيْنِ﴾ يعني أيّ دينين ﴿خَيْرٌ مقاماً﴾، يعني: منزلاً. قرأ ابن كثير ﴿مُقاماً﴾ بضم الميم، وقرأ الباقون بالنصب، فمن قرأ بالضم فهو الإقامة، يقال: أقمت إقامة ومقاماً، ومن قرأ بالنصب فهو المكان الذي يقام فيه ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ يعني: مجلساً، وذلك أنهم لبسوا الثياب، وادّهنوا الرؤوس، ثم قالوا للمؤمنين: أيّ الفريقين خير منزلةً: المسلمون أو المشركون؟ وأرادوا أن يصرفوهم عن دينهم.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً﴾ يعني: أكثر أموالاً ﴿وَرِئْياً﴾ يعني: منظراً حسناً، فلم يُغن عنهم ذلك من عذاب الله شيئاً. قرأ نافع وابن عامر ﴿وريّاً﴾ بتشديد الياء بغير همز، يعني: النعمة، وقرأ الباقون ﴿ورئياً﴾ بالهمز بغير تشديد، يعني: المنظر. قال أبو عبيد: وهكذا تقرأ مهموزة لأنه من رؤية العين، وإنما هي المنظر.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ يعني: قل يا محمد، من كان في الكفر والشرك ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ يعني: يزيد له مالاً وولداً. قوله: ﴿فليمدد﴾ هذا لفظ الأمر، ومعناه الخبر، وتأويله: أن الله عز وجل جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها، ويمده فيها، كما قال ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رأوا مَا يُوعَدُون﴾ يعني: في الآخرة من العذاب والثواب ﴿إِمَّا العَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يعني: فسيعرفون يوم القيامة ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: صنيعاً في الدنيا، ومنزلاً في الآخرة ﴿وأَضْعَفُ جُنداً﴾ يعني: أقل عدداً وقوة ومنعة، أهم أم المؤمنون.

قوله عز وجل: ﴿وَيَزِيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدَى﴾ يعني: يزيد الله عز وجل الذين آمنوا بالمنسوخ هدى بالناسخ، ليعملوا بالناسخ دون المنسوخ، ويقال: جعل جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم، ويزيدهم بصيرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ وقد ذكرناه ﴿وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ يعني: وأفضل مرجعاً في الآخرة.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ﴾ يعني: لأعطين ﴿مَالاً وَوَلَداً﴾ في الجنة. روى أسباط عن السدي: أن خباب بن الأرت كان صائغاً يعمل للعاص بن وائل حُلياً، فجاء يسأله أجره، فقال له العاص: أنتم تزعمون أن لنا بعثاً وجنة وناراً، فإذا كان يوم القيامة، فإني سأوتى مَالاً وَوَلداً، وأعطيك منه، فنزل ﴿أفرأيتَ الَّذِي كَفَر بِآيَاتِنَا وَقَال لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلداً﴾ في الجنة. قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو ﴿مالاً وَوَلَداً﴾ بفتح الواو واللام في كل القرآن، غير أن أبا عمرو قرأ في سورة نوح بالضم، وهكذا روي عن مجاهد. وقرأ حمزة والكسائي بضم الواو وجزم اللام من ها هنا إلى آخر السورة، والتي في الزخرف، والتي في سورة نوح. وقال أبو عبيد: إنما قرأ هكذا لأنهما جعلا الوُلْد غير الوَلَد، فيقال: الوُلْد جماعة الأهل، والوَلَد واحد، وقال الزجاج: الوُلْد مثل أسد وأُسْد، وجاز أن يكون

Marfat.com

الوَلد بمعنى الولد. قال أبو عبيد: والذي عندنا في ذلك أنهما لغتان، والذي نختاره منهما بفتح الواو واللام.

قال الله عز وجل رداً على الكافرين: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يقول: أنظرَ في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهداً﴾ يعني: أعقد عند الله عقد التوحيد، وهو قول لا إله إلا الله؟ ويقال: أعهد إليه أن سيجعل له في الجنة ﴿كَلاَّ﴾ وهو رد عليه، لا يعطى له ذلك. واعلم أنه ليس في النصف الأول من القرآن كلا، وأما النصف الثاني: ففيه نيف وثلاثون موضعاً. ففي بعض المواضع: في معنى الرد للكلام الأول، وفي بعض المواضع: للتنبيه في معنى الافتتاح، وفي بعض المواضع: يحتمل كلا الوجهين.

فأول ذلك ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهداً كَلاَّ﴾ تم الكلام عنده أي: كلا لم يطلع الغيب ولم يتخذ عهداً، ثم ابتدأ ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ومن ذلك قوله ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] قال: كَلاً لا يقتلونك. وأما الذي هو للتنبيه في معنى الافتتاح، قوله عز وجل ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٢ ـ ٣] وقوله عز وجل: ﴿سنكتب ما يقول﴾ يعني: سنحفظ ما يقول من الكذب ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني: نزيد له من العذاب ﴿مداً﴾ يعني: بعضه على إثر بعض ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ يعني: نعطيه غير ما يقول في الجنة، ونعطي ما يدعي لنفسه لغيره ثم قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ يعني: وحيداً بغير مال ولا ولد.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ يعني: منعة في الآخرة ﴿كلاَّ﴾ رد عليهم، أي: لا يكون لهم منعة، وتم الكلام. ثم قال: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يعني: الآلهة يجحدون عبادتهم ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ يعني: الآلهة تكون عوناً عليهم في العذاب، ويقال: تكون عدواً لهم في الآخرة، ومن هذا قال النبي ﷺ: «مَنْ طَلَبَ رِضَا المَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ عَادَ الحَامِدُ لَهُ ذَامّاً» كما أن المشركين طلبوا العز من الآلهة فصارت الآلهة عوناً عليهم في العذاب، فوجدوا ضد ما طلبوا منه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ يعني: ألم تخبر في القرآن أنا سلطنا الشياطين ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ مجازاة لهم، ويقال: خلينا بينهم وبين الكفار فلم نعصمهم ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ يعني: تزعجهم إزعاجاً وتغريهم إغراء حتى يركبوا المعاصي، قال الضحاك: ﴿تؤزهم أزاً﴾

Marfat.com

يعني: تأمرهم أمراً، وقال الحسن: تقدمهم إقداماً إلى الشر، وقال الكلبي: نزلت الآية في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط ﴿فَلاَ تَعْجَلْ﴾ يا محمد ﴿عليهم﴾ بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ يعني: أيام الحياة، ثم ينزل بهم العذاب. ويقال: نعد عليهم النفس بعد النفس، ويقال: الأيام والليالي والشهور.

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: اذكر يوم نحشر المتقين الذين اتقوا الشرك والفواحش ﴿إِلَى الرَّحْمَن وَفْداً﴾ يعني: ركباناً على النوق، والوفد: جمع الوافد، مثل الركب جمع راكب، والوفد الذي يأتي بالخبر والبشارة ويجازي بالإحسان والكرامة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ ثم قال: «أتدرون على أي شيء يحشرون! أما والله ما يحشرون على أقدامهم، ولكن يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب، وأزمّتها من الزبرجد، ثم ينطلق بهم حتى يقرعوا باب الجنة». وقال الربيع بن أنس: يفدون إلى ربهم فيكرّمون ويعظّمون ويشفعون ويحيون فيها بسلام. ويقال: ﴿إلى الرحمن﴾ يعني: إلى الرحمة وهي الجنة ويقال: ﴿إلى الرحمن﴾ يعني: إلى دار الرحمن.

ثم قال عز وجل: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ يعني: عطاشاً مشاة، وأصله: الورود على الماء، والوارد على الماء يكون عطشاناً.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ يعني: من جاء بلا إله إلا الله، وقال سفيان الثوري: «إلا من قدم عملاً صالحاً».

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ يعني: قلتم قولاً عظيماً منكراً، ويقال: كذباً وزوراً.

قال عز وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يعني: يتشققن من قولهم ﴿وتنشق الأرض﴾ يعني: تتصدع الأرض ﴿وتخرُّ الجبال هَدّاً﴾ يعني: تصير الجبال كسراً ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ يعني: بأن قالوا لله ولد. روي عن بعض الصحابة أنه قال: «كان بنو آدم لا يأتون شجرة إلا أصابوا منها منفعة، حتى قالت فجرةُ بني آدم: اتَّخذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، فاقشعرَّتِ الأرض وهلك الشجر». وقرأ نافع والكسائي ﴿يكاد﴾ بالياء على لفظ التذكير، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث

Marfat.com

لأن الفعل مقدم، فيجوز كلاهما. وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿تتفطَّرْن﴾ بالتاءين والباقون بالنون، ومعناهما واحد مثل: ينشق وتنشق.

قال الله عز وجل: ﴿وما يَنبغِي للرَّحمَنِ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ يعني: ما اتخذ الله عز وجل ولداً ﴿إن كلُّ من في السَّمواتِ والأرض إلاَّ آتي الرَّحمنِ عَبْداً﴾ يعني: أقر بالعبودية له يعني: الملائكة وعيسى وعزيراً عليهم السلام وغيرهم ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُم﴾ يعني: حفظ عليهم أعمالهم ليجازيهم بها ﴿وعدَّهُمْ عدّاً﴾ يعني: علم عددهم، ويقال: ﴿أحصاهم﴾ أي: حفظ أعمالهم فيجازيهم ﴿وعدهم عدّاً﴾ أي: علم عدد أنفاسهم وحركاتهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ يعني: وحيداً بغير مال ولا ولد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

قال عز وجل: ﴿إنّ الَّذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿سيجعلُ لهُمُ الرَّحمنُ وُدّاً﴾ يعني: يحبهم ويحبِّبهم إلى الناس، وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: «قرأت في التوراة أنها لم تكن محبة لأحد إلا كان بدؤها من الله عز وجل، ينزلها إلى أهل السماء ثم ينزلها إلى أهل الأرض، ثم قرأت القرآن فوجدته فيه وهو قوله ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ يعني: محبة في أنفس القوم»، روى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إذَا أَحبَّ الله تعالى عَبْداً نَادَى جِبْرِيلَ عليه السلام قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُنَادِي في السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ المَحَبَّةُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ الله تعالى عَبْداً نَادَى جِبْرِيلَ قَدْ أَبْغَضْتُ فُلاناً فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»**(1).

قوله عز وجل: ﴿فإنَّما يسَّرْناهُ بِلِسانِكَ﴾ يعني: هَوَّنا قراءة القرآن على لسانك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: الموحدين ﴿وتُنذر بِهِ قوماً لُدّاً﴾ أي جُدلاً بالباطل، شديدي الخصومة، هو جمع ألد مثل: أصمّ وصم.

ثم قال عز وجل: ﴿وكمْ أهلكْنا قبْلهُمْ منْ قرْنٍ﴾ يعني: من قبل قريش ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أحدٍ﴾ يعني: هل ترى منهم من أحد ﴿أوْ تسمعُ لهُمْ رِكْزاً﴾ أي صوتاً خفياً، والركز: الصوت الذي لا يفهم. والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

---

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه مالك: ١/ ٢٤٠ والبخاري (٧٥٠٤) ومسلم (٢٦٨٥) والنسائي ٤/ ١٠ وأحمد ٢/ ٤١٨.

Marfat.com

سورة طه

وهي مكية مائة وثلاثون وخمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿طه﴾ قرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي في رواية أبي بكر «طِهِ» بكسر الطاء والهاء، وقرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص: ﴿طَهَ﴾ بنصب الطاء والهاء، وقرأ نافع وسطاً بين النصب والكسر، وقرأ أبو عمرو وابن العلاء بنصب الطاء وكسر الهاء.

قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية أبي صالح: «لما نزل على رسول الله ﷺ الوحي بمكة، اجتهد رسول الله ﷺ في العبادة، فاشتد عليه، فجعل يصلي الليل كله حتى شق عليه ذلك، ونحل جسمه، وتغير لونه، فقال أبو جهل وأصحابه: إنك شقي فأتنا بآية أنه ليس مع إلٰهك إله»، فنزل ﴿طَهَ﴾ يعني: يا رجل بلسان عكّ، وعنى به: النبي ﷺ.

وقال عكرمة والسدي: هو بالنَبْطية، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ﴿طه﴾ كقولك: «يا فلان»، ويقال: إنَّ النبي ﷺ كان إذا صلى رفع رجلاً ووضع أُخرى(١)، فأنزل الله عز وجل: ﴿طه﴾ يعني: طِئِ الأرض بقدميك جميعاً.

وقال مجاهد: ﴿طه﴾ فواتح السورة. ويقال: «طا» طرب المؤمنين في الجنة، و«ها» هو أن الكافرين في النار. ويقال: «طا» طلب المؤمنين في الحرب و«ها»: هرب الكافرين.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ يعني: لتتعب نفسك وتعيا **﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى﴾** يقول: لم ننزِّله إلا عظة لمن يسلم، وقال القتبي: في الآية تقديم، يقول: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى لا أن تشقى.

ثم قال: ﴿تَنزِيلاً﴾ يعني: نزل به جبريل عليه السلام ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ يعني: نزل من عند خالق السموات والأرض ﴿العلى﴾ يعني: الرفيع. وقال أهل اللغة: ﴿العلى﴾ جمع العُليا، تقول: السماء العليا والسموات العلى.

---

(١) عزاه السيوطي ٥/٥٥٠ إلى ابن مردويه وعن علي بإسناد حسن والربيع بن أنس عند البزار.

Marfat.com

ثم قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: استولى حكمه ونفذ و﴿على العرش﴾ يعني: علا. ويقال: كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض، ويقال: ﴿استوى﴾ استولى وملك، كما يقال: استوى فلان على بلد كذا يعني: استولى عليها وملكها، فالله تعالى بيَّن لخلقه قدرته وتمام ملكه، أنه يملك العرش وله ما في السموات وما في الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي من خلقٍ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ يعني: ما تحت الأرض السابعة السفلى. وروى أسباط عن السدي في قوله عز وجل: ﴿وما تحت الثرى﴾ قال: الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء، وهي ﴿سجّين﴾ التي فيها كتاب الكفار، ويقال: الثرى تراب رطب مقدار خمسمائة عام تحت الأرض، ولولا ذلك لأحرقت النار الدنيا وما فيها. وروي عن ابن عباس أنه قال: «بسطت الأرض على الحوت، والحوت على الماء والماء على الصخرة، الصخرة بين قرني الثور، والثور على الثرى، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله عز وجل.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: تعلن بالقول، يعني: بالقرآن ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ يعني: ما أسررت في نفسك ﴿وَأَخْفَى﴾ يعني: ما لم تحدث به نفسك، وهذا قول الضحاك، وقال ابن عباس هكذا، وقال عكرمة: السر ما حدث الرجل به أهله، ﴿وأخفى﴾ ما تكلمت به نفسك، وروى منصور بن عمار عن بعض الصحابة قال: «السر ما أسررت به في نفسك»، ﴿وأخفى﴾ «من السر ما لم يطلع عليه أحد أنه كائنٌ».

ثم قال عز وجل: ﴿الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يعني: هو الله الخالق الرزاق، لا خالق ولا رازق غيره ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني: الصفات العلى.

﴿وَهَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ يعني: خبر موسى عليه السلام في القرآن. ثم أخبره فقال ﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ يعني: انزلوا مكانكم وقفوا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ يعني: أبصرت ناراً، وذلك حين رجع من مدين مع أهله أصابهم البرد، فرأى موسى ناراً من البعد فقال لهم: ﴿امكثوا إني انست ناراً﴾ ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ يعني: بشعلة، وهو ما اقتبس من عود ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ يعني: هادياً يدلنا على الطريق. وكان موسى عليه السلام ضل الطريق، وكانت ليلة مظلمة ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني: انتهى إلى النار ﴿نُودِيَ﴾ يعني: دعي ﴿يَا مُوسَى﴾ قال ابن عباس: «لما أتى النار فإذا هي نار بيضاء تستوقد من شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وهي خضراء، فجعل يتعجب منها»، وقال في رواية وهب بن منبه: «فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء

Marfat.com

فيقتبسه، فلما طال ذلك أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها، فلما فعل ذلك مالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر عنها، ثم عاد فطاف بها، فنودي ﴿يا موسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يعني: المطهر. قال مقاتل: ﴿طوى﴾ اسم الوادي، وقال مجاهد: يعني: طي الأرض حافياً. قال عامة المفسرين: إنما أمره أن يخلع نعليه لأنهما كانا من جلد حمار ميت، وقال بعضهم: أراد أن يصيب باطن قدميه من الوادي ليتبرك به. وروي عن كعب الأحبار: «أنه كان جالساً في المسجد، فجاء رجل يصلي فخلع نعليه، ثم جاء آخر يصلي فخلع نعليه، ثم جاء آخر فخلع نعليه، فقال لهم كعب الأحبار: «أنبيكم ﷺ أمركم بهذا؟ قالوا لا. قال: فلم تخلعون نعالكم إذا صليتم؟ قالوا: سمعنا الله تعالى يقول: ﴿اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾ قال: أتدرون من أي شيء كانتا نعليه؟ قالوا: لا. قال: إنما كانتا من جلد حمار ميت، فأمره الله تعالى أن يخلعهما ليمسه القدس كله». وقال عكرمة: ﴿اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾ قال: لكي تمس راحة قدميه الأرض الطيبة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿أني أنا ربك﴾ بنصب الألف، يعني: بأني أنا ربك على معنى البناء، وقرأ الباقون في ﴿أنا ربك﴾ بالكسر على معنى الابتداء. وقرأ حمزة ﴿لأهله امكثوا﴾ بضمّ الهاء الثانية، وقرأ الباقون بكسر الهاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿طوى﴾ بنصب الواو بغير تنوين، وقرأ الباقون بالتنوين.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**وأنا اخترتك**﴾ يعني: اصطفيتك للرسالة، قرأ حمزة بكسر الألف وتشديد النون ﴿وإنّا اخترناك﴾ بالنون بلفظ الجماعة، والباقون بنصب الألف وتخفيف النون وبالتاء ﴿أنا اخترتك﴾ قال أبو عبيدة: وبهذا نقرأ لموافقة الخط يعني: بخط عثمان ثم قال: ﴿**فاستمع لما يوحى**﴾ يعني: اعمل بما تؤمر وتنهى.

ثم قال: ﴿**إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني**﴾ يعني: أطعني واستقم على توحيدي ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ يعني: لتذكرني فيها، ويقال: إن نسيت الصلاة فصلها إذا ذكرتها. لأن الله تعالى يقول: ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ وروى الزهري عن سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ حين نام عن الصلاة حتى طلعت الشمس قال: «**مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَهَا إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾**»[1] قال بعضهم: هذا خطاب لموسى عليه السلام وقال بعضهم: هذا خطاب للنبي ﷺ إلى قوله ﴿واتبع هواه فتردى﴾.

(١) الحديث ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

ثم رجع إلى قصة موسى بقوله: ﴿إن الساعة آتية﴾ يعني: كائنة ﴿أكاد أخفيها﴾ يعني: أسرها عن نفسي فكيف أعلنها لكم يا أهل مكة؟ هكذا روي عن جماعة من المتقدمين، وهكذا قال ابن عباس في رواية أبي صالح، وقال القتبي كذلك في قراءة أبيّ ﴿أخفيها﴾ من نفسي، وهكذا روى جماعة من المتقدمين. وروى طلحة عن عطاء: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ عن نفسي. وروي في إحدى الروايتين عن أبي بن كعب أنه كان يقول: تقرأ ﴿أَكاد أخفيها﴾ بنصب الألف يعني: أكادُ أظهرُها، وهي قراءة سعيد بن جبير. قال أهل اللغة: خفى يخفى أي أظهر، وقال امرؤ القيس:

«خَـفَـاهـنَّ مـن انـفـاقِـهِـنَّ كـأنـمـا خـفـاهـنَّ مـن وَدْقِ سَـحَـابٌ مُـرَكَّـبُ»

يذكر الفرس أنه استخرج الفأرة من جحرهن كالمطر.

ثم قال: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ يعني: لتثاب كل نفس بما تعمل:

ثم قال عز وجل: ﴿فلا يصدنك عنها﴾ يعني: لا يصرفنك عنها، يعني: عن الإقرار بقيام الساعة ﴿من لا يؤمن بها﴾ يعني: من لا يصدق بقيام الساعة ﴿واتبع هواه فتردى﴾ يعني: فتهلك، ويقال: الردى، الموت والهلاك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام فقال عز وجل: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ يعني: أي شيء الذي بيدك أو ما الذي بيدك؟ وكان عالماً بما في يده، ولكن الحكمة في سؤاله لإزالة الوحشة عن موسى، لأن موسى كان خائفاً مستوحشاً كرجل دخل على ملك وهو خائف، فسأله عن شيء، فتزول بعض الوحشة عنه بذلك، ويستأنس بسؤاله. وقال بعضهم: إنما سأله تقريراً له أن ما في يده عصاً لكيلا يخاف إذا صار ثعباناً. فـ﴿قال﴾ موسى ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾ يعني: أعتمد عليها إذا أعييت ﴿وأهش بها على غنمي﴾ يعني: أخبط بها ورق الشجر لغنمي. فإن قيل: إنما سأله عما في يده ولم يسأله عما يصنع بها، فلم أجاب موسى عن شيء لم يسأله عنه؟ قيل له: قد قال بعضهم: في الآية إضمار يعني: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي﴾ فقال: وما تصنع بها؟ قال ﴿أَتَوَكَّأُ عليها وأهش بها على غنمي﴾. وقال بعضهم: إنما خاف موسى بذلك لأنه أمره بأن يخلع نعليه، فخاف أن يأمره بإلقاء عصاه، فجعل يذكر

Marfat.com

منافع عصاه فقال: ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾[1] ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ يعني: حوائج أُخرى، وواحدها: مأربة. وقال مقاتل: كان موسى يحمل زاده على عصاه إذا سار، وكان يركزها في الأرض فيخرج الماء، وتضيء له بالليل بغير قمر، فيهتدي على غنمه. وروى أسباط عن السدي قال: كانت عصا موسى من عود شجر آس من شجر الجنة، وكان استودعها إياه ملك من الملائكة في صورة إنسان، يعني: عند شعيب، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كانت عصا موسى من عود ورد من شجر الجنة اثني عشر ذراعاً من ذراع موسى».

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى﴾ يعني: ألق عصاك من يدك، فظن موسى أنه يأمره بإلقائها على وجه الرفض، فلم يجد بداً ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾ يعني: تسرح وتسير على بطنها رافعة رأسها، فخاف موسى وولى هارباً ﴿قال﴾ الله تعالى لموسى: ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ يعني: سنجعلها عصاً كما كانت أول مرة. وأصل السيرة: الطريقة كما يقال: فلان على سيرة فلان، أي: على طريقته، وإنما صار نصباً لنزع الخافض، والمعنى: سنعيدها إلى حالها الأولى، فتناولها موسى فإذا هي عصاً كما كانت.

ثم قال عز وجل: ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ قال الكلبي: الجناح أسفل الإبط، يعني: أدخل يدك تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لها شعاع يضيء كضوء الشمس ﴿من غير سوء﴾ يعني: من غير برص ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ يعني: علامة أُخرى مع العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ يعني: العظمى، ومعناه: لنريك الكبرى من آياتنا، ولهذا لم يقل الكبريات، لأنه وقع المعنى على واحدة.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ
عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى
﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ
قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، يعني: علا وتكبر وادعى الربوبية، يعني: اذهب إليه وادعه إلى الإسلام. ﴿قال﴾ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، يعني: يا رب وسِّع لي قلبي حتى لا أخاف منه، ويقال: ليِّن قلبي بالإسلام حتى أثبت عليه، ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾؛ يعني: هوِّن عليَّ ما أمرتني به، ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾؛ يعني: ابسُطِ العقدة أي: الرتة من لساني ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، يعني: يفهموا كلامي. وذلك أن موسى عليه السلام في حال صغره رفعه فرعون في حجره، فلطمه موسى لطمة، ويقال: أخذ بلحيته ومدها إلى الأرض،

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

فقال فرعون: هذا من أعدائي الذين كنت أتخوف به، فقالت امرأته آسية بنت مُزاحم: صبيّ جاهل لا عقل له، ضع له طستاً من حُليّ وطستاً من نار حتى نعلم ما يصنع. فوضعوا له ذلك، فجاء جبريل عليه السلام فأخذ يده فأهوى بها إلى النار، فأخذ جمرة فوضعها في فيه فكانت الرثوثة من ذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿يفقهوا قولي﴾.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ﴾، يعني: اجعل لي معيناً من أهلي يعني: أخي هارون. ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾، حتى يكون قوة لي. والأزر: الظهرُ وجماعته: أزر ويراد به القوة. يقال: آزرت فلاناً على الأمر أي: قويته عليه، وإنما نصب ﴿هَارُونَ﴾ لوقوع الفعل عليه، والمعنى: اجعل هارون أخي وزيراً، فصار الوزيرُ المفعول الثاني. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾، يعني: في نبوتي.

قرأ ابن عامر ﴿أَشْدُدْ﴾ بنصب الألف ﴿وَأُشْرِكْهُ﴾ بضم الألف على معنى الخبر عن نفسه، أي: أنا أفعل ذلك، وإنما كان جزماً على الجزاء في الأمر. وقرأ الباقون ﴿أُشْدُدْ﴾ بضم الألف ﴿واشرِكْهُ﴾ بنصب الألف على معنى الدعاء، يعني: اللهم أشدد به أزري وأشركه في أمري، قال أبو عبيدة: بهذه القراءة نقرأ، ويكون حرف ابن مسعود شاهداً لها، وكان يقرأ: ﴿هَارُونَ أَخِي واشْدُدْ بِهِ أَزرِي وَأَشرِكْهُ فِي أَمرِي﴾ وفي حرف أُبي ﴿وأشركه في أمري واشدد به أزري﴾ قال: كأنه دعا.

ثم قال: ﴿كي نسبحك كثيراً﴾، يعني: نصلي لك كثيراً، ﴿ونذكرك﴾ باللسان ﴿كثيراً﴾، يعني: على كل حال ﴿إنكَ كنت بنا بصيراً﴾، أي: كنت عالماً بنا في الأحوال كلها.

﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ يعني: أعطيناك ما سألته.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم قال: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ يعني: قد أكرمتك بكرامات قبل هذا من غير أن تسالني. ثم بيّن له الكرامات والنعم فقال: ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ أي: ألهمنا أمك ما ألهمتْ، ويقال: ﴿مَا يُوحَى﴾ على الحجر، يعني: كان إلهاماً ولم يكن وحياً. ﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ يعني: اجعلي موسى في التابوت، ثم ﴿فاقذفيه في اليم﴾ يعني: اطرحيه في البحر. ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ يعني: شاطىء البحر.

Marfat.com

ـ فإن قيل: لِمَ أمرَ بإلقائه في اليم؟ قيل له: إنما أمره بذلك، لأن البحر يخفي عن المنجمين ما فيه، فكان إلقاؤه لتجنيب حال موسى عليه السلام عن المنجمين، لكيلا يأخذه فرعون ويقتله. وقيل: أراد أن يكون مع الماء لكيلا يخاف وقت عبوره البحر لاحقاً. وقيل: أراد الله تعالى أن يريَ أمّه حفظ الله تعالى له[1].

﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾، يعني: آل فرعون ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾، يعني: ألقيت محبتي عليك، فكل من رآك أحبك. ﴿ولتصنع على عيني﴾، يقول: ما يصنع بك على منظر مني وبعلمي وبإرادتي. ﴿إذ تمشي أختك فتقول﴾: لآل فرعون ﴿هل أدلكم﴾؟ يعني: أرشدكم ﴿على من يكفله﴾ يعني: يضمه ويحوطه ويرضعه. ﴿فرجعناك﴾، يقول: رددناك ﴿إلى أمك كي تقر عينها﴾ يعني: لتطيب نفسها. ﴿ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم﴾، يعني: من القود، ﴿وفتناك فتوناً﴾؛ يعني: ابتليناك ببلاء بعد بلاء، ويقال: بنعمة على إثر نعمة.

قال: أخبرني الثقة بإسناده، عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس، عن قول الله عز وجل لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: «استأنِفِ النهارَ يا ابنَ جبير، فإن له حديثاً طويلاً. فلما أصبحتُ غدوت إلى ابن عباس، ليخبرني ما وعدني من حديث الفتون، فقال ابن عباس: «تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل لينتظرون ذلك ما يشكون فيه. قال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشغار، يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا. فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون وأن الصغار يذبحون قالوا: يوشك أن يفنى بنو إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم. فاقتلوا عاماً ودعوا عاماً لا تقتلوا منهم أحداً، فنشأت الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم. فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانيةً، حتى إذا كان من قابل حملت بموسى، فوقع في قلبها من الحزن والهمّ، فذلك من الفتون يا ابن جبير.

فأدخل عليه في بطن أمه ما يراد به، فأوحى الله تعالى إليها أنْ ﴿لاَ تَخَافِيْ وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: أمر الله تعالى أم موسى إذا هي ولدته أن تجعله في التابوت، ثم تلقيه في اليم. فلما ولدته فعلت ما أُمرت به، حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت بابني، لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليَّ من أن ألقيه بيدي إلى دواب البحر تأكله. فانطلق به الماءُ حتى أرقى به عند فرضة مستقى جواري امرأة

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

فرعون، فرأينه فأخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن لبعض: إن في هذا مالاً، وإنّا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه. فحملنه كهيئته حتى رفعنه إليها. فلما فتحته رأت فيه الغلام، فألقى عليه منها محبة لم يُلْقَ مثلها على أحد قط من البشر، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ من ذكر كل شيء إلا ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت للذباحين: اصبروا عليّ، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل لا ينقص فآتي به فرعون فأستوهبه منه إياه. فإن وهبه لي فقد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أنهكم. فلما أتت فرعون به قالت: قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه». فقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ بِأَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ لَهَدَاهُ الله عز وجل بِمُوسَى. كَمَا هَدَى بِهِ امْرَأَتَهُ». قال: «فأرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار له ظِئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل من ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، ثم أمرت به فأخرج إلى السوق واجتمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبلْ، فأصبحت أم موسى والهةً، فقالت لأخته: قصّي أثره فاطلبيه، هل تسمعين له ذكراً أحيٌّ ابني أم قد أكلته الدواب في البحر؟ فبصرت به عن جنب، أي: عن بعد، والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهي إلى جنبه لا تشعر به فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] فقالوا: وما يدريك ما نصحهم له، وهل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك. وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه، لرغبتهم في الملِك ورجاء منفعته. فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر، فجاءت، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها، فمصه حتى امتلأ جنباه رياً، فانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها بأن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها، قالت لها: امكثي عندي ترضعين ابني، فإني لم أحب مثل حبه شيئاً قطُّ. قالت: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي، لا آلو خيراً إلا فعلت به، وإلا فإني غير تاركةٍ بيتي وولدي.

فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها، فأنجزها الله عز وجل وعده، وأنبته الله تعالى نباتاً حسناً. فلم تزل بنو إسرائيل تمتنع به من الظلم والسُّخرةِ. فلما ترعرع أي: كبر، قالت امرأة فرعون لأم موسى: أريني ابني، فواعدتها يوماً وقالت لخزانها وقهارمتها: لا يبقى منكم أحد إلا ويستقبل ابني بهدية وكرامة. فلم تزل الهدايا والكرامات تستقبله من حيث خرج من بيت أمه إلى أن دخل إلى امرأة فرعون، فلما دخل عليها بَجَّلَتْه وأكرمته وفرحت به وأعجبها، وبَجَّلت أمه لأثرها عليه. ثم قالت: لأنطلقنّ به إلى فرعون فليبجلنْه وليكرمنْه. فلما دخلت به عليه جعلته في

Marfat.com

حجره، فتناول موسى لحية فرعون ومدها إلى الأرض، فقالت له الغواة من أعداء الله: ألا ترى إلى ما وعد الله إبراهيم عليه السلام؟ إنه يريد أن يصرعك وينزع عنك ملكك ويهلكك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت له: ما بدا لك في هذا الصبي الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه، إنه سيصرعني؟ فقالت له: اجعل بينك وبينه أمراً لتعرف فيه الحق. ائتِ بجمرتين ولؤلؤتين، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين، علمت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين، فاعلم بأنه لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب ذلك إليه، فتناول الجمرتين، فانتزعوهما منه مخافة أن تُحرقا يديه.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم ولا بسخرة. فبينما هو يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من آل فرعون، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى واشتدّ غضبه، فوكزه فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي. فأتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا. فقال: ائتوني بقاتله والذي يشهد عليه آخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون شيئاً، وإذا موسى قد رأى من الغد الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، وقد ندم موسى على ما كان منه بالأمس، وكره الذي رأى، فغضب على الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيليّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] فخاف الإسرائيلي، وظن أنه يريد إياه فقال: يا موسى ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩]، فتتاركا، فانطلق الفرعوني إلى قومه وأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر. فأرسل فرعون إلى الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى. وجاء رجل من شيعة موسى، فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره الخبر، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاءً قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه تعالى، فإنه قال: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]. يعني: إنهما حابستان غنمهما. فقال: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم فنسقي، فسقى لهما موسى فجعل يغرف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاة فراغاً. فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما، وانصرف موسى إلى شجرة فاستظل بها. فاستنكر أبو الجاريتين سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلاً فقال: إن لكما لشأناً اليوم. فحدثاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه له، فأتته فدعته. فلما دخل على شعيب عليه

Marfat.com

السلام فأخبره بالقصة قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، أي: ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة وقال: وما يدريك ما أمانته وقوته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت مثله حين سقى لنا الماء رجلاً قط أقوى من ذلك في ذلك السقي منه. وأما أمانته، فإنه لمّا نظرني حين أقبلت إليه، صَوَّبَ رأسه ولم يرفعه، ولم ينظر إلي حين بلَّغته رسالتك، فقال لي: امشي خلفي وانعتي إلي الطريق، يعني: صِفي لي ودلّيني على الطريق. فسري عن أبيها فقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

فكان على موسى ثمان سنين واجبة، وكانت سنتانِ عدة منه. فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله، كان من أمره ما قصّ الله عليك في القرآن، فشكا إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه عن كثير من الكلام، فسأل ربه أن يعينه بأخيه ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به.

فأعطاه الله عز وجل سؤاله، وحلّ عقدة من لسانه، فاندفع موسى بالعصا فلقي هارون، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، وأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما بالدخول. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا: إنّا رسولا ربك. قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قصّ الله عز وجل في القرآن. فقال: مَا تُريدانِ؟ فقال موسى: أريد أن تؤمن بالله تعالى وأن ترسل معنا بني إسرائيل. فأبى عليه ذلك، فقال: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فاقتحم فرعون عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، وأخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، ثم أعادها إلى كمه فصارت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ فيما رأى، فقالوا: اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير. فأرسل فرعون في المدائن، فحشر له كل ساحر متعالم. فلما أتوا فرعون، قالوا: بمَ يعمل هذان السّاحران؟ قالوا: يعملان بالحيات. فقالوا: والله ما في الأرض قوم يعملون بالحيات التي نعمل. فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

ويوم الزينة: هو اليوم الذي أظهر الله عز وجل موسى على فرعون والسحرة، وهو يوم عاشوراء، فقال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، فنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، يعنون بذلك: موسى وهارون، استهزاءً بهما. قالت السحرة لموسى لِقُدرَتِهِمْ بسحرهم ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. قال لهم موسى: ألقوا. فألقوا حبالهم وعصيهم، فرأى موسى من سحرهم شيئاً عظيماً، فأوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله تعالى إليه: أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاها، فجعلت تلتقم العصي

Marfat.com

والحبال حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته. فلما عرفت السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا ساحراً لم يبلغ من سحره كل هذا، ولكن هذا أمر من أمر الله عز وجل.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، أمر الله تعالى موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً. فلما أصبح فرعون، فبعث في المَدَائِن حَاشِرين، وتبعهم بجنود عظيمة، فنسي موسى أن يضربَ بعصاه البحر. فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال قوم موسى: إنا لمُدرَكُون، افعل ما أمرك الله عز وجل. فتذكّر موسى عليه السلام ما وعده الله عز وجل، فضرب البحر بالعصا فانفلق البحر اثنتي عشرة فرقة. فلما جاوز أصحاب موسى كلهم، ودخل أصحاب فرعون كلهم، التقى البحر عليهم، فقال أصحاب موسى: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق فدعا موسى ربه، فأخرجه حتى استيقنوا، فمضوا حتى أنزلهم منزلاً، ثم قال لهم: أطيعوا هارون، فإني استخلفته عليكم، وإني ذاهب إلى ربي. وأجّلهم ثلاثين يوماً وقد صامهن أي: صام موسى ليعلِّمهم.

وكره أن يكلمه ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم به. قال: يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال الله عز وجل: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ ارجع حتى تصوم عشرة أيام، ثم ائتني. ففعل موسى الذي أمره ربه تبارك تعالى، فلما رأى قوم موسى أنه لم يأتهم للأجل، ساءهم ذلك.

وأخرج لهم السامري عجلاً جسداً، له خوار من حلي آل فرعون، فتفرق بنو إسرائيل، فقالت فرقة للسامري: ما هذا؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أخطأ الطريق. فقالوا: لا نكذِّب بهذا حتى يرجع إلينا موسى. وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس هذا بربنا. وأُشرِبَ فرقة في قلوبهم التصديق، وقال لهم هارون: إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن. فلما كلم الله عز وجل موسى، أخبره بما لقي قومه بعده، فرجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفاً، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه كما قصّ الله عز وجل في هذه السورة، وقال: ﴿وفتناك فتوناً﴾، يعني: اختبرناك اختباراً، ويقال: أخلصناك إخلاصاً. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١].

ثم قال عز وجل: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾، أي: عشر سنين ﴿في أهل مدين﴾ عند شعيب عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾؛ يعني: على وقت مقدور عليك يا موسى، وهذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: ﴿على قدر﴾ أي: على ميقات، ويقال: على موعد، ويقال: على قدر من تكليمي إياك، ويقال: على قضاء قضيته، ويقال: على تمام الذي يوحى للأنبياء أربعينَ سنة.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

Marfat.com

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾، يعني: اخترتك للرسالة والنبوة ولإقامة حجتي. فقال موسى: يا ربّ حسبي حسبي فقد تمت كرامتي، فقال الله عز وجل: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾، يعني: آياتي التسع، ﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾؛ يعني: لا تفترا ولا تضعفا ولا تعجزا عن أداء رسالتي. ﴿اذهبا إِلَى فِرْعَونَ إِنَّه طَغَى﴾، يعني: تكبر وعلا. ﴿فقولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾، يعني: كلاماً باللين والشفقة والرفق، لأن الرؤساء بكلام اللين أقرب إلى الانقياد من الكلام العنيف. أي: قولا له: أيها الملك، ويقال: ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ لوجوب حقه عليك بما ربّاك، وإن كان كافراً.

وروى أسباط عن السدي قال: القول اللين، أن موسى جاءه فقال له: تُسلم وتُؤمن بما جئت به وتعبدُ رب العالمين، على أن لك شباباً لا يهرم أبداً، وتكون ملكاً لا يُنزع منك أبداً حتى تموت، ولا ينتزع منك لذة الطعام والشراب والجماع أبداً حتى تموت، فإذا متَّ دخلت الجنة. قال: فكأنه أعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان، وكان هامان غائباً فقال له فرعون: إن لي من أوامره وهو غائب حتى يقدم أي لأشاوره. فلم يلبث أن قدم هامان، فقال له فرعون: علمت بأن ذلك الرجل أتاني؟ فقال هامان: ومن ذلك الرجل؟ فقال: هو موسى. قال: فما قال؟ فأخبره بالذي دعاه إليه. قال: فما قلت له؟ قال: لقد دعاني إلى أمر أعجبني. فقال له هامان: قد كنت أرى لك عقلاً وأن لك رأياً بيناً، أنت رب أفتريد أن تكون مربوباً، وبينا أنْ تُعبدَ أفتريدُ أن تعبُدَ غيرَك؟ فغلبه على رأيه فأبى.

ثم قال تعالى: ﴿لعلَّهُ يَتذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، يعني: يتعظ أو يسلم. وقال الزجاج: «لعل» في اللغة ترجِّي وتطمّع، يقول: لعله يصير إلى خير. والله سبحانه وتعالى خاطب العباد بما يعقلون، والمعنى عند سيبويه: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وقد علم الله تعالى أنه لا يتذكر ولا يخشى، إلا أن الحجة إنما تجب بإبانه. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فعليك باللين لأنك لست بأفضل من موسى وهارون، ولا الذي تأمره بالمعروف ليس بأسوأ من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى بأن يأمراه باللين، فأنت أولى أن تأمر وتنهى باللين.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال الله عز وجل: ﴿قالا﴾، يعني: موسى وهارون: ﴿رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ

Marfat.com

عَلَيْنَا﴾؛ يعني: أن يبادر بعقوبتنا. يقال: قد فرط منه أمر، أي: قد بدر منه. قال النبي ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ». ويقال: ﴿أن يفرط علينا﴾، يعني: أن يضرَّ بنا. ﴿أو أن يطغى﴾، يعني: يقتلنا: قال: كان هذا القول من موسى وهارون حين رجع موسى إلى مصر، وأوحى الله تعالى إليهما فقالا عند ذلك: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ وقال بعضهم: قد قال الله عز وجل ذلك لموسى عند طور سيناء، فأجابه موسى عن نفسه وعن هارون، فأضاف القول إليهما جميعاً.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿لاَ تَخَافَا﴾، عقوبة فرعون عند أداء الرسالة. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾، أي: معينكما. ﴿أَسْمَعُ﴾ ما نزل عليكما، ﴿وأرى﴾ ما يصنع بكما.

ثمّ قال عز وجل: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾، يعني: فاذهبا إلى فرعون، ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: في الآية دليل أنه يجوز رواية الأخبار بالمعنى، وإنما العبرة للمعنى دون اللفظ، لأن الله تعالى حكى معنى واحداً بألفاظ مختلفة، وقال في موضع آخر ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقال هاهنا: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢]، وقال في موضع: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾، يعني: لا تستعبدهم. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾، يعني: باليد والعصا. ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، يعني: على من طلب الحق ورغب في الإسلام. قال الزجاج: ﴿والسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبعَ الهُدَى﴾ معناه: أن من اتبع الهدى، فقد سلم من عذاب الله عز وجل وسخطه.

قال عز وجل: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ يعني: أن العذاب في الآخرة بالدوام ﴿عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ بالتوحيد ﴿وتولَّى﴾ عن التوحيد والإيمان ولم يذكر في الآية أنهما أتيا فرعون، لأن في الكلام دليلاً عليه حيث ذكر قول فرعون، ومعناه: أنهما أتيا فرعون وأديا إليه الرسالة وقالا: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾. لأن في الكلام دليلاً عليه، حيث ذكر قول فرعون:

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾، ولم يقل من ربي تكبراً منه. ﴿قال﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾، يعني: شكله، ويقال: خلق لكل ذكر أنثى شبهه ﴿ثم هدى﴾، يعني: ألهمه الأكل والشرب والجماع، وقال القتبي: الإهداء أصله الإرشاد، كقوله ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي﴾ [القصص: ٢٢]. ثم الإرشاد مرة يكون بالدعاء، ومرة بالبيان. وقد ذكرناه في سورة الأعراف، ومرة بالإلهام كقوله: ﴿أَعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي: صورته ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي: ألهمه إتيان الإناث. ويقال: ألهمه طلب المرعى وتوقي المهالك. وقال الحسن: ﴿أعطى كل شيء خلقه﴾ ما يصلح له، ثم هداه. ثمّ أن موسى أخبره بالبعث والجزاء وأمر الآخرة.

Marfat.com

وقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾؟ يعني: ما حال وما شأن القرون الماضية؟ ﴿قال﴾ موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾، يعني: في اللوح المحفوظ. ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي﴾ يعني: لا يخفى على ربي، ﴿ولا ينسى﴾ ما كان من إمرهم. وقال مجاهد ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي﴾، أي: لا يخفى عليه شيء واحد. قال السدي: أي: لا يغفل ولا يترك، وكان الحسن يقرأ ﴿لا يُضِلُّ﴾ بضم الياء، يعني: لايضله الله، يعني به: الكتاب. وإلى هذا الموضع حكاية كلام موسى.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

ثم إن الله عز وجل قال لمشركي مكة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ مَهْداً﴾ أي: موضع القرار، وهو الرب الذي ذكر موسى لفرعون ودعاه إلى عبادته. قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿مَهْداً﴾ وقرأ الباقون ﴿مِهاداً﴾ يعني: فراشاً وبساطاً. قال أبو عبيدة: المهد الفعل، يقال: مهدت مهداً، والمهاد: اسم الموضع. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾، يعني: جعل لكم فيها طرقاً، ﴿وأنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ يعني: المطر، ﴿فأخرجنا به أزواجاً﴾؛ يعني: أنبتنا بالمطر أصنافاً وألواناً. ﴿مِن نباتٍ شتَّى﴾ مختلف ألوانه. ﴿كُلوا وَارْعَوْا أَنعامَكُم﴾. اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر، يعني: لتأكلوا منه وترعوا أنعامكم. ﴿إنَّ في ذَلِكَ﴾، يعني: إن في اختلاف النبات ألوانه وغير ذلك ﴿لآيَاتٍ﴾، أي: لعبرات ﴿لأولِي النُّهَى﴾، يعني: لذوي العقول من الناس.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿مِنهَا خَلَقْناكُمْ﴾، يعني: آدم عليه السلام خلقناه من الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بعد موتكم، ﴿وَمِنْهَا نُخرِجُكُمْ﴾ يعني: نحييكم ونخرجكم من الأرض ﴿تَارَةً أُخرى﴾.

ثم رجع إلى قصة فرعون فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾، يعني: العلامات والدلائل، ﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات، ﴿وَأَبَى﴾ أن يسلم. ﴿قال﴾ فرعون وقومه: ﴿أجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُه نحنُ ولا أنت مكاناً

Marfat.com

سوى﴾، يعني: لا نجاوزه مكاناً سوى ذلك المكان، وهذه قراءة نافع؛ وأبي عمرو والكسائي وابن كثير يقرؤون بالكسر، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿سُوى﴾ بضم السين ومعناه: الإنصاف، وقال بعضهم: سُوى وسِوَى لغتان، وقال مجاهد: مكاناً منصفاً بينهم، وقال السدي: أي: عدلاً بينهم، وقال القتبي: أي وسطاً بين الفريقين.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾، يعني: يوم عيد لهم، وهو يوم النيروز. وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «هو يوم عاشوراء». ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾، يعني: إذا حشر الناس واجتمعوا على وقت الضحى، ﴿فتولى فرعون﴾؛ يعني: رجع إلى أهله، ﴿فجمع كيده﴾؛ يعني: سحرته، ﴿ثم أتى﴾؛ يعني: أتى الميعاد. قرا بعضهم: ﴿يَوْمَ الزِّينَةَ﴾ بنصب الميم، والمعنى: يقع في ﴿يَوْمَ الزِّينَةَ﴾ وقراءة العامة ﴿يومُ الزينة﴾ رفع على معنى خبر الابتداء.

ثمّ ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾، يعني: ضيّق الله عليكم الدنيا، لا تختلقوا على الله كذباً قال الزجاج: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ منصوب على أن ألزمهم الله ويلاً، قال: ويجوز أن يكون على النداء كما قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾، يعني: يأخذكم بعذاب ويهلككم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ الباقون ﴿فَيَسْحَتَكُمْ﴾ بالنصب؛ وهما لغتان. يقال: سَحته وأسْحته إذا استأصله وأهلكه. ﴿وقد خاب﴾، يعني: خسر ﴿من افترى﴾ يعني: اختلق على الله كذباً.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾

قال عز وجل: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: تناظروا أمرهم بينهم - يعني: اختلفوا فيما بينهم سراً من فرعون وهم السحرة، وقالوا فيما بينهم: إن كان ما يقول موسى حقاً واجباً فيكون الغلبة لموسى، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾، يعني: تناظروا أمرهم بينهم[1] - ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾، يعني: أخفوا الكلام. ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، يعني: موسى وهارون، ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾؛ قرأ أبو عمرو: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ لأن ﴿إنّ﴾ تنصب ما بعدها. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص ﴿إنْ هذانّ﴾ بجزم إن وتشديد نون هذانّ عند ابن كثير خاصة، وقرأ الباقون ﴿إنَّ﴾ بالنصب والتشديد ﴿هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «ب».

Marfat.com

بالتخفيف. وقال أبو عبيد: نقرأ بهذا، ورأيت في مصحف عثمان رضي الله عنه بهذا اللفظ ﴿إنّ هذين لساحران﴾ ﴿إِنَّ هَاذَيْن﴾ ليس فيه ألف، وهكذا رأيت رفع الاثنين في جميع المصاحف بإسقاط الألف، وإذا كتبوا بالنصب والخفض كتبوها بالياء. وحكى الكسائي، عن أبي الحارث بن كعب وخثعم وزيد وأهل تلك الناحية: الرفع مكان النصب وقال القائل:

أيّ قُلُوصِ راكبٍ تراها   طاروا علاهُنّ فطِرْ علاها

وقال آخر:

إنَّ أباها وأبا أباها   قَدْ بَلَغا فِي المَجْدِ غايَتاها

وقال آخر:

فَمَنْ يَكُ أمْسَى بِالمَدِينَةِ رَحْلُهُ   فإنّي وَقَيّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

وروى وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم قالوا: كانوا يرون أن الألف والياء في القراءة سواء ﴿إنّ هاذانِ لساحِرانِ﴾ و ﴿إِنَّ هَاذَيْنِ لَسَاحِرَيْنِ﴾ سواء. وفي مصحف عبد الله ﴿إِنَّ هَاذَانِ ساحِرانِ﴾ وفي مصحف أبيّ ﴿إنّ هٰذانِ إلاَّ ساحِرانِ﴾.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَيذهبا بطَريقَتِكُمُ المُثْلَى﴾، يقول برجالكم الأمثل فالأمثل. يقول: ليغلبا على الرجال من أهل العقول والشرف، وقال القتبي: يقال: هؤلاء طريقة القوم، أي: أشرافهم، ويقال: أراد سنتكم ودينكم، وقال الزجاج: معناه، يذهبا بأهل طريقتكم، كما قال: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

ثم قال عز وجل: ﴿فأجمِعُوا كيدَكُمْ﴾؛ قرأ أبو عمرو ﴿فاجْمَعُوا﴾ بجزم الألف ونصب الميم، يعني: جيئوا بكل كيد تقدرون عليه، لا تبقوا منه شيئاً. وقرأ الباقون: ﴿فَأجْمِعُوا﴾ بقطع الألف وكسر الميم، ومعناه: ليكن عزمكم كلكم على الكيد مجمعاً عليه، ولا تختلفوا فتخذلوا. وقال أبو عبيدة: بهذا نقرأ، لأن الناس عليها ولصحتها في العربية يقال: أجْمَعْتُ الأمر واجتمعْتُ عليه، وإنما يقال: جمعتُ الشيء المتفرق فتجمّع.

ثمّ قال: ﴿ثم ائتوا صفاً﴾، يعني: جميعاً. قال أبو عبيد: الصف المصلى، وقال الزجاج: ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ يعني: الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم. قال: ويجوز أن يكون قوله ثم ائتوا مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمركم، وأشد لهيبتكم. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ﴾ يعني: قد فاز ونجا اليوم ﴿من استعلى﴾ أي: من علا بالغلبة.

ثم جمع فرعون بينهم وبين موسى عليه السلام ف﴿قالُوا يا مُوسَى﴾، يعني: السحرة، ﴿إمّا أن تُلقي﴾ يعني: أن تطرح عصاك على الأرض، ﴿وإما أن نكُونَ أوّلَ مَنْ ألقى﴾ إلى الأرض. ﴿قال﴾ لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾، فألقوا في الكلام مضمر. ﴿فإذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾، يعني: تراءت إلى موسى ﴿من سحرهم أنها تسعى﴾، يعني: كأنها حيات تسير. وروي عن الحسن أنه كان يقرأ بالتاء ﴿تخيّلُ﴾ لأن جمع العصي مؤنث، وقراءة العامة بالياء يعني: سعيها.

Marfat.com

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

ثمّ قال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾، يعني: أضمر في قلبه الخوف، وخاف أن لا يظفر به إن صنع القوم مثل ما صنع؛ ويقال: خاف من الحيات من جهة الطبع. ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ﴾ يعني: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن لا تخف ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾ يعني: الغالب. و﴿فأوجس﴾ أي أحسَّ ووجد خوفاً من سحرهم. فقال تعالى: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ عليهم بالظفر والغلبة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، يعني: اطرح ما في يمينك من العصا، ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ يعني: تلقم ما عملوا. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾، يعني: عمل سحرٍ. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿تَلْقَفْ﴾ بالجزم والتخفيف، وقرأ ابن كثير في الروايتين ﴿تَلَقَّفُ﴾ بالنصب والتشديد وضم الفاء، وقرأ الباقون بجزم الفاء وتشديد القاف لأنه جواب الأمر. وقرأ حمزة والكسائي ﴿كَيْدَ سحرٍ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾، وقال أبو عبيد: بهذا نقرأ، لأن إضافة الكيد إلى الرجل أولى من إضافته إلى السحر. وقرأ بعضهم ﴿كَيْدَ سِحرٍ﴾ بنصب الدال، جعله نصباً لوقوع الفعل عليه وهو قوله تعالى: ﴿صَنَعُوا﴾؛ وهذا كما يقول: إنما ضربت زيداً، وقراءة العامة بالضم، لأنه خبر إن، وما اسم، ومعناه: إن الذي صنعوا كيدُ سحرٍ. ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، أي: حيثما عمل، ويقال: لا يفوز حيثما كان وذهب.

قوله عز وجل: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾، يعني: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا، وهذا قول الأخفش. وقال الفراء والقتبي: وقعوا للسجود ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ يعني، صدقنا به ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، يعني: قبل أن آمركم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾، يعني: موسى لعالمكم. ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وإنما أراد به التلبيس على قومه، لأنه علم أنهم لم يتعلموا من موسى، وإنما علموا السحر قبل قدوم موسى وقبل ولادته.

ثم قال: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجلَكُم مِنْ خِلاَفٍ﴾، اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، يعني: على أصول النخل على شاطىء النيل، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ يعني: وأدوم، أنا أم رب موسى؟

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

Marfat.com

قوله: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ﴾، أي: لن نختار عبادتك وطاعتك ولن نتبع دينك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، يعني: على دين الله بعدما جاءنا من العلامات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾، يعني: ولا عبادتك على عبادة الذي خلقنا، ويقال: هو على معنى القسم، أي: لن نختارك ودينك والذي فطرنا، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ يقول اصنع ما أنت صانع، فاحكم فينا من القطع والصلب ما شئت، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، يقول: لست بحاكم علينا ولا تملكنا إلا في الدنيا ما دام الروح فينا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾، يعني: ما عملنا في حال الشرك، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾؛ يعني: ليغفر لنا ما أجبرتنا عليه من السحر. ويروى أن فرعون أكرههم على تعلم السحر ﴿والله خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، يعني: الله خير لنا منك وأدوم، وثواب الله عز وجل خير من عطائك وأبقى مما وعدتنا به من التعذيب.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾، أي: مشركاً. وإنّ للتأكيد والهاء للعماد وهذا قول الله تعالى عز وجل للنبي ﷺ إنه من يأت ربه يوم القيامة كافراً، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى﴾، يعني: لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيى حياة تنفعه.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً﴾، يعني: يأتي يوم القيامة مؤمناً يعني: مصدقاً، ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ﴾؛ يعني: الطاعات. ﴿فَأولَئِكَ لَهُم الدَّرَجَات العُلَى﴾، يعني: الفضائل في الجنة.

ثم قال عز وجل: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، يعني: هي جنات عدن. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالدِينَ فِيهَا﴾، يعني: دائمين في الجنة. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكّى﴾، يعني: ثواب من وحّد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، يعني: سر بعبادي ليلاً ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً﴾ يعني: بيّن لهم طريقاً ﴿فِي البَحْرِ يَبَساً﴾، يعني: يابساً. ﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً﴾ يعني إدراك فرعون، ﴿وَلاَ تَخْشَى﴾ الغرق. قرأ حمزة: ﴿لا تَخَفْ دَرَكاً﴾ على معنى النهي، يعني: لا تخف أن يدركك فرعون. وقرأ الباقون ﴿لا تَخافُ﴾ بالألف ومعناه: لست تخاف. وقال أبو عبيد بهذا نقرأ، لأن من قرأ بالجزم يلزم أن يخشى، لأنه حرف معطوف على الذي قبله.

Marfat.com

ثم قال: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾، يعني: لحقهم فرعون بجموعه، ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ يعني: أصابهم من البحر ما أصابهم؛ ويقال: علاهم من البحر ما علاهم حين التقى البحر عليهم، ويقال: فغشيهم من البحر ما غرقهم. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾، يعني: أهلكهم وما نجا بنفسه، ويقال: أضلهم بحمله إياهم على الضلالة، ﴿وَمَا هَدَى﴾ يعني: ما هداهم إلى الرشاد وهذا رد لقوله: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨] ويقال: ﴿وَمَا هَدَى﴾ يعني: ما هداه إلى الصواب.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

ثم ذكر نعمته على بني إسرائيل فقال عز وجل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾، يعني: فرعون، ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾؛ يعني: يمين موسى، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ حيث كانوا في التيه.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، يعني: قال لهم: كلوا من حلالات ما رزقناكم، يعني: أعطيناكم. قرأ حمزة والكسائي ﴿أَنْجَيْتُكُمْ وَوَاعَدْتُكُمْ مَا رَزَقْتُكُمْ﴾ الثلاثة كلها بالتاء، وقرأ ابن كثير وعاصم ونافع وابن عامر: الثلاثة بالألف والنون، وقرأ أبو عمرو بالتاء إلا قوله: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ﴾، أي: لا ترفعوا منه شيئاً للغد، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ يعني: فيجب وينزل عليكم عذابي. ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾، يعني: ومن يجب وينزل عليه غضبي، ﴿فَقَدْ هَوَى﴾؛ يعني: هلك وتردى في النار. قرأ الكسائي ﴿فَيَحُلَّ﴾ بضم الحاء من يحلُل بضم اللام، والباقون كلاهما بالكسر. فمن قرأ بالضم يعني: ينزل، ومن قرأ بالكسر يعني: يجب.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾، يعني: رجع من الشرك والذنوب ﴿وَآمَنَ﴾ يعني: صدّق بالله ورسله، ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾؛ يعني: خالصاً فيما بينه وبين ربه، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ يعني: علم أن لعمله ثواباً، وهذا قول مقاتل. وروى جويبر عن الضحاك: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: ثم استقام، وروى وكيع عن سفيان قال ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾، أي: مات على ذلك وقال ابن عباس: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: «مات على السُّنَّة».

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ

Marfat.com

غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾؛ وذلك أن موسى لما انتهى إلى الجبل وخلّف السبعين رجلاً الذين اختارهم، عجّل موسى عليه السلام شوقاً إلى كلام ربه، وأمرهم بأن يتبعوه إلى الجبل، فقال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾، يعني: ما أسبقك عن قومك، وتركت أصحابك خلفك؟ ﴿قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي﴾، ويحتمل أن يكون ﴿أولاء﴾ صلة، يعني: هم على أثري أي: يجيئون من بعدي. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾، يعني: لكي يزداد رضاك عني.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ وهذا على وجه الاختصار، لأنه لم يذكر ما جرى من القصة، لأنه ذكر في موضع آخر، فها هنا اختصر الكلام وقال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾، يعني: ابتلينا قومك من بعد انطلاقك إلى الجبل، ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾؛ يعني: أمرهم السامري بعبادة العجل. ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي: حزيناً وقال القتبي: ﴿أسفاً﴾ أي: شديد الغضب. فلما دخل المحلة، رآهم حول العجل، فأبصر ما يصنعون حوله، ﴿قال يا قوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾؛ يعني: وعداً صدقاً، ومعناه: وعد الله عز وجل بأن يدفع الكتاب إلى موسى عليه السلام ليقرأه عليهم ويهتدوا به؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، يعني: طالت عليكم المدة؟ ﴿أم أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عليكم﴾، يعني: يجب ﴿غَضَبٌ﴾، يعني: سخط ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ يعني: بترك عبادة الله عزّ وجل؟

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿قالوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بملكنا﴾، يعني: ما تعمدنا ذلك. قرأ حمزة والكسائي ﴿بِمُلْكِنَا﴾ بضم الميم، يعني: ما فعلناه بسلطان كان لنا ولا قدرة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿بِمِلْكِنَا﴾ بكسر الميم. والملك ما حوته اليد. وقرأ نافع وعاصم ﴿بِمَلْكِنَا﴾ بنصب الميم وهو بمعنى الملك. ﴿ولكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزاراً﴾، يعني: آثاماً ﴿مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾، يعني: من حلي آل فرعون. ويقال: ﴿أوزاراً﴾ يعني: أحمالاً، ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ يعني: فطرحناها في النار. قرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿حَمَلْنَا﴾ بالنصب والتخفيف، وقرأ الباقون ﴿حُمِّلْنا﴾ بضم الحاء وتشديد الميم على فعل ما لم يُسم فاعله. ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ يعني: ألقاها في النار كما ألقينا.

Marfat.com

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «كان السامري من أهل قرية يعبدون البقرة، فدخل في بني إسرائيل فأظهر الإسلام معهم وفي قلبه حب عبادة البقر، فابتلى الله عز وجل به بني إسرائيل؛ فكشف له عن بصره، فرأى أثر فرس جبريل عليه السلام فأخذ من أثرها. وقد كان هارون قال لبني إسرائيل: إنكم قد تحملتم من حلي آل فرعون وأمتعتهم معكم، وهي نجسة فتطهروا منها، وأوقدوا لهم ناراً ثم قل لهم: أحرقوها فيها. فجعلوا يأتون بالحلي والأمتعة فيقذفونها في النار، فانسبك الحلي. وأقبل السامري وفي يده تلك القبضة من أثر فرس الرسول يعني جبريل عليه السلام فوقف فقال: يا نبي الله أُلقها فيه؟ فقال: نعم، وهارون لا يظن إلا أنه من الحلي الذي يأتي به بنو إسرائيل، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جسداً له خوار» وقال السدي: «جاء جبريل ليذهب بموسى إلى ربه عز وجل، وجبريل عليه السلام على فرس، فبصر به السامري، ويقال: إن ذلك الفرس فرس الحياة، فأخذ قبضة من أثر حافر الفرس، فلما ألقى التراب في الحلي تفرّخ عجلاً جسداً له خوار، فذلك قوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾.

وقال بعضهم: كان السامري من بني إسرائيل وقد ولدته أمه في غار مخافة أن يذبح، فرباه جبريل عليه السلام في الغار حتى كبر، فلما رأى جبريلَ على فرس الحياة، عرفه لأنه قد كان ربّاه في صغره. فأخذ قبضة من تراب من أثر حافر فرسه، ثم ألقاها في جوف العجل، فصار عجلاً له خوار، يعني: صوت. وقال مجاهد: خوار العجل كان هفيف الريح إذا دخلت جوفه، وهكذا روي عن علي بن أبي طالب، وإحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «صار عجلاً له لحم ودم وخرج منه الصوت مرة واحدة». فقال: ﴿هَذَا إِلَٰهُكُمْ﴾، يعني: قال السامري وَإِلَهُ مُوسَى ﴿فَنَسِيَ﴾، يعني: أخطأ موسى الطريق. وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ يعني: «قال نسي موسى أن يخبركم بأنَّ هذا إله، وقال قتادة: هٰذا إلٰهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ولكن موسى نسي ربه عندكم.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾؟ يعني: لم يكن لهم عقل يعلموا أنه لم يكن إلٰههم، حيث لا يكلمهم ولا يجيبهم. ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً ولا نفعاً﴾، يعني: لا يقدر على دفع مضرةٍ، ولا جر منفعة.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني: من قبل مجيء موسى إليهم: ﴿يَا

Marfat.com

قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾، يعني: إنما ابتليتم بعبادة العجل. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، يعني: إلهكم الرحمن، ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ يعني: اتبعوا ديني ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ يعني: قولي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾، يعني: لا نزال على عبادة العجل ﴿عاكفين﴾ يعني: مقيمين، ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾. فلما جاءهم موسى، ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾، يعني أخطؤوا الطريق بعبادة العجل ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِي﴾ يعني: أن لا تتبع أمري في وصيتي فتناجزهم الحرب؟ ﴿أفعصيت أمري﴾. يعني: أفتركت وصيتي؟. ﴿قال﴾ له موسى ذلك بعدما أخذ بشعر رأسه ولحيته، فقال هارون عليه السلام: ﴿يا ابن أمّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يَا ابْنَ أُمِّ﴾ بكسر الميم على معنى الإضافة، وقرأ الباقون بالنصب بمنزلة اسم واحد ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا﴾ بشعر ﴿بِرَأْسِي﴾. ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يعني: جعلتهم فرقتين وألقيت بينهم الحرب، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾؛ يعني: لم تنتظر قدومي.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

ثمّ أقبل على السامري فقال له: ﴿قال فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾؟ يقول: ما شأنك، وما الذي حملك على ما صنعت؟ ﴿قَالَ﴾ السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾. قرأ حمزة والكسائي بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة ﴿بصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، يعني: رأيت ما لم يَرَوا وعلمت ما لم يعلموا به يعني: بني إسرائيل. قال موسى: ما الذي رأيت دون بني إسرائيل؟ فقال: رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة. وهو قوله: ﴿فقبضتُ قَبْضَةً مِنْ أثرِ الرَّسُولِ﴾، يعني: من أثر فرس جبريل. وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿فَقَبصتُ قَبْصَةً﴾ بالصاد، وروي عن الحسن أنه قرأ ﴿فَقَبَصتُ قَبْصَةً﴾ بالصاد، وهو الأخذ بأطراف الأصابع، وقراءة الجماعة ﴿فَقَبَضْتُ قبضةً﴾ بالضاد وهو القبض بالكف. ﴿فَنَبَذْتُها﴾، يعني: فطرحتها في العجل. ثمّ قال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، أي: زينت، فلا تلمني بهذا الفعل ولمهم بعبادتهم إياه.

﴿قال﴾ له موسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ﴾، يعني: عقوبتك في الدنيا ﴿أنْ تقولَ لا مَساسَ﴾، يعني: لا أمس أحداً ولا يمسّني أحد، ويقال: ابتلي بالوسواس وأصل الوسواس من ذلك الوقت، ويقال: معناه لن تخالط أحداً ولن يخالطك أحد، فنفاه عن قومه.

Marfat.com

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً﴾ في الآخرة ﴿لَنْ تُخلَفَهُ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لَنْ تُخلِفَهُ﴾ بكسر اللام، يعني: لن تغيب عنه، ومعناه: تبعث يوم القيامة لا تقدر على غير ذلك، ولا تُخلفه، وقرأ الباقون ﴿تُخلَفَهُ﴾ بنصب اللام، يعني: لن تؤخر ولن تجاوز عنه، ويقال: معناه يكافئك الله تعالى على ما فعلت، والله لا يخلف الميعاد.

ثمّ قال: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾، يعني: عابداً. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾. روى معمر، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: ﴿وانظرْ إلى إلهكَ الذي ظلْت عليه عاكفاً لنذبّحنّه ثم لنُحرقنّه﴾، وقرأ الحسن ﴿لَنَحْرُقَنَّهُ﴾ بالتخفيف، وقراءة العامة بالتشديد ونصب الحاء، ومعناه: أنه يحرق مرة بعد مرة. وقرأ أبو جعفر المدني ﴿لنَحْرُقَنَّهُ﴾ بنصب النون وضم الراء، ومعناه: لنبردنه بالمبارِدِ، ويقال: حرَّقه وأحرقه. ﴿ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾، يعني: لنذرينّه في البحر ذرواً والنسف: التذرية.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

ثمّ قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ﴾، يعني: أن العجل ليس بإلٰهكم، وإنما إلٰهكم الله الذي لا إله إلا هو. ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾، يعني: أحاط علمه بكل شيء، وهو عالم بما كان وما يكون.

قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، يعني: هكذا نقصّ عليك من أخبار ما مضى. ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾، يعني: أعطيناك ﴿مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾، يعني: أكرمناك من عندنا بالقرآن.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، يعني: من كفر بالقرآن، ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً﴾ يعني: حملاً من الذنوب. ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾، يعني: دائمين في عقوبة الوزر، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ يعني: بئس الحمل الوزر، وبئس ما يحملون من الذنوب.

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، يعني: في يوم ينفخ في الصور، وهو يوم القيامة. قرأ أبو عمرو ﴿وَيَوْمَ نَنْفُخُ فِي الصُّورِ﴾ بالنون، واحتج بقوله ﴿وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ﴾ وقرأ الباقون بالياء، قال أبو عبيدة: وبهذا نقرأ، لأن النافخ ملك قد التقم الصور، وأما الحشر فالله عز وجل يحشرهم. قال أبو عبيدة: معناه يُنفخ الأرواحُ في الصور، وخالفه غيره. ثم قال:

Marfat.com

و﴿نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾، يعني: عطاشاً، ويقال: عمياً، ويقال: زرق الأعين. وروي عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس: إن الله يقول في موضع ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، فقال ابن عباس: «إن يوم القيامة له حالات: في حال زرقاً وفي حال عمياً». وقال القتبي: ﴿زرقاً﴾ أي تبيض عيونهم من العمى أي ذهب السواد والناظر، وقال الزجاج: يقال عطاشاً، لأن من شدة العطش يتغير سواد الأعين حتى تزرق.

ثم قال: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، يعني: يتسارُّون فيما بينهم. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾، يعني: ما مكثتم بعد الموت في القبور، ﴿إِلاَّ عَشْراً﴾ يعني: عشرة أيام، ويقال: عشر ساعات.

يقول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، يعني: أوفاهم عقلاً ويقال: أعدلهم رأياً عند أنفسهم. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾، يعني: ما مكثتم في القبور، ﴿إِلاَّ يَوْماً﴾.

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ﴾ وذلك أن بني ثقيف من أهل مكة قالوا: يا رسول الله، كيف تكون الجبال يوم القيامة فنزل ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾، يعني: عن أمر الجبال. ﴿فَقُلْ يَنسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾، يعني: يقلعها ربي قلعاً من أمكنتها. والنسف: التذرية أي، تصيير الجبال كالهباء المنثور. ﴿فَيَذَرُهَا قاعاً صَفْصَفاً﴾؛ قال القتبي: القاعُ واحدة القيعة، وهي الأرض التي يعلوها السراب كالماء، والصفصف: المستوي. وقال السدي: القاع الأملس، والصفصف المستوي. ﴿لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾، يعني: لا ترى فيها صعوداً ولا هبوطاً، ويقال: لا ترى فيها أودية، و﴿لا أمتاً﴾ يعني: ولا شخوصاً. والأمت في كلام العرب: ما نشز من الأرض.

ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي﴾، يعني: يقصدون نحو الداعي. ﴿لاَ عِوَجَ لَهُ﴾ يعني: لا عوج لهم عنه، ومعناه: لا يميلون يميناً ولا شمالاً، ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ﴾؛ يعني: ذلت وسكنت وخفضت الكلمات ﴿للرحمن﴾ يعني: لهيبة الرحمن. ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾، يعني: كلاماً خفياً، ويقال: صوت الأقدام كهمس الإبل.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿يومَئِذٍ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ يعني: عنده ﴿إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة، ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ يعني: إذا قال بإخلاص القلب لا إله إلا الله في الدنيا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا، ﴿وَلاَ يحيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾؛ يعني: لا يدركون علم الله تعالى. ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ﴾؛ قال قتادة رحمه الله: ذلَّت الوجوه ﴿لِلْحَيِّ القَيُّومِ﴾؛ وقال القتبي رحمه الله: أصله من عنته أي: حبسته، ومنه قيل للأسير: عانٍ. وقال الزجاج رحمه الله: عنت، أي خضعت، يقال: عنا يعنو، أي خضع ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ يعني: خسر ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾، يعني: شركاً.

ثم قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، يعني: من يعمل من الطاعات ﴿ومن﴾ للصلة والزينة. ﴿وَهُوَ مُؤمِنٌ﴾ يعمل وهو مؤمن مع عمله، لأن العمل لا يقبل بغير إيمان، ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾؛ قال قتادة: ﴿ظلماً﴾ أي: لا يزداد في سيئاته ولا ينقص من حسناته أي: لا يهضم. قال السدي رحمه الله: الظلم أن يؤخذ لما لم يعمل، والهضم: النقصان من حقه. قال القتبي: ومنه قيل هضيم الكشحين، أي: ضامر الجنبين، وهضمني الطعام: أي أمرأني ويهضمني حقي. قرأ ابن كثير: ﴿فَلا يَخَفْ ظلماً﴾ على معنى النهي، وقرأ الباقون ﴿فَلا يَخَافُ﴾ على معنى الخبر.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أنزَلْنَا قُرآناً عَرَبياً﴾، يعني: هكذا أنزلنا عليك جبريل، ليقرأ عليك القرآن على لغة العرب ﴿وصرَّفنا فيه من الوعيد﴾ يعني: بينَّا في القرآن من أخبار الأمم الماضية وما أصابهم بذنوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: لكي يتقوا الشرك ﴿أوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾، يعني: يحدث الوعيد بهذا القرآن أو هذا القرآن لهم اعتباراً فيُذكر به عذاب الله للأمم فيعتبروا، وهذا قول مقاتل، ويقال: ﴿أوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ أي يحدِّد الوعيد بذكر القرآن العذاب فيزجرهم عن المعاصي، ويقال: ﴿أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾، أي شرفاً، والذكر: الشرف.

ثم قال عز وجل: ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾، يعني: ارتفع وتعظَّم عن الشريك والولد ﴿المَلِكُ الحَقُّ﴾ أهل الربوبية. ويقال: ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾، يعني: ارتفع وتعظم من أن يزيد في سيئات أحد زينقص من حسناته ﴿المَلِكُ الحَقُّ﴾ الذي يعدل بين الخلق.

ثمّ قال: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أن يُقْضَى إلَيكَ وَحْيُهُ﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام كان إذا قرأ القرآن على رسول الله ﷺ، كان يتعجل النبي ﷺ بقراءته قبل أن يتمَّ جبريل عليه السلام تلاوته مخافة أن لا يحفظ، فنزل: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ﴾ أن يفرغ جبريل عليه السلام قراءته، فيكون في الآية تعليم حفظ الأدب، وهو الاستماع إلى من يتعلم منه، وهذا

Marfat.com

مثل قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] روى جرير بن حازم عن الحسن: أن رجلاً لطم امرأته، فجاءت تلتمس القصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص قبل أن ينزل القرآن(١)، فنزل ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرآنِ﴾ الآية، أي: لا تعجل بالقصاص قبل أن ينزل عليك القرآن، فنزل قوله عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] وكان الحسن يقرأ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ﴾ بالنصب، يعني: من قبل أن ينزل إليك الوحي؛ وقراءة العامة ﴿يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله، ومعنى القراءتين واحد. ثم قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، يعني: زدني علماً بالقرآن، معناه: زدني فهماً في معناه.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني: أمرنا آدم عليه السلام بترك أكل الشجرة من قبل، يعني: من قبل محمد ﷺ. ﴿فَنَسِيَ﴾، يعني: فترك أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قال: حفظاً لما أمر به. روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: ﴿عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ - أي فترك أمرنا ﴿ولم نجدْ له عزماً﴾ أي حزماً. وقال قتادة: صبراً، وقال السُّدي مثله وقال عطية: ﴿ولم نجد له عزماً﴾ أي حفظاً بما أمر به. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: عهد إلى آدم فنسي، فسمّي الإنسان(٢). - وقال القتبي: النسيان ضد الحفظ. كقوله تعالى: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، والنسيان: الترك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِي﴾ وكقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [السجدة: ٣٢] وكقوله: ﴿وَلاَ تَنْسَوا الفضل بينكم﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ أَبى﴾، أي: تعظم

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٦٠٢ إلى الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

عن السجود، ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾؛ يعني: إبليس عدو لك، ولزوجك حواء، فاحذرا منه، ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ يعني: فتتعب وتتعنَّى بعمل كفيك ولا تأكل إلا كداً بعد النعمة. وقال سعيد بن جبير: لما هبط آدم من الجنة وكلّف العمل، فكان يمسح العرق عن جبينه، فذلك قوله: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، وهو العرق الذي مسحه من الجبين.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾، يعني: أن حالك ما دمت في الجنة لا تجوع فيها ولا تعرى من الثياب. ﴿وأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا﴾، يعني: لا تعطش في الجنة، ﴿وَلا تَضْحَى﴾؛ يعني: لا يصيبك الضحى، وهو حر الشمس. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَإِنَّكَ﴾ بالكسر على معنى الابتداء، وقرأ الباقون ﴿وَأَنَّكَ﴾ بالنصب على معنى البناء.

قوله عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ﴾ من أكل منها خلد ولم يمت ﴿وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾؟ يعني: هل أدلك على ملك لا يفنى؟ فهو أكل الشجرة. ﴿فأكلا منها﴾، يعني: من الشجرة وقد ذكرنا تفسير الشجرة في سورة البقرة. ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، أي: ظهرت لهما عوراتهما، ﴿وَطَفِقَا﴾؛ يعني: عمدا ﴿يخصفان﴾ يعني: يلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾، يعني: ترك أمر ربِّه بأكله من الشجرة، ﴿فَغَوَى﴾؛ أخطأ ولم يصب بأكله ما أراد وما وعد له من الخلود.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾، يعني: اصطفاه ربه واختاره بالنبوة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، يعني: تجاوز عنه وقبل توبته، ﴿وَهَدَى﴾ يعني: هداه الله تعالى للتوبة بكلمات تلقاها، أي آدم عليه السلام.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾؛ يعني: من الجنة آدم وحواء وإبليس والحية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَى﴾ يعني: يا ذرية آدم سيأتيكم مني الكتاب والرسل، خاطبه به وعنى ذريته. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ يعني: أطاع كتابي ورسلي ﴿فَلا يُضِلُّ﴾ باتباعه إياهما في الدنيا، ﴿وَلا يَشْقَى﴾ في الآخرة. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه، هداه الله عز وجل من الضلالة، ووقاه الله عز وجل يوم القيامة سوء الحساب، فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، يعني: عن القرآن والرسل ولم يؤمن. وقال مقاتل: من أعرض عن الإيمان، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾؛ يعني: معيشة ضيقة. روي عن ابن مسعود، وأبي سعيد الخدري أنهما قالا: ﴿مَعِيشَةً ضَنكاً﴾؛ «يقول عذاب القبر». وروى أبو سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكاً﴾، قال: «عَذَابَ القَبْرِ». ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، أي: أعمى عن الحجة. وقال ابن عباس: «وذلك حين يخرج من القبر، خرج بصيراً، فإذا سيق إلى المحشر عمي». قال عكرمة رحمه الله في قوله ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، قال: عمي عليه عن كل شيء إلا جهنم؛ وقال الضحاك في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكاً﴾. قال: كسب الخبيث وقال السدي: ﴿مَعِيشَةً ضَنكاً﴾، قال: معيشة القبر حين يأتيه الملكان، وقال قتادة: الضنك الضيق، يقول: ضنكاً في النار.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾، قال مجاهد: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ لا حجة لي؟ ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ بالحجة في الدنيا، ويقال: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ أي: أعمى العينين ﴿وقد كنت بصيراً﴾ في الدنيا؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ يعني: الرسول والقرآن ﴿فنسيتها﴾ وتركت العمل بها ولم تؤمن بها. ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾، أي: تترك في النار. ويقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾، أي: تعلمت القرآن فنسيته وتركته. وقال السدي: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أي: تترك في النار وتترك عن الخير.

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ يعني: هكذا نعاقب من أشرك بالله، ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، يعني: بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾، يعني: وأدوم.

قوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، يعني: أفلم يتبين لقومك؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾، يعني: يمرون على منازلهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، يعني: في هلاكهم ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني: لعبرات ﴿لأُولِي النُّهَى﴾، يعني: لذوي العقول من الناس. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ وهذا مقدم ومؤخر، يقول: ﴿ولولا كلمة سبقت﴾ بتأخير العذاب عن هذه الأمة ﴿إلى أجل مسمى﴾، أي: إلى يوم القيامة، أي: ﴿لكان لزاماً﴾، أي: لأخذتهم بالعذاب كما أخذت من كان قبلهم من الأمم عند التكذيب، ولكن نؤخرهم إلى يوم القيامة ﴿وَهُوَ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾. وقال القتبي: معناه، ولولا أن الله عز وجل جعل الجزاء يوم القيامة وسبقت بذلك كلماته، لكان العذاب ملازماً لا يفارقهم. وقال: في الآية تقديم، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى، لكان العذاب لازماً.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾﴾

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، يعني: على ما يقول أهل مكة من تكذيبهم إياك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، يعني: صلِّ لربك وبحمد ربك وبأمر ربِّك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعني: صلاة العصر، ويقال: صلاة الظهر والعصر. وروى جرير، عن عبد الله البجلي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[1] - يعني: لا تزدحمون، مأخوذ من الضم أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته بظهوره كما في رؤية الهلال. ويروى: ﴿لا تضامون﴾ بالتخفيف وهو الضم أي: الظلم، أي: لا يظلم بعضكم في رؤيته بأن يراه البعض دون البعض - «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَنِ الصَّلاةِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا». ثم قرأ هذه الآية ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ على معنى التأكيد للتكرار.

ثمّ قال: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾، يعني: ساعات الليل. ﴿فَسَبِّحْ﴾، يعني: صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾؛ يعني: غدوة وعشية على معنى التأكيد للتكرار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾؛ يعني: لعلك تعطى من الشفاعة حتى ترضى. قرأ الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿تُرْضَى﴾ بضم التاء، على فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون بالنصب يعني: ترضى أنت. وقال أبو عبيدة: وبالقراءة الأولى نقرأ يعني: بالضم، لأن فيها معنيين، أحدهما: تُرضى أي: تعطى الرضا، والأخرى: ترضى أي يرضاك الله. وتصديقه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]؛ وليس في الأخرى وهي القراءة بالنصب، إلا وجه واحد.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾، يعني: لا تنظر بالرغبة إلى ما أعطينا رجالاً منهم من الأموال والأولاد. ﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا﴾، يعني: فإنه زينة الدنيا. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، يعني: لنبتليهم بالمال وقلة الشكر. ﴿ورِزْقُ رَبِّكَ خير وأبقى﴾، يعني: جنة ربك ﴿خَيْرٌ﴾ من هذه الزينة التي في الدنيا، ﴿وَأَبْقَى﴾؛ أي: وأدوم.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدّثنا محمد بن الفضل. قال: حدّثنا محمد بن جعفر. قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف. قال: حدّثنا وكيع، عن موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي رافع قال: نزل برسول الله ﷺ ضيفٌ فبعثني إلى يهوديّ أنْ يبيعنا أو يسلفنا إلى أجل، فقال اليهوديُّ: لا والله إلاَّ برَهْنٍ. فرجعت إليه فأخبرته فقال: «لَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَقَضَيْتُهُ؛ وإِنِّي لأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ وَأَمِينٌ فِي الأَرْضِ، اذْهَبْ بِدِرْعِي الحَدِيدِيِّ»[2]، فذهبت بها، فنزل من بعد هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣) و(٧٤٣٤) و(٧٤٣٥) ومسلم (٦٣٣) وأبو داود (٤٧٢٩) والترمذي (٢٥٥١) وابن ماجه (١٧٧)وأحمد ٤/ ٣٦٢.

(٢) عزاه السيوطي: ٥/ ٦١٢ إلى ابن أبي شيبة وابن راهويه والبزار وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة.

Marfat.com

الآية يعزّيه عن الدنيا ﴿ولا تمدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِىِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

وقال عز وجل: ﴿وأمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ﴾، يعني: قومك وأهلك وأهل بيتك بالصلاة. ﴿واصطَبِرْ عليها﴾، يعني: اصبر على ما أصابك فيها من الشدة. روى عبد الرزاق، عن معمر، عن رجل أن النبي ﷺ كان إذا دخل عليه نقص في الرزق، أي: الضيق في الرزق، أمر أهله بالصلاة. ثم قرأ ﴿وأمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصطَبِرْ عليها﴾. ﴿لا نسألُكَ رِزقاً﴾ يعني: لخلقنا ولا أن ترزق نفسك؛ إنما نسألك العبادة. ﴿نحنُ نرزُقُكَ﴾ في الدنيا ما دمت حياً فيها. ﴿والعاقبةُ للتقوى﴾، يعني: الجنة للمتقين.

﴿وقالوا﴾، يعني الكفار: ﴿لولا يأتينا بآيةٍ من ربِّه﴾، يعني: هلا يأتينا محمد عليه السلام بعلامة لنبوته؟ قال الله تعالى: ﴿أوَ لم تأتِهِمْ بيِّنةُ﴾، يعني: بيان ﴿ما في الصُّحُفِ الأولى﴾، يعني: ما في التوراة والإنجيل حتى يجدوا نعته فيه؟ وهذا كقوله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

ثم قال عز وجل: ﴿ولو أنَّا أهلكناهُم بعذابٍ من قبلِه﴾، يقول: لو أن أهل مكة أهلكناهم قبل محمد ﷺ والقرآن، ﴿لقالوا ربَّنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَ آياتِكَ من قبلِ أن نَذِلَّ ونخزى﴾، يعني: من قبل أن نعذب.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتربِّصٌ﴾، يعني: منتظر لهلاك صاحبه، أنا وأنتم. وقال مقاتل: كان كفار مكة قد قالوا: نتربص بمحمد ﷺ ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، يعنون: الموت، ووعدهم النبي ﷺ العذاب، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتربِّصٌ﴾، يعني: أنتم متربصون بمحمد عليه السلام الموت، ومحمد عليه السلام متربص بكم العذاب، فأنزل الله تعالى: ﴿قل كل متربص﴾ ﴿فتربَّصوا﴾، يقول: انتظروا، ﴿فستعلمونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب، ﴿مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السَّويِّ﴾، يعني: العدل ﴿ومَنِ اهتدى﴾ منا ومنكم. قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم: ﴿أوَلَمْ تأتِهِمْ﴾ بالتاء، لأن لفظ البيِّنة مؤنث، والباقون ﴿أوَلَمْ يأتِهِمْ﴾ بالياء، لأن معناه البيان. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

Marfat.com

سورة الأنبياء(١)

كلّها مكية وهي: مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾، يعني: قربت القيامة كقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ويقال: معناه اقترب وقت حسابهم، ويقال: دنا للناس ما وعدوا في هذا القرآن، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، يعني: في جهل وعمى من أمر آخرتهم. ﴿معرِضون﴾، يعني: جاحدين مكذبين، وهم كفار مكة ومن كان مثل حالهم.

ثم نعتهم فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِم مُحْدَثٍ﴾، يعني: ما يأتيهم جبريل بالقرآن محدث، والمحدث: إتيان جبريل عليه السلام بالقرآن مرة بعد مرة، ويقال: قراءة النبي ﷺ القرآن مرة بعد مرة ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، يعني: يستمعون لاعبين، ويقال: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني: يهزؤون ويسخرون.

قوله عز وجل: ﴿لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: ساهية قلوبهم عن أمر الآخرة. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾، يعني: أخفوا تكذيبهم بمحمد ﷺ والقرآن ويتناجون فيما بينهم، ثم بيَّن أمرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، معناه: ﴿وأسروا النجوى﴾ يعني: الذين ظلموا.

ثم بين ما يسرون فقال: ﴿هَلْ هَذَا﴾، يعني: يقولون ما هذا ﴿إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: آدميّ مِثلكم؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾، يعني: أفتصدقون الكذب؟ ﴿وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وتعلمون أنه سحر.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قال ربي﴾ يعني: قل يا محمد ﴿رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ﴾، يعني: السر،

(١) في نسخة «أ» سورة الأنبياء عليهم السلام.

Marfat.com

فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم قولهم، وأطلع نبيه ﷺ على سرهم وعلانيتهم فقال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، يعني: يعلم سر أهل السموات وسر أهل الأرض. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ﴾ على معنى الخبر، وقرأ الباقون ﴿قلْ ربّي أعلم﴾ على معنى الأمر. ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ بمقالتهم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم وبعقوبتهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، يعني: أباطيل أحلام كاذبة. وقال أهل اللغة: لا يكون الضغث إلا من أخلاط شتى، فلذلك يقال: أضغاث أحلام، يعني: لما فيها من التخاليط، وهو كل حلم لا يكون له تأويل، ومن هذا قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤]، يعني: أخلاط العيدان عدد مائة، ويقال: في الآية تقديم ومعناه: بل قالوا أضغاث أحلام. ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾، أي اختلقه من تلقاء نفسه. ﴿بلْ هو شاعرٌ﴾، يعني: ينقضون قولهم بعضهم ببعض، مرة يقولون سحر، ومرة يقولون أضغاث أحلام. ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾، أي يقولون: فأتنا بآية أي: بعلامة كما في الرسل الأولين. فأخبر الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وإن أتاهم بآية.

فقال عز وجل: ﴿ما آمنتْ قبلهمْ﴾، يعني: قبل كفار مكة. ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ ﴿من﴾ للصلة والزينة، يعني: لم يصدق قبلهم أهل قرية للرسل، إذا جاءتهم بالآيات. ﴿أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يؤمنون﴾؟ يعني: أفقومك يصدقون إذا جاءتهم الآيات؟ أي: لا يؤمنون،

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وما أرسلْنا قبْلكَ إلاَّ رجالاً نُوحِي إلَيهمْ﴾، يعني: لم أرسل إليهم الملائكة بالرسالة، وكانت الرسل من الآدميين. ﴿فَاسألُوا أهْلَ الذِّكرِ﴾، يعني: أهل التوراة والإنجيل. ﴿إن كُنتمْ لا تعلمُون﴾، يعني: لا تصدقون. وذلك أن أهل مكة قالوا: لو أراد الله تعالى أن يبعث إلينا رسولاً لأرسل ملائكة. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿إلاَّ رجالاً نُوحِي إليهمْ﴾ بالنون وكذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقرأ حمزة والكسائي الأول بالياء، والثاني بالنون، والباقون كلاهما بالياء، وهو اختيار أبي عبيد رحمه الله.

ثم قال عز وجل: ﴿وما جعلْناهُمْ جسداً لاَ يأكُلون الطَّعام﴾، يعني: ما خلقنا الرسل جسداً لا يأكلون ولا يشربون، ولكن جعلناهم أجساداً فيها أرواح يأكلون ويشربون. وقال ﴿جسداً﴾ ولم يقل أجساداً، لأن الواحد ينبيء عن الجماعة، ويقال: معناه وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام، لأنهم قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]. ثم قال: ﴿وما كانُوا خالدِين﴾، يعني: في الدنيا. ﴿ثُمّ صدقْناهُمُ الوعْدَ﴾، يعني: العذاب للكفار والنجاة

Marfat.com

للأنبياء عليهم السلام. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾، يعني: فأنجينا الأنبياء عليهم السلام ومن نشاء من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾؛ يعني: المشركين.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، يعني: القرآن فيه ﴿ذكركم﴾ يعني: في القرآن عزكم وشرفكم، يعني: شرف العرب. والذكر يوضع موضع الشرف، لأن الشرف يذكر، ويقال ﴿فيه ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه تذكرة لكم ما ترجون من رحمته وتخافون من عذابه كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]. وقال السدي: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يعني: ما تُعْنون به من أمر دنياكم وآخرتكم وما بينكم، وقال الحسن رحمه الله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، يعني: أمسك به عليكم دينكم، وفيه بيان حلالكم وحرامكم، ويقال: وعدكم ووعيدكم. ثم قال: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أن فيه عزكم وشرفكم فتؤمنون به؟

قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ القصم الكسر، يعني: كم أهلكنا ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾، يعني: أهل قرية؟ ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، يعني: كافرة، ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ يعني: خلقنا بعد هلاكها ﴿قوماً آخرين﴾ خيراً منهم، فسكنوا ديارهم. ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾، يعني: رأوا عذابنا، ﴿إِذَا هُمْ يَرْكُضُونَ﴾ يعني: يهربون ويعدون. وقال القتبي: أصل الركض، تحريك الرِّجلين. يقال: ركضتُ الفرس إذا أعديته بتحريك رجليك. ومنه قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢].

﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَارْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لا تَرْكُضُوا﴾ يعني: قالت لهم الملائكة عليهم السلام لا تهربوا، وقال قتادة: هذا على وجه الاستهزاء، وقال مقاتل: لما انهزموا قالت لهم الملائكة عليهم السلام كهيئة الاستهزاء: لا تركضوا، وقال القتبي: هذا كما قال لبيد:

هَـلا سَـأَلْـتَ جُـمُـوعَ كِـنْـدَةَ   يَـوْمَ وَلَّـوْا أَيْـنَ أَيْـنَـا

قال ابن عباس: «إن قرية من قرى اليمن يقال لها حصور، أرسل الله عز وجل إليهم نبياً فكذبوه ثم قتلوه، فسلط الله عز وجل عليهم بختنصر فقتلهم وهزمهم، فقالت لهم الملائكة عليهم السلام حين انهزموا: لا تركضوا» يعني: لا تهربوا. ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ يعني: خوِّلتم فيه من أمر دنياكم ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ يعني: ومنازلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾. عن قتل نبيكم،

Marfat.com

ويقال: عن الإيمان. ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بقتل نبينا عليه السلام ويقال: بالشرك بالله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾، يعني: كلمة الويل قولهم. ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾، يعني: محصوداً. وقال أهل اللغة: فعيل بمعنى مفعول، والحصيد بمعنى محصود، ويقع على الواحد والاثنين والجماعة. وقال السدي: الحصيد الذي قد حصد، ويقال: كداسة الغنم بأظلافها خامدين ميتين لا يتحركون. وقال مجاهد رحمه الله: ﴿خامدين﴾ بالسيف.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق والعجائب ﴿لاَعِبِينَ﴾، يعني: لغير شيء، ولكن خلقناهم لأمر كائن، ويقال: وما خلقت هذه الأشياء إلا ليعتبروا ويتفكروا فيها، ويعلموا أن خالق هذه الأشياء أحق بالعبادة من غيره، ويكون لِيَ عليهم الحجة يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً﴾ يعني: زوجةً بلغة حضرموت، ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ يعني: من عندنا. قال ابن عباس: «اللهو الولد»، وقال الحسن وقتادة: اللهو المرأة، وقال القتبي: التفسيران متقاربان، لأن المرأة للرجل لهو وولده لهو، كما يقال: هما ريحانتاه، وأصل اللهو: الجماع، فكني به بالمرأة والولد، كما كني عنه باللمس. وتأويل الآية: أن النصارى لما قالت، في المسيح ما قالت، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً﴾ أي: صاحبة ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا لا من عندكم، لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره. ثم قال: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: ما كنا فاعلين. ويجوز أن يكون ﴿إن كنا﴾ ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾، يعني: نرمي بالحق ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾، ومعناه: نبيّن الحق من الباطل. ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾، أي: يبطله ويضمحل به. ويقال: يكسره. وقال أهل الله: أصل هذا إصابة الرأس والدماغ بالضرب وهو مقتل. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، يعني: هالكاً، ويقال: زاهق، أي: زائل ذاهب. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: في الآية دليل أن النكتة إذا قابلتها نكتة أخرى على ضدها، سقط الاحتجاج بها، لأنها لو كانت صحيحة ما عارضها غيرها، لأن الحق لا يعارضه الباطل، ولكن يغلب عليه فيدمغه.

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ﴾، يعني: الشدة من العذاب وهم النصارى. ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾، يعني: تقولون من الكذب على الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلق. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ من الملائكة ﴿لاَ يَسْتَكْبِرونَ﴾، يعني: لا يتعظّمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يعني لا يعيَون ﴿يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾ لا يملّون ولا يستريحون وقال أهل اللغة: الحسير المنقطع الواقف إعياء. روي عن عبد الله بن الحارث أنه قال: قلت لكعب الأحبار أرأيت قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾. أما شغلهم رسالة، أما شغلهم عمل؟ فقال لي: ممن أنت؟ فقلت من بني عبد المطلب. فضمني إليه فقال: «يا ابن أخي إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لنا التنفس ألست تأكل وتشرب وتذهب وتجيء وأنت تتنفس؟ كذلك جعل لهم التسبيح».

ثم قال عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾؟ الميم صلة معناه: أعبدوا من دونه آلهةً؟ ويقال: بل عبدوا آلهة. ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾، يعني: اتخذوها من الأرض ويقال: من الأرض، أي: في الأرض. ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾، يعني: هل يحيون تلك الآلهة شيئاً، وقرىء أيضاً ﴿يُنْشَرون﴾ بضم الياء ونصب الشين يعني: هل يحيون أبداً لا يموتون.

ثم قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ﴾ يعني: لو كان في السماء والأرض آلهة غير الله، ﴿لَفَسَدَتَا﴾؛ يعني: لخربت السموات والأرض ولهلك أهلها، يعني: أن التدبير لم يكن مستوياً. ثم نزّه نفسه عن الشريك فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ يعني: عما يقولون من الكذب.

قوله عز وجل: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، يعني: لا يسأل عما يحكم في خلقه من المغفرة والعقوبة، لأنه عادل ليس بجائر. ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، عما يفعلون بعضهم ببعض، لأنهم يجورون ولا يعدلون، ومعناه: لا يسأل عما يفعل على وجه الاحتجاج عليه، ولكن يسأل عن معنى الاستكشاف والبيان، كقوله عز وجل: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٥]. وروي عن مجاهد أنه قال: لا يسأل عن قضائه وقدره، وهم يسألون عن أعمالهم، ويقال: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ لأنه ليس فوقه أحد، ﴿وهم يسألون﴾ لأنهم مملوكون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ الميم صلة، يعني: أعبدوا من دونه آلهة؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾، يعني: حجتكم وكتابكم الذي فيه عذركم. ﴿هذا ذكر من معي﴾ هذا القرآن خبر من معي إلى يوم القيامة ﴿وذكر من قبلي﴾؛ يعني: خبر من قبلي، فلا أجد فيه أن الشرك كان مباحاً في وقت من الأوقات ويقال: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾، يعني: القرآن وكتب الأولين.

ثم قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن، ويقال بالتوحيد. ﴿فهم معرضون﴾، يعني: مكذبين بالقرآن والتوحيد.

ثم بين ما أمر في جميع الكتب للرسل، فقال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه﴾، كما يوحى إليك ﴿أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، يعني: فوحّدوني.

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ وذلك حين قال مشركو قريش في الملائكة عليهم السلام ما قالوا، فقال الله تعالى ﴿سبحانه﴾ نزه نفسه عن الولد. ﴿بل عباد مكرمون﴾، يعني: بل عبيد أكرمهم الله عز وجل بعبادته. ﴿لا يسبقونه بالقول﴾، أي: لا يقولون ولا يعملون شيئاً ما لم يأمرهم. ﴿وهم بأمره يعملون﴾ يعني: يعملون ما يأمرهم به ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ من أمر الآخرة. ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا، ﴿ولا يشفعون﴾ يعني: الملائكة عليهم السلام. ﴿إلا لمن ارتضى﴾ أي: لمن رضي عنه بشهادة أن لا إله إلا الله. ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾، يعني: من هيبته خائفون، لأنهم عاينوا أمر الآخرة فيخافون عاقبة الأمر.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال: ﴿ومن يقل منهم﴾، أي: من الملائكة: ﴿إني إله من دونه﴾، يعني: من دون الله، ولم يقل ذلك غير إبليس عدو الله. ﴿فذلك﴾، يعني: ذلك القائل ﴿نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾، أي: الكافرين.

قوله عز وجل: ﴿أو لم ير الذين كفروا﴾، يعني: أولم يخبروا في الكتاب؟ قرأ ابن كثير: ﴿ألم ير﴾ بغير واو وقرأ الباقون بالواو ومعناهما قريب. ﴿أن السموات والأرض كانتا رتقاً﴾ يعني: ملتزماً ﴿ففتقناهما﴾، أي: فرقناهما وأبنّا بعضها من بعض. وقال مجاهد: كانت السماء لا تمطر والأرض لا تنبت، ففتقناهما بالمطر والنبات، وقال القتبي: كانتا منضمتين ففتقنا السماء بالمطر، والأرض بالنبات وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كانت السموات واحدة والأرض واحدة، فتفتقت السماء سبعاً، والأرض مثلهن. وقال الزجاج: ذكر السموات والأرض ثم قال: ﴿كانتا رتقاً﴾ لأن السموات يعبر عنها بالسماء بلفظ الواحد، وأن السموات كانت سماء واحدة وكذلك

Marfat.com

الأرض، والمعنى أن السموات كانت واحدة ففتقتها وجعلتها سبعاً، وكذلك الأرض. وقيل: إنما فتقت السماء بالمطر، والأرض بالنبات بدليل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، وقال: ﴿رتقاً﴾ ولم يقل رتقين، لأن الرتق مصدر، والمعنى: كانتا ذواتي رتق، ودلهم بهذا على توحيده حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ يعني: جعلنا الماء حياة كل شيء، وهو قول مقاتل. وقال قتادة: خلق كل شيء حي من الماء، وقال أبو العالية رحمه الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ يعني: من النطفة. ﴿أفلا يؤمنون﴾؟ يعني: أفلا يصدقون بتوحيد الله بعد هذه العجائب.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، أي: الجبال الثقال الثوابت. ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾، يعني: كيلا تميل، ويقال: كراهية أن تميل بكم. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً﴾، يعني: في الأرض وفي الجبال أودية. والفجاج: جمع فج، وهو كل مخترق بين جبلين ﴿سُبُلاً﴾ يعني: طرقاً. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، لكي يعرفوا الطرق. ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ من السقوط كيلا تسقط عليهم. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني: عن شمسها وقمرها ونجومها وما فيها من الأدلة والعبر ﴿معرضون﴾ يعني: لا يتفكرون فيها. وقرأ بعضهم: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ومعناه: أن السماء بنفسها من أعظم آية، لأنها متمسكة بقدرته.

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيلَ والنَّهَارَ﴾، يعني: الظلمة والضوء. ﴿والشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، أي في دوران يجرون. وقال قتادة: يجرون في فلك السماء، وقال الكلبي: كل شيء يدور فهو فلك؛ وقال القتبي: الفلك القطب الذي تدور به النجوم، وهو كوكب خفي بقرب الفرقدين وبنات نعش، عليه تدور السماء. فقد ذكر بلفظ العقلاء أنهم يسبحون، لأنه وصف منهم الفعل كما ذكر من العقلاء.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ﴾، يعني: في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مُتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾؛ وذلك أن أناساً من الكفار قالوا: إن محمداً ﷺ يموت، فنزل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾، يعني: بالغنى والفقر والرخاء والشدة ﴿فِتْنَةً﴾، يعني: اختباراً لهم. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة. قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿يُرْجعُونَ﴾ بالياء بلفظ المغايبة، وقرأ الباقون ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بنصب الياء.

Marfat.com

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ وذلك أن النبي ﷺ مر بأبي سفيان بن حرب، وأبي جهل بن هشام، فقال أبو جهل لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف كالمستهزىء، فنزل قوله: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾، يعني: ما يقولون لك إلا سخرية. ثم قال: ﴿أَهَذَا الَّذِي﴾ يعني: يقولون أهذا الذي ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بالسوء؟ ويقال: أهذا الذي يعيب آلهتكم؟ ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، يعني: جاحدين تاركين، وهذا كقوله عز وجل ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] قال الكلبي: وذلك حين نزل ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فقال أهل مكة: ما يعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب، فنزل: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، أي مستعجلاً بالعذاب، وهو النضر بن الحارث، وقال القتبي: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي خلقت العجلة في الإنسان. ويقال: إن آدم عليه السلام استعجل حين خلق، واستعجل كفار قريش نزول العذاب، كما استعجل آدم عليه السلام قال الله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾؛ قال الكلبي رحمه الله: يعني: ما أصاب قوم نوح وقوم هود وصالح، وكانت قريش يسافرون في البلدان فيرون آثارهم ومنازلهم، ويقال: يعني القتل ببدر، ويقال: يعني يوم القيامة. ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بنزول العذاب.

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾؟ يعني: البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ يعني: إن كنت صادقاً فيما تعدنا أن نبعث؟ فنزل قوله عز وجل: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ﴾، يعني: لا يصرفون ولا يرفعون. ﴿عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾، لأن أيديهم تكون مغلولة، ﴿وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ في الآخرة، ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون عما نزل بهم من العذاب. وجوابه مضمر، يعني: لو علموا ذلك الآن لامتنعوا من الكفر والتكذيب. ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾، يعني: الساعة تأتيهم فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ يعني: فتفجأهم، ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صرفها عن أنفسهم. ﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، يعني: لا يمهلون ولا يؤجلون.

Marfat.com

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ برسلٍ مِن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك قومك، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُمْ﴾؛ يعني: نزل بالذين سخروا منهم، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، يعني: العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

قوله عز وجل ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ أي: من يحفظكم ﴿بِالَّيلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من عذاب الرحمن، معناه: من يمنعكم من عذاب الرحمن إلا الرحمن؟ ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾، يعني: عن التوحيد والقرآن. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مكذبون تاركون.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ الميم صلة يعني: ألهم آلهة. ﴿تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾، يعني: من عذابنا. ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾، يعني: لا تقدر الآلهة أن تمنع نفسها من العذاب أو السوء، إن أرادوا بها فكيف ينصرونكم؟ ﴿وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾، يعني: يأمنون من عذابنا. وقال مجاهد: يعني: ولا هم منا ينصرون؛ وقال السدي: لا نصحبهم فندفع عنهم في أسفارهم، وقال القتبي: أي لايجارون، لأن المجير صاحب لمجاره.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ﴾، يعني: أجّلناهم وأمهلناهم ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ من قبلهم. ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، يعني: الأجل. ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ﴾، يعني: أفلا ينظر أهل مكة؟ ﴿أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾، أي نأخذ ونفتح الأرض ننقصها. ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟ ما حول مكة، يعني: ننقصها لمحمد ﷺ من نواحيها. ويقال: يعني: نقبض أرواح أشراف أهل مكة ورؤسائها. وقال الحسن: هو ظهور المسلمين على المشركين. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: «هو موت فقهائها وذهاب خيارها» وقال الكلبي: يعني: السبي والقتل والخراب. ثم قال تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾؟ يعني: أن الله عز وجل هو الغالب وهم المغلوبون.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾، يعني: بما نزل من القرآن. ﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾، يعني: أن من يتصامم لا يسمع الدعاء ﴿إذا ما ينذرون﴾ يخوّفون. قرأ ابن عامر ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ بالتاء بلفظ المخاطبة، ومعناه: أن لا تقدر أن تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون، يعني: إذا خوّفوا، وقرأ الباقون ﴿وَلاَ يَسْمَعُ﴾ بالياء على وجه الحكاية عنهم.

Marfat.com

ثم أخبر عن قلة صبرهم عند العذاب فقال: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُم نَفْحَة مِن عَذَابِ رَبِّكَ﴾ يعني: أصابتهم عقوبة من عذاب ربك، ويقال: معناه ولئن أصابهم العذاب، أي طرف من عذاب ربك ويقال: أدنى شيء من عذاب ربك. ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّ ظَالِمِينَ﴾، ظلمنا أنفسنا بترك الطاعة لله ربنا.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ﴾، يعني: ميزان العدال ﴿لِيَوم القِيَامَةِ﴾، يعني: في يوم القيامة. قال ابن عباس: «هو ميزان له لسانان وكفّتان توزن فيه أعمال الحسنات والسيئات، فيجاء بالحسنات في أحسن صورة، ويجاء بالسيئات في أقبح صورة. ﴿فَلا تُظْلَمُ نفسٌ شَيئاً﴾، يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم شيئاً؛ ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾، يعني: وزن حبة ﴿مِن خَرْدَلٍ﴾. قرأ نافع ﴿مِثْقَالُ حَبَّةٍ﴾ بضم اللام، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالرفع فمعناه: وإن حصل للعبد مثقال حبة من خردل، ومن قرأ بالنصب معناه: وإن كان العمل مِثْقَالَ حبَّة يصير خبر كان ﴿أتينا بهَا﴾، يعني: جئنا بها وأحضرناها، وقرأ بعضهم ﴿آتَيْنَا﴾ بالمد، يعني: جازينا بها وأعطينا بها وأثبتنا، وقراءة العامة بغير مد. ثم قال: ﴿وَكَفى بِنَا حَاسِبِينَ﴾، أي: مجازين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتينا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ﴾؛ يقول: النصرة والنجاة، فنصر موسى وهارون عليهما السلام، وأهلك عدوهما فرعون. ﴿وَضِيَاءً﴾، يعني: الذي أنزل عليهما من الحلال والحرام في الكتاب. قرأ ابن كثير ﴿وَضِئَاءً﴾ بهمزتين، وقرأ الباقون بهمزة واحدة. ﴿وَذِكْراً﴾، يعني: عظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الكفر والفواحش والكبائر، وقال مجاهد: الفرقان الكتاب، وقال السدي: الفرقان والنصر والضياء النور وذكراً قال: التوراة، وقال مقاتل: الفرقان والتوراة. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ ضِيَاءً وذِكْراً﴾، يعني: أعطيناهما التوراة نوراً وعظة؛ وروي عن عكرمة قال: كان ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ اقرأوا بالواو، يعني: والذين استجابوا. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ ضِيَاءً﴾ بغير واو وقال: اجعلوا هذه الواو عند قوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ والرسول﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ﴾، يعني: يعملون لربهم في غيب عنه،

Marfat.com

والله تعالى لا يغيب عنه شيء. ﴿وَهُم مِنَ السَّاعَةِ مُشفِقُونَ﴾، يعني: من عذاب الساعة خائفون.

قوله عز وجل: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾، يعني: هذا القرآن ﴿ذكر مبارك﴾ يعني: فيه السعادة والمغفرة للذنوب والنجاة لمن آمن به. ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ لكم ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؟ يعني: أفأنتم للقرآن مكذبون جاحدون؟.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾، يعني: أكرمناه بالمغفرة من قبل النبوة. وقال مقاتل: من قبل موسى وهارون عليهما السلام، وقال مجاهد: من قبل بلوغه، وقال الكلبي: يقول ألهمناه رشدَه الخير، وهديناه قبل بلوغه. ويقال من قبل محمد ﷺ والقرآن. ﴿وكُنا بِهِ عَالِمِينَ﴾ بأنه أهل للرشد، ويقال: للنبوة، ويقال: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾. ﴿إِذْ قَالَ﴾، أي: حين قال ﴿لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾؟ يعني: التصاوير، يعني: الأصنام، ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ يعني: عابدين. ويقال: عليها مقيمين. وروى ميسرة النهدي أن علياً رضي الله عنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

فلما قال ذلك لهم ذلك إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، يعني: فنحن نعبدها. ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُم وَآبَاؤُكُم فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾، يعني: في خطإٍ بيّنٍ. قال السدي: كان أبوه يصنع الأصنام، يبعث بها مع بنيه فيبيعونها، فبعث إبراهيمَ بصنم ليبيعه، فجعل ينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه، وكان إخوته يبيعون ولا يبيع هو شيئاً، وقال: ﴿أنتم في ضلال مبين﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعِبِينَ﴾ يعني: أجداً تقول يا إبراهيم أم أنت من اللاعبين؟ قال إبراهيم: بل أقول لكم حقاً وأدعوكم إلى عبادة الله تعالى. هو ﴿رَبُّكُمْ﴾، يعني: خالقكم ورازقكم. ﴿رَبُّ السَّموات والأرضِ﴾، هو ربكم ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾، يعني: هو الذي خلقهن. ﴿وَأَنا عَلَى ذَلِكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ بأن الَّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ هو ربكم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾، أي: قال إبراهيم عليه السلام: والله لأكسرن أصنامكم. ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، يعني: بعد أن تنطلقوا ذاهبين إلى عيدكم. وذلك

Marfat.com

أن القوم كانوا أرادوا أن يخرجوا إلى عيدٍ لهم، فقالوا لإبراهيم: اخرج معنا حتى تنظر إلى عيدنا. وكان القوم في ذلك الزمان ينظرون إلى النجوم، فينظر أحدهم ويقول: إنه يصيبني كذا وكذا من الأمر، وكان ذلك معروفاً عندهم. وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يخلفوا بعدهم إلا من كان مريضاً، فنظر إبراهيم عليه السلام في النُّجوم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] يعني: أشتكي غداً. فأصبح من الغد معصوباً رأسه، وخرج القوم إلى عيدهم، ولم يتخلف أحد غيره. فلما خرج القوم، قال إبراهيم: أما والله لأكيدنَّ أصنامكم. فسمعها رجل منهم فحفظها عليه. فأخذ إبراهيم فأساً ويقال قَدُوماً، وجاء إلى بيت أصنامهم وقد وضعوا ألوان الطعام بين أيديهم، فإذا رجعوا من عيدهم، كانوا يرفعون ذلك الطعام ويأكلونه تبركاً. ودخل إبراهيم بيت الأصنام، فرأى ذلك الطعام بين أيديهم، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١] فلم يجيبوه، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢] فأقبل عليهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، يعني: جعل يضرب القدَمَ بيده. وقال السدي: قطع رؤوسها كلها. وقال ابن عباس: «كسرها كسراً» وقال بعضهم: نَحَتَ وجوههم. وقال بعضهم: قطع يد بعضهم ورجل بعضهم وأُذُنَ بعضهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فجعلهُمْ جُذاذاً﴾، يعني: فتاتاً، ويقال: كسرهم قطعاً قطعاً. وقال أهل اللغة: كل شيء كسرته فقد جذذته. وقال أبو عبيد: يعني: فتاتاً يقال: كسرهم أي استأصلهم، ويقال: جذَّ الله دابرهم أي: استأصلهم. وقرأ الكسائي: ﴿جِذاذاً﴾ بكسر الجيم، والباقون بالضم ﴿جُذاذاً﴾ وقُرِىءَ بالشاذ ﴿جَذاذاً﴾ بالنصب، ومعناه قريب بعضها من بعض، وهو الكسر.

﴿إلاَّ كَبِيراً لهُمْ﴾ لم يكسره وتركه على حاله، وقال الزجاج: يحتمل الكبير في الخلقة، ويحتمل أكبر ما عندهم في تعظيمهم. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيهِ يَرْجِعُونَ﴾، يعني: إلى الصنم الأكبر، ويقال: ﴿يرجعون﴾ إلى قوله باحتجاجه عليهم لوجوب الحجة عليهم، فجعل القدوم على عنق ذلك الصنم الأكبر. فلما رجعوا من عيدهم، نظروا إلى آلهتهم مكسَّرة، ويقال: حين دخل إبراهيم عليه السلام بيت الأصنام، كان عندهم خدم، يعني: الوصائف، فخرجن وقلن: إن هذا الرجل مريض، جاء يطلب من الآلهة العافية. فلما خرج إبراهيم ودخلن، فنظرن إلى الأصنام مقطوعة الرؤوس، فخرجن إلى الناس بالويل والصياح وأخبرنهم بالقصة، فتركوا عيدهم ودخلوا، فلما رأوا ذلك، ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في فعله. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، يعني: يَعيبهُمْ، ويقال: أخبر الرجل الذي سمع منه فقال: إني سمعت فتى يذكرهم قال: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾. ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾. صار إبراهيمُ رفعاً، بمعنى: يقال له هو إبراهيم. وقال: ويحتمل يقال له إبراهيم، رفع على معنى النداء المفرد.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ

Marfat.com

أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، يعني: يشهدون عليه بما يعرفون منه، ويقال: يشهدون عقوبته. قال: فجاؤوا به إلى ملكهم النمرود بن كنعان، ﴿قَالُوا﴾، أي قال له الملك: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، يعني: عظيمهم عندكم. وإنما قال هذا على وجه الاستهزاء، لا على وجه الجد. ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، يعني: إن كانوا يتكلمون، فسألوهم من فعل هذا بكم. ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، فلاموها يعني: إلى أصحابهم. ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، يعني: حَيْثُ قلتم إن إبراهيم كَسَّرها.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾، يعني: رجعوا إلى قولهم الأول، وقال القتبي: أي ردوا إلى ما كانوا يعرفون من أنها لا تنطق، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ يا إبراهيم، يعني: تعلم أنهم لا يتكلمون. ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً﴾؟ إنْ عبدتموهم، ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن تركتموهم. ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾، يعني: قذراً لكم وسحقاً لكم، وتعساً لكم؛ والاختلاف في قوله: ﴿أُفٍّ لكم﴾ مثل ما سبق. ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، يعني: أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أن من ليس له ذهن ولا قوة ولا منفعة ولا مضرة أن لا تعبدوه.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال ملكهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، يعني: انتقموا لآلهتكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ به شيئاً فافعلوا. فأمر النمرود أهل القرى حتى جمعوا له الحطب أياماً كثيرة، وأمر بأن يبنى بنياناً، فبُني حائط مستدير وجمعوا له الحطب ما شاء الله، ثم أضرموا فيه النار، فارتفعت النار حتى بلغت السماء في أعين الناظرين، وكانت الطير يمر بها فيصيبها حر النار، فلا تستطيع أن تجوز فيه فتقع ميتة. فلما أرادوا أن يلقوه فيها لم يستطيعوا لشدة حرها، ولم يقدر أحد أن يدنو منها، فبطل تدبيرهم وكادوا أن يتركوه. حتى جاء إبليس عدو الله لعنه الله، فدلهم على المنجنيق، وهو أول منجنيق صُنِعَت. وجاؤوا بإبراهيم، فأوثقوا يديه وجعلوه في المنجنيق. وروي في الخبر: أن السموات والأرض والجبال بكوا عليه، وبكت

Marfat.com

عليه ملائكة السموات، وقالوا: ربنا عبدك إبراهيم يحرق فيك. فقال لهم: إن استغاث بكم فأغيثوه. فلما رمي في المنجنيق، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. فرمي به بالمنجنيق في الهواء، فجعل يهوي نحو النار. فقال جبريل عليه السلام: يا رب، عبدك إبراهيم يحرق فيك، قال الله تعالى: إن استغاث بك فأَغِثْهُ. فأتاه جبريل وهو يهوي نحو النار، فقال: أتطلب النجاة؟ فقال: أما منك فلا، قال: أفلا تسأل الله عز وجل أن ينجيك منها؟ فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فلما أخلص قلبه لله تعالى، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، يعني: سلميه من حرِّك وبردك.

وقال عكرمة رحمه الله: بردت نار الدنيا كلها يومئذ، فلم ينتفع بها أحد من أهلها. وقال كعب: «ما أحرقت النار من إبراهيم غير وثاقه»، وقال قتادة: إن الخطّاف كان تطفىء النار بأجنحته، وكانت الوزغة تنفخ. وروت عائشة أن النبي ﷺ قال: «اقْتُلُوا الوَزَغَةَ، فإنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَى إبْرَاهِيمَ» وكانت عائشة تقتلهن، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿بَرْداً وسَلاماً﴾ لو لم يقل ﴿وسلاماً﴾ لأهلكه البرد» وكذلك قال ابن عباس. فضمه جبريل بجناحه ووضعه على الأرض، وضرب جناحه على الأرض، فأظهر الماء واخضرت الأرض. فلما كان في اليوم الثالث، خرج النمرود مع جيشه وأَشْرَفَ على موضع مرتفع لينظر إلى النار، فرأى في وسط ذلك الموضع ماء وخضرة، ورأى هناك شخصين والنار حواليهما، فقال: إنا قد رمينا إنساناً واحداً، فما لي أرى فيها نفسين؟ فرجع متحيراً.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾، يعني: حرقاً، ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين﴾؛ يعني: الأذلين الأسفلين، ﴿وَنَجيْنَاهُ ولُوطاً إلى الأَرْضَ الَّتِي بَارَكْنا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: إلى الأرض المقدسة، فخرج إبراهيم عليه السلام من ذلك الموضع وقال للوط عليه السلام: إني أريد أن أهاجر، فصدقه واتَّبعه، فخرجا إلى بيت المقدس، ويقال إلى الشام ﴿التي باركنا فيها﴾ بالماء والثمار للناس.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق﴾، يعني: الولد. ﴿ويعقوب نافلة﴾، يعني: زيادة. وذلك أنه سأل الله تعالى الولد، فأعطاه الله تعالى الولد وهو إسحاق عليه السلام، وولد الولد فضله على مسألته وهو يعقوب عليه السلام ويقال: ﴿نافلة﴾ أي: غنيمة. ﴿وكلاً جعلنا صالحين﴾، يعني: أكرمناهم بالإسلام. وقال الكلبي: كان لوط ابن أخي إبراهيم، فكان لوط بن هازر بن آزر وإبراهيم بن آزر وهو عم لوط. وقال بعضهم: كان لوط ابن عمه، وكانت سارة أخت لوط.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وجعلناهم أئمة﴾، يعني: قادة في الخير، ويقال: أكرمناهم بالإمامة والنبوة. **﴿يهدون بأمرنا﴾**، أي: يدعون الخلق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إلى أمرنا وإلى ديننا. **﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾**، يعني: أمرناهم بالأعمال الصالحة، ويقال: بالدعاء إلى الله عز وجل، أي قول لا إله إلا الله. **﴿وإقام الصلاة﴾**، يعني: إتمام الصلاة، **﴿وإيتاء الزكاة﴾**؛ يعني: الزكاة المفروضة وصدقة التطوع. **﴿وكانوا لنا عابدين﴾**، يعني: مطيعين.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿ولوطاً﴾، يعني: واذكر لوطاً إذ **﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾**، يعني: النبوة والفهم، ويقال: ﴿وَلُوطًا﴾، يعني: وأوحينا إليهم، وآتينا لوطاً يعني: وآتينا لوطاً حكماً وعلماً، أي: النبوة والفهم. **﴿ونجيناه من القرية﴾**، يعني: مدينة سدوم **﴿التي كانت تعمل الخبائث﴾**، يعني: اللواطة. **﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾**، يعني: عاصين. **﴿وأدخلنا في رحمتنا﴾**، يعني: أكرمنا لوطاً عليه السلام في الدنيا بطاعتنا وفي الآخرة بالجنة. **﴿إنه من الصالحين﴾**، أي: من المرسلين.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ونوحاً﴾، يعني: واذكر نوحاً عليه السلام **﴿إذ نادى من قبل﴾**، أي: دعا على قومه من قبل إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، **﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾**؛ يعني: الغرق. **﴿ونصرناه من القوم﴾**، أي: على القوم **﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾**، يعني: كذبوا نوحاً بما أنذرهم من الغرق، ويقال: ﴿نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾، أي: نجيناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا. **﴿إنهم كانوا قوم سوء﴾**، يعني: كفاراً، **﴿فأغرقناهم أجمعين﴾**؛ يعني: الصغير والكبير فلم يبق منهم أحد إلا هلك بالطوفان.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قال عز وجل: ﴿وداود وسليمان﴾، يعني: واذكر داود وسليمان عليهما السلام، **﴿إذ يحكمان في الحرث﴾** يعني: الزرع **﴿إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾** وذلك أن غنماً لقوم وقعت في زرع رجل، فأفسدته. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: «إن غنم قوم

Marfat.com

وقعت في كرم قوم ليلاً حين خرج عناقيده، فأفسدته، فاختصموا إلى داود بن أيشا النبي ﷺ فقوَّم داود الكرم والغنم، فكانت القيمتان سواء، أي: قيمة الغنم وقيمة ما أفسدت من الكرم، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فخرجوا من عنده، فمروا بسليمان فقال: بِمَ قضى بينكم الملك؟ فأخبروه فقال: نِعْمَ ما قضى به، وغير هذا كان أرفق للفريقين جميعاً. فرجع أصحاب الكرم والغنم إلى داود، فأخبروه بما قال سليمان، فأرسل داود إلى سليمان عليهما السلام فقال: كيف رأيت قضائي بين هؤلاء فإني لم أقض بالوحي، إنما قضيت بالرأي؟ فقال: نِعْمَ ما قضيت. فقال: عزمت عليك بحق النبوة وبحق الوالد على ولده، إلا أخبرتني. فقال سليمان: غير هذا كان أرفق بالفريقين. فقال: وما هو؟ قال سليمان: يأخذ أهل الكرم الغنم، ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها ونسلها، ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم، حتى إذا عاد الكرم كما كان ردوه. فقال داود: نِعْمَ ما قضيت به، فقضى داود بينهم بذلك.

وقال بعضهم: كان ذلك القضاء نافذاً فلم ينقض ذلك. وكان سليمان في ذلك اليوم ابن إحدى عشرة سنة، فذلك قوله: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ يعني: دخلت فيه غنم القوم، ويقال: نفشت أي: دخلت فيه بالليل من غير حافظ لها. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الزهري رحمهم الله قال: «النفش لا يكون إلا ليلاً، والعمل بالنهار» وروى قتادة، عن الشعبي رحمه الله أن شاة وقعت في غزل الحوّاك، فاختصموا إلى شريح رحمه الله، فقال شريح: انظروا أوقعت فيه ليلاً أو نهاراً. فإن كان بالليل يضمن، وإن كان بالنهار لا يضمن، ثم قرأ شريح: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ وقال: النفش بالليل والعمل بالنهار، وكلاهما الرعي بلا راع.

وروى سعيد بن المسيب أن ناقة البراء بن عازب دخلت حَائِطاً لقوم فأفسدته، فقضى رسول الله ﷺ «أن حفظ الأموال على أهلها بالنهار، وعلى أهل الماشية ما أصابت الماشية بالليل». وبهذا الخبر أخذ أهل المدينة، وقال أهل العراق: لا يضمن ليلاً كان أو نهاراً، إلا أن يتعمد صاحبها فيرسلها فيه، وذهبوا إلى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «جُرْحُ العَجْماءِ جُبَارٌ». ثم قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، يعني: عالمين.

قوله عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، يعني: ألهمناها سليمان. ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾، يعني: النبوة والفهم بالحكم. وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: لولا هذه الآية، لم يجرؤ أحد منا أن يفتي في الحوادث.

ثم قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، يعني: كلما سبح داود، تسبح معه الجبال والطير، أي: سخرنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح. وقال: كان داود يمر بالجبال مسبِّحاً، وهي تجاوبه وكذلك الطير. وقال قتادة: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي يصلين معه إذا صلى، يعني: كل ما سبح داود تسبح معه الجبال والطير، أي: سخرنا الطير والجبال يسبحن معه. ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، يعني: نحن فعلنا ذلك بهما.

Marfat.com

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾، يعني: دروع الحديد. وذلك أن داود عليه السلام خرج يوماً متنكراً ليسأل عن سيرته في مملكته، فاستقبله جبريل عليه السلام على صورة آدميٍّ فلم يعرفه داود فقال: كيف ترى سيرة داود في مملكته؟ فقال له جبريل عليه السلام: نِعْمَ الرجل هو، لولا أن فيه خصلة واحدة. قال: وما هي؟ قال: بلغني أنه يأكل من بيت المال، وليس شيء أفضل من أن يأكل الرجل من كدّ يده. فرجع داود عليه السلام وسأل الله عز وجل أن يجعل رزقه من كدّ يديه، فألان له الحديد، وكان يتخذ منها الدروع ويبيعها ويأكل من ذلك، فذلك قوله: ﴿وَعَلَّمْناهُ﴾ يعني: ألهمناه، ويقال: ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ بالوحي ﴿صفة لبوس لكم﴾. ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِن بَأْسِكُمْ﴾، يعني: يمنعكم قتال عدوكم. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالتاء ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿لنحصنكم﴾ بالنون بدليل قوله وعلمناه وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير يعني: ليحصنكم الله عز وجل، ويقال: يعني: اللبوس. ومن قرأ بالتاء فهو كناية عن الصنعة، واختار أبو عبيد بالتاء ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾، لأن اللبوس أقرب إليه.

ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. اللفظ لفظ الاستفهام، يعني: اشكروا ربَّ هذه النعم ووحِّدوه.

قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ﴾؛ قرأ أبو عبد الرحمن الأعرج ﴿الرِّيحُ﴾ بضم الحاء على معنى الابتداء، وقراءة العامة ﴿الرِّيحَ﴾ بالنصب، ومعناه: وسخرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةً﴾، يعني: قاصفة شديدة، وقال في موضع آخر ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ [ص: ٣٦] أي: لينة، فإنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد ﴿تَجرِي بِأَمْرِهِ﴾، يعني: تسير بأمر الله عز وجل، ويقال: بأمر سليمان. ﴿إلى الأرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾، يعني: من أمر سليمان وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ له﴾، يعني: سخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ من البنيان وغيره، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ من أن يهيجوا أحداً في زمانه، ويقال: يحفظهم أن لا يفسدوا ما عملوا، ويقال: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ ليطيعوا سليمان عليه السلام ولا يعصوه.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، يعني: اذكر أيوب عليه السلام وصبره. روي في

Marfat.com

الخبر: أن أيوب كان بمنزلة الملك، وهو أيوب بن برضى النبي عليه السلام وكانت له أموال من صنوف مختلفة، وكانت له ضياع كثيرة، وكان له ثلاثمائة زوج ثيران، وغلمان يعملون له في ضياعه، وأموال السوائم من الغنم والإبل والبقر، وكان متعبداً ناسكاً منفقاً متصدقاً، فحسده إبليس عدو الله وقال: إن هذا يذهب بالدنيا والآخرة. وأراد أن يفسد عليه إحدى الدارين أو كلتيهما، فسأل الله تعالى وقال: إن عبدك أيوب يعبدك، لأنك أعطيته السعة في الدنيا، ولولا ذلك لم يعبدك قال الله تعالى: إني أعلم منه أنه يعبدني ويشكرني، وإن لم يكن له سعة في الدنيا. فقال: يا ربِّ سلطني عليه، فسلطه على كل شيء منه إلا على روحه.

فرجع إبليس إلى غنمه كهيئة النار، وضرب عليها فأهلك جميع غنمه، فجاءت رعاته فأخبروه بالقصة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: هو الذي أعطى وهو الذي أخذ، وهو أحق به. ويقال: إنه أحرق غنمه ورعاته، فجاء إبليس على هيئة راع من رعاته فأخبره بذلك، فقال له أيوب عليه السلام: لو كان فيك خير لهلكت مع أصحابك. ثم جاء إلى إبله وبقره ففعل مثل ذلك، ثم جاء إلى زرعه كهيئة النار فأفسد جميع زرعه، فأخبر بذلك، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، وقال: هو الذي أعطى وهو الذي أخذ، وهو أحق به.

وكان له سبعة بنين وثلاث بنات؛ ويقال: سبعة بنين وسبع بنات في بيت، فجاء إبليس عليه اللعنة فهدم البيت عليهم فماتوا كلهم، فذكر ذلك لأيوب عليه السلام فحمد الله عز وجل على ذلك، وأثنى عليه، ولم يجزع وقال: هو الذي أعطى وهو الذي أخذ. ثم جاء إلى أيوب وكان في الصلاة، فلما سجد نفخ في أنفه وفمه نفخة، فانتفخ أيوب عليه السلام وخرجت به قروح، وجعل تسيل منها الصديد، وتفرق عنه أقرباؤه وأصدقاؤه، ولم يبق معه أحد إلا امرأته.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «كان اسم امرأته ماحين بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب، ويقال: كان اسمها رحمة. فتأذى به جيرانه وقالوا لامرأته: احمليه من هُهنا، فإنا نتأذى به. فحملته حتى أخرجته إلى كُناسة قوم، ووضعته عليها، وجعلت تدخل على الناس وتخدمهم وتأخذ شيئاً وتنفقه عليه. وكان ذلك البلاء ما شاء الله. فجاء إبليس في صورة طبيب، وقال للمرأة: إني أردت أن يبرأ من علته، فمريه يشرب الخمر، ويتكلم بكلمة الكفر. فأخبرته المرأة بذلك، فقال لها: ذلك إبليس الذي أمرك بهذا، فألحّت عليه، فغضب وقال: والله لئن برئت، لأضربنك مائة سوط. قالت: متى تبرأ؟ فقال عند ذلك: ربِّ ﴿أني مسّني الضرُّ﴾.

ويقال: إنه اشتهى شيئاً يتخذ بالسمن، فدخلت امرأته على امرأة غني من الأغنياء وسألتها ذلك، فأبت عليها. ثم نظرت إلى ذوائبها، فرأت ذوائبها مثل الحبل، فقالت: لئن دفعت إليّ ذوائبك، دفعت إليك ما تطلبين مني. فدفعت بالمقراض وقطعت ذوائبها ودفعتها إليها، وأخذت منها ما سألت، وجاءت به إلى أيوب عليه السلام فقال لها: من أين لك هذا؟ فأخبرته بالقصة، فبكى أيوب عند ذلك، وقال: رَبِّ ﴿أني مسّني الضُّرُّ﴾.

Marfat.com

قال بعضهم: مكث أيوب في بلائه سبع سنين، وقال بعضهم: عشر سنين، وروى عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانا يَغْدُوانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْباً مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وما ذٰلِكَ؟ فقالَ من ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ تَعَالَى، فَيَكْشِفَ ما بِهِ. ثُمَّ رَاحَا إِلَيْهِ فَلَمْ يَصْبِرَا، حَتَّى ذَكَرَا ذلكَ لَهُ، فَعِنْدَ ذلكَ قالَ: ربِّ ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾»(١).

قال: فلما كان ذات يوم، خرجت امرأته، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فشرب واغتسل، فأذهب الله عز وجل ما به من البلاء، فقال أيوب: كان الركض برجلي أشد علي من البلاء الذي كنت فيه. قال ابن عباس: «لما قال الله تعالى له: ﴿اركض برجلك﴾ ففعل، فانفجرت عين اغتسل منها فصح جسده. ثم قيل له: ﴿اركض برجلك﴾ ففعل، فخرجت عين فشرب منها، فالتأم ما في جوفه. فلما رجعت إليه المرأة لم تعرفه، فقالت له: بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله المبتلى؟ فوالله ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أيوب. قال: وكان له آنذاك أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين: إحداهما على أندر القمح فأفرغت الذهب حتى فاض، وأفرغت الأُخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض، ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، أصابني البلاء والشدة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فعرَّض ولم يُفْصح بالدعاء.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾، يعني: رفعنا ما به من شدة ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال مقاتل: ولدت امرأة أيوب منه سبعة بنين وثلاث بنات قبل البلاء، فأحياهم الله تعالى، ثم ولدت بعد كشف البلاء سبعة بنين وثلاث بنات، فذلك قوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾. وقال الكلبي: ولدت سبعة بنين وسبع بنات. فنشروا له، وولدت امرأته مثلهم سبعة بنين وسبع بنات؛ ويقال: آتاه الله عز وجل أهله في الدنيا، ومثلهم معهم في الآخرة. وروى وكيع، عن ابن سفيان، عن الضحاك: أن ابن مسعود بلغه أن مروان بن الحكم قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي أهلاً غير أهله. فقال ابن مسعود: «لا بل أهله بأعيانهم ومثلهم معهم».

ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، يعني: نعمة منا. ﴿وذكرى للعابدين﴾؛ يعني: عظة

(١) عزاه السيوطي: ٦٥٩/٥ إلى ابن أبي الدنيا، وأبي يعلى، والحاكم وابن حبّان وابن مردويه.

Marfat.com

للمطيعين، وهم أمة محمد ﷺ ليعتبروا به، لأن أيوب عليه السلام لم يفتر عن عبادة ربه عز وجل في بلائه.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾، يعني: واذكر إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وإدريس وهو جد أبي نوح. ﴿وَذَا الكِفْلِ﴾ عليهم السلام. قال بعضهم: كان ذو الكفل نبياً، وقال بعضهم: لم يكن نبياً، وكان رجلاً صالحاً، تكفل لنبيٍّ قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقضي بينهم بالعدل، ولذلك سمي ذا الكفل. ويقال: إنما ذكره مع الأنبياء عليهم السلام لأنه عمل عمل الأنبياء. وقال قتادة: كفل عن رجل صلاته، كان يصلي كل يوم ألف ركعة، فكفل عنه فكان يصلي بعد موته، فسمي ذا الكفل. ويقال: إنه كفل مائة من الأنبياء عليهم السلام، وأنجاهم من القتل، وضمّهم إلى نفسه، فسمّي ذا الكفل. ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، يعني: صبروا على طاعة الله عز وجل وعلى ما أصابهم من الشدة في الله تعالى.

ثمّ قال: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾، يعني: أكرمناهم بالنبوة، ويقال: أدخلناهم في الجنةِ ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يعني: المطيعين لله تعالى.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَذَا النُّونِ﴾، يعني: واذكر ذا النون، يعني: ذا السمكة. وهو يونس بن متى عليه السلام ﴿إذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾، يعني: مُصَارِعاً من قومه. ويقال: كان ضيق الصدر سريع الغضب، وذلك أنه لما دعا قومه إلى الله تعالى، كذبوه فأخبرهم بأن العذاب نازل بهم، فأتاهم العذاب، فأخلصوا لله تعالى بالدعاء، فصرف عنهم. وكان يونس عليه السلام اعتزلهم ينتظر هلاكهم، فسأل بعض من مر عليه من أهل تلك المدينة، فلما علم أنهم لم يهلكوا، أنف أن يرجع إليهم مخافة أن ينسب إلى الكذب وَيُعَيَّرَ به، و﴿ذهب مغاضباً﴾، يعني: أنفاً. قال القتبي: غضب وأنف بمعنى واحد لقربهما.

وقال بعضهم: إنما غضب على الملك. وذلك أن ملكاً من الملوك، يقال له ابن تغلب، غزا بني إسرائيل فسبى منهم تسعة أسباطٍ ونصف، فلمّا ذهب أيام عقوبتهم، يعني عقوبة بني إسرائيل، ونزل أيام عافيتهم، أوحى الله عز وجل إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل، يسمّى شعياء أن ائت إلى حزقيا الملك فأخبره بذلك، فدعا الملك يونس بن متى، وأمره بأن يخرج، فأبى أن

Marfat.com

يخرج وقال: إن في بني إسرائيل أنبياء أقوياء غيري، فعزم عليه الملك ليخرج فخرج وهو كاره، فغضب على الملك. فوجد قوماً قد شحنوا سفينتهم، فقال لهم: أتحملونني معكم؟ فعرفوه فحملوه. فلما شحنت السفينة بهم وأسرعت في البحر، انكفأت بهم وغرقت، فقال ملاحوها: يا هؤلاء إن فيكم رجلاً عاصياً، لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيكم رجل عاصٍ، فاقترعوا، فخرج سهم يونس عليه السلام فقال التجار: نحن أولى بالمعصية من نبي الله تعالى. ثم أعادوا الثانية والثالثة، فخرج سهم يونس، فقال: يا هؤلاء، أنا والله العاصي. قال: فتلفَّف في كسائه وقام على رأس السفينة، فرمى بنفسه في البحر فابتلعته السمكة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يعني: لن نقضي عليه بالعقوبة، ويقال: إن ذنبه لم يبلغ مبلغ الذي نقدر عليه العقوبة، ويقال: ظن أنا لن نضيّق عليه الحبس، كقوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيّق. وقرأ بعضهم: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ بالتشديد، فهو من التقدير، وقراءة العامة بالتخفيف. ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾، يعني: في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت: ﴿أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾، أي ليس أحد له سجن كسجنك. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إني تبت إليك. ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي.

قال الله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾، يعني: غم الماء في بطن الحوت، ويقال: من غم الذنب وقد بقي في بطن الحوت أربعين يوماً، ويقال: أقل من ذلك.

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. قرأ عاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿نُجّي المؤمنين﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم. وقال الزجاج: هو لحن، لأن فعل ما لم يسم فاعله لا يكون بغير فاعل؛ وإنما كتب في المصحف بنون واحدة، لأن الثانية تخفى مع الجيم. وقال أبو عبيد: والذي عندنا أنه ليس بلحن، وله مخرجان في العربية: أحدهما: أنه يريد ﴿ننجّي﴾ مشددة كقوله: ﴿ونجيناه من الغم﴾ ثم يدغم النون الثانية في الجيم؛ والآخر: معناه نجّي نجاة المؤمنين. قال: هذه القراءة أحب إلي، لأن المصاحف كلها كتبت بنون واحدة، وهكذا رأيت في مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه وقرأ الباقون ﴿نُنجي المُؤمِنِينَ﴾ بنونين.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ يعني: واذكر زكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ يعني: إذ دعا ربه: ﴿رَبِّ

Marfat.com

لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾، يعني: وحيداً لا وارث لي. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، يعني: أفضل الوارثين.

قال الله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، يعني: رحم امرأته وكانت عقيماً لم تلد قط، سيئة الخلق، فأصلحها الله تعالى. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، يعني: يبادرون في الطاعات، يعني: زكريا وامرأته ويحيى عليهما السلام ويقال: الأنبياء الذين سبق ذكرهم. ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾، يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب وهو الجنة، ﴿ورهباً﴾ أي فزعاً من عذاب الله تعالى. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، يعني: مطيعين، ويقال: متواضعين.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، يعني: واذكر مريم التي حفظت نفسها من الفواحش. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، يعني: نفخ جبريل عليه السلام في نفسها بأمرنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ يعني: لمريم وعيسى عليهما السلام ﴿آيَةً﴾ يعني عبرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: لجميع الخلق. ويقال: آية ولم يقل آيتين، لأن شأنهما واحد الآية فيهما بمعنى واحد بغير أب.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يعني: دينكم دين الإسلام ديناً واحداً، قرأ بعضهم: ﴿أُمَّةٌ واحدةٌ﴾ بضمّ التائين ومعناه: إن هذه أمتكم، وقد تم الكلام. ثم يقول: ﴿أُمّةٌ﴾، يعني: هذه أمة واحدة. وقرأ العامة: بالنصب على معنى التفسير ثم قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، يعني: فوحدوني.

ثم قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: تفرّقوا فيما بينهم وهم اليهود والنصارى. ﴿كُلٌّ إلينا راجعُون﴾ في الآخرة، فهذا تهديد للذين تفرقوا في الدين.

ثم بيّن ثواب الذين ثبتوا على الإسلام، فقال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، يعني: الطاعات ﴿وهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، يعني: مصدقاً بتوحيد الله عز وجل، ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، يعني: لا يُجحد ولا يُنسى ثواب عمله. والكفران مصدر مثل شكران وغفران. ﴿وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ﴾، يعني: حافظين مجازين.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ

Marfat.com

مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ**﴾، يعني: على قرية فيما مضى ﴿**أَهْلَكْنَاهَا**﴾ بالعذاب في الدنيا، ﴿**أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾ إلى الدنيا، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿وحرم على قرية﴾ بكسر الحاء وبغير ألف. وقرأ الباقون ﴿وحرام﴾ بنصب الحاء والألف. وَحُرمٌ وَحَرَامٌ بمعنى واحد، كقوله: حلّ وحلال، وروي عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿وحِرَمَ﴾ وقال: واجب عليهم أن لا يرجع منهم راجع، ويقال: معناه وحرام على أهل قرية أهلكناها أن يتقبّل منهم عمل، لأنهم ﴿لا يرجعون﴾ أي: لا يتوبون؛ ويقال: ﴿لا يرجعون﴾ لا زيادة ومعناه: حرام عليهم أن يرجعوا.

ثم قال عز وجل: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**﴾، قرأ ابن عامر ﴿فُتِّحَتْ﴾ بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير، وقرأ الباقون بالتخفيف، وقرأ عاصم ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بالهمز والباقون كلاهما بغير همز. ﴿**وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**﴾، قال مقاتل: يعني، من كل مكان يخرجون، من كل جبل أو أرض أو واد، وخروجهم عند قيام الساعة. وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لا يموت واحد منهم إلا ترك من صلبه ألف ذرية فصاعداً. وروى قتادة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أنه قال: «الإنس عشرة أجزاء منهم يأجوج ومأجوج تسعة أجزاء، وجزء واحد سائر الإنس».

وروى سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزبعرى، عن عبد الله بن مسعود قال: «يَخرُجُ يَأْجُوجُ ومأجوج بعد الدجال، يموجون في الأرض فيفسدون فيها، ثم قرأ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، أي: يخرجون، فيبعث الله تعالى عليم دابة مثل هذا النغف، فتلج في أسماعهم ومناخرهم فيموتون، فتنتن الأرض، فيرسل الله عز وجل ماء فيطهِّر الأرض منهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿إذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، يعني: أرسلت كقوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، يعني: أرسلنا ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾، أي من كل أكمة ونشزة من الأرض يخرجون، وقال بعضهم: يكون خروجهم قبل الدجال. والأصح ما روي عن عبد الله بن مسعود.

قوله عز وجل: ﴿**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ**﴾، يعني: قيام الساعة. ﴿**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا**﴾، يعني: يقولون: يا وَيْلَنا ﴿**قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ**﴾؛ يعني: في جهل ﴿**مِنْ هَذَا**﴾ اليوم. ثم ذكروا أن المرسلين كانوا أخبروهم، فقالوا: ﴿**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾، يعني: قد أخبرونا فكذبناهم.

قوله عز وجل: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾؛ وروي عن علي بن أبي

Marfat.com

طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ: «حطب جهنم»، وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «حضب جهنم» بالضاد، وقراءة العامة ﴿حصب﴾ بالصاد، يعني: رمياً في جهنم. وكل ما يرمى في جهنم فهو حصب، ويقال: الحصب هو الحطب بلسان الزنجية. ومن قرأ: حطب، أي كل ما يوقد به جهنم، ومن قرأ حضب بالضاد معناه: ما يهيج به النار. ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، أي داخلون.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «أن رسول الله ﷺ أتى قريشاً وهم في المسجد مجتمعون، وثلاثمائة وستون صنماً مصفوفة، وصنم كل قوم بحيالهم؛ فقال: «﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: من هذه الأصنام، ﴿فِي النَّارِ﴾». ثم انصرف عنهم، فشق ذلك عليهم مشقة عظيمة شديدة. وأتاهم عبد الله بن الزبعرى، وكان شاعراً، فقال: ما لي أراكم بحال لم أركم عليها؟ فقالوا: إن محمداً يزعم أنا وما نعبد في النار. فقال: لو كنت هٰهنا لخصمته. فقالوا: هل لك أن نرسل إليه؟ فقال: نعم. فبعثوا إليه، فأتاهم، فقال له ابن الزبعري: أرأيت ما قلت لقومك آنفاً، أخاص لهم أم عام؟ فقال: «بل عام، كل من عبد من دون الله فهو وما عبدَ في النار». قال: أرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام هذه النصارى تعبده، فعيسى والنصارى في النار؟ وهذا عزير تعبده اليهود، فعزير واليهود في النار؟ وهذا حي يقال لهم بنو مليح يعبدون الملائكة عليهم السلام، فالملائكة وهم في النار؟ فسكت النبي ﷺ ولم يجبهم، فضج أصحابه وضحكوا[1] فنزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾، ونزل في عيسى وعزير والملائكة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ويقال: إن هذه القصة لا تصح، لأن النبي ﷺ كان أفصح العرب، وأنطقهم لساناً، وأحضرهم جواباً كما وصف نفسه: «أنا أفصَحُ العَرَبِ» فلا يجوز أن يسكت على مثل هذا السؤال، ولم يكن السؤال لازماً، ويقال: كان سكوته للإستخفاف، لأنه سئل سؤالاً محالاً، لأنه قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ ولم يقل ومن تعبدون. و«ما» لا يقع على النواطق، و«من» تقع على النواطق؛ ويقال: هذا القول يقال لهم يوم القيامة، لأنه قال: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. يقال لهم عند ذلك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فإن قيل: ما الحكمة في إدخال الأصنام في النار؟ قيل: زيادة عقوبة للكفار، لأن الأصنام أحجار، فيكون الحر فيها أشد. ويقال: الفائدة في إدخال المعبود النار زيادة ذل وصغار عليهم، حيث رأوا معبودهم في النار معهم من غير أن يكون للأصنام عقوبة، لأنه لا يجوز التعذيب بذنب غيرهم.

---

(١) عزاه السيوطي: ٥/ ٦٧٩ إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وابن مردويه والحاكم وصححه.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً﴾، يعني: الأصنام ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾، أي ما دخلوها ومنعوا أنفسهم ومن عبدهم من النار. ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يعني: العابد والمعبود.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ﴾، يعني: في النار صوتهم مثل نهيق الحمار. ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾، يعني: عيسى وعزيراً عليهما السلام في الجنة لا يسمعون زفيرهم. ويقال: يعني، أن أهل النار لا يسمعون في النار الصوت، وذلك حين يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونَ﴾، فصاروا صماً بكماً عمياً.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، يعني: الذين وجبت لهم منا الجنة، وهم: عيسى وعزيراً. ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، يعني: منجّون من النار.

قوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، يعني: صوت جهنم ﴿وَهُمْ فِيمَا﴾ يعني: في الجنة ﴿اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾، يعني: تمنت أنفسهم في الجنة. ﴿خَالِدُونَ﴾، يعني: دائمين. ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾؛ قال ابن عباس رضي الله عنه يعني: النفخة الأخيرة ودليلهُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال الحسن: حين يؤمر بالعبد إلى النار، وقال مقاتل: إذا ذبح الموت بين الجنة والنار، فيأمن أهل الجنة من الموت ويفزع أهل النار، فيفزعون حين أيسوا من الموت. وقال الكلبي، وسعيد بن جبير، والضحاك: إنه حين وضع الطبق على النار بعد ما أخرج منها من أخرج، فيفزعون لذلك فزعاً لم يفزعوا لشيء قط، وذلك الفزع الأكبر. وقال مقاتل وابن شريح: حين يذبح الموت على هيئة كبش أملح على الأعراف، والفريقان ينظرون فينادى: يا أهل الجنة، خلود لا موت، ويا أهل النار، خلود لا موت. وقال ذو النون المصري: هو القطيعة والفراق، ويقال: إنه الموت، لأن أول هول يراه الإنسان من أمر الآخرة هو الموت؛ ويقال: الفزع الأكبر عند قوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] ويقال: هذا حين دُعوا إلى الحساب، ويقال: عند الصراط.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾، يعني: يوم القيامة لأهل الجنة. قال مقاتل: يعني الملائكة الذين كتبوا أعمال بني آدم، حين خرجوا من قبورهم فيقولون للمؤمنين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الجنة. وقال الكلبي: تتلقاهم الملائكة عند باب الجنة ويبشرونهم بذلك، ويقولون: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ في الدنيا.

Marfat.com

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾، يعني: واذكر يوم نطوي السماء، ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. قال السدي: السجل ملك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان، رُفع كتابه إلى السجل فطواه، ويقال: السجل الصحيفة، ويقال: السجل الكاتب.

وروى أبو الجوزاء، عن ابن عباس قال: «السجل كان كاتب النبي ﷺ فأخبره الله عز وجل أنه يطوي السماء يوم القيامة، كما يطوي السجل الكتاب». قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿للكتب﴾ بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون: ﴿للكتاب﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ أبو حفص المدني ﴿تُطْوَى السماء﴾ بالتاء والضم على فعل ما لم يسم فاعله؛ وقراءة العامة ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ بالنون والنصب. وقرأ بعضهم: ﴿السجل﴾ بجزم الجيم والتخفيف، وقراءة العامة بكسر الجيم والتشديد.

ثم استأنف الكلام فقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾، يعني: كما خلقهم في الدنيا يعيدهم في الآخرة ويقال: كما بدأناهم شقياً وسعيداً في الدنيا. فكذلك يكونون في الآخرة. ويقال: كما بدأنا أول خلق من نطفة في الدنيا، نعيده أي: تمطر السماء أربعين يوماً كمني الرجال فينبتون فيه. ﴿وَعْداً عَلَيْنَا﴾، يعني: وعدنا البعث صدقاً وحقاً لا خلف فيه، كقوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢] ﴿وَعْداً﴾ صار نصباً للمصدر. ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بهم، أي باعثين بعد الموت. وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ عُرَاةً حُفَاةً عُزْلاً بُهْماً، ثمّ قال: ﴿كما بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾».

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾، يعني: في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وكل كتاب زبور. ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، يعني: من بعد اللوح المحفوظ، ويقال: الذكر التوراة، يعني: كتبنا في الإنجيل والزبور والفرقان من بعد التوراة، أي بيّنا في هذه الكتب ﴿أَنَّ الأَرْضَ﴾،

Marfat.com

يعني: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني: ينزلها عبادي المؤمنون، وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل رضي الله عنه ويقال: إن ﴿الأرض﴾ يعني: الأرض المقدسة ﴿يرثها﴾ أي: ينزلها بنو إسرائيل. ويقال: يعني أرض الشام يرثها أمة محمد ﷺ، ويقال جميع الأرض تكون في آخر الزمان، كما قال النبي ﷺ: **«سَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»**.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾، القرآن. ﴿لَبَلاغاً﴾ إلى الجنة ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾، أي موحدين. ويقال: في القرآن لبلاغاً بلغهم من الله عز وجل لقوم مطيعين. وعن كعب أنه قال: **«إنهم أهل الصلوات الخمس»**.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، يعني: وما بعثناك يا محمد إلاّ رحمة للعالمين، يعني: نعمة للجن والإنس. ويقال: ﴿للعالمين﴾ أي لجميع الخلق، لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق. وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين، حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «من آمن بالله ورسوله فله الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي أن يصيبه ما كان يصيب الأمم قبل ذلك، فهو رحمة للمؤمنين والكافرين». وذكر في الخبر: أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: **«يقول الله عز وجل:** ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، **فهل أصابك من هذه الرحمة؟** قال: **«نعم أصابني من هذه الرحمة. أني كنت أخشى عاقبة الأمر، فآمنت بك لثناء أثنى الله تعالى عليّ بقوله عز وجل:** ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ربكم رب واحد، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون بالتوحيد، ويقال: مخلصون بالعبادة. اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به: الأمر، يعني: أسلموا.

ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا﴾ يعني: فإن أعرضوا عن الإيمان، ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ﴾ يعني: أعلمتكم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي على بيان علانية غير سر. ويقال: أعلمتكم بالوحي الذي يوحى إليّ، لنستوي في الإيمان به، ويقال: معناه أعلمتكم، فقد صرت أنا وأنتم على سواء. وهذا من الاختصار.

ثم قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني: وما أدري، ﴿أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من نزول العذاب بكم في الدنيا. فقل لهم: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: العلانية من القول. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ يعني: ما تسرّون من التكذيب بالعذاب.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني: وما أدري ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ يعني: لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا فتنة لكم، لأنهم كانوا يقولون: لو كان حقاً لنزل بنا العذاب. ﴿وَمَتَاعٌ

Marfat.com

إِلَى حِينٍ﴾، أي بلاغ إلى منتهى آجالكم، يعني: تعيشون إلى الموت.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، يعني: اقض بيني وبين أهل مكة بالعدل، ويقال: بالعذاب ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾، أي العاطف على خلقه بالرزق. ﴿الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، يعني: أستعين به على ما تقولون وتكذبون، ويقال: المطلوب منه العون والنصرة. وروي عن الضحاك أنه قرأ ﴿قل ربّ احكم بالحق﴾ على معنى الخبر، على ميزان أفعل، يعني: هو أحكم الحاكمين. قال: لأنه لا يجوز أن يسأل أن يحكم بالحق، وهو لا يحكم إلاَّ بالحق. وقراءة العامة ﴿قل ربّ احكمُ﴾ على معنى السؤال، معناه: احكم بحكمك. ثم يخبر عن ذلك الحكم أنه حق. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿قال ربّ احكم﴾ على معنى الحكاية، وقرأ الباقون ﴿قل ربّ احكم﴾. وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين ﴿على ما يَصِفُون﴾ بالياء بلفظ المغايبة، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ حمزة ﴿الزُّبور﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقون ﴿الزَّبور﴾ بالنصب؛ والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي المختار وعلى آله وصحابته الأطهار.

Marfat.com

سورة الحج

مكية وهي سبعون وخمس آيات مكية وثلاث آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمْ﴾، يقول: أطيعوا ربكم، ويقال: اخشوا ربكم. ﴿إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾، يعني: قيام الساعة ﴿شيء عَظيم﴾ يقول: هولها عظيم والزلزلة والزلزال: شدة الحركة على الحال الهائلة من قولهم: زلَّت قدمه، إذا زالت عن الجهة سرعةً.

ثم وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ تَرونَهَا تَذْهَلُ﴾، أي: تشتغل ﴿كل مرضعة عَمَّا أرْضَعَتْ﴾، يعني: ذات ولد رضيع. ويقال: تحيّر كل والدة عن ولدها. ﴿وَتَضَعُ كُلّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم.

وروى منصور، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة ﴿إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيم﴾ قال: هذا بين يدي الساعة، وقال مقاتل: وذلك قبل النفخة الأولى، ينادي ملك من السماء: يا أيها الناس أتى أمر الله، فيسمعُ الصَّوتَ أهلُ الأرض جميعاً، فيفزعون فزعاً شديداً، ويموج بعضهم في بعض، فيشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، وتضع الحوامل ما في بطونها، وتزلزلت الأرض، وطارت القلوب. وعن سعيد بن جبير أنه قال: إنما هو عند النفخة الأولى التي هي الفزع الأكبر، ويقال: هو يوم القيامة.

وقال: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم قال: حدّثنا الديبلي قال: حدّثنا أبو عبيد الله قال: حدّثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان قال: سمعت الحسن يقول: حدّثنا عمران بن الحصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير، فنزلت عليه هذه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ، **أتَدْرُونَ أيُّ يَوْمٍ ذلكَ؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«ذٰلِكَ يَوْمَ يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ لآدمَ عليه السلام: قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ أَهْلِ الجَنَّةِ. قالَ: فيقولُ آدمُ: وَمَا بَعْثُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ يقولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ. قال: فَأَنْشَأَ القَوْمُ يبكون. فقال النبي ﷺ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ**

Marfat.com

قطّ، إلا كانَتْ قَبلَهُ جاهِلِيَّةٌ، فيُؤخَذُ العددُ مِنَ الجاهِلِيَّةِ. فإنْ لَمْ يَكُنْ كملَ العددُ مِنَ الجاهِلِيَّةِ، أخذَ من المنافقين. وَمَا مَثَلُكُم في الأمَمِ، إلا كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ في ذراعٍ، وكالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعِيرِ. ثم قال عليه الصلاة والسلام: إنّي لأرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ، فكبّروا، ثم قال: إنَّ مَعَكُمْ الخَلِيقَتَيْنِ ما كانتا في شَيْءٍ إلا كَثَّرَتَاهُ: يأجوجُ ومأجوجُ ومن ماتَ من كفرةِ الجَنَّةِ وَالإِنْسِ»[1].

وروى أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لآدَمَ: قُمْ فَابْعَثْ أهلَ النَّارِ. فقالَ: يا رَبِّ وَمَا بَعْثُ أهْلِ النَّارِ؟ فيقولُ: مِنْ كُلِّ ألفٍ تِسْعُمِائَةٍ وتسعةٌ وتسعون. فعِنْدَ ذلكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ الحَامِلُ ما فِي بَطْنِها»[2]، ويقال: هذا على وجه المثل، لأن يوم القيامة لا يكون فيه حامل ولا صغير، ولكنه بيَّن هول ذلك اليوم، أنه لو كان حاملاً، لوضعت حملها من شدة ذلك اليوم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَترى النَّاسَ سَكَارَى﴾ من الهول أي كالسكارى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾، يعني: وما هم بسكارى من الشراب. ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ﴿وَتَرَى النَّاسَ سَكْرَى وما هم بِسَكْرَى﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون ﴿سكارى وما هم بسكارى﴾ كلاهما بالألف. وروي عن ابن مسعود وحذيفة رضي الله عنهما أنهما قرآ ﴿سَكْرى﴾ وهو اختيار أبي عبيدة، وروي عن أبي زرعة: أنه قرأ على الربيع بن خثيم ﴿وتُرَى﴾ بضم التاء، وقراءة العامة بالنصب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ
أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ
ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ
لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى
ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ﴾، يعني: يخاصم في الله، يعني: في

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٦٩) وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد ٤/ ٤٣٤ وعزاه السيوطي: ٦/ ٤ إلى الترمذي وأحمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨) و(٤٧٤١) ومسلم (٣٧٩) (٢٢٢) وعزاه السيوطي ٦/٦ إلى البخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

Marfat.com

وحدانيته؛ ويقال: في دين الله. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، يعني: بغير حجة. ويقال: ﴿بغير علم﴾ يَعْلمه، وهو النضر بن الحارث وأصحابه. ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾، يعني: يطيع ويعمل بأمر كل ﴿شيطان مريد﴾ متمرد في معصية الله عز وجل. ويقال: معناه ويتبع ما سوَّل له الشيطان. والمريد: الفاسد، يقال: مرد الشيء، إذا بلغ في الشر غايته. ويقال: مرد الشيء إذا جاوز حد مثله.

ثم قال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، أي: قضي عليه، يعني: الشيطان. ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾، يعني: من تبع الشيطان؛ ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن الهدى، ﴿وَيَهْدِيهِ﴾؛ أي: يدعوه ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: إلى عمل عذاب النار.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، يعني: يا كفار مكة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، يعني: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت، فانظروا إلى بدء خلقكم. ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: من آدم عليه السلام وآدم من تراب. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قيل: إنما نقلناكم من حالٍ إلى حالٍ، من خلقةٍ إلى خلقةٍ، ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾، مثل قطعة كبد. ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾، أي تامة ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، يعني: غير تامة، وهو السقط. ويقال: مصورة وغير مصورة. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بدء خلقكم. ويقال: يخرج السقط من بطن أمه مصوراً أو غير مصور، ﴿لنبين لكم﴾ بدء خلقكم كيف نخلقكم في بطون أمهاتكم. ويقال: ﴿لنبين لكم﴾ في القرآن أنكم كنتم كذلك. ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فلا يكون سقطاً. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، يعني: إلى وقت خروجه من بطن أمه، ويقال: إلى وقت معلوم لتسعة أشهر. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ من بطون أمهاتكم أطفالاً صغاراً. وقال القتبي: لم يقل أطفالاً، لأنهم لم يخرجوا من أم واحدة، ولكنه أخرجهم من أمهات شتى، فكأنه قال: يخرجكم طفلاً طفلاً.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾، يعني: ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة، ويقال: إلى ست وثلاثين سنة. والأشد: هو الكمال في القوة والخير. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ يعني: مِنْ قَبْل أن يبلغ أشده، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، يعني: أضعف العمر وهو الهرم. ويقال: يعني، يرجع إلى أسفل العمر، يعني: يذهب عقله. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، يعني: لكيلا يعقل بعد عقله الأول.

ثم دلهم على إحيائه الموتى بإحيائه الأرض، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، يعني: ميتة يابسة جافة ذات تراب. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾، يعني: المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾؛ يعني: تحركت بالنبات. كقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ [النمل: ١٠] يعني: تتحرك، ويقال: ﴿اهتزت﴾ أي: استبشرت. ﴿وَرَبَتْ﴾، يعني: انتفخت بالنبات. وأصلهُ: من ربا يربو، وهو الزيادة. ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾، يعني: من كل صنف من ألوان النبات. ﴿بَهِيجٍ﴾، أي: حسناً

Marfat.com

تُبْهَج به، فدلهم للبعث بإحياء الأرض، ليعتبروا ويعلموا بأن الله هو الحق، وعبادته هي الحق، وغيره من الآلهة باطل. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي قادر على كل شيء من البعث وغيره.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ﴾، أي: تعلموا أن الساعة ﴿آتِيَةٌ﴾، أي: كائنة، أي جائية. ﴿لا رَيْبَ فِيهَا﴾، أي: لا شك فيها عند المؤمنين، وعند كل من له عقل وذهن. ﴿وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ﴾ يعني: يخاصم في دين الله عز وجل ﴿بغيرِ عِلْم﴾، أي: بلا بيان وحجة، ﴿وَلاَ هُدَى﴾؛ يعني: ولا دليل واضح من المعقول، ﴿وَلاَ كتابٍ مُنِيرٍ﴾ يعني: ولا كتاب منزل مضيء فيه حجة. ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾، يعني: لاوياً عنقه عن الإيمان، وهو على وجه الكِنَايَةِ، ومعناه: يجادل في الله بغير علم متكبراً، ويقال ﴿ثانيَ عطفه﴾، يعني: معرضاً عن طاعة ربه. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ الله﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بنصب الياء، يعني: ليعرض عن دين الله عز وجل، وقرأ الباقون بالضم، يعني: ليصرف الناس عن دين الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿لهُ فِي الدُّنيا خِزْيٌ﴾، يعني: النضر بن الحارث قتل يوم بدر صبراً، ﴿وَنُذيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ﴾؛ يعني: عذاب النار فأخبر الله تعالى أن ما أصابه في الدنيا من الخزي، لم يكن كفارة لذنوبه.

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾، يعني: ذلك العذاب، أي: يقال له يوم القيامة: هذا العَذَابُ ﴿بِما قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، يعني: بما عملت يداك. وذكر اليدين كناية، يعني: ذلك العذاب لكفرك وتكذيبك. ﴿وَأَنَّ الله لَيسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ﴾، أي: على شك. وعلى وجه الرياء، ولا يريد به وجه الله تعالى. ويقال: على شك، والعرب تقول: أنت على حرف، أي على شك؛ ويقال: ﴿على حرف﴾ بلسانه دون قلبه. وروي عن الحسن أنه قال: ﴿يعبد الله على حرف﴾ أي على إيمان ظاهر وكفر باطن. ويقال: ﴿على حرف﴾، أي على انتظار الرزق. وهذه

Marfat.com

الآية مدنية، نزلت في أناس من بني أسد أصابتهم شدة شديدة فاحتملوا العيال، حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأغلوا الأسعار بالمدينة.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾، يعني: إن أصابه سعة وغنيمة وخصب اطمأن به، وقال: نعم الدين دين محمد ﷺ. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾، أي: بلية وضيق في المعيشة، ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾؛ أي: رجع إلى كفره الأول وقال: بئس الدين دين محمد ﷺ. ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾، أي: غبن الدنيا والآخرة. في الدنيا بذهاب ماله، وفي الآخرة بذهاب ثوابه. ويقال: ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ لأنه لم يدرك ما طلب من المال، وفي الآخرة بذهاب الجنة. وروي عن حُمَيد أنه كان يقرأ ﴿خَاسِرَ﴾ بالألف، وقراءة العامة ﴿خسر﴾ بغير ألف. ﴿ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾، يعني: الظاهر البين.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، يعني: يعبد من دون الله ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ﴾، إن لم يعبده، يعني: الصنم، ﴿وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ﴾ إن عبده. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ البَعِيدُ﴾، يعني: الخطأ البين. ويقال: في خطأ طويل بعيد عن الحق. ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾، يعني: لمن إثمه وعقوبته أكثر من ثوابه ومنفعته، ويقال: ضره في الآخرة أكثر من نفعه في الدنيا. فإن قيل: لم يكن في عبادته نفع البتة، فكيف يقال: من نفعه ولا نفع له؟ قيل له: إنما قال هذا على عاداتهم، وهم يقولون لشيء لا منفعة فيه: ضره أكثر من نفعه، كما يقولون لشيء لا يكون هذا بَعِيدٌ، كما قالوا ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

ثم قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى﴾، يعني: بئس الصاحب، ﴿وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾؛ يعني: بئس الخليط. ويقال: معناه من كانت عبادته عقوبة عليه، فبئس المعبود هو.

ثم ذكر ما أعد الله تعالى لأهل الصلاح والإيمان، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، يعني: يحكم في خلقه ما يشاء من السعادة والشقاوة.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أن لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ﴾، الهاء: كناية عن النبي ﷺ، ويجوز في اللغة الإضمار في الكناية وإن لم تكن مذكورة إذا كان الأمر ظاهراً، كقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، يعني: على ظهر الأرض، وكقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ

Marfat.com

بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] يعني: الشمس. ومعناه: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ بالغلبة والحجة. ﴿فِي الدُّنيا وَ﴾ الشفاعة في ﴿الآخِرَة﴾. ﴿فَلْيَمدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾، يعني: فليربط بحبل من سقف البيت، لأن كل ما علاك فهو سماء. ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾، يعني: ليختنق، ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذهِبَنَّ كَيدُهُ﴾، أي: اختناقه. ﴿مَا يَغِيظُ﴾، معناه: هل ينفعه ذلك؟ قال ابن عباس: «نزلت الآية في نفر من أسد وغطفان، فقالوا: نخافُ أن لن ينصر الله محمداً عليه السلام، فيقطع ما بيننا وبين حلفائنا من المودة، يعني: اليهود». وقال القتبي: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين، يستبطئون ما وعد لهم من النصرة، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يتم لهم أمره، فنزل ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ الله﴾، يعني: محمداً ﷺ بعدما سمعوا منه النصرة والإظهار. ولكن كلام العرب على وجه الاختصار، يعني: إن لم تثق بما أقول لك، فاذهب فاختنق، أو اجتهد جهدك.

قال: وفيه وجه آخر وهو: أن يكون هاهنا السماء بعينها لا السقف، فكأنه قال ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إليها﴾ أي بحبل وليرتق فيه، ثم ليقطع الحبل حتى يخرّ فيهلك، فلينظر هل ينفعه؟ كقوله عـز وجـل: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقال أبو عبيدة: ﴿من كان يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ الله في الدُّنيَا وَالآخِرَة﴾ يعني: أن لن يرزقه الله. وذهب إلى قول العرب: أرض منصورة، أي ممطورة، فكأنه قال: من كان قانطاً من رزق الله ورحمته، فليفعل ذلك ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذهِبَنَّ كَيدُه﴾، أي حيلته ما يغيظ، أي غيظه لتأخير الرزق عنه. وقال الزجاج: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله﴾ يعني: محمداً ﷺ، حتى يظهره الله على الدين كله، فليمت غيظاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أنزَلْنَاهُ﴾، أي: جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، يعني: واضحات بالحلال والحرام. ﴿وَأَنَّ الله يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾، يعني: يرشد إلى دينه من كان أهلاً لذلك، فيوفقه لذلك. وهذا كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

قوله عز وجل: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: أصحاب محمد ﷺ ومن كان مثل حالهم، ﴿والَّذين هادُوا﴾ يعني: مالوا عن الإسلام يعني: اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وقد ذكرناه من قبل، ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿وَالْمَجُوسَ﴾، يعني: عبدة النيران ﴿وَالَّذِينَ أَشرَكُوا﴾ يعني: عبدة الأوثان والأديان ستة: فواحد لله تعالى، والخمسة للشيطان. ﴿إنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، يعني: يقضي ويحكم بينهم ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾، بين هذه الأديان الستة. وقال بعضهم: إن الفاء

Marfat.com

مضمرة في الكلام ومعناه: فإن الله يفصل بينهم على معنى جواب الشرط. ويقال: جوابه في قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، من أعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، يعني: ألم تعلم؟ ويقال: ألست تعلم؟ ويقال: ألم تخبر في الكتاب؟ ﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة، ﴿وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ من الخلق، ﴿وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ﴾. قال مقاتل: سجود هؤلاء حين تغرب الشمس تحت العرش. ويقال: سجودها دورانها ﴿وَ﴾ سجود ﴿الشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾، إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده.

﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، أي المؤمنين. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَ عَلَيهِ الْعَذَابُ﴾ أي وجب عليه العذاب بترك سجودهم في الدنيا ويقال ﴿وَكَثِيرٌ حَق عَلَيهِ الْعَذَابُ﴾ سجودهم ظلُّهم، ويقال: يسجد أي يخضع. وفيه آية الخلق، فهو سجودهم. ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾، يعني: من قضى الله عز وجل عليه بالشقاوة، فما له من مسعد. ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، يعني: يحكم ما يشاء في خلقه من الإهانة والإكرام.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢)﴾

قوله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾، يعني: أهل دينين ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، يعني: احتجوا في دين ربهم. قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: «نزلت هذه الآية في الذين بارزوا يوم بدر، يعني: حمزة، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث من المؤمنين رضي الله عنهم، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة من المشركين»، يعني: أن المؤمنين يخاصمون الكفار ويجاهدونهم ويقاتلونهم.

ثم بيّن مصير كلا الفريقين بقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقال مجاهد: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾، يعني: المؤمن والكافر اختصما في البعث، فالكافر ﴿قطّعت﴾ له ﴿ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾، والمؤمن يدخله ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾، أي: اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: خلقت للرحمة، وقالت النار: خلقت للعذاب.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾، «وذلك أن اليهود قالوا: كتابنا أسبق

Marfat.com

ونبينا أفضل. وقالت النصارى: نبينا كان يحيي الموتى، وهو أفضل من نبيكم، فنحن أولى بالله. وقال المؤمنون: نحن آمنا بالله وبجميع الأنبياء عليهم السلام، وبجميع الكتب، وأنتم كفرتم ببعض الرسل وببعض الكتب، فديننا أولى من دينكم، فنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ الآية وقال: ﴿هذان خصمان اختصموا﴾، ولم يقل اختصما، لأن كل واحد من الخصمين جمع. قرأ ابن كثير ﴿هَذَانّ﴾ بتشديد النون، وقرأ الباقون بالتخفيف. وفي الآية دليل: أن الكفر كله ملة واحدة، لأنه ذكر ستة أصناف من الأديان.

ثم قال: ﴿هذان﴾ ثم بيَّن مصير كلا الفريقين، فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جحدوا بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ يعني: هيئت لهم قُمُصٌ من نار، ويقال: نحاس. ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾؛ قال مقاتل: يضرب الملك رأسه بالمقمع، فيثقب رأسه. ثم يصب فيه الحميم، الذي قد انتهى حَرُّهُ. ﴿يُصْهَرُ﴾ به، يعني: يذاب به ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ﴾، يعني: تنضج الجلود فتسلخ. ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، يضرب بها هامتهم، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾، يعني: من الغم والشدة التي أدركته، ضرب بمقمعة من حديد، فيهوي بها كذلك. فذلك قوله: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾، أي ردوا إليها. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾، أي المُحرِق، يعني: يقال لهم: ذوقوا عذاب النار، وهذا الجزاء لأحد الخصمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

ثم بين جزاء الخصم الآخر، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، يعني: يلبسون في الجنة. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، يعني: أقلبة. ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾. قرأ نافع وعاصم في رواية حفص ﴿ولؤلؤاً﴾ بالهمز والنصب، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر هكذا، إلا أنه لم يهمز الواو الأولى، وقرأ الباقون بالهمز والكسر. فمن قرأ بالكسر، فلأجل مِنْ، ومن قرأ بالنصب فمعناه: يحلون لؤلؤاً نُصب لوقوع الفعل عليه، وهو اختيار أبي عبيد.

ثم قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، أي في الجنة.

قوله عز وجل: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾، يعني: أرشدوا، ويقال: دعوا إلى قول التوحيد: لا إله إلا الله، ويقال: إلى القرآن. ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾، يعني: المحمود في أفعاله، وهو دين الإسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً

Marfat.com

﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: صرفوا الناس عن دين الإسلام. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ يعني: وعن المسجد الحرام. وهذه الآية مدنية، وذلك أن النبي ﷺ لما خرج مع أصحابه من الحديبية، منعهم المشركون عن المسجد الحرام.

ثم وصف المسجد الحرام، فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً﴾، يعني: عاماً للمؤمنين جميعاً ﴿ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، يعني: سواء أهلها المقيم في الحرم، ومن دخل مكة من غير أهله؛ ومعناه: المقيم والغريب فيه سواء، ويقال: في تعظيمه وحرمته، ويقال: ﴿المسجد الحرام﴾ أراد به: جميع الحرم، المقيمُ وغيره في حق النزول سواء. وقال عمر رضي الله عنه: «يا أهلَ مكَّةَ، لا تتَّخِذُوا لدُورِكم أبواباً، لينزلَ البادِيْ حيثُ يشاءُ»[1]. ولهذا قال أبو حنيفة رحمه الله: «إن بيع دور مكة لا يجوز. وفي إحدى الروايتين يجوز، وهذا قول أبي يوسف، والأول قول محمد رحمه الله. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿سواءً﴾ بالنصب، يعني: جعلناه سواء، وقرأ الباقون ﴿سواءٌ﴾ بالضم على معنى الابتداء.

ثم قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾، وهو الظلم والميل عن الحق، ويقال: أصله ومن يرد فيه إلحاداً، فزيد فيه الباء، كما قال: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ويقال: من اشترى الطعام بمكة للاحتكار، فقد ألحد. ثمَّ قال ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعني: بشرك أو بقتل. ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال الزجاج: الإلحاد في اللغة، العدول عن القصد، وقال مقاتل: نزلت الآية في عبد اللهَ بن أنيس بن خطل القرشيّ، وذلك أن النبيّ ﷺ بعث رجلين أحدهما مهاجريّ، والآخر أنصاريّ، فافتخرا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة. فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله، فقتل. قرأ أبو عمرو: ﴿وَالبَادِي﴾ بالياء عند الوصل، وكذلك نافع في رواية ورش، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر بغير ياء في الوصل والقطع، وقرأ ابن كثير بالياء في الوصل والقطع، وهو الأصل في اللغة، ومن أسقطه، لأن الكسر يدل عليه.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٢٥ إلى عبد بن حميد وابن أبي شيبة.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، قال مقاتل: يعني: دللنا لإبراهيم موضع البيت، فبناه مع إسماعيل عليهما السلام ولم يكن له أثر ولا أساس للبيت، لأن البيت كان أيام الطوفان مرفوعاً، قد رفعه الله إلى السماء وهو البيت المعمور. وقال الكلبي: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: جعلنا لإبراهيم مكان البيت أي: موضع البيت، جعله الله منزلاً لإبراهيم، بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم، فيقول: يا إبراهيم، ابْنِ على قدري وحيالي، فأسس عليها البيت، وذهبت السحابة. ثم بناه حتى فرغ منه، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾؛ وقال أبو قلابة: «بناه من خمسة أجبل: حراء، وثبير، وطور سيناء، ولبنان، وجبل أحد». وقال الزجاج: ﴿وإذ بوأنا﴾، أي: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم، والمبوأ: المنزل، يعني: أن الله تعالى علم إبراهيم عليه السلام مكان البيت، فبناه على أسه القديم، وكان البيت قد رفع إلى السماء. قال: ويروى أن البيت الأول كان من ياقوتة حمراء.

ورويَ عن ابن عباس أنه قال: «رفع السماء إلى السادسة، يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك، وهو بحيال الكعبة».

ثم قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾، يعني: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم: أن طهر بيتي من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾، يعني: لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾، يعني: المقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، يعني: أهل الصلاة بالآفاق من كل وجه.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، يعني: ناد في الناس، وذلك أن إبراهيم صلوات الله عليه لما فرغ من بناء الكعبة، أمره الله تعالى أن ينادي، فصعد إبراهيم على أبي قبيس ونادى: يا أيها الناس، أجيبوا ربكم، إن الله تعالى قد بنى بيتاً وأمركم بأن تحجوه فحجُوه؛ وقال مجاهد: فقام إبراهيم على المقام، فنادى بصوت أسمع من بين المشرق والمغرب: يا أيها الناس أجيبوا ربكم، فأجابوه من أصلاب الرجال: لبيك،لبيك. قال: فإنما يحج من أجاب إبراهيم يومئذٍ. ويقال: التلبية اليوم جواب الله عز وجل من نداء إبراهيم عن أمر ربه، فذلك قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، يعني: على أرجلهم مشاة ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، يعني: على الإبل وغيرها. فلا يدخل بعيره ولا غيره الحرم، إلا وقد ضمر من طول الطريق.

﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، من نواحي الأرض ﴿عميق﴾، يعني: بعيد. وقال مجاهد: الفج الطريق، والعميق البعيد، وقال: إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حجا ماشيين، وقال ابن عباس: «ما آسى على شيء، إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً لأن الله تعالى قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾.

قال الفقيه أبو الليث: هذا إذا كان بيته قريباً من مكة، فإذا حج ماشياً، فهو أحسن. وأما إذا كان بيته بعيداً، فالركوب أفضل. وروي عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: الراكب أفضل، لأن في المشي يتعب نفسه ويسوء خلقه ـ وإن كان الرجل يأمن على نفسه أن يصبر، فالمشي

Marfat.com

أفضل، لأنه روي في الخبر: «أن الملائكة عليهم السلام تتلقى الحاج، فيسلمون على أصحاب المحامل، ويصافحون أصحاب البعير والبغال والحمير، ويعانقون المشاة».

﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، يعني: الأجر في الآخرة في مناسكهم؛ ويقال: وليحضروا مناحرهم وقضاء مناسكهم. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾، يعني: ولكي يذكروا الله ﴿في أيام مَعْلُومَاتٍ﴾، يعني: يوم النحر ويومين بعده. وقال مجاهد وقتادة: المعلومات أيام العشر، والمعدودات أيام التشريق. وقال سعيد بن جبير: كلاهما أيام التشريق، ويقال: المعلومات أيام النحر، والمعدودات أيام التشريق، وهو طريق الفقهاء، وأشبه بتأويل الكتاب، لأنه ذكر في أيام معلومات الذبح، وذكر في أيام معدودات الذكر عند الرمي، ورخص بتركه في اليوم الآخر بقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

ثم قال: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، يعني: ليذكروا اسم الله عند الذبح والنحر ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهو البقر والإبل والغنم.

ثم قال: ﴿فكلوا منها﴾، يعني: من لحوم الأنعام، ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾؛ يعني: الضرير والزمن والفقير الذي ليس له شيء. وقال الزجاج: ﴿البائس﴾ الذي أصابه البؤس، وهو الشدة.

قوله عز وجل: ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾، يعني: مناسكهم؛ وقال مجاهد: «التفث حلق الرأس وتقليم الأظفار». وروي عن عطاء، عن ابن عباس قال: «التفث: الرمي، والحلق، والتقصير، وحلق العانة، ونتف الإبط، وقص الأظافير، والشارب، والذبح». وروى نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «التفث: ما عليه من المناسك» وقال الزجاج: التفث، لا يعرف أهل اللغة ما هو، وإنما عرفوا في التفسير، وهو الأخذ من الشارب، وتقليم الأظافر، والأخذ من الشعر، كأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال».

ثم قال: ﴿وليوفوا نُذُورَهُمْ﴾، يقول: من كان عليه نذر في الحج والعمرة مما أوجب على نفسه من هدي أو غيره، فإذا نحر يوم النحر، فقد أوفى بنذره.

ثم قال: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾، وهو: طواف الزيارة، بعدما حلق رأسه أو قصر. وقال مقاتل: ﴿العتيق﴾ يعني: عتق في الجاهلية من القتل والسبي والجراحات، وغيرها. وقال الحسن: ﴿العتيق﴾ يعني: القديم، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ [آل عمران: ٩٦]؛ وقال مجاهد: عتيق، يعني: أعتق من الجبابرة، ويقال: أعتق من الغرق يوم الطوفان؛ وهذا قول الكلبي. وقرأ

Marfat.com

حمزة والكسائي وعاصم: ﴿ثم ليقضوا﴾ بجزم اللام وكذلك ﴿وليوفوا﴾ ﴿وليطوفوا﴾ وقرأ أبو عمرو الثلاثة كلها بالكسر، بمعنى لام كي. وقرأ ابن كثير بكسر اللام الأولى خاصة. فمن قرأ بالجزم، جعلها أمر الغائب، ومن قرأ بالكسر، جعله خبراً عطفاً على قوله: ﴿ليذكروا﴾. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿وليوَفُّوا﴾ بنصب الواو وتشديد الفاء، وقرأ الباقون بالتخفيف من أوفى يوفي، والأول من وفّى يوفّي، ومعناهما واحد.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذلك﴾، يعني: هذا الذي ذكر من أمور المناسك. ثم قال: ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾، يعني: أمر المناسك كلها، ﴿فهو خير له عند ربه﴾ يعني: أعظم لأجره. ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾؛ يعني: الإبل والبقر والغنم وغيره. ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في التحريم في سورة المائدة. ﴿فاجْتَنِبوا الرِّجسَ مِنَ الأوْثانِ﴾، يعني: اتركوا عبادة الأوثان، ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ يعني: اتركوا ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾، يعني: الكذب، وهو قولهم: هذا حلال وهذا حرام. ويقال: معناه اتركوا الشرك، ويقال: اتركوا شهادة الزور.

ثم قال عز وجل: ﴿حُنَفَاءَ لله﴾، يعني: مخلصين بالتلبية لله تعالى لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. ويقال: إن هذا القول بالزور الذي أمرهم باجتنابه.

ثم قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَكَأنَّمَا خرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: وقع من السماء، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾، يعني: تختلسه الطير، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾، يعني: تذهب به الريح ﴿في مَكَانٍ سَحيقٍ﴾، أي: بعيد، فكذلك الكافر في البعد من الله عز وجل. ويقال: معناه ﴿من يشرك بالله﴾ فقد ذهب أصله. وقال الزجاج: الخطف هو أخذ الشيء بسرعة، فهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين في بعدهم من الحق، فأخبر أن بُعْد من أشرك من الحق، كبُعد من خرَّ من السماء، فذهبت به الطير، وهوت به الريح في مكان ﴿سَحيق﴾، يعني: بعيد. قرأ نافع: ﴿فتخطّفه الطير﴾ بنصب الخاء والتشديد، وقرأ الباقون بالجزم والتخفيف من خطِف. ومن قرأ بالتشديد، فلأن أصله: فتختطفه فأدغم التاء في الطاء، وألقيت حركة التاء على الخاء.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم

Marfat.com

﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يقول: هذا الذي أمر من اجتناب الأوثان. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ﴾، يعني: البدن، فيذبح أعظمها وأسمنها. وروي عن ابن عباس أنه قال: «تعظيمها استعظامها، وأيضاً استسمانها واستحسانها». ثم قال: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب﴾، يعني: من إخلاص القلوب، ويقال: من صفاء القلوب، و﴿شعائر الله﴾: معالم الله ودينه، التي ندب إلى القيام بها وواحدها: شعيرة.

قوله عز وجل: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، يعني: في البدن. وقال مجاهد: يعني: في ركوبها وشرب ألبانها وأوبارها. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمى﴾، يعني: إلى أجلٍ مسمًى بذْناً، فمحلها إلى البيت العتيق. وروي عن ابن عباس نحو هذا، وقد قول بعض الناس: إنه يجوز ركوب البدن، وقال أهل العراق: لا يجوز إلا عند الضرورة، ويضمن ما نقصها الركوب، وهذا القول أحوط الوجهين. ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ يعني: منحرها ﴿إِلَى البَيْتِ العَتِيق﴾، يعني: في الحرم. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جَمِيعُ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ».

ثم قال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، يعني: لكل أهل دين، ويقال: لكل قوم من المؤمنين فيما خلا، ﴿جعلنا منسكاً﴾؛ يعني: ذبحاً لهراقة دمائهم. ويقال: مذبحاً يذبحون فيه. قال الزجاج: معناه، جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله تعالى. قرأ حمزة والكسائي ﴿مَنسِكاً﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالكسر، يعني: مكان النسك. ومن قرأ بالنصب، فعلى المصدر. وقال أبو عبيد: قراءتنا هي بالنصب لفخامتها.

ثم قال: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ الأنْعَام﴾، يعني: يذكرون اسم الله تعالى عند الذبح. ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، أي ربكم رب واحد. ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، أي: أخلصوا بالتسمية عند الذبيحة وفي التلبية. ﴿وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ﴾، أي: المخلصين بالجنة. ويقال: المجتهدين في العبادة والسكون فيها. قال قتادة: المختبون المتواضعون. وقال الزجاج: أصله من الخبت من الأرض، وهو المكان المنخفض. ويقال: المخبت الذي فيه الخصال التي ذكرها الله بعده، وهو قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: خافت قلوبهم ﴿والصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من أمر الله من المرازي والمصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ﴾ يعني: يقيمونها بمواقيتها، ﴿وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون وينفقون في الطاعة. ثم ذكر البدن، يعني: ينحرون البدن. فهذه الخصال الخمسة صفة المخبتين.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا

Marfat.com

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم﴾؛ قرأ بعضهم: ﴿والبُدُن﴾ بضم الدال وقراءة العامة بسكون الدال والمعنى واحد. ﴿مِنْ شَعَائِرِ الله﴾، يعني: جعلنا البدن من مناسك الحج. ﴿لَكُمْ فِيها خيرٌ﴾، أي: في نحرها أجر في الآخرة ومنفعة في الدنيا. ﴿فاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهَا صواف﴾، يعني: قائمة قد صفت قوائمها. والآية تدل على أن الإبل تنحر قائمة. وروي عن عبد الله بن عمر: «أنه أمر برجل قد أناخ بعيره لينحره، فقال له: «انحره قائماً، فإنه سُنَّةُ أبي القاسم ﷺ»، وروي عن ابن مسعود، وابن عباس أنهما كانا يقرآن ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهَا صوافِنَ﴾، والصوافن: التي تقوم على ثلاثة قوائم، إذا أرادوا نحره، تعقل إحدى يديه فهو الصافن، وجماعته صوافن. وقال مجاهد: من قرأ صوافن، قال: قائمة معقولة. من قرأها صواف، قال يصفُّ بين يديها. وروي عن زيد بن أسلم أنه قرأ ﴿صوافي﴾ بالياء منتصبة، ويقال: خالصة من الشرك. وروي عن الحسن مثله وقال: خالصة لله تعالى، وهكذا روى عنهما أبو عبيدة، وحكى القتبي عن الحسن أنه كان يقرأ ﴿صواف﴾مثل قاض وغاز، أي خالصة لله تعالى، يعني: لا يشرك به في حال التسمية على نحرها.

ثم قال: ﴿فإذَا وجَبتْ جُنوبُها﴾، يعني: إذا ضربت بجنبها على الأرض بعد نحرها، يقال: وجب الحائط إذا سقط، ووجب القلب إذا تحرك من الفزع. ويقال: وجب البيع إذا تمّ. ﴿فَكلوا مِنها وأطعِمُوا القانِعَ والمُعْترّ﴾، ﴿فالقانع﴾: الراضي الذي يقنع بما أعطي، وهو السائل. ﴿والمعترّ﴾ الذي يتعرض للمسألة ولا يتكلم، ويقال: ﴿القانع﴾ المتعفف الذي لا يسأل ويقنع بما أرسلت إليه ﴿والمعتر﴾: السائل الذي يعتريك للسؤال.

وقال الزهري: «السنة أن يأكل الرجل من لحم أضحيته قبل أن يتصدق»، وروي عن عطاء، عن النبي ﷺ أنه قال: «لِيأكُلْ أحَدُكُمْ مِنْ لَحْمِ أُضْحِيَتِهِ». وروى منصور، عن إبراهيم قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين بقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: والأفضل أن يتصدق بثلثه على المساكين، ويعطي ثلثه للجيران والقرابة، أغنياء كانوا أو فقراء، ويمسك ثلثه لنفسه. وروي عن ابن مسعود نحو هذا. وروي عن ابن عباس: «أن نافع بن الأزرق سأله عن ﴿القانع والمعتر﴾، فقال: القانع الذي يقنع بما أعطي، والمعتر الذي يعتري بالأبواب وقال: أما سمعت قول زهير:

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ   وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ

Marfat.com

وقال مجاهد: القانع جارك وإن كان غنياً. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرنَاهَا لَكُمْ﴾، أي ذللناها لكم وهي البدن. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يعني: لكي تشكروا ربكم على هذه النعمة.

قوله عز وجل: ﴿لَنْ ينالَ الله لُحومُهَا وَلاَ دِمَاؤهَا﴾، وذلك أن أهل الجاهلية، كانوا إذا نحروا البدن عند زمزم، أخذوا دماءها، ولطخوا بها حول الكعبة، وعلقوا لحومها بالبيت، وقالوا: اللهم تقبل منا. فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزل: ﴿لَنْ يَنالَ الله لُحُومُهَا ولاَ دِمَاؤهَا﴾، يعني: لن يصل إلى الله عز وجل لحومها ولا دماؤها. ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾، أي يصل إليه التقوى من أعمالكم الزاكية والنية الخالصة. قرأ الحضرمي: ﴿لَنْ تَنَالَ الله﴾ بالتاء، لأن لفظ اللحوم مؤنثة، ولكن تناله بالتاء، لأن لفظ التقوى مؤنث، وقراءة العامة بالياء، وانصرف إلى المعنى، لأن الفعل مقدم.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾، يعني: ذلَّلها لكم، ﴿لِتُكَبِّروا الله﴾؛ يقول: لتعظموا الله عز وجل ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، يعني: أرشدكم لأمر دينه. ﴿وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ﴾ بالجنة، فمن فعل ما ذكر في هذه الآيات، فهو محسن. ويقال: المحسن الذي يحسن الذبيحة فيختار بغير عيب.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: يدفع كفار مكة عن الذين آمنوا، فلا ينالون منهم شيئاً. وقال الزجاج: إذا فعلتم هذا وخالفتم أهل الجاهلية، فيما يفعلونه في نحرهم وإشراكهم، فإن الله يدافع عن حزبه، ويقال: إن أهل مكة آذوا المسلمين قبل الهجرة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم في السر، فنهاهم الله عز وجل عند ذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: يدفع أذاهم عن المسلمين، فأمرهم بالصبر. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إِنَّ الله يَدْفَعُ﴾، بغير ألف، وقرأ الباقون ﴿يدافع﴾ بالألف، من دافع يدافع، بمعنى دفع. ثم قال: ﴿إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ للأمانة ﴿كَفُورٍ﴾ كفور لربه ولنعمه. وقال أهل اللغة: الخوّان الفعّال من الخيانة، وهو المبالغة في الخيانة، فمن ذكر اسماً غير اسم الله تعالى وتقرب إلى الأصنام بذبيحته، فهو خوان كفور.

قوله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾، يعني: أذن للمؤمنين بقتال المشركين. ﴿بِأَنَّهُمْ

Marfat.com

ظُلِمُوا﴾، يعني: أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿أُذن﴾ بضم الألف على معنى: أذن الله للذين يقاتلون، بنصب التاء. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو ﴿أذن﴾ بالضم ﴿يقاتلون﴾ بكسر التاء؛ وقرأ الباقون بالنصب. قرأ حمزة والكسائي وابن كثير ﴿يقاتِلون﴾ بالكسر.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، يعني: قادر، وكان المشركون لا يزالون يؤذونهم باللسان وباليد، فشكوا إلى النبي ﷺ؛ فلما هاجروا، أمروا بالقتال.

ثم أخبر عن ظلم كفار مكة، فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، يعني: بلا جرم أجرموا. ﴿إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله﴾، يعني: لم يخرج كفار مكة المؤمنين بسبب، سوى أنهم كانوا يقولون: ربنا الله، فأخرجوهم بهذا السبب ويقال: في الآية تقديم ومعناه ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله، ﴿وإنَّ الله على نصرهِمْ لقديرٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد و إقامة الحدود وكف الظلم. يقول: لولا أن يدفع المشركين بالمؤمنين، لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين. ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ ويقال: لولا دفع الله بالأنبياء عن المؤمنين وبالمؤمنين من غيرهم، لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى. ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾، يعني: كنائس اليهود، ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيراً﴾ وقال مجاهد: ﴿لولا دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض﴾ في الشهادة في الحق، لهدمت هذه الصوامع، وما ذكر معها. وقال الزجاج: تأويل هذا: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض، لهدمت في شريعة كل نبي المكان الذي يصلي فيه، لهدم في زمان موسى عليه السلام الكنائس، وفي زمن عيسى عليه السلام البيع، وفي زمن محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء المساجد. قرأ نافع: ﴿ولولا دفاع الله﴾ بالألف، وقرأ الباقون بغير ألف؛ وقرأ ابن كثير ونافع ﴿لهدمت﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير.

ثم قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، يعني: لينصرنَّ بالغلبة على عدوه من ينصره بنبيه ﷺ، ويقال: ﴿لينصرن الله من ينصره﴾ يعني: ينصر الله من ينصر دينه كما قال في آية أخرى: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ثم قال: ﴿إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع قادر على أن ينصر محمداً ﷺ بغير عونكم.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾، يعني: إن أنزلناهم بالمدينة، وهم أصحاب محمد ﷺ. قوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ﴾، يعني: بالتوحيد واتباع محمد ﷺ، ﴿وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ﴾ عن الشرك. ﴿وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، يعني: لله ترجع عواقب الأمور، يعني: عاقبة أمور العباد في الآخرة.

Marfat.com

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾، يعني: إن يكذبوك يا محمد أهل مكة، ﴿فقد كذبت قَبْلَهُم﴾ يعني: قبل قومك. ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كذبوا نوحاً، ﴿وَعَادٌ﴾ كذبت هوداً، ﴿وَثَمُودُ﴾ كذبوا صالحاً، ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ كذبوا إبراهيم، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ كذبوا لوطاً ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ كذبوا شعيباً، ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ يعني: كذبه قومه. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: أمهلتهم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ يعني: عاقبتهم بعد المهل بالعذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ يعني: كيف رأيت تغييري عليهم وإنكاري؟ يعني: أليس قد وجدوا حقاً؟ فكذلك كفار مكة تصيبهم العقوبة، كما أصابهم.

ثم قال عز وجل: ﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ﴾، يعني: وكم من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، يعني: أهلكنا أهلها، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: كافرة. ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، يعني: ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾، يعني: خالية ليس عندها ساكن، ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾؛ يعني: طويلاً في السماء. ويقال: معناه، كم من بئر معطلة، عطلها أربابها وليس عليها أحد يستقي، ﴿وقصر مشيد﴾ يعني: كم من حصن طويل مشيد ليس فيه ساكن. ويقال: المشيد هو المبنى بالشدّ وهو الجصّ، وهو المَشِيْد سواء، أي المطول. قرأ أبو عمرو: ﴿أهلكتها﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿أهلكناها﴾ بلفظ وهو الجماعة، وقرأ نافع في رواية ورش، وأبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿وبير﴾ بالتخفيف، وهي لغة لبعض العرب، وقرأ الباقون بالهمز، وهي اللغة المعروفة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أو لم يسافروا في الأرض فيعتبروا. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، يعني: فتصير لهم قلوب بالنظر والعبرة لو كانوا يعقلون بها، ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ التخويف. ﴿فَإِنَّهَا﴾، أي النظرة بغير عبرة. ويقال: كلمة الشرك. ﴿لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ التي فِي الصُّدُورِ﴾، يعني: العقول التي في الصدور، وذكر الصدر للتأكيد.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ﴾ وهو النضر بن الحارث. ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ في العذاب. ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ﴾، يعني: إن يوماً من الأيام التي وعد لهم في العذاب ﴿عند ربك﴾ في الآخرة، ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا.

ثم بيَّن لهم العذاب حيث قال: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾، ووصف طول عذابهم. ويقال: إنه أراد بذلك قدرته عليهم بحال استعجالهم، أنه يأخذهم متى شاء. قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿مِمَّا يَعُدُّونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾، فلم أعجل عليها العقوبة. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، أي كافرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب، ولكن لم يذكر العذاب لأنه سبق ذكره. ثم قال: ﴿وَإِلَيَّ المَصِيرُ﴾، يعني: المرجع في الآخرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها النَّاسُ إنَّمَا أنا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، يعني: رسول مبين أبلغكم بلغة تعرفونها. ﴿فالَّذِينَ آمنوا وَعمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾، يعني: الطاعات، ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿ورِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوا في آياتِنا﴾، يعني: عملوا في القرآن بالتكذيب ﴿مُعاجزينَ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿معجزين﴾ بغير ألف والتشديد في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالألف والتخفيف. فمن قرأ: ﴿معجزين﴾، أي: يعجزون من اتبع النبي ﷺ ويثبطونهم، ومن قرأ: ﴿معاجزين﴾، أي ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم يظنون أنهم لا يبعثون. وقيل: ﴿معاجزين﴾ أي معاندين، ومعناه: ليسوا بفائتين. ﴿أولَئكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾، يعني: النار.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّى﴾، أي: حدثت نفسه، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي في حديثه. ويقال: تمنى أي قرأ، كما قال القائل:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لاَقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

Marfat.com

وقال آخر:

تَـمَـنَّـى دَاوُدُ الـزَّبُـورَ عَـلَـى الـرِّسْـلِ

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي في تلاوته ﴿فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، يعني: يذهب الله به ويبطله. ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ﴾، يعني: بيَّن الله عز وجل الناسخ من المنسوخ. قال ابن عباس في رواية أبيّ صالح: «أتاه الشيطان في صورة جبريل، وهو يقرأ سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم ١] عند الكعبة، حتى انتهى إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى، فلما سمعه المشركون يقرأ ذلك، أعجبهم: فلما انتهى إلى آخرها، سجد وسجد المسلمون والمشركون معه، فلما فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ما جئتك بهذا. فنزل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ الآية(١).

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس نحو هذا. قال: حدّثنا الخليل بن أحمد قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد قال: حدّثنا جعفر بن زيد الطيالسي قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد قال: حدّثنا أبو عاصم، عن عمار بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ثم قال: تلك الغرانيق العلى، وإن الشفاعة منها ترتجى، فقال المشركون: قد ذكر آلهتنا في أحسن الذكر فنزلت الآية».

وقال مقاتل: قرأ النبي ﷺ والنجم بمكة عند مقام إبراهيم، فنعس، فقرأ تلك الغرانيق العلى. فلما فرغ من السورة، سجد وسجد من خلفه فنزل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ وقال قتادة: لما ألقى الشيطان ما ألقى، قال المشركون: قد ذكر الله آلهتنا بخير ففرحوا بذلك؛ فذلك قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾.

روى أسباط، عن السدي، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأ سورة النجم، فلما انتهى إلى قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠] فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، حتى بلغ إلى آخر السورة، سجد وسجد أصحابه وسجد المشركون لذكره آلهتهم. فلما رفع رأسه، حملوه وأسندوا به بين قطري مكة، حتى إذا جاءه جبريل عليه السلام عرض عليه، فقرأ عليه الحرفين، فقال جبريل عليه السلام: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا، واشتد عليه، فأنزل الله تعالى لتطييب نفس رسول الله ﷺ، وأخبره أن الأنبياء عليهم السلام قبله قد كانوا مثله.

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٦٥ إلى عبد بن حميد من طريق السدي عن أبي صالح. والبزار والطبراني وابن مردويه بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن سعيد بن جبير. وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح.

Marfat.com

ويقال: إن النبي ﷺ دخل المسجد وجلس عنده جماعة من المشركين، فتمنى في نفسه أن لا يأتيه من الله شيء ينفرون منه، فابتلاه الله تعالى بما ألقى الشيطان في أمنيته، وقال بعضهم: تمنى: أي تفكر وحدَّث بنفسه تلك الغرانيق العلى، ولم يتكلم به، لأن قول النبي ﷺ كان حجة، فلا يجوز أن يكون يجري على لسانه كلمة الكفر. وقال بعضهم: لما رآه الشيطان يقرأ، خلط صوته بصوت النبي ﷺ: فقرأ الشيطان: تلك الغرانيق، فظن الناس أن النبي ﷺ ولم يكن قرأها. وقال بعضهم: قال ذلك رسول الله ﷺ على وجه التعيير والزجر، يعني: أنكم تعبدونها كأنهن الغرانيق العلى، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال الزجاج: ألقى الشيطان في تلاوته، فذلك محنة يمتحن الله تعالى بها من يشاء، فجرى على لسان النبي ﷺ شيء من صفة الأصنام، فافتتن بذلك أهل الشقاوة والنفاق. وروي عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار: أن ابن عباس كان يقرأ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدَّث) والمحدَّث: الذي يرى أمره في منامه، من غير أن يأتيه الوحي.

ثم قال: ﴿والله عَلِيمٌ﴾ بمَا ألقى الشيطان ﴿حكيم﴾ حكم بالناسخ. وبيّن قوله عز وجل: ﴿ليجعَلَ ما يُلقِي الشَّيطَانُ فِتنَةً﴾، يعني: بليّة ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾، أي شك، ﴿وَالقَاسِيَة قُلُوبُهُمْ﴾؛ يعني: الذين قست قلوبهم عن ذكر الله، وهم المشركون. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفي شِقَاق بعيدٍ﴾، عن الحق. يعني: المشركين في خلاف طويل عن الحق.

ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ أوتوا العِلْم﴾، يعني: الذين أكرموا بالتوحيد والقرآن. ويقال: هم مؤمنو أهل الكتاب. ﴿أَنَّهُ الحَقُّ مِنَ رَبِّكَ﴾، يعني: القرآن. ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي فيصدِّقوا به. ويقال: لكي يعلموا أن ما أحكم الله في آياته حق، وأن ما ألقى الشيطان باطل، ويزداد لهم يقين وبيان، فذلك قوله: ﴿فيؤمنوا به﴾، أي يثبتوا به على إيمانهم. ﴿فتخبت له قلوبهم﴾، يعني: فتخلص له قلوبهم. ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾، يعني: إن الله عز وجل لحافظ قلوب المؤمنين في هذه المحنة، حتى لم ينزع المعرفة من قلوبهم عند إلقاء الشيطان

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

ثمّ قال عز وجل: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾، أي: في شك منه، يعني: من القرآن. ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾، يعني: فجأة، ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ لا فرح فيه ولا راحة ولا رحمة ولا رأفة، وهو عذاب يوم القيامة. وقال السدي وقتادة: ﴿يوم عقيم﴾؛ يوم بدر، ويقال: إنما سمي ﴿يوم عقيم﴾ لأنه أعقم كثيراً من النساء؛ وقال عمرو بن قيس: ﴿يوم

Marfat.com

عقيم﴾ يوم القيامة يوم ليس له ليلة ولا بعده يوم. والعقيم أصله في اللغة: المرأة التي لا تلد، وكذلك رجل عقيم، إذا كان لا يولد له، وكذلك كل شيء لا يكون فيه خير، يعني: لا يكون للكافرين خير في يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠].

ثمّ وصف ذلك اليوم، فقال عز وجل: ﴿الملك يومئذٍ لله﴾ لا ينازع فيه أحد ﴿يحكم بينهم﴾، يعني: يقضي بين الخلق لا حاكم في ذلك اليوم غيره.

ثم قال: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، يعني: أن حكمه في يوم القيامة أن المؤمنين ﴿في جنات النعيم﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾، يعني: الشدة. ثم قال عز وجل: ﴿والذين هاجروا﴾، وذلك أن المسلمين قاتلوا فاستشهدوا، فقال الذين لم يستشهدوا: وهل لنا أجر؟ فنزل: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾، يعني: في طاعة الله من مكة إلى المدينة. ﴿ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾، يعني: يرزقهم الغنيمة في الدنيا لمن لم يموتوا ولم يقتلوا. ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾، يعني: أفضل الرازقين وأقوى المعطين. ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾، يعني: الجنة إذا قتلوا وماتوا. ﴿وإن الله لعليم حكيم﴾، حيث لم يعجل بالعقوبة، وهذه الآية مدنية.

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ذلك ومن عاقب﴾؛ قال مقاتل: وذلك أن مشركي العرب لقوا المسلمين في الشهر الحرام، فكره المسلمون القتال، فقاتلهم المشركون فبغوا عليهم، فنصر الله المسلمين عليهم، فوقع في أنفس المؤمنين من القتال في الشهر الحرام، فنزل: ﴿ذلك ومن عاقب﴾ يقول: هذا جزاء من عاقب ﴿بمثل ما عوقب به﴾ وقال بعضهم: ﴿ذلك﴾ يعني: ما وصفنا من صفة أهل الجنة وأهل النار، فهو كذلك، فقد تم الكلام. ﴿ومن عاقب﴾ ابتداء الكلام ﴿بمثل ما عوقب به﴾ في الدنيا. وقال الكلبي: الرجل يُقتل له الحميم، فله أن يقتل به قاتله.

﴿ثم بغي عليه لينصرنه الله﴾ على من بغى عليه. ويقال: إذا زاد على القتل لينصرنه الله، ويقال: إن الرجل إذا وجب له القصاص، فله أن يقتل أو يأخذ الدية. فإن أخذ أكثر من حقه

Marfat.com

بالقتل وأخذ الدية ﴿ثم بغي عليه﴾، أي: ظلم عليه، يعني: غضب عليه أولياء المقتول باستيفاء حقه فجنوا عليه، لينصرنه الله، أي: له أن يطلب بجنايته، ويقال له: إذا ظلم على ولي المقتول بالاستطالة بالقتل، أو بأخذ الدية، لينصرنه الله بأخذ حقه. ﴿إن الله لعفو غفور﴾ بقتالهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ذلك﴾، يعني: ذلك القدرة ﴿بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ قال مقاتل: يعني هذا الذي فعل هو من قدرته.

ثم بيّن قدرته فقال: ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾. ثم قال: ﴿ذلك﴾، يعني: هذا الذي ذكر من صفته وقدرته، ﴿بأن الله﴾؛ يعني: لعلموا أن الله ﴿هو الحق﴾، وأن عبادته الحق، ﴿وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾؛ ولا يقدرون على شيء. ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾؛ يعني: هو أعلى وأكبر من أن يعدل به الباطل. قرأ ابن عامر: ﴿ثم قتّلوا﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿وأن ما يدعون﴾ بالياء بلفظ المغايبة، وقرأ الباقون بالتاء، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ليدخلنّهم مَدْخلاً﴾ بنصب الميم، وقرأ الباقون بالضم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾، يعني: المطر. ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾، يعني: تصير الأرض مخضرة بالنبات، ويقال: ذات خضرة. ﴿إن الله لطيف﴾ باستخراج النبات، ﴿خبير﴾؛ أي عليم به وبمكانه.

ثم قال عز وجل: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ من الخلق. ﴿وإن الله لهو الغني﴾ عن الخلق وعن عبادتهم، ﴿الحميد﴾؛ يعني: المحمود في أفعاله.

قوله عز وجل: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم﴾، يعني: ذلل لكم ﴿ما في الأرض والفلك تجري﴾، يعني: تسير ﴿في البحر بأمره﴾، يعني: بإذنه. وروي عن عبد الرحمٰن الأعرج أنه قرأ: ﴿الفلكُ﴾ بضم الكاف على معنى الابتداء، وقراءة العامة بالنصب لوقوع التسخير عليها، يعني: سخر لكم الفلك. ويقال: صار نصباً بالنَّسق على أن معنى أن الفلك تجري.

ثم قال: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ يعني: لئلا تقع على الأرض. ويقال: كراهة أن تقع على الأرض، ﴿إلا بإذنه﴾، يعني: بأمره يوم القيامة. ﴿إن الله بالناس لرؤوف

Marfat.com

رحيم﴾، يعني: ﴿رحيم﴾ مع شركهم ومعصيتهم، حيث يرزقهم في الدنيا ولم يعاقبهم في العاجل.

ثم قال عز وجل: ﴿وهو الذي أحياكم﴾، يعني: خلقكم ولم تكونوا شيئاً، ﴿ثم يميتكم﴾ في الدنيا، ﴿ثم يحييكم﴾ للبعث. ﴿إن الإنسان لكفور﴾، أي كفور لنعمه لا يشكره ولا يطيعه.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لكل أمة﴾، يعني: لكل قوم ﴿جعلنا منسكاً﴾، يعني: مذبحاً. ﴿هم ناسكوه﴾، يعني: ذابحوه، وفي منسك من الاختلاف ما سبق. ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾، لا يخالفنك في أمر الذبيحة. نزلت في قوم من خزاعة قالوا: ما ذبح الله، فهو أحل مما ذبحتم. وقال الزجاج: المعنى فيه: أي فلا يجادلنك ولا تجادلهم، والدليل عليه: وإن جادلوك. ويقال: ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ يعني: لا يغلبونك في المنازعة. ﴿وادع إلى ربك﴾، يعني: ادع الخلق إلى معرفة ربك، وإلى توحيد ربك. ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾، على دين مستقيم.

قوله عز وجل: ﴿وإن جادلوك﴾، يعني: إن حاججوك في أمر الذبيحة والتوحيد، ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾؛ يعني: عالماً بأعمالكم فيجازيكم، وذلك قوله: ﴿الله يحكم بينكم﴾، يقضي بينكم ﴿يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من الدين والذبيحة.

قال عز وجل: ﴿ألم تعلم﴾ يا محمد، ﴿أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب﴾، يعني: إن ذلك العلم مكتوب في اللوح المحفوظ. ﴿إن ذلك في كتاب﴾ أي: إن كتابته. ﴿على الله يسير﴾، يعني: هين حال حفظه على الله، أي كتابته على الله يسير.

ثم قال عز وجل: ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾، يعني: عذر ولا حجة. قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ما لم ينزل﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد. ﴿وما ليس لهم به علم﴾، يعني: ليس لهم بذلك حجة من المعقول. ﴿وما للظالمين من نصير﴾، يعني: مانع يمنعهم من العذاب.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

Marfat.com

كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾، يعني: يعرض عليهم القرآن. ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾، يعني: الغم والحزن والكراهية. ﴿يكادون يسطون﴾، يعني: هموا لو قدروا يضربون ويبطشون أشد البطش ﴿بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾، يعني: يقرؤون عليهم القرآن. وقال القتبي: ﴿يسطون﴾ يعني: يتناولونهم بالمكروه من الضرب والشتم. ويقال: ﴿يسطون﴾ يعني: يفرضون عليهم، والسطوة العقوبة.

﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار﴾، يعني: بأشد وأسوأ من ضربكم وبطشكم؛ ويقال: إنهم كانوا يسخرون من أصحاب النبي ﷺ ورثاثة حالهم. قال الله تعالى: قل لهم يا محمد: ﴿أفأنبئكم بشر من ذلك﴾ يعني: مما قلتم للمؤمنين؟ قالوا: ما هي؟ قال: النَّارُ. ﴿وَعَدَهَا الله الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: للكافرين. قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صاروا إليه.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ يعني: بين ووصف شبه به لآلهتكم، أي أجيبوا عنه. وقال بعضهم: ليس هاهنا مثل، وإنما أراد به قطع الشغب لأنهم كانوا يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فقال: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾، فاصغوا إليه استماعاً للمثل. فأوقع في أسماعهم عيب آلهتهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله﴾، ويقال: معناه مثلكم مثل من عبد آلهة، ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾، لن يقدروا على خلق الذباب. ويقال: المثل في الآية لا غير، وهو قوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً﴾، أي لن يقدروا أن يخلقوا ذباباً من الذباب في المثل. ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، يعني: على تخليقه.

ثم ذكر من أمرها ما هو أضعف من خلق الذباب، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً﴾، وذلك أنهم كانوا يلطخون العسل على فم الأصنام، فيجيء الذباب فيسلب منها ما لطخوا عليها. ﴿لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، أي لا يقدرون أن يستنقذوا من الذباب ما أخذ منهم. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ﴾، يعني: الذباب والصنم، ويقال: ضعف العابد والمعبود.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾، يعني: ما عظموا الله حق عظمته، حين أشركوا به غيره ولم يوحدوه. ويقال: ما وصفوه حق صفته؛ ويقال: ما عرفوه حق معرفته كما ينبغي.

Marfat.com

وقال ابن عباس: «نزلت الآية في يهود المدينة، حين قالوا: خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استلقى فاستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى»، وكذب أعداء الله، فنزل ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾. ﴿إِنَّ الله لَقَوِيٌّ﴾ في أمره، ﴿عزيز﴾؛ يعني: منيع في ملكه، ومعبودهم لا قوة له ولا منفعة. ويقال: ﴿إن الله لقوي﴾ على عقوبة من جعل له شريكاً، ﴿عزيز﴾ للانتقام منهم.

قوله عز وجل: ﴿الله يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسلاً﴾ قيل: جبريل، وإسرافيل، وميكائيل، وملك الموت، والحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم عليهم السلام. ﴿وَمِنَ الناس﴾، يعني: ويختار من الناس رسلاً، منهم: محمد، وعيسى، ونوح وموسى عليهم السلام فجعلهم أنبياء ورسلاً إلى خلقه. ﴿إِنَّ الله سَمِيعٌ﴾، أي سميع لمقالتهم، ﴿بصير﴾ بمن يتخذه رسولاً. وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأخبر الله تعالى أنه ﴿سميع﴾ مقالة من يكفر، ﴿بصير﴾ بمن يصلح للرسالة فيختاره ويجعله رسولاً.

ثم قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، يعني: من أمر الآخرة وأمر الدنيا. ﴿وإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، يعني: عواقب الأمور في الآخرة؛ ويقال: معناه منه بدأ وإليه يرجع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا﴾، يعني: صلوا لله تعالى، وقال: بعض الناس يسجد في هذا الموضع، يذكر ذلك عن عمر وابن عمر، وروي عن ابن عباس أنه قال: «السجدة في الحج في الأولى منهما»، وهذا قول أهل العراق، لأن السجدة سجدة الصلاة، بدليل أنها مقرونة بالركوع. معناه: اركعوا واسجدوا في الصلوات المفروضات التطوع. وروي عن ابن عباس أنه قال: «أول ما أسلموا، كانوا يسجدون بغير ركوع فأمرهم الله تعالى بأن يركعوا ويسجدوا».

ثم قال: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، أي وحّدوه وأطيعوه، ﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ أي: أكثروا من الطاعات والخيرات ما استطعتم، وبادروا إليها. ويقال: التسبيحات. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ﴾، يعني: تنجون من عذاب الله تعالى.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا في الله حق جِهَادِهِ﴾، يعني: اعملوا لله عز وجل حق عمله، ويقال: جاهدوا في طاعة الله عز وجل وطلب مرضاته. وقال الحسن: ﴿حق جهاده﴾ أن تؤدي جميع ما أمرك الله عز وجل به، وتجتنب جميع ما نهاك الله عنه، وأن تترك رغبة الدنيا لرهبة الآخرة. وروي عن النبي ﷺ أن رجلاً سأله، فقال: أي الجهاد أفضل؟ فقال: «كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ السُّلْطَانِ».

ثم قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، يعني: اختاركم واصطفاكم. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، يعني: في الإسلام من ضيق، ولكن جعله واسعاً ولم يكلفكم مجهود الطاقة، وإنما كلفكم دون ما تطيقون. ويقال: وضع عنكم إصركم والأغلال التي كانت عليكم. ويقال: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وهو ما رخص في الإفطار في السفر، والصلاة قاعداً عند العلة. وقال قتادة: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يعطها إلا نبي، كان يقال للنبي عليه السلام: اذهب فليس عليك من حرج، وقال لهذه الأمة ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾؛ وكان يقال للنبي عليه السلام: أنت شهيد على قومك، وقال لهذه الأمة: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾؛ وكان يقال للنبي ﷺ: سل تعط، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، قال الزجاج: إنما صار منصوباً، لأن معناه: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم. قال: وجائز أن يكون وافعلوا الخير فعل أبيكم إبراهيم، ويقال: معناه ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ولكن جعل لكم ملة سمحة سهلة كملة أبيكم إبراهيم. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، يعني: الله تعالى سماكم المسلمين. ويقال: إبراهيم سماكم، أي من آمن بمحمد عليه السلام والقرآن، والطريق الأول أصح، لأنه قال من قبل: ﴿وَفي هَذَا﴾، يعني: الله سماكم المسلمين في سائر الكتب من قبل هذا القرآن. وفي هذا القرآن، ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ شهيداً على أمته بأنه بلغهم الرسالة بالتصديق لهم ﴿وَتَكُونُوا شُهداء عَلَى النَّاسِ﴾؛ يعني: على سائر الأمم أن الرسل قد بلغتهم. وقال مقاتل: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾، يعني: للناس، يعني: للرسل على قومهم، كقوله: وما ذبح على النصب أي للنصب.

ثم قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾، يعني: أقروا بها وأتموها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأدوها. ثم قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾، يعني: وثقوا بالله إذا فعلتم ذلك، ويقال: معناه تمسكوا بتوحيد الله تعالى، وهو قول لا إله إلا الله. ﴿هُوَ مَوْلاَكُمْ﴾، أي وليكم وناصركم وحافظكم. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾، يعني: نعم الحافظ، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ يعني: نعم المانع لكم برحمته، والله سبحانه وتعالى أعلم - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً[١] -.

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

سورة المؤمنون

كلها مكية وهي مائة وسبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال: حدثنا الفقيه أبو الليث: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد قال: حدثنا محمد بن علي بن طرخان قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا عبد الرزاق، عن يونس بن سُليم، عن زيد الأيلي، عن الزهري، عن عروة، عن عبد الرحمٰن بن عبد القارىء، عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لقد أُنزلَتْ عليَّ عَشْرُ آياتٍ مَنْ أقامَهُنَّ دخلَ الجنّة**»[1] ثم قرأ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات وروي عن كعب الأحبار قال: «إن الله تعالى لما خلق الجنة، قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾. وروى عن غيره: «أنها قالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي». وروي عن رسول الله ﷺ نحو هذا. وقوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي سعد وفاز ونجا المصدقون بإيمانهم.

ثم نعتهم ووصف أعمالهم، فقال: **﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾**، يعني: متواضعين. وقال الزهري: «سكون المرء في صلاته، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً» وقال الحسن البصري: ﴿خاشعون﴾ أي خائفون. وروي عنه أنه قال: ﴿خاشعون﴾ الذين لا يرفعون أيديهم في الصلاة إلا في التكبيرة الأولى، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الخشوع في الصلاة، أن لا تلتفت في صلاتك يميناً ولا شمالاً.» «وذُكِرَ عن النبي ﷺ: «أنه كان إذا قام في الصلاة، رفع بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية، رمى ببصره نحو مسجده». وروي عن أبي هريرة، «أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ**».

ثم قال عز وجل: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾، يعني: الحلف والباطل من الكلام تاركون. قال قتادة: كل كلام أو عمل لا يحتاج إليه فهو لغو. ويقال: الذين هم عن الشتم

---

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٨٢ إلى عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والعقيلي والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل.

Marfat.com

والأذى معرضون، كقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ثم قال: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾، يعني: مؤدون. **﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾** عن الفواحش وعن ما لا يحل لهم.

ثم استثنى، فقال: ﴿إلا على أزواجهم﴾، يعني: على نسائهم الأربع، وذكر عن الفرّاء أنه قال، ﴿على﴾ بمعنى من، يعني: إلا من نسائهم مثنى وثلاث ورباع. **﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾**، يعني: الإماء، **﴿فإنهم غير ملومين﴾**، لا يلامون على الحلال. **﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾**، يعني: طلب بعد ذلك ما سوى نسائه وإمائه، **﴿فأولئك هم العادون﴾**، يعني: المعتدين من الحلال إلى الحرام، ويقال: وأولئك هم الظالمون الجائرون الذين تعمدوا الظلم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ﴾، يعني: ما ائتمنوا عليه من أمر دينهم، مما لا يطلع عليه أحد ومما يأمن الناس بعضهم بعضاً. ﴿وعهدهم﴾، يعني: وفاء بالعهد ﴿راعون﴾ يعني: حافظين. وأصل الرعي في اللغة: القيام على إصلاح ما يتولاه. قرأ ابن كثير ﴿والذين هم لأمانتهم﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون بلفظ الجمع، يعني: جميع الأمانات.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾، يعني: على المواقيت ﴿يحافظون﴾، لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ويتمونها بركوعها وسجودها. قرأ حمزة والكسائي ﴿على صلاتهم﴾ بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون ﴿صلواتهم﴾ بلفظ الجماعة، ومعناهما واحد، لأن الصلاة اسم جنس يقع على الواحد وعلى الأكثر، فهذه الخصال صفة المؤمنين المخلصين في أعمالهم.

ثم بين ثوابهم، فقال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ هُم الْوَارِثُونَ﴾، يعني: النازلين. ثم بيّن ما يرثون وأين ينزلون، فقال: **﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾**، وهي البساتين بلغة الروم عليها حيطان، ويقال: لم يكن أحد من أهل الجنة إلا وله نصيب في الفردوس، لأن هناك كلها بساتين وأشجار؛ ويقال: ﴿أولئك هم الوارثون﴾، يعني: يرثون المنازل التي للكفار في الجنة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: **«ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا وَلَهُ منزلان، منزلٌ في الجنّةِ، ومنزلٌ في النّار. فأمّا المؤمنُ فيبني منزِلَهُ الذي لهُ في الجنة بهدْمِ منزلهِ الذي لهُ في النّار. وأمّا الكافِرُ فيهدِمُ منزِلَهُ الذي في الجنّةِ ويبني منزلَهُ الذي لهُ في النّار»**[1]. ويقال: الفردوس البستان الحسن. **﴿هُمْ فِيهَا**

(١) الحديث مثبت في النسخة «أ» وفي النسخة «ب»: بلفظ: روى أبو هريرة عن النبي ﷺ هكذا، ولم يذكر متنه. وعزاه السيوطي: ٦/ ٩٠ إلى سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث.

Marfat.com

خَالِدُونَ﴾، يعني: في الجنة دائمون. وقال القتبي: حدثني أبو حاتم السجستاني قال: كنت عند الأخفش وعنده الثوري، فقال: يا أبا حاتم، ما صنعت بكتاب المذكر والمؤنث؟ قلت: قد عملت فيه شيئاً. فقال: ما تقول في الفردوس؟ قلت: مذكر. قال: فإن الله يقول: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. قلت: أراد الجنة، فأنّث. فقال: يا غافلُ، أما تسمع الناس يقولون أسألك الفردوسَ الأعلى؟ فقلت: يا نائم، إنما الأعلى هاهنا أفعل وليس بفعلى.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ﴾، يعني: آدم عليه السلام. قال الكلبي ومقاتل: السلالة إذا عُصِر الطين، انسلَّ الطين والماء بين أصابعه. وقال الكلبي: ﴿خلقنا الإنسان﴾ يعني: ابن آدم من نطفة، سُلَّت تلك النطفة من طين، والطين آدم عليه السلام، والنطفة ما يخرج من صلبه فيقع في رحم المرأة. وقال الزجاج: ﴿سلالة من طين﴾، أي من آدم، والسلالة القليل من أن ينسلّ، وكل مبني على فعالة فهو يراد به القليل، مثل النخالة، والعَلامة والفُصالة ﴿ثم جعلناه﴾: يعني ذرية آدم. قال القتبي: يقال للولد سلالة والنطفة سلالة، وإنما سمّيت النطفة سلالة لأنها تنسلّ بين الصلب والترائب ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، يعني: في مكان حريز حصين. ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، أي: حولنا الماء دماً، ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، أي حولنا الدم مضغة، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾ أي: خلقنا في المضغة عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾. قال عكرمة وأبو العالية والشعبي: معناه نفخ فيه الروح.

وروى الأخفش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود أنه قَالَ: «إنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله عز وجل مَلَكاً، فَيُؤْمَرُ بِأَنْ يَكْتُبَ أَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَهِيَ أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ».

وروي، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ قال: «نفخ فيه الروح»، وروى ابن نجيح، عن مجاهد: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ قال: «حين استوى شاباً»؛ وروى معمر، عن قتادة: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، قال: «هو نبات الشعر والأسنان»، وقال بعضهم: هو نفخ الروح، ويقال: ذكراً أو أنثى، ويقال: معناه ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، يعني: الجلد. وروي عن عطاء، عن ابن عباس أنه قال: «ينفخ فيه الروح»، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ: «ثم أنشأته خلقاً آخر».

Marfat.com

﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، يعني: أحكم المصورين. وروى أبو صالح عن عبد الله بن عباس قال: كان عبد الله بن سعيد بن أبي سرح يكتب هذه الآيات للنبي ﷺ، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، عجب من تفضل الإنسان، أي من تفضيل خلق الإنسان فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ فقال النبي ﷺ: «اكْتُبْ هٰكَذَا أُنْزِلَتْ» فشك عند ذلك، وقال: لئن كان محمد صادقاً فيما يقول إنه يوحى إليه، فقد أوحي إلي كما أوحي إليه، ولئن قال من ذات نفسه، فلقد قلت مثل ما قال. فكفر بالله تعالى.

وقال مقاتل والزجاج: كان عمر رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ إذْ أُنزِلَتْ عليه هذه الآية، فقال عمر: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فقال النبي عليه السلام: «هٰكَذَا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ»(1)، فكأنه أجرى على لسانه هذه الآية قبل قراءة النبي ﷺ؛ وقد قيل: إن الحكاية الأولى غير صحيحة، لأن ارتداد عبد الله بن أبي سرح كان بالمدينة، وهذه الآية مكية. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً﴾، وقرأ الباقون ﴿عظاماً﴾ بالألف، ومعناهما واحد، لأن الواحد يغني عن الجنس.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾، يعني: تموتون عند انقضاء آجالكم. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، يعني: تحيون بعد الموت. فذكر أول الخلق، لأنهم كانوا مقرين بذلك، ثم أثبت الموت لأنهم كانوا يشاهدونه؛ ثم أثبت البعث الذي كانوا ينكرونه، ثم ذكر قدرته، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾، يعني: سبع سموات بعضها فوق بعض كالقبة. وقال مقاتل والكلبي: غِلَظُ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين كذلك. وقال أهل اللغة: الطرائق واحدها طريقة، ويقال: طارقت الشيء، يعني: إذا جعلت بعضه فوق بعض. وإنما سمي الطرائق، لأن بعضها فوق بعض.

ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، أي عن خلقهن عاجزين تاركين. ويقال: لكل سماء طريقة، لأن على كل سماء ملائكة عبادتهم مخالفة لعبادة ملائكة السماء الأخرى، يعني: لكل أهل سماء طريقة من العبادة: ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾، أي لم نكن نغفل عن حفظهن، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٩٤ إلى الطبراني وابن مردويه.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، يعني: بوزن، ويقال: ﴿بقدر﴾ ما يكفيهم لمعايشهم؛ ويقال: ﴿بقدر﴾ يعني: كل سنة تمطر بقدر السنة الأولى، كما روي عن ابن مسعود أنه قال: «ليست سنةٌ بأمطر من سنة، ولكن الله عز وجل يصرفه حيث يشاء» ويقال: ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾، أي أربعة أنهار تخرج من الجنة: دجلة، والفرات، وسيحان، وجيحان. ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾، يعني: فأدخلناه في الأرض، ويقال: جعلناه ثابتاً فيها من الغدران والعيون والركايا. ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، يعني: يغور في الأرض، فلا يقدر عليه، كقوله عز وجل: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]. ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ﴾، يعني: وأخرجنا بالماء جنات، يعني: الخضرة، ويقال: جعلنا لكم بالماء البساتين. ﴿مِن نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، يعني: الكروم ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾، يعني: ألوان الفواكه سوى النخيل والأعناب. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَشَجَرَةً﴾، يعني: وأنبتنا شجرة، ويقال: خلقنا شجرة، ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ قال قتادة: طور سيناء جبل حسن، وقال الكلبي: جبل ذو شجرة، وقال مجاهد: الطور جبل، والسيناء حجارة، وقال القتبي: الطور جبل والسيناء اسم. وقال مقاتل: خلقنا في الجبل الحسن الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام. وقرأ ابن كثير وأبو عمر ونافع ﴿طور سِيناء﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون بالنصب، ومعناهما واحد.

ثم قال: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾، يعني: تخرج بالدهن. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿تُنبِت﴾ بضم التاء وكسر الباء، يعني: تخرج الدهن، وقرأ الباقون ﴿تَنبُت﴾ بنصب التاء وضم الباء، وهو اختيار أبي عبيد، أي: تنبت معه الدهن، كما يقال: جاءني فلان بالسيف، أي معه السيف. ﴿وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾، يعني: الزيت يصطبغ به، وجعل الله عز وجل في هذه الشجرة إداماً ودهناً، وهي صبغ للآكلين.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾، يعني: في الإبل والبقر والغنم معتبر لمن يعتبر فيها، يقال: العبر بأوقار، والمعتبر بمثقال. ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، يعني: من ألبانها وهي تخرج من بين فرث ودم. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿نَسقِيكُمْ﴾ بنصب النون، وقرأ الباقون بالضم، وهذا مثل ما في سورة النحل.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾، يعني: في ظهورها وأصوافها وألبانها وأشعارها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ يعني: من لبنها ولحومها وأولادها. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، يعني: على الأنعام في المفازة، وعلى السفينة في البحر تسافرون.

Marfat.com

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾، يعني: أرسلناه إلى قومه كما أرسلناك إلى قومك. فإن قيل: إيش الحكمة في تكرار القصص؟ قيل له: لأن في كل قصة كررها ألفاظاً وفوائد ونكتاً ما ليس في الأخرى، ونظمها سوى نظم الأخرى. وقال الحسن: للقصة ظهر وبطن، فالظهر خبر يخبرهم، والبطن عظة تعظهم. ويقال: إنما كررها تأكيداً للحجة والعظة، كما أنه كرر الدلائل، ويكفي دليل واحد لمن يستدل به تفضلاً من الله تعالى ورحمة منه.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾؛ يعني: أطيعوا الله عز وجل ووحّدوه. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، يعني: ليس لكم رب سواه، ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله تعالى فتوحدونه؟ يعني: اتقوه ووحدوه.

قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: الأشراف الذين كفروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ مَا هذا إلاَّ بشرٌ مِثْلُكُمْ﴾، يعني: خلقاً آدمياً مثلكم. ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾. بالرسالة، ويقال: ﴿يريد أن يتفضل عليكم﴾ يعني: يريد أن يجعل لنفسه فضلاً عليكم بالرسالة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأنزل ملائكةً﴾، أي لو شاء أن يرسل إلينا رسولاً، لأنزل ملائكة. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، يعني: ما يدعونا إليه من التوحيد. ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾، أي: الجنون، ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حتّى حِينٍ﴾؛ يعني: انتظروا به حتى يتبين لكم أمره وصدقه من كذبه، ويقال: ﴿حتى حين﴾، يعني: حتى يموت فتنجوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

فلما أبوا على نوح عليه السلام، دعا عليهم. ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ يعني: أعِنّي عليهم بالعذاب. ﴿بِما كذّبونِ﴾، يعني: بتحقيق قولي في العذاب، لأنه أنذر قومه بالعذاب، فكذبوه.

قوله عز وجل: ﴿فأوحينا إليهِ أنِ اصْنعِ الْفُلْكَ بِأعْيُنِنا﴾، يعني: اعمل السفينة بأعيننا، يعني: بمنظر منا وبعلمنا. ثم قال: ﴿ووَحْيِنا﴾، يعني: بوحينا إليك وأمرنا. ﴿فَإذا جاءَ أمْرُنا﴾،

Marfat.com

يعني: عذابنا، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني: بنبع الماء من أسفل التنور، ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ يعني: فأدخل في السفينة ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، يعني: من كل حيوان صنفين ولونين ذكراً وأنثى، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني: وأدخل فيها أهلك، ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ يعني: إلا من وجب عليه العذاب، وهو ابنه كنعان. ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: ولا تراجعني بالدعاء في الذين كفرُوا وهو ابنه. ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطوفان. قرأ عاصم في رواية حفص ﴿من كلٍّ زوجين﴾ بتنوين اللام، وقرأ الباقون بغير تنوين.

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ﴾، يعني: ركبت السفينة ﴿أنت ومن معك على الفلك﴾ يعني: في السفينة ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾، يعني: الشكر لله ﴿الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

قوله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾، يعني: إذا نزلت من السفينة إلى البر، فقل: ﴿رب أنزلني مُنزَلاً مُّبَارَكاً﴾. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿مَنزِلاً﴾ بنصب الميم وكسر الزاي، يعني: موضع النزول؛ وقرأ الباقون ﴿مُنزَلاً﴾ بضم الميم ونصب الزاي، وهو اختيار أبي عبيد، وهو المصدر من أنزل ينزل، فصار بمعنى أنزلني إنزالاً مباركاً. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ من غيرك. وقد قرأ في الشاذ ﴿وأنت خير المنزَلين﴾ بنصب الزاي، يعني: أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام: قل هذا القول، حتى تكون خير المنزلين.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، يعني: في إهلاك قوم نوح. ﴿لآيَاتٍ﴾، يعني: لعبراً لمن بعدهم. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، يعني: وقد كنا لمختبرين بالغرق؛ ويقال: بالطاعة والمعصية. ﴿وإن﴾ بمعنى قد، كقوله ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، يعني: وقد كان مكرهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾، أي خلقنا من بعدهم ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ وهم قوم هود، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ يعني: نبيّهم هوداً عليه السلام ﴿أن اعْبُدُوا اللهَ﴾، يعني قال لهم هود: احمدوا الله وأطيعوه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾، يعني: اتقوه. اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الأمر.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾، يعني: بالبعث

Marfat.com

بعد الموت، ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾؛ يعني: أنعمنا عليهم، ويقال: وسعنا عليهم حتى أترفوا. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا﴾، يعني قالوا: ما هذا ﴿إِلاَّ بَشَرٌ﴾، يعني: آدمياً ﴿مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾، يعني: كما تأكلون منه، ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يعني: كما تشربون. ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشراً﴾، يعني: آدمياً ﴿مِثْلَكُم إِنَّكُم إِذاً لَخاسِرُونَ﴾، أي لمغبونون ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً﴾، أي صرتم تراباً ﴿وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾، يعني: محيون.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ قرأ أبو جعفر المدني ﴿هيهاتِ هيهاتِ﴾ كلاهما بكسر التاء. قال أبو عبيد: قراءتها بالنصب، لأنه أظهر اللغتين وأفشاهما، وقال بعضهم: قد قُرِىء هذا الحرف بسبع قراءات: بالكسر، والنصب، والرفع، والتنوين، وغير التنوين، والسكون. وهذه كلمة يعبر بها عن البعد، يعني: بعيداً بعيداً، ومعناه أنهم قالوا: هذا لا يكون أبداً، يعني: البعث. ﴿لِما تُوعَدُونَ﴾، يعني: بَعِيداً بَعِيداً لِمَا تُوعَدُونَ. ﴿إِنْ هِيَ﴾، يعني: ما هي ﴿إِلاَّ حياتُنَا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحيَا﴾، يعني: نحيا ونموت على وجه التقديم، ويقال: معناه يموت الآباء وتعيش الأبناء. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، يعني: لا نبعث بعد الموت. ﴿إِنْ هُوَ﴾، يعني: ما هو ﴿إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى الله كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: بمصدقين. فلما كذبوه دعا عليهم، ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾، يعني: قال هود: أعني عليهم بالعذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾، يعني: عن قريب. و﴿ما﴾ صلة، كقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، يعني: ليصيرُنَّ نادمين، فأخبر الله تعالى عن معاملة الذين كانوا من قبل مع أنبيائهم وسوء جزائهم وأذاهم لأنبيائهم، ليصبر النبي ﷺ على أذى قومه.

ثم أخبر عن عاقبة أمرهم، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: العذاب وهو الريح العقيم، ويقال: وهي صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾، يعني: يابساً، ويقال: هلكى كالغثاء، وهو جمع غثاء، وهو ما على السيل من الزبد، لأنه يذهب ويتفرق. وقال الزجاج: الغثاء البالي من ورق الشجر، أي جعلناه يبساً كيابس الغثاء. ويقال: الغثاء النبات

Marfat.com

اليابس كقوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥]. ثم قال: ﴿فَبُعۡدًا﴾، يعني: سحقاً ونكساً ﴿لِّلۡقَوۡمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: بعداً من رحمة الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا﴾، يعني: خلقنا ﴿من بعدهم قروناً آخرينَ مَا تَسبِقُ مِن أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾؛ وفي الآية مضمر ومعناه: فأهلكناهم بالعذاب في الدنيا ﴿ما تسبق من أمة﴾ يعني: ما يتقدم ولا تموت قبل أجلها طرفة عين، ﴿وَمَا يَستَأخِرُونَ﴾ بعد أجلهم طرفة عين.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تترا﴾، يعني: بعضها على إثر بعض. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿تترًى﴾ بالتنوين، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الراء بغير تنوين، وقرأ الباقون بنصب الراء وبغير تنوين وهو التواتر. قال مقاتل: كلّ ما في القرآن «تَتْرَى وَمِدْرَاراً وَأَبَابِيلَ وَمُرْدِفِينَ»، يعني: بعضها على إثر بعض. قال القتبي: أصل تترى وتراً، فقلبت الواو تاءً كما قلبوها في التقوى والتخمة، وأصلها وتراً، والتخمة وأصلها أوخمت.

ثم قال عز وجل: ﴿كُلَّمَا جاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتبَعنَا بَعضَهُمْ بَعضاً﴾ بالهلاك الأول فالأول، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً وعبراً لمن بعدهم، ويقال: ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ لمن بعدهم، يتحدثون بأمرهم وشأنهم؛ وقال الكلبي: ولو بقي واحد منهم لم يكونوا أحاديث. ﴿فَبُعْداً﴾ لِلْهَالِكِ؛ ويقال: فسحقاً ﴿لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، يعني: لا يصدقون.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ التسع، ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: بحجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ﴾ أي: قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾؛ يعني: تعظّموا عن الإيمان والطاعة، ﴿وَكَانُوا قَوماً عَالِينَ﴾ يعني: متكبرين. ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ﴾ يعني: أنصدق ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ يعني: خلقين آدميين. ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾، يعني: مستهزئين ذليلين. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، يعني: موسى وهارون عليهما السلام، ﴿فَكَانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ﴾ يعني: صاروا مغرقين في البحر.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، يعني: التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: لكي يهتدوا، يعني: بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾، يعني: عبرة وعلامة لبني إسرائيل، ولم يقل آيتين، وقد ذكرناه. ثم قال: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾، وذلك أنها لما ولدت عيسى عليه السلام همَّ قومها أن يرجموها، فخرجت من بيت المقدس إلى أرض دمشق، والربوة: المكان المرتفع. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، يعني: أرضاً مستوية ﴿ومعين﴾ يعني: الماء الجاري الطاهر، وهو مفعول من العين، وأصله: معيون، كما يقال: ثوب مخيط. وقال سعيد بن المسيب: الربوة هي دمشق، ويقال: هي بيت المقدس، لأنها أقرب إلى السموات من سائر الأرض. ويقال: إنها الرملة وفلسطين. قرأ ابن عامر وعاصم ﴿رَبوة﴾ بنصب الراء، وقرأ الباقون بالضم، ومعناهما واحد.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾، يعني: محمداً ﷺ. وإنما خاطب به النبي ﷺ وأراد به النبي ﷺ وأمته، كما يجيء في مخاطبتهم. ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: من الحلالات. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا ابن صاعد قال: حدثنا أحمد بن منصور قال: حدثنا الفضل بن دكين قال: حدثنا الفضل بن مرزوق قال: أخبرني عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً، وَإِنَّ الله تَعَالَى أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[البقرة: ٥٧]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ، يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذٰلِكَ»[(1)] وقال الزجاج: خوطب بهذا النبي ﷺ، فقيل: ﴿يا أيها الرسل﴾ وتضمن هذا الخطاب أن الرسل عليهم السلام جميعاً كذا أمروا. قال: ويروى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه، وكان رزق النبي ﷺ من الغنيمة وأطيب الطيبات الغنائم.

ثم قال تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾، يعني: خالصاً. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، يعني: قبل أن تعملوا.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يعني: دينكم الذي أنتم عليه، يعني: ملة الإسلام دين واحد، عليه كانت الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، يعني: أنا شرعته لكم فأطيعون. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿أنَّ﴾ بنصب الألف وتشديد النون، وقرأ ابن عامر بنصب الألف وسكون النون، وقرأ الباقون بكسر الألف والتشديد على معنى الابتداء.

---

(١) عزاه السيوطي ٦/١٠٢ إلى أحمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، يقول: فرّقوا دينهم وتفرّقوا في دينهم، ومعناه: أن دين الله تعالى واحد، فجعلوه أدياناً مختلفة زبراً. قرأ ابن عامر: ﴿زُبَراً﴾ بنصب الباء، أي قطعاً وفرقاً، وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ﴿زُبُراً﴾. بضم الباء، أي كتباً، معناه: جعلوا دينهم كتباً مختلفة، ويقال: فتقطعوا كتاب الله وحرفوه وغيروه. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، يعني: بما هم عليه من الدين معجبون، راضون به.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فذرهُمْ فِيْ غَمْرَتِهِمْ﴾، يعني: اتركهم في جهالتهم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾، يعني: إلى حين يأتيهم ما وعدوا به من العذاب.

ثمّ قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾، يعني: أيظنون وهم أهل الفرق، ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ يعني: أن الذي نزيدهم به ﴿مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ في الدنيا. ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، يعني: هو خير لهم في الآخرة؟ قرأ بعضهم ﴿يُسَارَعُ﴾ بالياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقراءة العامة ﴿نُسارِع﴾ بالنون وكسر الراء، يعني: يظنون أنا نسارع لهم. في الخيرات، بزيادة المال والولد، بل هو استدراج لهم.

وروي في الخبر: «أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام: أيفرح عبدي أن أبسط له في الدنيا، وهو أبعد له مني ويجزع عبدي المؤمن أن أقبض منه الدنيا، وهو أقرب له مني؟» ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾، وقد تم الكلام، يعني: أيظنون أن ذلك خيراً لهم في الدنيا؟ ثم قال: ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ ﴿بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك فتنة لهم؛ ويقال: ﴿إنما نمدهم به من مال وبنين﴾ وقد تم الكلام، يعني: أيظنون أن ذلك خير لهم في الدنيا؟

ثم قال عز وجل: ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ يعني: نبادرهم في الطاعات وهو خير لهم، أي في الآخرة ﴿بل لا يشعرون﴾ أن ذلك مكر بهم وشر لهم في الآخرة.

ثم ذكر المؤمنين، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾، يعني: خائفين من عذابه، ويقال: هذا عطف على قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، يعني: بمحمد ﷺ والقرآن يصدقون.

Marfat.com

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾، يعني: لا يشركون معه غيره، ولكنهم يوحدون ربهم، ويقال: ﴿بربهم لا يشركون﴾ هو أن يقول: لولا فلان ما وجدت هذا.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾، يعني: يعطون ما أعطوا من الصدقة والخير. ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، يعني: خائفة. وروى سالم بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني: أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون، ويزنون؟ قال: «لا يا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَلٰكِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيُصَلُّونَ».

وروي عن أبي بكر بن خلف أنه قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقلنا: يا أمَّ المؤمنين كيف تقرئين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾، فقلت يا نبي الله، هو الرجل الذي يسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا يا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُ». وقال الزجاج: من قرأ ﴿يؤتون ما آتوا﴾، معناه: يعطون ما أعطوا، ويخافون أن لا يقبل منهم؛ ومن قرأ ﴿يأتون ما أتوا﴾ أي: يعملون من الخيرات ما يعملون، ويخافون مع اجتهادهم أنهم مقصرون.

ثم قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، يعني: لأنهم إلى ربهم راجعون، ومعناه: يعملون ويوقنون أنهم يبعثون بعد الموت.

قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، يعني: يبادرون في الطاعات من الأعمال الصالحة، ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، يعني: هم لها عاملون، يعني: الخيرات، وقال الزجاج: فيه قولان: أحدهما: معناه هم إليها سابقون، كقوله عز وجل: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] يعني: إليها، ويجوز ﴿هم لها سابقون﴾ أي: لأجلها، أي من أجل اكتسابها، كقولك: أنا أكرم فلاناً لك، أي من أجلك.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾، يعني: بقدر طاقتها. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾، يعني: وعندنا نسخة أعمالهم التي يعملون، وهي التي تكتب الحفظة عليهم ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾، يعني: يشهد عليهم بالصدق. وقال الكلبي: ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾، أي طاقتها، فمن

Marfat.com

لم يستطع أن يصلي قائماً، فليصلِّ قاعداً. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق﴾ وهو الذكر، يعني: اللوح المحفوظ. ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾، يعني: لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾، يعني: في غفلة من الإيمان بهذا القرآن؛ ويقال: هم في غفلة من هذا الذي وصفنا من كتابة الأعمال. ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ قال مقاتل: يقول: لهم أعمال خبيثة دونِ الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾، أي لتلك الأعمال لا محالة التي في اللوح المحفوظ. وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: ذكر الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾. ثم قال للكفار: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ثم رجع إلى المؤمنين، فقال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الأعمال التي عددت هم لها عاملون.

ثم قال عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾، يعني: أغنياءهم وجبابرتهم بالعذاب. قال مجاهد: يعني: بالسيوف يوم بدر، وقال الكلبي: بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف. ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾، أي يصيحون ويتضرعون إلى الله تعالى، حين نزل بهم العذاب. ويقال: يدعون ويستغيثون.

يقول الله تعالى: ﴿لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾، يعني: لا تضجوا ولا تتضرعوا اليوم. ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ﴾، يعني: من عذابنا لا تمنعون.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ﴾، أي تقرأ وتعرض عليكم، ﴿فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾، أي ترجعون إلى الشرك وتميلون إليه. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾، أي متعظمين، ويقال ﴿تنكصون﴾ أي تقيمون عليه ﴿مستكبرين به﴾ يعني: بالبيت، صار هذا كناية من غير أن يسبق ذكر البيت، لأن ذلك البيت كان معروفاً عندهم. وقال مجاهد: ﴿مستكبرين به﴾ أي بمكة بالبلد. ﴿سَامِراً﴾ بالليل لجلسائهم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بالقول الذي في القرآن. ويقال: ﴿تهجرون﴾ يعني: تتكلمون بالفحش وسب النبي ﷺ، وهذا كما قال ﷺ: **«زُورُوها - يعني: المقابر - ولا تَقُولُوا هُجراً»** يعني: فحشاً. وقال القتبي: ﴿مستكبرين به﴾، يعني: بالبيت العتيق تهجرون به، ويقولون: نحن أهله سامراً. والسمر: حديث الليل. وقال أهل اللغة: السمر في اللغة ظل القمر، ولهذا سمي حديث الليل سمراً، لأنهم كانوا يجتمعون في ظل القمر ويتحدثون. قرأ نافع ﴿سَامِراً تُهْجِرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بنصب التاء وضم الجيم. وقال أبو عبيد: هذه القراءة أحب إلينا، فيكون من الصدود والهجران، كقوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، يعني: تهجرون القرآن ولا تؤمنون به. ومن قرأ: ﴿تهجرون﴾ أراد الإفحاش في المنطق، وقد فسرها بعضهم على الشرك.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ

Marfat.com

أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ
﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، أصله: يتدبروا فأدغم التاء في الدال، يعني: ألم يتفكروا في القرآن؟ ﴿أَمْ جَاءَهُمْ﴾ من الأمان ﴿مَا لَمْ يأت آباءهم الأوَّلِينَ﴾، معناه: جاءهم الذي لم يجيء آباءهم الأولين، وهذا كقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]؛ وقال الكلبي: ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ من البراءة من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾، يعني: نسبة رسولهم. ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، يعني: جاحدين. قال أبو صالح: عرفوه ولكن حسدوه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾، يعني: بل يقولون به جنون. ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾، يعني: الرسول ﷺ بالرسالة والقرآن من عند الله عز وجل، أن لا تعبدوا إلا الله. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، يعني: جاحدين مكذبين، وهم الكفار.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهم﴾، والحقُّ هو الله تعالى، يعني: لو اتبع الله أهواءهم أي: مرادهم، ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، يعني: لهلكت، لأن أهواءهم ومرادهم مختلفة؛ ويقال: لو كانت الآلهة بأهوائهم، كما قالوا: لفسدت السموات، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ثم قال: ﴿بَلْ أتيناهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾، يعني: أنزلنا إليهم جبريل عليه السلام بعزهم وشرفهم، لأن رسول الله ﷺ منهم. ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾، يعني: عن القرآن، أي تاركوه لا يؤمنون به. ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرجاً﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿خراجاً﴾. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، يعني: فثواب ربك خير، ويقال: قوت ربك من الحلال خير من جعلهم وثوابهم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، أي أفضل الرازقين.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، يعني: دين مستقيم وهو الإسلام لا عوج فيه. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾، يعني: لا يصدقون بالبعث ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾، أي عن الدين لعادلون ومائلون.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله: ﴿ولَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾، يعني: من الجوع الذي أصابهم، ﴿لَلجُّوا﴾ أي مضوا وتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، يعني: في ضلالتهم يترددون.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني: بالجوع، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني: ما تضعضعوا وما خضعوا لربهم. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يقول: ما يرغبون إلى الله في الدعاء وبالطاعة، ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: نفتح عليهم. قال السدي: هو فتح مكة. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ قال: أبلسوا يومئذٍ وتغيرت ألوانهم، حين ينظرون أصنامهم تكسرت، وقال عكرمة: ﴿ذا عذاب شديد﴾ يعني: فتح مكة، ويقال: الجوع الشديد ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير ورزق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فهذه الأشياء من النعم. ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ يعني: أنتم لا تشكرون، ويقال: شكركم فيما صنع إليكم قليل. ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ يعني: خلقكم في الأرض. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يحيي الموتى ويميت الأحياء. ﴿وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ذهاب الليل ومجيء النهار، ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله؟ ويقال: أفلا تعقلون توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون؟

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ يعني: كذبوا مثل ما كذب الأولون. ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: هذا القول. ﴿إِنْ هَذَا﴾ يعني: ما هذا ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديثهم وكذبهم.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ لكفار مكة: ﴿لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ من الخلق. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن أحداً يفعل ذلك غير الله، فأجيبوني. ﴿سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: تتعظون فتطيعونه وتوحدونه. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لله﴾ وكلهم قرؤوا الأول بغير ألف، وأما الآخر فإن كلهم قرؤوا بغير ألف غير أبي عمرو، فإنه قرأ الله، والباقون لله. قال أبو عبيد: وجدت في مصحف الإمام كلها بغير ألف. قال: وحدثني عاصم الجحدري أن أول من قرأ هاتين الألفين نصر بن عاصم الليثي. فأما من قرأ ﴿الله﴾ فهو ظاهر لأنه جواب السائل عما يسأل، ومن قرأ ﴿لله﴾ فله مخرج في العربية سهل، وهو ما حكى

Marfat.com

الكسائي عن العرب أنه يقال للرجل: من رب هذه الدار؟ فيقول: لفلان، يعني: هي لفلان. والمعنى في ذلك، أنه إذا قيل: من صاحب هذه الدار؟ فكأنه يقول: لمن هذه الدار. وإذا قال المجيب: هي لفلان، أو قال: فلان، فهو جائز ولو كان الأول ﴿الله﴾، لكان يجوز في اللغة، ولكنه لم يقرأ والاختلاف في الآخرين. ثم قال: ﴿قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله تعالى، فتوحدوه.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يعني: خزائن كل شيء. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، يعني: يقضي ولا يقضى عليه، ويقال: وهو يؤمن من العذاب ولا يؤمن عليه، أي ليس له أحد يؤمن الكفار من عذابه. ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾، يعني: من الذين تصرفون عن الإسلام وعن الحق.

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾، قال الكلبي: يعني: القرآن، وقال مقاتل: يعني: جئناهم بالتوحيد. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إن الملائكة عليهم السلام كذا وكذا

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ الله مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾، أي من شريك. ﴿إِذاً لذهب﴾، يعني: لو كان معه آلهة لذهب ﴿كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾، يعني: لاستولى كل إلهٍ بما خلق وجمع لنفسه ما خلق. ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، يعني: ولغلب بعضهم على بعض. - كفعل ملوك أهل الدنيا يلتمس بعضهم قهر بعض ويقال: استولى على ما خلق دون صاحبه، ولغلب بعضهم على بعض[1] - ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الكذب.

قوله عز وجل: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يعني: عالم السر والعلانية، ويقال: عالم بما مضى وما هو كائن. ﴿فتعالى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يعني: هو أجلُّ وأعلى مما يوصف له من الشريك والولد. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿عَالِمِ الغيب﴾ بكسر الميم على معنى النعت لقوله ﴿سُبْحَانَ الله﴾، وقرأ الباقون بالضم على معنى الابتداء.

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب و﴿ما﴾ صلة. ويقال: إن أريتني عذابهم. ﴿رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: أخرجني منهم قبل أن تعذبهم، فلا تعذبني معهم بذنوبهم. ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾؛ قال الكلبي: هذا أمر قد كان بعد رسول الله ﷺ، شهده أصحابه وقد مضى بعد الفتنة التي وقعت في الصحابة، بعد قتل عثمان رضي الله عنه وذكر: أن النبي ﷺ لم ير بعد نزول هذه الآية ضاحكاً ولا مبتسماً. وقال مقاتل: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ يعني: يوم بدر، ويقال: يوم فتح مكة، ويقال: قل: ﴿رب إما تريني ما يوعدون﴾ يعني: الفتنة ﴿رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: مع الفئة الباغية، وهذا كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وذكر عن الزبير أنه كان إذا قرأ هذه الآية، يقول: «قد حذرنا الله تعالى فلم نحذر».

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، يعني: ادفع بحلمك جهلهم، ويقال: بالكلام الحسن الكلام القبيح، ويقال: ادفع بقول لا إله إلا الله الشرك من أهل مكة. ثم قال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، يعني: بما يقولون من الكذب. ويقال: معناه نحن أعلم بما يقولون فلا تعجل أنت أيضاً. ﴿وَقُلْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾، يعني: أعتصم بك من نزغات الشيطان وضرباته ووساوسه. ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، يعني: قل: رب أعوذ بك من قبل أن يحضرني الشياطين عند تلاوة القرآن، ويقال: ﴿يحضرون﴾ عند الموت، ويقال: عند الصلاة. وأصله: أن يحضرونني، إلا أنه يكتب ﴿يحضرون﴾ بحذف إحدى النونين للتخفيف.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، يعني: أمهلهم وأجلهم، حتى إذا حضر أحدهم الموت وهم الكفار، ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾؛ يعني: يقول لملك الموت وأعوانه: يا سيدي ردني، ويقال: يدعو الله تعالى، ويقول: يا رب ارجعون، ويقال: إنما قال بلفظ

Marfat.com

الجماعة، لأن العرب تخاطب جليل الشأن بلفظ الجماعة. ويقال: معناه يا رب مُرْهم ليرجعوني إلى الدنيا. ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ وهو رد عليهم، يعني: أنه لا يرد إلى الدنيا. ثم قال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ يعني: يقولها ولا تنفعه.

ثم قال: ﴿وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ يعني: من بعدهم القبر ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ويقال: بين كل شيئين حاجز فهو برزخ، ويقال: هو بين النفختين، وقال قتادة: البرزخ بقية الدنيا، وقال الحسن: القبر بين الدنيا والآخرة.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني: النفخة الأخيرة، ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: لا ينفعهم ﴿يومئذٍ﴾النسبُ، ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾عن ذلك. فهذه حالات لا يتساءلون في موضع، ويتساءلون في موضع آخر. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فأولئك هم المفلحون﴾يعني: الناجون في الآخرة، ﴿ومن خفت موازينه﴾يعني: رجحت سيئاته على حسناته، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾يعني: تنفح. قال أهل اللغة: النفح واللفح بمعنى واحد، إلا أن اللفح أشد تأثيراً وهو الدفع، يعني: تضرب وجوههم النار. ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ يعني: في النار، ﴿كالحون﴾يعني: كلحت وعبست وجوههم، والكالح: الذي قد قلصت شفتاه عن أسنانه، ونحو ما تُرى من رؤوس الغنم مشوية إذا بدت الأسنان، يعني: كلحت وجوههم فلم تلتق شفاههم. وقال ابن مسعود: «كالرأس النضيج».

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ألم يكن يقرأ عليكم القرآن فيه بيان هذا اليوم، وما هو كائن فيه؟ ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يعني: بالآيات.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا ربنا﴾ يعني: الكفار ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي كتبت علينا، والتي قدرت علينا في اللوح المحفوظ. ﴿وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾عن الهدى. قرأ حمزة والكسائي ﴿شقاوتنا﴾بنصب الشين والألف، وقرأ الباقون ﴿شِقوتنا﴾بكسر الشين وسكون القاف بغير ألف. وروي عن ابن مسعود: ﴿شقاوتنا﴾و﴿شقوتنا﴾ومعناهما قريب. ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ يعني: من النار، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾إلى الكفر والتكذيب، ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾أي: فحينئذٍ يقول الله

Marfat.com

تعالى: ﴿اخسَئُوا فِيهَا﴾، يعني: اصغروا فيها واسكتوا، أي: كونوا صاغرين، ﴿وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾، أي ولا تكلموني بعد ذلك.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو حفص، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي أيوب الأزدي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «إن أهل النار ليدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم: إنكم ماكثون. ثم يدعون ربهم: ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا فإنا ظالمون، فلا يجيبهم مقدار ما كانت الدنيا مرتين، ثم يجيبهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾، فوالله ما نبس القوم بعد هذا بكلمة إلا الزفير والشهيق»[(١)].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما قال الله تعالى: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾، «فانطبقت أفواههم وانكسرت ألسنتهم، فمن الأجواف يعوون كعواء الكلب» ويقال: ﴿اخسئوا﴾ أي تباعدوا تباعد سَخَطٍ. يقال: خسأتَ الكلبَ، إذا زجرته ليتباعد.

ثم بيّن لهم السبب الذي استحقوا تلك العقوبة به، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ وهم المؤمنون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾، أي صدقنا، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾، يعني: هزواً، ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ يعني: أنساكم الهزء بهم العمل بطاعتي، ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ في الدنيا. قرأ عاصم، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو ﴿سِخرِياً﴾ بكسر السين، وكذلك في سورة ص، وكانوا يقرؤون في الزخرف بالرفع، قالوا: لأن في هذين الموضعين من الاستهزاء. وهناك في الزخرف من السخرة والعبودية، فما كان من الاستهزاء فهو بالكسر، وما كان من التسخير فهو بالضم. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ﴿سُخرِياً﴾ كل ذلك بالضم. وقال أبو عبيد: هكذا نقرأ، لأنهن يرجعن إلى معنى واحد، وهما لغتان سِخْرِيٌّ وسُخْرِيّ؛ وذكر عن الخليل وعن سيبويه: أن كلاهما واحد.

قوله عز وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، يعني: جعلت جزاءهم الجنة وهم المؤمنون بما صبروا، يعني: بصبرهم على الأذى وعلى أمر الله تعالى. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، يعني: الناجين. قرأ حمزة والكسائي ﴿إنهم﴾ بكسر الألف على معنى الابتداء، والمعنى: إني جزيتهم.

ثم أخبر فقال: ﴿إنهم هم الفائزون﴾ وقال أبو عبيد، وقرأ الباقون ﴿أنهمْ﴾ بالنصب أنّي جزيتهم لأنهم هم الفائزون. وقال أبو عبيد: الكسر أحبُ إليَّ على ابتداء المدح من الله تعالى.

---

(١) عزاه السيوطي ٦/١١٩ إلى ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في البعث.

Marfat.com

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾، يعني: في القبر. ويقال: في الدنيا. ويروى عن ابن عباس في بعض الروايات أنه قال: «لا أدري في الأرض أم في القبر؟» وقال مقاتل: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في القبر عدد سنين. ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾، قال الأعمش: يعني: الحافظين، وقال مقاتل: يعني: ملك الموت وأعوانه، وقال قتادة: يعني: فاسأل الحسّاب، وقال مجاهد: يعني: الملائكة عليهم السلام، وهكذا قال السدي. ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ في القبر أو في الدنيا، ﴿إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كنتم تَعْلَمُونَ﴾، يعني: لو كنتم تصدقون أنبيائي عليهم السلام في الدنيا، لعرفتم أنكم ما مكثتم في القبور إلا قليلاً. قرأ حمزة والكسائي وابن كثير: ﴿قل كم لبثتم﴾ على معنى الأمر، وكذلك قوله ﴿قل إن لبثتم﴾، وقرأ الباقون: ﴿قال﴾ بالألف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فسل العادين﴾ بغير همز، وقرأ الباقون: ﴿فاسأل﴾ بالهمزة.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾، أي: لعباً وباطلاً لغير شيء، يعني: أظننتم أنكم لا تعذبون بما فعلتم؟ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت. قرأ حمزة والكسائي: ﴿لا ترجعون﴾ بنصب التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضم التاء ونصب الجيم ﴿لا تُرجَعون﴾، وكذلك التي في القصص قالوا: لأنها من مرجع الآخرة، وما كان من مرجع الدنيا فقد اتفقوا في فتحه، مثل قوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠]. قال أبو عبيد: وبالفتح نقرأ، لأنهم اتفقوا في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، وقال: إنهم لا يرجعون وقال ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، كقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فأضاف الفعل إليهم.

ثم قال عز وجل: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، يقول: ارتفع وتعظم من أن يكون خلق شيئاً عبثاً، وإنما خلق لأمر كائن. ثم وحّد نفسه فقال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، يعني: السرير الحسن.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، يقول: لا حجة له بالكفر ولا عذر يوم القيامة. ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة، يعني: عذابه. ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾،

Marfat.com

يعني: لا يأمن الكافرون من عذابه، ويقال: معناه جزاء كل كافر أنه لا يفلح الكافرون في الآخرة عند ربهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ اغفر وارحم﴾، يعني: تجاوز عني. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، يعني: من الأبوين؛ وهذا قول الحسن، ويقال: من غيرك، ويقال: إنما حسابه عند ربه فيجازيه، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] ﴿وقل رب اغفر وارحم﴾ فأمر النبي ﷺ بأن يستغفر للمؤمنين، ويسأل لهم المغفرة. ويقال: أمره بأن يستغفر لنفسه، ليعلم غيره أنه محتاج إلى الاستغفار. كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي أَسْتَغْفِرُ الله رَبِّي وَأَتُوبُ إِلَى الله فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً، أَوْ قَالَ مِائَةَ مَرَّةٍ»[1] والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) حديث ابن هريرة: أخرجه البخاري (٦٣٠٧) بلفظ «والله» ومسلم (٢٧٠٢) (١٣) وأحمد ٢/ ٢٨٢، ٣٤١ وحديث الأغر المزني عند مسلم (٢٧٠٢) وأحمد: ٤/ ٢٦٠ وأبي داود (١٥١٥) والبغوي (٨٢٨٧).

Marfat.com

سورة النور

مدنية، وهي ستون وأربع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُورةٌ أنزلناها﴾ قرأ بعضهم: ﴿سُورَةً﴾ بنصب الهاء، وقراءة العامة بالضم. فمن قرأ بالضم فمعناه: هذه سورة أنزلناها، ومن قرأ بالنصب فمعناه: أنزلنا سورة، ويقال: اقرأ سورةً، وقد: قرئت ﴿سورة﴾ بالهمزة وبغير همز. فمن قرأ بالهمز، جعلها من أسأرت، يعني: أفضلت كأنها قطعة من القرآن. ومن لم يهمز، جعلها من سور المدينة سوراً أي منزلةً بعد منزلة. ويقال: السورة أصلها الرفعة، ولهذا سمّي سور المدينة. وقال النابغة للنعمان بن المنذر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الله أَعْـطَـاكَ سُـورَةً تَـرَى كُـلَّ مَـلْـكٍ دُونَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ

وإنما خص هذه السورة بذكر السورة لما فيها من الأحكام، فذلك كله يرجع إلى أمر واحد وهو أمر النساء.

ثم قال تعالى: ﴿وَفَرضنَاهَا﴾، يعني: بيّنا حلالها وحرامها، وقال القتبي: أصل الفريضة الوجوب، وهاهنا يجوز أن يكون بمعنى بيّناها، وقد يجوز أوجبنا العمل بما فيها، وقال بعض أهل اللغة: أصل الفرض هو القطع، ولهذا سمي ما يقطع من حافة النهر فرضة، ويسمى الموضع الذي يقطع من السواك، أي ليشد فيه الخيط فرض، ولهذا يسمى الميراث فريضة، لأن كل واحد قطع له نصيب معلوم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾ بتشديد الراء، وقرأ الباقون بالتخفيف. فمن قرأ بالتخفيف، فمعناه ألزمناكم العمل بما فرض فيها، ومن قرأ بالتشديد، فهو على وجهين: أحدهما: على معنى التكثير، أي إنا فرضنا فيها فروضاً، ومعنى آخر: وبيّنا وفصلنا فيها من الحلال والحرام.

ثم قال: ﴿وَأَنزلنَا فِيهَا﴾، يعني: في السورة ﴿آياتٍ بَيّناتٍ﴾، يعني: الحدود والفرائض والأمر والنهي. ويقال: الآيات، يعني: العلامات والعبرات، ويقال: يعني آيات القرآن. ﴿لعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، يعني: تتعظون، فلا تعطلون الأحكام والحدود.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ ؛ وقرأ بعضهم: ﴿الزَّانيةَ﴾ بنصب الهاء على معنى: اجلدوا الزانية والزاني، وهكذا السارق والسارقة بالنصب على هذا المعنى. ويقال: في الزنى بدأ بذكر المرأة، لأن الزنى في النساء أكثر، وفي السرقة بدأ بالرجال، لأن السرقة في الرجال أكثر. وقراءة العامة بالرفع على معنى الابتداء، وقيل: إنما بدأ بالمرأة، لأنها أحرص على الزنى من الرجال، ويقال: لأن الفعل ينتهي إليها، ولا يكون إلا برضاها.

ثم قال: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ، يعني: إذا كانا غير محصنين ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله﴾ . قرأ ابن كثير ﴿رآفة﴾ بالهمزة والمد، وقرأ أبو عمرو بالمد بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز بلا مد، ومعنى الكل واحد وهو الرحمة، وقال بعضهم: الرأفة اسم جنس، والرحمة اسم نوع. قال بعضهم: الرأفة للمذنبين، والرحمة للتائبين، وهو قول سفيان الثوري. وقال بعضهم: الرأفة تكون دفع المكروه، والرحمة إيصال المحبوب، يعني: لا تحملنكم الشفقة عليهما على ترك الحد، ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله﴾ يعني: في دين الله، أي في حكم الله ﴿إن كنتم تؤمنون بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني: يوم القيامة. وإنما سمي اليوم الآخر، لأنه لا يكون بعده ليل فيصير كله بمنزلة يوم واحد. وقد قيل: إنه تجتمع الأنوار كلها، وتصير في الجنة يوماً واحداً، وجمعت الظلمات كلها في النار، وتصير كلها ليلة واحدة.

ثم قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ليحضر عند إقامة الحد طائفة من المؤمنين. وفي حضور الطائفة ثلاث فوائد: **أولها**: أنهم يعتبرون بذلك، ويبلغ الشاهد الغائب **والثانية**: أن الإمام إذا احتاج إلى الإعانة أعانوه، **والثالثة**: لكي يستحي المضروب، فيكون زجراً له من العود إلى مثل ذلك الفعل. وقال الزهري: «الطائفة ثلاثة فصاعداً»، وذكر عن أنس بن مالك أنه قال: «أربعة فصاعداً»، لأن الشهادة على الزنى لا تكون أقل من أربعة. وقال بعضهم: اثنان فصاعداً. وقال بعضهم: الواحد فصاعداً، وهو قول أهل العراق، وهو استحباب وليس بواجب. وروي عن ابن عباس أنه قال: «رجلان»، وعن مجاهد قال: «واحد فما فوقه طائفة»؛ وروي عن ابن عباس مثله.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً﴾ . روي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «أن رجلاً يقال له مرثد بن أبي مرثد قال للنبي ﷺ: أأنكح عناقاً، يعني: امرأة بغيّة كانت بمكة؟ قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ، حتى نزلت هذه الآية ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً﴾ ،

Marfat.com

﴿أَوْ مُشْرِكَةٌ﴾، فقال: «يا مَرْثَدُ لا تَنْكِحْهَا»[1] وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ليس هو على النكاح، ولكنه الجماع» ويقال: «إن أصحاب الصفة استأذنوا رسول الله ﷺ بأن يتزوجوا الزواني، وكانت لهن رايات كعلامة البيطار لتُعرف أنها زانية، وقالوا: لنا في تزويجهن مراد، فأذنْ لنا فإنهنّ أخصبُ أهل المدينة وأكثرُهم خيراً، والمدينة غالية السعر، وقد أصابنا الجهد. فإذا جاءنا الله تعالى بالخير طلقناهن وتزوجنا المسلمات»، فنزلت الآية ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: الزاني لا يزني حين يزني إلا بزانية مثله في الزنى، والزانية لا تزني إلا بزان مثلها في الزنى. ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الزنى. وقال الحسن البصري: ﴿الزاني﴾ المجلود بالزنى، ﴿لا ينكح إلا زانية﴾ مجلودة مثله في الزنى. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن مجلوداً تزوج امرأة غير مجلودة، ففرق بينهما»[2] ويقال: أراد به النكاح، ﴿لا ينكح﴾، يعني: لا يتزوج. وكان التزويج حراماً بهذه الآية، ثم نسخ بما روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن امرأتي لا ترد يد لامس، فقال: «طَلِّقْهَا». قال: إني أحبها، فقال: «أَمْسِكْهَا»[3]. وقال سعيد بن المسيب: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾. كانوا يرون أن الآية التي بعدها نسختها ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] الآية.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، يعني: يقذفون العفائف من النساء، الحرائر المسلمات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على صدق مقالتهم، ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ يقول: للحكام ويقال: هذا الخطاب لجميع المسلمين، ثم إن المسلمين فوضوا الأمر إلى الإمام وإلى القاضي، ليقيم عليهم الحد. ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، يعني: ثمانين سوطاً. ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾، أي: لا تقبلوا لهم شهادة بعد إقامة الحد عليهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، يعني: العاصين.

قال عز وجل: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، يعني: القذف. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، يعني: العمل بعد توبتهم، ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعد التوبة، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة. وقال شريح: «يقبل توبته فيما بينه وبين الله تعالى، فأما شهادته فلا تقبل أبداً» وقال إبراهيم النخعي رحمه الله:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٧) وقال: حديث حسن غريب وأبو داود (٢٠٥١) والنسائي: ٦/ ٦٥ وعزاه السيوطي: ٦/ ١٢٨ إلى الترمذي والنسائي وأبي داود وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي.

(٢) عزاه السيوطي ٦/ ١٢٦ إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(٣) حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود (٢٠٤٩) وبلفظ «غرِّبها» و«فاستمتع بها» والنسائي ٦/ ١٧٠ والبيهقي ٧/ ١٥٥.

Marfat.com

«إذا تاب ذهب عنه الفسق، ولا تقبل شهادته أبداً». وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ «تاب الله عليهم من الفسق وأما الشهادة فلا تقبل أبداً» وهكذا عن سعيد بن جبير ومجاهد. وروي عن جماعة من التابعين: أن شهادته تقبل إذا تاب مثل: عطاء، وطاوس، وسعيد بن المسيب، والشعبي، وغيرهم، وهو قول أهل المدينة، والأول قول أهل العراق وبه نأخذ.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، يعني: يقذفون أزواجهم بالزنى. قال الفقيه أبو الليث: حدّثنا أبو جعفر قال: حدّثنا أبو الحسن علي بن أحمد قال: حدّثنا محمد بن الفضل قال: حدّثنا يزيد بن هارون، عن عباد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لما نزل ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ الآية، قال سعد بن عبادة، وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، ألا تَسْمَعُونَ إلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟»**. فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله تعالى، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أخرجه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم، حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيراً، حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنه، فلم يهجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره النبي ﷺ ما جاء به واشتد عليه. واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضربُ رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في المسلمين، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجاً، فوالله إن النبي ﷺ ليريد أن يأمر بضربي، إذ نزل عليه الوحي، فعرفوا ذلك في تربد وجهه، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت: ﴿والذين يرمون أزواجهم وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآية، فسرّي عن رسول الله ﷺ، فقال: **«أَبْشِرْ يا هِلالُ فَقَدْ جَعَلَ الله لَكَ فرجاً وَمَخْرَجاً»**. فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي. فأرسلوا إليها، فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما وذكرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما. فقالت: كذب علي. فقال النبي ﷺ: **«لاعِنُوا بَيْنَهُما»**. فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة،

Marfat.com

قيل: يا هلال، اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب. قال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل لها: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة، قيل لها: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وان هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فمكثت ساعة ثم قالت: والله لا أفضحُ قومي، فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يدّعى ولدُها لأب، وقال: «**إنْ جاءَتْ به أُصَيهب أريسج أُثَيبج خَمْشُ السَّاقين، فهو لهلال، وإنْ جاءَتْ به أوْرَق جعْداً جماليجاً خَدَلَّج السَّاقين سابغَ الأليتينِ، فهو للذي رميت به**». فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين، فقال النبي ﷺ: «**لَوْلاَ الأَيْمَانُ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأنٌ**» قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر ولا يدعى لأب[١].

وروى ابن شهاب، عن سهل بن سعد الساعدي: «أن عويمراً العجلانيَّ أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن وجد الرجل مع امرأته رجلاً، إن قتله فتقتلوه أو كيف يفعل؟ قال: «**قَدْ أَنْزَلَ الله فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ قُرآناً فَاذْهَبْ فَأْتِ بِهَا**» فتلاعنا عند رسول الله ﷺ؛ فلما فرغا، قال: كذبت عليها يا رسول الله، إن أمسكتها فهي طالق ثلاثاً، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره النبي ﷺ. قال ابن شهاب: تلك سنة المتلاعنين» وفي رواية أخرى: «إنه فرق بينهما» وقال الزهري: «صار ذلك سنة في المتلاعنين»[٢]، فذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني: الزوج خاصة.

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، أي: يحلف الزوج أربع مرات، فيقول في كل مرة: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أني صادق فيما رميتها به من الزنى، ﴿والخامسة﴾ يعني: يقول في المرة الخَامِسَةِ: ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى.

قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ، يعني: ويدفع الحاكم الحد عن المرأة ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ، يعني: بعد ما تحلف المرأة أربع مرات، فتقول في كل مرة:

---

(١) حديث ابن عباس: عزاه السيوطي: ٦/ ١٣٣ ـ ١٣٤ إلى أحمد وعبد الرزاق والطيالسي وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم.

(٢) حديث سهل: أخرجه مالك: ٢/ ٥٦٧ والبخاري (٤٧٤٥) (٥٢٥٩) و(٥٣٠٨) ومسلم (١٤٩٢) (١) (٢) (٣) وأبو داود (٢٢٤٥) والنسائي ٦/ ١٤٣ ـ ١٤٥ والبيهقي ٧/ ٣٩٨ ـ ٤٠٠ وأحمد ٥/ ٣٣٧ و١٠/ ٤٢١٢ و١٦/ ٧٠٩٩.

Marfat.com

أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أن الزوج من الكاذبين في قوله، ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ يعني: وتقول المرأة الخامسة: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في مقالته. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿أربعُ شهادات﴾ بضم العين، وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالضم، يكون على معنى خبر الابتداء، فشهادة أحدهم التي تدرأ حد القذف أربع شهادات. ومن قرأ بالنصب، فالمعنى: فعليه أن يشهد أحدهم أربع شهادات. قال أبو عبيد: وبهذا نقرأ، ومعناه: فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات، فيكون الجواب في قوله: ﴿إنه لمن الصادقين﴾.

وقرأ نافع: ﴿أنْ لعنة الله﴾ بتخفيف أنْ والجزم، وقرأ الباقون بالتشديد، وقرأ عاصم في رواية حفص ﴿والخامسة أن غضب الله عليها﴾ بنصب التاء، وقرأ الباقون بالرفع. فإذا فرغا من اللعان، فرق القاضي بينهما وقال بعضهم: تقع الفرقة بنفس اللعان وهو قول الشافعي رحمه الله وفي قول علمائنا رحمهم الله: لا تقع الفرقة ما لم يفرق بينهما.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه﴾ وجوابه مضمر ومعناه: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ لبين الصادق من الكاذب. ويقال: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ لنال الكاذب منكم بما ذكرناه من عذاب عظيم. ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ يعني: ﴿تواب﴾ لمن تاب ورجع، ﴿حكيم﴾ حكمَ بينهما بالملاعنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ يعني: قالوا بالكذب، وقال الأخفش: الإفك أسوأ الكذب، وهذه الآية نزلت ببراءة عائشة رضي الله عنها. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الثقة بإسناده، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج في سفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب، وكان ذلك في غزوة بني المصطلق. قالت: فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه في مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل ودنونا من المدينة، أذن ليلةً بالرحيل، فقمتُ ومشيت حتى جاوزت الجيش. فلما قضيت شأني، أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني، فحملوا هودجي ورحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه. قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم. إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه.

Marfat.com

وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا. ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب. قالت: فجلست مكاني، فظننت أن القوم يستفقدونني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة في منزلي، إذ غلبني النوم، فنمت وقد كان صفوان بن المعطل السلمي يمكث في المعسكر، إذا ارتحل الناس يتبع ما يقع من الناس من أمتعتهم فيحمله إلى المنزل الآخر، فيعرفه فتجيء الناس ويأخذون أمتعتهم. وكان لا يكاد يذهب من العسكر شيء، فأصبح صفوان عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب عليّ الحجاب. فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي. فوالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فركبتها فانطلق بي يقود بي الراحلة.

قالت: وكان عبد الله بن أبي إذا نزل في العسكر، نزل في أقصى العسكر، فيجتمع إليه ناس فيحدثهم ويتحدثون. قالت: وكان معه في مجلسه يومئذ حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، فافتقد الناس عائشة حين نزلوا صحوة، وهاج الناس في ذكرها: أن عائشة قد فقدت، ودخل علي بن أبي طالب على النبي ﷺ، فأخبر أن عائشة قد فقدت. فبينما الناس كذلك، إذ دنا صفوان بن المعطل، فتكلم عبد الله بن أبيّ بما تكلم، وحسان بن ثابت وسائرهم، وأفشوه في العسكر، وخاض أهل العسكر فيه، فجعل يرويه بعضهم عن بعض، ويحدث بعضهم بعضاً.

قالت: وقدم رسول الله ﷺ المدينة والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل ويسلم ثم يقول: «كَيفَ تِيكُم؟» فذلك يُريبُني ولا أشعر بالسر. فلما رأيت ذلك، قلت: يا رسول الله، لو أذنت لي فانقلبت إلى أبويّ يمرّضاني. قال: «لا بَأسَ عَلَيكِ»، وإنما قلت ذلك لما رأيت من جفائه. قالت: فانقلبت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى قمت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

قالت: وكانوا لا يتخذون الكنف في بيوتهم، إنما كانوا يذهبون في فسح المدينة. قالت: فخرجت في بعض الليل ومعي أم مسطح، حتى فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، تسبين رجلاً وقد شهد بدراً؟ فقالت: أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، وأخذتني الحمى مكاني، فرجعت أبكي.

ثم قلت لأمي: يغفرُ الله لك، تحدثَ الناسُ بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي منه شيئاً. فقالت: هوّني عليك، فوالله لقلّ ما كانت امرأة قط رضية عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا كثرن عليها. قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حيث استلبث

Marfat.com

الوحي يستشيرهما في فراق أهله. فأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: «لم يضيق الله عليك، والنساء كثير فاستبدل». وأما أسامة بن زيد رضي الله عنه، فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود. فقال: «يا رسول الله، ما علمت منها إلا خيراً، فلا تعجل وانظر واسأل أهلك». قالت: فسأل حفصة بنت عمر عنها، فقالت: «يا رسول الله، ما رأيت عليها سوءاً قط». وسأل زينب بنت جحش، فقالت مثل ذلك، وسأل بريرة: «**هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يُرِيبُكِ مِنْ أَمْرِ عَائِشَةَ؟**» قالت له بريرة: «والذي بعثك بالحق نبياً، ما رأيت عليها أمراً قط أغمصُه عليها، غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله».

قالت: فأقبل رسول الله ﷺ حتى دخل علي، وعندي أبواي، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «**يا عَائِشَةُ، لَقَدْ بَلَغَكِ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَإِنْ كَانَ مَا يَكُونُ مِنْكِ زَلَّةٌ مِمَّا يَكُونُ مِنَ النَّاسِ، فَتُوبِي إلى الله تَعَالَى، فَإِنَّ الله يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ الله عَلَيْهِ**». فانتظرت أبويَّ أن يجيبا عني فلم يفعلا، فقلت: يا أبتِ أجبه، فقال: ماذا أقول؟ فقلت: يا أماه أجيبيه. فقالت: ماذا أقول؟ ثم استعبرتُ فبكيتُ، فقلت: لا واللهِ لا أتوبُ مما ذكروني به، وإني لأعلم أنني لو أقررت بما يقول الناس لقلت وأنا منه بريئة، ولا أقول فيما لم يكن حقاً. ولئن أنكرت، فلا تصدقني.

قالت: ثم أنسيتُ اسم يعقوب، فلم أذكره، فقلت: ولكني أقول كما قال العبد الصالح أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ، حتى تغشاه من الله ما كان يغشاه. قالت: أنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله عز وجل يبرئني ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحياً يتلى، ولساني كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى فيَّ بقرآن يقرأ به في المساجد، ولكنني كنت أرجو أن يرى النبي ﷺ في منامه شيئاً ببراءتي فلما سري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**يا عَائِشَةُ أَبْشِرِي، أَمَا والله فَقَدْ بَرَّأَكِ الله تَعَالَى**». فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله تعالى، هو الذي أنزل براءتي»[1].

وفي رواية قالت: «أحمد الله تعالى وأذمكم. قالت: فخرج رسول الله ﷺ، فصعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «**يا أيها النَّاسُ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي بِرَجُلٍ ما رَأَيْتُ عَلَيْهِ سُوءاً قَطُّ، وَلا دَخَلَ على أهْلِي إلاَّ وأنَا مَعَهُ**». فقام سعد بن معاذ، فقال: أخبرنا يا رسول الله ﷺ من هو؟ فإن يكن من الأوس نقتله، وإن يكن من الخزرج نرى فيه رأياً، أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً،

---

(١) حديث عائشة في قصة الأفك: أخرجه البخاري (٢٦٦١) و(٤١٤١) و(٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد: ٦/ ١٩٤ ـ ١٩٧ والبيهقي: ٧/ ٣٠٢.

Marfat.com

ولكن حملته الحمية، فقال: كلا ولكنها عداوتك للخزرج. قال: فاسْتَبَّا، فقام أسيد بن حُضير الأوسي، وقال: يا سعد بن عبادة، أتقول هذا؟ كلا والله ولكنك منافق تحب المنافقين، فاستبَّ حيٌ هذا وحيٌ هذا، فلما رأى رسول الله ﷺ اللغط، نزل وتركهم، وقد تلا عليهم ما أنزل الله تعالى عليه في أمر عائشة رضي الله عنها ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ يعني جماعة منكم، وهو ما قال عبد الله بن أبيّ وأصحابه: ما برئت عائشة من صفوان، وما بريء عنها صفوان، والعصبة عشرة، فما فوقها، كما قال الكلبي.

﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ﴾، يعني: عائشة ومن كان ينسبها، والنبي ﷺ وأبا بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنه لو لم يكن قولهم، لم يظهر فضل عائشة رضي الله عنها وإنما ظهر فضل عائشة بما صبرت على المحنة، فنزل بسببها سبع عشرة آية من القرآن من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ووجه آخر: ﴿بل هو خير لكم﴾ لأنه يؤخذ من حسناتهم ويوضع في ميزانه، يعني: عائشة وصفوان، وهذا خير له.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾، يعني: لكل واحد منهم العقوبة بمقدار ما شرع في ذلك الأمر، لأن بعضهم قد تكلم بذلك، وبعضهم ضحك، وبعضهم سكت، فكل واحد منهم ما اكتسب من الإثم بقدر ذلك.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾، يعني: الذي تكلم بالقذف ﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: الحد في الدنيا. فأقام النبي ﷺ الحدَّ، وكان حُميد يقرأ ﴿والَّذي تَوَلَّى كُبْرَهُ﴾ بضم الكاف، يعني: عظمه. قال أبو عبيد: والقراءة عندنا بالكسر، وإنما الكبر في النسب وفي الولاء.

﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، يعني: هلا إذ سمعتم قذف عائشة وصفوان. ﴿ظَنَّ المُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خيراً﴾، يعني: هلا ظننتم به كظنكم بأنفسكم؟ ويقال: ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم، كظن المؤمنين والمؤمنات بأمثالهم وبأهل دينهم خيراً، ويقال: يعني، هلا ظننتم كما ظن المؤمنون والمؤمنات؟ ﴿وَقَالُوا هَذا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾، يعني: هلا قلتم حين بلغكم هذا الكذب، هذا كذب بيّن، وعلمتم أن أمكم لا تفعل ذلك؟ ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، يعني: هلاَّ جاؤوا بها. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ في

Marfat.com

قولهم: اللفظ لفظ الماضي، والمراد به المستقبل، يعني: اطلبوا منهم أربعة شهداء، فإن لم يأتوا بها، فأقم عليهم الحد.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني: منته ونعمته عليكم. ﴿فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ يعني: أصابكم ﴿فِيمَا أَفَضْتم فيهِ﴾ يعني: فيما قلتم من القذف ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾في الدنيا والآخرة على وجه التقديم.

قوله عز وجل: ﴿إذْ تَلَقَّوْنَهُ بألْسِنَتِكُمْ﴾ أي يرويه بعضكم من بعض، ويتلقاه بعضكم من بعض. وقرىء ﴿إذ تلِقُونه﴾بكسر اللام وضم القاف والتخفيف، أي تكذبون بألسنتكم، ويقال: معناه تهرعون إلى الكذب. يقال: ولَق يلِقُ، إذا أسرع إلى الكذب. وروى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ: ﴿إذ تَلقونه بألسنتكم﴾بكسر اللام، وقال ابن أبي مليكة هي أعلم، لأن الآية نزلت فيها. وروي عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إذ تتلقونه﴾ وقال أبو عبيد: لولا قراءة أبي وكراهة الخلاف على الناس، ما كان أحد أولى أن يتبع فيها من عائشة، كما احتج ابن أبي مليكة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾من الفرية، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً﴾ يعني: تظنون عقوبته هينة. ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾في الوزر والعقوبة.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا﴾يعني: فهلاّ ﴿إذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: إذْ سمعتم القذف. ﴿قُلْتُم مَا يَكُونَ لَنَا﴾ يعني: لا ينبغي لنا ولا يجوز لنا ﴿أَنْ نَتكلَّم بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهتَانٌ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا بيان فضل عائشة رضي الله عنها حيث نزهها باللفظ الذي نزه به نفسه، وهو لفظ سبحان الله، ويقال: سبحان الله أن تكون امرأة النبي ﷺ زانية، ما كانت امرأة نبي زانية قط.

ثم وعظ الذين يخوضون في أمر عائشة، فقال عز وجل: ﴿يَعِظُكُم اللَّهُ﴾ يعني: ينهاكم الله عز وجل: ﴿أَنْ تَعُودُوا لمثله أبداً﴾ يعني: القذف ﴿إنْ كُنتُمْ مُؤمِنِينَ﴾يعني: مصدقين بالله وبرسوله عليه السلام وباليوم الآخر. ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: الأمر والنهي ﴿والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ونزل في عبد الله بن أبيّ وأصحابه. ﴿إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ﴾ يعني: يظهر الزنى ويفشو ويقال: يحبّون ما شاع لعائشة من الثناء السيىء ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: عائشة

Marfat.com

وصفوان رضي الله عنهما. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ الحد ﴿وَالآخِرَةِ﴾ النار إن لم يتوبوا. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أنهما لم يزنيا ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك منهما.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، وجوابه مضمر، يعني: لولا منُّ الله عليكم ونعمتُه لعاقبكم فيما قلتم في أمر عائشة وصفوان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، حيث لم يعجل بالعقوبة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾، يعني: لا تتبعوا تزيين الشيطان ووساوسه بقذف المؤمنين والمؤمنات، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾. وفي الآية مضمر، ومعناه: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان﴾ وقع في الفحشاء والمنكر. ﴿فَإِنَّهُ﴾، يعني: به الشيطان ﴿يأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ يعني: المعاصي ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. وروي عن أبي مجلز قال: ﴿خطوات الشيطان﴾، النذور في معصية الله تعالى.

ثمّ قال: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُمْ﴾، يعني: ما ظهر وما صلح منكم ﴿مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾، يعني: أحداً و﴿من﴾ صلة. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يزكّي﴾، يعني: يوفق للتوحيد ﴿مَن يَشَاءُ﴾، ويقال: ما زكى، أي ما وحّد ﴿ولكن الله يزكي﴾: أي يطهر. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَقالتهم، ﴿عليم﴾ بهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾، يعني: لا يحلفُ، وهو يفتعل من الألية وهي اليمين. قرأ أبو جعفر المدني، وزيد بن أسلم ﴿ولا يتألّ﴾ على معنى يتفعل، ويقال: معناه ولا يدع أن ينفق ويتصدق، وهو يتفعل من ألوتُ أني أصنع كذا. ويقال: ما ألوت جهدي، أي ما تركت طاقتي. وذلك أن أبا بكر كان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، فلما تكلم بما تكلم به، حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق عليه، فنزلت هذه الآية: ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ يعني: ﴿أولو الفضل﴾ في دين الله، لأنه كان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ. ﴿وَالسَّعَةِ﴾ يعني السعة في المال. وهذا من مناقب أبي بكر رضي الله عنه حيث سماه الله ﴿أولو الفضل﴾ في الإسلام. ويقال: ﴿ولا يأتل﴾ يعني: ولا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾، يعني: أولو الغنى والسعة في المال، والأول أشبه، لكي لا يكون حمل الكلام على التكرار. ﴿أَنْ يُؤْتُوا أولي القربى﴾، يعني: لا يحلف أن لا يعطي ولا ينفق على ﴿أُولِي الْقُرْبَى﴾ يعني: على ذوي القربى وهو مسطح ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾

Marfat.com

﴿وَالْمَهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وكان مسطح من فقراء المهاجرين ومن أقرباء أبي بكر[١].

﴿وَلْيَعْفُوا﴾، يقول: ليتركوا ﴿وليصفحوا﴾ يعني: وليتجاوزوا. ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فقال أبو بكر: أنا أحب أن يغفر الله لي، فقد تجاوزت عن قرابتي، ويقال: إن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «أَلاَ تُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكَ»؟ قال: نعم. فقرأ عليه السلام هذه الآية، وأمره بأن ينفق على مسطح[٢]. وفي الآية دليل: على أن من حلف على أمر فرأى الحنث أفضل منه، فله أن يحنث ويكفر عن يمينه، ويكون له ثلاثة أجور: أحدها: ائتماره بأمر الله تعالىوالثاني: أجر بره وذلك صلته في قرابته، والثالث: أجر التكفير. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يعني: ﴿غفور﴾ لذنوبكم ﴿رحيم﴾ بالمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، يعني: العفائف ﴿الْغَافِلاَتِ﴾، يعني: عن الزنى والفواحش. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، يعني: المصدقات بالألسن والقلوب، ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وأصل اللعن: هو الطرد والبعد، ويقال للشيطان: اللعين، لبعده عن الرحمة. وروي في الخبر: «أن يوم القيامة تكون هذه الأمة شاهدة على الأمم الأولين، إلا الذين تجري على لسانهم اللعنة». وروي عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلاً يلعن بعيره، فقال: «أَتَلْعَنُهَا وَتَرْكَبُهَا؟» فنزل عنها، ولم يركبها أحد[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: شديد يوم القيامة. وذكر أن حسان بن ثابت ذهب بصره في آخر عمره، فدخل يوماً على عائشة رضي الله عنها، فجلس عندها ساعة، ثم خرج، فقيل لها: إن الله تعالى قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. فقالت عائشة: أوليس هذا أعظم؟ يعني: ذهاب بصره. ويقال: ﴿عذاب عظيم﴾ إن لم يتوبوا. ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما تكلموا.

ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يعني: يوفيهم جزاء أعمالهم. قرأ حمزة والكسائي ﴿يشهد﴾ بالياء بلفظ المذكر، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث، لأن الفعل مقدم، فيجوز أن يذكر ويؤنث. وقرأ مجاهد ﴿الْحَقُّ﴾ بضم القاف، فيكون الحق نعت لله، وتكون قراءة

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ١٦٢ إلى ابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٢) عزاه السيوطي: ٦/ ١٦٢ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

Marfat.com

أبي بن كعب شاهدة له، كأنه يقول: يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم، وقراءة العامة: ﴿الحق﴾ بالنصب. وإنما يكون نصباً لنزع الخافض، يعني: يوفيهم الله ثواب دينهم بالحق، أي بالعدل. وجه أخر: أن يكون الحق نعتاً للدين، ويكون كقوله: ﴿حقاً﴾ثم يدخل عليه الألف واللام.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ يعني: عبادة الله هي الحق المبين. ويقال: ويعلمون أن ما قال الله عز وجل هو الحق.

ثم قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ قال الكلبي: الخبيثات من الكلام للخبيثين من الرجال، يعني: عبد الله بن أبي، ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾من الكلام على معنى التكرار والتأكيد. ويقال: ﴿الخبيثات﴾من النساء ﴿للخبيثين﴾من الرجال، مثل عبد الله بن أبي تكون له زوجة خبيثة زانية، وامرأة النبي ﷺ لا تكون زانية خبيثة. ويقال: ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ يعني: لا يتكلم بكلام الخبيث إلا الخبيث، ولا يليق إلا بالخبيث. ويقال: الكلمات الخبيثات إنما تليق بالخبيثين من الرجال.

ثم قال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ يعني: ﴿الطيبات﴾من الكلام ﴿للطيبين﴾من الرجال، ويقال ﴿الطيبات﴾من النساء ﴿للطيبين﴾من الرجال، ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾على معنى التكرار والتأكيد.

ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني: عائشة وصفوان مما يقولون من الفرية، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: رزقاً في الجنة كثيراً، ويقال: ﴿كريم﴾يعني: حسن. وذكر ابن عباس أنه دخل على عائشة رضي الله عنها في مرضها الذي ماتت فيه، فذكرت ما كان منها من الخروج في يوم الجمل وغيره، فقال لها ابن عباس: «أبشري، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والله تعالى ينجز وعده». فسري بذلك عنها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: بيوتاً ليست لكم ﴿حتى تستانسوا﴾ يعني: حتى تستأذنوا. وروي عن سعيد بن جبير: أن عبد الله بن عباس كان يقرأ: ﴿حتى تستاذنوا﴾ويقول: تستأذنوا خطأ من الكاتب. وروي عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أخطأ الكاتب في قوله: ﴿حتى تستانسوا﴾ وقراءة العامة ﴿حتى تستانسوا﴾ وقال القتبي: الاستئناس أن تعلم من في الدار، يقال: استأنست فما رأيت أحداً، أي استعلمت

Marfat.com

وتعرفت، ومنه. قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي علمتم. وروي، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: «يا رسول الله، إني أكون في بيتي على الحالة التي لاأحب أن يراني عليها أحد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، فكيف أصنع؟ قال: «ارجعي». فنزلت هذه الآية[١]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾. قال مجاهد: وهو التنحنح. ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، يعني: التسليم والاستئذان خير لكم من أن تدخلوا بغير إذن وسلام، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن التسليم والاستئذان خير لكم.

قال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾، يعني: إنْ لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم في الدخول، ﴿فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول، ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾، ولا تقيموا على أبواب الناس، فلعل لهم حوائج. ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾، يعني: الرجوع، أصلح لكم من القيام والقعود على أبواب الناس. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، يعني: إذا دخلتم بإذن أو بغير إذن. ثم رخص لهم في البيوت على طريق الناس مثل الرباطات والخانات، وذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، فكيف بالبيوت التي بين الشام ومكة والمدينة التي على ظهر الطريق ليس لها ساكن[٢]، فنزل قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، مثل الخانات وبيوت السوق. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾، يعني: منافع لكم؛ ويقال: الخربات التي يدخل فيها لقضاء الحوائج فيها منفعة لكم، ويقال: في الخانات منفعة لكم من الحر والبرد. ﴿واللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من التسليم والاستئذان.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ١٧١ إلى الفريابي وابن جرير من طريق عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار.

(٢) عزاه السيوطي: ٦/ ١٧٦ إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، يعني: يكفوا أبصارهم و﴿من﴾ صلة في الكلام. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل لهم. وقال أبو العالية الرياحي: كلما ذكر حفظ الفرج في القرآن، أراد به الحفظ عن الزنى، إلا هٰهنا، فإن المراد به هٰهنا: الستر عن النظر، يعني: قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم عن عورات النساء، ويحفظوا فروجهم عن أبصار الناس. وقال النبي ﷺ، لعليّ رضي الله عنه: «**يا عَلِيُّ لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ الأُولَى لَكَ وَالأُخْرَى عَلَيْكَ**». وروي عن عيسى ابن مريم أنه قال: «إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة». فذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ وأطهر من الريبة، يعني: غض البصر والحفظ خير لكم من ترك الحفظ والنظر. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، يعني: عالم بهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾، يعني: يحفظن أبصارهن عن الحرام، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: لا يظهرن مواضع زينتهن، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «وجهها وكفّيها»، وهكذا قال إبراهيم النخعي. وروي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «الوجه والكفان»، وهكذا قال الشعبي. وروى نافع، عن ابن عمر أنه قال: «الوجه والكفان»، وقال مجاهد: «الكحل والخضاب». وروى أبو صالح، عن ابن عباس: «الكحل والخاتم». وروي، عن ابن عباس في رواية أخرى: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ يعني: «فوق الثياب». وروى أبو إسحاق، عن ابن مسعود أنه قال: «ثيابها»، وروي عن ابن مسعود رواية أخرى أنه سئل عن قوله: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ «فتقنع عبد الله بن مسعود، وغطى وجهه وأبدى عن إحدى عينيه».

قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ يعني: ليرخين بخمرهنّ ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، يعني: على الصدر والنحر. قال ابن عباس: «وكنّ النساء قبل هذه الآية يبدين خمرهن من ورائهن، كما يصنع النبط، فلما نزلت هذه الآية، سدلن الخمر على الصدر والنحر».

ثم قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، يعني: لا يظهرن مواضع زينتهن، وهو الصدر والساق والساعد والرأس، لأن الصدر موضع الوشاح، والساق موضع الخلخال، والسّاعد موضع السوار، والرأس موضع الإكليل، فقد ذكر الزينة وأراد بها موضع الزينة. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، يعني: لأزواجهن، ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾؛ يعني: يجوز للآباء النظر إلى مواضع زينتهن، ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أو بني إخوانهن أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾. وقد ذكر في الآية بعض ذوي الرحم المحرم، فيكون فيه دليل على ما كان بمعناه، لأنه لم يذكر فيها الأعمام والأخوال، ولكن الآية إذا نزلت في شيء، فقد نزلت فيما هو في معناه، والأعمام والأخوال بمعنى الإخوة وبني الإخوة، لأنه ذو رحم محرم. وقد ذكر الأبناء في آية أخرى، وهي قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

والنظر إلى النساء على أربع مراتب: في وجه: يجوز النظر إلى جميع أعضائها، وهي

Marfat.com

النظر إلى زوجته وأمته. وفي وجه: يجوز النظر إلى الوجه والكفين، وهو النظر إلى المرأة التي لا يكون محرماً لها، ويأمن كل واحد منهما على نفسه، فلا بأس بالنظر عند الحاجة. وفي وجه: يجوز النظر إلى الصدر والساق والرأس والساعد، وهو النظر إلى امرأة ذي رحم أو ذات رحم محرم، مثل الأخت والأم والعمة والخالة وأولاد الأخ والأخت وامرأة الأب وامرأة الابن وأم المرأة سواء كان من قبل الرضاع أو من قبل النسب، وفي وجه: لا يجوز النظر إلى شيء، وهو أن يخاف أن يقع في الإثم إذا نظر.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: نساء أهل دينهن، ويكره للمرأة أن تظهر مواضع زينتها عند امرأة كتابية، لأنها تصف ذلك عند غيرها. ويقال: ﴿نسائهن﴾ يعني: العفائف، ولا ينبغي أن تنظر إليها المرأة الفاجرة، لأنها تصف ذلك عند الرجال.

ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، يعني: الجواري، فإنها نزلت في الإماء وقال سعيد بن المسيب: لا تغرنكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، يعني: الجواري، فإنها نزلت في الإماء. لا ينبغي للمرأة أن ينظر العبد إلى شعرها، ولا إلى شيء من محاسنها. وقال مجاهد أكره أن ينظر العبد إلى شعر مولاته، وكذلك قال عطاء وطاوس. وقال مجاهد: في بعض القراءات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، الذين لم يبلغوا الحلم. وروى سفيان، عن ليث قال: كان بعضهم يقرأ: ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ من الصغار وقال الشعبي: لا ينظر العبد إلى مولاته، ولا إلى شعرة منها.

ثم قال تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الإِرْبَةِ﴾، يعني: الخادم أو الأجير للمرأة، يعني: غير ذوي الحاجة مثل الشيخ الكبير ونحوه، وقال مجاهد: هو الذي لا إرب له، أي لا حاجة له بالنساء، مثل فلان، وكذا روى الشعبي عن علقمة، وقال الحسن والزهري: ﴿غير أولي الإربة﴾: هو الأحمق، وقال الضحاك: هو الأبله، ويقال: هو الذي طبعه طبع النساء، فلا يكون له شهوة الرجال. وسئلت عائشة رضي الله عنها هل يرى الخصي حسن المرأة؟ قالت: «لا، ولا كرامة، أليس هو رجل؟» قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿غير أولي الإربة﴾ بنصب الراء، وقرأ الباقون بالكسر. فمن قرأ بالكسر، يكون على النعت للتابعين، فيكون معناها: التابعين الذين هذه حالهم. ومن نصب، أراد به الاستثناء، والمعنى: إلا أولي الإربة.

ثم قال: ﴿مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، يعني: لم يطلعوا ولم يشتهوا الجماع.

ثم قال: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾، يعني: لا يضربن بإحدى أرجلهن على الأخرى ليقرع الخلخال بالخلخال، ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، يعني: ما يواري الثياب من زينتهن. وروى سفيان، عن السدي قال: «كانت المرأة تمر على المجلس وفي رجلها الخلخال، فإذا جازت بالقوم ضربت برجلها ليصوت خلخالها، فنزلت: ﴿ولا يضربن أرجلهن﴾ وقال بعض

Marfat.com

المفسرين: قد علم الله تعالى أن من النساء من تكون حمقاء، فتحرك رجلها ليعلم أن لها خلخالاً، فنهي النساء أن يفعلن، كما تفعل الحمقاء.

ثم قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً﴾، يعني: من جميع ما وقع التقصير من الأوامر والنواهي التي ذكر من أول السورة إلى هٰهنا، ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، يعني: أيها المصدقون بالله ورسوله. وفي هذه الآية دليل: أن الذنب لا يخرج العبد من الإيمان، لأنه أمر بالتوبة، والتوبة لا تكون إلا من الذنب، ولم يفصل بين الكبائر وغيرها، فقال بعدما أمر بالتوبة ﴿أيها المؤمنون﴾، سماهم مؤمنين بعد الذنب. ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي تنجون من العذاب. قرأ ابن عامر ﴿أيُّهُ﴾ بضم الهاء، وكذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾، ﴿وَأَيُّهُ الثَّقَلانِ﴾، وقرأ الباقون بالنصب.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَانكِحُوا الأيَامَى مِنكُمْ﴾، والأيامى: الرجال والنساء الذين لا أزواج لهم يقال: رجل أيم وامرأة أيم، كما يقال: رجل بكر وامرأة بكر، ويقال: الأيم من النساء خاصة كل امرأة لا زوج لها، فهي أيم. فأمر الأولياء بأن يزوجوا النساء، وأمر الموالي بأن يزوجوا العبيد والإماء إذا احتاجوا إلى ذلك، فقال للأولياء: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾، يعني: من قومكم ومن عشيرتكم. ثم قال للموالي: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾، يعني: من عبيدكم زوجوهم امرأة، وهذا أمر استحباب وليس بحتم، ﴿وَإِمَائِكُمْ﴾ يعني: زوجوا إماءكم لكيلا يقعن في الزنى. ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾، يعني: يرزقهم الله من فضله وسعته.

وقال بعضهم: هذا منصرف إلى الحرائر خاصة دون العبيد والإماء، وقال بعضهم: انصرف إلى جميع ما سبق ذكرهم من الأحرار والمماليك ﴿يُغنهم الله من فضله﴾ يعني: من رزقه، والغنى على وجهين: غني بالمال وهو أضعف الحالين، وغنى بالقناعة وهو أقوى الحالين. كما روي في الخبر: «الغنى غنى النفس». وروى هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أنْكِحُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَكُمْ بِالْمَالِ». وقال عمر رضي الله عنه: «ابتغوا الغنى في النكاح». ثم قرأ ﴿يغنهم الله من فضله﴾. وروي عن جعفر بن محمد أن رجلاً شكا إليه الفقر، فأمره أن يتزوج، فتزوج الرجل، ثم جاء فشكا إليه الفقر، «فأمره بأن يطلقها، فسأل عن ذلك، فقال: قلت لعله من

Marfat.com

أهل هذه الآية ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ الله مِن فَضْلِهِ﴾ . فلما لم يكن من أهلها، قلت لعله من أهل آية أخرى» ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[النساء: ١٣٠] .

ثم قال: ﴿وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، أي واسع الفضل، ويقال: ﴿واسع﴾ أي موسِّع في الرزق، يوسِّع على من يشاء ﴿عليم﴾ بقدر ما يحتاج إليه كل واحد منهم.

ثم أخبر أنه لا رخصة لمن لم يجد النكاح في الزنى، وأمر بالتعفف للذي لا امرأة له، فقال عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ ، يعني: ليحفظ نفسه عن الحرام الَّذِينَ ﴿لا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ ، يعني: سعة بالنكاح: المهر والنفقة ويقال: يعني، امرأة موافقة، ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ الله مِن فَضْلِهِ﴾ ؛ يعني: من رزقه بالنكاح. وقد قيل: إنَّ الصبر والطلب خير من الغارة والهرب.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ ـ أي يطلبون الكتابة(١) ـ- قال ابن عباس: وذلك أن مملوكاً لحُويطب يقال له صبيح، سأل مولاه أن يكاتبه، فأبى عليه، فنزلت الآية ﴿والذين يبتغون الكتاب﴾ يعني: يطلبون الكتابة(٢) ـ ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ ، يعني: حرفة. قال مجاهد وعطاء، يعني: مالاً. وروي، عن ابن سيرين، عن عبيدة السلماني قال: أدباً وصلاحاً، وقال إبراهيم: يعني: وفاءً وصدقاً. وروى يحيى بن أبي كثير، قال: إن النبي ﷺ قال: «﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ ، أي حِرْفَةً وَلا تُرْسِلُوهُمْ كَلاً عَلَى النَّاسِ». وقال ابن عباس: «الخير المال»، كقوله ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[البقرة: ١٨٠] يعني: مالاً، وقيل: ﴿خيراً﴾ ، يعني: صلاحاً في دينه، لكيلا يقع في الفساد بعد العتق، وهذا أمر استحباب لا إيجاب. وقال بعضهم: هو واجب. وروى معمر، عن قتادة قال: سأل سيرين أبو محمد بن سيرين، أنس بن مالك بأن يكاتبهُ، فأبى أنس بن مالك، فرفع عليه عمر الدرة وتلا هذه الآية: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ .

ثم قال: ﴿وَآتُوهُمْ مِن مَالِ الله الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ، يعني: أعطاكم، يعني: يحطّه من الكتاب شيئاً، ويقال: يعطى من بيت المال، حتى يؤدي كتابه. وقال عمر وعليّ رضي الله عنهما: «يترك له ربع الكتابة»، وقال قتادة: «يترك له العشر»، وقال إبراهيم: حثَّ المولى وغيره بأن يعينوه، هذا أمر استحباب وليس بواجب، وقال بعضهم: الحط واجب، والأول أصح.

ثمّ قال: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ﴾ ، يعني: لا تكرهوا الإماء على الزنى. وقال عكرمة: كانت جارية لعبد الله بن أبيّ، يقال لها: معاذة، وكان يكلفها الخراج عن الزنى، فنزل: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ يعني: تعففاً ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، يعني: لتطلبوا بكسبهن وولدهن المال. ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ ، يعني: يجبرهن على

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».
(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

الزنى، ﴿فَإِنَّ الله مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ﴾ يعني: من بعد إجبارهن على الزنى، ﴿غفورٌ﴾ لذنوبهنّ ﴿رحيم﴾ يعني: الإماء، لأنهن كن مكرهات على فعل الزنى.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أنزَلْنا إلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات ﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خلوا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، يعني: فيه خير من قبلكم من الأمم الماضية ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، لكي يعتبروا بما أصابهم.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿والله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: «هادي أهل السموات وأهل الأرض»، ويقال: هادي أهل السموات والأرض من يشاء، وبيّن ذلك في آخر الآية بقول: ﴿يَهْدِي لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ ويقال: معناه، الله منوِّرُ السموات والأرض، وقال ابن عباس: «بدليل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾، فأضاف النور إليه»، وبدليل ما قال في سياق الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ [النور: ٤٠] وروي عن أبي العالية أنه قال: معناه، الله منوِّر قلوب أهل السموات وقلوب أهل الأرض بالمعرفة والتوحيد، يعني: من كان أهلاً للإيمان. ويقال: الله منور السموات والأرض، أما السموات فنورها بالشمس والقمر والكواكب، وأما الأرض فنورها بالأنبياء والعلماء والعبّاد عليهم السلام.

ثم قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾، يعني: مثل نور المعرفة في قلب المؤمن، ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْبَاحٌ﴾؛ يعني: كمثل كوة فيها سراج، ويقال: المشكاة الكوة التي ليست بنافذة، وهي بلغة الحبشة. وروي في قراءة ابن مسعود ﴿مثلُ نُوره﴾ في قلب المؤمن، ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾. ثم وصف المصباح، فقال: ﴿المِصْبَاحُ فِي زُجَاجةٍ﴾، يعني: كمثل سراج في قنديل في كوة، فكذلك الإيمان والمعرفة في قلب المؤمن. والقلب في الصدر، والصدر في الجسد، فشبه القلب بالقنديل، والماء الذي في القنديل سبّه بالعلم، والدهن بالرفق وحسن المعاملة. وشبه الفتيلة باللسان، وشبه النار بالجوف في زجاجة. يعني: في قلب مضيء، ويقال: إنما شبّه القلب بالزجاجة، لأن ما في الزجاجة يُرى من خارجها، فكذلك ما في القلب يُرى من ظاهره، ويبيّن ذلك في أعضائه. ويقال: لأن الزجاجة تسرع الكسر بأدنى آفة تصيبها، فكذلك القلب بأدنى آفة تدخل فيه، فإنه يفسد.

ثمّ وصف الزُّجَاجَة، فقال: ﴿كَأنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، يعني: استنارة القنديل بصفاء الزجاجة

Marfat.com

﴿كأنّها كوكب دريّ﴾. قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية حفص ﴿كوكب دُرِي﴾ بضم الدال غير مهموز، وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال وبهمز الياء، وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر بالضم والهمز. فمن قرأ بضمّ الدّال فهو منسوب إلى الدر، يعني: يشبه في ضوئه الدر. وممن قرأ بكسر الدال يعني: الذي يدرأ عن نفسه، يعني: لا يكاد يقدر النظر إليه من شدة ضوئه.

ثم قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، يعني: السراج يوقد بدهن من شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿توقد﴾ بنصب التاء والواو والقاف بلفظ التأنيث، وأصله: تتوقد، فحذف إحدى التاءين. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي بضم التاء والتخفيف بلفظ التأنيث، على فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون ﴿يُوقد﴾ بالياء والضمّ بلفظ التذكير والتفسير على معنى فعل ما لم يسم فاعله. فمن قرأ بالتأنيث انصرف إلى الزجاجة، ومن قرأ بالتذكير انصرف إلى المصباح والسراج.

ثم وصف الشجرة المباركة، فقال: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، يعني: لم تكن بحال يصيبها الشمس في أول النهار ولا يصيبها في آخر النهار، ولكنها في مكان مطمئن تصيبها الشمس في أول النهار وآخره، فكذلك هذا المؤمن تكون كلمة الإخلاص في قلبه ثابتة مثل ثبوت الشجرة. فلا يكون مشبِّهاً، ولا معطِّلاً، ولا قدرياً، ولا جبرياً، ولكنه على الاستقامة. ويقال: ﴿لا شرقية ولا غربية﴾، يعني: تكون في وسط الأشجار حتى لا تحرقها الشمس، فكذلك هذا المؤمن بين أصحاب صلحاء، يثبتونه على الاستقامة. وروي عن الحسن أنه قال: ليس هذه من أشجار الدنيا، لكن من أشجار الآخرة، يعني: أن أشجار الدنيا لا تخلو من أن تكون شرقية أو غربية، ولكن هذه من أشجار الآخرة، فكذلك هذا المؤمن من أصاب المعرفة بتوفيق الله عز وجل.

وقال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يعني: أن الزيت في الزجاجة، يكاد أن يضيء، ولو لم يكن موقداً، فكذلك المؤمن يعرف الله تعالى ويخافُه ويطيعُه، وإن لم يكن له أحد يذكره ويأمره وينهاه.

ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، يعني: الزجاجة نور، والسراج نور، والزيت نور، فكذلك المؤمن اعتقاده نور، وقوله نور، وفعله نور. وقال أبو العالية: فهو يتقلب في خمسة من الأنوار: فكلامه نور، وعمله نور، ومخرجه نور، ومدخله نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، يعني: يوفق ويعطي من يشاء، يعني: الهدى. وللآية وجه آخر: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يعني: الله مرسل الرسل إلى أهل السموات وأهل الأرض ﴿مثل نوره﴾ يعني: مثل نور محمد ﷺ، فسماه نوراً كقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥]. ثم قال: ﴿مثل نوره كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، يعني: مثل نور محمد ﷺ في صلب

Marfat.com

أبيه، كالقنديل يضيء البيت المظلم فكما أن البيت يكون مضيئاً بالقنديل، فإذا أخذ منه القنديل يبقى البيت مظلما، فكذلك محمد ﷺ كان كالقنديل في صلب أبيه، فلما خرج بقي صلب أبيه مظلماً. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، يعني: نور محمد ﷺ من نور إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾، يعني: لم يكن إبراهيم عليه السلام يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً. ويقال: ﴿لا شرقية ولا غربية﴾، يعني محمداً ﷺ كان من العرب. ﴿يكادُ زيتها يضيء وإنْ لم تمسسه نار﴾ يعني: يضيء بطاعته وإن لم يكن نبياً ﴿نور على نور﴾ يعني محمداً ﷺ كان عمله نوراً وقوله نوراً ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ يعني: يعطي النبوة لمن يشاء. ولها وجه آخر ﴿الله نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، يعني: منزل القرآن، فنوَّر بالقرآن السموات والأرض. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني: مثل نور القرآن في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، يعني: قلب المؤمن بالقرآن، ﴿يُوقَدُ من شجرة مباركة﴾ يعني: ينزل القرآن من رب كريم ذي بركة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾، أي ليس القرآن بلغة السريانية ولا بلغة العبرانية، ولكنه عربي مبين ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، يعني: القرآن يضيء وألفاظه مهذبة، وإن لم تفهم معانيه ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾، يعني: يوفق ويُكْرِم بفهم القرآن من يشاء. ﴿ويضربُ الله الأمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛ يعني: الله عز وجل يبيِّن الأشباه للناس لكي يفهموا، ويقال: المثل كالمرآة يظهر عنده الحق ﴿والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من ضرب الأمثال.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ﴾، يعني: ما ذكر من القنديل المضيء هو في المساجد. ثم وصف المساجد، ويقال: هذا ابتداء القصة، وفيه معنى التقديم، يعني: أذن الله أن ترفع البيوت وهي المساجد ﴿أذن الله أن ترفع﴾، يعني: تبنى وتعظم، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني: توحيده. ويقال: بالأذان والإقامة. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ فيها، يعني: يصلي لله في المساجد ﴿بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾، يعني: عند الغداة والعشي. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يسبَح﴾ بنصب الباء على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

ثم قال عز وجل: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ يعني: هم رجال، وقرأ الباقون ﴿يسبِّح﴾ بكسر الباء، ويكون الفعل للرجال، يعني: يسبح فيها ﴿رجال لا تلهيهم﴾، يعني: لا يشغلهم البيع والشراء عن ذكر الله، يعني: عن طاعة الله، وعن مواقيت الصلاة. ﴿وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وإقَامِ الصَّلاةِ﴾، يعني: عن إتمام الصلاة.

قال بعضهم: نزلت الآية في أصحاب الصفة وأمثالهم الذين تركوا التجارة ولزموا

Marfat.com

المسجد، وقال بعضهم: هم الذين يتجرون ولا تشغلهم تجارة عن الصلوات في مواقيتها، وهذا أشبه، لأنه قال: ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، وأصحاب الصفة وأمثالهم لم يكن عليهم الزكاة، وقال الحسن: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾. أما أنهم كانوا يتجرون، ولم تكن تشغلهم تجارة عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. وروي عن ابن مسعود: «أنه رأى قوماً من أهل السوق سمعوا الأذان، فتركوا بياعاتهم، وقاموا إلى الصلاة، فقال: هؤلاء من الذين» ﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.

ثم قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ يعني: من اليوم الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ يعني: يتردد فيه القلوب والأبصار في الصدر، إن كان كافراً فإنه يبلغ الحناجر من الخوف، وإن كان تقياً مؤمناً تقول الملائكة ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيتبيَّن ما في قلبه في البصر، وإن كان حزناً فحزن، وإن كان سروراً فسرور، ويقال: ﴿تتقلب﴾ يعني: تتحول حالاً بعد حال، مرة يعرفون ومرة لا يعرفون، ويقال: ﴿تنقلب﴾ يعني: تتحول عما كانت عليه في الدنيا من الشك حين رأى بالمعاينة، فيتحول قلبه وبصره من الشك إلى اليقين.

ثم قال عز وجل: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: يجزيهم بإحسانهم، ويقال: يجزيهم أحسن وأفضل من أعمالهم وهو الجنة، ويقال: ويجزيهم أكثر من أعمالهم بكل حسنة عشرةً وأضعافاً مضاعفة، ويقال: يجزيه ويغفر له بأحسن أعماله ويبقى سائر أعماله فضلاً.

ثم قال: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يرزقهم من عطائه ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزقه ولايحاسبه، ويقال: يرزقه رزقاً لا يدرك حسابه، ويقال: ليس أحد يحاسبه فيما يُعطي، ويقال: ﴿بغير حساب﴾ أي من غير حساب، أي من حيث لا يحتسب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

ثمّ ضرب مثلاً لعمل الكفار فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ يعني: مثلُ أعمالهم الخبيثة في الآخرة ﴿كسراب بقيعة﴾ يعني: كمثل سراب في مفازة، ويقال: قاعٌ وقِيْعَة وقِيْعان، يعني: أرضاً مستوية كما يقال: صبي وصِبْيَة وصبيان. ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ يعني: العطشان إذا رأى السراب من بعيد يعني: يجده ماءً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ يعني: فإذا أتاه ليشرب منه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ مما طلبه وأراده، فكذلك الكافر يظن أنه يثاب في صدقته وعتقه وسائر أعماله، فإذا جاءه يوم القيامة وجده هباءً منثوراً ولا ثواب له. ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ﴾ أي يوم

Marfat.com

القيامة، عند عمله. وهذا كما قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، يعني: مصير الخلائق إليه ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾، يعني: يوفيه ثواب عمله ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾، فكأنه حاسب، ويقال: سريع الحفظ، ويقال: إذا حاسب فحسابه سريع، فيحاسبهم جميعاً، فيظن كل واحد منهم أنه يحاسبه خاصة، فلا يشغله حساب أحدهم عن الآخر، لأنه لا يحتاج إلى أخذ الحساب، ولا يجري فيه الغلط، ولا يلتبس عليه، ويحفظ على كل صاحب حسابٍ حسابه ليذكره، فهذا المثل لأعمال الكفار، والتي في ظاهرها طاعة، فأخبر أنه لا ثواب لهم بها.

ثم ضرب مثلاً آخر للكافر، فقال عز وجل: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ قال بعضهم: الألف زيادة، ومعناه: وكظلمات، يعني: ومثلهم أيضاً كظلمات. ويقال: ﴿أو﴾ للتخيير، يعني: إن شئت فاضرب لهم المثل بالسراب، وإن شئت بالظلمات، فقال: ﴿أو كظلمات﴾ ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ يعني: مثل الكفار كمثل مَنْ في الظلمات. فشبَّه قلب المؤمن بالقنديل، وشبَّه قلب الكافر بالظلمات، يعني: كمثل رجل يكون في بحر عميق في ليلٍ كثير الماء ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فوقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ﴾ يعني: يكون في ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة السحاب، فكذلك الكافر في ظلمة الكفر، وظلمة الجهل، وظلمة الجور والظلم. ويقال: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ يعني: المعاصي، ومن فوقه العداوة والحسد والبغضاء، و ﴿من فوقه سحاب﴾ يعني: الخذلان من الله تعالى.

ثم قال: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ كما قال للمؤمن: ﴿نور على نور﴾ فيكون للكافر ظلمة على ظلمة، قوله ظلمة، وعمله ظلمة، واعتقاده ظلمة، وقال أبو العالية: يتقلب في خمسٍ من الظُّلَم: كلامه ظلمة، وعلمُه ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وهو النار. ويقال: شبه قلب الكافر بالبحر العميق، وشبه أعضاءه بالأمواج الثلاث، طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فهذه الظلمات الثلاث تمنعه عن الحق.

ثم قال: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ يعني من شدة الظلمة، فإذا أبرز يده لم يكد يراها من شدة الظلمة، يعني: لم يكن شيء أقرب إليه من نفسه فلم ير نفسه، فكذلك الكافر لم ينظر إلى القبر ولم يتفكر في أمر نفسه أيضاً، كقوله عز وجل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ يعني: من لم يكرمه الله بالهدى فما له من مكرم بالمعرفة. قرأ ابن كثير ﴿ظلماتٍ﴾ بكسر التاء والتنوين، فكأنه يجعله بمنزلة قوله ﴿كظلمات﴾. وقرأ الباقون بالضم على معنى الابتداء. وقرىء في الشاذ: سحابُ ظلماتٍ، على معنى الإضافة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ

Marfat.com

وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يعني: يصلي له ويذكر له. ويقال: يخضع له. ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي من في السموات من الملائكة، ومن في الأرض من الخلق. ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ يعني: مفتوحة الأجنحة. وأصل الصّفّ: هو البسط، ولهذا يُسمى اللحم القديد صفيفاً لأنه يبسط ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعني: كل واحد من المسبحين يعلم كيف يصلي، وكيف يسبح، ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ يعني: والله يعلم عمل كل عامل، فيجازيهم بأعمالهم، إلا أنه لا يعجل بعقوبة المذنبين والكافرين، لأنه قادر عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمٰوتِ وَالأَرْضِ﴾ وهذا معنى قوله وَلِلَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ قال مجاهد في قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ الصلاة للإنسان، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه، ثم قال: ﴿وَإِلَى الله الْمَصِيرُ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً﴾ يعني: يسوق سحاباً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يعني: يجمع بينه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ يعني: قطعاً قطعاً، ويقال: يجعل بعضها فوق بعض. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ يعني: من وسط السحاب. قرأ ابن عباس: يخرج خِلاله وقراءة العامة ﴿من خلاله﴾، وهي جمع خلل. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ يعني: من جبال في السماء. قال مقاتل: روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «جبال السماء أكثر من جبال الأرض، فيها من برد» يعني: في الجبال من برد، ويقال: وهو الجبال من البرد، أي: ينزل من السماء من جبال البرد. وروي عن ابن عباس أنه قال: «البرد هو الثلج، وما رأيته». ويقال: الجبال عبارة عن الكثرة، يعني: ينزل الثلج مقدار الجبال، كما تقول: عند فلان جبال من مال، أي: مقدار جبال من كثرته. ويقال البرد هو الذي له صلابة كهيئة الجمد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: البرد، يصيب الزرع والإنسان إذا كان في مفازة. ﴿وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ فلا يصيبه، ويقال: ﴿يصيب به﴾، يعني: يعذب به من يشاء، ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ فلا يعذبه. ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ يعني: ضوء برقه. ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ يعني: من شدة نوره. قرأ أبو جعفر المدني: ﴿يُذْهِبُ﴾ بضمّ الياء وكسر الهاء، وقراءة العامة ﴿يَذْهَبُ﴾ بنصب الياء والهاء.

ثم قال: ﴿يُقَلِّبُ الله اللَّيلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني: يذهب الله بالليل ويجيء بالنهار، ويقال ينقص من النهار، ويزيد من الليل. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في تقلبهما، واختلاف ألوانهما ﴿لَعِبْرَةً﴾

Marfat.com

يعني: لآية ﴿لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ يعني: لذوي العقول والفهم في الدين. وسئل سعيد بن المسيب: أي العبادة أفضل؟ فقال: «التفكير في خلقه والتَّفقُّه في دينه». ويقال العِبَرُ بِالوِقَارِ، وَالْمُعْتَبِرُ بِمِثْقَالِ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ يعني: من ماء الذكر. قرأ حمزة والكسائي ﴿خالِقُ كلِّ دابةٍ﴾ على معنى الإضافة. وقرأ الباقون ﴿خلَقَ كلَّ دابة﴾ على معنى فعل الماضي، ويقال: هذا معطوف على ما سبق. ﴿يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فكأنَّه يقول: يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، كما أنه يخلق ما يشاء من الخلق ألواناً.

ثم وصف الخلق فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ مثل الحية ونحو ذلك. فإن قيل: لا يقال للدواب منهم، وأن هذا اللفظ يستعمل للعقلاء، قيل له: الدابة اسم عام، وهو يقع على ذي روح، فيقع ذلك على العقلاء وغيرهم، فإذا كان هذا اللفظ يقع على العقلاء وغيرهم فذكر بلفظ العقلاء، ولو قال: فمنه كان جائزاً، وينصرف إلى قوله ﴿كل﴾ ولكنه لم يقرأ، وإنما قال: ﴿يمشي﴾ على وَجْهِ المجاز، وإن كان حقيقته المشي بالرِّجل، لأنه جمعه مع الذي يمشي على وجه التبع.

ثم قال: ﴿وَمِنهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ مثل الإنسان ونحوه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ أي على أربع قوائم مثل الدوابّ وأشباهها، فإن قيل: إيش الحكمة في خلق كل شيء من الماء؟ قيل له: لأن الخلق من الماء أعجب، لأنه ليس شيء من الأشياء أشدّ طوعاً من الماء، لأن الإنسان لو أراد أن يمسكه بيده، أو أراد أن يبني عليه، أو يتخذ منه شيئاً لا يمكنه، والناس يتخذون من سائر الأشياء أنواع الأشياء، قيل: فالله تعالى أخبر أنه يخلق من الماء ألواناً من الخلق، وهو قادر على كل شيء.

ثم قال: ﴿يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ﴾ يعني: كما يشاء، وكيف يشاء ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخلق وخلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ أي قادر.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيَّنَاتٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وابن كثير في رواية أبي بكر: ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بنصب الياء في جميع القرآن، يعني: مفصَّلات. وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بكسر الياء، يعني: يبيِّن للناس دينهم. ﴿وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرشد من كان أهلاً لذلك ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: إلى دين مستقيم وهو دين الإسلام.

Marfat.com

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ قال مقاتل: نزلت في شأن بشر المنافق، وذلك أن رجلاً من اليهود كانت بينه وبين بشرٍ خصومة، وأن اليهودي دعا بشراً إلى النبيّ ﷺ، فقال بشر: نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإنَّ محمداً يحيف علينا فنزل: **﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾** وقال في رواية الكلبي: إنّ عثمان بن عفان اشترى من عليّ رضي الله عنهما أرضاً فَنَدَّمَهُ قومه، وقالوا: عمدت إلى أرض سَبْخَةٍ لا ينالها الماء فاشتريتها: رُدَّها عليه، فقال: قد ابتعتها منه، فقالوا: ردَّها، فلم يزالوا به حتى أتاه فقال: «اقبض مني أرضك فإني قد اشتريتها ولم أرضها لأنه لا ينالها الماء»، فقال له عليّ رضي الله عنه: «بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها مني، وأنت تعرفها وتعلم ما هي فلا أقبلها منك». قال: فدعا عليٌّ عثمان رضي الله عنهما أن يخاصمه إلى النبي ﷺ، فقال قوم عثمان: لا تخاصمه إلى النبيّ ﷺ، فإن خاصمته إليه قَضَى له عليك، وهو ابن عمه، وأكرم عليه منك، ثم اختصما إلى النبيّ ﷺ فقضى لعليّ على عثمان، فنزل في قوم عثمان رضي الله عنه. ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ يعني: صدقنا بالله وبالرسول، **﴿وأطعنا﴾ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾** أي يعرض عن طاعتهما طائفة منهم **﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** الإقرار **﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** يعني: بمصدقين.

قال بعضهم: هذا التفسير الذي ذكره الكلبي غير صحيح، لأن قوم عثمان كانوا مؤمنين من الذين هاجروا معه إلى المدينة، وقد ذكر أنهم ليسوا بمؤمنين. وقال بعضهم: هذا صحيح لأن في قوم عثمان بعضهم منافقين مبغضين لبني هاشم لعداوة كانت بينهم في الجاهلية، وكان عثمان يميل إلى قرابته، ولا يعرف نفاقهم. ويقال: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ يعني: ليس عملهم عمل المؤمنين المخلصين.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إلى حكم الله ورسوله ويقال: إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ **﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾** يعني: ليقضي بينهم بالقرآن **﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾** يعني: طائفة منهم معرضون عن طاعة الله ورسوله.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني: القضاء **﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾** يعني: خاضعين، مسرعين، طائعين. قال الزجاج: الإذعان الإسراع مع الطاعة.

Marfat.com

ثم قال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ يعني: شكوا في القرآن، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ يعني: يجور الله عليهم ورسوله. قال بعضهم: اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الإفهام، فكأن الله تعالى يعلمنا بأن في قلوبهم مرضاً، وأنهم شكوا ونافقوا، ويقال: في قلوبهم مرض، يعني: بل في قلوبهم مرض أم ﴿ارتابوا﴾ بل شكوا ونافقوا.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: هم الظالمون لا النبي ﷺ.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إلى كتاب الله ورسوله يعني: أمر رسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: ليقضي بينهم بالقرآن ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني: سمعنا قول النبي ﷺ وأطعنا أمره، فإن فعلوا ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: الناجين الفائزين.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يطع الله في الفرائض، ويطع الرسول في السنن. ﴿وَيَخْشَ اللهَ﴾ فيما مضى ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي الناجون. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيوحده، ﴿ورسوله﴾ فيصدقه بالرسالة، يخشى الله فيما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما بقي من عمره، ﴿فأولئك﴾ هم الفائزون، يعني: الناجين من العذاب آمنين عند سكرات الموت. قال: فلما نزلت هذه الآية أقبل عثمان إلى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله إن شئت لأخرجن من أرضي ولأدفعنها إليه، وحلف على ذلك، فمدحه الله تعالى بذلك فقال عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: حلفوا بالله، وإذا حلفوا بالله كان ذلك جهد اليمين. ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ من الأموال. قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ يعني: لا تحلفوا ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ يعني: هذه منكم طاعة معروفة وقال القتبي: ومعناه، هذه طاعة معروفة لا طاعة نفاق، فكأن فيه مضمراً، لأن بعض الناس منافقون، فأخبر أن هذه طاعة ليس فيها نفاق. ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: في السر والعلانية.

ثم قال عز وجل ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني: أطيعوا الله في الفرائض، وأطيعوا الرسول في السنن. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الطاعة لله والرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يعني: ما أمر بتبليغ الرسالة وليس عليه من وزركم شيء، ﴿وعليكم ما حملتم﴾ يعني:

Marfat.com

ما أمرتم والإثم عليكم إذا تركتم الإجابة ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ يعني: النبي ﷺ ﴿تَهْتَدُوا﴾ من الضلالة.

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ وفي الآية مضمر، فكأنه يقول: وإن تعصوه ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يعني: ليس عليه إلا التبليغ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن كفار مكة لما صدُّوا المسلمين عن مكة عام الحديبية، فقال المسلمون: لو فتح الله تعالى مكة ودخلناها آمنين، فنزل قوله ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لينزلنهم في أرض مكة ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: من قبل أمة محمد ﷺ من بني إسرائيل وغيرهم، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾ يعني: ليظهرنَّ لهم ﴿دِينَهُمُ﴾ الإسلام ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من كفار ﴿أَمْناً﴾ من الكفار. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ يعني: لكي يعبدوني ﴿لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ويقال: معناه يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، أي: يظهر عبادة الله تعالى، ويبطل الشرك. وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة زماناً نحواً من عشر سنين، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى إذا أمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، أمرهم الله تعالى بالقتال، فكانوا بها خائفين يُمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله نحن أبداً خائفون، هل يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَكُونُ إلاَّ يَسِيراً حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي المَلإِ العَظِيمِ مُحْتَبِياً لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ**»[1] ونزلت هذه الآية ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ الآية.

ويقال: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم ﴿ليستخلفنهم﴾ يعني: يكونوا خلفاء بعد رسول الله ﷺ واحداً بعد واحد.

ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني: بعد الأمن والتمكين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني العاصين. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿كما استُخلف﴾ بضم التاء وكسر اللام على فعل ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الباقون بنصب التاء واللام لأنه سبق ذكر الله تعالى. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ولَيُبدِلَنهم﴾ بالتخفيف. وقرأ الباقون بتشديد الدال، من بدَّل يبدِّل والأول من أبْدَلَ يُبْدِلُ.

---

(١) عزاه السيوطي: ٦/٢١٥ إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية.

Marfat.com

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: أقروا بها وأتموها. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأعطوها. ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد والطاعة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذبون.

قوله عز وجل: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: فائتين، ويقال سابقين أمر الله تعالى، ويقال: معناه لا تظن أنهم يهربون منا وأنهم يفوتون من عذابنا. ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: صاروا إليه وبئس المرجع. قرأ حمزة وابن عامر ﴿لا يحْسَبن﴾ بالياء ونصب السين، وقرأ الباقون بالتاء بلفظ المخاطبة وكسر السين.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: «وذلك أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له: مدلج، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهيرة ليدعوه، فانطلق الغلام ليدعوه، فوجده نائماً قد أغلق الباب، فأخبر الغلام أنه في هذا البيت، فقرع الباب على عمر فلم يستيقظ، فدخل فاستيقظ عمر، فجلس وانكشف منه شيء، فرآه الغلام، فعرف عمر أنه قد رآه، فقال عمر: وددت أن الله تعالى نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا هذه الساعة إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: العبيد والإماء والولائد ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يعني: وليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم، يعني: الاحتلام، وهم الأحرار من الغلمان ﴿ثَلاَثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنها ساعات غرة وغفلة. ثم بين الساعات الثلاث، فقال: ﴿مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ﴾ لأن ذلك وقت لبس الثياب ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ يعني: وقت القيلولة ﴿وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاءِ﴾ وذلك وقت النوم ﴿ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ يعني: ثلاث ساعات: وقت غرة وغفلة، وهن أوقات التجرد وظهور العورة.

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية واحدة ﴿ثَلاَثَ عورات﴾ بنصب الثاء، وقرأ الباقون بالضم، فمن قرأ بالنصب فمعناه: ليستأذنكم ثلاث عورات، أي ثلاث ساعات. ومن قرأ

Marfat.com

بالضم فمعناه: هي ثلاث عورات، فيكون خبراً عن الأوقات الثلاثة.

وروى عكرمة أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس عن قوله: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ فقال ابن عباس: «إنَّ الله تعالى سِتِّيرٌ يحب الستر وكان الناس لم يكن لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فاجأ الرجلَ ولدُه أو خادمه أو يتيم في حجره وهو مع أهله، فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا في ثلاث ساعات التي سمى الله تعالى، ثم جاء الله باليسر، وبسط الرزق عليهم، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي قد أمروا به، وقد قيل: إن فيه دليلاً أن ذلك الحكم إذا ثبت فإذا زال المعنى زال الحكم. وقال مجاهد: الاستئذان هو التنحنح.

ثم قال: ﴿لَيسَ عَلَيكُمْ وَلاَ عَلَيهِمْ﴾ أي ليس عليكم يا معشر المؤمنين، ولا عليهم، يعني: الخدم ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ يعني: ما ثمَّ بعد الساعات الثلاث ﴿طَوَّافُونَ عَلَيكُمْ﴾ يعني: يتقلبون فيكم ليلاً ونهاراً، يدخلون عليكم بغير استئذان في الخدمة ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: يدخل بعضكم على بعض بغير إذن ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: أمره ونهيه في الاستئذان ﴿وَالله عَلِيمٌ﴾ بصلاح الناس ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالاستئذان.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ﴾ يعني: الاحتلام ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الكبار من ولد الرجل وأقربائه، معناه: فليستأذنوا في كل وقت، كما استأذن الذين من قبلكم، يعني: من الرجال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي أمره ونهيه في كل وقت، ﴿والله عليم﴾ بِصَلاَحِكُم ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالاستئذان.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

قوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: الآيسات من الحيض. والقاعدة: المرأة التي قعدت عن الزوج وعن الحيض والولد، والجماعة: قواعد ﴿اللاتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ يعني: لا يحتجن إلى الزوج، ولا يرغب فيهنّ. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي مأثم ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ يعني جلبابهن ويخرجن بغير جلباب ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ والتبرج: إظهار الزينة، يعني: لا يؤذن بوضع الجلباب أن تُرى زينتُهن. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يعني: يتعففن، فلا يضعن الجلباب. ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع. ﴿وَالله سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن يعني: العجوز إذا وضعت جلبابها، وتبدي زينتها وتقول: من يرغب فيَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتها وبفعلها. ويقال: ﴿سميع عليم﴾ بجميع ما سبق في هذه السورة. ويقال: ﴿سميع عليم﴾ انصرف إلى ما بعده فيما يتحرجون عن الأكل.

Marfat.com

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لَيسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ قال في رواية الكلبي: كانت الأنصار يتنزهون عن الأكل مع الأعمى والمريض والأعرج، وقالوا: إن هؤلاء لا يقدرون أن يأكلوا مثل ما نأكل، فنزل ﴿لَيسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ يعني: ليس على من أكل مع الأعمى حَرَجٌ ﴿وَلاَ عَلَى﴾ من أكل مع ﴿الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى﴾ من أكل مع ﴿الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إذا أنصف في مؤاكلته. وقال بعضهم: هذا التفسير خطأ، وهو غير محتمل في اللغة، لأنه أضاف الحرج إلى الأعمى لا إلى من أكل معه، وقد قيل: إن هذا صحيح، لأنه ذكر الأعمى وأراد به الأكل مع الأعمى، كقوله ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حب العجل، قال: وكما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وللآية وجه آخر: وهو أن الأعمى كان يتحرج عن الأكل مع الناس مخافة أن يأكل أكثر منهم وهو لا يشعر، والأعرج أيضاً يقول: إني أحتاج لزمانتي أن يوسَّع لي في المجلس، فيكون عليهم مضرة، والمريض يقول: الناس يتأذون مني لمرضي، ويقذرونني فيفسد عليهم الطعام، فنزل ﴿لَيسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني: لا بأس بأن يأكلوا مع الناس، ولا مأثم عليهم. ولها وجه آخر: وهو ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان الناس يخرجون إلى الغزو، ويدفعون مفاتيحهم إلى الزَّمْنى والمرضى، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ممَّا في منازلنا. وكانوا يتورعون منازلهم حتى نزلت هذه الآية» وإلى هذا يذهب الزهري رضي الله عنه.

وذكر أيضاً: أن مالك بن زيد وكان صديقه الحارث بن عمرو خرج غازياً، وخلف مالكاً في أهله وماله وولده، فلما رجع الحارث رأى مالكاً متغيراً لونه، فقال: ما أصابك، فقال: لم يكن عندي شيء آكله، فجهدت من الشدة والجوع، ولم يكن يحل لي أن آكل شيئاً من مالك، فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم أو من بيوت عيالكم وأزواجكم. ويقال: ﴿من بيوتكم﴾ يعني: من بيوت بعضكم بعضاً، وذلك أنه لما نزل قوله: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ امتنع الناس من أن يأكل

Marfat.com

بعضهم من طعام بعض، فنزلت في ذلك: ﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: من بيوت بعضكم بعضاً. ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ﴾ يعني: لا بأس أن يأكل من بيت هؤلاء بغير إذنهم، لأنه يجري بينهما من الانبساط ما يغني عن الإذن.

ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: خزائنه يعني: عبيدكم وإماءكم، إذا كان له عبد مأذون، فلا بأس أن يأكل من ماله، لأن ذلك من مال مولاه. ويقال: يعني، حافظ البيوت، فلا بأس أن يأكل مقدار حاجته.

ثم قال: ﴿وَصَدِيقِكُمْ﴾ يعني: لا جناح على الصديق أن يأكل من بيت صديقه إذا كان بينهما انبساط. وروي عن قتادة أنه قال: «لو دخلت على صديق، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه كان حلالاً».

ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ يعني: جماعة أو متفرقين في بيت هؤلاء. ويقال: إنهم كانوا يمتنعون عن الأكل وحده، وذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] يعني: الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده، فرخص في هذه الآية، لأن الإنسان لا يمكنه أن يطلب في كل مرة أحداً يأكل معه. وروى معمر عن قتادة قال: «نزلت الآية في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده، وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكل معه، فنزل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾.

ثم قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ قال مقاتل: يعني: دخلتم بيوت المسلمين ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] يعني: بعضكم بعضاً. وروى عمرو بن دينار، عن ابن عباس: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ قال: «هو المسجد ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ يعني: فقولوا السلام علينا من ربنا» ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللهِ﴾ يعني: السلام ﴿مُبَارَكَةً﴾ بالأجر ﴿طَيِّبَةً﴾ بالمغفرة. وقال إبراهيم النخعي: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ إذا كان في البيت إنسان يقول: السلام عليكم، وإذا لم يكن فيه أحد يقول: السلام علينا من ربنا، وعلى عباد الله الصالحين، وهكذا قال مجاهد. وقال الحسن والكلبي: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض. وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أَبْخَلُ النَّاسِ الَّذِي يَبْخَلُ بِالسَّلامِ» ويقال: إنَّ معنى السلام: إذا قال السلام عليكم يعني، السلامة لكم مني، فكأنه آمنهم من شر نفسه. ويقال: يعني: حفظكم الله من الآفات. ويقال: السلام هو الله تعالى، فكأنه يقول: الله حفيظ عليكم، ومطلع على ضمائركم، فإن كنتم في خير فزيدوا، وإن كنتم في شر فانزجروا ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللهِ﴾ وأصل التحية: هو البقاء والحياة، كقوله: حَيَّاكَ الله. وإنما صار نصباً على المصدر.

Marfat.com

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: أمره ونهيه في أمر الطعام والشراب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتفهموا وتعملوا به.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: المصدقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورَسُو ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ على أمرِ جامع﴾ يعني: مع النبي ﷺ على أمرِ جمعهم لتدبيرٍ في أمر جهاد، أو في أمر من أمور الله تعالى فيه طاعة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يعني: لم يفارقوا رسول الله ﷺ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

وذلك أن النبي ﷺ كان يجمعهم يوم الجمعة فيستشيرهم في أمر الغزو، فكان يثقل على بعضهم المقام، فيخرجون بغير إذنه. وقال بعضهم: نزلت في يوم الخندق، وكان بعض الناس يرجعون إلى منازلهم بغير إذن النبي ﷺ، وتركوه وأصحابه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم بأن لا يرجعوا إلا بإذنه عليه السلام، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو لا ينبغي لأحد أن يرجع بغير إذنه.

وفي الآية بيان حفظ الأدب، بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين ينبغي أن لا يرجعوا إلا بإذنه، وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو، لا ينبغي لأحد أن يرجع إلا بإذنه، ولا يخالف أمر السرية. وروي عن مكحول أنه سئل عن هذه الآية وعنده عطاء، قال: «هذا في الجمعة، وفي الزحف، وفي كل أمر جامع».

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونك أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ﴾ وليسوا بمنافقين. وكان المؤمنون بعد نزول هذه الآية لم يرجعوا حتى يستأذنوا، وأما المنافقون فيرجعون بغير إذنه.

ثم قال: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ يعني: لبعض أمورهم وحوائجهم ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ولا تأذن لمن شئت، لأن بعض المنافقين لم يكن لهم في الرجوع حاجة، فإن أرادوا أن يرجعوا فلا تأذنْ لهم، وائذنْ للمؤمنين. وقال مقاتل: نزلت في شأن عثمان حين استأذن في غزوة تبوك بالرجوع إلى أهله، فأذن له. ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الله﴾ أي فيما استأذنوك من الرجوع بغير حاجة لهم. ﴿إِنَّ الله غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ به.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: لا تدعوا محمداً باسمه ﷺ ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ ولكن وقِّروه وعظموه، وقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله، ويا أبا القاسم. وفي الآية بيان توقير معلم الخير، لأن رسول الله ﷺ كان معلِّم الخير، فأمر الله عز وجل بتوقيره وتعظيمه، وفيه معرفة حق الأستاذ، وفيه معرفة أهل الفضل.

ثم ذكر المنافقين فقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ﴾ يعني: يرى الله ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ يعني: يخرجون من المسجد ﴿لِوَاذاً﴾ يلوذ بعضهم ببعض. وذلك أن المنافقين كان يشقُّ عليهم المقام هناك يوم الجمعة وغيره، فيتسللون من بين القوم، ويلوذ الرجل بالرجل، أو بالسارية لئلا يراه النبي ﷺ حتى يخرج من المسجد. يقال: لاذ يلوذ إذا عاذ وامتنع بشيء. ويقال: معنى (لِوَاذاً) هنا معنى الخلاف، يعني: يخالفون خلافاً، فخوَّفهم الله تعالى عقوبته فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعني: عن أمر الله تعالى. ويقال: عن أمر رسول الله عليه السلام. ويقال: ﴿عن﴾ زيادة في الكلام للصلة. ومعناه: يخالفون أمره إلى غير ما أمرهم به ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: الكفر، لأن أمر رسول الله ﷺ واجب، فمن تركه على وجه الجحود كفر. ويقال: ﴿فتنة﴾ يعني: بلية في الدنيا. ويقال: فساد في القلب. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: يصيبهم عذاباً عظيماً في الآخرة. ويقال: القتل بالسيف. ويقال: يجعل حلاوة الكفر في قلبه. وقوله: ﴿أو﴾ على معنى الإفهام، لا على وجه الشك والتخيير.

ثم قال عز وجل: ﴿أَلاَ إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلق عبيده وإماؤه وفي مملكته ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الاستقامة في الإيمان، والنفاق وغير ذلك. ويقال: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ من خير أو شر، فيجازيكم بذلك ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير أو شر، فيجازيهم بذلك. ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالهم وأقوالهم، وبما في أنفسهم. وروي عن الأعمش، عن سفيان بن سلمة، قال: شهدت ابن عباس ولي الموسم، وقرأ سورة النور على المنبر وفسَّرها، فلو سمعتها الروم لأسلمت. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: «تعلموا سورة براءة، وَعَلِّموا نساءكم سورة النور»، والله أعلم ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1] ـ.

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

سورة الفرقان
مكية وهي سبعون وسبع آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه يعني: تعالى وتعظّم. ويقال: تفاعل من البركة، وهذه لفظة مخصوصة، ولا يقال: يتبارك، كما يقال يتعالى. ولا يقال: مُتبارك، كما يقال متعالٍ. ويقال: ﴿تبارك﴾ أي ذو بركة. والبركة: هي كثرة الخير. ويقال: أصله من بروك الإبل، يقال للواحد بَارِك، وللجماعة برَّك. وكان الإنسان إذا كان له إبل كثيرة وقد برّكهنّ على الباب يقولون: فلان ذو بركة، ويقولون للذي كان له إبل تحمل إليه الأموال من بلاد أُخر: فلان ذو بركة، فصار ذلك أصلاً، حتى أنه لو كان له مال سوى الإبل لا يقال فلان ذو بركة. قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي ذو البركة. ويقال: أصله من الدوام. ويقال: بارك في موضوع إذا دام فيه، ويقال: معناه البركة في اسمه، وفي الذي ذكر عليه اسمه.

ثم قال: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ﴾ يعني: أنزل جبريل عليه السلام بالقرآن، والفرقان هو المخرج من الشبهات ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ يعني: ليكون القرآن نذيراً للإنس والجن. ويقال: يعني النبي ﷺ، ويقال: يعني الله تبارك وتعالى ﴿للعالمين﴾ وأراد ها هنا جميع الخلق، وقد يذكر العام ويراد به الخاص من الناس، كقوله عزّ وجل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧ و١٢٢] أي: على عالمي زمانهم، ويذكر ويراد به جميع الخلائق، كقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خزائن السموات والأرض. ويقال: له نفاذ الأمر في السموات والأرض. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ ليورثه ملكه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فينازعه في عظمته. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ينبغي أن يخلقهم. ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ يعني: بين الصلاح في كل شيء، وجعله مقدراً معلوماً. ويقال: كل شي خلقه من الخلق فقدره تقديراً، أي: قدر لكل ذكر وأنثى.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني: تركوا عبادة الله الذي خلق هذه الأشياء، وعبدوا غيره. ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ يعني: عبدوا شيئاً لا يقدر أن يخلق ذباباً، ولا غيره ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يتخذونها بأيديهم ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَراً﴾ أي: لا تقدر الآلهة أن تمتنع ممن أراد بها سوءاً ﴿وَلاَ نَفْعاً﴾ أي لا تقدر أن تسوق إلى نفسها خيراً. ويقال: لا يملكون دفع مضرة، ولا جر منفعة. ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً﴾ يعني: لا يقدرون أن يميتوا أحداً ﴿وَلاَ حَيَاةً﴾ أي: ولا يحيون أحداً ﴿وَلاَ نُشُوراً﴾ يعني: بعث الأموات. ويقال: ﴿ولا يملكون موتاً﴾ يعني. الموت الذي كان قبل أن يخلقوا، ﴿ولا حياة﴾ يعني: أن يزيدوا في الأجل، ﴿ولا نشوراً﴾ بعد الموت. ويقال: ﴿وَلاَ حَيَاةً﴾ يعني: أن يبقوا أحداً ﴿وَلاَ نُشُوراً﴾ يعني: أن يحيوه بعد الموت. وإنما ذكر الأصنام بلفظ العقلاء، لأن الكفار يجعلونهم بمنزلة العقلاء، فخاطبهم بلغتهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ﴾ يعني: ما القرآن إلا كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ يعني: كذباً اختلقه من ذات نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ آخَرُونَ﴾ يعني: جبراً ويساراً ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ وقال بعضهم هذا قول الكفار، يعني: إنّ الذين أعانوه قد جاءوا ظلماً وزوراً. وقال بعضهم: هذا قول الله تعالى رداً على الكفار بقولهم هذا ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ يعني: شركاً وكذباً ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يعني: أباطيلهم اكتتبها، يعني: كتبها من جبر ويسار يعني: أساطير الأولين. ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ يعني: تقرأ وتملى عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني: تقرأ عليه غدوة وعشية.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنزَلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: يعلم السِّرَّ والعلانية، ومعناه: لو كان هذا القول من ذات نفسه لعلمه الله تعالى، وإذا علمه لعاقبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤] ثم قال ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فكأنه يقول: ارجعوا وتوبوا، فإنه كان ﴿غفوراً﴾ لمن تاب، ﴿رحيماً﴾ بالمؤمنين.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يأكُلُ الطَّعَامَ﴾ مثل ما نأكل ﴿وَيَمْشِي في الأسْوَاقِ﴾ يعني: يتردد في الطريق ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ يعني: معيناً يخبره بما يراد به من الشر ﴿أَوْ يُلْقَى إليهِ كَنزٌ﴾ يعني: يعطى له كنز ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ يعني: بستاناً ﴿يأكُلُ مِنهَا﴾ وذلك أن كفار قريش اجتمعوا في بيت، فبعثوا إلى النبي ﷺ فأتاهم، فقال له العاص بن وائل السهمي وقريش معه: قد تعلم يا محمد أن لا بلاد أضيق ساحةً من بلادنا، ولا أقل أنهاراً ولا زرعاً، ولا أشدَّ عيشاً، فادع ربك أن يسيِّر عنا هذه الجبال، حتى تنفسح لنا بلادنا، ثم يفجر لنا فيها أنهاراً، حتى نعرف فضلك عند ذلك، ونراك تمشي في الأسواق معنا تبتغي من يسير العيش، فاسأل ربك أن يجعل لك قصوراً أو جناناً، وليبعث معك ملكاً يصدقك، فنزل حكاية عن قولهم: ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأكُلُ مِنهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿نأكل منها﴾ بالنون، وقرأ الباقون بالياء.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ يعني: ما تطيعون يا أصحاب محمد ﴿إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ يعني: مغلوب العقل. ويقال: ﴿مسحوراً﴾ يعني: مخلوقاً، لأن الذي تكون مخلوقاً يكون حياته بالمعالجة بالأكل والشرب، فيسمى مسحوراً. ويقال: مسحوراً أي: سحر به.

قوله عز وجل: ﴿انظُر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ يعني: انظر يا محمد كيف وصفوا لك الأشباه، إلى ماذا شبهك قومك بساحر وكاهن وكذاب ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الهدى، ويقال: ذهبت حيلتهم، وأخطؤوا في المقالة. ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ يعني: لا يجدون حيلة ولا حجة على ما قالوا لك، ولا مخرجاً لتناقض كلامهم حيث قالوا مرة: مجنون، ومرة: ساحر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى، وقد ذكرناه ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَٰلِكَ﴾ يعني: خيراً مما يقول الكفار في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً﴾ في الجنة، ويقال: في الدنيا إن شاء أعطاك. وروى سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت قال: عن خيثمة قال: «قيل للنبيِّ ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعط من قبلك أحداً، ولا نعطي من بعدك أحداً، ولا ينقص ذلك مما عند الله شيئاً. وإن شئت جمعناها لك في الآخرة. قال ﷺ: «بَلْ اجمَعها لِي في الآخِرَة» فنزل ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ

Marfat.com

﴿ذَلِكَ﴾ الآية قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بضم اللام على معنى خبر الابتداء، وقرأ الباقون بالجزم لأنه جواب الشرط.

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ معناه: ولكن كذبوا بالساعة يعني: بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ يعني: هيأنا لمن كذب بالقيامة وقوداً، وهُوَ نار جهنم ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ يعني: جهنم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: من مسيرة خمسمائة سنة. ويقال: من مسيرة مائة سنة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يعني: منها ﴿تَغَيُّظاً﴾ على الكفار ﴿وَزَفِيراً﴾ يعني: صوتاً كصوت الحمار. وقال قوم: معناه يسمعون منها تغيظ المعذبين وزفيرهم، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦] وقال عامة المفسرين: التغيظ والزفير يسمع من النار، ألا ترى أنه قال: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾، ولم يقل: سمعوا منها، ولا فيها. وقال في آية أخرى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] وروي في الخبر: «أن جهنم تزفر زفرة لا يبقى ملك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل إلا خرَّ على وجهه ترعد فرائصهم حتى إن إبراهيم الخليل عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: يا رب يا ربِّ لا أسألك إلا نفسي».

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ يعني: فيها ﴿مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ يعني: يضيق عليهم المكان كتضييق الزُّجِّ من الرمح ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ يعني: مسلسلين في القيود، موثقين في الحديد، قرنوا مع الشياطين ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ فعند ذلك دعوا بالويل، يعني: يقولون واهلاكاه، فتقول لهم الخزنة: ﴿لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ يعني: ادعوا ويلاً كثيراً دائماً.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾

قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: هذا الذي وصف من العذاب خير ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ فإن قيل: كيف يقال خير وليس في النار خير؟ قيل له: قد يقال على وجه المجاز، وإن لم يكن فيه خير، والعرب تقول: العافية خير من البلاء، وإنما خاطبهم بما يتعارفون في كلامهم ﴿الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني: الذين يتقون الشرك والكبائر. ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمصيراً﴾ يعني: جزاء بأعمالهم الحسنة ومرجعاً إليها.

ثم قال عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ﴾ يعني: يحبون ﴿خالدينَ﴾ أي: دائمين في الجنة ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً﴾ منه في الدنيا ﴿مَسْؤُولاً﴾ يسأله المتقون. ويقال ﴿مسؤولاً﴾ يسأل لهم الملائكة عليهم السلام، وهو قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [غافر: ٨] ويقال: وعدواً على لسان رسلهم، وقد سألوا الله عز وجل ذلك، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ ويقال: وعداً لا خلف فيه لمن ...

Marfat.com

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ يعني: نجمعهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يعني: ونحشر ما يعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام. ويقال: المسيح وعزير. ويقال: الملائكة عليهم السلام ﴿فيقولُ أأنتُم أَضْلَلْتُمْ﴾ يعني: أأنتم أمرتم ﴿عِبَادِي هَؤُلاءِ﴾ أن يعبدوكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ يعني: أم هم أخطؤوا الطريق، فتبرأت الملائكة والأصنام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ أي: ما يجوز لنا ﴿أَنْ نتَّخذ مِنْ دُونك مِنْ أَوْلِياءَ﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر المدني أن ﴿نُتَّخَذَ﴾ بضم النون ونصب الخاء، ومعناه: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك إلهاً فتعبُد. وقراءة العامة: بنصب النون وكسر الخاء، يعني: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فيعبدوننا. ويقال: معناه ما كان فينا روح نأمرهم بطاعتنا. ويقال: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فنعبدهم، فكيف نأمر غيرنا بعبادتنا؟ كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ [سبأ: ٤١] قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص: ﴿ويوم يحشرهم﴾ بالياء. ﴿فيقول﴾ بالياء وقرأ الباقون: الأول بالنون والثاني بالياء.

ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أن هذا كان بكرمك وفضلك، لما عصوك لم تمنع عنهم الدنيا حتى اغتروا بذلك، وظنوا أنهم على الحق، حيث لم يصبهم بلاء ولم تمنع منهم النعمة، فذلك قوله: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ﴾ يعني: تركتهم في الدنيا يتمتعون، وأجلتهم وآباءهم في المتاع والسعة. ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ يعني: تركوا التوحيد والإيمان بالقرآن. ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي هلكى فاسدين. وأصله: الكساد يقال: بارت السوق إذا كسدت. وقال الكلبي: ﴿بوراً﴾ يعني: هالكين، فاسدة قلوبهم، غير متقين ولا محسنين.

يقول الله تعالى لعبدة الأوثان: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ يعني: الأصنام، ويقال: الملائكة ﴿فَمَا يستَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾ يعني: لا يستطيع الكفار انصرافاً إلى غير حجتهم التي تكلموا بها. ويقال: ﴿لا يستطيعون صرفاً﴾ أي: انصرافاً عن حجتهم ﴿ولا نصراً﴾ يعني: لا ينتصرون من آلهتهم حين كذبتهم. ويقال: لا تقدر الأصنام ولا الملائكة صرف العذاب عنهم ﴿ولا نصراً﴾ يعني: لا يمنعونهم منه. ويقال: الصرف الحيلة. ويقال: لا يقبل منهم فدية أن يصرفوا عن أنفسهم بالفدية.

Marfat.com

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿فما تستطيعون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، يعني يقال لهم: لا تستطيعون صرف ذلك. وقرأ الباقون بالياء ومعناه: أن الله تعالى يقول للنبي ﷺ: فما يستطيعون صرف ذلك عنهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنكُمْ﴾ يعني: يشرك بالله في الدنيا. ويقال: يكفر بمحمد ﷺ والقرآن ﴿نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ في الآخرة، وهو عذاب النار.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواباً لقولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ﴿إلاَّ إِنَّهُمْ لَيأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ يعني: كانت الرسل من الآدميين، ولم يكونوا من الملائكة عليهم السلام.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ يقول: ابتلينا بعضكم ببعض، الفقير بالغني، والضعيف بالقوي. وذلك أن الشريف إذا رأى الوضيع قد أسلم أنف عن الإسلام وقال: أأسلم، فأكون مثل هذا، فثبت على دينه حميَّةً. يقول الله تعالى للشريف: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أن تكونوا شرعاً، سواء في الدين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ يعني: عالماً بمن يؤمن، وبمن لا يؤمن، ويقال: ﴿جعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ يعني: بلية الغنيِّ للفقير، والقوي للضعيف. لأن ضعفاء المسلمين وفقراءهم، إذا رأوا الكفار في السعة والغنى، يتأذون منهم، وكان في ذلك بلية لهم، فقال تعالى: ﴿أتصبرون﴾ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الأمر، يعني: اصبروا كقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٤] يعني: توبوا إلى الله. ويقال: أهل النعم بلية لأهل الشدة، لأن أهل الشدة إذا رأوا أهل النعمة تنغّص عيشهم، فأمرهم الله تعالى بالصبر.

وذكر عن بعض المتقدمين: أنه كان إذا رأى غنياً من الأغنياء يقول: نصبر يا رب، يريد: جواباً لقوله: ﴿أتصبرون﴾ ثم قال: ﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعني: عالماً بمن يصلح له الغنى والفقر ويقال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ يعني: عالماً بثواب الصابرين.

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا﴾ يعني: لا يخافون البعث بعد الموت. ويقال: لا يرجون الجنة والمغفرة، وهم كفار أهل مكة ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ يعني: هلا

Marfat.com

أنزل علينا الملائكة، فيخبروننا بأنك رسول الله إلينا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بأنك نبيّ مرسل. قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: تعظموا في أنفسهم، وأعرضوا عن الإيمان. ويقال: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ يعني: وضعوا لأنفسهم قدراً ومنزلة، حيث أرادوا لأنفسهم الرسل من الملائكة عليهم السلام ورؤية الرب عز وجل: ﴿وعتوا عتوّاً كبيراً﴾ يعني: أبوا إباءً كثيراً. ويقال: اجترؤوا على الله اجتراء كثيراً. وقال أهل اللغة: العاتي الذي لا ينفعه الوعظ والنصيحة.

ثم أخبر متى يرون الملائكة فقال عز وجل: ﴿يوم يرون الملائكة﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: للمشركين، وتكون البشارة للمؤمنين.

ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ حِجراً مَحْجُوراً﴾ يعني: تقول لهم الملائكة: حراماً محرماً، أنْ تكون لهم البشرى يومئذ بما يبشر به المتقون، وإنما قيل للحرام حجراً، لأنه حجر عليه.

وقال مجاهد: «تقول الملائكة: حراماً محرماً أن يدخلوا الجنة». وقال الحسن وقتادة: هي كلمة كانت العرب تقولها. كان الرجل إذا نزلت به الشدة قال: حجراً محجوراً، أي: حراماً محرماً. ويقال: إن قريشاً كانوا إذا استقبلهم أحد كانوا يقولون له: حاجورا حاجورا، حتى يعرف أنهم من الحرم، فلا يضرونهم، وأخبر أنهم كانوا يقولون ذلك ولا ينفعهم.

ويقال: إن المشركين في الشهر الحرام إذا استقبلهم أحد يقولون: حجراً محجوراً، ويريدون أن يذكروه أنه في الشهر الحرام، وذلك القول لاينفعهم يوم القيامة. وقرأ الحسن: ﴿حُجراً﴾ بضم الحاء، وقراءة العامة: بكسر الحاء.

ثمّ قال عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ قال الكلبي: يعني عمدنا إلى ما عملوا من عمل لغير الله تعالى. ويقال: قصدنا إلى ما عملوا من عمل، ومعناه: نظرنا في أعمالهم ولم نجد فيها خيراً، فأبطلناها، ولم نجعل لها ثواباً، فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ قال الضحاك: هو الغبار ما لا يستطاع جمعه، ولا أخذه بيد. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الهباء المنثور الذي تراه في شعاع الشمس في الكوة»، وهذا قول عكرمة والكلبي. وقال قتادة: هو ما ذرت الريح من حطام الشجر. ويقال: الغبار الذي يسطع من حوافر الدواب.

ثم قال عز وجل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً﴾ يعني: أفضل منزلاً ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ قال: كانوا يرون أنه يُفرغ من حساب الناس إلى مقدار نصف النهار، فيقيل هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار.

وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا: «لا ينتصف النهار من ذلك اليوم حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»، عنيا بذلك: يوم القيامة، ولأن مقدار ذلك اليوم خمسون ألف سنة، وإنما أراد بتلك القيلولة القرار لا النوم، لأن لا يكون في الجنة نوم، ولا في النار نوم.

Marfat.com

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿تشقَّق﴾ بتشديد الشين، لأن أصله يتشقق، فأدغم إحدى التاءين في الشين. وقرأ الباقون بالتخفيف، وهذا مثل الإختلاف في قوله ﴿تسألون﴾ فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ يعني: عن الغمام، والغمام: هو شيء مثل السحاب الأبيض فوق سبع سموات، كما روي في الخبر: «أن دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام»، يعني: تتشقّ السماء، ويظهر بالغمام ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾. قرأ ابن كثير ﴿ونُنَزِّل الملائكةَ﴾ بنونين ونصب الهاء، ومعناه: أن الله تعالى يقول: ﴿ننزل الملائكة﴾ وقرأ الباقون ﴿ونزِّل الملائكة﴾ على ما فعل ما لم يسم فاعله، معناه: أن الله تعالى ينزل ملائكة السموات.

وروي في الخبر: «أنه تشقق سماء الدنيا فينزل ملائكة سماء الدنيا، بمثلَيْ من في الأرض من الجن والإنس. ويقول لهم الخلائق: أفيكم ربنا؟ يعني: هل جاء أمر ربنا بالحساب؟ فيقولون: لا، وسوف يأتي. ثم تنزل ملائكة السماء الثانية بمثلي ما في الأرض من الملائكة والإنس والجن، ثم تنزل ملائكة كل سماء على هذا التضعيف حتى تنزل ملائكة سبع سموات عليهم السلام، فيظهر الغمام، وهو كالسحاب الأبيض فوق سبع سموات، ثم ينزل بالأمر بالحساب، فذلك قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَة تَنْزِيلاً﴾ ويقال: الغمام الذي قال في سورة البقرة: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالمَلاَئِكَة﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ﴾ وفي الآية تقديم، ومعناه: الملك يومئذ الحق للرحمٰن الحق صفة الملك، والمعنى: الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمٰن، لأنه لا يدعي الملك يومئذ أحد. ويقال: الحق يومئذ الملك الخالص. ويقال: يعني: الملك الصدق.

ثم قال تعالى: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ يعني: شديداً. وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين يسيراً، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يعني: عقبة بن أبي معيط، وذلك أن عقبة

Marfat.com

كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً، وكان يدعو إلى الطعام من أهل مكة من أحبَّ وأراد، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ، ويعجبه حديثه. فقدم ذات يوم من سفره وصنع طعاماً، ودعا رسول الله ﷺ إلى طعامه، فأتاه رسول الله ﷺ، فلما قدم الطعام إليه، فأبى أن يأكل وقال: ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وكان عندهم من العار أن يخرج من عندهم أحدهم قبل أن يأكل شيئاً، فألح على رسول الله ﷺ أن يأكل، فلم يأكل، فشهد بذلك عقبة، فأكل النبي ﷺ من طعامه، وكان أبيُّ بن خلف الجمحي غائباً، وكان خليله، فلما قدم أخبر ذلك، فأتاه فقال: صبوت يا عقبة. فقال: لا والله ما صبوت، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم، فشهدت، فطعم. فقال له: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً حتى تأتيه، فتبزق في وجهه، وتشتمه وتكذبه، ففعل ذلك[1]. فنزلت هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ يعني: عقبة ﴿على يديه﴾ يعني: على أنامله.

وروي عن أنس بن مالك أنه قال: يعض عقبة بن أبي معيط على يديه يوم القيامة، فيأكل لحم يديه حتى يبلغ العضد من الندامة، وهو ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ يعني: اتخذت طريق الهدى، وكنت معه على الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿يَا وَيْلَتَى ليتني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ يعني: أبيّ بن خلف. ويقال: إنما قال ﴿فلاناً﴾ ولم يذكر اسمه لحقارته ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ يعني: عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جاءني﴾ أي حين جاءني ويقال: إنه لم يذكر اسمه، لأنه دخل فيه جميع الظالمين، لأن مَنْ صَنَع مِثْلَ هذا الصَّنيع يكون هذا جزاؤه، وقتل عقبة يوم بدر صبراً، وقتل أبيٌّ بن خلف يوم أحد ويقال ﴿لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾، يعني: الشيطان بدليل قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ يعني: يتبرأ منه يوم القيامة، ونزل فيه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ يعني: متروكاً لا يؤمنون به، ولا يعملون بما فيه. وقال القتبي: يعني: جعلوه كالهذيان. ويقال: فلان يهجر في منامه، أي يهذي. وقال مجاهد: يهجرون منه بالقول، يعني: يقولون فيه بالقبيح، فبين الشكاية من رسول الله ﷺ إلى الرب عز وجل، ثم إن الله عز وجل عزّاه وأخبره أن الرسل من قبله كانوا يتأذون بقومهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: من المشركين، فيهجرون الكتاب.

ثم قال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ يعني: ﴿هادياً﴾ إلى دينه من كان أهلاً لذلك.

---

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٢٥٠ إلى ابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل.

Marfat.com

ويقال: ﴿وكفى بربك﴾ حافظاً على الدين ﴿ونصيراً﴾، أي مانعاً. ويقال: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾ يعني: فرعوناً، كما جعلنا أبا جهل فرعونك، ويقال: سلطنا على كل نبي متكبراً ليتكبر عليه ويكذبه ويؤذيه.

وروي في الخبر: «لو أن مؤمناً ارتقى على ذروة جبل، لقيِّض الله تعالى إليه منافقاً يؤذيه، فيؤجر عليه ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يعني: اكتفِ بربك واصبر على أذاهم، صار ﴿هادياً ونصيراً﴾ نصباً على الحال، أي: وكفى بربك في حال الهداية والنصرة ويقال: الباء زائدة للصلة. ومعناه: كفى بربك ﴿هادياً﴾ إلى دينه ﴿ونصيراً﴾ أي مانعاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نزّل﴾ يعني: هلا **﴿نُزِّلَ عَلَيهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾** كما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام.

يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا أي أنزلناه متفرقاً **﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾** يعني: لنحفظ ويقوى به قلبك ونفرحك، فلما دخل قلبه الغم نزلت عليه آية وآيتان، فيفرح بها. ويقال: ﴿لنثبت به فؤادك﴾ يعني: ليكون قبوله على المسلمين أسهل، لأنه لو أنزلت الأحكام والشرائع كلها جملة واحدة، شق على المسلمين قبولها، كما شق على بني إسرائيل. ويقال: أنزلناه هكذا لنرسخ القرآن في قلبك، لكي تحفظ الآية والآيتين. ويقال: ﴿كذلك﴾ أنزلناه لتحكم عند كل حادثة، وعند كل واقعة، لتقوي به قلبك في ذلك.

ثم قال: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ يعني: بيناه تبييناً. ويقال: شيء رَتْل ورتيل إذا كان مبيناً. وقال مجاهد: ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ أي: بعضه على أثر بعض.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك جبريل عليه السلام به في عشرين سنة»، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعني: لا يخاصمونك بمثل، مثل قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] ثم قال: ﴿إلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: أنزلنا عليك جبريل عليه السلام بالقرآن فتخاصمهم به ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ يعني: وأحسن بياناً لترد به خصومهم. ويقال: معناه ولا يأتونك بحجة، إلا بينا لك في القرآن ما فيه نقض لحجتهم، ﴿وأحسن تفسيراً﴾ أي جواباً لهم ويقال: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بما هو أحسن من مثلهم. ويقال: كل

Marfat.com

نبي إذا قال له قومه قولاً، كان هو الذي يرد عليهم، وأما النبي ﷺ كان إذا قالوا له شيئاً، فالله تعالى هو الذي يرد عليهم.

ثم أخبرهم بمستقرهم في الآخرة فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يعني: يسحبون على وجوههم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: منزلاً في النار وضيقاً في الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً. وذلك أن كفار مكة قالوا: ما كان محمد وأصحابه أولى بهذا الأمر منا، والله إنهم لشر خلق الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾.

وروي في الخبر: «أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أصناف: فصنف على النجائب، وصنف على أرجلهم، وصنف على وجوههم، فقيل: يا رسول الله كيف يحشرون على وجوههم؟ فقال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، فهو قادر على أن يمشيهم على وجوههم» فذلك قوله»: ﴿أولَئِكَ شَرٌّ مكاناً﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾أي معيناً ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إلى الْقَوْمِ﴾ يعني: به موسى، كقوله عز وجل في سورة طه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ [طه: ٤٢] خاطب موسى خاصة إلى القوم يعني: فرعون وقومه ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بتوحيدنا وديننا. وقال الكلبي: يعني كذبوا بآياتنا التسع. وقال بعضهم: هذا التفسير خطأ، لأن الآيات التسع أعطاها الله تعالى موسى بعد ذهابه إليه، وقد قيل: معناه اذهبا إلى القوم، وهذا الخطاب لموسى عليه السلام. ثم قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالرسل، وبكتب الأنبياء عليهم السلام الذين قبل موسى، ثم قال: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ يعني: كذبوهما فأهلكناهم إهلاكاً. ويقال: في الآية تقديم قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني: التوراة بعدما هلك فرعون وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً، يعني: في أول نبوته. ويقال: ﴿الكتاب﴾ يعني: كتاباً قبل التوراة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله عز وجل ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ يعني: واذكر قوم نوح عليه السلام ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً وحده كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] ولم يكن وقت هذا الخطاب إلا واحد، فيجوز أن يذكر الجماعة ويراد به الواحد، كما يذكر الواحد ويراد به الجماعة كقوله:

Marfat.com

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١] وإنما أراد به الناس، ألا ترى أنه استثنى منه جماعة. ويقال: إن نوحاً كان يدعو قومه إلى الإيمان به، وبالأنبياء الذين بعده، فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل، فلهذا قال: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ يعني: عبرة لمن بعدهم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: وجيعاً.

ثم قال عز وجل: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ﴾ يعني: واذكر عاداً وثمود وأصحاب الرس، وهم قوم قد نزلوا عند بئر كان يسمّى: الرس، فكذبوا رسلهم، فأهلكهم الله تعالى، ويقال: إنما سُمُّوا أصحاب الرس، لأنهم قتلوا نبيهم ورسولهم في بئر لهم، وقال مقاتل: يعني: البئر التي كان فيها أصحاب ياسين بأنطاكية التي بالشام ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً﴾ يعني: أهلكنا أمماً بين قوم نوح وعاد، وبين عاد وثمود إلى أصحاب الرس كثيراً ﴿وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ يعني: بينا لهم العذاب أنه نازل بهم في الدنيا ﴿وَكُلاً تَبَّرْنَا تتبيراً﴾ أي: دمرناهم بالعذاب تدميراً، يقال: تبره إذا أهلكه.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَتَوا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يعني: أهل مكة مروا على القرية ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قريات لوط أمطرنا عليهم الحجارة: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يعني: أفلم يبصروها، فيعتبروا بها ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ يعني: بل كانوا لا يخافون البعث. ويقال: لا يرجون ثواب الآخرة، وإنما جاز أن يعبر عنهما، لأن في الرجاء طرفاً من الخوف، لأن كل من يرجو شيئاً فإنه يخاف، وربما يدرك، وربما لا يدرك.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ يعني: ما يقولون لك إلا سخرية فيما بينهم ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ يعني: إلينا، وهو قول أبي جهل حين قال لأبي سفيان بن حرب: أهذا نبي بني عبد مناف ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يعني: أراد أن يصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يعني: عن عبادة آلهتنا ﴿لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعني: ثبتنا على عبادتها لأدخلنا في دينه. حكى قولهم ثم بين مصيرهم فقال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً، يعني: يبيِّن لهم أن الذي قلت لهم كان حقاً.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ

Marfat.com

﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أرأيت مَنِ اتّخذَ إلهه هواه﴾ يعني: اتخذ هوى نفسه إلهاً، يعني: يعمل بكل ما يدعوه إليه هواه. ويقال: إنهم كانوا يعبدون حجراً، فإذا رأوا أحسن منه تركوا الأول، وعبدوا الثاني ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ يعني: أتريد أن تكون بيدك المشيئة في الهدى والضلالة، ويقال: معناه ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ يعني: أتريد أن تكون رباً لهم، فتجزيهم بأعمالهم، يعني: لست كذلك، فأنذرهم، فإنما أنت منذر.

ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني: أتظن أنهم يريدون الهدى ﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الهدى ﴿إِنْ هُمْ﴾ يعني: ما هم ﴿إلاّ كالأنعام﴾ في الأكل والشرب، ولا يتفكرون في أمر الآخرة، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً من البهائم، لأن البهائم ليسوا بمأمورين ولا منهيين.

وقال مقاتل: البهائم تعرف ربها وتذكره، وكفار مكة لا يعرفون ربهم، فيوحدونه.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال بعضهم: فيه تقديم، ومعناه: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك. وقال بعضهم: فيه مضمر، ومعناه: ألم تر إلى صنع ربك كيف مد الظل؟ يعني: بسط الظل بعد انفجار الصبح إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ يعني: دائماً كما هو لا شمس معه، كما يكون في الجنة ظل ممدود، ويقال: تلك الساعة تشبه ساعات الجنة إلا أن الجنة أنور ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ حيث ما تكون الشمس يظهر الظل. وقال القتبي: إنما يكون دليلاً، لأنه لو لم تكن الشمس لم يُعْرف الظل، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي: الظل بعد غروب الشمس، وذلك أن الشمس إذا غابت عاد الظل، وذلك وقت قبضه، لأن ظل الشمس بعد غروب الشمس لا يذهب كله جملة، وإنما يقبض الله ذلك الظلّ قبضاً خفياً شيئاً بعد شيء، فدلّ الله تعالى بهذا الوصف على قدرته، ولطفه في معاقبته بين الظل والشمس لمصالح عباده، وبلاده. ويقال: ثم ﴿قبضناه﴾، أي: قبضناه سهلاً. ويقال: يسيراً عند طلوع الشمس، ويقال: ﴿ثم قبضناه يسيراً﴾ يعني: هيناً سهلاً. ويقال: ﴿يسيراً﴾ يعني: خفياً، فلا يدري أحد أين يصير، وكيف يصير ويقال: ﴿ثم قبضناه﴾ يعني. رفعناه رفعاً خفيفاً.

ويقال قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ أي: على الأوقات في النهار ليعرف زوال الشمس وأوقات الصلاة.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِيَ

Marfat.com

أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً﴾ يعني: سكناً لتسكنوا فيه. ويقال: ﴿لباساً﴾ يعني: ستراً يستر جميع الأشياء ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ يعني: راحة للخلق ليستريحوا فيه بالنوم ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشوراً﴾ أي: للنشور ينتشرون فيه لابتغاء الرزق.

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً﴾ يعني: تنشر السحاب، والاختلاف في القراءات كما ذكرنا في سورة الأعراف ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ يعني: مطهّراً يُطهّر به الأشياء، ولا يطهر بشيء ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ يعني: أرضاً لا نبات فيها، فينبت بالمطر ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ يعني: نسقي بالمطر ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ وهو جماعة الإنس يعني: نسقي به الناس والدواب، لفظ البلدة مؤنث، إلا أن معنى البلدة والبلد واحد، فانصرف إلى المعنى، ولو قال: ميتة، لجاز إلا أنه لم يقرأ.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: قسمناه بين الخلق. ويقال: نصرفه من بلد إلى بلد، مرة بهذا البلد، ومرة ببلد آخر. كما روي عن ابن مسعود أنه قال: «ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله تعالى يصرفه حيث يشاء»، فذلك قوله ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾. وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ سنةٍ بِأَمْطَرَ مِنَ الأُخْرَىٰ وَلَكِنْ إذا عَمِلَ قَوْمٌ بِالمَعَاصِيْ، حوَّلَ الله ذلكَ إِلَى غَيْرِهِمْ، فإذا عَصَوا جميعاً، صَرَفَ الله ذلكَ إلى الفيافِيْ والبحارِ» وقال ابن عباس رضي الله عنه: «ما من عام، بأكثر من عامٍ ولكن يصرفه حيث يشاء» فذلك قوله: ﴿ولكن يصرفه حيث يشاء﴾[(١)] -.

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ يعني: ليتعظوا في صنعه، فيعتبروا في توحيد الله تعالى، فيوحدوه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ليذكُروا﴾ بالتخفيف، وضم الكاف. وقرأ الباقون بالتشديد والنصب.

ثم قال: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ يعني: كفراناً في النعمة، وهو قولهم: مطرنا بنوء كذا، ويقال: إلا جحوداً وثباتاً على الكفر.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا﴾ قال مقاتل: ولو شئنا لبعثنا في زمانك ﴿في كل قرية نذيراً﴾ يعني: رسولاً، ولكن بعثناك إلى القرى كلها رسولاً اختصصناك بها ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك حين دعوه إلى ملة آبائهم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿جِهاداً كَبِيراً﴾ يعني: شديداً.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: أرسل. ويقال: حلّى البحرين. ويقال: فلق البحرين. ويقال: خلق البحرين العذب والمالح ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني: حلو ﴿وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ أي: مرّ مالح ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرزَخاً﴾ أي حاجزاً ﴿وَحِجراً مَحْجُوراً﴾ أي حرّم على العذب أن يملح، وحرم على المالح أن يعذب، وحرم على كل واحد منهما أن يختلط بصاحبه، وأن يغير كل واحد منهما طعم صاحبه.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً﴾ أي من النطفة إنساناً ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً﴾ فالنسب: ما لا يحل لك نكاحه من القرابة، والصهر: ما يحل لك نكاحه من القرابة وغير القرابة، وهذا قول الكلبي.

وقال الضحاك: النسب القرابة، والصهر الرضاع، ويحرم من الصهر ما يحرم من النسب. ويقال: النسب الذي يحرم بالقرابة، والصهر الذي يحرم بالنسب، وهو ما ذكر في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣] فهذه السبع تحرم بالقرابة، والسبع التي تحرم بالنسب، فهو ما ذكر بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخر الآية. وامرأة الأب ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ فيما أحل من النكاح، وفيما حرم. ويقال: ﴿قديراً﴾ على ما أراد.

قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوهم ﴿ولا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوهم ﴿وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ يعني: عوناً للشياطين على ربه. قال بعضهم: نزلت في شأن أبي جهل بن هشام، ويقال: في شأن جميع الكفار.

ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً ونذيراً﴾ يعني: ما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع الله عز وجل، ونذيراً بالنار لمن عصاه، ﴿قُلْ مَا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: قل لكفار مكة: ﴿ما أسألكم عليه﴾ يعني: على القرآن والإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: من جُعْل ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ يعني: إلا من شاء أن يوحّد، ويتخذ إلى ربه بذلك التوحيد سبيلاً، يعني: مرجعاً. ويقال: يعمل، فيتخذ عند ربه مرجعاً صالحاً، فيدخل به الجنة. يعني: لا أريد الأجر، ولكن أريد لكم هذا الذي ذكر، وقصدي هذا لا أن آخذ منكم شيئاً.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

Marfat.com

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ وذلك حين دعي إلى ملة آبائه، فأمره الله تعالى بأن يتوكل على ربه الكريم وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ قال مقاتل: واذكر بأمره وقال الكلبي: صلِّ بأمره ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ يعني: عالماً معناه، وكفى بالله عالماً بذنوب عباده وبمجازاتهم، فلا أحد أعلم بذنوب عباده ومجازاتهم منه.

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقد ذكرناه وتمَّ الكلام، ثم قال ﴿الرحمن﴾ قال الزجاج: ﴿الرحمن﴾ رفعه من جهتين. أحدهما: على البدل ممّا في قوله: ﴿ثمّ استوى﴾ فبيّن بقوله: ﴿الرحمن﴾ يعني استوى الرحمن على العرش. قال: ويجوز أن يكون على معنى الابتداء. ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ يعني: فاسأل عنه عالماً. ويقال: معناه ما أخبرتك به من شيء، فهو كما أخبرتك، فاسأل بذلك عالماً حتى يبين لك ذلك كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية. خاطب به النبي ﷺ، وأراد به أمته.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ﴾ أي صلّوا للرحمن، ويقال: اخضعوا له ووحدوه ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ﴾ يعني: ما نعرف الرحمٰن إلا مسيلمة الكذاب. قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ لذلك الكذاب. قرأ حمزة والكسائي ﴿يأمرنا﴾ بالياء على معنى المغايبة وقرأ الباقون على المخاطبة ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ يعني: زادهم ذكر الرحمٰن تباعداً عن الإيمان. فمن قرأ بالياء، فمعناه: لما يأمرنا الرحمن بالسجود، ويقال: لما يأمرنا محمد، يعني: لا نسجد لما يأمرنا كقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣] يعني: من طاب لكم. ومن قرأ بالتاء، أراد به النبي ﷺ. قال أبو عبيد: هذا هو الوجه، لأن المشركين خاطبوه بذلك، وكانوا غير مقرين بالرحمن.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿تبارَكَ﴾ وقد ذكرناه ﴿الَّذي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ يعني: خلق في السماء بروجاً، يعني: نجوماً وكواكب. ويقال: قصوراً. وذكر أنه جعل في القصور حراساً، كما قال في موضع آخر: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ [الجن: ٨] الآية.

Marfat.com

ويقال: البروج الكواكب العظام، وكل ظاهر مرتفع فهو برج، وإنما قيل لها بروج لظهورها وارتفاعها، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ يعني: خلق فيها ﴿سِرَاجاً﴾ يعني: شمساً ﴿وَقَمَراً مُنِيراً﴾ يعني: منوّراً مضيئاً. قرأ حمزة والكسائي ﴿سُرُجاً﴾ بلفظ الجمع، يعني: الكواكب. وقرأ الباقون ﴿سِرَاجاً﴾ وبه قال أبو عبيدة: بهذا نقرأ. كقوله: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ ولأنه قد ذكر الكواكب بقوله: ﴿بُرُوجاً﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق الليل والنهار ﴿خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أي خليفة يخلف كل واحد منهما صاحبه. يذهب الليل ويجيء النهار، ويذهب النهار ويجيء الليل، ويقال: ﴿خلفة﴾ يعني: مخالفاً بعضه لبعض، أحدهما أبيض، والآخر أسود، فهما مختلفان كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية.

وروي عن الحسن أنه قال: النهار خلف من الليل لمن أراد أن يعمل بالليل فيفوته فيقضي، فإذا فاته بالنهار يقضي بالليل لمن أراد أن يذكر. قرأ حمزة ﴿يَذْكُرَ﴾ بالتخفيف في الذال، وضم الكاف. يعني: يذكر ما نسي إذا رأى اختلاف الليل والنهار. وقرأ الباقون بالتشديد وأصله: يتذكر يعني: يتعظ في اختلافهما، ويستدل بهما ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ يعني: العمل الصالح ويترك ما هو عليه من المعصية. ويقال: ﴿أو أراد شكوراً﴾، أي توحيداً وإقراراً، فيمكنه ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ يعني: وإن من عباد الرحمٰن عباداً يمشون ﴿عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ يعني: يمضون متواضعين، وهذا جواب لقولهم ﴿وما الرحمٰن أنسجد﴾؟ فقال: الرحمٰن الذي جعل في السماء بروجاً، وهو الذي له عباد مثل هؤلاء. يعني: أصحاب النبي ﷺ، ومن كان مثل حالهم، وهذا كقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ﴾ [مريم: ٦١] وكقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ﴾ [الزمر: ١٧] الآية.

وقال مجاهد: ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ قال: في طاعة الله متواضعين. ويقال: ﴿هوناً﴾، أي: هيناً لا جور منهم على أحد ولا أذى. ويقال: ﴿هوناً﴾ يعني: سكينة ووقاراً وحلماً. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ يعني: كلمهم الجاهلون بالجهل ﴿قَالُوا سَلَاماً﴾ يعني: سداداً من القول. ويقال: ردوا إليهم بالجميل. وقال الحسن: يعني: حلماً لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا. وقال الكلبي: نسخت بآية القتال. وقال بعضهم: هذا خطأ، لأن هذا ليس بأمر، ولكنه خير من حالهم، والنسخ يجري في الأمر والنهي.

ثم وصف حال لياليهم فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً﴾ يعني: يقومون بالليل في الصلاة سجداً ﴿وَقِيَاماً﴾ يعني: يكونون في ليلتهم مرة ساجدين، ومرة قائمين. وروي عن ابن عباس أنه كان يقول: «من صلى ركعتين أو أربعاً بعد العشاء، فقد بات لله ساجداً وقائماً».

Marfat.com

ثم وصف خوفهم فقال: إنهم مع جهدهم خائفون من عذاب الله عز وجل، ويتعوذون منه فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ يعني: عباد الرحمٰن ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَراماً﴾ يعني: لازماً لا يفارق صاحبه. وقال بعض أهل اللغة: الغرام في اللغة أشد العذاب. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾. قال: سألهم ثمن النعم، فلم يأتوا بثمنها، فأغرمهم ثمن النعم، وأدخلهم النار، ثم قال: ﴿إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقراً ومُقَاماً﴾ يعني: بئس المستقر، وبئس الخلود، والمقام الخلود كقوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥] يعني: دار الخلود. ويقال: نصب المستقر للتميز، ومعناه: لأنها ساءت في المستقر.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ وقرأ نافع وابن عامر ﴿يُقْتِرُوا﴾ بضم الياء وكسر التاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لم يَقْتِروا﴾ بنصب الياء وكسر التاء. وقرأ أهل الكوفة بنصب الياء وضم التاء، ومعنى ذلك كله واحد. يعني: لم يسرفوا، فينفقوا في معصية الله تعالى، ولم يقتروا فيمسكوا عن الطاعة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ يعني: بين ذلك عدلاً ووسطاً. وقال الحسن: ما أنفق الرجل على أهله في غير إسراف ولا فساد ولا إقتار، فهو في سبيل الله تعالى. وقال مجاهد: لو كان لرجل مثل أبي قبيس ذهباً، فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً، ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني: لا يشركون بالله. ويقال: الشرك ثلاثة: أولها أن يعبد غير الله تعالى، والثاني أن يطيع مخلوقاً بما يأمره من المعصية، والثالث أن يعمل لغير وجه الله تعالى. فالأول كفر، والآخران معصية.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بإحدى خصال ثلاث وقد ذكرناه. ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾ يعني: لا يستحلون الزنى، ولا يقتلون النفس ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعني: الشرك والقتل والزنى ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ قال الكلبي يعني: عقاباً في النار، وذكر عن سيبويه والخليل أنهما قالا: معناه جزاء الآثام. ويقال: الآثام العقوبة وقال الشاعر:

جَـزَى الله ابْـنَ عُـرْوَةَ حِـيـنَ أَمْـسَـى ... عَـقُـوقـاً فَـالْـعُـقُـوقُ لَـهُ أَثَـامُ

أي: عقوبة.

ثم قال عز وجل: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ يعني: في العذاب

Marfat.com

صاغراً يهان فيه. قرأ عاصم ﴿يُضاعَفُ له﴾ بالألف، وضم الفاء. وقرأ ابن عامر وابن كثير: ﴿يضعَّفْ﴾ بغير ألف، والتشديد، وجزم الفاء. وقرأ الباقون بالألف، وجزم الفاء. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر، ﴿ويخلدُ﴾ بضم الدال.

وروى حفص عن عاصم وابن كثير، ﴿ويخلد﴾ بالإشباع، وقرأ الباقون ﴿يخلدْ﴾ بجزم الدال. فمن قرأ ﴿يضاعفُ﴾ و﴿يخلدُ﴾ بالرفع فالوقف هنا على قوله: ﴿آثاماً﴾ ومن قرأهما بالجزم فلا يقف على ﴿آثاماً﴾ لأنهما جوابا الشرط، والشرط والجواب هما مجزومان.

ثم قال عز وجل: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: تاب من الشرك والزنى والقتل، وصدّق بتوحيد الله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ يعني: مكان الشرك الإيمان، ومكان القتل الكف، ومكان الزنى العفاف، ومكان المعصية العصمة والطاعة. ويقال: إنه يبدل في الآخرة مكان عمل السيئات الحسنات.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: «إن يوم القيامة إذا أعطي الإنسان كتابه في الآخرة فيرى في أوله معاصيَ، وفي الآخر الحسنات، فلما رجع إلى أول الكتاب، رآه كله حسنات».

روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الكتاب أَنْ تَجِيءَ ذُنُوبُهُ العِظَامُ، فَإِذَا أُرِيدَ بِهِ خَيْر قِيلَ: أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: يَا ربِّ إِنَّ لِي ذُنُوباً مَا أَرَاهَا هَانا». قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك[١]، ثم تلا: هذه الآية: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾. وذكر عن أبي هريرة أنه قال: «خرجت من عند رسول الله ﷺ، فسألتني امرأة في الطريق فقالت: زنيت، ثم قتلت الولد، فهل لي من توبة؟ فقلت: لا توبة لك أبداً. ثم قلت: أفتيتُها ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فرجعت إليه فأخبرته بذلك فقال: «هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ هٰذِهِ الآيَةِ؟ ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلٰهاً آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ فخرجت وقلت: من يَدُلُّني على امرأة سألتني مسألة، والصبيان يقولون: جنَّ أبو هريرة حتى أدركتُها وأخبرتُها بذلك فسرت وقالت: إن لي حديقةً جعلتُها لله ولرسوله»[٢]. وقال بعضهم: هذه الآية مدنية نزلت في شأن وحشي، وقال بعضهم: الآية قد كانت نزلت بمكة فكتب رسول الله ﷺ من المدينة إلى وحشي ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً﴾ يعني: ﴿غفوراً﴾ لما فعلوا قبل التوبة لمن تاب، ﴿رحيماً﴾ بالمؤمنين بعد التوبة.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا

(١) حديث أبي ذر: أخرجه مسلم (١٩٠) (٣١٤) (٣١٥) والترمذي (٢٥٩٦) وأحمد: ٥/ ١٧٠ والبغوي (٤٣٦٠).

(٢) عزاه السيوطي: ٦/ ٢٧٩ إلى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة.

Marfat.com

مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: تاب من الشرك والمعاصي، وعمل صالحاً بعد التوبة، ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَاباً﴾ يعني: مناصحاً لا يرجع. ويقال: ﴿متاباً﴾ له في الجنة. ويقال: ﴿متاباً﴾. يعني: توبة. يعني: يتوب توبة مخلصة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ يعني: لا يحضرون مجالس الكذب والفُحش والكفر ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ يعني: مجالس اللهو والباطل ﴿مَرُّوا كِرَاماً﴾ يعني: حُلماء معرضين عنها. وقال القتبي: ﴿مروا كراماً﴾ لم يخوضوا فيه، وأكرموا أنفسهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: وعظوا بالقرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ يعني: لم يقعوا عليها ﴿صُمّاً﴾ يعني: لا يسمعون ﴿وعمياناً﴾ ولا يبصرون، ولكنهم سمعوا وانتفعوا به، وهذا قول مقاتل. وقال القتبي: ﴿لم يخروا عليها﴾ أي: لم يتغافلوا عنها، فكأنهم صم لم يسمعوها، عمي لم يروها.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: اجعل أزواجنا وذريتنا من الصالحين، تقر أعيننا بذلك. ويقال: وفِّقهم للطاعة، واعصِمْهم من المعصية، ليكونوا معنا في الجنة، فتقر بهم أعيننا. قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر، ﴿وذريتنا﴾ بلفظ الوحدان. وقرأ الباقون ﴿وذرياتنا﴾ بلفظ الجماعة، ثم قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ يعني: اجعلنا أئمة في الخير يقتدي بنا المؤمنون، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] أي: قادة في الخير.

وروي عن عروة: أنه كان يدعو بأن يجعله الله ممن يحمل عنه العلم، فاستجيب دعاؤه. وروي عن مجاهد: معناه، «اجعلنا ممن نقتدي بمن قبلنا، حتى يقتدي بنا من بعدنا». ويقال: معناه اجعلنا ممن يقتدي بالمتقين، ويقتدي بنا المتقون، فهذا كله من خصال عباد الرحمن، من قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ﴾ إلى هٰهنا. فوصف أعمالهم.

ثم بيّن ثوابهم فقال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ يعني: غرف الجنة كقوله: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: صبروا على أمر الله تعالى في الدنيا، وعلى الطاعة ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ يعني: في الجنة ﴿تَحِيَّةً﴾ يعني: التسليم ﴿وَسَلاماً﴾ يعني: سلام

Marfat.com

الله تعالى لهم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر، وإحدى الروايتين عن ابن عباس، ﴿ويَلقون فيها﴾ بنصب الياء، وجزم اللام، والتخفيف. وقرأ الباقون ﴿ويُلَقَّون﴾ بضم الياء ونصب اللام، وتشديد القاف، فمن قرأ بالتخفيف، يعني: يلقي بعضهم بعضاً بالسلام، ومن قرأ بالتشديد يعني: يجيء إليهم سلام الله تعالى، يعني: يلقى إليهم السلام من الله تعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: دائمين في الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ يعني: موضع القرار، وموضع الخلود.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي ﴿لولا دعاؤكم﴾ يعني: لولا عبادتكم. ويقال: ما يفعل بعذابكم لولا عبادتكم غير الله تعالى. ويقال: ما ينتظر بهلاككم، لولا عبادة من يعبدوني، لأنزلت عذابي ـ ويقال: ﴿لولا دعاؤكم﴾ يعني: يقول، لولا إيمانكم[١] ـ.

ثمّ قال: عز وجل ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ يعني: عذاباً يلزمهم، فقتلوا ببدر، وعجلت أرواحهم إلى النار، فتلك عقوبتهم فيها. ويقال: ﴿لزاماً﴾ يعني: موتاً. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «خمس قد مضين من ذلك: اللزام، والروم والقمر والدخان والبطشة». ـ ويقال: ما يحتاج بعذابكم لولا عبادتكم الأصنام. ويقال ما يفعل الله بعذابكم لولا عبادتكم غير الله. ويقال: ما ينتظر بهلاككم لولا عبادة من يعبدني، لأنزلت عذابي إلى غير ذلك، والله أعلمُ وصلى الله على سيدنا محمد[٢] ـ.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

سورة الشعراء

كلُّها مكية إلا آيات في آخرها وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿طسم﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: بإمالة الطاء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتفخيم، وهما لغتان معروفتان عند العرب، ويجوز كلاهما. وقرأ نافع بين ذلك، وقرأ حمزة بإظهار النون، والباقون بالإدغام لتقارب مخرجهما. ومن لم يدغم أراد التبيين، وكلاهما جائز. وأما التفسير، فروى معمر عن قتادة أنه قال: «اسم من أسماء القرآن.»[(١)] ويقال: والطاء طَوْله، والسين سَنَاؤُهُ، والميم ملكه ومجده[(٢)]. ويقال: الطاء شجرة طوبى، والسين سدرة المنتهى، والميم محمد المصطفى ﷺ. وقال بعضهم: عجزت العلماء عن تفسيرها. ويقال: هو قسم أقسم الله تعالى به.

﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**﴾ يعني: هذه آيات الكتاب. ويقال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ التي كنت وعدت في التوراة أن أنزلها على محمد ﷺ ﴿**الكتاب الْمُبِينُ**﴾ يعني: القرآن يبيِّن لكم الحق من الباطل ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ**﴾ يعني: مُهلك نفسك. ويقال: قاتل نفسك بالحزن ﴿**أَنْ لا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ يعني: إذا لم يصدقوا بالقرآن، وذلك حين كذبه أهل مكة شقّ ذلك عليه وحزن بذلك، فقال له: ليس عليك سوى التبليغ، ولا تقتل نفسك إن لم يؤمنوا.

ثم قال عز وجل: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً**﴾ يعني: علامة ﴿**فَظَلَّتْ**﴾ يعني: فصارت ﴿**أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ يعني: وننزل عليهم آية تضطرهم إلى أن يؤمنوا، ولكنه لم يفعل، لأنه لو فعل ذلك لذهبت المحنة، فلم يستوجبوا الثواب إذا آمنوا بعد معاينة العذاب، كمن آمن يوم القيامة لا ينفعه إيمانه، لأنه قد ظهر له بالمعاينة. ويقال: ﴿فظلت أعناقهم﴾ يعني: ساداتهم وكبراؤهم للآية ﴿خاضعين﴾، والأعناق: الكبراء، فإن قيل: جمع الأعناق مؤنث.

---

(١) عزاه السيوطي ٦/ ٢٨٨ إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) عزاه السيوطي: ٦/ ٢٨٨ إلى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب.

Marfat.com

وقال: خاضعين، ولم يقل: خاضعات؟ قيل له: لأن الكلام انصرف إلى المعنى، فكأنه قال: هم لها خاضعون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ يعني: مكذبين معرضين عن الإيمان به ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني: كذبوا بالقرآن، كما قال في آية أخرى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥]. ثم قال: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ﴾ يعني: أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: يوم القيامة. ويقال: قد جاءهم بعض ذلك في الدنيا، وهو القتل والقهر والغلبة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ﴾ يعني: أو لم ينظروا في عجائب الأرض، ويتفكروا فيها ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: من كل نوع من النبات. ويقال: من كل لون حسن. وقال القتبي: الكريم يقع على الأنواع، والكريم: الشريف الفاضل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] أي: شريف فاضل، والكريم: الصفوح، وذلك من الشرف كما قال: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] أي الصفوح، والكريم: الكثير كما قال: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] أي: كثير، والكريم: الحسن وذلك من الشرف والفضل كما قال: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧] أي: حسن ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: حسناً. وروي عن الشعبي أنه قال: ﴿كم أنبتنا فيها﴾ يعني: بني آدم، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة﴾ يعني: في اختلاف النبات وألوانه ﴿لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لأهل مكة أنه إله واحد.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بالتوحيد، ولو كان أكثرهم مؤمنين لم يعذّبوا. وقال مقاتل: ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ يعني: وما كانوا مؤمنين بل كلهم كانوا كافرين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن لم يجب الرسل ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث لم يعجّل بعقوبتهم. ويقال: رحيم بالمؤمنين.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ

Marfat.com

أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ يعني: اتل عليهم إذ نادى ربك موسى كما قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقال مقاتل: ﴿إذ نادى ربك موسى﴾ يعني: أمر ربُّك يا محمد مُوسى ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: اذهب إلى القوم المشركين ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ قال مقاتل: يعني، قل لهم ألا تتقون عبادة غيره وتوحِّدونه. ويقال: ﴿ألا يتقون﴾ يعني: ألا يعبدون الله تعالى ﴿قال رَبِّ﴾ يعني: قال موسى يا ربِّ. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بما أقول ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ إذا كذبوني في رسالتك ﴿وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ لمهابته. قرأ الحضرمي، ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق﴾ كلاهما بنصب القاف، وجعله نصباً بأن، ومعناه: أخاف أن يكذبون، وأن يضيق صدري، وأن لا ينطلق لساني. وقراءة العامة: بالضم على معنى الاستئناف.

ثم قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ يعني: أرسله معي لكي يكون عوناً لي في أداء الرسالة. ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ يعني: قصاص بقتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وقال القتبي: على معنى عندي، أي: لهم عندي ذنب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿كَلاَّ﴾ أي لا تخف. وقال الزجاج: كلا رَدْعٌ وتنبيه، أي: لا يقدرون على ذلك ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ خاطب به موسى خاصة بأن يذهب مع أخيه بآياتنا التسع ﴿إِنَّا مَعَكُم مُسْتَمِعُونَ﴾ يعني: سامعين، وقد بيّن ذلك في موضع آخر وهو قوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] والاستماع سبب للسمع فيعبر به عنه.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: موسى وحده، ويضاف الشيء إلى اثنين، والمراد به أحدهما. وقال القتبي: الرسول يكون بمعنى الجمع، كما يكون الضيف بمعنى الجمع. ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: ٦٨]. وقال أبو عبيد: رسول بمعنى رسالة. ويقال رسول: يعني: به رسولين كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] فقال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: قل لفرعون ذلك، ولم يذكر إتيانه إلى فرعون، لأن في الكلام دليلاً عليه. وقد بيّن في موضع آخر حيث قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [القصص: ٣٦] وقال مقاتل: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وانقطع الكلام، ثم انطلق موسى، وكان هارون بمصر، فانطلقا إلى فرعون قال مقاتل: فلم يأذن لهما سنة ثم أخبر البواب

Marfat.com

فرعون أن هٰهنا إنساناً يذكر أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه. وقال السدي: لما أتى باب فرعون ضرب موسى عليه السلام عصاه على الباب، ففزع من ذلك فرعون. فأذن له في الدخول من ساعته، فلما دخل عليه عرفه، فأدى الرسالة، فقال له فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾. - قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: أول ما بدأ فرعون بكلام السفلة، ومنّ على نبي الله ﷺ أنما أطعمه[1] -. فقال: ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾. يعني: ألم تكن فينا صغيراً قد ربيناك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ يعني: مكثت عندنا ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ يعني: ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتلت النفس التي قتلتها.

وقرأ في الشاذ: ﴿فِ علتك﴾ بكسر الفاء هي قراءة الشعبي، وقراءة العامة بالنصب، والنصب يقع على فعل واحد، والكسر على المرات. يعني: قتلت مرة، وهممت بالقتل ثانياً ثم قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من الكافرين بنعمتي. ويقال: كفرت بي حيث قتلت النفس. ويقال: وأنت من الجاحدين للقتل. يعني: لم تقر بالقتل، فأخبره موسى أنه غير جاحد للقتل ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً﴾ يعني: قتلت النفس ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن النبوة كقوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ويقال: من الجاهلين ولم أتعمد القتل. قال القتبي: أصل الضلالة العدول عن الحق، ثم يكون لمعاني منها النسيان، لأن الناسي عادل عنه، فكما قال هٰهنا ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الناسين وكما قال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ثم قال عز وجل: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ يعني: هربت منكم إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ على نفسي أن تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ قال الكلبي: يعني النبوة، وقال مقاتل: يعني العلم والفهم، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إليكم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أو كان هذا نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل، فكأنه أنكر عليه. فقال: كيف تكون نعمتك التي تمن علي؟ فإنك قد عبدت بني إسرائيل، أي استعبدتهم، ولم تعبدني. ويقال: معناه ﴿تلك نعمة﴾ إنما صارت نعمة بتعبيدك بني إسرائيل، لأنك لو لم تعبّدهم لم تجعلني أمي في التابوت حتى صرت في بيتك، ولكن إنما صارت نعمة لأجلك، حيث عبدت بني إسرائيل. وقال مقاتل: ﴿وتلك نعمة﴾ تمنها عليّ يا فرعون بإحسانك إليّ خاصة، وبترك أبنائك أن عبدت بني إسرائيل. وقال الكلبي يقول: تستعبد بني إسرائيل، وتمن علي بذلك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ
إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَونُ﴾ لموسى ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ منكراً له، وهذا جواب لقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فجاء بجواب قطع حجته ﴿قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بتوحيد الله تعالى. فعجز فرعون عن الجواب ﴿فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى قول موسى عليه السلام قالوا له: فما تقول يا موسى؟ فجاء بحجة أخرى ليؤكد عليهم ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: أدعوكم إلى ربكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: إلى توحيد خالقكم وخالق آبائكم الأولين. ﴿قَالَ﴾ فرعون لجلسائه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ﴾ موسى عليه السلام ليس بمجنون مثلي أدعوكم إلى ﴿رَبُّ الْمَشرِقَ وَالْمَغرِبَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: إن كان لكم ذهن الإنسانية.

فلما عجز عن الجواب، مال إلى العقوبة كما يفعل السلاطين ﴿فَقَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي﴾ يعني: لئن عبدت رباً غيري. ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ يعني: لأحبسنَّك في السجن. قال ابن عباس: «وكان سجنه أشد من القتل» ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ يعني: ولو جئتك بحجة بينة يستبين لكم أمري ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ يعني: فأرناه ﴿إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك رسول ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ يعني: حية صفراء من أعظم الحيات ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني: أخرج يده فقال لهم: ما هذه؟ فقالوا: يدك، فأدخلها في جيبه وأخرجها ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يعني: لها شعاع غلب شعاع الشمس، وانتشر الضوء حوالي مصر للناظرين، لمن نظر إليها من غير برص، فعجبوا من ذلك.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟
هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ
إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ
﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ

Marfat.com

لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: قال فرعون لمن حوله من الرؤساء والأشراف، وأصله في اللغة: من ملأ. قال بعضهم: الملأ بما يراد بهم مائتان وخمسون، وقال بعضهم: ثلاثمائة وخمسون، وهم جماعة الملي. ويقال: يملأ العين هيبة يعني: إذا نظر إليها الناظر.

ثم قال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ يعني: من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يعني: تشيرون ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني: احبسهما وأخرهما ولا تقتلهما، ولا تؤمن بهما. وأصله: من التأخير، يعني: أخر أمرهما حتى تنظر ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون عليك السحرة ﴿يأْتوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: حاذقاً ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وهو يوم عيد لهم، وهو يوم الزينة. قال مقاتل: هم اثنان وسبعون ساحراً. ويقال: سبعون ألفاً. وقال الزجاج: ذكر أن السحرة كانوا اثني عشر ألفاً ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: أهل مصر ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ للسحرة للميعاد ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ على أمرهم ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ يعني: إلى الميقات ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً﴾ يعني: جعلاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ يعني: أتجازينا إن غلبناه ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ أجازيكم ﴿وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني: لكم مع الجائزة المنزلة والكرامة عندي ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ يعني: اطرحوا ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: نغلب موسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ يعني: تلتقم وتبتلعُ ﴿ما يأفكون﴾ يعني: ما يطرحون من الحبال والعصي.

قوله عز وجل: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا سجداً لله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال فرعون: إياي تعنون؟ قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: خالق موسى وهارون عليهما السلام ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا أصنع بكم ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطىء نهر مصر ﴿قَالُوا﴾ يعني: السحرة ﴿لا ضَيْرَ﴾ أي: لا يضرنا ما فعلت بنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يعني: إلى خالقنا راجعون ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ يعني: نرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ يعني: شركنا وسحرنا ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أول المصدقين من قوم فرعون. وذكر عن الفراء أنه قال: كانوا أول مؤمني أهل دهرهم. وقال الزجاج: لا أحسبه عرف الرواية، لأن الذين كانوا مع موسى روي في التفسير أنهم ستمائة ألف وسبعين ألفاً، ولكن معناه: أول من آمن في هذه الساعة.

Marfat.com

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَينَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني: ببني إسرائيل ﴿إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ﴾ يعني: يتبعكم فرعون وقومه. ويقال: أسرى يسري إسراء، إذا سار ليلاً، يعني: اذهب بهم بالليل ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون الناس لقتال موسى عليه السلام ليخرج في طلبه. وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يعني: طائفة وعصبة وجماعة قليلون. وقال الزجاج: الشرذمة في كلام العرب القليل. ويروى أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ يعني: لمبغضين ويقال: ﴿إنا لغائظون﴾ يعني: لمبغضين بخلافهم لنا، وذهابهم بحليّنا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي: مودون شاكون في السلاح. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿حذرون﴾ بغير ألف، والباقون بالألف، والحاذر: المستعد، والحذر: المستيقظ. ويقال: الحاذر الذي يحذر في الفور، والحذر الذي لا تلقاه إلا حذراً. وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿حَاذِرُونَ﴾ بالألف، وكان يقول: «يعني ذا أداة من السلاح». ومعناه: إنا قد أخذنا حذرنا من عدونا بسلاحنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يعني: فرعون وقومه ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ يعني: البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ يعني: الأنهار الجارية ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني: من الأموال الكثيرة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: المنازل الحسنة. ويقال: المنابر التي يعظِّم عليها فرعون. قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم ﴿وعُيون﴾ بضم العين في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالكسر، وهما لغتان، وكلاهما جائز. وقال بعضهم: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ كلام فرعون إنا أخرجنا بني إسرائيل من أرض مصر، والطريق الأول أشبه كما قال في موضع آخر: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥] الآية. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا أفعل بمن عصاني.

ثم استأنف فقال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ ويقال: كذلك أورثناها يعني: هكذا أنزلنا فيها، يعني: في مساكن فرعون ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد ما غرق فرعون، ثم قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُشْرِقِينَ﴾ يعني: عند طلوع الشمس.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ يعني: تقاربا ورأى بعضهم بعضاً، وذلك أن فرعون أرسل في المدائن حاشرين ليحشروا الناس، فركب وركب معه ألف ألف ومائتا ألف

Marfat.com

فارس سوى الرجّالة، أي المشاة، فلما دنوا من عسكر موسى ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ لموسى عليه السلام ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني: يدركنا فرعون ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلاَّ﴾ لا يدرككم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يعني: سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَينا إلى مُوسَى أَنْ اضرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فانفَلَقَ﴾ وفي الآية مضمر، ومعناه: فضربه بالعصا فانفلق البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ يعني: كالجبل العظيم ﴿وأزلفنا ثَمّ الآخرين﴾ يعني: قرّبنا قوم فرعون إلى البحر، وأدنيناهم إلى الغرق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي أدنيت وقرّبت.

وروي عن الحسن قال: ﴿وأزلفنا﴾. يعني: أهلكنا. وقال غيره: ﴿وأزلفنا﴾ أي جمعناهم في البحر حتى غرقوا، وفيه قيل لجمْع: المزدلفة. ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: من البحر ﴿ثُمّ أغرقْنا الآخرين﴾ يعني: فرعون وقومه، وقد ذكرنا القصة في موضع آخر.

ثم قال: ﴿إنَّ في ذلك﴾ يعني: فيما صنع ﴿لآية﴾، يعني: لعبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مؤْمنين﴾ يعني: مصدقين، يعني: لو كان أكثرهم مؤمنين لم يهلكهم الله تعالى: ﴿وإنَّ ربّك لهو العَزيزُ﴾ بالنعمة ﴿الرّحِيمُ﴾ لمن تاب

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبْرَاهِيمَ﴾ يعني: أخبر أهل مكة خبر إبراهيم، كيف قال لقومه، ثم أخبرهم عن ذلك فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ وذلك أن إبراهيم عليه السلام، لما ولدته أمه في الغار، فلما خرج وكبر دخل المصر، فأراد أن يعلم على أي مذهب هم، وهكذا ينبغي للعاقل إذا دخل بلدة أن يسألهم عن مذهبهم، فإن وجدهم على الاستقامة

Marfat.com

دخل معهم، وإن وجدهم على غير الاستقامة أنكر عليهم. فقال لهم إبراهيم: ﴿ما تعبدون﴾؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي: فنقيم عليها عابدين، فأراد أن يبين عيب فعلهم فقال: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ يعني: هل تجيبكم الآلهة، سمَّى الإجابة سمعاً، لأن السمع سبب الإجابة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ يعني: هل يجيبونكم إذا دعوتموهم ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ إذا عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ يعني: يضرونكم إن لم تعبدوهم ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: وجدنا آباءنا يعبدونهم، هكذا فنحن نعبدهم. ﴿قال﴾ لهم إبراهيم عليه السلام ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الإعلام، يعني: اعلموا أن الذي كنتم تعبدون ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ وَأَجدَادُكُمْ يعني: معبودكم ومعبود آبائكم وأجدادكم ﴿الأَقْدَمُونَ﴾ يعني: الماضين ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ يعني: هم أعدائي ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقال معناه: إلا من يعبد رب العالمين. ويقال: كانوا يعبدون مع الله الآلهة، فقال لهم: جميع ما تعبدون من الآلهة، فهو عدو لي إلا رب العالمين، فإنه ليس بعدوٍّ لي. ويقال: معناه أتبرأ من أفعالكم وأقوالكم، إلا الذي تقولون: رب العالمين وهو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ويقال: ﴿إلا﴾ بمعنى لكن، ومعناه: فإنهم عدو لي، لكن رب العالمين، يعني: لكن أعبد رب العالمين.

ثم وصف لهم رب العالمين فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يعني: يحفظني ويثبّتني على الهدى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ يعني: هو الذي يرزقني ويرحمني. ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فقد أضاف سائر الأشياء إلى الله تعالى، وأضاف المرض إلى نفسه، لأن المرض بكسب يده كقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وفيه كفارة وإذا كان أصله من كسب نفسه، أضافه إلى نفسه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يعني: يميتني في الدنيا، ويحييني للبعث ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني: أرجو أن يغفر خطيئتي، وهو قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] ويقال قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] ويقال: ما كان نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا وقد همّ بزلة.

ثم قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ يعني: النبوة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني: بالمرسلين في الجنة ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن في الباقين، وإنما أراد بالثناء الحسن، لكي يقتدوا به، فيكون له مثل أجر من اقتدى به ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ يعني: اجعلني ممن ينزل فيها.

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

Marfat.com

ثم قال: ﴿وَاغفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يعني: اهده إلى الحق من الضلالة والشرك. يعني: إنه كان من المشركين في الحال كقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] يعني: من هو في الحال صبي. ويقال: إنه كان من الضالين حين فارقته كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]وهذا الاستغفار حين كان وعده بالإسلام.

وقال مقاتل: إن إبراهيم عليه السلام قد كذب ثلاث كذبات، وأخطأ ثلاث خطيئات، وابتلي بثلاث بليّات، وسقط سقطة. فأما الكذبات فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]وقوله لسارة حين قال هي أختي. والخطايا: قوله للنجم القمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨]وأما البليات: حين قذف في النار، والختان والأمر بذبح الولد. وسقط سقطة حين دعا لأبيه، وهو مشرك. وقال غيره: لم يكذب ولم يخطىء، ولم يسقط، لأنه قال: ﴿إني سقيم﴾ يعني: سأسقم، لأن كل آدمي سيصيبه السقم. وقوله: ﴿بل فعَلَهُ كبيرُهُم هَذا﴾ قد قرنه بالشرط، وهو قوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]وقوله لسارة: هي أخته، فكانت أخته في الدين. وقوله: ﴿هَذا رَبِّي﴾ كان على وجه الاسترشاد لا للتحقيق. ويقال: كان ذلك القول على سبيل الإنكار والزجر. يعني: أمثل هذا ربي. وأما دعاؤه لأبيه، فلوعدة وعدها إياه، وقد بيّن الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]- يعني: إن أباه وعده أنه سيؤمن، فما دام حياً يرجو أو يدعو. وإذا مات ضالاً ترك الاستغفار. ويقال: إن إبراهيم كان وعده أن يستغفر له حيث قال: ﴿سأستغفر لك ربي﴾ فاستغفر له ليكون منجز الوعد(١).

ثم قال: ﴿وَلا تُخزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: لا تعذبني يوم يبعثون من قبورهم، إلى هٰهنا كلام إبراهيم، وقد انقطع كلامه.

ثم إن الله تبارك وتعالى وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ﴾ يعني: يوم القيامة لا ينفع الذي خلفوه في الدنيا، وأما المال الذي أنفقوا في الخير، فإنه ينفعهم، ﴿وَلا بنونَ﴾ يعني: للكفار لأنهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥] فأخبر الله تعالى أنه لا ينفعهم في ذلك اليوم المال ولا البنون، وأما المسلمون فينفعهم المال والبنون، لأن المسلم إذا مات ابنه قبله يكون له ذخراً وأجراً في الجنة، وإن تخلف بعده، فإنه يذكره بصالح دعائه، فينفعه ذلك.

ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من جاء بقلب سليم يوم القيامة ينفعه المال والبنون. ويقال: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فذلك الذي ينفعه، والقلب السليم: هو القلب المخلص. وقال ابن عباس: «يعني: بقلب خالص من الشرك».

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

وروى أبو أسامة عن عوف قال: قلت لابن سيرين، «ما القلب السليم؟ قال: أن تعلم أن الله عز وجل حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور»، ويقال: سليم من اعتقاد الباطل. ويقال: سليم من النفاق والهوى والبدعة. وسئل أبو القاسم الحكيم عن القلب السليم، فقال: له ثلاث علامات، أولها: أن لا يؤذي أحداً، والثاني: أن لا يتأذى من أحد، والثالث: إذا اصطنع معروفاً إلى أحدٍ لم يتوقع منه المكافأة، فإذا هو لم يؤذ أحداً، فقد جاء بالورع، وإذا لم يتأذ من أحد، فقد جاء بالوفاء، وإذا لم يتوقع المكافأة بالاصطناع، فقد جاء بالإخلاص.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: قربت الجنة للمتقين الذين يتقون الشرك والفواحش، يعني: أن المتقين قربوا من الجنة.

ثم قال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ يعني: والجحيم أظهرت، وكشفت غطاءها ﴿للغاوين﴾ يعني: للكافرين. ويقال: يؤتى بها في سبعين ألف زمام ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: للكفار ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: أين معبودكم الذين كنتم تعبدون من دون الله ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يعني: هل يمنعونكم من العذاب؟ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ يعني: هل يمتنعون من العذاب؟ فاعترفوا أنهم لا ينصرونهم، ولا ينتصرون، فأمر بهم في النار. ويقال: ﴿أينما كنتم تعبدون من دون الله﴾ يعني الشياطين، لأنهم أطاعوها في المعصية، فكأنهم عبدوها.

قوله عز وجل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ يعني: جمعوا فيها ﴿هم والغاوون﴾. ويقال: ﴿فكبكبوا فيها﴾ فقذفوا من النار، ﴿هم والغاوون﴾ يعني: الكفار والآلهة، والشياطين الذين أغووا بني آدم، وهذا قول مقاتل. ويقال: ﴿فكبكبوا فيها﴾ يعني: ألقي بعضهم على بعض. وقال القتبي: الأصل كُببوا، أي ألقوا على رؤوسهم فيها، فأبدلت مكان إحدى الباءين كاف. وقال الزجاج: هو تكرير الانكباب، لأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها. ويقال: جمعوا فيها، ومنه حديث جبريل عليه السلام «أنه ينزلُ في كَبْكَبَةٍ من الملائكة». يعني: جماعة من الملائكة عليهم السلام.

ثم قال عز وجل: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ يعني: جمعوا فيها جميعاً ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ - يعني: الكفار والأصنام. ويقال: الكفار والشياطين ويقال: الرؤساء والأتباع.

Marfat.com

ومعناه: قالوا وهم يختصمون فيها[(١)] - على معنى التقديم ﴿تَاللهِ﴾ يعني: والله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بين ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: نطيعكم كما يطيع المؤمنون أمر الله عز وجل. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: ما صرفنا عن الإيمان إلا الشياطين. ويقال: رؤساؤنا ويقال: آباؤنا المشركون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ يعني: حيث يرون الأنبياء عليهم السلام يشفعون للمؤمنين، والملائكة عليهم السلام يشفعون، ولا يشفع أحد للكفار. فيقولون: ليس أحد يشفع لنا ﴿وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يعني: قريب يهمه أمرنا.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المصدّقين على دين الإسلام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعبد غير الله تعالى، ليعلم أنه يتبرأ منه في الآخرة، ولا ينفعه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: الذين جمعوا في النار، لم يكونوا مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن عبد غيره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: نوحاً عليه السلام وحده. ويقال: جميع الأنبياء عليهم السلام، لأن نوحاً عليه السلام دعاهم إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ يعني: نبيهم، سماه أخوهم، لأنه كان منهم وابن أبيهم ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ يعني: ألا تخافون الله تعالى فتوحّدوه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فيما بينكم وبين ربكم، وجعلني الله عز وجل أميناً في أداء الرسالة إليكم. ويقال: إنه كان أميناً فيهم قبل أن يبعث ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي: خافوا الله ﴿وأطيعون﴾ يعني: فاتبعوني فيما أمركم به ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: على الإيمان مِنْ أجرٍ يعني: أجراً ﴿إِن أجري﴾ يعني: ما ثوابي ﴿إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقد ذكرناه.

﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ يعني: أنصدقك ﴿واتّبعك الأرذلون﴾ يعني: سفلتنا ويقال: المساكين، ويقال: الضعفاء. قرأ يعقوب الحضرمي: ﴿وأتباعك الأرذلون﴾ وهو جمع تابع ومعناه: وأتباعك الأرذلون، وقراءة العامة ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ بلفظ الماضي اتّبعك من تبعك ﴿قال﴾ لهم نوح: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: ما كنت أعلم أن الله تعالى يهديهم من بينكم ويدعكم ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي﴾ يعني: ما حسابهم إلا على ربي. ويقال: ما سرائرهم إلا عند ربي ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أن الله تعالى علام الغيوب.

قالوا لنوح: اطردهم حتى نؤمن بك. قال لهم نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ما أنا إلا منذر لكم بلغة تعرفونها ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي من المقتولين. ويقال: من المرجومين بالحجارة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ بالعذاب والتوحيد ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ يعني: اقض بيني وبينهم قضاء، ويقال للقاضي: فتاح، وهذه لغة أهل اليمن ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب ومن أذى الكفار ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني: السفينة المملوءة الموقرة من الناس والأنعام، وغير ذلك ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ يعني: من بقي ممن لم يركب السفينة، ولفظ البعد والقبل إذا كان بغير إضافة يكون بالرفع مثل قوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] وكقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ وإذا كانت بالإضافة يكون نصباً في موضع النصب كقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن استخف بفقراء المسلمين واستكبر عن قول الحق ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلم يؤمن من قومه إلاَّ ثمانون من الرجال والنساء ﴿وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن تعظم عن الإيمان، واستخف بضعفاء المسلمين، واستهزأ بهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: كذبوا هوداً عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ يعني: بكل طريق ﴿آية﴾ علامة،

Marfat.com

ويقال: بكل شرف علماً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ يعني: تلعبون ويقال: تضربون، فتأخذون المال ممن مر بكم.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ «يعني: تبنون ما لا تسكنون». وقال أهل اللغة: كل لعب لا لذة فيه فهو عبث. واللعب: ما كان فيه لذة، فهم إذا بنوا بناء ولا منفعة لهم فيه، فكأنهم يعبثون.

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ يعني: القصور. وقال مجاهد: المصانع قصور وحصون. وقال القتبي: المصانع البناء، واحدها مصنعة ويقال: الريع الارتفاع من الأرض. ومعناه: أنكم تبنون البناء والقصور، وتظنون أن ذلك يحصنكم مِنْ أقدار الله تعالى. ويقال: ﴿وتتخذون مصانع﴾ يعني: الحياض ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ يعني: كأنكم تخلدون في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ يعني: عاقبتم ويقال: يعني: ضربتم بالسوط وقتلتم بالسيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يعني: فعلتم كفعل الجبارين، لأن الجبارين يضربون ويقتلون بغير حق، وأصل البطش في اللغة: هو الأخذ بالقهر والغلبة ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ يعني: أعطاكم ﴿بما تعلمون﴾ ما تعلمون من الخير.

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

ثم بيّن فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ يعني: أعطاكم الأموال والبنين ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: البساتين والأنهار الجارية، فاعرفوا رب هذه النعمة، واشكروه ليديم عليكم النعمة، فإنكم إن لم تشكروه فـ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: أعلم أنه يصيبكم العذاب في الدنيا والآخرة.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ﴾ يعني: نهيتنا وخوّفتنا من العذاب ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ يعني: من الناهين. روي عن ابن عباس أنه قال: «هو الوعظ بعينه» ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وابن كثير: ﴿إن هذا إلا خَلْق﴾ بنصب الخاء، وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ بالنصب، فمعناه: ما هذا العذاب الذي تذكره إلا أحاديث الأولين. ويقال: الإحياء بعد الموت لا يكون، وإنما هذا خلق الأولين، أنهم يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قال القتبي: الخلق الكذب كقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] وكقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] أي: خوضهم للكذب. والعرب تقول للخرافات: أحاديث الخلق قال: وأصل الخلق التقدير، وههنا أراد به: اختلافهم وكذبهم. وأما من قرأ بضم الخاء، فمعناه: إن هذا إلا عادة الأولين، والعادة أيضاً تحتمل المعنيين، مثل الأول.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: كذبوا هوداً فأهلكناهم بالريح ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعمل عمل الجبارين، ولا يقبل الموعظة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم عاد، ولو كان أكثرهم لم يهلكهم الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن يعمل عمل الجبارين، ولا يقبل الموعظة، وهو تخويف لهذه الأمة لكيلا يسلكوا مسالكهم، ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صالحاً ومن قبله من المرسلين عليهم السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ يعني: نبيهم ﴿صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هٰهُنَا آمِنِينَ﴾ يعني: في هذا الخير والسعة آمنين من الموت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: البساتين والأنهار. ويقال: العيون هٰهنا الآثار، لأن قوم صالح لم يكن لهم أنهار جارية. ويقال: كانت لهم بالشتاء آبار، وكانوا يسكنون في الجبال، وفي أيام الصيف كانوا يخرجون إلى القصور والكروم والأنهار.

ثم قال عز وجل: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال مقاتل: يعني: متراكباً بعضه على بعض. وقال القتبي: الهضيم الطَّلع قبل أن تنشق عنه القشر يريد أنه منضمّ متكسّر، يقال: رجل أهضم الكشحين، إذا كان منضماً. ويقال: ﴿هضيم﴾ أي طري لين ويقال: ﴿هضيم﴾ متهشهش في الفم ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع: ﴿فرهين﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون ﴿فارهين﴾ بالألف، فمن قرأ ﴿فرهين﴾، فهو بمعنى أشرين بطرين، وهو الطغيان في النعمة، وإنما صار نصباً على الحال. ومن قرأ ﴿فارهين﴾، يعني: حاذقين ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به.

قوله عز وجل: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: قول المشركين وهم تسعة رهط ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: لا يأمرون بالصلاح، ولا يطيعونه فأجابه قومه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعني: من المخلوقين. ويقال: ذو سحر،

Marfat.com

والسحر هو الدية، يعني: إنك مثلنا. وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿من المسحرين﴾ «أي من المخلوقين، وقال: أما سمعت قول لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافيرُ منْ هذا الأنامِ المسحَّرِ

ويقال: ﴿إنما أنت من المسحرين﴾. يعني: سوقة مثلنا، والسّوقه إذا كان دون الملوك.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ
وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

ثم قال: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني: آدمي مثلنا ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك رسول الله تعالى: ﴿قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ والشرب في اللغة: النصيب من الماء، والشُرب بضم الشين المصدر، والشَرب بنصب الشين جماعة الشراب، فكان للناقة شرب يوم، ولهم شرب يوم، فذلك قوله: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يعني: لا تصيبوها بعقر يعني: لا تقتلوها، فإنكم إن قتلتموها ﴿ولا تمسّوها بسوء﴾ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: قتلوا الناقة ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ يعني: فصاروا نادمين على عقرها.

قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: عاقبهم الله تعالى بالعذاب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعظِّم آيات الله تعالى، وكانت النّاقة علامة لنبوة صالح عليه السلام، فلما أهلكوها ولم يعظموها صاروا نادمين، والقرآن علامة لنبوة النبي ﷺ، فمن رفضه، ولم يعمل بما فيه، ولم يعظمه يصير نادماً غداً، ويصيبه العذاب ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم صالح عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن لم يعظم آيات الله تعالى، ﴿الرحيم﴾ لمن تاب ورجع.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى
مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾

Marfat.com

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: لوطاً وغيره ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: أتجامعون الرجال من بين العالمين ﴿وَتَذَرُونَ﴾ يعني: وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني: من نسائكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ يعني: معتدين من الحلال إلى الحرام ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ من مقالتك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ يعني: من المبغضين ويقال: قليتُ الرجل إذا بغضته، ومنه قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٣].

قوله عز وجل: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من الفواحش ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقين في العذاب. يعني: وامرأته. ويقال: إن هذا من أسماء الأضداد. يقال: غبر الشيء إذا مضى، وغبر الشيء إذا بقي: وقال بعض أهل اللغة: القالي التارك للشيء الكاره له غاية الكراهة ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ يعني: أهلكنا الباقين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعني: بئس مطر من أنذر، فلم يؤمن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن عمل الفواحش، أي وارتكب الحرام ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنعمة لمن ارتكب الفواحش، وعمل الحرام ﴿الرحيم﴾ لمن تاب.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿الأيكةِ﴾ بكسر الهاء وبالألف، وقرأ الباقون ﴿ليكة﴾ بغير ألف ونصب الهاء، لأن ليكة اسم بلد ولا تنصرف. من قرأ ﴿الأيكة﴾ فلأنها عرفت بالألف واللام، فيصير خفضاً بالإضافة وقرىء في الشاذ: ليكة بكسر الهاء بغير ألف، لأن الأصحاب مضاف إلى ليكة، فصار اسماً واحداً. ويقال: ﴿الأيكة﴾ هي الشجرة الملتفة يقال: أيك وأيكة، مثل أجم وأجمة، ويقال: شجرة الدوم، وهو شجر المقل ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم، قال بعضهم: كان شعيب بعث إلى قومين أحدهما: مدين، وكان شعيب منهم، فسماه أخاهم حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]، والآخر: أصحاب الأيكة، ولم يكن شعيب عليه السلام منهم، فلم يقل

Marfat.com

أخوهم وقال بعضهم: كان مدين والأيكة واحداً، وهو الغيضة بقرب مدين، فذكره في موضع أخوهم، ولم يذكره في الآخر. ثم قال: ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ يعني: ألا تخافون الله تعالى فتوحدوه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه.

﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ لا تنقصوها ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ يعني: من الناقصين في الكيل والوزن، وفي هذا دليل على أنه أراد بهذا أهل مدين، لأنه ذكر في تلك الآية ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] كما ذكرها هنا.

ثم قال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعني: بميزان العدل بلغة الروم. ويقال: هو القبان ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني: لا تنقصوا الناس حقوقهم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿بِالقِسطاس﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون بالضم، وهما لغتان.

ثم قال: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تسعوا فيها بالمعاصي. يقال: عثا يعثو، وعاث يعيث، وعثى يعثي إذا ظهر الفساد.

ثم قال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: الخليقة الأولين ﴿قَالُوا إِنَّما أَنت مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وقد ذكرناه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: ما نظنك إلا من الكاذبين ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي جانباً من السماء، وقرىء ﴿كِسَفاً﴾ بنصب السين، أي قطعاً، وهو جمع كِسفة ﴿إِنْ كُنْت مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾ من غيره ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من نقصان الكيل ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ثانية ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ لأنه أصابهم حر شديد، فخرجوا إلى الغيضة، فاستظلوا بها، فأرسل عليهم ناراً فأحرقت الغيضة، فاحترقوا كلهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ صار العذاب نصباً، لأنه خبر كان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن نقص في الكيل والوزن ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم شعيب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن نقص الكيل والوزن ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع.

Marfat.com

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾
وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ يعني: القرآن، ويقال: إنه إشارة إلى ما ذُكر في أول السورة ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾، وأنه يعني: الكتاب لتنزيل رب العالمين ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿نزّل﴾ بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف. فمن قرأ بالتشديد، فمعناه: نَزَّلَ الله تعالى بالقرآن الروح الأمين، يعني: جبريل عليه السلام، نصب الروح لوقوع الفعل عليه، يعني: أنزل الله تعالى جبريل بالقرآن. ومن قرأ بالتخفيف، فمعناه: نزل جبريل عليه السلام بالقرآن، فجعل الروح رفعاً لأنه فاعل. ثم قال: ﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾ أي نزله عليك ليثبّت به قلبك، ويقال: أي لكي يحفظ به قلبك. ويقال: ﴿على قلبك﴾ أي نزل على قدر فهمك وحفظك. ويقال: أي نزله عليك فوعاه قلبك، وثبت فيه، فلا تنساه أبداً كما قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] ويقال: ﴿على قلبك﴾ يعني: على موافقة قلبك ومرادك ﴿**لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ يعني: من المخوِّفين بالقرآن للكفار من النار.

ثم قال عز وجل: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ يعني: يبيِّن لهم بلغتهم. ويقال: بلغة قريش وهوازن، وكان لسانهما أفصح. قال مقاتل: وذلك أنهم كانوا يقولون: إنه يُعلمه أبو فكيهة، وكان أعجمياً رومياً، فأخبر أن القرآن بلغة قريش ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ**﴾ يعني: أمر محمد ﷺ ونعته وصفته في كتب الأولين، كما قال: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والزبر: الكتب، واحدها زبور، مثل رسل ورسول، ويقال: إنه يعني: القرآن ﴿لفي زبر الأولين﴾ يعني: بعضه كان في كتب الأولين، ويقال: نعت القرآن، وخبره كان في كتب الأولين.

ثم قال عز وجل: ﴿**أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً**﴾ قرأ ابن عامر وحده ﴿تكن﴾ و ﴿آية﴾ بالضم، وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير ﴿آية﴾ بالنصب. فمن قرأ بلفظ التذكير والنصب جعل ﴿أن يعلمه﴾ اسم كان، وجعل ﴿آية﴾ خبر كان، والمعنى: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل على جهة المعنى. ومن قرأ بلفظ التأنيث والضم، جعل ﴿آية﴾ هي الاسم، ﴿وأن يعلمه﴾ خبر تكن، ومعنى القراءتين واحد، وذلك أن كفار مكة بعثوا رسولاً إلى يهود المدينة، وسألوهم عن بعثته فقالوا: هذا زمان خروجه ونعته كذا، فنزل: ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ يعني: لكفار مكة ﴿آية﴾ يعني: علامة ﴿**أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ يعني: إن هذا علامة لهم ليؤمنوا به.

ثم قال: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ**﴾ يعني: القرآن لو نزلناه بالعبرانية على رجل ليس بعربي اللسان من العبرانيين ﴿**فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ**﴾ يعني: على كفار مكة ﴿**مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾

Marfat.com

يعني: بالقرآن، فهذا منة من الله تعالى، حيث خاطبهم بلغتهم ليفهموه. وقال القتبي: في قوله ﴿على بعض الأعجمين﴾ يقال: رجل أعجمي إذا كان في لسانه عجمة، وإن كان من العرب، ورجل عجمي بغير ألف إذا كان من العجم وإن كان فصيح اللسان.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني: جعلنا التكذيب بالقرآن ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين مجازاة لهم، أي طبع على قلوبهم، وسلك فيها التكذيب. ويقال: جعل حلاوة الكفر في قلوبهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: بالقرآن ويقال: بمحمد ﷺ ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ يعني: يأتيهم العذاب فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ به فيتمنون الرجعة والنظرة ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ فلما وعدهم العذاب قالوا: فأين العذاب؟ تكذيباً به. يقول الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أبمثل عذابنا يستهزئون ثم قال ﴿أفرأيت إنْ متَّعْناهُم سِنِينَ﴾ يعني: سنين الدنيا كلها. ويقال: سنين كثيرة ﴿ثُمَّ جاءَهُم ما كانوا يُوعَدُون﴾ من العذاب.

قال عز وجل: ﴿ما أغنَى عَنهُمْ﴾ يعني: ما ينفعهم ﴿مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

ثم خوفهم فقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ يعني: من أهل قرية فيما خلا ﴿إلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يعني: رسلاً ينذرونهم ﴿ذِكْرَى﴾ يعني: العذاب تذكرة وتفكراً، قال بعضهم: إن ﴿ذكرى﴾ في موضع النصب. وقال بعضهم: في موضع رفع. أما من قال: في موضع النصب، فيقول: لها منذرون يذكرونهم ذكرى، يعني: يعظونهم عظة. ومن قال: إنه في موضع رفع فيقول: لها منذرون هم ذكرى ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعني: بإهلاكنا إياهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾. روي عن الحسن أنه قرأ ﴿وما تنزلت به الشياطنون﴾ شبههُ بقوله: كافرون ومسلمون. قال أبو عبيدة: وهذا وهم، لأن واحدها شيطان، والنون فيه أصلية، أما مسلمون وكافرون فالنون فيهما زائدة في الجمع، لأن واحدهما مسلم وكافر. وقال بعضهم: هذا غلط على الحسن، لأنه كان فصيحاً لا يخفى عليه، وإنما الغلط من الراوي، ومعنى الآية: أن المشركين كانوا يقولون: إن الشيطان هو الذي يقرأ عليه. قال الله

Marfat.com

تعالى رداً لقولهم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ يعني: وما جاز لهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك، وقد حيل بينهم وبين السمع.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: «لا يستطيعون أن يحملوا القرآن، ولو فعلوا ذلك لاحترقوا».

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ يعني: إنهم عن الاستماع لمحجوبون وممنوعون.

ثم قال ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ﴾ وذلك حين دُعي إلى دين آبائه، فأخبره الله تعالى أنه لو اتخذ إلٰهاً آخر عذبه الله تعالى، وإن كان كريماً عليه كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فكيف بغيره.

وروي في الخبر: «أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: أرميا، بأن يخبر قومه بأن يرجعوا عن المعصية، فإنهم إن لم يرجعوا أهلكتهم، فقال أرميا: يا رب إنهم أولاد أنبيائك، أولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، أفتهلكهم بذنوبهم؟ قال الله تعالى: وإنما أكرمت أنبيائي لأنهم أطاعوني، ولو أنهم عصوني لعذبتهم، وإن كان إبراهيم خليلي» ويقال: ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ المراد به غيره، لأنه علم أن النبي ﷺ لا يتخذ إلٰهاً آخر ثم قال ﴿فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ﴾ إن عبدت غيري، فتكون من الهالكين.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ يعني: خوِّف أقرباءك بالنار لكي يؤمنوا، ويثبتوا على الإيمان من كان منهم مؤمناً. وروى هشام عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ جمع النبي ﷺ أهل بيته فقال لهم: **«يَا بَنِي هَاشِم يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم، وَأَنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شيئاً، لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، وَإِنَّما أَوْلِيائِي مِنكُمُ المُتَّقُونَ، فَلا أَعْرِفَنَّ مَا جَاءَ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِالآخِرَةِ، وَجِئْتُمْ بِالدُّنْيا تَحْمِلُونَها عَلَى رِقَابِكُمْ»**(1) وذكر السدي هكذا ثم قال: **«أَلا فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»**.

وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال لما نزل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ «أتى رسول الله ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى بأعلى صوته: **«يا صباحاه»**، فاجتمع الناس فقال عليه

---

(1) بنحوه حديث عائشة: عند مسلم (٢٠٥) وأحمد ٦/ ١٨٧ والترمذي (٣١٨٤). وحديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٥٣) و(٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤) وأحمد ٢/ ٣٣٣ و٣٦٠.

Marfat.com

السلام: «يا بَني عَبْدِ المُطَّلِبِ، يا بَني هَاشِم، أرَأيْتُم لَوْ أخبَرْتُكُمْ أنَّ خَيلاً بِسَفحِ هٰذا الجَبَلِ تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ عَلَيكُمْ أصَدَّقتُمُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم وما دعوتنا إلا لهذا! فنزل ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][1].

ثم قال عز وجل: ﴿واخفِضْ جَناحَكَ﴾ يعني: ليِّن جانبك ﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾ يعني: من المصدقين بك ﴿فَإنْ عَصَوْكَ﴾ قال مقاتل: فيها تقديم يعني: الأقربين فإن خالفوك ﴿فَقُلْ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك.

ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿فتوكل﴾ بالفاء، لأنه متصل بالكلام الأول، ودخلت الفاء للجزاء. وقرأ الباقون: ﴿وتوكل﴾ بالواو على وجه العطف، ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ يعني: ثق بالله، وفوض جميع أمورك إلى العزيز الرحيم ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في الصلاة وحدك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يعني: وحين تصلي في الجماعة. وقال عكرمة: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ قال: في حال القيام والركوع والسجود يعني: يرى قيامك وركوعك وسجودك، ويراك مع المصلين، ويقال: الذي يراك حين تقوم من منامك للصلاة بالليل، ويقال: حين تقوم وتدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله، ويقال: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ يعني: تقلبك في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات من آدم إلى نوح، وإلى إبراهيم، وإلى من بعده صلوات الله عليهم. قوله عز وجل: ﴿إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ يعني: بآبائهم وبأعمالهم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: هل أخبركم ﴿عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هذا موصول بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أفَّاكٍ أثِيمٍ﴾ يعني: كذاب صاحب الإثم، فاجر القلب. الأفاك: الكذّاب، والأثيم: الفاجر، يعني به: كهنة الكفار ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ يعني: يلقون بآذانهم إلى السمع من السماء لكلام الملائكة عليهم السلام ﴿وَأكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يعني: حين يخبرون الكهنة. وروى معمر عن الزهري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «الشياطين تسترق السمع، فتجيء بكلمة حق، فتقذفها في أذن وليها، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة». وهذا كان قبل أن يحجبوا من السماء.

---

(١) حديث ابن عباس أخرجه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨) وأحمد ١/ ٢٨١ و٣٠٧ والترمذي (٣٣٦٣).

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال قتادة ومجاهد: يتبعهم الشياطين. وقال في رواية الكلبي: الغاوون هم الرواة الذين كانوا يروون هجاء النبي ﷺ وأصحابه. ويقال: ﴿الغاوون﴾ هم الضالون. ويقال: شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله ﷺ فيتبعهم الكفار.

ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يعني: في كل وجه وفن يذهبون ويخوضون، يأخذون مرة يذمون، ومرة يمدحون، وذكر عن القتبي أنه قال: ﴿في كل واد يهيمون﴾ من القول، وفي كل مذهب يذهبون كما تذهب البهائم على وجهها. وقال غيره: هام الرجل والبعير، إذا مضى على وجهه، لا يدري أن يذهب، فكذلك الشاعر يأخذ كلامه لا يدري أين ينتهي. قرأ نافع وحده ﴿يتْبعهم﴾ بجزم التاء، والتخفيف، وقرأ الباقون ﴿يتَّبعهم﴾ بنصب التاء والتشديد، وهما بمعنى واحد: يتْبَعهم، ويتَّبعهم.

ثم قال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: أن الشعراء يقولون قد فعلنا كذا وكذا، وقلنا كذا، فيمدحون بذلك أنفسهم وهم كذبة. ثم استثنى شعراء المسلمين حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك رضي الله عنهم، فقال عز وجل: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ يعني: ذكروا الله في أشعارهم. ويقال: وذكروا الله عز وجل في الأحوال كلها ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يعني: انتصر شعراء المسلمين من شعراء الكافرين، فكافؤوهم والبادىء أظلم. ويقال: انتصروا من أهل مكة من بعدما أخرجوا، لأن الحرب تكون بالسيف وباللسان، فأذن القتال بالشعر، كما أذن بالسيف، إذ فيه قهرهم.

ثم أوعد شعراء الكافرين فقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الذين هجوا المسلمين ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ يعني: أي مرجع يرجعون إليه في الآخرة، يعني: إلى الخسران والنار. ويقال: هاتان الآيتان مدنيتان، وذُكر أنه لما نزل ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ جاء عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وهما يبكيان فقرأ رسول الله ﷺ ﴿والشُّعَرَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقال: عليه السلام «هذا أنتم» ﴿وانْتَصرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أنتم. وروي عن عكرمة قال عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً، وَإِنَّ مِنَ الشُّعَرَاءِ لَحُكَمَاءَ»(١) وفي رواية أخرى: «إنّ من الشعر لحكماً وَإِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً» والله سبحانه وتعالى أعلم ـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم(٢).

---

(١) حديث ابن عباس: «إنّ من الشعر لحكمة» أخرجه الترمذي (٢٨٤٥) وأبو داود (٥٠١١) وابن ماجه (٣٧٥٦) وأحمد ١/ ٢٦٩، ٢٧٢. وحديث أبي بن كعب عند أحمد ٥/ ١٢٥ والبخاري (٦١٤٥) وحديث ابن عباس «إن من البيان سحراً وإنّ من الشعر حكماً، عند الترمذي (٢٨٤٥) والطيالسي (٢٦٧٠) وأحمد ١/ ٣٠٣، ٣٠٩.

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة «أ».

Marfat.com

سورة النمل

كلها مكية، وهي تسعون وأربع آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ
فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ﴾ يعني: هذه الأحكام، ويقال: تلك الآيات التي وعدتم بها، وذلك أنهم وعدوا بالقرآن في كتبهم. ويقال: ﴿آيات﴾ يعني: العلامات ويقال: جميع أحرف القرآن ﴿وَكِتَابٍ مبين﴾ كلاهما واحد، وإنما كرر اللفظ للتأكيد ﴿مبين﴾ يعني: بيّن ما فيه من أمره ونهيه. ويقال: مبين لأحكام الحلال والحرام.

ثم قال: ﴿هُدًى﴾ يعني: القرآن هدى وبياناً من الضلالة لمن عمل به. ويقال ﴿هدى﴾ يعني: هادياً ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ما فيه من الثواب للمؤمنين. قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وبُشرى﴾ بإمالة الراء، وقرأ الباقون بالتفخيم، وكلاهما جائز، والإمالة أكثر في كلام العرب، والتفخيم أفصح، وهي لغة أهل الحجاز ﴿للمؤمنين﴾، يعني: للمصدقين بالقرآن أنه من الله تعالى.

ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ يعني: يقرون بها ويتمونها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني: يقرون بها ويعطونها ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بأنها كائنة.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث بعد الموت ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالَهُم﴾ يعني: ضلالتهم عقوبة لهم ولما عملوا، ومجازاة لكفرهم زيّنا لهم سوء أعمالهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يترددون فيها، ويتحيرون في ضلالتهم.

قوله عز وجل: ﴿أولَئِكَ﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾ يعني: شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ يعني: الخاسرون بحرمان النجاة، والمنع من الحسنات. ويقال: هم أخسر من غيرهم. وقال أهل اللغة: متى ذكر الأخسر مع الألف واللام، فيجوز أن يراد به الأخسر من غيرهم. وإن لم يذكر غيرهم، وإن ذكر بغير ألف ولام، فلا يجوز أن يراد به أنه أخسر إلا أن يقال هو أخسر من فلان أو من غيره.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ يعني: لتؤتى بالقرآن، يعني: كقوله ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت: ٣٥] يعني: وما يؤتى بها. ويقال: ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ يعني: لتلقن القرآن. وقال أهل اللغة: تلقى وتلقن بمعنى واحد إذا أخذ وَقُبِلَ من غيره. ويقال ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾، أي يلقى إليك القرآن وحياً من الله عز وجل. ثم قال: ﴿مِن لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: نزل عليك جبريل من عند ﴿حكيم﴾ عليم في أمره، ﴿عليم﴾ بأعمال الخلق.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأهْلِهِ﴾ قال بعضهم: معناه إنه عليم بما ينزل عليك، كعلمه بقول موسى عليه السلام. ويقال: حكمت لك بالنبوة، كما حكمت لموسى، إذ قال لأهله: ﴿إنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ يعني: رأيت ناراً وأبصرتها من بعيد ﴿سَآتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني: خبر الطريق ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ يعني: بنارٍ أصيبها ويقال: كل أبيض ذي نور فهو شهاب، والقبس: كل ما يقتبس من النار، والقبس: يعني المقبوس. كما يقال: ضرب فلان، يعني: مضروبه.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿شهابٍ قبس﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين. فمن قرأ منوناً، جعل القبس نعتاً لشهاب ومن قرأ ﴿بشهاب﴾ غير منون، أضاف الشهاب إلى القبس ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يعني: تستدفئون من البرد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جاءَهَا﴾ يعني: النار، ويقال يعني: الشجرة ﴿نُودِيَ أن بورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ يعني: بورك مَنْ عند النار، وهو موسى عليه السلام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: الملائكة عليهم السلام وهو على وجه التقديم: ﴿فلما جاءها﴾ ومن حولها من الملائكة، ﴿نودي أن بورك من في النار﴾ أي: عند النار. ويقال: من في طلب النار، وقصدها والمعنى: بورك فيك يا موسى. وقال أهل اللغة: بارك فلان وبارك فيه، وبارك عليه واحد، وهذا تحية من الله تعالى لموسى عليه السلام ثم قال: ﴿وَسُبْحَانَ الله﴾ يعني: قيل له: قل سبحان الله تنزيهاً لله تعالى من السُّوء ويقال: إنه أي الله في النداء قال: ﴿فسبحان الله رَبّ العَالَمِينَ﴾ وقال بعض المفسرين: كان ذلك نور رب العزة، وإنما أراد به تعظيم ذلك النور، كما يقال للمساجد بيوت الله تعظيماً لها.

Marfat.com

ثم قال عز وجل: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ﴾ وذكر عن الفراء أنه قال: هذه الهاء عماد، وإنما يراد به وصل الكلام، كما يقال: إنما، وما يكون للوصل، كذلك هٰهنا، فكأنه قال: يا موسى إني أنا الله ﴿العزيز الحكيم﴾ ويقال: معناه إن الذي تسمع نداءه هو الله العزيز الحكيم.

قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني: من يدك فألقاها، فصارت حية، وقد يجوز أن يضمر الكلام إذا كان في ظاهره دليل ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ يعني: تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ يعني: حية والجان هي الحية الخفيفة الأهلية، فإن قيل: إنه قال في موضع آخر، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] والثعبان الحية الكبيرة، فأجاب بعض أصحاب المعاني: أنه كان في كبر الثعبان، وفي خفة الجان. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: والجواب الصحيح: أن الثعبان كان عند فرعون، والجان عند الطور.

ثم قال: ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ يعني: أدبر هارباً من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يعني: لم يرجع. ويقال: لم يلتفت.

يقول الله تعالى لموسى ﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ﴾ من الحية ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: إلا من ظلم، ثم استثنى فقال: ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ قال مقاتل: إلا من ظلم نفسه من المرسلين، مثل آدم وسليمان، وإخوة يوسف، وداود وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ويقال: ﴿إلا من ظلم﴾ يعني: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً﴾ أي: فعل إحساناً ﴿بعد سوء﴾ أي بعد إساءته ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال الكلبي: ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ﴾ يعني: أشرك فهذا الذي يخاف ﴿ثم بدل حسناً﴾ يعني: توحيداً بعد سوء، يعني: بعد شرك ﴿فإني غفور رحيم﴾.

قال أبو الليث رحمه الله: وتكون إلاّ على هذا التفسير، بمعنى: لكن، لا على وجه الاستثناء، وذكر عن الفراء أنه قال: الاستثناء وقع في معنى مضمر من الكلام، كأنه قال: لا يخاف لدي المرسلون، بل غيرهم يخاف ﴿إلا من ظلم نفسه ثم تاب﴾ فإنه لا يخاف.

وقال القتبي: هذا لا يصح، لأن الإضمار يصح إذا كان في ظاهره دليل، ولكن معناه: أن الله تعالى لما قال: ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾، علم أن موسى كان مستشعراً خيفة من قبل القبطي، فقال: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ فإنه يخاف، ولكني أغفر له، ﴿فإني غفور رحيم﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يعني: جيب المدرعة، ثم أخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يعني: من غير برص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ يعني: هذه الآية من تسع آيات، كما تقول أعطيت لفلان عشرة أبعرة فيها فحلان، أي منها وقد بيّن في موضع آخر حيث قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وقد ذكرناها. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ يعني: اذهب إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: إنهم كانوا قوماً عاصين.

Marfat.com

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ يعني: جاءهم موسى بآياتنا التسع ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني: معاينة. ويقال: مبينة، يعني: علامة لنبوته، ويقال: ﴿مبصرة﴾ يعني: مضيئة واضحة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي بيّن ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ يعني: بالآيات بعد المعرفة ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم﴾ أنها من الله تعالى، وإنما استيقنتها قلوبهم، لأن كل آية رأوها استغاثوا بموسى، وسألوا بأن يكشف عنهم، فكشفنا عنهم، فظهر لهم بذلك أنه من الله تعالى. وفي الآية تقديم ومعناه: وجحدوا بها ﴿ظُلْماً﴾ يعني: شركاً ﴿وَعُلُوّاً﴾ يعني: تكبراً وترفعاً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿واستيقنتها﴾ أنفسهم يعني: وهم يعلمون أنها من الله تعالى.

ثم قال: ﴿فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ﴾ يعني: الذين يفسدون في الأرض بالمعاصي، فكانت عاقبتهم الغرق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَينا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ يعني: علم القضاء، والعلم بكلام الطير والدوابّ ﴿وَقَالا﴾ يعني: داود وسليمان ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾ بالكتاب والنبوة وكلام الطير والبهائم والملك، ويقال: فضلنا على كثير من الأنبياء، حيث لم يعط أحداً من الأنبياء عليهم السلام ما أعطانا. وقال مقاتل: كان سليمان أعظمَ مُلكاً، وأقضى من داود، وكان داود أشدّ تعبداً من سليمان عليهما السلام.

ثم قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ يعني: ورث ملكه. وقال الحسن: ورث المال والملك لا النبوة والعلم، لأن النبوة والعلم فضل الله تعالى، ولا يكون بالميراث ويقال: ورث العلم والحكم لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون دراهم ولا دنانير.

﴿وقال﴾ سليمان لبني إسرائيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيرِ﴾ يعني: أفهمنا وألهمنا منطق الطير، وذلك أن سليمان كان جالساً في أصحابه إذ مرّ بهم طير يصوت، فقال لجلسائه:

Marfat.com

أتدرون ماذا يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: ليت الخلق لم يخلقوا، فإذا خلقوا علموا لماذا خلقوا قال: وصاح عنده ديك فقال: هل تدرون ماذا يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول اذكروا الله يا غافلون.

ثم قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: أعطينا علم كل شيء. ويقال: النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أعطينا ﴿لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ يعني: البيّن ويقال: المبين، يبين للناس فضلهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ يعني: جموعه، والحشر: هو أن يجمع ليساق، ثم قال: ﴿مِنَ الجِن والإنسِ وَالطَّيرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: يساقون. ويقال: ﴿يوزعون﴾ يعني: يكفون ويحبس أوَّلهم على آخرهم، وأصل الوزع: الكفُّ، يقال: وزعت الرجل إذا كففته. وعن الحسن أنه قال: لا بد للناس من وزعة، أي: من سلطان يكفهم. وقال مقاتل: إنه استعمل جنياً عليهم، يرد أولهم على آخرهم. ويقال: هكذا عادةُ القوافل والعساكر. - ويقال: ﴿وحشر﴾، أي: جمع لسليمان جنوده في مسيره له من الجن والإنس والطير ﴿فهم يوزعون﴾ يجلس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا[1] -.

قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ وذلك أن سليمان كان له بساط فرسخ في فرسخ، ويقال: أربع فراسخ في أربع فراسخ، وكان يضع عليه كرسيه وجميع عساكره عليه، ثم يأمر الريح فترفعه، وتذهب به مسيرة شهر في ساعة واحدة. فركب ذات يوم في جموعه، فمر بواد النمل في أرض الشام. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم﴾ يعني: في بيوتكم، ويقال: حجركم ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يهلكنّكم، ويقال: لا يكسرنكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ بأن يظلموكم. وإنما خاطبهم بقوله ﴿ادخلوا﴾ بخطاب العقلاء، لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء، ثم قال: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم ولو كانوا يشعرون بكم، لا يحطمونكم لأنهم علموا أن سليمان ملك عادل لا بغي فيه ولا جور فيه، ولئن علم بها لم توطأ ويقال: ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني: جنوده خاصة، لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده. ويقال: ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني: النمل لا يشعرون بجنود سليمان حتى أخبرتهم النملة المنذرة، فرفع الريح صوتها إلى سليمان. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً من قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام، وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه، يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمّنكم. ويقال: ﴿فتبسم ضاحكاً﴾ أي متعجباً. ويقال: فرحاً بما أنعم الله تعالى عليه. ﴿ضاحكاً﴾ صار نصباً على الحال. و﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: ألهمني، ويقال: أوزعني من الكف أيضاً، كأنه قال: احفظ جوارحي لكيلا تشتغل

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».

Marfat.com

بشيءٍ سوى شكرك الذي أنعمت عليَّ. ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ يعني: النبوة والملك. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ يعني: تقبله مني. وذكر أنه مر بزارع، فقال الزارع: إنه ما أعطي مثل هذا الملك لأحد؟ فقال له سليمان: ألا أنبئك بما هو أفضل من هذا؟ القصد في الغنى والفقر، وتقوى الله تعالى في السر والعلانية، والقضاء بالعدل في الرضا والغضب.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ يعني: في جنتك ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مع عبادك الصالحين، يعني: المرسلين. فوقف سليمان عليه السلام بموضعه ليدخل النمل مساكنهم، ثم مضى.

قرأ يعقوب الحضرمي وأبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿لا يحطمنكم﴾ بسكون النون، وقراءة العامة بنصب النون والتشديد، وهذه النون تدخل للتأكيد فيجوز التخفيف والتثقيل، ولفظه لفظ النهي، ومعناه جواب الأمر، يعني: إن لم تدخلوا مساكنكم حطمكم.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ يعني: طلب الطير، وذلك أنه أراد أن ينزل منزلاً، فطلب الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ وكان رئيس الهداهد، وكان سليمان قد جعل على كل صنف منهم رئيساً، ثم جعل الكركي رئيساً على جميع الطيور. قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة ﴿ما ليَ﴾ بسكون الياء. وقرأ الباقون بنصب الياء، وهما لغتان يجوز كلاهما.

ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ﴾ يعني: أم كان غائباً لم يحضر بعد. ويقال: الميم للصلة، ومعناه ﴿أكان من الغائبين﴾ يعني: أصار من الغائبين. وذكر أن الهدهد كان مهتدياً يعرف المسافة التي بينهم وبين الماء. ويقال: كان يعرف الماء من تحت الأرض، ويراه كما يرى من القارورة.

وروى عكرمة أنه قال: قلت لابن عباس: كيف يرى الماء من تحت الأرض، وأن صبياننا يأخذونه بالفخ فلا يرى الخيط والشبكة؟ فقال ابن عباس: «ما ألقى هذه الكلمة على لسانك إلا الشيطان، أما علمت أنه إذا نزل القضاء ذهب البصر؟». فدعا سليمان أمير الطير، فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو؟ وما أرسلته مكاناً، فغضب سليمان عند ذلك وقال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني: لأنتفن ريشه فلا يطير مع الطيور حولاً، ولأشمسنه في الحر حتى يأكله الذر ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني: لأقتلنه حتى لا يكون له نسل ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مبين﴾ يعني: بحجة بينة واضحة أعذره بها، فإن قيل: كيف يجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم؟ قيل له: تجوز العقوبة على وجه التأديب إذا كان منه ذنب، كما يجوز للأب أن يؤدب ولده الصغير، وأما الذبح فيجوز، وإن لم يكن منه الذنب.

قرأ ابن كثير ﴿ليأتينني﴾ بنونين. وقرأ الباقون بنون واحدة. فمن قرأ بنونين فهو للتأكيد،

Marfat.com

لأن النون الأولى مشددة، وتسمى تلك نون القسم، وهي في الحقيقة نونين، والنون الثانية للإضافة. ومن قرأ بنون واحدة، فقد استقل الجمع بين النونات، واقتصر على نونين، فأدغم إحداهما في الأخرى.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٖ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قرأ عاصم بنصب الكاف، وقرأ الباقون بالضم، وهما لغتان ومعناهما واحد، يعني: لم يلبث إلا قليلاً. ويقال: لم يطل الوقت حتى جاء الهدهد ﴿فقال﴾. فقال له سليمان: أين كنت؟ فخرّ له ساجداً وقال: ﴿أحطت﴾ وفي الآية مضمر، معناه: فمكث غير بعيد أن جاءه الهدهد فقال له سليمان: أين كنت؟ فخرّ له ساجداً، فقال ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ يعني: علمت ما لم تعلم به، وجئتك بخبر لم تكن تعلمه، ولم يخبرك عنه أحد. ثم أخبره فقال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ فإن قيل: كيف يجوز أن يقال إن سليمان لم يعلم به، وكانت أرض سبأ قريبة منه، وهناك ملك لم يعلم به سليمان؟ قيل له: علم سليمان ذلك، ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس. ويقال: إنه علم بها، ولكنه لم يعلم أن ملكها قد بلغ هذا المبلغ، وعلم أنهم أهل الضلالة، والإحاطة: هي العلم بالأشياء بما فيها وجهاتها كما قال ﴿وجئتك من سبإ﴾، يعني: من أرض سبأ، وهي مدينة باليمن ﴿بنبإ يقين﴾ يعني: بخبر صدق لا شك فيه. ويقال: بخبر عجيب.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿سبأ﴾ بالنصب بغير تنوين. وقرأ الباقون بالكسر والتنوين. فمن قرأ بالنصب جعله اسم مدينة، وهي مؤنث لا ينصرف، ومن قرأ بالكسر والتنوين جعله اسم الرجل. ويقال: جعله اسم مكان. فقال له سليمان: وما ذلك الخبر؟ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني: تملك أرض سبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٖ﴾ يعني: أعطيت علم ما في بلادها. ويقال: من كل صنف من الأموال والجنود، وأنواع الخير مما يعطى الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٞ﴾ يعني: سريراً كبيراً أعظم من سريرك. ويقال: كان طول سريرها ثمانون ذراعاً في ثمانين مرصعاً بالذهب والدر والياقوت، وقوائمه من اللؤلؤ والياقوت، واسمها بلقيس. قال مقاتل: كانت أمها من الجن. ويقال: ﴿ولها عرش عظيم﴾، أي شديد.

قوله عز وجل: ﴿وَجَدتُّهَا﴾ يعني: رأيتها ﴿وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ يعني: يعبدون

Marfat.com

الشمس ﴿مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: طريق الهدى، ومعناه: صدهم الشيطان عن الإسلام، فهم لا يهتدون. يعني: لا يعرفون الدين.

قوله عز وجل: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ﴾ قرأ الكسائي ﴿ألا يسجدوا﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بتشديد ﴿إلا﴾ ،فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: أن الهدهد قال عند ذلك: أنْ لاَ تسجدوا لله؟ وقال مقاتل: هذا قول سليمان قال لقومه: ﴿ألا يسجدوا﴾ ويقال هذا كلام الله ﴿ألا يسجدوا لله﴾ وهذا من الاختصار، فكأنه قال: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله. ومن قرأ بالتشديد فمعناه: فصدهم عن السبيل أن لا يسجدوا لله، يعني: لأن لا يسجدوا. ويقال: معناه ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ لئلا يسجدوا لله. وقال بعضهم: وإذا قرىء بالتخفيف، فهو موضع السجدة، وإذا قرىء بالتشديد، فليس بموضع سجدة في الوجهين جميعاً، وهذا القول أحوط. ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ يعني: المخبئات ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مثل المطر والثلج، ويعني: في الأرض مثل النبات والأشجار والكنوز والموتى. ويقال: الذي يظهر سر أهل السموات والأرض ويعلنها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي الذي يعلم ذلك. قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ما تخفون وما تعلنون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة لهم. وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر لهم.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ في قولك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: أم أنت فيه من الكاذبين. فكتب كتاباً وقال له: ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني: انصرف. وقال بعضهم: ﴿اذهبْ بكتابي هذا فألقه إليهم﴾ ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يعني: على ماذا يتفقون. ﴿ثم تول عنهم﴾. يعني: ارجع عنهم. ويقال: ليس فيها تقديم ومعناه: ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾ يعني: استأخر في ناحية غير بعيد، ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾؟ أي ماذا يريدون من الجواب أو ﴿ماذا يرجعون﴾ أي ماذا يرجع رأيهم ويتفق عليه من الجواب؟ قرأ الكسائي ابن عامر وابن كثير، ﴿فألقهي إليهم﴾ بالياء بعد الهاء. وقرأ أبو عمرو في

Marfat.com

إحدى الروايتين وقرأ حمزة وعاصم ﴿فألقِهْ﴾ بالجزم. وقرأ نافع ﴿فألقهِ إليهم﴾ بكسر الهاء، ولا يبلغ الياء، وكل ذلك جائز في اللغة. والقراءة بالياء أشبع اللغتين وأكثر استعمالاً. قال مقاتل: فجعل الهدهد الكتاب في منقاره، ثم طار حتى وقف على رأس المرأة، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، فرفعت المرأة رأسها، فألقى الهدهد الكتاب في حجرها.

وروي في بعض الروايات: «أنها كانت نائمة في البيت وقد أغلقت بابها، فدخل من الكوة، ووضع الكتاب على صدرها. ويقال: عند رأسها. وأكثر الروايات: أنه ألقاه في حجرها، فقرأت الكتاب. فرأت فيه الخاتم، فرعدت وخضعت، وخضع من معها من الجنود، لأن ملك سليمان كان في خاتمه، فقرأت الكتاب وأخبرتهم بما فيه». قال مقاتل: ولم يكن في الكتاب إلا قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لأن كلام الأنبياء عليهم السلام على الإجمال. ولا يكون على التطويل. وقال في رواية الكلبي: كتب في الكتاب «إن كنتم من الإنس، فعليكم بالطاعة، وإن كنتم من الجن، فقد عبدتم إلى قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: حسن. ويقال: كتاب مختوم.

وروي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كرامةُ الكتابِ ختمُه». ويقال: كل كتاب لا يكون مختوماً، فهو معلوب. ويقال: كان سليمان عليه السلام إذا كتب إلى الشياطين ختمه بالحديد، وإذا كتب إلى الجن ختمه بالصُفر، وإذا كتب إلى الإنس ختمه بالطين، وإذا كتب إلى الملوك ختمه بالفضة، فجعل ختم كتابها من ذهب. ويقال: إن المرأة إنما قالت: ﴿كتاب كريم﴾، لأنها ظنت أنه نزل من السماء، فلما نظرت إليه قرأت عنوانه: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ يعني: في داخله وأول سطره ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ يعني: لا تتعظموا عليّ، ولا تتطاولوا عليّ. ويقال: لا تترفعوا علي، وإن كنتم ملوكاً. ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مستسلمين خاضعين. ويقال: ﴿مسلمين﴾ يعني: مستسلمين مخلصين ويقال: منقادين طائعين.

- قال محمد بن موسى: إنما بدأ سليمان بنفسه لعلمه بأن ذكره على سائر الملوك أعظم من ذكر معبوده، فهوّل عليها بذكر نفسه، ثم ذكر معبوده، فذهبت بنفسها وانقادت في مملكتها. وإنما خافت من هول سليمان حين آمنت بالله فقالت عند ذلك: ربِّ إني ظلمتُ نفسي بعبادة الشمس وما خفتُ منك، فالآن عرفتك وتبت إليك، وأنت ربُّ العالمين. ﴿قالت﴾ المرأة[1] -:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يعني: قالت المرأة يا أيها لأشراف والقادة ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ وكان لها ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً، تحت يد كل قائد ألف رجل، وقد قيل: أكثر من هذا: ﴿أفتوني في أمري﴾. يعني: أجيبوني في أمري. ويقال: بينوا لي أمري ما أعملُ. ويقال: أخبروني. ويقال: أشيروا عليّ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ اي: قاضية أمراً ويقال: فاصلةً أمراً. ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

يعني: تحضرون أي: لا أقطع أمراً دونكم ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها ﴿نَحْنُ أُولُو قوة﴾ يعني: عدة وكثرة وسلاحاً ﴿وأولو بأس شديد﴾ يعني: وقتال شديد ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ يعني: أخبرناك بما عندنا أيتها الملكة، ومع ذلك لا نجاوز ما تقولين. يعني: إن أمرتينا بقتال قاتلنا، وإن أمرتنا بغير ذلك أطعناك ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ يعني: ماذا تشيرين إلينا.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ﴾ يعني: المرأة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ على وجه العنوة والغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يعني: أهلكوها وخربوها وقتلوا أهلها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ يعني: أهانوا أشرافها وكبراءها ليستقيم لهم الأمر ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: هذا قول الله تعالى للنبي ﷺ قال: ﴿وكذلك يفعلون﴾ تصديقاً لقول المرأة. وقال الحسن: هذا قول بلقيس: إن سليمان وجنوده كذلك يفعلون، وأكثر المفسرين على خلاف ذلك.

ثم قالت المرأة: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ يعني: أصانعهم بالمال، فإن كان من أهل الدنيا فإنه يقبل ويرضى بذلك، ويقال: أختبره أملك هو أم نبي؟ فإن كان ملكاً قبلها، وإن كان نبياً لم يقبلها ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: أنظر بماذا يرجع المرسلون من الجواب من عنده؟ وذكر في الخبر: أنها بعثت إليه لبنتين من ذهب والمسك والعنبر، وبعثت بعشرة غلمان، وعشرة جواري. وكان في الغلمان بعض اللين، وكان في الجواري بعض الغلظة، وأمرت بأن تخضب أيديهم جميعاً، وجعلتهم على هيئة الجواري، وبعثت إليه جوهرة في ثقبها اعوجاج، وطلبت أن يدخل الخيط فيها، فأمر سليمان الشياطين بأن يلقوا في طريق الرسل لبناً كثيراً من ذهب، فلما جاءت رسل بلقيس استحضروا هديتهم، فلما قدموا على سليمان أمر بماء فوضع، وأمر الغلمان والجواري بأن يتوضأوا منه، فجعل الغلام يحدر الماء على يده حدراً، وأما الجواري، فكن يصببن صباً. وفي رواية أُخرى: كانت الجارية تأخذ الماء بكفها وتدلك ذراعيها. وأما الجوهرة، فأخذ دودةً حمراء عقد فيها خيطاً، ثم أدخلها في الحجر حتى خرجت من الجانب الآخر، فرد الهدية. وقال للوفد: ﴿أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ يعني: أتغرونني بالمال؟

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ قال بعضهم: يعني، جاء الرسول. وقال بعضهم: يعني، جاء بريدها والأول أشبه، لأنه خاطب الرسول. ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ قرأ حمزة ﴿أتمدوني بمال﴾ بنون واحدة والتشديد، وقرأ الباقون بنونين وأصله نونان، إلا أن حمزة أدغم

Marfat.com

إحداهما في الأخرى، وشددها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿أتمدونني﴾ بالياء في الوصل، لأنه في الأصل الياء، وهو ياء الإضافة. وقرأ الباقون بغير ياء، لأن الكسر يدل عليه.

ثم قال: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللهُ﴾ يعني: ما أعطاني الله عز وجل من النبوة والحكمة والدين والإسلام والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ يعني: خير مما أعطاكم من الدنيا والمال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ يعني: إذا أهدى بعضكم إلى بعض، ويقال: معناه بل أنتم تفرحون بهديتكم إذا ردَّت إليكم، لأنكم قليلو المال. ويقال: لأنكم مكاثرة بالدنيا.

قوله عز وجل: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: قال سليمان لأمير الوفد: ارجع إليهم بالهدية، فإن لم يحضروني ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ يعني: لا طاقة لهم بها. قال بعض المتقدمين: ومتى يكون لهم طاقة بجنود سليمان، وكان جنود سليمان من الجن والإنس والشياطين؟ ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنهَا﴾ يعني: من أرض سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ يعني: مغلولة أيديهم إلى أعناقهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي ذليلون. فلما بلغ الخبر إلى المرأة ورسالة سليمان، لم تجد بداً من الخروج إليه، فخرجت نحوه، فلما علم سليمان بمسيرها إليه ﴿قال﴾ لجلسائه ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها﴾ يعني: بسرير بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: موحدين، لأنه قد كان أوحي إلى سليمان بأنها تسلم. وقال بعضهم: إنما أراد سليمان بإحضار سريرها قبل أن تسلم ليكون السرير له، لأنها لو أسلمت حرم عليه مالُها وكان سريرها من ذهب، وقوائمه من اللؤلؤ والجواهر، مستور بالحرير والديباج وعليه الحجلةُ وقال بعضهم: إنما أراد أن يبين دلالة نبوته عندها، فتعلم المرأة أنه نبي فتسلم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ عفريت من الجن﴾ يعني: مارداً من الجن، والعفريت: هو الشديد القوي، ويقال: العفريت من كل شيء المبالغ والحاذق في أمره ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ يعني: في مجلس الحكم، وكان قضاؤه إلى انتصاف النهار. ويقال: إلى وقت الضحى. ﴿وإني عليه﴾ يعني: على إتيان السرير ﴿لقوي﴾ على حمله ﴿أمين﴾ على ما فيه من الجواهر واللؤلؤ وغير ذلك. فقال سليمان: أنا أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: آصف بن بَرْخيا، وكان وزيره ومؤدبه في حال صغره، ويقرأ كتاب الله ويعلم

Marfat.com

الاسم الأعظم - يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحد لا إله إلا أنت[1] -. ويقال: هو قوله يا حي يا قيوم. ويقال يا ذا الجلال والإكرام ويقال: إن ﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾ هو جبريل عليه السلام، وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا رضي الله عنه.

قال: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ يعني: قبل أن ينتهي إليك الذي وقع عليه منتهى بصرك، وهو جاءٍ إليك. ويقال: قبل أن تطرف. قال له سليمان: لقد أسرعت إن فعلت ذلك، فدعا بالاسم الأعظم، فإذا بالسرير قد ظهر بين يدي سليمان ﴿فَلَمَّا رَآه﴾ رأى سليمان السرير ﴿مستقراً عنده﴾ أي: موجوداً عنده ﴿قال هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ يعني: ليختبرني ﴿أَأَشْكُرُ﴾ هذه النعمة ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ نعم الله تعالى إذا رأيت من دوني هو أعلم مني. قال مقاتل: فلما رفع رأسه قال: الحمد لله، أحمدُ الله الذي جعل في أهلي من يدعوه فيستجيب له ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: يفعل لنفسه، لأنه يعود إليه حيث يستوجب المزيد من الله تعالى ﴿ومن كفر﴾ النعم يعني: ترك الشكر ﴿فَإِن ربي غني﴾ عن شكر العباد ﴿كَرِيمٌ﴾ في الإفضال على من شكره بالنعمة. ويقال: ﴿كريم﴾ لمن شكر من عباده - ويقال: لمّا رأى آصف السرير مستقراً عنده، خرج من فضل نفسه ورجع إلى فضل ربّه ورأى الحول والقوة لله تعالى فقال: ﴿هذا من فضل ربي﴾ لا من فضل نفسي، ولو لم يقل من فضل ربي، لسقط عن المنزلة أسرع من إتيان السرير حيث قال: ﴿إنا آتيك به﴾ حيث شهر نفسه بالفضيلة ويقال: ﴿أنا آتيك به﴾ يعني: بالله آتيك، لا بالمدة والحيلة، فأسقط الحول والقوة عن نفسه وسلم الأمر إلى الله فقال: ﴿هذا من فضل ربي﴾. فلما رأى سليمان السرير عنده، علم أن هذا ليس من قوة جلسائه وإنما هو من صنع ربه[2] -.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ يعني: قال سليمان عليه السلام: غيّروا سريرها عن صورته، والتنكير: هو التغيير يقال: نكرته فتنكّر، أي غيرته، فتغير.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: «التنكير أن يزاد فيه أو ينقص عنه» يعني: زيدوا في سريرها، وانقصوا منه، حتى نرى أنها تعرف سريرها أم لا، وذلك قوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ يعني: أتعلم أنه عرشها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: لا يعلمون. يقال: إنه جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه. ويقال: إنه أمر بذلك، لأن الجن قالوا لسليمان عليه السلام في عقلها شيء من النقصان، فأراد سليمان أن يمتحن عقلها، فأمر بأن يغير السرير ويسألها عن ذلك.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».
(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يعني: بلقيس وجلست على السرير ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني: أهكذا سريرك ﴿قَالَتْ﴾ بلقيس ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهته به. قال مقاتل: شَبَّهوا عليها، فشَبَّهت عليهم، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم. ويقال: إنها شكّت في ذلك، لأنها تركت سريرها في سبعة أبيات مقفلة أبوابها، ومفاتيح الأقفال بيدها. فقال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ يعني: حمد الله على ما أعطاه من إتيان السرير وحضورها، وعلى ما أعطاه قبل إتيانها من النبوة والإسلام، فقال: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾. يعني: أعطينا العلم من قبل مجيئها. ويقال: أعطينا علم ملكها وعرشها من قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مخلصين لله تعالى. ويقال: ﴿مسلمين﴾ منقادين له.

قوله عز وجل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾ يعني: عبادتها التي كانت تعبد الشمس منعها عن الإسلام. ويقال: معناه صدها إبليس عن الإيمان، فتكون ﴿ما﴾ ها هنا بمعنى الفاعل. ويقال: ﴿ما﴾ هنا بمعنى المفعول، فكأنه يقول: صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله عز وجل، كرجل يقول: منعت فلاناً الماء، يعني: عن الماء. ويقال معناه: أن الله تعالى صدّها عما كانت تعبد من دون الله، فوفقها للإسلام. ويقال: صدها عن الإسلام العادة التي كانت عليها، لأنها نشأت على ذلك وربيت، ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس ثم قال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: من قوم جاحدين لله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ يعني: القصر، وذلك لأنها لما أقبلت قالت الجن: لقد لقينا من سليمان ما لقينا من التعب، فلو اجتمع سليمان وهذه، وما عندها من العلم لهلكنا، وخشوا أن يتزوجها ويكون بينهما ولد فيرث الملك، فيبقون في ذلك العناء إلى الأبد، فأرادوا إن يبغّضوها إلى سليمان فقالوا: إن رجليها شعراوان، وقال مقاتل: بل كانت أمها جنية. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كانت أمها جنية وكانت شعراء. وقال بعضهم: هذا لا يصح، لأن الجن ليس من جنس الآدميّ فلا يكون بينهما شهوة ونسل، وقال الله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]. يعني: آدم وحواء عليهما السلام فلا يجوز أن يكون النسل من غيرهما. ويقال: إنهم قالوا لسليمان: إن رجلها تشبه حافر الدواب. فأراد سليمان أن ينظر إلى رجليها، فأمر بأن يوضع سريرها في الصرح المبني من القوارير يعني: من الزجاج، وجعل تحت الصرح الماء فيه السمك، فجلس سليمان على سريره في الصرح في مقدّمه، ثم أمرت بلقيسُ بأن تدخلَ الصَّرح ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ يعني: فلما جاءت إلى الصرح رأت ما فيه من السمك ﴿حسبته لجة﴾ يعني ظنت أنه ماء كثير بين يدي سرير سليمان، فأرادت أن تخوض في

Marfat.com

الماء، فشمّرت ثيابها ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فنظر سليمان إلى ساقيها وكانت شعراء، فاستشار سليمان الإنس في ذلك، فأشاروا عليه بالموسى، فقال سليمان: الموسى تخدش ساقيها، فاستشار الجن فأشاروا عليه بالنُّورة، فأصل النورة من ذلك الوقت.

وروي أن سليمان ما نظر إلى ساقٍ أحسن الساقين ولا خلاف بين الروايتين، لأنه يكون أحسن الساقين شعراوين. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: «أنا أحسنُ ساقين أم بلقيس؟ فقال لها النبي عليه السلام: «كَانَتْ هِيَ أَحْسَنَ سَاقَيْنِ مِنْكِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتِ أَحْسَنُ سَاقَيْنِ مِنْهَا فِي الآخِرَةِ» فلما كشفت عن ساقيها قال لها سليمان: لا تكشفي عن ساقيك ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ يقول قصر مملس، ولهذا سمّي أمرد الذي لم ينبت له الشعر ويقال: ممرد يعني، قوي شديد، كما يقال شيطان مريد ﴿من قوارير﴾ يعني: من الزجاج، فلما رأت السرير والصرح، علمت أن ملكها ليس بشيء عند ملك سليمان، وأن ملكه من الله تعالى، وأنه نبي حقاً. ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام فأجابت، فذلك قوله تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي للشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله﴾ وأخلصت ديني لله تعالى مع سليمان بالتوحيد ويقال: ﴿مع سليمان﴾ يعني: أسلمت على يَدَيْ سليمان لله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتابت إلى الله تعالى من شركها قال مقاتل: فاتخذها سليمان لنفسه، فولدت له داود بن سليمان قال النبي ﷺ: «هِيَ أَحْسَنُ سَاقَيْنِ مِنْ نِساءِ العَالَمِينَ وَهِيَ مِنَ أَزْوَاجِ سُلَيْمَانَ فِي الجَنَّةِ».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا الله﴾ يعني: أمرهم بأن يعبدوا الله ويطيعوه ويوحّدوه ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ مؤمنون وكافرون، فإذا قوم صالح مؤمن وكافر يختصمون، يقول كل فريق: الحق معي، وقد ذكرنا خصومتهم في سورة الأعراف وهي قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾[الأعراف: ٧٥] الآية وطلبت الفرقة الكافرة على تصديق صالح العذاب، ﴿قَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ ، يعني: بالعذاب ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ، يعني: العافية. ويقال: التوبة، وهو قولهم: يا صالح إن كان ما أتيت به حقاً، فأتنا بما تعدنا من العذاب.

Marfat.com

ثم قال: ﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ يعني: هلاّ تسألون الله المغفرة، ويقال هلا تؤمنون وتوحدون الله تعالى وترجعون من الشرك لعلكم ترحمون، يعني: لكي تُرحموا، فلا تُعذّبوا.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ وأصله: تطيرنا بك يعني: تشاءمنا بك. ﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾، وذلك أنه قد أصابهم القحط بتكذيبهم إياه. فقالوا: هذا الذي أصابنا بشؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ﴾: لهم صالح ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ﴾، يعني: ما أصابكم فمن الله. ويقال: هذا الذي يصيبكم هو مكتوب عند الله، ويقال: خيركم وشركم ورخاؤكم وشدتكم من عند الله عليكم بفعلكم. ويقال: عقوبتكم عند الله ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تبتلون بذنوبكم ويقال: تختبرون بالخير والشر، وأصل الفتنة: هي الاختبار. ويقال: فتنتَ الذهبَ بالنار، لتنظُر إلى جودته.

قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، يعني: في قرية صالح عليه السلام، وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾، كانوا أغنياء قوم صالح ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾، يعني: يعملون بالمعاصي في أرض قريتهم، ﴿ولا يصلحون﴾ أي لا يطيعون الله تعالى فيها، ولا يتوبون من المعصية، ولا يأمرون بها. فسأل قوم صالح منه ناقة، فصارت الناقة بليةً لهم، فكانت تأتي مراعيهم فتأكل جميع ما فيها، فتنفر منها دوابهم، وتشرب ماء بئرهم العذب الذي يشربون منه، فجعلوا نيابة للشرب فتشرب ذلك اليوم الماء كله، وتسقيهم اللبن حتى يَرْوَوا. فجاء هؤلاء التسعة وفيهم قذار بن سالف عاقر الناقة، وكان ابن زانية أحمر أزرق، ومصدع بن دهر وكانا قد قعدا لها، فلما مرت بهما رماها مصدع بسهم ثم قال: يا قذار اضرب، فضرب عرقوبها فعقروها، ثم سلخوها، واقتسموا لحمها، فأوعدهم الله الهلاك، وبيّن لهم العلامة بتغيير ألوانهم، فاجتمع التسعة و﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ﴾، يعني: تحالفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالتاءين وضم التاء الثاني ﴿وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾، بالتاء وقرأ الباقون بالنون، ونصب التاء، ﴿ثم لَنقولن﴾ بالنون ونصب اللام. فمن قرأ بالنون جعل ﴿تقاسموا﴾ خبراً، فكأنهم قالوا: متقاسمين فيما بينهم، ﴿لنبيتنه وأهله﴾ أي: لنقتلنه وعياله. ويقال: ﴿وأهله﴾ يعني: ومن آمن معه، ومن قرأ بالتاء، فمعناه: جعل ﴿تقاسموا﴾ أمراً، فكان أمرَ بعضهم بعضاً. وقال بعضهم لبعض: تحالفوا ﴿لنبيتنه وأهله ثم لنقولن﴾ ﴿لِوَلِيِّهِ﴾، يعني: لولي صالح إن سألونا فنقول ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ يعني: لهلاك أهله وقومه. ويقال: ما حضرنا عند هلاك أهله، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يعني: إنا لصادقون بما نقول لكم. ويقال: معناه ﴿إنا لصادقون﴾ عندهم، فيصدقوننا إذا خرجنا من بيوتنا. ويقال: ﴿إنا لصادقون﴾ في قولنا.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

Marfat.com

﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً﴾ يعني: أرادوا قتل صالح عليه السلام ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾، يعني: جثم عليهم الجبل فماتوا كلهم. ويقال: رجمتهم الملائكة عليهم السلام بالحجارة فماتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً﴾ أي: أرادوا قتل صالح، ﴿ومكرنا مكراً﴾ يعني: أراد الله عز وجل قتلهم جزاء لأعمالهم، ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾، بأن الملائكة يحرسون صالحاً في داره. قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ما شهدنا ﴿مهلك﴾ أهله بنصب الميم واللام، وفي رواية حفص بنصب الميم وكسر اللام. وقرأ الباقون: بضم الميم، ونصب اللام.

ثم قال: ﴿فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِم﴾ يعني: جزاء مكرهم ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أَنَّا﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بكسر الألف. فمن قرأ بالنصب، فمعناه: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، لأنا دمرناهم، ويجوز أن يكون خبر كان. ومن قرأ: بالكسر لأنه لما قال، ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾. يعني: إيش كان عاقبة مكرهم.

ثم فسر فقال: ﴿إنا دمرناهم﴾ على وجه الاستئناف، ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعني: أهلكناهم بصيحة جبريل عليه السلام. ويقال: خرجت النار من تحت أرجلهم فأحرقتهم. ويقال: إنهم خرجوا ليلاً لإهلاك صالح، فدمغتهم الملائكة بأحجار من حيث لا يرونهم، فقتلوهم وقومهم أجمعين.

قوله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ يعني: خالية من الناس. ويقال: ﴿بيوتهم خاوية﴾. يعني: مساكنهم خربة ساقطة، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا. ويقال: بكفرهم بالله تعالى صارت خاوية نصباً على الحال. يعني: فانظر إلى بيوتهم خاويةً، وقرىء في الشاذ ﴿خاوية﴾ بالضم على معنى النعت للبيوت.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في هلاكهم وفيما صنع بهم ﴿لآية﴾ يعني: لعبرة لمن بعدهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: يعقلون ويصدقون، ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: أقروا بالتوحيد وصدقوا صالحاً برسالته، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلُوطاً﴾ يعني: وأرسلنا لوطاً، عطفاً على قوله، ﴿ولقد أرسلنا إلى

Marfat.com

ثمود﴾ ويقال معناه: واذكر لوطاً ﴿إذ قال لقومه﴾ يعني: حين قال لقومه: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ - يعني: أتعملون المعصية وهي اللواطة ﴿وأنتم تبصرون﴾ يعني: تعلمون أنها فاحشة ومعصية هو وأعظم لذنوبكم[1] -.

قوله عز وجل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ يعني: تجامعون الرجال شهوة منكم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي جاهلون ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وإنما نصب الجواب، لأنه خبر كان واسمه ﴿إلاَّ أن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يعني: يتنزهون ويقذروننا بهذا الفعل، وإنا لا نحب أن يكون بين أظهرنا من ينهانا عن أعمالنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني: ابنتيه ريثا وزعورا ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ لم ننجها من العذاب ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغابرين﴾ أي: تركناها من الباقين في العذاب. ويقال: قضينا عليها أنها من الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مطراً﴾ - يعني: على شذاذهم، أي الخارجين، المنفردين منهم، ومن كان منهم في الأسفار[2] - ﴿مطراً﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ يعني: بئس مطر من أنذرتهم الرسل، فلم يؤمنوا.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ قال بعضهم: معناه قال الله تعالى للنبي ﷺ ﴿قل الحمد لله﴾ وقال بعضهم: معناه الحمد لله على هلاك كفار الأمم الماضية. يعني: ما ذكر في هذه السورة من هلاك فرعون وقومه وثمود وقوم لوط. ويقال: قال: الحمد لله الذي علمك، وبيّن لك هذا الأمر. ويقال: إن هذا كان للوط حين أنجاه، أمره بأن يحمد الله تعالى.

ثم قال: ﴿وسلام على عباده﴾ يعني: المرسلين ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يعني: اختارهم الله تعالى للرسالة والنبوة. وروي عن مجاهد أنه قال: «هم أمة محمد ﷺ،» وكذلك قال مقاتل. وقال سفيان الثوري: «هم أصحاب محمد ﷺ» ثم قال: ﴿آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: الله تعالى أفضل أم الآلهة التي تعبدونها، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التقرير يعني: الله تعالى خير لهم مما يشركون، فكان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «بل الله خير وأبقى، وأجل وأكرم» ويقال: معناه أعبادة الله خير أم عبادة ما يشركون به من الأوثان؟ وقال القتبي: ﴿الله خيراً أما يشركون﴾. يعني: أم من تشركون؟ فتكون ﴿ما﴾ مكان مَنْ كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] يعني: ومن بناها ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [الليل: ٣] يعني: ومن خلق.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب». (٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يعني: الله الذي خلق السموات والأرض ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ يعني: بالمطر ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ يعني: البساتين، واحدها حديقة، وإنما سميت حديقة لأنها محاطة بالحيطان. وقال بعضهم: إذا كانت ذا شجر يقال لها: حديقة سواء كان لها حائط أو لا. ﴿ذات بهجة﴾، يعني: ذات حسن ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ يعني: ما كان لمعبودكم قوة. ويقال: ما كان ينبغي لكم أن تنبتوا شجرها. ويقال: ما قدرتم عليه، وقرأ أبو عمرو وابن عامر: ﴿أما يشركون﴾ بالياء على معنى الخبر. وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿إلا امرأته قدَرناها﴾ بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بالتشديد. ثم قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ يعينه على صنعه، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الإنكار والزجر ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعدِلُونَ﴾ يعني: يشركون الأصنام.

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ يعني: مستقراً لا تميد بأهلها. ويقال: ﴿قراراً﴾ أي لا تتحرك ﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً﴾ و﴿جعل﴾ يعني: خلقاً لها. يعني: فجر بنواحي الأرض أنهاراً. ويقال: شق بينهما أنهاراً ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي خلق للأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي: الجبال الثوابت ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ يعني: العذب والمالح حاجزاً يعني: ستراً مانعاً من قدرته لا يختلطان بعضهما في بعض ﴿أَإِلَهٌ مَع اللهِ﴾ يعينه على صنعه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله عز وجل.

ثم قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ﴾ يعني: أمن يستجيب في البلاء للمضطر ﴿إذا دعاه﴾ ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ يعني: ومن يكشف الضر ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ يعني: سكان الأرض بعد هلاك أهلها ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿يذّكرون﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم، وقرأ الباقون ﴿تذكرون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ حمزة والكسائي بتخفيف الذال وقرأ الباقون: بالتشديد. وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية قالون: ﴿أإله مع الله﴾ بالهمز والمد، وقرأ الباقون: بغير مد بهمزتين.

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ يعني: من يرشدكم في أهوال البر والبحر. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى

Marfat.com

الله﴾ أي: تعظم الله ﴿عما يشركون﴾ ﴿أمَّن يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: خلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم يعيدهم في الآخرة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: المطر ﴿وَالأرْضِ﴾ يعني: النبات ﴿أإلَهٌ مَع الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني: حجتكم وعذركم، بأنه صنع شيئاً من هذا غير الله ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿لاَ يَعْلَمُ مَن في السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ﴾ من الملائكة والناس ﴿الْغَيْبَ إلاَّ الله﴾ يعني: متى تقوم الساعة إلا الله، رفع على معنى البدل، فكأنه يقول: لا يعلم أحد الغيب إلا الله أي لا يعلم ذلك إلا الله، ثم قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أيَّانَ يُـ[illegible]﴾ يعني: متى يبعثون يعني: أوانَ يبعثون.

قوله عز وجل: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿بل أدْرك﴾. قرأ الباقون ﴿ادَّارك﴾ بالألف. فمن قرأ ﴿أدْرك﴾، فمعناه: أدرك علمهم علم الآخرة.

وروي عن السدي قال: اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا، ولم يختلفوا ويقال: معناه علموا في الآخرة أن الذين كانوا يوعدون حق، ولا ينفعهم ذلك. ومن قرأ ﴿ادراك علمهم﴾ فأصله تدارك، فأدغم التاء في الدال، وشدّدت وأدخلت ألف الوصل، ليسلم السكون للدال، ومعناه: تتابع علمهم، أي حكمهم على الآخرة، واستعمالهم الظنون في علم الآخرة، فهم يقولون تارة: إنها تكون، وتارة لا تكون الساعة. ويقال: معناه تدارك، أي تكامل علمهم يوم القيامة لأنهم يبعثون ويشاهدون ما وعدوا ﴿بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: من قيام الساعة في الدنيا ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ يعني: يتعامون عن قيامها. ويقال: ﴿بل هم منها عمون﴾ أي من علمها جاهلون.

وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ، ﴿بل ادراك علمهم﴾ وهذه القراءة أشد إيضاحاً للمعنى الذي ذكرناه.

ثم حكى قول الكفار فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أإذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أإنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ يعني: أحياء من القبور ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ يعني: هذا الذي يقول محمد عليه السلام: ﴿نحن وَآبَاؤُنا مِن قَبْلُ إنْ هَذَا﴾ الذي يقول ﴿إلاَّ أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديث الأولين وكذبهم، مثل حديث رستم واسفنديار. ويقال: إنْ هذا إلاَّ مثل رُسل الأولين فيما كذبوا.

Marfat.com

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانظُرُوا﴾ يعني: فاعتبروا ﴿كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ﴾ يعني: آخر أمر المشركين ﴿وَلاَ تَحزَنْ عَلَيهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا بك، ويقال: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على تكذيبهم وإعراضهم عنك ﴿وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيقٍ﴾ يعني: لا يضيّق صدرك ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يعني: بما يقولون من التكذيب. ويقال: ولا يضيق قلبك بمكرهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ يعني: البعث بعد الموت ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بالمكذب. ويقال: ﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾. بقولهم: فهذا دأبنا ودأبك أيام الموسم، وهم الخراصون، فكانوا يأمرون أهل الموسم بأن لا يسمعوا كلامه.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ عَسَى أن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ يعني: قَرُب وحضرَ لكم. قال القتبي: أي تبعكم، واللام زائدة، فكأنه قال: ردفكم قال: وقيل في التفسير: دنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب، وهو عذاب القبر. ويقال: القحط. ويقال: يوم بدر ﴿وَإنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حين لم يأخذهم بالعذاب عند معصيتهم ﴿وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ بتأخير العذاب عنهم حتى يتوبوا ﴿وَإنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يعني: ما تسر قلوبهم من عداوة النبي ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الكفر والشرك.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ يعني: من أمر العذاب. ويقال: ما من شيء غائب عن العباد ﴿فِي السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: مكتوب في اللوح المحفوظ. ويقال: أي جملة غائبة عن الخلق إلا في كتاب مبين ﴿إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ﴾ قال مقاتل: يعني: أن هذا القرآن يبين للناس أهل الكتاب ﴿أكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يعني: اختلافهم. وقال ابن عباس: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم، فصاروا أهواءً وأحزاباً يطعن بعضهم في بعض، ويبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن بتبيان ما اختلفوا فيه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَإنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَهُدًى﴾ يعني: لبياناً من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يعني: بين المختلفين في الدين ﴿بِحُكْمِهِ﴾ يعني:

Marfat.com

بقضائه يوم القيامة ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة. ﴿العَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه ويقال: ﴿العزيز﴾ يعني: القوي فلا يردّ له أمر، ﴿العليم﴾ بأحوالهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ يعني: ثق بالله. ويقال: فوّض أمرك إلى الله ﴿إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾ يعني: الدين المبين، وهو الإسلام.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى﴾ فهذا مثل ضربه للكفار، فكما أنك لا تسمع الموتى، فكذلك لا تفقّهُ كفار مكة ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ﴾ قرأ ابن كثير ﴿ولا يَسمَعُ﴾ بالياء والنصب وضمّ العين، و﴿الصّم﴾ بضمّ الميم، وقرأ الباقون بالتاء وضم التاء وكسر الميم، ﴿والصُم﴾ بالنصب. فمن قرأ بالياء فلا يسمع، فالفعل للصم. ومن قرأ بالتاء، فالخطاب للنبي ﷺ ﴿إنك لا تسمع الصم الدعاء﴾ ﴿إِذَا وَلَّوا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: أعرضوا عن الحق مكذبين.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة ﴿تهدي العُمْيَ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف، فمن قرأ تهدي العمي، فمعناه: ما أنت يا محمد بالذي تهدي الذين عميت بصائرهم عن آياتنا، ولكن عليك الدعاء، ويهدي الله من يشاء، ومن قرأ ﴿بهادي﴾ فإن الباء دخلت لتأكيد النفي، كقولك ما أنت بعالم، فالباء لتأكيد النفي، وخُفِض العميُ للإضافة.

ثم قال: ﴿إِن تُسْمِعُ إلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: لا تسمع الهدى إلا من صدّق بالقرآن أنه من الله تعالى. ويقال: ﴿بآياتنا﴾ يعني: أدلتنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصين مقرّين بها. ويقال: مسلمون في علم الله تعالى.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: إذا وجب عليهم العذاب والسخط وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانه، ولم يبق إلا من يموت كافراً في علم الله تعالى ﴿أَخرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأرضِ﴾ وخروجها من أول أشراط الساعة ﴿تكلمهم﴾ أي تحدّثهم يعني: الدابة التي تكلم الناس بما يسوؤهم. ﴿أنَّ النّاسَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أن﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بالكسر. فمن قرأ بالنصب، يكون حكاية قول الدابة، ومعناه: تكلمهم بأن الناس ﴿كَانُوا بآياتنَا لا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بآيات ربهم، وهي خروج الدابة. ومن قرأ بالكسر يكون بمعنى الابتداء، ويتم الكلام عند قوله: ﴿تكلمهم﴾ ثم يقول الله تعالى: ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ يعني: لا يؤمنون. قال أبو عبيد حدّثنا هشام عن المغيرة أن أبا زرعة بن عمر وابن

Marfat.com

عباس، قرآها ﴿تَكْلِمُهم﴾ بنصب التاء، وكسر اللام، وبسكون الكاف، والتخفيف يعني: تسِمهم، فيتبين الكافر من المسلم.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثني الثقة عن أبي بكر الواسطي، عن إبراهيم بن يوسف، عن محمد بن الفضل الضبي، عن أبيه، عن سعيد بن مسروق، عن ابن عمر رضي الله عنهم قال: «ألا أريكم المكان الذي قال فيه النبي ﷺ تخرج الدابة منه، فضرب بعصاه قبل الشق الذي في الصفا وقال: إنها ذات زغب وريش، وإنها لتخرج ثلثها أول ما تخرج، كحضر الفرس الجواد ثلاثة أيام ولياليهن، وإنها لتدخل عليهم، وإنهم ليفرون منها إلى المساجد، فتقول: أترون أن المساجد تنجيكم مني؟

وروى مقاتل قال: تخرج الدابة من الصفا، ولا يخرج إلا رأسها وعنقها، فتبلغ رأسها السحاب، فيراه أهل المشرق والمغرب، ثم تعود إلى مكانها، ثم تزلزل الأرض في ذلك اليوم في ست ساعات، فيمسون خائفين، فإذا أصبحوا جاءهم الصريخ بأن الدجال قد خرج.

وروي عن أبي هريرة أنه قال: «تخرج الدابة ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان عليهماالسلام» فتجلو وجه المؤمن بعصا موسى، وتختم وجه الكافر بخاتم سليمان عليهما السلام ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار، فترى أهل البيت مجتمعين على خوانهم يقول لهذا: يا كافر، ولهذا: يا مؤمن.

وروى ابن جريج عن أبي الزبير قال: «رأسها رأس ثور، وعيناها عينا خنزير، وأذناها أذنا فيل، وقرناها قرنا أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرة، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين منها اثني عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام، تخرج ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فتنكت على وجه المؤمن حتى يبيض، وتختم الكافر بخاتم سليمان حتى يسود، فيعرف المؤمن من الكافر».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تنكت في وجه الكافر نكتة سوداء، فتفشو في وجهه حتى يسودّ وجهه وتنكت في وجه المؤمن نكتة بيضاء فتغشو في وجهه حتى يبيضّ، ويتبايعون في الأسواق، فيعرفون المؤمن من الكافر».

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ يعني: نوجب عليهم العذاب في يوم نحشر ﴿من كل أمة

Marfat.com

فوجاً﴾. يعني: من كل أهل دين جماعة. ويقال: ﴿يوم نحشر﴾ يعني: نجمع من كل أمة فوجاً يعني: جماعة ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: يحبس أولهم لآخرهم ليجتمعوا ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوا﴾ يعني: اجتمعوا للحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ يعني: قال الله تعالى لهم: أكذبتم بمحمد ﷺ والقرآن؟ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التقرير. يعني: قد كذبتم بآياتنا ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ اللفظ لفظ النفي، والمراد به المناقشة في الحساب، يعني: كذبتم كأنكم لم تعلموا. ويقال: لم تعرفوها حق معرفتها.

ثم قال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اللفظ لفظ السؤال، والمراد به التوبيخ، ومعناه: ماذا كنتم تعملون، إن تؤمنوا بالكتاب والرسل، يعني: أي عمل منعكم من ذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: نزل عليهم العذاب، ووجب عليهم ﴿بِمَا ظلموا﴾ يعني: بما أشركوا ﴿فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾ يعني: لا يمكنهم أن يتكلموا من الهيبة لما ظهر لهم من المعاينة، ولما تحيروا في ذلك.

ثم وعظ كفار مكة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: ألم يعتبروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهار مُبصراً﴾ يعني: مضيئاً، وأضاف الفعل إلى النهار، لأن الكلام يخرج مخرج الفاعل إذا كان هو سبباً للفعل. كما قال: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون﴾ يعني: فيما ذكر من الليل والنهار، لعبرات لقوم يصدقون بتوحيد الله تعالى.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: واذكر يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ أي: من شدة الصوت والفزع. ويقال: ماتوا. وقال بعضهم: النفخ ثلاثة: أحدها: الفزع وهو قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ ونفخة أخرى للموت. وهو قوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزمر: ٦٨] ونفخة للبعث وهي قوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقال بعضهم: إنما هما نفختان: فالفزع والصعق كناية عن الهلاك، ثم نفخة للبعث ثم قال: ﴿إلاَّ مَن شاءَ الله﴾ قال بعضهم: يعني أرواح الشهداء وهي

Marfat.com

أحياء عند ربهم. وقال بعضهم: يعني من في الجنة ومن في النار من الخدم والخزنة. وقال بعضهم: ﴿إلا من شاء الله﴾ يعني: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم يموتون بعد ذلك ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾.

روى سفيان بإسناده عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: ﴿وكلّ أَتَوه﴾ بغير مد ونصب التاء، وهي قراء حمزة وعاصم في رواية حفص. وقرأ الباقون بالمد والضم. ومن قرأ بالمد والضم، فمعناه: كل حاضروه ﴿داخرين﴾ أي: صاغرين. ويقال: متواضعين. ومن قرأ بغير مد يعني: يأتون الله عز وجل.

﴿وتَرى الجبال تحسبها جامدة﴾ يعني: تحسبها واقفة مكانها ويقال: مستقرة ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾ حتى تقع على الأرض فتستوي، يعني: في أعين الناظرين كأنها واقفة. قال القتبي: وكذلك كل عسكر غض به الفضاء أو شيء عظيم، فينظر الناظر، فيرى أنها واقفة وهي تسير.

ثم قال عز وجل: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ يعني: أحكم خلق كل شيء. ويقال: الشيء المتقن: أن يكون وثيقاً ثابتاً، فما كان من صنع غيره يكون واهياً، ولا يكون متقناً ثم قال: ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ أي: عليم بما فعلتم.

قوله عز وجل: ﴿من جاء بالحسنة﴾ يعني: بالإيمان والتوحيد، وهو: كلمة الإخلاص وشهادة أن لا إله إلا الله ﴿فله خير منها﴾ على وجه التقديم، وله منها خير أي: حين ينال بها الثواب والجنة. ويقال: ﴿فله خير منها﴾. أي: خير من الحسنة. يعني: أكثر منها للواحد عشرة. ويقال: ﴿فله خير منها﴾ من الحسنة، وهي الجنة، لأن الجنة هي عطاؤه وفضله، والعمل هو اكتساب العبد، فما كان من فضله وعطائه، فهو أفضل، وهذا تفسير المعتزلة، والأول قول المفسرين.

ثمّ قال: ﴿وهم من فزع يومئذٍ آمنون﴾ يعني: من فزع يوم القيامة ﴿آمنون﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿من فزعِ﴾ بغير تنوين، ﴿ويومئذٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ نافع في رواية ورش ﴿من فزع يومئذٍ﴾ بغير تنوين ونصب الميم وقرأ الباقون بالتنوين، ونصب الميم. قال أبو عبيد: وبالإضافة نقرأ، لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: ﴿فزعٍ﴾ بالتنوين، صار كأنه قال: فزع دون فَزعٍ. وقال غيره: إنما أراد به الفزع الأكبر، لأن بعض الأفزاع تصيب الجميع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين: ﴿إنه خبير بما يفعلون﴾ بالياء على معنى الإخبار عنهم، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

ثمّ قال عز وجل: ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ يعني: بالشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ يعني: قلبت وجوههم في النار ويقال: يكبون على وجوههم، ويجرون إلى النار، وتقول لهم خزنة النار: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ من الشرك ويقال: ﴿فكبت﴾ أي: ألقيت وطرحت.

Marfat.com

قال عز وجل: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أي: قل يا محمد لأهل مكة: أمرني الله تعالى أن أستقيم على عبادة رب هذه البلدة. يعني: مكة الذي حرمها بدعاء إبراهيم عليه السلام وحرم فيها القتل والصيد. قال بعضهم: كان حراماً أبداً. قال بعضهم: وهو أصح أن إبراهيم لما دعا، فجعلها الله حراماً بدعوته. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَأَنَا حَرَّمْتُ المَدِينَةَ ما بَيْنَ لابَتَيْهَا». ثم روي: أنه قد رخص في المدينة.

ثم قال تعالى: ﴿وله كل شيء﴾ يعني: له ملك كل شيء، وخلق كل شيء، ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، أي: من المخلصين ﴿وأن أتلو القرآن﴾ يعني: أمرت أن أقرأ القرآن عليكم يا أهل مكة ﴿فمن اهتدى﴾ يعني: آمن بالقرآن ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ يعني: يؤمن لنفسه ويثاب عليها الجنة ﴿ومن ضلّ﴾ يعني: ولم يوحد، ولم يؤمن بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿فقل إنما أنا من المنذرين﴾ أي: من المخوفين ومن المرسلين، فليس عليَّ إلا تبليغ الرسالةُ ﴿وقل الحمد لله﴾ يعني: الشكر لله على ما هداني ﴿سيريكم﴾ أيها المشركون آياته. يعني: العذاب في الدنيا ﴿فتعرفونها﴾ أنها حق، وذلك أنه أخبرهم بالعذاب، فكذبوه فأخبرهم أنهم يعرفونها أنها حق، وذلك إذا نزل بهم، وهو القحط والقتل. ويقال: هو فتح مكة ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ فهذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم. وقال الزجاج في قوله: ﴿سيريكم آياته﴾ يعني: سيريكم الله آياته في جميع ما خلق، وفي أنفسكم. قرأ نافع وعاصم في رواية حفص، وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿عما تعملون﴾ بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر عنهم، والله أعلم بالصواب - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم[1] -.

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

سورة القصص

كلها مكية إلا قوله: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ نزلت بين مكة والمدينة. وهي ثمانون وثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المبين﴾ أي: القرآن وهو مبين للأحكام، وقد ذكرناه. ـ قال أبو سعيد الفاريابي في قوله تعالى: طا قال: هو طاهر كمّا يحلوه، والسين: سامع لما وصفوه والميم: ماجد حين سألوه والما: جدّ كثير العطاء. يقال: أمجدني فلان، إذا كثر إعطاؤه. ويقال: طا أقسم الله بطالوت، وسين أقسم الله بسليمان وميم أقسم الله بمحمد ﷺ[1] ـ ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ﴾. يعني: ننزل عليك جبريل عليه السلام، يقرأ عليك ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَى﴾ يعني: من خبر موسى عليه السلام ﴿وفرعون بالحق﴾ يعني: بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون محمداً ﷺ بهذه الآية، وإنما أنزل القرآن لجميع الناس، ولكنْ المؤمنين به يصدقون، فكأنه لهم ـ وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم، فيشكون إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه السورة في شأنهم لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه، ليصبروا كصبرهم وينجيُهم، ربهم كما أنجى بني إسرائيل من فرعون وقومه. وهذا كقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾[2].

ثم أخبر عن فرعون فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ في الأَرْضِ﴾ يعني: اسْتَكْبَرَ وتعظم عن الإيمان، وخالف أمر موسى في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ يعني: أهل مصر فرقاً ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ يعني: يستقهر ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: من أهل مصر، وهم بنو إسرائيل، فجعل بعضهم ينقل الحجارة من الجبل، وبعضهم يعملون له عمل النجارة، وبعضهم أعمال الطين، ومن كان لا يصلح لشيء من أعماله يأخذ منه كل يوم ضريبة درهماً، فإذا غربت الشمس، ولم

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

يأت بالضريبة غلّت عليه يده اليمنى إلى عنقه، ويأمره بأن يعمل بشماله هكذا شهراً.

ثم قال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي يعني: أبناء بني إسرائيل صغاراً. ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يعني: يستخدم نساءهم، وأصله من الاستحياء. يعني: يتركهن أحياء.

وروى أسباط عن السدي قال: بلغنا أن فرعون رأى فيما يرى النائم، كأن ناراً أقبلت من أرض الشام، فاشتملت على بيوت مصر، وكانت الشام أرض بني إسرائيل أول ما كانوا، فأحرقتها كلها إلا بيوت بني إسرائيل، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: يولد في بني إسرائيل مولود، يكون على يديه هلاك أهل مصر، فأمر فرعون بأن لا يولد في بني إسرائيل ذكر إلا ذبح، وعمد إلى ما كان من بني إسرائيل خارج المصر فأدخله المدينة، واستعبدهم، ورفع العمل عن رقاب أهل مصر، ووضعه على بني إسرائيل ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: فرعون كان يعمل بالمعاصي.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استضعفوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أردنا أن نمن بالنجاة ﴿على الذين استضعفوا في الأرض﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿نمنّ﴾ يعني: ننعم عليهم ﴿وَنَجْعَلَهُم أئمةً﴾ يعني: قادة في الخير ﴿ونَجْعَلَهُم الوَارِثِينَ﴾ يعني: أرض مصر، وملك فرعون، وقومه بعد هلاك فرعون. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ يعني: نملّكهم ويقال: ننزلهم في الأرض ﴿فِي الأَرْضِ﴾ يعني: في أرض مصر ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ويرى﴾ بالياء والنصب، و ﴿فرعونُ وهامانُ﴾ ﴿وَجُنُودهُمَا﴾ بالضمّ، كل ذلك، وقرأ والباقون ﴿ونري﴾ بالنون والضم و ﴿فرعونَ وهامانَ وجنودَهما﴾ كلها بالنصب، ونُصب ﴿نري﴾، لأنه معطوف على قوله: ﴿أن نمن﴾، فكأنه قال: أن نمن، وأن نري. ونصب فرعون لوقوع الفعل عليه. ومن قرأ بالياء رفعه، لأن الفعل منه ثم قال: ﴿وهامان وجنودها مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ يعني: يرون ما كانوا يخافون من ذهاب الملك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَينا إِلَى أُمِّ موسى﴾ يعني: ألهمنا ام موسى ﴿أَنْ أرْضِعيه﴾ وذلك: أن أم موسى حبلت، فلم يظهر بها أثر الحبل حتى ولدت موسى وارضعته ثلاثة أشهر أو أكثر، فالهمها الله تعالى بقوله: ﴿فإذا خِفتِ عليهِ﴾ يعني: صياحه ﴿فألقِيهِ فِي اليَمّ﴾ يعني: في البحر.

Marfat.com

قال مقاتل: وهو النيل، فعلمها جبريل عليه السلام. ويقال: رأت في المنام بأنها تؤمر أن تلقيه في البحر. ويقال: كان هذا إلهاماً. ويقال: كانت دلالة لها حيث علمت بالرؤيا أو بشيء خيل لها أن تفعل ما فعلت، كما أن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام ذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما السلام وذكر أنها كانت تخبز يوماً، وكان موسى عليه السلام على رأس التنور، فدخل قوم فرعون يطلبون الولد، فوضعته في التنور، فدخلوا فلم يجدوا موسى عليه السلام فجاءت إلى التنور، فوجدته يلعب بأصابعه في الأرض، فاستيقنت أن الله تعالى يحفظه، فجعلته في التابوت، وألقته في النيل.

ثم قال: ﴿وَلاَ تَخَافِي﴾ الغرق ﴿وَلاَ تَحزَنِي﴾ أن لا يُرَدَّ إليك ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوه مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: رسولاً إلى فرعون وقومه. فلما ألقته في النيل جاء به الماء، وكان يمرُّ النيل في دار فرعون، فوجدته جواري فرعون بين الماء والشجر، فمن ثم سمي موسى بلفظ القبط موشى، فالمو: الماء، وشا: الشجر. فذلك قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ يعني: إن أخذهم إياه كان سبباً لحزنهم، فكأنهم أخذوه لذلك، وإنْ كان أخذهم لم يكن لذلك. قرأ حمزة والكسائي ﴿وحُزناً﴾ بضم الحاء، وسكون الزاي. وقرأ الباقون بنصب الحاء والزاي، وهما لغتان: ومعناهما واحد. ثمّ قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ يعني: مشركين، ويقال: عاصين آثمين.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ امرأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسية لفرعون: هذا الغلام ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ﴾ فإنه آتانا به الماء من مصر آخر، ومن أرض أخرى، وليس من بني إسرائيل ويقال: إنها قالت: إن هذا كبير ومولود قبل هذه المدة التي أخبر لك ﴿عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ فإنه لم يكن له ولد ذكر. قال فرعون: فهو قرة عين لك، فأما أنا فلا.

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لو قال فرعون أيضاً: هو قرة عين لي لنفعه الله تعالى به، ولكنه أبى». ويقال: ﴿قرة عين لي﴾ وقد تمّ الكلام. ثم قالت: ﴿ولك لا تقتلوه﴾.

قال: وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقف على ﴿قرة عين لي ولك﴾ ثم قال: ﴿لا تقتلوه﴾ أي ﴿لا تقتلوه﴾ فلا الثاني إضمار في الكلام، والتفسير الأول أصح. ثم قال: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يعني: لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم على يديه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ يعني: خالياً من كل ذكر وشغل إلا ذكر موسى عليه السلام وهمّه. ويقال: صار قلبها فارغاً حين بعثت أخته لتنظر، فأخبرتها بأنه قد أخذ

Marfat.com

في دار فرعون، فسكنت حيث لم يغرق. ويقال: صار قلبها فارغاً، لأنها علمت أنه لا يقتل.

وروي عن فضالة بن عبيد أنه قرأ: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فزعاً﴾ يعني: خائفاً. وقراءة العامة ﴿فارغاً﴾، وتفسيره ما ذكرناه. وقد قيل أيضاً: فارغاً من شغل نفقته.

ثم قال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ يعني: قد كادت لتظهر به. قال مقاتل: وذلك أنها لما ألقت التابوت في النيل، فرأت التابوت يرفعه الموج مرة، ويضعه أخرى، فخشيت عليه الغرق، فعند ذلك فزعت عليه، وكادت أن تصيح ويقال: إنه لما كبر كان الناس يقولون: هو ابن فرعون، فشق ذلك عليها، وكادت أن تُظهرَ أن هذا ولدي، وليس بولد فرعون. ويقال إنها: لما دخل الليل، دخل الغم في قلبها حيث لم تدر أين صار ولدها، فأرادت أن تظهر ذلك ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: ثبتنا قلبها. ويقال: قوّينا قلبها، وألهمناها الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المصدقين بوعد الله تعالى حيث وعد لها بإنا رادوه إليك، فلم تجزع، ولم تظهر.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ يعني: قالت أم موسى لأخت موسى، وكان اسم أخته: مريم ﴿قصيّة﴾ يعني: اتبعي أثره. ويقال: يعني: امشي بجنبه في الحد، وهو في الماء حتى تعرف من يأخذه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ يعني: أبصرته عن بعد كما قال ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] يعني: البعيد منهم من قوم آخرين. ويقال: ﴿عن جنب﴾ يعني: في جانب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخت موسى. ويقال: ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني: وهم لا يعرفون أنها ترقبه.

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: من قبل مجيء أمه. ويقال في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: «أن أم موسى عليهما السلام قالت لأخته ﴿قصّيه﴾ أي: اطلبي أثره بعد ما أخذه آل فرعون، ولم يقبل رضاع أحد، ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ من قبل مجيء أخته. ويقال: ﴿حرمنا عليه المراضع﴾. يعني: منعنا موسى أن يقبل ثدي مرضع من قبل ان نرده على أمه ﴿فقالت﴾ أخته حين تعذر عليهم إرضاعه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ يعني: يضمنون لكم رضاعه. ويقال: يضمنونه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ يعني: مشفقون للولد. ويقال مخلصون شفقته. فقال هامان: خذوها حتى تخبرنا بقصة هذا الغلام، فأخذت، فألهمها الله تعالى عند ذلك حتى قالت: إنما ذكرت النصيحة لفرعون أعني: ﴿وهم له

Marfat.com

ناصحون﴾ لفرعون لا لغيره. فقال هامان: دعوها فقد صدقت، فأرسل إليها، فلما جاءت أمه وضعت الثدي في فمه، فأخذ ثديها وسكن، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: كائن صدق وهو قوله ﴿إنا رادوه إليك﴾ ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بأن وعد الله حق. يعني: أهل مصر.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشدهُ﴾. قال مجاهد يعني: بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة. ﴿وَاسْتَوَى﴾ يعني: بلغ أربعين سنة. قال: وفي رواية الكلبي الأشد ما بين ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة. ويقال: ﴿ولما بلغ أشده﴾ يعني: منتهى قوته، وهو ما فوق الثلاثين، ﴿واستوى﴾ يعني: بلغ أربعين سنة ﴿آتيناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني: علماً وعقلاً. ويقال: النبوة وعلم التوراة. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: «الأشد ثلاثاً وثلاثون سنة، وأما الاستواء فأربعون سنة، والعمر الذي أعذر الله تعالى ابن آدم فيه إلى ستين سنة». يعني قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: المؤمنين.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ قال مقاتل: يعني: قرية على رأس فرسخين. وقال غيره: يعني: المصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ يعني: نصف النهار وقت القيلولة. ويقال: ما بين المغرب والعشاء ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني: من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِن عَدُوِّهِ﴾ يعني: من القبط.

وقال القتبي: ﴿هذا من شيعته﴾ أي: من أصحابه، ﴿وهذا من عدوه﴾ أي: من أعدائه، والعدو يدل على الواحد والجمع، وذكر أن خباز فرعون أخذ رجلاً من بني إسرائيل سخرة، فأمره بأن يحمل الحطب إلى دار فرعون ﴿فاستغاثه الَّذي مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني: هذا الذي من شيعة موسى استغاث بموسى ﴿عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ يعني: ضربه بكفه ضربة في صدره. وقال القتبي: ﴿فوكزه﴾ يعني: لكزه ويقال: لكزته ووكزته إذا دفعته ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ يعني: مات الخباز بضربته، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته، وقضيت عليه. فمعنى قوله: ﴿فقضى عليه﴾، أي: قتله ولم يتعمد قتله، وكان موسى شديد البطش، ثم ندم على قتله فقال: إني لم أؤمر بالقتل، وإن كان كافراً ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: هو الذي حملني على هذا الفعل ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: يضل الخلق ﴿مبين﴾ يعني: ظاهر العداوة.

Marfat.com

ثم استغفر إلى الله تعالى فقال عز وجل: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ يعني: غفر الله عز وجل ذنبه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب لمن تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

ثمّ قال: ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: بالمغفرة كقوله ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] يعني: أمّا إذا أغويتني. ثم قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: أعوذ بالله أن أكون معيناً للكافرين، لأن الإسرائيلي كان كافراً، ولم يستثن على كلامه، فابتلاه الله عز وجل في اليوم الثاني بمثل ذلك، وكانوا لا يعرفون من قتل خباز الملك، وكانوا يطلبون قاتله ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ أن يؤخذ فيقتل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يعني: ينتظر الطلب. ويقال: ينتظر الأخبار ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يعني: رأى الإسرائيلي كان يقاتل مع رجل آخر من القبط يستصرخه يعني: يستغيثه كقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] يعني: بمغيثكم ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ يعني: للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: ضال بيّن ويقال: جاهل بين ويقال: ظاهر الغواية، وقد قتلت لك الأمس رجلاً، وتدعوني إلى آخر؟ ثم أقبل إليه، فظن الذي من شيعته أنه يريده، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ يعني: يريد أن يضرب القبطي فظن الاسرائيلي أنه يريده بعدها عاينه. قرأ أبو جعفر المدني ﴿يبطُش﴾ بضم الطاء، وقراءة العامة: بالكسر، ومعناهما واحد. فظن الإسرائيلي أن موسى يريد ضربه فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ وقال بعضهم: كان ذلك إبليس تشبه بالرجل الإسرائيلي، ليظهر أمر موسى. وقال بعضهم: كان ذلك الرجل بعينه. فقال ذلك الرجل من الخوف ﴿إِن تُرِيدُ﴾ يعني: ما تريد ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: قتالاً، تقتل ظلماً.

قال الكلبي: من قتل رجلين فهو جبار. ويقال: إن من سيرة الجبابرة القتل بغير حق ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يعني: المطيعين لله تعالى. فلما قال الإسرائيلي هذا، علم القبطي أن موسى هو قاتل القبطي فرجع القبطي، فأخبرهم أن موسى هو القاتل، فائتمروا بينهم بقتل موسى. قال: فأذن فرعون بقتله فجاءه خزبيل وهو مؤمن من آل فرعون، وأخبر موسى بذلك،

Marfat.com

وهو قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ يعني: من وسط المدينة يمشي على رجليه، ويقال: يسرع ويشتد في مشيته فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ يعني: الأشراف من أهل مصر ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال أبو عبيد: يعني: يتشاورون في أمرك. وقال القتبي: يعني: يهمون بك ليقتلوك ﴿فَأَخْرُجْ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّي لَكَ من الناصحين﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ يعني: من مصر ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ يعني: ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ يعني: قصد بوجهه نحو مدين، وذلك أن موسى عليه السلام حين خرج وتوجه نحو مدين، وكان بينه وبين مدين ثمانية أيام، كما بين الكوفة والبصرة. ويقال: ﴿تلقاء مدين﴾ يعني: سلك الطريق الذي تلقاء مدين ويقال: لما قال ﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ استجاب الله تعالى دعاءه، فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بأن يسير تلقاء مدين، فسار إلى مدين في عشرة أيام وهو قوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سواءَ السَّبِيلِ﴾ يعني: يرشدني قصد الطريق إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وكان مدين بن إبراهيم عليهما السلام، وكانت البير تنسب إليه، وكان ينسب الماء إليه، وصار مدين اسم قبيلة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ يعني: وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أنعامهم وأغنامهم. ويقال: هم أربعون رجلاً ويقال: عشرة رجال ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ يعني: من دون الناس ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تطردان قال سعيد بن جبير: يعني: حابستان ويقال تحبسان غنمهما. وقال القتبي: ﴿تذودان﴾، أي تكفان غنمهما، وحذف الغنم اختصاراً. ويقال كانتا تحبسان الغنم لكيلا تختلط بغيرها. ويقال: تحبسان الغنم لتصدر مواشي الناس، وتسقيان بفضل الماء، ومما فضل من أغنام الناس، وهما ابنتا شعيب عليه السلام ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعني: قال لهما موسى: ما شأنكما ترعيان الغنم مع الرجال، وما بالكما لا تسقيان مع الناس ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿يَصدُر﴾ بنصب الياء، وضم الدال. وقرأ الباقون ﴿يُصدِر﴾ بضم الياء، وكسر الدال. فمن قرأ بالنصب، فهو من صدرَ يصدر إذا رجع من الماء، ومعناه: لا نسقي حتى يرجع

Marfat.com

الرعاء عن الماء، ونسقي بفضلهم، لأنا لا نقدر أن نستقي، وأن نزاحم الرجال، وإذا صدروا سقينا من فضل مواشيهم. ومن قرأ ﴿يصدر﴾ بالضم، فهو من أصدرَ يُصدِر، والمعنى: حتى يصدر الرعاة أغنامهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لم يقدر على الخروج، وليس له عون يعينه غيرنا، فرجع الرعاة ووضعوا صخرة على البئر، فانتهى موسى إلى البئر وقد أطبقت عليها الصخرة، فاقتلعها ثم سقى لهما حتى أروتا أغنامهما.

وقال في رواية الكلبي: كان للبئر دلو يجتمع عليه أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر، فأتى موسى أهل الماشية، فسألهم أن يهيئوا له دلواً من الماء. فقالوا: إن شئت أعطيناك الدلو على أن تسقي أنت، فقال: نعم، فأخذ موسى عليه السلام الدلو، فسقى بها وحده، فصب في الحوض، ثم قربتا غنمهما فشربت، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ يعني: أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ يعني: تحول إلى ظل الشجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: لما أنزلت إليّ من الطعام، فأنا محتاج إلى ذلك وهو أنه كان جائعاً، فسأل ربه عز وجل، ولم يسأل الناس، ففطنت الجاريتان، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة، فقال أبوهما: هذا رجل جائع. وقال لإحداهما: اذهبي فادعيه، فلما أتته عظَّمته، وغطت وجهها وقالت: إنّ أبي يدعوك فذلك قوله عز وجل: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾. يعني: على حياء، لأنها كانت مقنعة، ولم تك متبرجة. ويقال: ﴿على استحياء﴾ يعني: على حياء واضعة يدها على وجهها. ويقال ﴿على استحياء﴾، يعني: مستترة بكم درعها ـ قال: فالوقف على: ﴿تمشي﴾ إذاكان قولها على الحياء. فأمّا إذا كان مشيها على الحياء، فالوقف على ﴿استحياء﴾ والقول بالحياء أشبه من المشي بالحياء، فكيف ما يقف يجوز بالمعنى[1] ـ فقالت: ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، ويقال: أقل من ذلك. فتبعها، فلم يجد بداً من أن يتبعها، لأنه كان بين الجبال خائفاً مستوحشاً، فلما تبعها هبت الريح، فجعلت تصفق ثيابها، وتظهر عجيزتها، وجعل موسى عليه السلام يعرض مرة، ويغض مرة، فلما عيل صبره ناداها: يا أمة الله كوني خلفي، وأريني السمت بقولك. يعني: دلّيني الطريق. فلما دخل على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء مهيأ، فقال له شعيب: اجلس يا شاب، فتعشّ. فقال له موسى: أعوذ بالله. فقال له شعيب: لم لا تأكل، أما أنت جائع؟ فقال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً. فقال: لا يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي أنّا نقري الضيف، ونطعم الطعام. فجلس موسى فأكل، وأخبره بقصة القتل والهرب، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: خرجت من ولاية فرعون،

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

ولا سلطان له في أرضنا. وقال في رواية الكلبي: كان هذا الرجل اسمه نيرون ابن أخي شعيب، وشعيب كان توفي قبل ذلك. وقال عامة المفسرين: إن هذا كان شعيباً.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ﴾ يعني: قالت إحدى الابنتين التي جاءت به. وقال في رواية مقاتل: هي الكبرى. وقال في رواية الكلبي: هي الصغرى ﴿يا أبت استأجره﴾ يعني: استأجر موسى ليرعى لك الغنم **﴿إِنَّ خَيرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾** يعني: خير الأجراء من يكون قوياً في العمل، أميناً على المال والعورة.

ثم قال: إيش تعلمين أنه قوي أمين؟ فأخبرته بالقصة. قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: **حدّثنا محمد** بن الفضل، قال حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا إبرهيم بن يوسف، قال حدّثنا أبو معاوية، عن الحجاج. عن الحكم قال: كان شريح لا يفسر شيئاً من القرآن إلا ثلاث آيات. قوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال: أي الزوج وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] قال: ﴿الحكمة﴾ الفقه والعلم، ﴿وفصل الخطاب﴾ البينة والإيمان، وقوله: ﴿إن خير مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ قال: كانت قوته أن يحمل صخرة لا يقوى عليها إلا عشرة رجال، وكانت أمانته أن ابنة شعيب كانت أمامه، فوصفتها له الريح فقال لها: تأخري وصفي لي الطريق.

﴿قَالَ﴾ شعيب لموسى عليهما السلام: **﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾** يعني: أزوجك إحدى ابنتي على أن ترعى غنمي ثمان سنين، وهذا الحكم في هذه الأمة جائز أيضاً، لو تزوج الرجل المرأة على أن يرعى غنمها كذا وكذا سنة، أو يرعى غنم أبيها، يجوز النكاح، ويكون ذلك مهراً لها **﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشراً﴾** يعني: عشر سنين **﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾** يعني: فإن أتممت عشر سنين فبفضلك، وليس بواجب **﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾** في السنتين يعني: أنت بالخيار في ذلك. ويقال: بأن أشرط عليك العشر **﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** أي من الوافين بالعهد. وقال مقاتل: يعني، من الوافين بك كقوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢] يعني: ارفق بهم. **﴿قَالَ﴾** موسى: **﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ**

Marfat.com

أَيَمَا ٱلأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني: أتممت لك، إما الثماني وإما العشر ﴿فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا سبيل لك علي. ويقال: لاظلم عليّ بأن أطالب بأكثر منه، فإن قيل: كيف تجوز الإجارة بهذا الشرط على أحد الأجلين بغير وقت معلوم؟ قيل له: العقد قد وقع على الثماني، وهو قوله: ﴿أن تأجرني ثماني حجج﴾ وإنّما خيْره في الزيادة، والإجارة بهذا الشرط في الشريعة جائزة أيضاً، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يعني: شهيد فيما بيننا. ويقال: شاهد على ما نقول، وعلى عقدنا.

وذكر مقاتل: أن رجلاً من الأزد سأل رسول الله ﷺ: أيما الأجلين قضى موسى؟ قال: «الله أعْلَمُ» حتى أسألَ جبريل عليه السلام»، فأتاه جبريل، فسأله. فقال: «الله أعلم، سأسأل إسرافيل عليه السلام» فسأله فقال: «حتى اسأل رب العزة»، فأوحى الله تعالى إلى إسرافيل عليه السلام: «أن قد قضى موسى أبرهما وأوفاهما»[1].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «قضى موسى أتمَّ الأجلين»، وقد كان شرطه له أن ما ولدت في ذلك العام ولداً أبلَق، فهو له، فولدت في ذلك العام كلها بلقاً، فأخذ الغنم البلق وقيل: مثل هذا الشرط في شريعتنا غير واجب، إلا أن الوعد من الأنبياء عليهم السلام واجب، فوفاه بوعده، فلما أراد أن يخرج قال لشعيب عليه السلام: يا شيخ أعطني عصاً أسوق بها غنمي. فقال لابنته: التمسي له عصا، فجاءت بعصا شعيب عليه السلام. فقال شعيب عليه السلام: ردي هذه، وكانت تلك العصا أودعها إياه ملك في صورة إنسان، وكانت من عود آس الجنة، فردتها والتمست غيرها، فلم يقع في يدها غيرها، فأعطته، فخرج مع أهله فضلَّ الطريق، وكانت ليلة باردة مظلمة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى ٱلأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ يعني: بامرأته ﴿آنَسَ﴾ يعني: أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ يعني: قفوا مكانكم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: خبر الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قرأ عاصم ﴿جَذْوة﴾ بنصب الجيم، وقرأ حمزة ﴿جُذوة﴾ بضم الجيم، وقرأ الباقون ﴿جِذوة﴾ بالكسر، فهذه لغات معناها واحد، يعني: قطعة من النار. ويقال: شعلة، وهو عود قد احترق بعضه ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لكي تصطلوا من البرد، فترك امرأته في البرية وذهب.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٤٠٩ إلى البزار وأبي يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس و٤/ ٤١٠ أخرجه ابن مردويه عن جابر.

Marfat.com

سُوٓءٍ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني: النار ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ﴾ يعني: من جانب الوادي الأيمن عن يمين موسى عليه السلام ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ يعني: من الموضع المبارك الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: الذي يناديك رب العالمين.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني: ونودي بأنْ ألق عصاك ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وقد ذكرناه. قال الله عز وجل: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ يعني: من الحية يعني: قد آمنت أن ينالك منها مكروه ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾ أي: أدخل يدك ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ يعني: يدك.

قال بعضهم: هذا ينصرف إلى قوله: ﴿ولم يعقب﴾ من الرهب، يعني: لم يلتفت من الخوف. ويقال: كان خائفاً، فأمره بأن يضم يده إلى صدره، ففعل حتى سكن عن قلبه الرعب.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿من الرَّهب﴾ بنصب الراء والهاء، وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الراء، وجزم الهاء، والباقون بضم الراء، وجزم الهاء، ومعنى ذلك كله واحد، وهو الخوف. وقال بعضهم: هو الكدر.

ثم قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: اليد والعصا آيتان وعلامتان من ربك، وحجتان لنبوتك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو. ﴿فذانّك﴾ بتشديد النون. وقرأ الباقون بالتخفيف، وهما لغتان، وهو الإشارة إلى شيئين. يقال للواحد: ذلك وذاك، وللإثنين ذانك وذايك. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ومعناه: أرسلناك إلى فرعون بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: عاصين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ به ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ يعني: أبين مني لساناً، وكانت في لسان موسى عقدة من النار التي أدخلها فاه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً﴾ أي عوناً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ يعني: لكي يصدقني، ويعبر عن كلامي. قرأ نافع ﴿ردَاً﴾ بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز، فمن قرأ بالهمز، فهو الأصل، ومن قرأ بغير همز، فإنما ألقى فتحة الهمزة على الدال، وليّن الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة ﴿يصدقُني﴾ بضم القاف، وقرأ

Marfat.com

الباقون بالجزم. فمن قرأ بالجزم، جعله جواب الأمر، ومن قرأ بالضم جعله صفة ردءاً، أي ردءاً مصدقاً.

ثم قال: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ أي فرعون وآله ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي: نقويك بأخيك ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ يعني: حجة ثانية، وهي اليد والعصا ﴿فلا يصلون﴾ بسوء إليكما ﴿أنتما ومن اتبعكما﴾ يعني: من آمن بكما ﴿الغالبون﴾ في الحجة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ يعني: جاء إلى فرعون وقومه بعلاماتنا، وذكر في رواية مقاتل: أن فرعون لم يأذن لهما إلى سنة أن يدخلا عليه. وقال في رواية السدي وغيره: أنه لما جاء إلى الباب، لم يأذن له البواب، فضرب عصاه على باب فرعون ضربة، ففزع من ذلك فرعون وجلساؤه، فدعا البواب وسأله، فأخبره أن بالباب رجلاً يقول: أنا رسول رب العالمين، فأذن له، فدخل فأدى الرسالة وأراهم العلامة. فقالوا هذا سحر، فذلك قوله عز وجل: ﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ يعني: ما هذا إلا كذب مختلق يعني: الذي جئت به ما هو إلا سحر قد اختلقته من ذات نفسك ﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وقال موسى﴾ قرأ ابن كثير ﴿قال موسى﴾ بغير واو. وقرأ الباقون بالواو، فمن قرأ بالواو، فهو عطف جملة على جملة، ومن قرأ بغير واو، فهو استئناف ﴿قال موسى﴾: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يعني: أنا جئت بالهدى من عند الله ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ يعني: هو أعلم بمن تكون له عاقبة الجنة أو النار. ويقال: بمن يكون له عاقبة الأمر والدولة. قرأ حمزة والكسائي، ﴿ومن يكون﴾ بلفظ التذكير وقرأ الباقون ﴿تكون﴾ بلفظ التأنيث.

ثم قال: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يعني: لا يأمن الكافرون من عذابه ﴿وقال فرعون﴾ لأهل مصر ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ فلا تطيعوا موسى وهذه إحدى كلمتيه التي أخذه الله بهما. والأخرى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ثم قال: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ يعني: أوقد النار على اللبن حتى يصير آجراً. قال مقاتل: وكان فرعون أول من طبخ الآجر وبنى به ﴿فاجعل لي صرحاً﴾ أي: قصراً طويلاً

Marfat.com

مشرفاً، وهو المنارة ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني: أنظر إليه وأقف عليه. فبنى الصرح، وكان بلاطه خبث القوارير، وكان الرجل لا يستطيع القيام عليه من طوله مخافة أن تنسفه الرياح، وكان طوله في السماء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع. فلما فرغ من بنائه، جاء جبريل عليه السلام فضرب جناحه على الصرح، فهدمه وقال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ يعني: أحسب موسى ﴿من الكاذبينَ﴾ بما يقول أن في السماء إلهاً.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرضِ﴾ يعني: استكبر فرعون عن الإيمان هو وقومه ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ يعني: بغير حجة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ﴾ يعني: وحسبوا أنهم ﴿إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت. قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿لا يَرجِعون﴾ بنصب الياء، وكسر الجيم على فعل لازم. وقرأ الباقون بضم الياء نصب الجيم، يعني: لا يردون بمعنى التعدي.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ يعني: عاقبناه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَاهُم في اليَمِّ﴾ يعني: أغرقناهم في البحر. وقال مقاتل: في النيل ﴿فانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يعني: خذلناهم حتى صاروا قادة ورؤساء للضلاَّل والجهَّال ﴿يَدْعُونَ إِلى النَّارِ﴾ يعني: إلى عمل أهل النار. ويقال: إلى الضلالة التي عاقبتها النار ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون من عذابي ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ عقوبة: عقوبة وهي الغرق ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين. والعرب تقول: قبحه الله أي: أهلكه الله. ويقال: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ وذلك أنهم لما أهلكوا لعنوا، فهم يعرضون على النار غدوة وعشية إلى يوم القيامة، ويوم القيامة ﴿هم من المقبوحين﴾ يعني: من الممقوتين المهلكين. ويقال: ﴿من المقبوحين﴾، يعني: من المعذبين ويقال: إنه يقبِّح صورتهم. ويقال: ﴿من المقبوحين﴾، يعني: من المشوهين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطيناه التوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ بالعذاب يعني: من بعد قوم نوح وعاد وثمود ﴿بصائر لِلنَّاسِ﴾ يعني: هلاكهم بصيرة للناس وعبرة. ويقال: ﴿بصائر﴾ يعني الكتاب بياناً لبني إسرائيل، ومعناه: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب بصائر﴾ أي مبيناً للناس ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به من العذاب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتعظوا، فيؤمنوا بتوحيد الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ يعني: ما كنت يا محمد بناحية الجبل من قبل المغرب ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ يعني: إذ عهدنا إليه بالرسالة. ويقال: أحكمنا معه، وعهدنا إليه بأمرنا ونهينا ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: الحاضرين لذلك الأمر ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً﴾ يعني: أحدثنا وخلقنا أمماً، ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ يعني: الأجل فنسوا عهد الله عز وجل وتركوا أمره.

وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً﴾ يعني: مقيماً ﴿في أهل مدين﴾ ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: تتلو على أهل مكة القرآن يعني: أن الله تعالى أعلمك أخبار الأمم الماضية من حديث موسى وشعيب عليهما السلام ليكون علامة لنبوتك حيث تخبرهم بخبر موسى، ولم تكن حاضراً هناك، ولم تكن تقرأ القرآن ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إليك لتخبرهم بخبر أهل مدين، وبخبر موسى عليه السلام. ويقال: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يعني: أرسلناك رسولاً، وأنزلنا عليك هذه الأخبار لتخبرهم، ولولا ذلك لما علمتها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ يعني: بناحية الجبل الذي كلّم الله تعالى به موسى. يعني: عن يمين موسى ولولا ذلك: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ يعني: كلمنا موسى. ويقال: ﴿إذ نادينا﴾ يعني: أمتك، وذلك أن الله تعالى لما وصف لموسى نعت أمة محمد ﷺ، فأحب موسى أن يراهم، قال الله تعالى لموسى: إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك كلامهم، فأسمعه الله تعالى كلامهم، وقال أبو هريرة رضي الله عنه معنى قوله: ﴿إذ نادينا﴾ يعني: «نودوا، يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني».

وروى الأعمش عن ابن مدرك عن أبي زُرعة قال: رُفع الحديث في قوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ - قال: نودي يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني، وأعطيتم قبل أن تسألوني. وعن عمرو بن شعيب قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: كتاب كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خلقه بألفي

Marfat.com

عام وستمائة عام على ورقة آسٍ، ثم وضعه على عرشه ثم نادى: يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أدخلته الجنة(١) ـ.

ثم قال: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِن رَّبِكَ﴾ يعني: القرآن نعمة من ربك حيث اختصصت به. نصب ﴿رحمة﴾ لأن معناه: فعلنا ذلك للرحمة، كقوله: فعلت ذلك ابتغاء الخير، يعني: لابتغاء الخير. ثم قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ﴾ يعني: لم يأتهم ﴿مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: لم يأتهم رسول من قبلك، وهم أهل مكة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: لكي يتعظوا.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ﴾ يعني: عقوبة ونقمة، وفي الآية تقديم ومعناها: لولا أن يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً، فنتَّبع آياتك، ونكون من المؤمنين، لعذبوا في الدنيا ولأصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا هو قول مقاتل. ويقال: معناه لولا أن يصيبهم عذاب ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لعذبوا في الدنيا، فيكون جوابه مضمراً. ويقال: معناه لو أني أهلكتهم قبل إرسالي إليك، لقالوا يوم القيامة: ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك﴾ يقول: لولا ذلك لم نحتج إلى إرسال الرسل، فأرسلناك لكي لا يكون لهم حجة عليَّ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني: الكتاب أو الرسل ﴿قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من قبل يعني: هلا أعطي محمد ﷺ القرآن جملة واحدة، كما أعطي موسى التوراة جملة.

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: بالتوراة، فقد كفروا بآيات موسى، كما كفروا بآيات محمد ﷺ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعني: تعاونا. وذلك أن أهل مكة سألوا اليهود عنه فأخبروهم أنهم يجدون في كتبهم نعته وصفته، فأمروهم بأن يسألوه عن أشياء، فلما أجابهم قالوا: ﴿ساحران تظاهرا﴾ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدين. قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿سحران﴾ بغير ألف، عنوا محمداً وموسى عليهما السلام ويقال: التوراة والفرقان. ويقال: التوراة والإنجيل. وقرأ الباقون بالألف ﴿ساحران﴾ عنوا محمداً

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

وموسى عليهما السلام. وقال سعيد بن جبير: يعني موسى وهارون عليهما السلام» ويقال: موسى وعيسى عليهما السلام. واحتج من يقرأ بغير ألف بما في سياق الآية. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ واحتج من قرأ بالألف بقوله تعالى: ﴿تظاهرا﴾ تعاونا، والتظاهر يكون بالناس. يقول الله تعالى للنبي ﷺ قل لهم فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه: يعني: من التوراة، والقرآن أتبعه، أي أعمل به ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنهما كانا ساحرين ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يعني: إن لم يجيبوك إلى الإتيان بالكتاب ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعبادة الأوثان. ويقال: يؤثرون أهواءهم على الدين ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني: ومن أضر بنفسه ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾ يعني: بغير بيان من الله ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يريد كفار مكة يعني: لا يرشدهم إلى دينه.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ يعني: بيّنّا لكفار مكة لهم في القرآن من خبر الأمم الماضية كيف عذّبوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يخافوا فيؤمنوا بما في القرآن ويقال: ﴿ولقد وصّلنا لهم القول﴾ يعني: أرسلنا لهم الكتب بعضها ببعض، يعني بعثنا بعضها على إثر بعض. ويقال: ﴿ولقد وصّلنا﴾ أي: أوصلنا لهم القول. يعني: أنزلنا لهم القرآن آية بعد آية هداية، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ يعني: لكي يتعظوا.

ثم وصف مؤمني أهل الكتاب فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ يعني: من قبل القرآن ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب، وهم أربعون رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين قبل أن يبعث محمد ﷺ: اثنان وثلاثون من أهل أرض الحبشة قدموا مع جعفر الطيار، وثمانية من أهل الشام. ويقال: إنهم ثمانية عشر رجلاً ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي صدقنا ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ يعني: القرآن، وذلك أنهم عرفوا بما ذكر في كتبهم من نعت النبي ﷺ وصفته وكتابه فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يعني: من قبل هذا القرآن، ومن قبل محمد ﷺ كنا مخلصين.

قوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يعني: يعطون ثوابهم ضعفين: مرة بإيمانهم بكتابهم، ومرة بإيمانهم بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: بصبرهم على ما أوذوا، ويقال: بصبرهم على دينهم الأول، وبصبرهم على أذى المشركين، فصدّقوا وثبتوا على

Marfat.com

إيمانهم. حيث قال لهم أبو جهل وأصحابه: ما رأينا أحداً أجهل منكم، تركتم دينكم، وأخذتم دينه. فقالوا: ما لنا لا نؤمن بالله، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يعني: يدفعون قول المشركين بالمعروف. ويقال: يدفعون الشرك بالإيمان. ويقال: يدفعون بالكلام الحسن الكلام القبيح. ويقال: يدفعون ما تقدم لهم من السيئات بما يعملون من الحسنات ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ يعني: إذا سمعوا الشتم والأذى والقبيح لم يردوا عليهم، ولم يكافئوهم به ولم يلتفتوا إليه، يعني: إذا شتمهم الكفار لم يشتغلوا بمعارضتهم بالشتم ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ يعني: ديننا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعني: دينكم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ردُّوا معروفاً عليهم ليس هذا تسليم التحية، وإنما هو تسليم المتاركة والمسالمة، أي: بيننا وبينكم المتاركة والمسالمة، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال. ويقال: ﴿السلام عليكم﴾ يعني: أكرمكم الله تعالى بالإسلام ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب دين الخاسرين، ولا نصحبهم. ويقال: هذه الآية مدنية نزلت في شأن عبد الله بن سلام.

وروى أسباط عن السدي قال: لما أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، ابعث إلى قومي فاسألهم عني. فبعث إليهم رسول الله ﷺ، وقد ستر بينهم وبينه ستراً. وقال: «أَخْبِرُونِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ؟» قالوا: ذاك سيدنا وأعلمنا. قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي أَتُؤْمِنُونَ بِي وَتُصَدِّقُونِي؟» قالوا: هو أفقه من أن يدع دينه ويتبعك. قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ فَعَلَ؟» قالوا: لا يفعل. قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ فَعَلَ؟» قالوا: إنه لا يفعل، ولو فعل إذاً نفعل. فقال عليه السلام: «أُخْرُجْ يا عَبْدَ اللهِ». فخرج. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فوقعوا فيه وشتموه وقالوا: ما فينا أحد أقل علماً ولا أجهل منك. قال: «أَلَمْ تُثْنُوا عَلَيْهِ آنِفاً؟» قالوا: إنا استحينا أن نقول اغتبتم صاحبكم، فجعلوا يشتمونه وهو يقول: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ فقال: ابن يامين وكان من رؤساء بني إسرائيل: أشهد أن عبد الله بن سلام صادق، فابسط يدك يا محمد، فبسط يده، فبايع ابن يامين مع رسول الله ﷺ فنزل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وإلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾(١).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(١) عزاه السيوطي: ٦/٤٢٦ إلى ابن أبي حاتم.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يعني: لا ترشد من أحببته إلى الهدى. ويقال: من أحببت هدايته إلى دينك، وذلك أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقال له رسول الله ﷺ: «يَا عَمَّاهُ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا به يكلمانه ويكلمه النبي ﷺ حتى مات على الكفر، فنزل ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ بهدايته ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يرشد من يشاء إلى دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: بمن قدر له الهدى.

قوله عز وجل: ﴿وقالوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ يعني: الإيمان بك ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: نسبى ونخرج من مكة لإجماع العرب على خلافنا، وهذا قول الحارث بن عامر النوفلي حين قال للنبي ﷺ: ما كذبْتَ كذبةً قطّ، فنتهمك اليوم، ولكن متى ما نؤمن بك تختلسنا العرب من أرضنا. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ يعني: أولم ننزلهم مكة حرماً آمناً يعني: كان الحرم أمناً لهم في الجاهلية من الغارة والسبي، وهم يعبدون غيري، فكيف يخافون إن أسلموا أن لا يكون الحرم أمناً لهم؟ فذلك قوله: ﴿أولم نمكن لهم﴾ يعني أولم ننزلهم مكة حرماً آمناً من الغارة والسبي ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ﴾ بالتاء يعني: يحمل إليه ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من ألوان الثمرات مؤنثه قرأ نافع ﴿تجبى﴾ بالتاء لأن الثمرات مؤنثة. وقرأ الباقون بالياء لتقديم الفعل. ثم قال: ﴿رِزْقاً مِن لَدُنَّا﴾ يعني: من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يأكلون رزقي، ويعبدون غيري، وهم آمنون في الحرم، ويقال: لا يعلمون أن ذلك من فضل الله عليهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ثم خوفهم فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فيما مضى ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ يعني: كفرت برزق ربها. ذكر القرية، وأراد به أهل القرية يعني: أنهم كانوا يتقلبون في رزق الله تعالى فلم يشكروه في نعمته. ويقال: ﴿بطرت معيشتها﴾ يعني: طغوا في نعمة الله، فأهلكهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا. ويقال: عاشوا في البطر وكفران النعم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ يعني: انظروا واعتبروا في بيوتهم وديارهم بقيت خالية ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِن بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً﴾ وهم المسافرون ينزلون بها يوماً أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين﴾ يعني: نرث الأرض ومن عليها.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ يعني: لم يعذب أهل القرى ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ يعني: في معظمها ويقال: في أكبر قراها. ويقال: أم القرى مكة. قرأ حمزة والكسائي ﴿في إمها﴾ بكسر الألف، وقرأ الباقون ﴿أُمها﴾ بالضم، ومعناهما واحد، يبعث في أمها رسولاً ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ يعني: لم نهلكها إلا بظلم أهلها.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما أعطيتم من مال. ويقال: ما أعطيتم من الدنيا فهو ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: فهو متاع الحياة الدنيا، يعني: ينتفعون بها أيام حياتهم ﴿وَزِينَتُهَا﴾ يعني: وزهراتها ولا تبقى دائماً ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ من الثواب والجنة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني: أفضل وأدوم لأهله مما أعطيتم في الدنيا ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني. قرأ عمرو ﴿يعقلون﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم. وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ يعني: الجنة ﴿فَهُوَ لاَقِيهِ﴾ يعني: مدركه ومصيبه ﴿كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمال ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار هل يستوي حالهما؟ قال في رواية الكلبي: نزل في عمار بن ياسر، وأبي جهل بن هشام وقال غيره: هذا في جميع المؤمنين، وجميع الكافرين ويقال نزلت في النبي ﷺ، وفي أبي جهل، يعني: من كان له في هذه الدنيا شدَّة مع دين الله، خير ممن كان له سعة وفرج مع الشرك، ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾. يعني: من المعذبين في النار.

وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني: واذكر يوم يدعوهم يعني: المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ﴾ يعني: المشركين: ﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا أنهم شركائي ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وجبت عليهم الحجة فوجب عليهم العذاب ويقال وجب عليهم القول وهو قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ يعني: القادة يقولون: ربنا هؤلاء الذين أضللنا يعني: السفلة أغويناهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم كما كنا ضالين. ويقال: يقول الكافرون ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ يعني: الشياطين. فقالت الشياطين: أغويناهم. يعني: أضللناهم كما غوينا، أي أضللنا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا

Marfat.com

﴿يَعْبُدُونَ﴾ يعني: ما كانوا يأمروننا بعبادة الآلهة ﴿وَقِيلَ﴾ للكفار ﴿ادْعُوا شُرَكَائَكُمْ﴾ يعني آلهتكم التي تعبدون من دون الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: يودون لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا. ويقال: يودون أن لم يكونوا اتبعوهم. فدعوهم فلم يستجيبوا لهم، أي: لم يجيبوهم بحجة تنفعهم فيودون أنهم لم يعبدوهم لما رأوا العذاب.

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني: يسألهم يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ في التوحيد ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ﴾ يعني: ألبست عليهم الحجج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من الهول ﴿فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ﴾ يعني: لا يسأل بعضهم بعضاً عما يحتجون به، رجاء أن يكون عنده من الحجة ما لم يكن عند غيره، لأن الله تعالى أدحض حجتهم، وفي الدنيا إذا اشتبهت عليه الحجة، ربما يسأل عن غيره، فيلقنه الحجة، وفي الآخرة آيس من ذلك.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا
يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا
تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ
ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ
ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ
فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: من الشرك ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ﴿فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ﴾ أي: من الناجين الفائزين بالخير.

قوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وذلك أن الوليد بن المغيرة كان يقول: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني به نفسه وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف فقال تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ للرسالة من يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ يعني: ليس الخيار إليهم. ويقال: هو ربك يخلق ما يشاء، ويختار لهم ما يشاء، ﴿ما كان لهم الخيرة﴾، أي ما كان لهم طلب الخيار، والأفضل. ويقال: ما كان لبعضهم على بعض فضل، والله تعالى هو الذي يختار. وقال الزجاج: الوقف على قوله ﴿ويختار﴾. والمعنى:

Marfat.com

وربك يخلق ما يشاء، ويختار. ثم قال: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾، أي لم يكن لهم أبداً أن يختاروا على الله، ويكون ما للنفي. قال: ووجه آخر أن تكون بمعنى الذي، يعني: وربك يخلق ما يشاء، ويختار الذي لهم الخيرة أن يدعوهم إليه من عبادته، ما لهم فيه الخيرة. ويقال: ما كان لهم الخيرة. يعني: ليس لهم أن يختاروا على الله عز وجل، وليس إليهم الاختيار، والمعنى: لا نرسل الرسل إليهم على اختيارهم.

ثم قال: ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ أي تنزيهاً لله ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: ما تضمر وتسر قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول ﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق غيره ﴿لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل: يعني يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الجنة ويقال: له الألوهية في الدنيا والآخرة، وله الحكم، يعني نفاذ الحكم، والقضاء يحكم في الدنيا والآخرة بما يشاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ﴾ يعني: ألا تنظرون إلى نعمة الله تعالى في خلق الليل والنهار لمصلحة الخلق، فلو جعل ﴿عَلَيْكُم اللَّيْلَ سَرْمَداً﴾ أي دائماً ﴿إِلَى يَوْم القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾ المواعظ، وتعتبرون بها.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ يعني: دائماً ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ يعني: تقرّون وتستريحون فيه ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ من يفعل ذلك بكم، لأن العيش لا يصلح إلا بالليل والنهار، فأخبر عن صنعه لمصلحة الخلق، ليشكروه ويوحدوه ويعبدوه فقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي ومن نعمته وفضله ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني: في الليل وجعل لكم النهار ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعني: لتطلبوا من رزقه في النهار ﴿وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون رب هذه النعمة.

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني: أنذرهم بذلك اليوم ويقال: معناه اذكر ذلك اليوم الذي يناديهم يعني: يدعوهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُم تَزْعُمُونَ﴾ أنها لي شريك ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ يعني: أخرجنا من كل أمة نبيها ورسولها ﴿شَهِيداً﴾ بالرسالة والبلاغ ﴿فَقُلْنَا﴾ للمشركين ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني: حجتكم بأن معي شريكاً، فلم يكن لهم حجة ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ للهِ﴾ يعني: أن عبادة الله هي الحق. ويقال: علموا أن التوحيد لله. ويقال: إن الحق ما دعا إليه الله، وأتاهم به الرسول ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: اشتغل عنهم بأنفسهم ﴿ما كانوا يفتدون﴾ يعني: يكذبون في الدنيا يعني: الأصنام. ويقال: الشياطين. ويقال: ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعني: لم ينتفعوا بما عبدوه من دون الله.

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ

Marfat.com

بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعني: من بني إسرائيل. ويقال: كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: تطاول وتكبر على بني إسرائيل، وكان فرعون قد ملّكه على بني إسرائيل حين كانوا بمصر، فلما قطع موسى البحر ببني إسرائيل ومعه قارون، وأغرق الله تعالى فرعون وجنوده، ورجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض مصر وسكنوا ديارهم كما قال في رواية أخرى ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وجعلت الحبورة لهارون، وهو الرأس الذي يقرّبُ القربان. فقال قارون لموسى: لك النبوة ولهارون الحبورة والمذبح، وأنا لست في ذلك من شيء. فقال له موسى: أنا لم أفعل ذلك، ولكن الله تعالى فعل ذلك. فقال له قارون: لا أصدقك على هذا، واعتزل قارون ومن تبعه من بني إسرائيل، وكان كثير المال والتبع.

وروي عن الحسن أنه قال: إنَّ أول من شرَّف الشرف قارون، لما بنى داره وفرغ منها، وشرفها وصنع للناس طعاماً سبعة أيام، يجمعهم كل يوم ويطعمهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما أمر الله تعالى موسى بالزكاة قال لقارون: إن الله تعالى أمرني أن آخذ من مالك الزكاة، فأعطِ من كل مائتي درهم خمسة دراهم، فلم يرض بذلك ثم قال له: اعطِ من كلّ مائتي درهم درهماً، فلم يرض بذلك، فقال له: اعط من كل ألف درهم درهماً، فلم يرض بذلك. وقال لبني إسرائيل: إن موسى لم يرض حتى تناول أموالكم، فما ترون؟ قالوا: رأينا لرأيك تبع. قال: فإني أرى أن ترموه فتهلكوه، فبعثوا إلى امرأة زانية، فاعطوه حكماً على أن ترميه بنفسها، ثم أتوه في جماعة بني إسرائيل فقالوا: يا موسى، ما على من يسرق من الحرز؟ قال: تقطع يده. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قالوا: وما على الزاني إذا زنى؟ قال: يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قالوا: فأنت قد زنيت. قال: أنا، وجزع من ذلك، فأرسلوا إلى المرأة، فلما جاءت وعظها وعظم عليها موسى الحلف بالله، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدَقت. قالت: أما إذا حلّفتني، فإني أشهد أنك بريء، وإنك رسول الله. وقالت: أرسلوا إليّ فأعطوني حكمي على أن أرميك بنفسي. قال: فخرّ موسى عليه السلام لله ساجداً يبكي، فأوحى الله تعالى

Marfat.com

إليه: ما يبكيك؟ قد أمرت الأرض أن تطيعك، فأمُرْها بما شئت. فقال موسى: خذيهم، فأخذتهم».

وفي رواية الحسن: خرج موسى عليه السلام مغضباً، فدعا الله عز وجل، وقال: عبدك قارون الذي عبد غيرك وجحدك، فأوحى الله تعالى إلى موسى: إني قد أمرت الأرض بأن تطيعك، فجاء موسى حتى دخل إلى قارون حين اجتمع الناس في داره. فقال: يا عدو الله كذبتني في كلام له غيظ، حتى غضب قارون وأقبل عليه بكلام شديد، وهَم به. فلما رأى موسى ذلك قال: يا أرض خذيهم. قال: وكان قارون على فرش على سرير مرتفع في السماء، فأخذت الأرض أقدامهم، وغاب سريره ومجلسه، وقد دخل من الدار في الأرض مثل ما أخذت منهم على قدرها، فأقبل موسى يوبخهم ويغلظ لهم المقالة. فلما رأى القوم ما نزل بهم، عرفوا أن هذا الأمر ليس لهم به قوة، فنادوا: يا موسى إرحمنا وكف عنا، وجعلوا يتضرعون إليه ويطلبون رضاه، وهو لا يزداد إلا غضباً وتوبيخاً لهم ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يتضرعون إليه ويسألونه، وهو يوبخهم. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أوساطهم، وكانت الأرض تأخذ من الدار كل مرة مثل ما تأخذ منهم، وهم يتضرعون في ذلك إلى موسى ويسألونه. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى آباطهم، فمدوا أيديهم إلى وجه الأرض رجاء أن يمتنعوا بها. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، فلم يبق على وجه الأرض منهم شيء إلا رؤوسهم، ولم يبق من الدار إلا شرفها. وقال قارون: يا موسى أنشدك بالله وبالرحم. فقال: يا أرض خذيهم، فاستوت الأرض عليهم وعلى الدار. فانطلق موسى وهو فرح بذلك، فأوحى الله تعالى إليه، يا موسى يتضرع إليك عبادي، ودعوك وسألوك فلم ترحمهم، أما وعزتي وجلالي لو أنهم دعوني، واستغاثوا بي لرحمتهم، ولكن تركوا أن يجعلوا رغبتهم ورجاءهم إلي، وجعلوها إليك، فتركتهم فذلك قوله تعالى: ﴿أن قارون كان من قوم موسى **فَبَغَى عَلَيْهِمْ**﴾ يعني: تطاول على بني إسرائيل، وعلى موسى ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ**﴾ يعني: من المال ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ**﴾ يعني: خزائنه ﴿**لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ**﴾ قال مقاتل: العصبة من العشرة إلى الأربعين، فإذا كانوا أربعين فهم أولو قوة. يقول: لتعجز العصبة أولو القوة عن حمل مفاتيح الخزائن.

وقال أهل اللغة: ناء به الحمل إذا أثقله. وقال القتبي: تنوء بالعصبة، أي تميل بها العصبة، إذا حملتها من ثقلها، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «العصبة في هذا الموضع أربعون رجلاً، وخزائنه كانت أربعمائة ألف، يحمل كل رجل عشرة آلاف ويقال ﴿مفاتحه﴾ يعني: مفاتيح خزائنه يحملها أربعون رجلاً. ويقال: أربعون بغلاً.

وروى وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال: كان مفاتيح كنوز قارون من جلدٍ، كل مفتاح مثل الإصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حمل المفاتيح على ستين بغلاً، كل

Marfat.com

بغل أغر محجّل ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لا تَفْرَحْ﴾ يعني: لا تفخر بما أوتيت من الأموال. ويقال: لا تفرح بكثرة المال ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ يعني: المرحين المفاخرين. ويقال: البطرين ويقال: ﴿لا تفرح﴾ أي: لا تأشر، والأشر: أشد الفرح الذي يخالطه حرص شديد حتى يبطر، يعني: يطغى وقالوا له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ﴾ يعني: اطلب مما أعطاك الله تعالى من الأموال والخير ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ يعني: لا تترك حظك من الدنيا أن تعمل لآخرتك ﴿وَأَحْسِنْ﴾ العطية من الصدقة والخير ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: أعط الناس كما أعطاك الله. ويقال: أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أنفقه في طاعة الله تعالى، ولا تنفقه في معصية الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ المنفقين في المعصية ـ وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي: لا تضيّع عمرك فإنه نصيبك من الدنيا[1] ـ. ﴿قَالَ﴾ قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال مقاتل: يعني على خير علمه الله عندي. وقال في رواية الكلبي: يعني علم التوراة، وكان قارون أقرأ رجل في بني إسرائيل بالتوراة، فأعطيت ذلك لفضل علمي، وكنت بذلك العلم مستحقاً لفضل المال. ويقال: ﴿على علم عندي﴾ يعني: علم الكيميا، وكان يعمل كيميا الذهب. وقال الزجاج: الطريق الأول أشبه، لأن الكيميا لا حقيقة لها.

يقول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ من الأموال منهم: نمرود وغيره ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: لا يسأل الكافرون عن ذنوبهم، لأن كل كافر يعرف بسيماه، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية وقيل: لا يسأل الكافرون يوم القيامة عن ذنوبهم سؤال النجاة، بل يسألون سؤال العذاب والمناقشة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: خرج قارون على بني إسرائيل ﴿في زينته﴾.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

قال مقاتل: وهو على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب، عليه أرجوان، ومعه أربعة آلاف فارس، وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان، ومعه ثلاثمائة جارية بيض، عليهن من الحلل والثياب الحمر على البغال الشهب. وقال قتادة: خرج معه أربعة آلاف دابة عليها ثياب حمر، منها ألف بغلة بيضاء عليها قطائف أرجوان. وقال في رواية الكلبي: خرج على ثلاثمائة دابة بيضاء عليها أنواع من الكساء، وعليها ثلثمائة قطيفة حمراء، عليها جواري وغلمان ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وكانوا من أهل التوحيد ﴿يَا لَيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ﴾ يعني: مثل ما أعطي من الأموال قارون ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقول: ذو نصيب وافر في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني: أكرموا بالعلم بما وعد الله تعالى في الآخرة للذين تمنوا ذلك ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ﴾ يعني: ويحكم ثواب الآخرة ﴿خير﴾ يعني: أفضل ﴿لمن آمن﴾ يعني: صدق بتوحيد الله تعالى ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى مما أُعطي قارون في الدنيا ﴿وَلا يُلَقَّاها﴾ يعني: ولا يوفَّق ولا يرزق في الجنة ﴿إلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ في الدنيا على أمر الله تعالى. ويقال: ﴿ولا يلقاها﴾، يعني: لا يعطى الأعمال الصالحة إلاَّ الصابرون على الطاعات وعن زينة الدنيا ويقال: ﴿ولا يلقّاها﴾ يعني: ولا يلقَّن ولا يوفَّق لهذه الكلمة إلا الصابرون عن زينة الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ يعني: قارون ﴿وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ يعني: بقارون وبداره وأمواله، فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل إلى يوم القيامة ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: لم يكن له جند وأعوان يمنعونه من عذاب الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ يعني: وما كان قارون من الممتنعين مما نزل به من عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ حين رأوه في زينته، وقالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ﴾ قال القتبي: قد اختلف في هذه اللفظة. فقال الكسائي: معناها ألم تر ﴿أن الله يبسط﴾، ﴿ويكأنه﴾ يعني: ألم تر أنه لا يفلح الكافرون.

روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: ﴿ويكأن الله﴾، يعني: أو لا يعلم أن الله ﴿يَبْسُطُ﴾ وهذا شاهد لقول الكسائي. وذكر الخليل بن أحمد: أنها مفصولة وي ثم يبتدىء فيقول: كأن الله. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «كان الله يبسط» ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كأنه لا يفلح الكافرون. وقال: وي صلة في الكلام، وهذا شاهد لقول الخليل. وقال الزجاج: الذي قاله الخليل أجود، وهو أن قوله: وي مفصولة من كان، لأن من ندم على شيء يقول: وي كما تعاتب الرجل على ما سلف تقول: وي، كأنك قصدت مكروهي. وقال مقاتل: معناه، ولكن ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني: يوسعه على من يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يقتر ويقال: ويضيق على من يشاء ﴿لولا أن الله منَّ علينا﴾ يعني: لولا أن منَّ الله علينا، لكنا مثل قارون في العذاب ﴿الخسف بنا﴾ معهم. ويقال: ﴿لولا أن منَّ الله علينا﴾ يعني: عصمنا مثل ما

Marfat.com

كان عليه من البطر والبغي، ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به. قال قرأ عاصم في رواية حفص بنصب الخاء، وكسر السين يعني: ﴿لخَسَفَ الله بنا﴾ وقرأ الباقون بضمّ الخاء وكسر السين على فعل ما لم يسم فاعله ﴿وَيكَأنَّهُ﴾ يعني: ولكنه ﴿لا يُفلِحُ الكَافِرُونَ﴾ الجاحدون للنعم.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني: الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ يعني: نعطيها للذين ﴿لا يريدون علوا في الأرض﴾ يعني: تعظيماً وتكبراً وتجبراً فيها عن الإيمان ﴿وَلا فَسَاداً﴾ في الأرض يعني: لا يريدون المعاصي في الدنيا.

وروى وكيع، عن سفيان، عن مسلم البطين ﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾. يعني: التكبر بغير حق، ﴿ولا فساداً﴾ قال: أخذ المال بغير حق. ويقال: العلو الخطرات في القلب، والفساد فعل الأعضاء ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: الجنة للذين يتقون الشرك والمعاصي. ويقال: عاقبة الأمر، وما يستقر عليه للمتقين الموحدين. ويقال: والعاقبة المحمودة للمتقين.

قوله عز وجل: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يعني: بكلمة الإخلاص وهي قول لا إله إلا الله ﴿فَلَهُ خَيرٌ مِنها﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى﴾ يعني: لا يثاب ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يصيبهم بأعمالهم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ يعني: أنزل عليك القرآن. ويقال: أمرك بالعمل بما في القرآن ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «الموت». وقال السدي: ﴿إلى معاد﴾ يعني: الجنة. وهكذا روي عن مجاهد.

وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال: «يعني: إلى مكة». وقال القتبي: معاد الرجل بلده، لأنه يتصرف في البلاد، وينصرف في الأرض ثم يعود إلى بلده. والعرب تقول: ردّ فلان إلى معاده، يعني: إلى بلده، وكان النبي ﷺ حين خرج من مكة إلى المدينة اغتم لمفارقته مكة، لأنها مولده وموطنه ومنشاه وبها عشيرته، واستوحش، فأخبر الله تعالى في طريقه أنه سيرده إلى مكة، وبشره بالظهور والغلبة.

ثم قال تعالى: ﴿قُل رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ يعني: بالرسالة والقرآن، وذلك حين قالوا له: إنك في ضلال مبين فنزل ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى﴾ يعني: فأنا الذي جئت بالهدى، وهو أعلم بمن هو في ضلال مبين نحن أو أنتم.

Marfat.com

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ يعني: أن ينزل عليك القرآن ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾ يعني: إلا كان الكتاب رحمةً من ربك. ويقال: في الآية تقديم، ومعناه: أن الذي فرض عليك القرآن يعني: جعلك نبياً، ينزل عليك القرآن، وما كنت ترجو قبل ذلك أن تكون نبياً بوحي إليك، لرادك إلى معاد، إلى مكة ظاهراً قاهراً. ويقال: ﴿إلا رحمة من ربك﴾ يعني: لكن دين ربك رحمة، واختارك لنبوته، وأنزل عليك الوحي.

ثم قال: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: عوناً للكافرين حين دعوه إلى دين آبائه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله﴾ يعني: لا يصرفنك عن القرآن والتوحيد ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ يعني: بعد ما أنزل إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني: ادع الخلق إلى توحيد ربك ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: لا تكونن مع المشركين على دينهم قوله عز وجل: ﴿وَلا تَدعُ مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ﴾ أي: لا تعبد غير الله.

ثم وحد الربُّ نفسه فقال: ﴿لا إلٰه إلاَّ هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق غيره ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ يعني: كل عمل هالك لا ثواب له إلا ما يراد به وجه الله عز وجل. ويقال: كل شيء متغير إلا ملكه، فإن ملكه لا يتغير، ولا يزول إلى غيره أبداً ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ يعني: له القضاء، وله نفاذ الحكم يحكم ما يريد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم - وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذبه، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة، أنه كان صادقاً في قوله ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾»[١] - صَدَقَ الله جَلَّ رَبُّنا، وَهُوَ أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ، وَصَدَقَ رُسُلُهُ قَوْلُهُ صِدْقٌ وَوَعْدُهُ حَقٌّ[٢] - والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبيّ بعده، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٣] -.

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».
(٢) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «ب».
(٣) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

سورة العنكبوت

مكية وهي ستون وتسع آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿الم أحَسِبَ النَّاسُ﴾ يعني: أظنّ الناس ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ يعني: أن يمهلوا ﴿أن يقُولوا آمنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ يعني: لا يبتلون. قال في رواية الكلبي: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال رسول الله ﷺ: «يا جبْرِيلُ ما بَقاءُ أمَّتِي عَلَى هٰذا» فقال له جبريل عليه السلام: فادع الله لأمتك، فقام فتوضأ، ثم صلى ركعتين، ثم سأل ربه عز وجل أن لا يبعث عليهم العذاب. قال: فنزل جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله عز وجل قد أجار أمتك من خصلتين، وألزمهم خصلتين، فعاد رسول الله ﷺ فتوضأ ثم صلى، فأحسن الصلاة، ثم سأل ربه عز وجل لأمته أن لا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فنزل جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد قد سمع الله عز وجل مقالتك، فإنه يقول: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، فصدقهم مصدقون، وكذبهم مكذبون، ثم لم يمنعنا أن نبتليهم بعد قبض أنبيائهم ببلاء يعرف فيه الصادق من الكاذب، ثم نزل قوله عز وجل ﴿الم أحَسِبَ النّاسُ أن يُتركوا﴾ أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ الآية.

قال مقاتل: نزلت في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة، فجزع أبواه وامرأته وقد كان الله بيّن للمسلمين أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله عز وجل فنزل ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا﴾.

وقال بعضهم: لما أصيب المسلمون يوم أحد، وكانت الكرة عليهم، فعيرهم اليهود والنصارى والمشركون، فشقّ ذلك على المسلمين، فنزلت هذه الآية. ويقال: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة، وفي نفر معه أخذهم المشركون وعذبوهم على الإسلام، فنزلت هذه الآية. ويقال: نزلت في جميع المسلمين. ومعناه: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا﴾ ثم لا يفرض عليهم الفرائض. وقال الزجاج: هذا اللفظ لفظ الاستخبار، والمعنى به تقرير وتوبيخ،

Marfat.com

يعني: أحسب الناس أن يقنع منهم بأن يقولوا: آمنا فقط، ولا يختبروا. ويقال: أن لا يعذبوا في الدنيا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: اختبرنا الذين كانوا من قبل هذه الأمة وابتليناهم ببلايا **﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾** يعني: إنما يبتليهم ليبين الذين صدقوا من المؤمنين في إيمانهم **﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** منهم فشكوا عند البلاء. ويقال: معناه ليبين صدق الصادق، وكذب الكاذب بوقوع صدقه، ووقوع كذبه. وقال القتبي: يعني: ليميزنَّ الله الذين صدقوا، ويميز الكاذبين.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾ يعني: الشرك والمعاصي **﴿أن يَسْبِقُونَا﴾** يعني: أن يفوتونا. ويقال: يعجزونا. ويقال: يهربوا منا فلا نجازيهم **﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** يعني: بئس ما يقضون لأنفسهم. قال الكلبي: نزلت في عتبة وشيبة والوليدبن عتبة بارزوا يوم بدر، فبارزهم من المسلمين: علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، فنزل في شأن مبارزي المسلمين **﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ﴾** يعني: الآخرة لكائن **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾** **﴿السميع﴾** لمقالتهم **﴿العليم﴾** بهم وبأعمالهم.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: علي بن أبي طالب وصاحبيه رضي الله عنهم **﴿إنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾** يعني: عن نصرة العالمين يوم بدر. ويقال: نزلت في جميع المسلمين ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي: يخاف الآخرة ويقال: يخاف الموت، فيستعد للآخرة والموت بالعمل الصالح ﴿فإن أجل الله لآت﴾ يعني: كائن ﴿وهو السميع﴾ لدعائهم، ﴿العليم﴾ بأمر الخلق.

﴿ومن جاهد﴾ يعني: عمل الخيرات، فإنما يجاهد لنفسه يعني: ثوابه لنفسه ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ يعني: عن أعمالهم، فإنما ثوابهم لأنفسهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: لنمحون عنهم **﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾** يعني: ذنوبهم ﴿ولنجزينهم﴾. يعني: لنثيبنهم أحسن الذي كانوا يعملون، يعني: أفضل من أعمالهم، ويقال: ﴿لنجزينهم﴾ بأحسن أعمالهم الذي كانوا يعملون في الدنيا.

Marfat.com

قوله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ يعني: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن، يعني: براً بهما.

وقال الكلبي: نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص، لما أسلم قالت له أمه: يا سعد بلغني أنك صبوت إلى دين محمد، فوالله لا يظلني سقف بيت، وأن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد، وترجع إلى دينك الذي كنت عليه، فأبى عليها ذلك، فثبتت على حالها لا تطعم ولا تشرب، ولا تسكن بيتاً، فلما خلص إليها الجوع لم تجد بدأ من أن تأكل وتشرب، فحثّ عز وجل الله سعداً بالبر إلى أمه، ونهاه أن يطيعها على الشرك فقال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما ليس لك به حجة، يعني: الشرك ﴿فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك، ثم حذّره ليثبت على الإسلام فقال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مصيركم في الآخرة ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر، وأثيبكم على ذلك.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى وبنبوة محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعملوا الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: مع الأنبياء والرسل عليهم السلام في الجنة. ويقال: ﴿لندخلنهم﴾ في جملة الصالحين، ونحشرهم مع الصالحين.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ نزلت في عياش بن أبي ربيعة، هاجر إلى المدينة قبل قدوم النبي ﷺ إليها، فجزعت أمه جزعاً شديداً. فقالت لأخويه: أبي جهل بن هشام، والحارث بن هشام، وهما أخواه لأمه، وأبناء عمه، فخرجوا في طلبه، فظفروا به وقالوا له: إن برّ الوالدة واجب عليك، فعليك أن ترجع فتبرها فإنها حلفت أن لا تأكل ولا تشرب، وأنت أحب الأولاد إليها، فلم يزالوا به حتى تابعهم. فجاؤوا به إلى أمه، فعمدت أمه فقيدته، وقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بمحمد، وضربوه حتى رجع إلى دينهم فنزل ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾ يعني: عذب في دين الله عز وجل: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ يعني: عذاب إخوته في الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللهِ﴾ في الآخرة. ويقال: نزلت في قوم من المسلمين أخذوهم إلى مكة وعذبوهم حتى ارتدوا فنزل ﴿من الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ يعني: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله، فينبغي

Marfat.com

للمسلم أن يصبر على أذاه في الله، وصارت الآية تنبيهاً لجميع المسلمين ليصبروا على ما أصابهم في الله عز وجل.

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: لو يجيء نصر من الله عز وجل بظهور الإسلام، والغلبة على العدو بمكة وغيرها ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ﴾ يعني: أوليس الله عليم ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من التصديق والتكذيب ﴿أعلم﴾ بمعنى عليم يعني: هو عليم بما في قلوب الخلق. ويقال: معناه هو أعلم بما في صدورهم منهم، أي بما في صدور أنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: ليميزن الله الذين ثبتوا على الإسلام ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ يعني: ليميزن المنافقين الذين لم يكن إيمانهم حقيقة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا وأنكروا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك: أن أبا سفيان بن حرب، وأمية بن خلف، وعتبة بن شيبة، قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: وخباب بن الأرت، وأناس آخرين من المسلمين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ يعني: ديننا الذي نحن عليه، واكفروا بمحمد عليه السلام ودينه ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ يعني: نحن الكفلاء لكم بكل تبعة من الله عز وجل تصيبكم، وأهل مكة شهداء علينا. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: لا يقدرون أن يحملوا خطاياهم، يعني: وبال خطاياهم عنهم، ولا يدفعون عنهم، لأنهم لو استطاعوا أن يدفعوا لدفعوا عن أنفسهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مقالتهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ يعني: أوزار أنفسهم يكون في عنقهم، ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ يعني: يحملون أوزار الذين يضلونهم من غير أن ينقص من أوزار العاملين من شيء، وهذا كقوله عز وجل: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وهذا كما روي في الخبر «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئةً، كانَ عليه وزرُها، ووِزرُ مَنْ عمِلَ بها إلى يومِ القيامة» ثمّ قال: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: عما يقولون من الكذب.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ يدعوهم إلى الإسلام، ويحذرهم وينذرهم، فأبوا أن يجيبوه فكذبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ يعني: الغرق ﴿وَهُمْ

Marfat.com

ظَالِمُونَ﴾ وقال القتبي: الطوفان، المطر الشديد، وكذلك الموت إذا كثر. وقال مقاتل: الطوفان يعني: ما طغى فوق كل شيء. وقال بعض أهل اللغة: هذا الاشتقاق غير صحيح، لأنه لو كان منه لقال: طغوان، لأنه يقال: طغى يطغو. وقال بعضهم: هذا على وجه القلب، كما يقال: جذب وجبذ. ويقال: أصله من الطوف، يعني: سال وطاف في الأرض. وقال الزجاج: الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً كالقتل الذريع الكثير يسمى طوفاناً.

ثم قال عز وجل: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ يعني: نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ من الغرق ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: جعلنا السفينة عبرة لمن بعدهم، وقد بقيت السفينة على الجودي إلى وقت قريب من وقت خروج النبي ﷺ، فكان ذلك علامة وعبرة لمن رآها، ولمن لم يرها، لأن الخبر قد بلغه. ويقال: رسم السفينة التي بقيت بين الخلق وقت نوح، وتجري في البحر علامة للعالمين.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: وأرسلنا إبراهيم عطفاً على قوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً﴾ ويقال: معناه واذكر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾ يعني: وحدوا الله عز وجل، ﴿واتقوه﴾ يعني: اخشوه ولا تعصوه ﴿ذلكم خير لكم﴾ يعني: التوحيد وعبادة الله عز وجل خير من عبادة الأوثان ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً﴾ يعني: أصناماً ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ يعني: تعملونها بأيديكم، ثم تقولون إنها آلهة، ويقال: تتخذونها آلهة كذباً ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ وهي الأصنام ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ يعني: لا يقدرون أن يعطوكم مالاً، ولا يقدرون أن يرزقوكم.

ثم قال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرزقَ﴾ يعني: الله عز وجل هو الذي يملك رزقكم، فاطلبوا الرزق من الله عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوه وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: وحدوه واشكروا له في النعم، فإن مصيركم إليه و﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الممات.

قال الله عز وجل للنبي ﷺ: قل لأهل مكة ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ بما أخبرتكم من قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: كذبوا رسلهم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: إلا أن يبلغ الرسالة، ويبين أمر العذاب. ويقال: إلا أن يبلغ الرسالة، ويبين مراد الرسالة.

Marfat.com

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال الله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿أو لم تروا﴾ بالتاء على معنى المخاطبة، يعني: قل لهم يا محمد ﴿أو لم تروا﴾ وقرأ الباقون بالياء، ومعناه: يا محمد أو لم يروا هؤلاء الكفار ﴿كَيفَ يُبْدِىءُ الله الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: يخلقهم في الابتداء ولم يكونوا شيئاً، ثم يعيدهم كما خلقهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ يعني: إن الذي بدأ الخلق، يقدر أن يعيده، وهو عليه هين.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: سافروا في الأرض. يعني: لتعتبروا في أمر البعث. ويقال: ﴿سيروا في الأرض﴾. يعني: اقرؤوا القرآن ﴿فانظروا﴾ يعني: فاعتبروا ﴿كَيفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ يعني: كيف خلق الخلق ﴿ثُمَّ الله يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت للبعث ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أمر البعث وغيره.

ثم قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يعني: يخذل من يشاء ولا يهدي من لم يكن أهلاً لذلك. ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهديه إن كان أهلاً كذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يعني: ترجعون إليه في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لا تهربون منه ولا تفوتونه ﴿وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: إن كنتم في الأرض، ولا في السماء لا يقدرون أن يهربوا منه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله﴾ يعني: من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني: من قريب ينفعكم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يعني: ولا مانع يمنعكم من عذاب الله عز وجل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ الله﴾ يعني: بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَلِقَائِهِ﴾ يعني: كفروا بالبعث بعد الموت ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رحْمَتِي﴾ يعني: من جنتي ﴿وَأولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

Marfat.com

ثم رجع إلى قصة إبراهيم. حيث قال لقومه: ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه: فقذفوه في النار، فأنجاه الله من النار فلم تحرقه، وجعلها برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما أنجاه الله من النار بعدما قذفوه فيها ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني: لعبرات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بتوحيد الله تعالى.

فقال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ﴾ يعني: إنما عبدتم من دون الله ﴿أوثاناً﴾ يعني: أصناماً ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على عبادة أصنامكم. قرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر، ﴿مودةً﴾ بنصب الهاء مع التنوين ﴿بينَكم﴾ بنصب النون. يعني: اتخذتم أوثاناً آلهة مودة بينكم على عبادتها، صار نصباً لوقوع الفعل عليها. وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿مودة بينكم﴾ بنصب الهاء بغير التنوين ﴿بينِكم﴾ بكسر النون على معنى الإضافة، وقرأ الباقون ﴿مودةُ﴾ بالضم ﴿بينِكم﴾ بالكسر.

وروي عن الفرّاء أنه قال: إنما صار المودة رفعاً بالصفة بقوله عز وجل: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وينقطع الكلام عند قوله: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾.

ثم بيّن ضرر مودتهم في الحياة الدنيا فقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: ليس مودتكم تلك الأصنام بشيء، لأن المودة بينكم في الحياة الدنيا تنقطع، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ يعني: الأصنام من العابد، والشياطين ممن عبدها. ويقال: يعني، الأتباع والقادة، تتبرأ القادة من الأتباع ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ يعني: الأتباع يلعن القادة، والعابد يلعن المعبود ﴿ومأواكم النارُ﴾ يعني: مصيركم إلى النار ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يعني: مانعين من عذاب الله عز وجل.

﴿۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾

قوله عز وجل: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ يعني: صدّق لوطاً إبراهيم عليهما السلام على الهجرة، ويقال: صدقه بالنبوة حين لم تحرقه النار ﴿وقال﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يعني: إلى رضاء ربي وطاعة ربي. ويقال: إلى أرض من أرض ربي، فهجر قومه الكافرين وخرج إلى الأرض المقدسة، ومعه سارة ثم قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره. ويقال:

Marfat.com

حكيم حكم أن من لم يقدر في بلدة على طاعة الله عز وجل فليخرج إلى بلدة أخرى.

قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني: لمّا هاجر إلى طاعة الله عز وجل، أكرمه الله في الدنيا وأعطاه ذرية طيبةً، وهو ولده إسحاق، وولد ولده يعقوب عليهم السلام، ـ ووهب له أربعة أولاد: إسحق من سارة، وإسماعيل من هاجر، ومدين ومداين من غيرهما[1] ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعني: من ذرية إبراهيم ﴿النبوة والكتاب﴾ يعني أكرم الله عز وجل ذريته بالنبوة، وأعطاهم الصحف. ويقال: أخرج من ذريته ألف نبي عليهم السلام ﴿وَالكِتَابَ﴾ يعني: الزبور والتوراة والإنجيل والفرقان ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: أعطيناه في الدنيا الثناء الحسن ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مع النبيين في الجنة.

قوله عز وجل: ﴿وَلُوطاً﴾ يعني: وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص، ﴿إنكم﴾ على معنى الخبر. وقرأ أبو عمرو ﴿آئنكم﴾ بالمد على معنى الاستفهام، ﴿لتأتون الفاحشة﴾ يعني: المعصية ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ﴾.

ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ واتفقوا في هذا الحرف على لفظ الاستفهام، واختلفوا في الأول، فقرأ الذين سميناهم على وجه الإخبار عنهم إنكم تفعلون، وتكون على وجه التعيير. وقرأ الباقون الأول على وجه الاستفهام، فيكون اللفظ لفظ الاستفهام، والمعنى فيه: التوبيخ والتقريع.

ثم قال: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ يعني: تعترضون الطريق لمن مرّ بكم بعملكم الخبيث. ويقال: ﴿وتقطعون السبيل﴾. يعني: تأخذون أموالهم، كانوا يفعلون ذلك لكيلا يدخلوا في بلدهم، ويتناولوا من ثمارهم، ويقال: ﴿تقطعون السبيل﴾ يعني: النسل ﴿وَتَأْتُونَ فِي ناديكم المنكر﴾ يعني: تعملون في مجالسكم المنكر. وقال بعضهم: يعني به اللواطة كانوا يفعلون ذلك في المجالس بالعلانية. ويقال: أراد به المعاصي، وهي: الرمي بالبندق والصّفير، والحذف، ومضغ العلك، وحل إزار القباء، واللعب بالحمام، وشرب الخمر، وضرب العود والمزامير، وغير ذلك من المعاصي. وروت أم هانيء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنْكَرَ﴾ قال: «**كَانُوا يَخْذِفُونَ أَهْلَ الطَّرِيقِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ**» ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بالعذاب، وإن العذاب نازل بنا ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ يعني: أعني ﴿عَلَى القَوْمِ المُفْسِدِينَ﴾ يعني: المشركين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني: بالبشارة بالولد ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهلِ هَذِهِ القَرْيَةِ﴾ يعني: قريات لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني: كافرين ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ يعني: أتهلكهم وفيهم لوط ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال جبريل عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنجيَنَّهُ وأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ يعني: من الباقين في الهلاك ﴿ولَمَّا أن جَاءَتْ رَسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ يعني: ساء مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ يعني: اغتم بقدومهم، فلا يدري أيأمرهم بالخروج أم بالنزول. ويقال: ضاق بهم القلب ﴿وَقَالُوا لاَ تَخَفْ علينا ﴿وَلاَ تَحزَنْ﴾ من العذاب ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿لننجينه﴾، و ﴿إنا منجوك﴾ كلاهما بالتخفيف. وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم كلاهما بالتشديد. وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم الأول بالتشديد، والثاني بالتخفيف، ومعناهما واحد. ويقال: أنجيته ونجيته بمعنى واحد ﴿إلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين ﴿مُنزّلون﴾ بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد يعني: أنزلنا ونزلنا ﴿رِجزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هي الحجارة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني: يعصون الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنهَا﴾ يعني: من قريات لوط ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ يعني: علامة ظاهرة واضحة يعني: هلاكهم علامة ظاهرة ويقال: قرياتهم علامة ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني: لمن كان له ذهن الإنسانية - ﴿ولقد تركن منها آية﴾ يعني الحجارة التي أنزلها الله تعالى من السماء على كل واحد منها اسم صاحبها[1] -.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ يعني: وأرسلنا إلى مدين ﴿أخاهُمْ شُعَيباً﴾ يعني: نبيهم شعيباً ﴿فقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني: وحدوا الله وأطيعوه ﴿وارْجُوا اليَوْمَ الآخِرَ﴾ يعني: خافوا يوم

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

القيامة، لأنه آخر الأيام. ويقال: يوم الموت، وهو آخر أعمارهم ﴿وَلاَ تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي في نقصان الكيل والوزن ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: أوعدهم بالعذاب على نقصان الكيل والوزن. فكذبوه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني: العذاب. ويقال: الزلزلة، وأصله: الحركة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ يعني: صاروا في دارهم يعني: في محلتهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ يعني: ميتين، ويقال: خامدين فصاروا كالرماد. ويقال: جثم بعضهم على بعض بالموت. وقال مقاتل: شبه أرواحهم في أجسادهم وهم أحياء، بالنار إذا اتقدت، ثم طفئت، فبينما هم أحياء إذ صاح بهم جبريل عليه السلام، فصعقوا أمواتاً أجمعين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ وقال بعضهم: انصرف إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: ٣] وفتنّا عاداً وثموداً وقال بعضهم: انصرف إلى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] يعني: أخذهم العذاب وأخذ عاداً وثموداً. ويقال: معناه اذكر عاداً وثموداً، أو يقال: صار نصباً لنزع الخافض ومعناه: وأرسلنا الرسل إلى عاد وثمود. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني: ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم آية في إهلاكهم. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: ضلالتهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني: صرفهم عن الدين، ويقال: منعهم عن التوحيد. ويقال: صدّ يصدّ صدّاً إذا منعه، وصدّ يصدّ صدوداً إذا امتنع بنفسه وأعرض. ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في دينهم وهم يرون أنهم على الحق، وهم على الباطل. ويقال: ﴿كانوا مستبصرين﴾ أي: ذوي بصيرة، ومع ذلك جحدوا.

ثم قال عز وجل ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ يعني: أهلكنا قارون وفرعون وهامان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالعلامات والآيات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: طغوا فيها، وتعظموا عن الإيمان ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ يعني: بفائتين من عذابنا.

قوله عز وجل: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ يعني: كلهم أهلكناهم بذنوبهم. ويقال: معناه أهلكنا كلّ واحد منهم بذنبه لا بذنب غيره. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ يعني: الحجارة، وهم قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم قوم صالح. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ يعني: قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون وقومه. وقال القتبي: الأخذ أصله باليد، ثم يستعار في

Marfat.com

مواضع، فيكون بمعنى القبول، كقوله عز وجل ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] أي قبلتم عهدي، والأخذ التعذيب، كقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ وكقوله ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ يعني: عذبنا، وكقوله ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] يعني: ليعذبوه.

ثمّ قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني: لم يعذبهم بغير جرم منهم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بجرمهم استوجبوا العقوبة.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: مثل عبادتهم الأصنام في الضعف، وقلة نفعهم إياهم. ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ يعني: أضعف البيوت ﴿لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لأنه لا يغني من حر ولا من برد ولا من مطر وكذلك آلهتهم لا يدفعون عنهم ضرّاً، ولا يقدرون لهم نفعاً.

ثم قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام كذلك، لأنهم قد علموا أن بيت العنكبوت أوهن البيوت، ولكن قوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ انصرف إلى قوله: ﴿اتخذوا﴾، يعني: لا يعلمون أن هذا مثله.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ وهذه كلمة تهديد، يعني: يعلم بعقوبتهم. ويقال: إن الله يعلم أن الآلهة لا شفاعة لهم ولا قدرة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن عصاه ﴿الْحَكِيمُ﴾ حكمَ بالعقوبة على من عبد غيره، ويقال: حكم أن لا يُعبد غيره.

ثمّ قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يعني: أمثال آلهتهم نبينها للناس. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ يعني: لا يفهمها ولا يعلمها إلا ﴿العالمون﴾ يعني: الموحدون، ويقال: يعني: العاقلين.

قرأ أبو عمرو وعاصم ﴿إن الله يعلم ما يدعون﴾ بالياء على لفظ المغايبة. وقرأ الباقون بالتاء على لفظ المخاطبة، يعني: قل لهم يا محمد إن الله يعلم ما تدعون من دونه.

ثم قال عز وجل: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل، ويقال: لبيان الحق، ولم يخلقها باطلاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في خلق السموات والأرض ﴿لآيَةً﴾ يعني: لعبراتٍ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين. وإنما أضاف إلى المؤمنين، لأنهم هم الذين ينتفعون بها.

Marfat.com

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يعني: اقرأ عليهم ما أنزل إليك ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: من القرآن. ويقال: هو أمره بتلاوة القرآن، يعني: اقرؤوا القرآن، واعملوا بما فيه. ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ يعني: وأتمّ الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما دام العبد يصلي لله عز وجل انتهى عن الفحشاء والمعاصي. ويقال: ﴿وأقم الصلاة﴾ يعني: وأدِّ الصلاة الفريضة في مواقيتها بركوعها وسجودها والتضرع بعدها ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء﴾ يعني: إذا صلى العبد لله صلاة خاشع يمنعه من المعاصي، لأنه يرق قلبه، فلا يميل إلى المعاصي.

وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ تَزِدْهُ صَلاَتُهُ عِنْدَ اللهِ إِلاَّ مَقْتاً»** وروي عن الحسن البصري رحمه الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنْ فَحْشَاءَ وَلاَ مُنْكَرٍ لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللهِ إِلاَّ بُعْداً»**(١) وقال الحسن: «إذا لم تنته بصلاتك عن الفحشاء فلست بمُصَلٍّ.

ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أفضل من سائر العبادات. وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: قراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من صلاة لا يكون فيها كثير القراءة، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ قال مقاتل: ولذكر الله إياك أفضل من ذكرك إياه بالصلاة، وقال الكلبي: يقول: ذكره إياكم بالخير أكبر من ذكركم إياه، والله يذكر من ذكره بالخير.

قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الماسرخسي قال: حدثنا إسحاق، قال: حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة، قال سألني ابن عباس عن قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ فقلت: «هو التسبيح والتهليل والتقديس»، فقال: «لقد قلت شيئاً عجيباً، وإنما هو ذكر الله العباد أكثر من ذكر العباد إياه». وقال قتادة: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي: ليس شيء أفضل من ذكر الله. وسئل سلمان الفارسي: أي العمل أفضل؟ قال: «ذكر الله». ويقال: ذكر الله أفضل من الاشتغال بغيره. ويقال: ذكر الله حين كتبكم في اللوح المحفوظ من المسلمين أفضل. ويقال: ذكر الله عز وجل بالمغفرة أفضل من ذكرك إياه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ ذَكَرَ اللهَ فِي نَفْسِهِ ذَكَرَهُ اللهُ فِي نَفْسِهِ، وَمَنْ ذَكَرَهُ فِي مَلإٍ ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٤٦٥ إلى عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي.

Marfat.com

في ملإٍ أكبرَ مِن المَلاِ الَّذي ذَكرَهُ فِيهِمْ وأَطْيَبَ، ومَنْ تقرَّبَ مِنَ الله شِبْراً تقرَّبَ الله مِنْهُ ذِراعاً يعني: بإجابته وتوفيقه ورحمته وَمَنْ تقرَّبَ إلى الله تَعالَى ذِراعاً تقرَّبَ الله مِنْهُ باعاً، وَمَنْ أتى الله ماشِياً الله أتاهُ هَرْوَلَةً»[1]، يعني: بإجابته وتوفيقه ورحمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم به.

قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قال مقاتل: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب﴾ يعني: مؤمنيهم، ثم استثنى كفارهم، فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: ﴿إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾ فيها تقديم، ثم نسخته آية قتال أهل الكتاب. وقال الكلبي: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب﴾ إن الله عز وجل أمر المسلمين إذ كانوا بمكة قبل أن يأمرهم بالقتال، فقال: ﴿ولا تجادلوا﴾ من أتاكم من أهل الكتاب ﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ بالقرآن تعظونهم به، وتدعونهم إلى الإسلام، وهي التي أحسن ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ في الملاعنة، وهم أهل نجران. ويقال: ﴿لا تجادلوا أهل الكتاب﴾ يعني: لا تخاصموهم ﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ يعني: إلا بالكلمة التي هي أحسن يعني: كلمة التوحيد ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني: ولا الذين ظلموا منهم. ويقال: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ فلا بأس بأن تجادلوهم بما هو أشد.

ثم بيّن الكلمة التي هي أحسن، فقال: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: القرآن والتوراة. ﴿وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ يعني: ربنا وربكم واحد. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصين بالتوحيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن، كما أنزلنا إلى موسى وعيسى عليهما السلام ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: يصدقون بالقرآن ﴿وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني: قريشاً ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ من اليهود ومشركي العرب.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني: قبل القرآن ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ

(١) حديث أبي هريرة صحيح سبق تخريجه.

Marfat.com

﴿بِيَمِينِكَ﴾ يعني: لم تكن تكتب شيئاً بيدك. ﴿إِذاً لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني: فلو كنت قرأت الكتب أو كنت تكتب بيدك لشكَّ أهل مكة في أمرك، ويقولون إنه قرأ الكتب وأخذ منها، ويقال: معناه ﴿لارتاب المبطلون﴾ يعني: لشك أهل الكتاب في أمرك لأنهم وجدوا في كتبهم نعته وصفته أنه أمي لا يقرأ الكتب، كيلا يشكوا في صفته. ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني: بل هو يقين أنه نبي عند أهل العلم، ويقال: يعني: القرآن ﴿آيات بينات﴾ يعني: واضحات، ويقال: بل إنه لا يقرأ ولا يكتب آيات بينات، لأنه أخبر عن أقاصيص الأولين في صدور الذين أوتوا العلم، يعني: مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: الكافرين.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني: علامة من ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ﴾ يعني: العلامات ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ يعني: من عند الله عز وجل وليس بيدي شيء ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: مخوفاً مفقهاً لكم، أنبئكم بلغة تعرفونها. قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿آيات﴾ بلفظ الجماعة، يعني: آيات القرآن. وقرأ الباقون ﴿آية﴾ يعني: آية واحدة، يعني: أنه كان لا يكتب، وكان له في ذلك آية بينة لنبوته، ويجوز أن يكون معناه: الآيات للجنس.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن فيه خبر ما مضى، وخبر ما يكون ﴿أو لم يكفهم﴾ هذا علامة، ويقال: ﴿أو لم يكفهم﴾ أنهم فصحاء فجاءهم بالقرآن الذي أعجزهم عن ذلك. وقال الزجاج: كان قوم من المسلمين كتبوا شيئاً عن اليهود فأتوا به النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «كَفَى بِهَذا حَمَاقَةَ قَوْمٍ أَوْ ضَلاَلَةَ قَوْمٍ أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا أتاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ إلى ما أَتَى بِهِ غَيْرُ نَبِيِّهِمْ»(١) قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً﴾ يعني: في هذا القرآن لنعمة لمن آمن به ﴿وذكرى﴾ أي موعظة ويقال: تفكر ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بالقرآن. فقال له كعب بن الأشرف وقد كان قدم مكة: من يشهد لك أنك رسول الله إن لم نشهد لك، فنزل ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ بأني رسول الله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ يعني:

---

(١) عزاه السيوطي: ٦/ ٤٧١ إلى الدارمي وأبي داود في مراسيله وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة.

Marfat.com

بالصنم ويقال: بالشيطان، ويقال: بالطاغوت، وهو كعب بن الأشرف. ﴿وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ يعني: جحدوا وحدانية الله عز وجل ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني: المغبونين في العقوبة. ويقال: خسروا حيث استوجبوا لأنفسهم العقوبة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ وذلك أنهم قالوا: ائتنا بعذاب الله. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يقول: لولا الوقت الذي وقّت لهم ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: جعلت لهم النار تحيط بهم.

قوله عز وجل ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: يعلوهم العذاب ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: ﴿ونقول ذوقوا﴾ بالنون، يعني: نقول لهم نحن ذوقوا، وهي حكاية عن الله سبحانه وتعالى بلفظ الجماعة، وهو لفظ الملوك. وقرأ الباقون بالياء يعني: يقول الله عز وجل. ويقال: وتقول لهم الخزنة ﴿ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ يعني: جربوا عقوبة ما كنتم تعملون في الدنيا.

ثم قال عز وجل: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بسكون الياء، وقرأ الباقون بنصب الياء ﴿يا عبادي﴾ وقرأ ابن عامر وحده ﴿إِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ﴾ بنصب الياء، وقرأ الباقون بسكونها في مثل هذه المواضع، لغتان يجوز كلاهما، ومعناه: إن أرضي واسعة، إذا أُمِرتُم بالمعصية والبدعة فاهربوا، ولا تطيعوا في المعصية، نزلت في ضعفاء المسلمين ﴿إن كنتم﴾ يعني: إذا كنتم في ضيق من إظهار الإسلام بمكة ﴿فإِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ﴾ يعني: المدينة واسعة بإظهار الإسلام. وروي عن الحسن عن النبي ﷺ إنه قال: «مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلى أرضٍ وإنْ كَانَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ اسْتَوْجَبَ الجَنَّةَ وَكَانَ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلام» وإنما خصّ إبراهيم لأنه قال ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ففرّ بدينه إلى الأرض المقدسة، وإنما خصّ محمداً ﷺ لأنه هاجر من مكة إلى المدينة. ويقال: إن القوم كانوا في ضيق من العيش فقال: إن كنتم تخافون شدة العيش فإن أرضي واسعة. ﴿فإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ يعني فوحّدونِ بالمدينة علانية.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ

Marfat.com

ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم خوفهم بالموت ليهاجروا فقال عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم بالخروج، فقال لهم: لا تخافوا فإنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم. قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿يرجعون﴾ بالياء بلفظ المغايبة على معنى الخبر عنهم. وقرأ الباقون بالتاء على معنى الخطاب لهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بالله ورسوله ﴿وعملوا الصالحات﴾ يعني: الطاعات وهاجروا، فسمى الهجرة من الأعمال الصالحة لأنها كانت فريضة في تلك الأوقات ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ يعني: لننزلنهم ولنسكننهم. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ يعني: غرفاً من الجنة. قرأ حمزة والكسائي: ﴿لنثوينهم﴾ بالثاء، وقرأ الباقون ﴿لنبوّئنهم﴾ بالياء، فمن قرأ بالثاء فهو من ثويت بالمكان، يعني: أقمت به، كقوله ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥] ومن قرأ بالباء يعني: لننزلنهم، وذكر عن الفراء أنه قال: كلاهما واحد، بوأته منزلاً أي أنزلته، وأثويته منزلاً يعني: أنزلته سواء، كقوله ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً﴾.

ثم قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ يعني: ثوابهم ثواب الموحدين.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الهجرة. ويقال: صبروا على أمر الله تعالى. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعني: يثقون به ولا يهتمون للرزق، لأنهم كانوا يقولون: كيف نهاجر وليس لنا مال ولا معيشة، فوعظهم الله ليعتبروا.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني: وكم من دابة في الأرض أو من طائر في السماء ﴿لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها ولا يجمع الغذاء إلا النملة والفارة ويقال لا تخبيء زرقها. ثم قال: ﴿الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني: يرزق الدواب حيث ما توجهت، وإياكم إذا هاجرتم إلى المدينة. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالتكم ﴿العَلِيمُ﴾ بكم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين يكذبون بتوحيد الله عز وجل.

Marfat.com

ثم رجع إلى أهل الهجرة ورغبهم فيها فقال: ﴿الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوسع على من يشاء ﴿مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يعني: ويقتر لمن يشاء ﴿إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من البسط والتقتير.

قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: من بعد يبسها وقحطها ﴿لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الْحَمْدُ لله﴾ على إقرارهم بذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربهم، وهم مقرون بالله عز وجل خالق هذه الأشياء.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ﴾ يعني: باطل ﴿وَلَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ولهو كلهو الشبان. ويقال: فرح لا يبقى للخلق ولا يبقى فيها إلا العمل الصالح. روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنيا ملعونةٌ وملعُونٌ ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاها أو عالماً أو متعلماً» وروي عن النبي ﷺ أنه مرّ بسخلة ميتةٍ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا على الله أَهْوَنُ مِنْ هٰذِهِ السَّخْلَةِ عَلَى أَهْلِهَا» ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ﴾ يعني: هي دار الحياة لا موت فيها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا يصدقون بثواب الله عز وجل.

ثم قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يعني: في السفن ﴿دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني: موحدين وتركوا دعاء أصنامهم، ويعلمون أنه لا يجيبهم أحد إلا الله تعالى. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يعني: إلى القرار ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ به.

قوله عز وجل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني: ما أعطيناهم من النعم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ونافع في رواية ورش: ﴿وَلِيتمتعوا﴾ بكسر اللام، وقرأ الباقون بالجزم. فمن قرأ بالكسر، فمعناه: لكي يتمتعوا، لأن الكلام عطف على ما قبله يعني: يشركون لكي يكفروا، ولكي يتمتعوا في الدنيا. ومن قرأ بالجزم فهو على معنى التهديد والتوبيخ بلفظ الأمر، وتشهد له قراءة أبيّ كان يقرأ ﴿تمتعوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ومعناه وليتمتعوا، يعني: وليعيشوا فسوف يعلمون إذا نزل بهم العذاب.

ثمّ قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أو لم يعلموا ليعتبروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً

Marfat.com

﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني: يختلس الناس فيقتلون ويسبون وهم آمنون يأكلون رزقي ويعبدون غيري، فكيف أسلط عليهم إذا أسلموا. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أفبالشيطان يصدقون أن لي شريكاً. ويقال: أفبالأصنام يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ يعني: وبخالق هذه النعمة ورسوله يجحدون.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ بأن معه شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي حين جاءه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي مقاماً للكافرين كما قال ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني: رغبوا في طاعتنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يعني: لنعرِّفنَّهم طريقنا، ويقال: معناه لنرشدنهم طريق الجنة. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: في العون لهم ويقال: والذين عملوا بما علموا لنوفقنَّهم لما لم يعلموا، ـ والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم[1].

(١) ما بين معقوفتين ساقط من النسخة: «أ».

Marfat.com

الفهرس

سورة الأنفال

الآيات: ١ ـ ٤ .... ٣
الآيتان: ٥ و٦ .... ٥
الآيتان: ٧ و٨ .... ٧
الآيات: ٩ ـ ١١ .... ١٠
الآيات: ١٢ ـ ١٤ .... ١١
الآيتان: ١٥ و١٦ .... ١٢
الآيتان: ١٧ و١٨ .... ١٣
الآية: ١٩ .... ١٣
الآيتان: ٢٠ و٢١ .... ١٤
الآيتان: ٢٢ و٢٣ .... ١٤
الآيات: ٢٤ ـ ٢٦ .... ١٥
الآيات: ٢٧ ـ ٢٩ .... ١٦
الآية: ٣٠ .... ١٧
الآيتان: ٣١ و٣٢ .... ١٨
الآيات: ٣٣ ـ ٣٥ .... ١٩
الآيات: ٣٦ ـ ٣٨ .... ٢٠
الآيتان: ٣٩ و٤٠ .... ٢١
الآية: ٤١ .... ٢١
الآية: ٤٢ .... ٢٢
الآيتان: ٤٣ و٤٤ .... ٢٣
الآيات: ٤٥ ـ ٤٧ .... ٢٤
الآيات: ٤٨ ـ ٥١ .... ٢٥
الآيات: ٥٢ ـ ٥٤ .... ٢٦
الآيات: ٥٥ ـ ٥٩ .... ٢٧
الآيات: ٦٠ ـ ٦٣ .... ٢٩
الآيات: ٦٤ ـ ٦٦ .... ٣٠
الآيات: ٦٧ ـ ٦٩ .... ٣١
الآية: ٧٠ .... ٣٣
الآية: ٧١ .... ٣٤
الآية: ٧٢ .... ٣٤
الآيات: ٧٣ ـ ٧٥ .... ٣٥

سورة التوبة

الآيتان: ١ و٢ .... ٣٧
الآيتان: ٣ و٤ .... ٣٨
الآية: ٥ .... ٣٩
الآيتان: ٦ و٧ .... ٤٠
الآيتان: ٨ و١٠ .... ٤١
الآيتان: ١١ و١٢ .... ٤١
الآيات: ١٣ ـ ١٦ .... ٤٢
الآيتان: ١٧ و١٨ .... ٤٥
الآية: ١٩ .... ٤٦
الآيات: ٢٠ ـ ٢٢ .... ٤٧
الآية: ٢٣ .... ٤٧

Marfat.com

الآية: ٢٤ .... ٤٨
الآية: ٢٥ .... ٤٨
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ٥٠
الآية: ٢٨ .... ٥١
الآية: ٢٩ .... ٥١
الآيتان: ٣٠ و٣١ .... ٥٢
الآيتان: ٣٢ و٣٣ .... ٥٤
الآيتان: ٣٤ و٣٥ .... ٥٤
الآية: ٣٦ .... ٥٦
الآية: ٣٧ .... ٥٦
الآيتان: ٣٨ و٣٩ .... ٥٧
الآية: ٤٠ .... ٥٨
الآيتان: ٤١ و٤٢ .... ٦١
الآيات: ٤٣ ـ ٤٥ .... ٦٢
الآيات: ٤٦ ـ ٤٩ .... ٦٣
الآيتان: ٥٠ و٥١ .... ٦٤
الآيات: ٥٢ ـ ٥٥ .... ٦٥
الآيتان: ٥٦ و٥٧ .... ٦٥
الآيتان: ٥٨ و٥٩ .... ٦٦
الآية: ٦٠ .... ٦٧
الآيتان: ٦١ و٦٢ .... ٦٨
الآيات: ٦٣ ـ ٦٦ .... ٧٠
الآيات: ٦٧ ـ ٦٩ .... ٧١
الآية: ٧٠ .... ٧٢
الآيتان: ٧١ و٧٢ .... ٧٢
الآيتان: ٧٣ و٧٤ .... ٧٣
الآيات: ٧٥ ـ ٧٧ .... ٧٤
الآية: ٧٨ .... ٧٦٣
الآيتان: ٧٩ و٨٠ .... ٧٦
الآيتان: ٨١ و٨٢ .... ٧٧
الآية: ٨٣ .... ٧٨
الآيتان: ٨٤ و٨٥ .... ٧٩
الآيات: ٨٦ ـ ٨٩ .... ٨٠
الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ .... ٨١
الآيات: ٩٣ ـ ٩٦ .... ٨٢
الآيتان: ٩٧ و٩٨ .... ٨٢
الآية: ٩٩ .... ٨٣
الآية: ١٠٠ .... ٨٣
الآيتان: ١٠١ و١٠٢ .... ٨٤
الآيتان: ١٠٣ و١٠٤ .... ٨٦
الآيتان: ١٠٥ و١٠٦ .... ٨٦
الآيتان: ١٠٧ و١٠٨ .... ٨٧
الآيتان: ١٠٩ و١١٠ .... ٨٨
الآيتان: ١١١ و١١٢ .... ٨٩
الآيتان: ١١٣ و١١٤ .... ٩٠
الآيتان: ١١٥ و١١٦ .... ٩٢
الآية: ١١٧ .... ٩٣
الآية: ١١٨ .... ٩٣
الآيات: ١١٩ ـ ١٢١ .... ٩٦
الآية: ١٢٢ .... ٩٨

Marfat.com

الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٥ .... ٩٨
الآيتان: ١٢٦ و١٢٧ .... ١٠٠
الآيتان: ١٢٨ و١٢٩ .... ١٠٠

سورة يونس

الآيتان: ١ و٢ .... ١٠٢
الآيات: ٣ ـ ٥ .... ١٠٣
الآيات: ٦ ـ ١٠ .... ١٠٥
الآيتان: ١١ و١٢ .... ١٠٦
الآية: ١٣ .... ١٠٧
الآيات: ١٤ ـ ١٦ .... ١٠٧
الآيتان: ١٧ و١٨ .... ١٠٨
الآية: ١٩ .... ١٠٩
الآيتان: ٢٠ و٢١ .... ١٠٩
الآيتان: ٢٢ و٢٣ .... ١١٠
الآية: ٢٤ .... ١١١
الآية: ٢٥ .... ١١١
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ١١٢
الآيات: ٢٨ ـ ٣٠ .... ١١٤
الآيات: ٣١ ـ ٣٣ .... ١١٥
الآيتان: ٣٤ و٣٥ .... ١١٦
الآيات: ٣٦ ـ ٣٩ .... ١١٦
الآيات: ٤٠ ـ ٤٣ .... ١١٧
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ .... ١١٨
الآيات: ٤٧ ـ ٤٩ .... ١١٩
الآيات: ٥٠ ـ ٥٢ .... ١٢٠
الآيات: ٥٣ ـ ٥٦ .... ١٢٠
الآيتان: ٥٧ و٥٨ .... ١٢١
الآيتان: ٥٩ و٦٠ .... ١٢٢
الآية: ٦١ .... ١٢٢
الآيات: ٦٢ ـ ٦٤ .... ١٢٣
الآيتان: ٦٥ و٦٦ .... ١٢٤
الآيتان: ٦٧ و٦٨ .... ١٢٤
الآيتان: ٦٩ و٧٠ .... ١٢٥
الآيات: ٧١ ـ ٧٣ .... ١٢٥
الآيات: ٧٤ ـ ٧٨ .... ١٢٦
الآيات: ٧٩ ـ ٨٦ .... ١٢٧
الآيات: ٨٧ ـ ٨٩ .... ١٢٨
الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ .... ١٣٠
الآية: ٩٣ .... ١٣١
الآيات: ٩٤ ـ ٩٧ .... ١٣١
الآية: ٩٨ .... ١٣٢
الآيتان: ٩٩ و١٠٠ .... ١٣٣
الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣ .... ١٣٤
الآيات: ١٠٤ ـ ١٠٧ .... ١٣٥
الآيتان: ١٠٨ و١٠٩ .... ١٣٦

سورة هود

الآيات: ١ ـ ٤ .... ١٣٧
الآيتان: ٥ و٦ .... ١٣٨
الآية: ٧ .... ١٣٩
الآيات: ٨ ـ ١١ .... ١٤٠

Marfat.com

الآيات: ١٢ ـ ١٤ .... ١٤٠
الآيتان: ١٥ و١٦ .... ١٤١
الآية: ١٧ .... ١٤٢
الآيات: ١٨ ـ ٢٣ .... ١٤٣
الآيات: ٢٤ ـ ٢٧ .... ١٤٥
الآيتان: ٢٨ و٢٩ .... ١٤٦
الآيات: ٣٠ ـ ٣٥ .... ١٤٧
الآيتان: ٣٦ و٣٧ .... ١٤٨
الآيات: ٣٨ ـ ٤٠ .... ١٤٩
الآيتان: ٤١ و٤٢ .... ١٥١
الآيتان: ٤٣ و٤٤ .... ١٥٢
الآيات: ٤٥ ـ ٤٧ .... ١٥٣
الآية: ٤٨ .... ١٥٤
الآية: ٤٩ .... ١٥٤
الآيات: ٥٠ ـ ٥٢ .... ١٥٥
الآيات: ٥٣ ـ ٥٦ .... ١٥٥
الآية: ٥٧ .... ١٥٦
الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ .... ١٥٦
الآيات: ٦١ ـ ٦٣ .... ١٥٧
الآيات: ٦٤ ـ ٦٨ .... ١٥٨
الآيات: ٦٩ ـ ٧٣ .... ١٦٠
الآيات: ٧٤ ـ ٧٦ .... ١٦٢
الآيات: ٧٧ ـ ٨٣ .... ١٦٣
الآيات: ٨٤ ـ ٨٦ .... ١٦٥
الآيات: ٨٧ ـ ٨٩ .... ١٦٦
الآيتان: ٩٠ و٩١ .... ١٦٧
الآيتان: ٩٢ و٩٣ .... ١٦٨
الآيتان: ٩٤ و٩٥ .... ١٦٨
الآيات: ٩٦ ـ ٩٩ .... ١٦٩
الآيتان: ١٠٠ و١٠١ .... ١٦٩
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٧ .... ١٧٠
الآيتان: ١٠٨ و١٠٩ .... ١٧٢
الآيات: ١١٠ ـ ١١٢ .... ١٧٢
الآيات: ١١٣ ـ ١١٥ .... ١٧٣
الآيتان: ١١٦ و١١٧ .... ١٧٤
الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠ .... ١٧٥
الآيات: ١٢١ ـ ١٢٣ .... ١٧٦

سورة يوسف

الآيتان: ١ و٢ .... ١٧٨
الآيتان: ٣ و٤ .... ١٧٨
الآيتان: ٥ و٦ .... ١٧٩
الآيات: ٧ ـ ٩ .... ١٨٠
الآيات: ١٠ ـ ١٤ .... ١٨١
الآيات: ١٥ ـ ١٨ .... ١٨٣
الآيتان: ١٩ و٢٠ .... ١٨٤
الآيتان: ٢١ و٢٢ .... ١٨٦
الآيتان: ٢٣ و٢٤ .... ١٨٧
الآيات: ٢٥ ـ ٢٩ .... ١٨٨
الآيات: ٣٠ ـ ٣٣ .... ١٩٠
الآيتان: ٣٤ و٣٥ .... ١٩١

Marfat.com

الآيتان: ٣٦ و٣٧ .... ١٩٢
الآية: ٣٨ .... ١٩٣
الآيات: ٣٩ ـ ٤١ .... ١٩٣
الآيات: ٤٢ ـ ٤٤ .... ١٩٤
الآيات: ٤٥ ـ ٥٠ .... ١٩٥
الآيات: ٥١ ـ ٥٣ .... ١٩٧
الآيات: ٥٤ ـ ٦٠ .... ١٩٨
الآيات: ٦١ ـ ٦٤ .... ٢٠٠
الآيات: ٦٥ ـ ٦٧ .... ٢٠١
الآية: ٦٨ .... ٢٠٢
الآيات: ٦٩ ـ ٧٥ .... ٢٠٢
الآيتان: ٧٦ و٧٧ .... ٢٠٤
الآيات: ٧٨ ـ ٨١ .... ٢٠٥
الآيات: ٨٢ ـ ٨٤ .... ٢٠٦
الآيات: ٨٥ ـ ٨٧ .... ٢٠٧
الآيتان: ٨٨ و٨٩ .... ٢٠٨
الآيات: ٩٠ ـ ٩٣ .... ٢٠٨
الآيات: ٩٤ ـ ٩٨ .... ٢٠٩
الآيتان: ٩٩ و١٠٠ .... ٢١٠
الآية: ١٠١ .... ٢١١
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٦ .... ٢١٢
الآيتان: ١٠٧ و١٠٨ .... ٢١٣
الآيتان: ١٠٩ و١١٠ .... ٢١٣
الآية: ١١١ .... ٢١٤

سورة الرعد

الآيتان: ١ و٢ .... ٢١٥
الآيتان: ٣ و٤ .... ٢١٦
الآية: ٥ .... ٢١٧
الآية: ٦ .... ٢١٧
الآيتان: ٧ و٨ .... ٢١٨
الآيات: ٩ ـ ١٢ .... ٢١٩
الآيتان: ١٣ و١٤ .... ٢٢٠
الآية: ١٥ .... ٢٢١
الآيتان: ١٦ و١٧ .... ٢٢٢
الآية: ١٨ .... ٢٢٣
الآيات: ١٩ ـ ٢٥ .... ٢٢٤
الآية: ٢٦ .... ٢٢٥
الآيات: ٢٧ ـ ٢٩ .... ٢٢٦
الآية: ٣٠ .... ٢٢٧
الآية: ٣١ .... ٢٢٧
الآية: ٣٢ .... ٢٢٨
الآيتان: ٣٣ و٣٤ .... ٢٢٨
الآيات: ٣٥ ـ ٣٧ .... ٢٢٩
الآيتان: ٣٨ و٣٩ .... ٢٣٠
الآيات: ٤٠ ـ ٤٢ .... ٢٣٢
الآية: ٤٣ .... ٢٣٢

سورة إبراهيم

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٢٣٤
الآية: ٤ .... ٢٣٤
الآية: ٥ .... ٢٣٥

Marfat.com

الآيات: ٦ ـ ٨ .... ٢٣٥
الآية: ٩ .... ٢٣٦
الآيات: ١٠ ـ ١٢ .... ٢٣٧
الآيتان: ١٣ و١٤ .... ٢٣٧
الآيات: ١٥ ـ ١٧ .... ٢٣٨
الآيات: ١٨ ـ ٢٠ .... ٢٣٩
الآية: ٢١ .... ٢٣٩
الآية: ٢٢ .... ٢٤٠
الآية: ٢٣ .... ٢٤١
الآيتان: ٢٤ و٢٥ .... ٢٤١
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ٢٤٢
الآيات: ٢٨ ـ ٣٠ .... ٤٤٣
الآيات: ٣١ ـ ٣٤ .... ٣٤٤
الآيات: ٣٥ ـ ٣٧ .... ٢٤٥
الآيات: ٣٨ ـ ٤٤ .... ٢٤٦
الآيات: ٤٥ ـ ٤٧ .... ٢٤٦
الآيات: ٤٨ ـ ٥٢ .... ٢٤٨

سورة الحجر

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٢٥٠
الآيات: ٤ ـ ٩ .... ٢٥١
الآيات: ١٠ ـ ١٥ .... ٢٥٢
الآيات: ١٦ ـ ٢١ .... ٢٥٢
الآيات: ٢٢ ـ ٢٥ .... ٢٥٣
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ٢٥٤
الآيات: ٢٨ ـ ٣٥ .... ٢٥٥
الآيات: ٣٦ ـ ٤١ .... ٢٥٥
الآيات: ٤٢ ـ ٤٤ .... ٢٥٦
الآيات: ٤٥ ـ ٤٨ .... ٢٥٧
الآيات: ٤٩ ـ ٥٦ .... ٢٥٧
الآيات: ٥٧ ـ ٦٥ .... ٢٥٩
الآيات: ٦٦ ـ ٧١ .... ٢٥٩
الآيات: ٧٢ ـ ٧٩ .... ٢٦٠
الآيات: ٨٠ ـ ٨٤ .... ٢٦١
الآيات: ٨٥ ـ ٩١ .... ٢٦١
الآيات: ٩٢ ـ ٩٦ .... ٢٦٣
الآيات: ٩٧ ـ ٩٩ .... ٢٦٤

سورة النحل

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٢٦٥
الآيات: ٤ ـ ٩ .... ٢٦٦
الآيات: ١٠ ـ ١٣ .... ٢٦٧
الآيات: ١٤ ـ ١٧ .... ٢٦٨
الآيات: ١٨ ـ ٢٣ .... ٢٦٩
الآيتان: ٢٤ و٢٥ .... ٢٧٠
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ٢٧١
الآية: ٢٨ .... ٢٧١
الآيات: ٢٩ ـ ٣١ .... ٢٧١
والآيتان ٣٢ و٣٣ .... ٢٧٢
الآيات: ٣٤ ـ ٣٧ .... ٢٧٣
الآيتان: ٣٨ و٣٩ .... ٢٧٤
الآيات: ٤٠ ـ ٤٢ .... ٢٧٤

Marfat.com

الآيات: ٤٣ ـ ٤٧ .... ٢٧٥
الآيات: ٤٨ ـ ٥٠ .... ٢٧٦
الآيات: ٥١ ـ ٥٦ .... ٢٧٧
الآيات: ٥٧ ـ ٥٩ .... ٢٧٧
الآيات: ٦٠ ـ ٦٢ .... ٢٧٨
الآيتان: ٦٣ و٦٤ .... ٢٧٩
الآيات: ٦٥ ـ ٦٧ .... ٢٧٩
الآيتان: ٦٨ و٦٩ .... ٢٨٠
الآيتان: ٧٠ و٧١ .... ٢٨١
الآيات: ٧٢ ـ ٧٤ .... ٢٨٢
الآيتان: ٧٥ و٧٦ .... ٢٨٣
الآيتان: ٧٧ و٧٨ .... ٣٨٤
الآيتان: ٧٩ و٨٠ .... ٢٨٤
الآيات: ٨١ ـ ٨٣ .... ٢٨٥
الآيات: ٨٤ ـ ٨٦ .... ٢٨٦
الآيات: ٨٧ ـ ٨٩ .... ٢٨٦
الآية: ٩٠ .... ٢٨٧
الآيات: ٩٠ ـ ٩٣ .... ٢٨٨
الآيات: ٩٤ ـ ٩٧ .... ٢٨٩
الآيات: ٩٨ ـ ١٠١ .... ٢٩١
الآيتان: ١٠٢ و١٠٣ .... ٢٩٢
الآيات: ١١٠٤ ـ ١٠٧ .... ٢٩٣
الآيات: ١٠٨ ـ ١١٠ .... ٢٩٣
الآية: ١١١ .... ٢٩٤
الآيات: ١١٢ ـ ١١٤ .... ٢٩٤
الآيات: ١١٥ ـ ١١٧ .... ٢٩٥
الآيتان: ١١٨ و١١٩ .... ٢٩٥
الآيات: ١٢٠ ـ ١٢٣ .... ٢٩٦
الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٦ .... ٢٩٧
الآيتان: ١٢٧ و١٢٨ .... ٢٩٨

سورة الإسراء

الآية: ١ .... ٢٩٩
الآيات: ٢ ـ ٥ .... ٣٠٠
الآيات: ٦ ـ ٨ .... ٣٠٢
الآيات: ٩ ـ ١٢ .... ٣٠٣
الآيات: ١٣ ـ ١٥ .... ٣٠٤
الآيات: ١٦ ـ ١٩ .... ٣٠٥
الآيات: ٢٠ ـ ٢٢ .... ٣٠٦
الآيتان: ٢٣ و٢٤ .... ٣٠٦
الآيات: ٢٥ ـ ٢٧ .... ٣٠٧
الآيتان: ٢٨ و٢٩ .... ٣٠٨
الآيات: ٣٠ ـ ٣٣ .... ٣٠٩
الآيات: ٣٤ ـ ٣٨ .... ٣١٠
الآيات: ٣٩ ـ ٤١ .... ٣١١
الآيات: ٤٢ ـ ٤٤ .... ٣١٢
الآيات: ٤٥ ـ ٤٧ .... ٣١٣
الآيتان: ٤٨ و٤٩ .... ٣١٤
الآيات: ٥٠ ـ ٥٣ .... ٣١٥
الآيات: ٥٤ ـ ٥٧ .... ٣١٦
الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ .... ٣١٧

Marfat.com

الآية: ٦١ .... ٣١٨
الآيات: ٦٢ ـ ٦٤ .... ٣١٩
الآيات: ٦٥ ـ ٦٩ .... ٣٢٠
الآيات: ٧٠ ـ ٧٢ .... ٣٢١
الآية: ٧٣ .... ٣٢٢
الآيات: ٧٤ ـ ٧٦ .... ٣٢٣
الآيتان: ٧٧ و٧٨ .... ٣٢٤
الآيات: ٧٩ ـ ٨١ .... ٣٢٥
الآيات: ٨٢ ـ ٨٤ .... ٣٢٦
الآية: ٨٥ .... ٣٢٧
الآيات: ٨٦ ـ ٨٨ .... ٣٢٧
الآيات: ٨٩ ـ ٩٣ .... ٣٢٨
الآيات: ٩٤ ـ ٩٦ .... ٣٢٩
الآيتان: ٩٧ و٩٨ .... ٣٣٠
الآيتان: ٩٩ و١٠٠ .... ٣٣٠
الآيتان: ١٠١ و١٠٢ .... ٣٣١
الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٦ .... ٣٣٢
الآيات: ١٠٧ ـ ١١١ .... ٣٣٢

سورة الكهف

الآيات: ١ ـ ٦ .... ٣٣٤
الآيات: ٧ ـ ١٠ .... ٣٣٥
الآيات: ١١ ـ ١٣ .... ٣٣٦
الآيات: ١٤ ـ ١٦ .... ٣٣٩
الآيتان: ١٧ و١٨ .... ٣٤٠
الآيات: ١٩ ـ ٢١ .... ٣٤١
الآيات: ٢٢ ـ ٢٤ .... ٣٤٢
الآيتان: ٢٥ و٢٦ .... ٣٤٣
الآيتان: ٢٧ و٢٨ .... ٣٤٤
الآيات: ٢٩ ـ ٣١ .... ٣٤٥
الآيات: ٣٢ ـ ٣٤ .... ٣٤٦
الآيات: ٣٥ ـ ٤٢ .... ٣٤٧
الآيات: ٤٣ ـ ٤٥ .... ٣٤٨
الآيات: ٤٦ ـ ٤٨ .... ٣٤٩
الآيتان: ٤٩ و٥٠ .... ٣٥٠
الآيات: ٥١ ـ ٥٤ .... ٣٥٠
الآيتان: ٥٥ و٥٦ .... ٣٥١
الآيات: ٥٧ ـ ٥٩ .... ٣٥٢
الآيات: ٦٠ ـ ٦٥ .... ٣٥٣
الآيات: ٦٦ ـ ٧٠ .... ٣٥٥
الآية: ٧١ .... ٣٥٥
الآيات: ٧٢ ـ ٧٤ .... ٣٥٦
الآيات: ٧٥ ـ ٧٨ .... ٣٥٧
الآية: ٧٩ .... ٣٥٧
الآيات: ٨٠ ـ ٨٢ .... ٣٥٨
الآيات: ٨٣ ـ ٨٦ .... ٣٥٩
الآيات: ٨٧ ـ ٩٣ .... ٣٦٠
الآيات: ٩٤ ـ ٩٧ .... ٣٦١
الآيات: ٩٨ ـ ١٠٢ .... ٣٦٣
الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٨ .... ٣٦٤

Marfat.com

الآيتان: ١٠٩ و١١٠ .... ٣٦٥

سورة مريم

الآيات: ١ ـ ٦ .... ٣٦٧

الآيات: ٧ ـ ١٠ .... ٣٦٨

الآيات: ١١ ـ ١٥ .... ٣٧٠

الآيات: ١٦ ـ ٢١ .... ٣٧١

الآيات: ٢٢ ـ ٢٦ .... ٣٧١

الآيات: ٢٧ ـ ٣٩ .... ٣٧٤

الآيات: ٤٠ ـ ٤٧ .... ٣٧٥

الآيات: ٤٨ ـ ٥٠ .... ٣٧٦

الآيات: ٥١ ـ ٥٣ .... ٣٧٧

الآيتان: ٥٤ و٥٥ .... ٣٧٧

الآيات: ٥٦ ـ ٥٨ .... ٣٧٨

الآيات: ٥٩ ـ ٦٢ .... ٣٨٠

الآيتان: ٦٣ و٦٤ .... ٣٨١

الآيات: ٦٥ ـ ٧٠ .... ٣٨٢

الآيتان: ٧١ و٧٢ .... ٣٨٣

الآيات: ٧٣ ـ ٧٦ .... ٣٨٤

الآيات: ٧٧ ـ ٨٠ .... ٣٨٥

الآيتان: ٨١ و٨٢ .... ٣٨٦

الآيات: ٨٣ ـ ٨٦ .... ٣٨٦

الآيات: ٨٧ ـ ٩٥ .... ٣٨٧

الآيات: ٩٦ ـ ٩٨ .... ٣٨٨

سورة طه

الآيات: ١ ـ ٦ .... ٣٨٩

الآيات: ٧ ـ ١٢ .... ٣٩٠

الآيات: ١٣ ـ ١٦ .... ٣٩١

الآيات: ١٧ ـ ٢٣ .... ٣٩٢

الآيات: ٢٤ ـ ٣٦ .... ٣٩٣

الآيات: ٣٧ ـ ٤٠ .... ٩٩٤

الآيات: ٤١ ـ ٤٤ .... ٣٩٩

الآيات: ٤٥ ـ ٥٢ .... ٤٠٠

الآيتان: ٥٣ و٥٤ .... ٣٠٢

الآيات: ٥٥ ـ ٦١ .... ٤٠٢

الآيات: ٦٢ ـ ٦٦ .... ٤٠٣

الآيات: ٦٧ ـ ٧١ .... ٤٠٥

الآيتان: ٧٢ و٧٣ .... ٤٠٥

الآيات: ٧٤ ـ ٧٩ .... ٤٠٦

الآيات: ٨٠ ـ ٨٢ .... ٤٠٧

الآيات: ٨٣ ـ ٨٦ .... ٤٠٨

الآيات: ٨٧ ـ ٨٩ .... ٤٠٨

الآيات: ٩٠ ـ ٩٤ .... ٤٠٩

الآيات: ٩٥ ـ ٩٧ .... ٤١٠

الآيات: ٩٨ ـ ١٠٤ .... ٤١١

الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٨ .... ٤١٢

الآيات: ١٠٩ ـ ١١٢ .... ٤١٢

الآيتان: ١١٣ و١١٤ .... ٤١٣

الآيات: ١١٥ ـ ١٢٣ .... ٤١٤

الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٩ .... ٤١٥

الآيتان: ١٣٠ و١٣١ .... ٤١٦

Marfat.com

الآيات: ١٣٢ ـ ١٣٥ .... ٤١٨

سورة الأنبياء

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٤١٩
الآيات: ٤ ـ ٦ .... ٤١٩
الآيات: ٧ ـ ٩ .... ٤٢٠
الآيات: ١٠ ـ ١٢ .... ٤٢١
الآيات: ١٣ ـ ١٧ .... ٤٢١
الآيات: ١٨ ـ ٢٣ .... ٤٢٢
الآيات: ٢٤ ـ ٢٨ .... ٤٢٣
الآيتان: ٢٩ و٣٠ .... ٤٢٤
الآيات: ٣١ ـ ٣٥ .... ٤٢٥
الآية: ٣٦ .... ٤٢٦
الآيات: ٣٧ ـ ٤٠ .... ٤٢٦
الآيات: ٤١ ـ ٤٣ .... ٤٢٧
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ .... ٤٢٧
الآيات: ٤٧ ـ ٥٠ .... ٤٢٨
الآيات: ٥١ ـ ٦٠ .... ٤٢٩
الآيات: ٦١ ـ ٦٧ .... ٤٣١
الآيات: ٦٨ ـ ٧١ .... ٤٣١
الآيتان: ٧٢ و٧٣ .... ٤٣٢
الآيتان: ٧٤ و٧٥ .... ٤٣٣
الآيتان: ٧٦ و٧٧ .... ٤٣٣
الآيتان: ٧٨ و٧٩ .... ٤٣٣
الآيات: ٨٠ ـ ٨٢ .... ٤٣٥
الآية: ٨٣ .... ٤٣٥
الآية: ٨٤ .... ٤٣٧
الآيتان: ٨٥ و٨٦ .... ٤٣٨
الآيتان: ٨٧ و٨٨ .... ٤٣٨
الآيات: ٨٩ ـ ٩١ .... ٤٣٩
الآيات: ٩٢ ـ ٩٤ .... ٤٤٠
الآيات: ٩٥ ـ ٩٩ .... ٤٤١
الآيات: ١٠٠ ـ ١٠٣ .... ٤٤٣
الآية: ١٠٤ .... ٤٤٤
الآيات: ١٠٥ ـ ١١٢ .... ٤٤٤

سورة الحج

الآيتان: ١ و٢ .... ٤٤٧
الآيات: ٣ ـ ٦ .... ٤٤٨
الآيات: ٧ ـ ١٠ .... ٤٥٠
الآية: ١١ .... ٤٥٠
الآيات: ١٢ ـ ١٥ .... ٤٥١
الآيتان: ١٦ و١٧ .... ٤٥٢
الآية: ١٨ .... ٤٥٣
الآيات: ١٩ ـ ٢٢ .... ٤٥٣
الآيتان: ٢٣ و٢٤ .... ٤٥٤
الآية: ٢٥ .... ٤٥٥
الآيتان: ٢٦ و٢٧ .... ٤٥٥
الآيتان: ٢٨ و٢٩ .... ٤٥٧
الآيتان: ٣٠ و٣١ .... ٤٥٨
الآيات: ٣٢ ـ ٣٥ .... ٤٥٩
الآيتان: ٣٦ و٣٧ .... ٤٦٠

Marfat.com

الآيات: ٣٨ ـ ٤١ .... ٤٦١
الآيات: ٤٢ ـ ٤٥ .... ٤٦٣
الآيات: ٤٦ ـ ٤٨ .... ٤٦٣
الآيات: ٤٩ ـ ٥١ .... ٤٦٤
الآيات: ٥٢ ـ ٥٤ .... ٤٦٤
الآيات: ٥٥ ـ ٥٧ .... ٤٦٦
الآيتان: ٥٨ و٥٩ .... ٤٦٧
الآيات: ٦٠ ـ ٦٢ .... ٤٦٧
الآيات: ٦٣ ـ ٦٦ .... ٤٦٨
الآيات: ٦٧ ـ ٧١ ....
الآيتان: ٧٢ و٧٣ .... ٤٧٠
الآيات: ٧٤ ـ ٧٦ .... ٤٧٠
الآيتان: ٧٧ و٧٨ .... ٤٧١

سورة المؤمنون

الآيات: ١ ـ ٧ .... ٤٧٣
الآيات: ٨ ـ ١١ .... ٤٧٤
الآيات: ١٢ ـ ١٤ .... ٤٧٥
الآيات: ١٥ ـ ٢٠ .... ٤٧٦
الآيتان: ٢١ و٢٢ .... ٤٧٨
الآيات: ٢٣ ـ ٢٥ .... ٤٧٨
الآيات: ٢٦ ـ ٣٠ .... ٤٧٨
الآيات: ٣١ ـ ٣٥ .... ٤٧٩
الآيات: ٣٦ ـ ٤٣ .... ٤٨٠
الآيات: ٤٤ ـ ٤٨ .... ٤٨١
الآيات: ٤٩ ـ ٥٣ .... ٤٨١
الآيات: ٥٤ ـ ٦١ .... ٤٨٣
الآيات: ٦٢ ـ ٦٧ .... ٤٨٤
الآيات: ٦٨ ـ ٧٤ .... ٤٨٦
الآيات: ٧٥ ـ ٧٧ .... ٤٨٦
الآيات: ٧٨ ـ ٨٧ .... ٤٨٧
الآيات: ٨٨ ـ ٩٠ .... ٤٨٨
الآيات: ٩١ ـ ٩٥ .... ٤٨٨
الآيات: ٩٦ ـ ٩٨ .... ٤٨٩
الآيات: ٩٩ ـ ١٠٥ .... ٤٨٩
الآيات: ١٠٦ ـ ١١١ .... ٤٩٠
الآيات: ١١٢ ـ ١١٦ .... ٤٩٢
الآيتان: ١١٧ و١١٨ .... ٤٩٢

سورة النور

الآيتان: ١ و٢ .... ٤٩٤
الآيات: ٣ ـ ٥ .... ٤٩٥
الآيات: ٦ ـ ١٠ .... ٤٩٧
الآية: ١١ .... ٤٩٩
الآيات: ١٢ ـ ١٥ .... ٥٠٢
الآيات: ١٦ ـ ٢٠ .... ٥٠٣
الآيتان: ٢١ و٢٢ .... ٥٠٤
الآيات: ٢٣ ـ ٢٦ .... ٥٠٥
الآيات: ٢٧ ـ ٢٩ .... ٥٠٦
الآيتان: ٣٠ و٣١ .... ٥٠٧
الآيات: ٣٢ ـ ٣٤ .... ٥١٠
الآية: ٣٥ .... ٥١٢

Marfat.com

الآيات: ٣٦ ـ ٣٨ .... ٥١٤
الآيتان: ٣٩ و٤٠ .... ٥١٥
الآيات: ٤١ ـ ٤٤ .... ٥١٧
الآيتان: ٤٥ و٤٦ .... ٥١٨
الآيات: ٤٧ ـ ٥١ .... ٥١٩
الآيات: ٥٢ ـ ٥٤ .... ٥٢٠
الآية: ٥٥ .... ٥٢١
الآيات: ٥٦ ـ ٥٩ .... ٥٢٢
الآية: ٦٠ .... ٥٢٣
الآية: ٦١ .... ٥٢٤
الآيات: ٦٢ ـ ٦٤ .... ٥٢٦

سورة الفرقان

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٥٢٨
الآيات: ٤ ـ ٩ .... ٥٢٩
الآيات: ١٠ ـ ١٤ .... ٥٣٠
الآيتان: ١٥ و١٦ .... ٥٣٠
الآيات: ١٧ ـ ١٩ .... ٥٣٢
الآية: ٢٠ .... ٥٣٣
الآيات: ٢١ ـ ٢٤ .... ٥٣٣
الآيتان: ٢٥ و٢٦ .... ٥٣٥
الآيات: ٢٧ ـ ٣١ .... ٥٣٥
الآيات: ٣٢ ـ ٣٤ .... ٥٣٧
الآيتان: ٣٥ و٣٦ .... ٥٣٨
الآيتان: ٣٧ و٣٨ .... ٥٣٨
الآيات: ٣٧ ـ ٣٩ .... ٥٣٨
الآيات: ٤٠ ـ ٤٢ .... ٥٣٩
الآيات: ٤٣ ـ ٤٦ .... ٥٤٠
الآيات: ٤٧ ـ ٥٢ .... ٥٤١
الآيات: ٥٣ ـ ٥٧ .... ٥٤٢
الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ .... ٥٤٣
الآيات: ٦١ ـ ٦٧ .... ٥٤٣
الآيات: ٦٨ ـ ٧٠ .... ٥٤٥
الآيات: ٧١ ـ ٧٧ .... ٥٤٧

سورة الشعراء

الآيات: ١ ـ ٦ .... ٥٤٩
الآيات: ٧ ـ ٩ .... ٥٥٠
الآيات: ١٠ ـ ١٥ .... ٥٥١
الآيات: ١٦ ـ ٢٢ .... ٥٥١
الآيات: ٢٣ ـ ٣٣ .... ٥٥٣
الآيات: ٣٤ ـ ٥١ .... ٥٥٤
الآيات: ٥٢ ـ ٦٢ .... ٥٥٥
الآيات: ٦٣ ـ ٦٨ .... ٥٥٦
الآيات: ٦٩ ـ ٨٥ .... ٥٥٦
الآيات: ٨٦ ـ ٨٩ .... ٥٥٧
الآيات: ٩٠ ـ ١٠١ .... ٥٥٩
الآيات: ١٠٢ ـ ١١٠ .... ٥٦٠
الآيات: ١١١ ـ ١٢٢ .... ٥٦١
الآيات: ١٢٣ ـ ١٣٢ .... ٥٦١
الآيات: ١٣٣ ـ ١٤٠ .... ٥٦٢
الآيات: ١٤١ ـ ١٥٣ .... ٥٦٣

Marfat.com

الآيات: ١٥٤ ـ ١٥٩ .... ٥٦٤
الآيات: ١٦٠ ـ ١٧٥ .... ٥٦٥
الآيات: ١٧٦ ـ ١٨٠ .... ٥٦٥
الآيات: ١٨١ ـ ١٩١ .... ٥٦٦
الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٩ .... ٥٦٧
الآيات: ٢٠٠ ـ ٢٠٧ .... ٥٦٨
الآيات: ٢٠٨ ـ ٢١٣ .... ٥٦٨
الآيات: ٢١٤ ـ ٢٢٠ .... ٥٦٩
الآيات: ٢٢١ ـ ٢٢٧ .... ٥٧٠

سورة النمل

الآيات: ١ ـ ٦ .... ٥٧٢
الآية: ٧ .... ٥٧٣
الآيات: ٨ ـ ١٢ .... ٥٧٣
الآيتان: ١٣ و١٤ .... ٥٧٥
الآيات: ١٥ ـ ١٩ .... ٥٧٥
الآيتان: ٢٠ و٢١ .... ٥٧٧
الآيات: ٢٢ ـ ٢٦ .... ٥٧٨
الآيات: ٢٧ ـ ٣٣ .... ٥٧٩
الآيات: ٣٤ ـ ٣٨ .... ٥٨١
الآيات: ٣٩ ـ ٤١ .... ٥٨٢
الآيات: ٤٢ ـ ٤٤ .... ٥٨٤
الآيات: ٤٥ ـ ٤٩ .... ٥٨٥
الآيات: ٥٠ ـ ٥٣ .... ٥٨٧
الآيات: ٥٤ ـ ٥٩ .... ٥٨٧
الآيات: ٦٠ ـ ٦٤ .... ٥٨٩
الآيات: ٦٥ ـ ٦٨ .... ٥٩٠
الآيات: ٦٩ ـ ٧٩ .... ٥٩١
الآيتان: ٨٠ و٨١ .... ٥٩٢
الآية: ٨٢ .... ٥٩٢
الآيات: ٨٣ ـ ٨٦ .... ٥٩٣
الآيات: ٨٧ ـ ٩٣ .... ٥٩٤

سورة القصص:

الآيات: ١ ـ ٤ .... ٥٩٧
الآيتان: ٥ و٦ .... ٥٩٨
الآيتان: ٧ و٨ .... ٥٩٨
الآيات: ٩ ـ ١١ .... ٥٩٩
الآيات: ١٢ ـ ١٤ .... ٦٠٠
الآيتان: ١٥ و١٦ .... ٦٠١
الآيات: ١٧ ـ ٢٢ .... ٦٠٢
الآيات: ٢٣ ـ ٢٥ .... ٦٠٣
الآيات: ٢٦ ـ ٢٩ .... ٦٠٥
الآيات: ٣٠ ـ ٣٢ .... ٦٠٦
الآيات: ٣٣ ـ ٣٥ .... ٦٠٦
الآيات: ٣٦ ـ ٣٨ .... ٦٠٨
الآيات: ٣٩ ـ ٤٢ .... ٦٠٩
الآيات: ٤٣ ـ ٤٥ .... ٦٠٩
الآيتان: ٤٦ و٤٧ .... ٦١٠
الآيات: ٤٨ ـ ٥٠ .... ٦١١
الآيات: ٥١ ـ ٥٥ .... ٦١٢
الآيتان: ٥٦ و٥٧ .... ٦١٣

Marfat.com

الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ .... ٦١٣
الآيات: ٦١ ـ ٦٦ .... ٦١٥
الآيات: ٦٧ ـ ٧٥ .... ٦١٦
الآيات: ٧٦ ـ ٧٨ .... ٦١٨
الآيات: ٧٩ ـ ٨٢ .... ٦٢٠
الآيات: ٨٣ ـ ٨٥ .... ٦٢٢
الآيات: ٨٦ ـ ٨٨ .... ٦٢٣

سورة العنكبوت

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٦٢٤
الآيات: ٤ ـ ٨ .... ٦٢٥
الآيات: ٩ ـ ١١ .... ٦٢٦
الآيات: ١٢ ـ ١٥ .... ٦٢٧
الآيات: ١٦ ـ ١٨ .... ٦٢٨
الآيات: ١٩ ـ ٢٢ .... ٦٢٩
الآيات: ٢٣ ـ ٢٥ .... ٦٢٩
الآيات: ٢٦ ـ ٣٠ .... ٦٣٠
الآيات: ٣١ ـ ٣٥ .... ٦٣٢
الآيتان: ٣٦ و٣٧ .... ٦٣٢
الآيات: ٣٨ ـ ٤٠ .... ٦٣٣
الآيات: ٤١ ـ ٤٤ .... ٦٣٤
الآيتان: ٤٥ و٤٦ .... ٦٣٥
الآيات: ٤٧ ـ ٥٠ .... ٦٣٦
الآيتان: ٥١ و٥٢ .... ٦٣٧
الآيات: ٥٣ ـ ٥٦ .... ٦٣٨
الآيات: ٥٧ ـ ٥٩ .... ٦٣٩
الآيات: ٦٠ ـ ٦٣ .... ٦٣٩
الآيات: ٦٤ ـ ٦٩ .... ٦٤٠

Marfat.com